

في النصِّ السَّعْرِيِّ العَرَبِيِّ

مقارنات منهجيّة



دار الآداب

في النص الشعري العربي

تلك

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٩

الدكتور سامي سويدان

في النص الشعري العربي

مقالات منهجية

دار الأداب - بيروت

الهداء

إلى ليليان . . .

في النص الشعري العربي . . .

- مدخل: تعريف . . .

مقدمة: في المنهج والنصوص والجدوى . . .

امرؤ القيس: ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي . . .

ليبد بن ربيعة: عفت الديار محلها فمقامها . . .

حسان بن ثابت: إن الذوائب من فخر وإخوتهم . .

أبو نؤاس: لأقطعن نياط الهمم بالكاس . . .

أبو تمام: متى أنت عن ذهلية الحبي ذاهل . . .

الفهرس

الصفحة	
٤	الاهداء
٧	تمهيد
٩	مقدمة
٢٩	الفصل الأول: قصائد أبي نواس مصابيح الشعر الروية
٩٣	الفصل الثاني: احتراف القصيد بين التكبسية والشعرية (الطائي)
١٦٥	الفصل الثالث: من الشعر النضالي الملتزم (الانصاري)
٢٠١	الفصل الرابع: النص المعلق على منعطف المرحلة (العامري)
٢٧٥	الفصل الخامس: ملكوت الكلام على سفار الشهوة والموت (الكندي)

تهديد

تشكل الفصول المتضمنة في هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الخاصة بنصوص من الشعر العربي القديم، إذ تقتصر على تناولها لقصائد أنجزت بين القرنين السادس (أو أواخر القرن الخامس مع لامية امرئ القيس) والتاسع (مع لامية أبي تمام في ابن الزيات). إلا أن هذه السمة المشتركة العامة للموضوعات المعالجة ليست هي التي تبرر اجتماعها هنا بقدر ما يبره منهج البحث المعتمد في مقاربتها. كان تقديم طريقة منهجية في دراسة النص الشعري العربي يتصدر قائمة الأولويات في خلفيّة الدوافع الأساسية التي أدت إلى هذه الدراسات، هذا إن أمكن فصل هذه الأولوية عن سواها.

إن بلورة منهج دراسي خاص بالشعر العربي تقوم بشكل رئيس على إظهار ما يتحده من قدرة على تبيين القيمة الجمالية والأبعاد الدلالية لنصوص هذا الشعر، فتكون على هذا النحو بلورة لشعرية النصوص المذكورة، بقدر ما تكون مناسبة لتأكيد أهمية العمل المنهجي عامة في بلوغها وارتداد نصوص وأبعاد أخرى. لكن وحدة المنهج الذي توضح المقدمة بالإجمال مرتكزاته ومراميه لا تحول دون تعددية إجراءاته التفصيلية. هكذا قد يأتي البحث في مبدأ التكافؤ أو التعادل الذي يحكم شعرية القصيدة متابعه لتناسب المستويات المختلفة المكوّنة لها في كل قسم من أقسام تشكّلها البنيوي (كما هو الحال مع معلقة لبيد مثلاً)، كما قد يتم عبر تناول هذه المستويات المكوّنة تبعاً في التشكل البنيوي الكلي للقصيدة (كما هو الحال مع قصيدة أبي نواس مثلاً)؛ ربما كان حجم النص عاملاً حاسماً في اعتياد الصيغة المناسبة له هنا. كما قد يجري تقديم مستوى على آخر في عملية البحث المذكورة، فإذا كان المستوى الإيقاعي هو الذي يرد مباشرة إثر المستوى الدلالي غالباً، فإن ذلك لا يمنع تقدم المستوى النحوي عليه أحياناً؛ قد يكون الاختيار هنا عائداً إلى ما يظهره أحد المستويات من تلاؤم بنيوي مع سابقه أكبر من ذلك الذي يحظى به لاحقاً. في ما يتعلّق بهذا الانتظام الداخلي للمستويات أو بذاك التأليف الكلي لها لا يتعدى الأمر نطاق التبدّل الشكلي في إطار وعلى قاعدة المنهج الواحد نفسه، وهو يشكّل دليلاً على مرونة هذا المنهج ليستجيب بشكل خاص لتطلّبات النص وخيارات دارسه.

في الفصول اللاحقة لم يجرِ اهتمام بتقديم الأوضاع الاجتماعية والتاريخية التي أنتجت نصوص الدراسات فيها، ولا بمتابعة الحياة الشخصية لأصحاب هذه النصوص في أحداثها وتفاعلاتها، باعتبار أن بإمكان القارئ العودة إلى المصادر المناسبة للاطلاع عليها والتعرف إلى تفاصيلها، عدا عن أنها ليست من مهمة الدراسات النصية الواردة هنا أساساً. فهذه الأخيرة تقتصر على معالجة النص وحسب، وتكاد تحصر ههنا في الإصغاء إلى قوله، مع ذلك لم تغفل بعض الإلمامات إلى تلك الأوضاع والأحداث العامة والخاصة، حيث بدأ ذلك ضرورياً لاستتباب المعالجة المذكورة. من نافل القول إن المعطيات الموضوعية والذاتية تبقى على الدوام مضمرة في خلفية النظر في النصوص لا تكف عن إنارة دروبها وقسماتها له.

إن الفصول التالية إذ يستقل كل منها بدراسة نصية واحدة تتمتع باستقلالية الواحد منها عن الآخر، تتيح للقارئ إمكان تجاوز الترتيب الذي تأتي عليه. بيد أن هذا الترتيب لا يعد مغزى يبره. إذ لما كان من الأفضل البدء بالمقدمة التي تضيء الطرح النظري الشامل. الذي يمكن لمجمل الدراسات أن تندرج فيه، فإن التفصيل الذي عرفه تحديد أساليب المقاربة المنهجية لنص أبي نؤاس والذي لا يتكرر بصدد نصوص أخرى، يقدم، بالإضافة إلى صغر حجم النص وبساطة تراكيبه وسهولة مفرداته نسبياً، الأسباب التي جعلت دراسة النص المذكور تصدّر بقية الدراسات الأخرى. إن هذه الأخيرة تتابع إثره بناء لما يمكن اعتباره مقياساً تاريخياً، حيث إن مجيئها يأتي بحسب مدى قرب نصوصها من هذا النص الأول. هكذا أتت دراسة نص أبي تمام، الأقرب زمنياً إلى أبي نؤاس، في الفصل الثاني، ثم تلتها بقية الدراسات متدرّجة من تلك الخاصة بنص حسان بن ثابت إلى تينك الخاصتين بمعلقة ليبيد بن ربيعة ولامية امرئ القيس تبعاً.

لا تفرض هذه الاعتبارات تحكّمية لا تترك مناصاً في التزام الترتيب الأنف الذكر، وهي إنما تذكر هنا لتتيح المجال لمن يأخذ به أو لمن يتخطاه أن يكون على بيّنة من المنطق الذي أملاه. ليس هناك بالتالي ما يمنع صاحب الهاجس التاريخي مثلاً أن يعتمد وجهة مخالفة قد تبدأ بالفصل الأخير (الدراسة الخاصة بنص امرئ القيس)، وتنتهي بالفصل الثاني (الدراسة الخاصة بنص أبي تمام) ملتزمة التدرّج التاريخي. كما ليس هناك ما يمنع قراء آخرين من اعتماد مقياس أخرى وترتيبات مختلفة. عليها تكون، على أي نحو جاءت، مناسبة لإعادة نظر في هذه الدراسات وتجاوزها في الوقت نفسه.

مقدمة

* يبدي درس النصوص الشعرية أنها غير مكتفية بذاتها. ليس بالمعنى التعريفي الذي يميزها عن سواها من النصوص الغرضية الأخرى، وإنما بمعنى الفاعلية الشعرية التي تؤديها. فإذا كان هناك شبه إجماع على اعتبار النص الشعري لازماً، قائماً بذاته، مقابل النصوص الأخرى المتعدية، المتجهة لتحقيق غايات أو أهداف تتجاوزها، فإن بالإمكان قبول هذا الطرح على أساس كونه معبراً عن وجود هذا النص في ذاته، على أن وجوده لذاته لا يمكن له إلا أن يتخطى حدود الذات المغلقة إلى انفتاح على الآخر يشترط تحقيقه.

في هذا النص الآخر تحديداً يحتل نصُّ البحث الخاص بدرس النصوص الشعرية موقعاً محظياً بامتياز. ذلك أن فيه وعبره، دون سواه، تستقيم جدلية الذات بالآخر على أرفع مستويات تحقيقها. فخلافاً للنصوص الأخرى، بدءاً من النصوص الشعرية المختلفة وصولاً إلى النصوص الإعلانية، ومروراً بذلك الخضم الواسع من النصوص التي تؤلف الفضاء الثقافي العام، المتزامن والمتعاقب، المعاصر والموروث، يبرز نصُّ البحث الشعري على أنه، بالنسبة للنص الشعري، النصُّ التفاعلي بامتياز. تقوم بينها علاقة جدلية إيجابية يسعى كل منهما فيها للإجابة عن أسئلة الآخر بقدر ما يجيب عن أسئلته الخاصة فيما هو يطرح على الآخر أسئلة مختلفة. في حين تجري عملية تفاعل النص الشعري مع بقية النصوص الشعرية في حركة وحيدة الاتجاه، ومع بقية النصوص الأخرى في إطار انتقائي وغير تبادلي على المستوى نفسه، تتم هذه العملية مع نصُّ البحث في جدول متعدد المستويات لا يكف عن التنامي والطموح إلى التكامل.

إذا كان من المسلّم به أنّ النصُّ البحثي يشترط النصُّ الشعري باعتباره موضوعاً أولاً، فما يبدو أقلّ تسليماً اعتبار النصُّ الشعري مشروطاً بدوره بالنصُّ البحثي. إنما يكفي النظر في التحقق الإبداعي للأول (الشعري) للاستدلال على أن الثاني (البحثي) قوامه الفعلي. إن الإبداعية الشعرية لنص، وإن كانت معطى ذاتياً قائماً فيه، لا تتحقق فعلياً إلا عبر البحث

الذي يخرجها من حيز الإمكان إلى حيز الواقع، ومن مدار الاحتمالات والافتراضات والتوقعات إلى مجالات الإنشاء والتكوين والبلورة، من حدود الانفعال المباشر والمحصور والجامد إلى آفاق التفاعل القصي والمفتوح والمتجدد.

قد توميء علاقة النص البحثي بالنص الشعري إلى تماثل، لا تطابق، بينها وبين علاقة هذا الأخير بالنصوص الثقافية الأخرى. فكما أن النص الشعري يقوم على تمثل ذلك الكلام المترددة أصواته في أطر ثقافية ومعرفية غير محدودة ليصوغ من أصداثها لديه إبداعته الخاصة، يتقدم النص البحثي من النصوص الشعرية لينجز من هويلا هذه الإبداعية المبهمة واللاواعية المادة الحية والفاعل والحلاقة التي ترهص بها. لكن هذا التقريب، إذ لا يستفد خصوصية العلاقة الجدلية بين هذين الطرفين، خاصة في ما ينتهي إليه النص الشعري من ثبات مقابل تغير مقاربات النص البحثي وتجددها، لا يحول دون تصور حيوي لإنجاز هذا الأخير المادة الإبداعية المتعددة من الهويلا الواحدة، كصورة أخرى من صور الماثلة، لا المطابقة، بين الإبداع الشعري والإنجاز البحثي.

* إن درس النصوص متفاوت، وهو في الأعم الغالب قاصر. ربما كئنا هذا الوضع مؤشراً على كون الإبداعية القائمة في النصوص الشعرية لم تستخرج نفاثتها ومكنزاتها الثرية كما يفترض ذلك. فتبدو كالداهليز والمتأهات العميقة والبعيدة لم يكتشف منها إلا بعض نواحيها، وبقي معظمها مغلقاً على مرتادها لقصورهم وقصور وسائلهم عن بلوغها. تبقى النصوص الجمالية منطوية على أسرارها بانتظار من يحسن استدراجها واستيلاها مكنوناتها. ذلك أنها لا تبوح بها إلا لمن يحسن استنطاقها. ولا يمكن أن يقوم بذلك من يستعيدها، غالباً بطريقة سطحية، فيؤديها من جديد بلغة مختلفة هي لغته، توهاً منه، أو توهمياً لسواه، أنه بذلك ينجز بحثاً، إن لم يدع أنه يحدث كشفاً.

قد تشكل قراءة النص الشعري، خاصة إذا جاءت ذكية، تقديماً مناسباً له، تستثير التطلع إلى معرفته وتجلي إبداعته، لكنها لا تنتمي إلى دائرة بحثه أو درسه. كما أن التعليق، مهما بلغ في بعض تجلياته النادرة من استشفاف لجوانب إبداعية أو أبعاد دلالية، لا يعدو أبواب الدائرة المذكورة. والمؤسف أن يكون طاعياً في المقاربات النصية، والمأساوي أن يأتي في معظم الأحيان بدائياً أو انفعالياً. ذلك أن درس النصوص الشعرية إما أن يكون درساً منهجياً أو لا يكون.

إن الدرس المنهجي المقصود هو ذلك الذي يتم على هدي منهج في البحث والتعليل والاستنتاج، يستند إلى طريقة فعالة في سبر النصوص وبلوغ كنوزها وأسرارها، وإلى مفاهيم

عددة وناجعة خاصة بهذا المنهج وطريقته الاستدلالية؛ منهج يتوصل في اعتماده إلى نتائج محكمة الدقة يستبعد إن لم يستحل بلوغها بطريقة وبمفاهيم أخرى غير تلك المستنبطة والمستعملة من قبله. هذا الدرس المنهجي للنصوص الذي يستحق وحده اسم الدرس أو البحث النصي، هو وحده كذلك الذي يأتي بقراءة مناسبة. لأنه يتيح أكبر قدر ممكن من الموضوعية في الرؤية، ومن التماسك في العرض، ومن الابتعاد عن المزاجية والانفعالية. بذلك يتقدم مبدئياً كضامن لفهم سليم للنص، وهو إن لم يقدم غير هذه «الماترة» فإنها تشكل مبرراً كافياً لضرورة اللجوء إليه إزاء ما يعم المقاربات النصية من تحريف وتشويه.

بيد أن آثار الدرس المنهجي للنصوص تتعدى إجمالاً قراءة النص. إذ إن هذه القراءة، عدا كونها بالذات قراءة متعددة بتعدد المناهج، ليست سوى الخطوة الأولى أو المرحلة الأولى في عملية التعامل التي تجري بين هذه المناهج وتلك النصوص. وتمضي هذه العملية من استقصاء كوامن الإبداعية القائمة في تفاصيل النص إلى تقصي الأبعاد الدلالية التي تعمه، بحيث تفتح على أكثر من ميدان جمالي وثقافي بل واجتماعي وذاتي.

ضمن هذا المنظور تصبح الدراسة النصية مناسبة لإعادة النظر على أكثر من مستوى بالظروحات والنظريات الشعرية بقدر ما تكون مناسبة لتفتح مستمر ليس على صعيد العمل الإبداعي وحده، وإنما أيضاً على صعيد العمل الثقافي وامتداداته ككل. بل إنها الشرط الذي يطمس ويتجاوز غالباً في محاولات الطرح والتنظير الشعريين السائدة، وهي اليوم أكثر إلحاحاً من السابق نظراً لما تراكم من مغالطات في فهم النصوص ومقارباتها، مغالطات تجعل الأبحاث التصنيفية المختلفة أو الدراسات الإجمالية والتقويمية موضع إعادة نظر بالضرورة.

* لا يعني، مع ذلك، توصل الدرس المنهجي للنص إنجازاً نهائياً وخاتمة بآته في عملية مقارنته. إنما لا يعبر هذا الوضع هنا عن قصور كالذي أشرنا إليه آنفاً، بل عن نضج حريّ يمتدحه أن تبلغه مراميه. إذ لما كانت العلاقة التي يقيمها هذا الدرس مع النص علاقة جدلية، فإنها لا تفضي إلى انغلاق، وإنما إلى تطور جديد يفسح المجال له ما تم بناؤه وتحقيقه فيها. على هذا النحو تكون هذه العلاقة الجدلية ديناميكية مستمرة لا تنقطع. وبناء عليه يصبح إطلاقها مهمة ضرورية وتاريخية في آن. إنها تفرض نفسها كمخرج وحيد من هذا الردب الذي قضت به المقاربات اللامنهجية للنص أو أفضت إليه. لكنها أيضاً مسؤولة التزام ثقافي وجمالي يفرضها التداخل الشعري - الثقافي - الفكري من ناحية، وإلحاح المتطلبات النهضوية - التحريرية - التطويرية من ناحية ثانية.

ربما كان من المفترض بنا التذكير بخصوصية الموقع الذي يحتله النص الشعري العربي تاريخياً في الحضارة والتراث العربيين، والذي يشغله اليوم في الثقافة والقرن العربيين، لتبين

مدى خطورة القضايا التي تطرحها عملية درس النصوص الشعرية. إن هذه العملية التي تبدو في بلد آخر شأنًا هامشيًا بعيداً عن الاهتمامات الثقافية والفنية التي تستقطبها نشاطات أخرى كالرواية والمسرح أو الموسيقى، أو شأنًا تقنياً محدوداً في قطاع متخصص إلى جانب قطاعات أخرى أكثر أو أقل أهمية، تتقدم في معظم بلادنا العربية وكأنها تعالج شأنًا خطيراً ومصيرياً. إذ يربط الشعر هنا، أكثر من أي نتاج لغوي آخر، بحيوية اللغة وديناميكيته والمسائل التي يطرحها عليها وضعها في مواجهة الاستعمار أو التبعية الثقافية والأدبية، والانحطاط أو التخلف الاجتماعي والفكري. كما يندرج في سياق تاريخي يتحدّر من مرحلة ذات طابع ديني غالب إلى مرحلة ذات طابع قومي غالب، لعباً، في تلازم وثيق مع اللغة، في الأولى دوراً مرجعياً حاسماً، وأدبياً في الثانية مهمة انبعائية يصعب فصلها عن تأكيد الهوية الذاتية.

على ضوء هذه المعطيات يجدر فهم ردة الفعل التي واجهها طه حسين على كتابه: في الشعر الجاهلي، عام 1926، ردة فعل قادتها المؤسسة الدينية الثقافية السائدة في مصر آنذاك، وتولتها المؤسسة السياسية الحاكمة بالإجراءات التي اتخذت ضد هذا الباحث⁽¹⁾. وليس من المستبعد أن يكون انتعاش الحركات الدينية المتعصبة اليوم مناسبةً لمواقف أكثر تشنّجاً وانغلاقاً وعدوانية من أي محاولة إعادة نظر بما تعتبره مسلمات نهائية مقدسة أو محرمة لا يجوز مسّها فكيف نسفها... بل إن الأمر قد يضحى أخطر من ذلك بكثير حين ينتقل أولئك المترمّتون والرجعيون من الدفاع إلى الهجوم، كما حصل في مصر السنة الماضية حين سعى بعض رجال الدين والحركات السلفية من هؤلاء إلى تحريم قراءة كتاب ألف ليلة وليلة وتداوله داعين السلطات إلى منعه ومصادرته.

بيد أن تجربة طه حسين - وهي ليست إلا عيّنة بارزة وحسب - لا تقتصر على هذا الجانب وحده، فهي تتضمن، بالإضافة إلى عناصر عدة أخرى، جانباً آخر يوازيه إن لم يتجاوزه أهمية يتمثل في تلك الاستفادة المتحصّلة من الأطلاع على المناهج المعرفية الأجنبية الحديثة. وكما هو حال الجانب الأول، لم يتوقّف أثر هذا الجانب الثاني على طه حسين وحده،

(1) كان للحملة المسعورة التي شنتها المؤسسات الدينية والمحافظات ومن يدور في فلكها من رجال دين وفكر وسياسة إثر ظهور كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي (القاهرة دار الكتب المصرية 1926) في مصر أن تؤدي إلى مصادرة الكتاب وتهديد حياة صاحبه ونفيه من بلده، إلى أن تمت تسوية القضية (؟) وأخرج طه حسين كتابه في طبعة ثانية في العام التالي تحت عنوان جديد في الأدب الجاهلي (القاهرة، دار المعارف بمصر) مشيراً بإبهام في مقدمتها إلى وجه من أوجه التسوية المذكورة بقوله: «هذا كتاب السنة الماضية، حذف منه فصل وأثبت مكانه فصل وأضيفت إليه فصول، وغير عنوانه بعض التغيير...» (المرجع السابق ص 5).

بل إنه دفع، وما زال إلى حد كبير، مراحل النهضة العربية المختلفة بقوة وعمق بحيث يمكن القول إنه كان في صلب كل حركة تجديد أو تحديث عرفتها هذه النهضة على أي مستوى كان. وهو قد خضع دوماً، معه كما مع سواه، إضافة إلى كونه متعدّد المصادر بتعدّد الارتباطات، لعمليات تطويع وقولية وتوليف تأثرت بثقافة الباحث ومعطيات الموضوع بشكل خاص؛ فجاء في إداثة العملي يحفل بالانزياحات والالتواءات والمواجهات المختلفة التي كان للمعطيات التاريخية والطبقية والميدانية والشخصية أن تولدها فيه.

* يبدو الوضع القائم في دراسة النصوص الشعرية اليوم إذن مفارقاً. فهذه النصوص، خاصة القديمة منها، ذات قيمة نادرة لغوياً وحضارياً وثقافياً ودينيّاً وسياسياً... من جهة، وهي تعامل عبر مقارباتها المتعددة بطرق وأساليب متردية وبالية وعقيمة غالباً، وتواجه محاولات تغييرها المعدودة والمتعثرة صفاقة المؤسسات المسيطرة والنافذة وغباءها وظلاميتها بدءاً من المؤسسات التعليمية حتى الإعلامية مروراً بالثقافة الدينية والسياسية... من جهة ثانية. ربما كانت محاولتنا تقديم دراسة منهجية لهذه النصوص القديمة سعياً لتجاوز المفارقة المذكورة، لكنها، عدا كونها لا تقتصر عليه، لا تعتبره مهماً الأول.

إن هذا المهم الأول طموح مزدوج بالضرورة. إنه تطلّع للخلاص من هذه المقاربات السائدة للنصوص الشعرية القديمة تحديداً، والتي تكاد تنحصر في عمليات شرح وتعليق تتفاوت بين السطحية الساذجة والتحريفات المضحكة أو المبكية، وهي مضمخنة في معظم الأحيان بذاتية نافرة تشكل بالتأكيد ميداناً خصباً لدراسات تحليلية نفسية أو اجتماعية- تاريخية، لكنها لا تشكل على الإطلاق مرجعاً موثوقاً في معرفة النصّ وفهمه بصورة واعية ومعتمّة. فهي، إن صدف وأصاب في بعض إطلاقاتها أحكاماً سليمة في جوانب تفصيلية من النص، تأتي غالباً بتحريفات وتشويبات عديدة له. إلا أن خطرها الأساسي يكمن في تسلسلها وتجاوبها وتضافرها فيما بينها، حتى أنها أصبحت مؤسسة مستقرة وقوية لها أعلامها ومريدوها وأتباعها الموزعون في مراكز السلطة والقرار والتأثير الأكثر حسماً (في المدارس والمعاهد والجامعات كما في وسائل النشر والإعلام...) تقاوم بشراسة وعنف أي محاولة للنيل من الأسس التي ترتكز عليها⁽²⁾. وهي لا تُعنى بالشعر القديم وحسب، بل إن شبكة نشاطاتها

(2) ستكون لنا في سياق دراسة النصوص المتفرقة لاحقاً فرصة التعرّض لبعض نماذج هذه المؤسسة. ولكي لا يبقى الحديث هنا عاماً نلجأ إلى عينة من المقاربات المذكورة، مع الإشارة إلى أن حقيقة دلالتها تفتقر إلى العودة إلى سياقها في النص الواردة فيه.

من ذلك ما يذكره طه حسين بصدده تشبيه لبديد في معلقته للناقة بالسحابة ثم بالأتان ثم بالبقرة الوحشية، وذلك في حديث الشاعر عن قطع العلاقة بين فسد وصله... فيقول: «يُجِيلُ لِي أَنَّهُ إِنَّمَا انْحَدَّ نَاقَتُهُ تَمَلُّ =

= ليتغنى ببعض المناظر الجميلة التي كانت تشيع في الصحراء، وليعرضها عليك وعلى أمثالك عرضاً سريعاً هادئاً معاً، كأنك تراها في دقتر من دقاتر الصور إن شئت، وكأنك تراها على لوحة من لوحات السنينما إن أحببت» ثم يضيف: «عل أن تشبه الناقة بالسحاب الخفيف، وبالأتان ذات القصة الراتمة، التي تعرض عليك من مناظر الطبيعة في الصحراء ما تعرض، لا يكفي صاحبي، كأنه أحس أنه لا يكفيك، وكأنه أحس أنك في حاجة إلى قصة أخرى، وإلى مناظر أخرى؛ وكأنه أحس أن قصة الأتان قد أصعبتكم، فهو يريد أن يزيد من إعجابك...» قيل أن يعلن لاحقاً: «فأنت تراه قد وصل إلى ناقته وصولاً يسيراً، لا تكلف فيه، ولا تصنع، ولا جهد فيه ولا مشقة، إنما انتهى إليها كما تنتهي أنت إلى سيارتك في مدينتك هذه المتحضرة، حين يضيئ بك الأمر، وتزدحم على نفسك المموم...» الخ (طه حسين: حديث الأربعاء 3 أجزاء) الجزء الأول - الطبعة الثامنة، القاهرة، دار المعارف بمصر د. ت. ص 23 و 25 و 34 تبعاً).

قارن ما ورد هنا وفي المرجع المذكور عن لبيد بالدراسة اللاحقة عن هذا الشاعر للتحرف إلى هذا الجانب الأول من الطموح المزودج الذي تناوله. وتابع ما يمكن تسميته «مدرسة طه حسين» لدى محمد النويبي مثلاً، الذي لا يكتبني بدعوة القارئ في سياق دراسته لإحدى قصائد زهير بن أبي سلمى:

«هنا من آل فاطمة الجواء فيمن فالقوادم فالخساء»
إلى طريقة طريقة في فهم النص حين يطلب منه أن يبذل جهده في تحيل مغزى الأبيات الثلاثة المتشابهة العظيم وهو يردد موسيقاها، قائلاً: «وطريفتك إلى هذا التخيل أن تستبدل بها أسماء من ذكريات صباك وأول شبائك، وأن تتأمل مدى عمق مغزاها وتكثيف شحنتها» بل يسارع هو نفسه إلى القيام بذلك «فتذكر من صباه في قرنته المصرية الترفة الصغيرة التي كان يستحم فيها خلصة ويضرب كلما ضُبط أو وثى به واش إلى أهله. والترعة الكبيرة التي كانت تروعه فيعجب عن يستطيع سباحتها من الرجال الأقوياء. والنساء يملأن منها الجرار. والفتيات يغسلن فيها الثياب والأواني. والجميزة التي كان يستطيع تسلقها لضخامة فروعها، والتوتة التي كانت تعجزه لنحافتها. والطلحونة المهجورة المخيفة التي لم تعد تستعمل. ووايوه للري كانت تملكه الحكومة ثم خرب فأملكته للصدأ والتاكل وللصيبة يتبارون في تسلقه. والجرن والجبانة، والدوار والساقية والنافورة...» وإلى طريقة أطرف حين يعتبر أن الأبيات العاشر والحادي عشر والثاني عشر التالية:

تنازعها المها شبيهاً ودر ال بحور وشاكهت فيها الظباء
فها ما فويق العققد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء
وأما المقلتان فمن مهاة وللدرد الملاحاة والنسقاء
وتضع في البيت الأول منها لغزاً أو أحجية أو «فزورة» تحملها في البيت التاليين مؤكداً أن زهيراً كان ويعتقد أن فزورته ماهرة وشاطرة، ولا شك أن مستعميه الأوائل اعتقدوا هذا أيضاً. فإن بدت لنا الآن بسيطة ساذجة من مضحككتفي سذاجتها فهذا مثال آخر لوجوب إقبالنا على الشعر القديم بنظرة أهله. فليكن ضحكك رحيماً متعاطفاً لا ساغراً متعالياً. فإذا كنت الآن لا تشعر إلا بالسأم حين تسمع فزورتنا العصرية الحديثة: «الست قاعدة في سرايتها ودموعها نازلة على جنتها. الشمعة!»، فتذكر كيف بهرتك أول ما سمعتها في صباك ورحت ترددها على أقرانك وتختبر ذكاهم في حلها». (د. محمد النويبي: الشعر الجاهلي/ منهج في دراسته وتقويمه (في جزئين) القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر د. ت. الجزء الثاني ص 461 - 470 - 471 تبعاً، وخط التشديد من قبلنا.

ومساهماتها تتخطاه إلى الإنتاج الشعري والأدبي عامة،⁽³⁾ وإلى ميادين فنية وثقافية وفكرية متعددة.

إذا كنا نحصر القول بالنصوص الشعرية القديمة فلأن هذه النصوص هي مدار الدراسات اللاحقة المقدمة هنا. بيد أن الطموح الأول يتخطى الحدود التي ترسمها النصوص المذكورة ليعيد النظر بنهج قوي وسائد في الفكر والثقافة والفن، وكذلك هو حال قرينه، الطموح الثاني الذي يتطلع إلى المساهمة في تأسيس أصول وقواعد منهجية موضوعية في معرفة النصوص عامة ودرسها من خلال ما ينجز من ذلك بصدد النصوص الشعرية القديمة تحديداً.

لا تكفّ الدراسة المنهجية المتبعة هنا، من أجل ذلك، عن التذكير بمطلقاتها وأسسها وقواعدها وعن التأكيد على المفاهيم التي تتوسلها وتستنبطها وتطورها، مبينة مساراً من البحث والتأويل والاستنتاج لا يعدو كونه واحداً رغم تعدديه فيها بالذات، باعتبار أن تعدديه شرط وحدته.

إن الدراسة المنهجية للنص لا تعني التكرار الرتيب، بل إنها أول ما تنفيه في ذلك التشكّل المختلف والمتنوع الذي تسعى فيه والذي يستدعيه تعاملها الخاص مع النص المتناول. إنها تعني التجديد والابتكار، بما أنها عملية واعية لسيرورتها بقدر ما هي متنبهة لخصوصيات موضوعاتها وخصوصيات المسائل التي تطرحها عليها. ذلك أنها جدلية حكماً في ذاتها، بقدر ما هي جدلية مع الآخر، وعلى هذه الجدلية المتعددة نراهن⁽⁴⁾.

* إذا اعتبرنا الجدلية متعددة فليس لأن الآخر متعدّد وحسب، بل لأن دراسة النص الشعري في ذاتها أيضاً متعددة في الأوجه والمستويات المختلفة التي تقوم عليها.

فهي جدلية في كونها «ممارسة نظرية»، تتقدم في آن كاشتغال عملي في نتاج محدد من

= من نافل القول إن «مدرسة طه حسين» تعتبر من أرقى مدارس الشرح والتعليق، ولا يقل ما يتردّد لدى الآخرين عما نلاحظه فيها من نزعة ذاتية مُرضية، إن لم يتجاوزها ويتفوق عليها في ذلك.

(3) راجع ما ذكرناه فيما يخص مقاربات النص الروائي في كتابنا: أبحاث في النص الروائي العربي بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية الطبعة الأولى 1986، خاصة في الصفحات 11 - 16 - 62 - 66.

(4) انطلاقاً من هذه الجدلية يجدر النظر إلى الملاحظات المذكورة أعلاه، والتي ترد أمثالها لاحقاً في سياق الدراسات الخاصة بالنصوص المختلفة، باعتبارها ملاحظات جدلية أساساً، واعتبار النقد الوارد فيها غير موجه لأشخاص - أفراد بقدر ما هو موجه لطرق أو أساليب أو تيارات، غايته المباشرة كما البعيدة ليست التهديم أو التحطيم بقدر ما هي البناء والتعمير.

وجه، وكاجتهاد نظري يمتزّن كلّ الخلفية الثقافية التي تيسره من وجه ثان، في عملية يتفاعل النظر فيها مع الفعل باتجاه تطوير لكلا الوجهين منفردَيْن وملتحَمَيْن من وجه ثالث⁽⁵⁾.

هي جدلية أيضاً في كونها عملية إخراج ديناميكية تنهض من تفاعل مستوياتها المكونة، خاصة ذلك الذي يتم بين التحليل والتركيب فيها. فدراسة النص باعتبارها قبل أي شيء آخر بحثاً في إبداعيته وأساسه الجمالية ودلالاته المتميزة، تنطلق من قاعدة التحليل دون أن تتوقف عندها حكماً ودون أن تتجاوزها ضرورة.

إن تحليل النص هو بلوغ جوهره، أو عناصره الأولى المكونة لجماليته. إنه عملية فكّ لرموزه ومصطلحاته المتعددة للوصول إلى هذه الغاية الأولى. ذلك أن إبداعية النص ليست معطى مباشراً ولا، غالباً على الأقل، بسيطاً. وإلا انتهى أي دور لأي عمل أو كلام يتجاوزه. وليست عملية الفكّ أو التحليل هذه بدورها عملاً ميكانيكياً أو كيميائياً، ولا، في أغلب الأحيان، بسيطاً. إنها، بغض النظر عن سهولتها أو صعوبتها، ليست أمراً ناجحاً بالضرورة، لكنها بالتأكيد عملية دقيقة ورهيفة إلى حد بعيد.

إن أخطر ما تتعرض له هذه العملية هو مباشرتها بتسرّع أو استخفاف قد يسيء إلى النصّ ويشوهه، فيسفر الفكّ عن انتزاع أو تمزيق، والتحليل عن محلول فاسد أو رديء.

إن النصّ - في استيحاء لمعطيات الحرب - أقرب إلى العبوة الجاهزة للتفجير، مع فارق جوهري: أن التحليل الذي يعالجها لا يحاول تعطيلها بل إطلاقها، باعتبار أن هذا الإطلاق يسفر عن إبداعها كما تسفر الأسهم النارية عن تشكيلاتها النورانية. لذلك لا مجال لأخذ النصّ كيفما اتفق ومن أي مسافة كان، إذ لا بدّ من الذكاء والحذر، وإنما أيضاً من المعرفة والخبرة.

إن النصّ يحدّد ذاته، بما هو ظاهر مرفوع، وبما هو بعيد وقصي، خاصة الشعري منه، التباس. وليس كل ظاهر نصّ غايته، وإن كان يدلّ عليها. لذلك كان التحليل تبعاً واستقصاءً متأنياً لهذا الدالّ ومدلولاته. إنما لا يستقيم هذا التحليل إلا بانجداله، وجدليته، مع عملية التركيب التي تتضمنها دراسة النصّ.

إن التركيب هو حكماً مأل التحليل بقدر ما هو قرينه الجدلي. فليس تفكيك النصّ إلى أوالياته المكونة غرضاً بحد ذاته، أو مطلوباً لذاته. إنما هو مرتكز لا غنى عنه لأي درس

(5) راجع أبحاث في النصّ الروائي العربي ذكر سابقاً، خاصة الصفحات 13 - 14 و - 20 - 23 .

منهجي للنص. لا يهدف هذا الدرس من التحليل أو عبره الدل على عناصر النص المكونة وحسب، كما لا يتوخى من التفكيك الإشارة إلى أجزائه ومفاصله الأساسية فقط، إنما يسعى كذلك، معتمداً على هذه المفاصل والعناصر، إلى القبض على إبداعه البنوي العام، وإلى الإمساك بإشعاعاته المضيئة المتفرقة. كأنه في التحليل «يهدم» ليقوم في التركيب بـ «إعادة تكوين». إنه في الجدل الذي يقيمه بين الطرفين يشيد إبداع النص، ينتجه أو «يخرجه» من جديد.

في عملية التركيب هذه يأخذ النص الشعري التشكل الجدير به كما حدّد التحليل قسّماته. إنها تكونه في صيغة أو هيئة جديدة هي، أبعد ما تكون عن استعادة لقوله، تأليف جديد له يرتكز عليه لينطلق منه في فضاء الإبداع دون أن يكفّ عن الاتصال به والإشارة إليه قبل أن يلتحم فيه وهو يدل عليه.

إن التركيب في وجه من وجوهه ضمّ وتجميع لما فرّقه التحليل ونشره. على هذا النحو، ويقدر ما يكون التحليل إطلافاً للسحر الكامن من عبوة النص، يجيء التركيب سحراً على سحر، يُعيد جنّ النص (الشعري) إلى قمم النص (البحثي). لذلك، إذ ينجح في هذا العمل، يبدو النص الأخير (البحثي) للكثيرين فتاناً، بل أحياناً أعظم فتوناً من النص الأول (الشعري) نفسه.

* على هذه الجدلية من التحليل والتركيب تأتي دراسة النص الشعري عملية إخراج تبوح بأسراره الجمالية إذ تكشفها وتطويعها، مبيّنة في هذه العملية الجدلية الإخراجية الأسس الإبداعية المكونة لشعرية النص الذي تدرسه، ومبيّنة في الوقت نفسه وجهاً من أوجه فعالية الجدلية الخاصة بتكوينها هي بين الكفاية والإداء. إنها بذلك تجاوز إيجابيين للذين الأخيرين (الكفاية والإداء)، ولذين الأولين (التحليل والتركيب) باتجاه إبداعي مختلف أو مغاير لذلك القائم في النص وموضوعه دون أن يكفّ عن الاستناد والرجوع إليها وإليه حتى في أكثر أوضاعه وحالاته تحليفاً.

ذلك أن الدراسة النصية المعنية هنا، كدراسة منهجية تتميز بوضوح منطلقاتها وأسسها ومفاهيمها، تتضمن في الإخراج الإبداعي للنص الشعري احتمالات الدخول في الأبعاد الدلالية التي يحتملها، أي احتمالات الاعتناء بالمستوى التأويلي الذي يحوّل إلى مراجع اجتماعية - تاريخية أو نفسية - ذاتية للنص وجماليته. في هذا المسعى بالذات تجد دراسة النص الشعري اكتناها، تعرف كفايتها البدئية - الاحتمالية مداها الإدائي الأرحب، وتتيح بذلك

استغراقاً في أعماق مكونات النص ومدلولاته وأبعادها الإبداعية الأبعد غوراً، يستلّ مفاتيح الأسرار المكشوفة - المطوية من سرّاتها ليوضح مغازيها ومسرّاتها.

هكذا تتحقق دراسة النص الشعري باعتبارها بحثاً إبداعياً في هذا النص المكون - المؤلف اللغوي المتشابك - المتداخل في خصوصية نظم - سلك عام لإخراج أسراره - مسرّاته الخفية - القصية. إنها إبداعية مفترضة إزاء ذلك التنوع الشديد الذي ييسم الأعمال الشعرية، بقدر ما هي مفترضة إزاء ذلك الجديد والآتي، المتوقع وغير المتوقع منها، ويقدر ما هي شرط التجديد واكتشاف أبعاد جديدة ومقاربات جديدة. فالمسألة تعود في النهاية إلى ذلك التفاعل الجدلي بين المكتسب والمكتشف، بين المعطى المنهجي والارتياح المتحقق. علماً أن لا شيء في النهاية مطلق أو أبدي. ويبقى النص - أي نص شعري كان، قديم أو حديث... مشرعاً على كل الاحتمالات.

* لكنّ النصّ الشعري، كما أشرنا، التباس إبداعي. ومهمة دارسه الأولى تكاد تكون توضيحية، إضاءة مدلهاته، بوح أسراره وكشف إيماءاتها...

إن النص لا يستسلم بسهولة لهذه المهمة. بل إنه غالباً ما يقاومها بأشكال شتى، بدءاً من الانغلاق وصولاً إلى المراوغة. والمفارقة بين الظاهر والباطن، العلن والكامن، من أهم أوجه هذه المقاومة وأكثرها أصالة.

غير أن النص في انغلاقه يشير إلى مفاتيحه أو المسارب - المداخل المؤدية إلى باحاته وأبعاقه، وفي مراوغته يوميء إلى النواحي أو الاتجاهات - الوجوهات التي تتيح التمكّن منه وأخذه. إنما قد يؤدي التسرع أو قلة الخبرة إلى ولوج أبواب خاطئة تخرج بالتحليل والبحث عن مراميه، أو إلى اتباع طرق مشوهة تؤدي بها إلى مهاوٍ مريضة.

يظهر النص على هذا النحو حضارة كنوز كلام مرتجة بالثرثرة بفتحها من يقبض على كلمة سرّها فينعم بنفائسها.

إن كلمة السرّ فيه هي ائتلاف هذا الخطاب المشتت في وحدة تجرّد فيها عناصره المتعددة معناها في ارتباطها بغيرها من العناصر ضمن هذه الوحدة الكلية. إنها أشبه بالمصطلح الرمزي الذي يتيح تفكيك اللغات الرمزية السرية، أو الرقم السري الخاص بخزائن المال أو الأسرار الحديدية، أو التركيبية الخاصة التي تتيح دخول خطوط أجهزة المعلوماتية المفضية إلى الودائع الثمينة.

بيد أن امتلاك مفاتيح النصّ لا يكفي بحد ذاته. فالنص في كنوزه ونفائسه متاهة تأخذ

بلب مرتادها، وولوج الداخل يعني الانغماس في المغامرة وليس نهايتها. إن الداخل شبكة معقدة من الدلالات والعلاقات والإحالات، وأي ولوج فيها يحتمل خطر الضياع فيها وعن مخرجها. إلا أن يكون هناك ما يسمح بالتحرف إلى معالمها أو اكتشافها وبلوغها، وبالخروج بخلاصتها الثرية إلى الآفاق التي تضيء الطريق إليها.

ليس باب دخول النص بالضرورة باب الخروج منه. أي ليس بالضرورة أن تكون كلمة السر التي تستلم النص بدءاً هي تلك التي تدعه في النهاية. تتجاوز خصوصية النصوص ومقارباتها هنا التماثل مع كلمات المغاور («العلوية») أو خيوطها («الإريانية») بقدر ما تتضمن من تفاعل بين النص ودرسه يطرح فيه كل على الآخر أسئلته، ووحده الأخير يغطي بنقل هذا الحوار. إنما لا يمكن الخروج من النص قبل دخوله، كما هو الحال الجاري في معظم النقد السائد إيديولوجياً كان أم نفسانياً... ولنحذرن أن تكون هذه الخطوة مطية لتحكمية أو احتكار.

* تلافياً لأي اعتباطية في التعامل مع النصوص، وتحاشياً للمغالطات، في مقارباتها المختلفة، وهداً لدور الصدفة في ولوجها والخروج منها، وإصراراً على أن تكون المغامرة في الداخل كما في الخارج على أقصى ما تكون غنى وإثارة، تتقدم المنهجية دليل الباحث في النصوص الشعرية ومقارباتها. فهي ليست الخارطة التي تقترح عليه دروب الكشف والارتداد وحسب؛ وهي ليست النظارات التي تسمح له رؤية ذلك الشريط المتتابع من الكلام والرؤى، وفهم ذلك العالم الغرائبي الذي ينغمس فيه، بتمكينه من تحديد أبعاد معطياته الحقيقية - النسبية وإعادة تشكيلها وتكوينها فقط؛ وإنما هي أيضاً تلك التي تمكنه، استناداً إلى ما سبق، من تجاوز النص وتخطيه.

إذا كانت دراسة النص المنهجية من النص وإلى النص تعود، فإنها - بالقدر نفسه - من خارج النص تأتي وإلى خارج النص تمضي. من خارجه، مما أتيح لها تكوينه، وبما أمكنتها استخلاصه في معانيات وتأمالات سابقة وحاضرة. وإلى خارجه، إلى تلك المواقع المرجعية المتعددة التي يشير إليها، والتي تمضي المنهجية نحوها في عمليات تأويلها المختلفة؛ إلى تلك الآفاق الخطابية - اللغوية - الرؤيوية التي يطرق نحوها، والتي تمضي المنهجية عبرها إلى إعادة صياغاتها النظرية.

هكذا يكتمل جدل الداخل بجدل الخارج في وحدة الإخراج الديناميكي الإبداعي التي تتبدى عنها عملية الدراسة المنهجية للنصوص الشعرية.

* تتقدم المنهجية ضرورة لازمة لأي دراسة رصينة للنص الشعري، بل هي شرطها الحيوي الأول.

وليس هناك من شأن يذكر لأي بحث نصي لا يعتمد المنهجية في عمله، كما ليس هناك من قيمة تذكر لأي تنظير شعري أو أدبي لا يرتكز إلى تحليل ودراسة النصوص منهجياً.

من الإطناب، إن لم يكن من التكرار الممل، التعرض إلى عجز الأعمال اللامنهجية عن معرفة النصوص وفهمها وإلى الأذى والتشويه اللذين تلحقهما بها. (6) بل يقرب هذا التعرض من أن يكون هجوماً على جثة تكفي رائحتها المتصاعدة يوماً بعد يوم، في حال عدم طمرها والتخلص نهائياً منها، لتلافيتها والابتعاد عنها (7).

إنما لا يكفي هذا النفور وحده لتحقيق فهم سليم للنصوص، ناهيك بدراسة مرتكزاتها الإبداعية وأبعادها الدلالية. إن لم يكن هناك مجال آخر يتجه إليه، إن لم تكن هناك ممارسة مختلفة في التعامل مع النصوص، إن لم تتمكن الدراسات المنهجية في إنجاز مقارباتها الخاصة للنصوص، فإن ذلك النفور قد يفضي إتماً إلى ابتعاد عن البحوث النصية عامة، وإما إلى وقوع في فخ توهم اختلافي يبقى في الحقيقة سجين حلقة مفرغة يمضي من فرار إلى فرار بحثاً عن الوهم الضائع.

إن دراستنا اللاحقة للنصوص الشعرية القديمة هي في جانب من جوانبها طموح للرد على هذه المسألة وللمساهمة في إرساء قواعد وأسس ثابتة في الدراسة المنهجية للنص.

(6) المرجع السابق: مقدمة الكتاب؛ ومقدمة الدراسة الخاصة برواية غسان كنفاني رجال في الشمس ص. 62-67.

(7) بالإمكان العودة إلى عينات جمة من هذه الطروحات المعادية للمنهجية، مثل تلك الداعية إلى استبعادها في دراسة الإنتاج الأدبي والثافية لأي دور لها فيه بحجة أن العبقورية جن لا يمكن حبسه في قمعية المناهج، كما تعلن ذلك مداخلة د. جبرائيل جبور «النقد الأدبي» في المؤتمر الرابع للدراسات العربية في الجامعة الأميركية في بيروت 26 - 1954/4/30 نشرت وقائمه في العدد الثاني من السنة السابعة لمجلة الأبحاث حزيران 1954، ثم في كتاب بإشراف هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية في بيروت، د. ت. راجع ص 106 وما يليها) لتتوه بذلك موقفاً رجعيًا في النهاية، لأنها ترتد إلى النقد التأثري - الانفصالي الرجدي مختلف كل المحاولات الجادة والحديثة التي بذلت، خاصة إثر الحرب العالمية الثانية، لتخطي هذه العقدة - العقبة التي لا تزال مضاعفاتها وآثارها قائمة حتى اليوم. كما يمكن العودة إلى كتاب محمد مندور «في الميزان الجديد» (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1944) لمطالعة نموذج من نماذج التنظير الأصلي التهافت لما يسمى «الذوق» الفني أو الأدبي.

وقد يكون من الأنسب تخطي مثل هذه المساهمات، كي لا نقول إهمالها، حرصاً على الجهد والوقت ومنعاً لإهدارهما في سخافات لا طائل من ورائها.

* بيد أن المنهجية المعتمدة هنا هي في الحقيقة مناهج، أو منهج متعدد. فمن المعروف أن هناك مناهج عدة في مقارنة النصوص ودرسها، بل إن فروع هذه المناهج وتشعباتها المختلفة كثيرة جمة، بحيث لم يعد كافياً معظم الأحيان الإشارة إلى منهج بعينه، بل تفترض الدقة في التعبير لتحديد المدرسة داخله، بل وأحياناً الاتجاه الخاص ضمن المدرسة الواحدة.

إن التقسيم الشائع إلى مناهج خارجية (منها علم الاجتماع الأدبي، وعلم التحليل النفسي للأدب، والنقد الفلسفي، والنقد المقارن... الخ) ومناهج داخلية (كالأسلوبي، والمداري، والبنوي، والشكلاني، والألسني، والدلالي... الخ) ومناهج مختلطة (كالألسني - الاجتماعي، والألسني - النفساني، والسيميائي المتنوع، والدلالي المتعدد، والتداخل النصي... الخ) لا يعني أن أحدها ينفي الآخر بقدر ما يعني تمييز الواحد عن الآخر. بل إنها، فيما يتعدى الاختلاط، تتداخل أحياناً وتتصافر فيما بينها بقدر ما يستدعي سياق عمل الواحد منها الاستعانة بإنجازات الآخر⁽⁸⁾.

ذلك أن كل منهج يسمح بتناول النص في جانب من جوانبه أو وجه من وجوهه، أو أنه يسمح بدرسه من زاوية معينة تقدم فيه مستوى من مستوياته التكوينية على ما عداه. ولما لم تكن النصوص معطىً سلبياً يخضع لأي معالجة كانت دون مقاومة أو ردة فعل، فإن بعض النصوص تبدي تجاوباً مع منهج دون آخر، أو أنها تستدعي أو تجذب منهجاً أكثر من سواه. وإذ يقوم الدرس المنهجي لها أساساً على التفاعل الجدلي معها، فإن مقاربتها لا يمكن أن تكون بالضرورة واحدة. عدا عن كون المنهج الواحد، مهما بلغت فعاليته، يبقى دون التمكن من الاستحواذ على أوجه الإبداع المختلفة أو مستوياته المتعددة في النص المعالج.

أتاح هذا الوضع - البديهي؟ - الفرصة لأعداء منهج بعينه - أو المنهجية عامة - أن يشيروا إلى قصوره - أو قصورها - في إضاءة كافة جوانب أو مستويات النص بصورة متكاملة أو كافية. إلا أن هذه المستويات غالباً ما لا تكون، جميعها على الأقل، أصلاً في برنامج عمل أو بين أهداف المنهج المعني، ومن التجني إجمالاً محاسبته على أساسها؛ بل المفترض أنه يحاسب في ادعاءاته المنهجية، ربما في جدوى هذه الإدعاءات، وخاصة في تماسكها وفعاليتها.

قد يكون هذا الوضع من بين أهم الأسباب التي دفعتنا للأخذ بالمنهج المتعدد. بيد أنه

(8) راجع بهذا الصدد مقدمة كتابنا أبحاث في النص الروائي العربي ذكر سابقاً، وخاصة المواقع الإجرائية والعملية التي يشير إليها التمهيد السابق عليها.

في هذه المنهجية المتعددة يحظى المنهج النبوي فيها بوضع خاص ومحدد. إذ أن النبوية تبدو قائمة في صلب جميع المناهج الأخرى، بل إنها تعتبر شرط فعاليتها، في انفرادها كما في اجتماعها، بغض النظر عن ادعائها ذلك أو عدمه، وعيها له أو عدمه، بحيث يمكن القول إنها منهج المناهج بامتياز.

* تقوم النبوية أساساً على درس النص في وحدته الكلية، أو بنيتها العامة. ففي هذه البنية وحدها تنهض دلالاته الحقيقية كمعطى كلي، كما تتحدد دلالات أجزائه المكونة ضمن المعطى المذكور.

يمكن القول تبسيطاً: كما أن الكلمة لا تأخذ دلالتها الفعلية إلا في سياق الجملة التي تأتي فيها، كذلك الجملة أو العبارة أو البيت الشعري المستقل لا تقوم دلالاتها الفعلية إلا في إطار النص الكلي الذي يجيء فيه بأكمله، وضمن علاقات المعنى التي يتألف منها⁽⁹⁾.

إن الأخذ بالنبوية يفترض تحظيماً لما كان طاعياً في جميع المقاربات البلاغية والنقدية التقليدية، ولما يتردد أحياناً كثيرة في بعض الدراسات الحديثة، حيث يجري التوقف في سياق بحث بعض القصائد أو النصوص الشعرية عند بيت شعري أو صورة جمالية، لتملي إبداعيتها بغض النظر عن السياق الكلي الذي يأتيان فيه، والذي يعطيها قيمتها الفعلية. إن حال هذه المقاربات مماثل لمن يتخذ بستاناً موضوعاً لبحثه، فيتوقف عند الغصن هنا أو الثمرة هناك، ويضيع الكل في ثنانيا الجزء أو التفصيل.

إن النص بالنسبة للمنهج النبوي ليس أجزاء متفرقة أو عناصر مبعثرة (الاتجاه

(9) كما هو الحال في المثل الذي يتردد غالباً «لا تقربوا الصلاة» حيث تستمد كل كلمة معناها من الجملة التي تأتي فيها. لكن هذه الجملة لا تأتي مطلقة، وإنما في سياق عبارة و/أو قول يغير معناها بقدر ما يكمله: «ويا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً» (القرآن الكريم: سورة النساء، الآية 43)، بيد أن هذا القول بدوره ليس مطلقاً، ولا يشكل بحد ذاته نصاً قائماً بذاته، وإنما هو جزء من نص يحتويه هو (سورة النساء) التي تشكل بدورها جزءاً من نص أكبر هو النص القرآني بأكمله. ووحده سياق هذا النص العام في وحدته الكلية وبنيتها العامة يعطي لنصوصه المتفرقة كما لعباراته ومجمله المختلفة معناها الحقيقي الذي عبثاً يبحث عنه خارجه.

أما اختلاف التفسير أو التأويل بصدد بعض العبارات فمسألة أخرى تتعدى ما نسعى إلى تمثيله هنا، وإنما بالإمكان القول بإيجاز شديد إن المعنى الفعلي الذي يبلغه المنهج النبوي لا يستبعد مبدئياً تعدده، كما لا يدعي استفاد القول فيه، وفي جميع الحالات تبقى النبوية شرط تكونه؛ وربما كان غيابها أساساً، إلى جانب عوامل عدة أخرى، وراء الاضطراب أو الاختلاف المشار إليه.

التقليدي) وليس صوراً بيانية أو صيغ تعبير بلاغية مختلفة الجمالية أو الكثافة الدلالية (المنهج الأسلوبي) كما أنه ليس وحدات معنوية أو مضمونية غالبية أو بارزة أو متكررة (المنهج المداري) وليس معجماً لفظياً أو تراكيب نحوية أو انتظاماً لغوياً أو إيقاعياً (المنهج الألسني) إنه قبل ذلك كله وشرطه جميعاً كل متكامل ذو هيكلية من العلاقات التي تقوم بين عناصره الأساسية المكونة له، تجسد وحدته الكيانية وتعطيه نسقاً من المعنى العام يبين عن مدى تماسكه وعن الدلالات الفعلية لعناصره.

ضمن هذه الوحدة البنوية العامة وحسب، تجد التراكيب اللغوية المختلفة، أو التشكيلات المدارية، أو الأساليب الجمالية أو البلاغية، نسق انتظامها الخاص، كما يفهم دورها ومعناها الحقيقيان.

كذلك هو الأمر بالنسبة للأبعاد الدلالية التي يحفل بها النص والتي يؤديها جميعها على المستوى الذاتي أو الاجتماعي أو الفلسفي... فليست هذه الأبعاد إشارات متفرقة هنا وهناك، يجري جمعها ويتم رصفها في أي سياق اعتباطي كان. بل إن نسقها الدلالي هو النسق البنوي ذاته للنص، الذي يؤدي في انتظام بنيته الخاصة القاعدة التي يقوم عليها نظام البناء الدلالي المتعدد الأبعاد.

ضمن هذا المنظور يتضح خطر الاجترار وتعسف النتائج التي تستند إليه، كما يتضح تهاافت المقاربات الفكرية (الإيديولوجية) والذاتية كما الجمالية العشوائية والانتقائية، بغض النظر عن التسمية التي تقدم نفسها بها.

* بيد أن هذه البنية غالباً ما لا تتقدم مباشرة، بل تأتي بحيث يتطلب بلوغها واستخراجها جهداً يقوم على إعادة النص إلى عناصره المكونة الأساسية، وتفحص العلاقات التي تجري بينها والوجهة التي تتخذها.

إن القبض على بنية النص هو المدخل الضروري لأي عملية درس منهجي له، وشرطها الذي لا يمكنها القفز عنه. إنه الخطوة الأولى في منهجنا المتعدد لا نكتمل إلا برديفتها الساعية إلى إبراز التشكل النظمي الخاص الذي تتخذه هذه البنية في النص.

ربما أتيح لنصوص إبداعية عدة، لمنتج واحد أو عدة منتجين، أن تحفل ببنية متطابقة (واحدة) أو بنى متماثلة أو متشابهة، لكن هذه النصوص مع ذلك لا تتكرر أو تتماثل. فالانتظام الخاص بتشكيل البنية على الامتداد النظمي للنص يبدي عن خصوصية في التعبير تشي بموقف متميز فيها، بقدر ما تميزه عن سواه في إداء البنية الواحدة أو البنى المتماثلة.

يجدر التنبه إلى أن التشكّل البنوي المقصود يختلف عن التقسيم المضموني أو التعيين المداري، وإن كان أحياناً يلتقي بها أو يتقاطع معها. فالأول يمضي في بحث خطّي متتابع، وإن درس العلاقات بين الأقسام التي يتوصل إلى تعيينها في المضمون، فإنه لا يفعل ذلك في إطار علاقاتها المكونة لهيكل النص العام وبنيتها، وإنما في إطار تجاورها، أو في أحسن الأحوال، تولدها من بعضها البعض.

أما الثاني فينهمك في ملاحظة ائتلاف وتجاوب عناصر النص وأجزائه في وحدات معنوية تكون مدارات أو محاور النص العامة. إن ما يفتقده هذا العمل بشكل خاص، عدا الاضطراب الذي تدخله ملاحظة تفاصيل هذه المحاور بالدرس، والذي ينكفيء إلى تقطيع خطّي للنص أو إلى استعادات تحاول سد ثغرات المتابعات الوحيدة الاتجاه، تصور الوحدة الكلية العامة التي تندرج فيها هذه المدارات أو المحاور والتي تعطى دلالتها الفعلية، والتي يشكل غيابها الفجوة الأساسية التي تتسلل منها كل الرؤى الاعتيادية التي تسود أعمالاً من هذا القبيل.

* إن بنية النص وحدها إذن هي التي تؤمن من جهة أساس معرفته الحقيقية، وتضمن من جهة ثانية قياساً مرجعياً في عملية البحث المركبة في جماليته الإبداعية كما في دلالاته المختلفة، كما ستكون هناك فرصة للتحقق من ذلك في الدراسات اللاحقة.

يجدر فهم الجمالية الإبداعية هنا باعتبارها جمالية خاصة بالنص الشعري تمييزاً لها عن تلك المتعلقة بنصوص أخرى. إذ رغم ما يتردد اليوم عن تداخل النصوص وضمحلالات التخوم بينها، فإنها تبقى متميزة مع ذلك عن بعضها بما يحددها بصورة غالبية. أما بالنسبة للنصوص القديمة فإن الحدود الفاصلة بين أنماطها التعبيرية المختلفة هي من القوة والثبات إلى حد لا يمكن المراءاة فيها، وهي تشير إلى قوة عناصر التمييز وثباتها والغلبة في كل نمط بعينه.

* إذا اعتبرت الوظيفة الشعرية قائمة أساساً في المرسل اللغوية التي تؤديها عملية الاتصال⁽¹⁰⁾، فإن البحث عن هذه الشعرية أو الجمالية الإبداعية في النص الشعري يجب أن ينحصر في هذا القول الشعري الذي يكونه النص تحديداً.

(10) Roman Jakobson: *Essais de linguistique générale* (2 tomes) traduit et préfacé par Nicolas Ruwet. Paris, les éditions de Minuit - coll. «Arguments»; t. 1: *Les fondations du langage* 1963, t. 2: *Rapports internes et externes du langage* 1973 (Chap. XI: «Linguistique et poétique» in t. 1 pp. 209 - 248).

تعني الدراسة المنهجية بهذا القول ساعية لأن تحدّد فيه أوجه التكافؤ أو التعادل التي يقوم عليها، إذ يعتبر التكافؤ أو التعادل مبدأ تكوينياً عاماً في جماليته الشعرية، بحيث يمكن القول إنه كلما كان أوجه التأليف المختلفة التي يأتي بها عالية الدقة ومحكمة التناظر، كلما كانت الجمالية الشعرية راقية وعظيمة⁽¹¹⁾.

إن التكافؤ أو التعادل المذكور يقوم بنويماً على مستويات متعددة تنجدل في وحدة النص الكلية لتؤدي إبداعيته الشعرية.

بين هذه المستويات لا تشكل دلالية المضمون مبدئياً المستوى الأكثر رجحاناً في تعيين الإبداعية المشار إليها، لكنها تشكل في معظم الأحوال المدخل الأكثر يسراً وسهولة لتعيين التكافؤ أو التعادل البنيوي للنص الشعري. لا يمكن بالتالي لأي بحث في إبداعية هذا النص أن يقتصر عليها، ولذلك ينصرف البحث المذكور إلى متابعة التكافؤ البنيوي على المستوى الإيقاعي الذي يعتبر من أهم المستويات المكونة للجمالية الشعرية، وهو أهمها على الإطلاق بالنسبة للنص الشعري القديم.

بالإمكان تمييز مراتب عدة في هذا المستوى يعتبر بينها الوزن أو البحر الشعري أو الانتظام العروضي الذي تركز عليه النصوص الشعرية القديمة المعالجة هنا في إيقاعها المرتبة الأساسية الأولى والمحددة. تلتحم بهذه المرتبة مجموعة من المراتب الإيقاعية الأخرى بدءاً من مرتبة النبر الذي يجسّد التحقق الإدائي للوزن ويعطيه صورته السمعية الموسيقية، إلى مرتبة التصويت الذي ينتج عن التكوين الإيقاعي للأحرف الصائتة والصامتة والسكنة والمدودة وتألّف هذه الحروف في تردها أو تكرارها باعتبار خارجها المتقاربة أو المتباعدة لرخارف إيقاعية داخل الصور الموسيقية، إلى مرتبة التنغيم الخاص باللهجة وبالفصاحة أو اللكنة في أداء النص أو تلاوته والتي تعطي صورته الموسيقية تلويناً نغمياً خاصاً.

كان القدماء قد توصلوا إلى إنجازات مهمة بصدد المعرفة العلمية لكل من المرتبتين الأولى والثالثة (العروض والصواتة) وتعدّدت مساهمات المحدثين في الثانية، بينما بقيت معالجات الأخيرة نادرة.

إن بحث التكافؤ البنيوي على المستوى الإيقاعي يقتضي تحديد التشكّل البنيوي للصورة الموسيقية التي يعطيها النص الشعري، من خلال ملاحظة مواضع التطابق والتماثل والاختلاف في صيغته الإيقاعية المختلفة.

Michel Patillon: Précis d'analyse littéraire (2 t.) t.2: décrire la poésie Paris, Fernand (11) Nathan - Coll. «Nathan - Université» 1977.

* قد يضاهي المستوى الأسلوبي (أو البلاغي) المستوى الإيقاعي من حيث الأهمية في تكوين إبداعية النص الشعري، وإن بدا لاحقاً له في الشعر القديم. والبحث في تكافؤه البيوي هو بحث في التشكل البيوي العام للصور التعبيرية التي يأتي بها معتمداً على الوسائل البلاغية المختلفة من بيان وبديع ومعانٍ.

أما على المستوى النحوي فتظهر مراتب عدة، قد يكون التمييز بين الجمل الإنشائية والخبرية، وبين الفعلية والاسمية، بين الفصل والوصل والتعريف والتكثير، كما بين المسند إليه والمسند وأوضاع الضائر وتوزعها... إلماً بأهمها..

في حين يبدو النظر في المفردات واشتقاقها الصرفية أو دلالاتها المعجمية، ومدى تألفها بناء لذلك وتناورها وتكوينها بالتالي لبنية لغوية استعمالية خاصة، من خلال كثافة الوحدات المتكررة والمتقاربة في النص معيناً لمستوى لغوي مستقل.

* بيد أن البحث في مبدأ التكافؤ أو التعادل البيوي في النص الشعري لا يقتصر على تلمسه في أي مستوى من المستويات وحسب، بل إن تناوله في كل منها يمضي باتجاه تحديد مدى ملاءمته وتجانسه مع المستويات الأخرى.

في هذا التكافؤ البيوي الكلي المتعدد المستويات تحديداً تكمن الجمالية الإبداعية للنص الشعري، حيث يتبدى الخطاب اللغوي مظهراً للمعنى بقدر ما هو مؤد له، إن لم يكن أكثر من ذلك. ويقدر ما يكون التكافؤ عالي الإقتان، وبالتالي تحلي بنية المعنى في بنية اللفظ بالغ الإيجاء، كلما كانت جمالية النص رفيعة المكانة.

على هذا الأساس، لا تعود الدراسات التي تقتصر على أي من هذه المستويات كافية بحد ذاتها لإبراز هذه الجمالية، ناهيك بما يقدمه بعضها، كما هو حال تلك المقاربات المستحدثة التي تعنى بعمليات التجميع والإحصاء والجدولة لبعض مظاهره وتقتصر عليها، من عجز مريع عن استيعاب النص وفهمه.

إذا كان لهذه العمليات من معنى، فبقدر ما تندرج في بنية متكاملة تعطى مغزاهم وتحدد أدوارها، وتبين بالتالي مدى ملاءمة استنتاجاتها لنظائرها في المستويات الأخرى.

* لكن إبداعية النص الشعري، رغم قياسها أساساً في المرسل اللغوية، تنتخطها إلى الأبعاد الدلالية التي تشير إليها أو توحى بها.

إن البحث في القول الشعري لا يتوقف عند التكافؤ أو التعادل البيوي في ظواهر

لفظه، بل إنه يمضي كذلك إلى تقصي هذا التكافؤ في دلالاته المختلفة. مما يمكن معه إضافة القول، إلى ما سبق، بأن الانتهاء إلى تكوين بنيوي للدلالة النفسية والفكرية والاجتماعية... للنص يتجانس ويتجاوب مع مبدأ التكافؤ المستخرج أو المستنتج على المستويات الأخرى، يشكل مزيداً من الإثراء الجماليته وإبداعيته.

رغم كون هذه الدلالات غير محددة لهذه الجمالية أو الإبداعية، إلا أنها بالتأكيد فاعلة فيها.

هكذا تتقدم الدراسات التحليلية النفسية (أو النفسانية) للأدب ودراسات علم الاجتماع (أو السوسولوجية) الأدبي، لتكتمل ما تم إنجازها على صيغة التكافؤ البنيوي في المستويات المشار إليها أعلاه، وتتخذ بالتالي مغزاها ودورها على هذا الأساس.

بناء لذلك تسقط معظم الاعتراضات التي ترتفع عن حسن أو سوء نية ضد مقاربات خارجية من هذا القبيل للنص الشعري، وأهمها ادعاء كونها تحمل خاصيته الأساسية: جماليته الشعرية.

* تفتح هذه المقاربات الخارجية للنص درسه على التأويل، وإنما أيضاً على مراجعته الضامنة له والتمثلة في العلوم الإنسانية المختلفة التي يستند إليها.

في هذا الانفتاح الذي تكتمل فيه دراسة النص الشعري تكتمل أيضاً التعددية المنهجية التي تعتمدها. لكن هذا الاكتمال المزدوج أبعد ما يكون عن أن يعتبر نهائياً. ذلك أنه يحظ مشروعاً - متكاملماً بالتأكيد - وإنما لا يحتم القول بقدر ما يستدعيه، إن في فضاء النص أو في قواعده المنهجية. مما يفترض إنصافاً مزدوجاً للجديد هنا والمحدث هناك؛ لاخر ما يتفتق عن الإبداع الإنساني في المجال الشعري، وإنما أيضاً في الرواية والمسرح والسينما... وجميع الحقول الفنية والجمالية؛ ولاخر مستجدات البحوث المعرفية في ميادينها المتفرقة من اللسانيات إلى العلوم الإنسانية المختلفة، وإنما أيضاً إلى جميع الميادين العلمية والفكرية في حقول إنتاجها المتعددة في المؤسسات وخارجها.

على هدي هذه المقولات تمضي الدراسات اللاحقة. لا يعني ذلك أنها تستنفد جميع الأوجه والمستويات المشار إليها، وإنما تقول على الأقل الأساسي فيها، كما هو الحال بصدد المستوى الإيقاعي مثلاً. وإن كان يعوزها التفصيل في بعض المستويات، كما بصدد المستوى اللغوي مثلاً أو النفسي أو الاجتماعي أحياناً، فلما يعوزها من معطيات ثابتة يطمأن إليها في هذا المجال.

إنها على كل حال ليست إلا محاولات، تكامل بتأزر أخرى، وتستدعيها.

* يبقى أن هذا الدرس المنهجي المتعدّد للنص الشعري لا يعنيه وحده وإن اختصّ به كما استعرضت أوالياته الأساسية. فهو، بقدر ما ينجز من مقاربات معرفية ذات قيمة أو جدوى، يوميء إلى إمكانات درس أخرى، لنصوص أخرى، مختصة بها. أكانت هذه النصوص شعرية أو فنية أو ثقافية أو فكرية. . .

من درس إلى آخر تفتح المنهجية، من نص إلى آخر، أبواب العالم المغلقة، والدنيا نصّ متعدد لمن يحسن القراءة. من الإعلانات وشعارات الحائط وصور الشهداء والفنانين والسياسيين إلى تخطيط المدن وتنظيم عيشها اليومي وهندسة البناء والطرق والجسور واتجاهات السير. . . ومن مراسم الزواج والدفن والاستقبال والوداع، إلى استعراضات الجسد والزي والزينة والحرب والسلام والغرام والولادة والموت. . . سلاسل لا تنتهي من نصوص يجبل بعضها إلى بعض بتعدّد في اللغة وخصوصية في القول.

وإذا كانت الحياة خيارات، فإنّ الوعي شرط الخيارات السليمة. أما شرط الوعي الصحيح فمعرفة سليمة. وهذه المعرفة تبدأ في إحسان القراءة والنظر. وأحسن القراءات هي تلك المنهجية، وأفضلها المنهجية المتعدّدة.

إن المنهجية المتعدّدة بناء مستمر، لا يمكن لفرد أن ينجزه، وإنما بإمكانه المبادرة إليه. في إطار هذا الفهم، وعلى ضوء ما تقدم، يجدر قراءة الدراسات التالية والنظر فيها.

د. سامي سويدان
الجامعة اللبنانية

الفصل الأول

قصائد أبي نواس مصابيح الشعر الروية

دراسة نص لأبي نواس (الحسن بن هانء)
[145 هـ / 763 م - 199 هـ / 814 م]:

«لأقطعن نياط الهم بالكاس فليس للهم مثل الكاس من أس»

* نص الدراسة

أولاً: في الشعر والشاعر

ثانياً: التشكُّل البنيوي للقصيدة.

ثالثاً: انتظام التكوين الدلالي للنص

رابعاً: في أوجه التناسب والتكافؤ في النص.

خامساً: في الأبعاد الشخصية والاجتماعية.

* كلمة ختامية.

الكأس والهموم⁽¹⁾

- 1 - لأقطعنَّ نياطَ الهمِّ بالكاسِ
فليس للهمِّ مثل الكاسِ من آسِ
- 2 - فسقينا سلفاً سلسلاً حجيت
في دنها حقباً في ركن ديماس
- 3 - صفراء تضحك عند المزج من شغب
كأن أعينها أنصاف أجراس
- 4 - كأن كاساتنا والليل معتكر
سرح توقد في محراب شمس
- 5 - هذا وذاك وفتيان لهم أدب
شم الأنوف سراً غير أنكاس
- 6 - نازعتهم قهوة صفراء صافية
لشادن خنث كالغصن مياس
- 7 - مخنث اللفظ يسبيني بمقلته
مقسطق قرشي الوجه عبّاسي
- 8 - كأن إكليله تاج ابن ماريّة
إذ راح معتصباً بالورد والآس
- 9 - وقد يغنيك من سكر ومن طرب
والكأس تختال من ساق إلى حاسي
- 10 - «لله درك قد عذبتني حرقاً
بالقرب والبعد والإطعام والياس»

(1) ديوان أبي نواس الحسن بن هانيء؛ حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي. بيروت/ دار الكتاب العربي، د. ت. ص 159 - 160.

أولاً: في الشعر والشاعر

قلما اندمجت أعمال شاعر وسيرة حياته كما كان الحال مع صاحب هذا النص. إذ يلتفت انتباه المتتبع لقصائده تجانسها بل تداخلها واشتباكها، بشكل لا فكاك منه مع الأحداث التي عاشها وممارساته ومواقفه فيها.

بين قصائده تبرز تلك الحميرية معبرة أكثر من سواها عن هذا التداخل العميق بين الشعر والحياة، مبلورة لهواجس الذات وملامح المرحلة في إشعاعات العمل الإبداعي المتألق. فكما غلب المجون على عيشه غلب كذلك على شعره. وإذا كان هذا الوضع قد دفع البعض في تعاملهم مع هذا الشعر إلى التأثر بنهج وسلوك صاحبه في الحياة، فقد ميز البعض الآخر بين سيرته الاجتماعية وبين إنتاجه الشعري. ولو اقتصرنا في التذليل على ذلك، من جهة، على ما قاله أبو عبيد الله محمد بن زياد الأعرابي عنه: «إنه من أشعر الناس، وما يمنعا من رواية شعره إلا تبذله وسخفه»⁽²⁾، ومن جهة ثانية على ما ذكره الجاحظ عن أستاذه إبراهيم بن سيار النطام من أنه سمعه يقول: «وقد أنشد شعراً لأبي نواس في الخمر: كأن هذا الفتى جمع له الكلام فاختر أحسنه!»⁽³⁾، فإننا نلاحظ، رغم اختلاف الموقفين، اتفاقاً على الاعتراف بعظمة شعر النواسي، وأن هذا الاختلاف مرده على الأرجح اتجاهان متعارضان غالباً في النقد كما في النحو والتفسير: الاتجاه النقلي الاتباعي الذي كان غالباً في الكوفة، والاتجاه العقلي التجديدي الذي كان غالباً على البصرة. كما نلمح خلل ذلك الخلاف الذي كان يحدث حول القديم - ما كان قبل الإسلام أو متصلاً بما قبل الإسلام، والحديث أو المولد الذي طرأ بعد ذلك.

(2) ابن منظور المصري: أبو نواس في تاريخه وشعره ومبازله وعيشه ومجونه، قدم له وأشرف على تصحيحه وتقسيمه وتبويبه عمر أبو النصر. الطبعة الثانية [بيروت؟] - سلسلة «من التراث العربي»، لا د. ن. ولا ت. ص 53.

(3) المرجع نفسه، ص 56.

هكذا اجتمع إلى جانب البعد «الأخلاقي» بعد «تاريخي»، يزخر كلاهما بسعات دينية قوية. وإذا كان بالإمكان استبعاد البعد الأول في الحكم على العمل الشعري بالفصل الذي يمكن إجراؤه بين الحياة والشعر، فإنَّ إمكان استبعاد الثاني يبدو أمراً عسيراً لأنه كان يتعلّق بصميم هذا العمل المذكور، بأسلوبه في التعبير، وبلغته المعتمدة.

وقد وجد أبو نواس من يجعل شعره بمرتبة شعر الأقدمين إن لم يكن أرقى منه، كما هو الحال في قول عبد الله بن محمد بن عائشة: «من طلب الأدب فلم يرو شعر أبي نواس فليس بتأمّ الأدب!»⁽⁴⁾. مع ذلك، من الصعب إن لم يكن مستحيلًا فصل ما يُقال في هذا الشعر عن كيفية قوله. وربما كان تشديد معظم المداخلات بشأن شعر أبي نواس على معانيه مثيراً للإهتمام كما يتبدّى في قول أبي حاتم: «كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس!»⁽⁵⁾، نظراً لأنه في هذا الجانب بالذات يتمثل اختراقه للمحظور الديني والأخلاقي المفترض، ونظراً لأن في مثل هذا التشديد مجالاً للنيل من هذا الشعر باعتبار أن المعاني فيه، وإن أدّت دوراً جمالياً، ليست هي العنصر أو العامل الجمالي الأساسي فيه.

لكن ذهاب البعض في توضيح قيمة هذا الشعر بالإشارة إلى تفاصيل لا تدع التباساً حول البعد الفني والجمالي فيه، يعيد لهذه المداخلات توازناً أو يعطيها تحديداً قد تكون بحاجة إلى بعضه. فياذ يقول أبو عبيدة التميمي: «أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين. فتح لهم هذه الفطن، ودلهم على المعاني، وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرّف في فنونه»⁽⁶⁾ فإنه يمثّل، وهو يحافظ على الاختلاف، بين الشعرين القديم والحديث، جاعلاً لشعر أبي نواس دوراً تأسيسياً رائداً على المستوى الفني كما على المستوى المضموني، فيبدو علامة بدء جديد تضاهي سابقتها من حيث الجودة والمعاصرة، كما من حيث الخروج على قائم ومستتب، بحيث يصبح ما قيل قبلها ماثلاً للغفل والمنبّت قبل سابقتها.

لا ريب أن هذا الخروج هو ميزة شعر أبي نواس بالذات الذي يتقدّم على هذا النحو مكوّناً لقطيعة شعرية مع ما سبقه، قطيعة لم تكن مفردة أو استثنائية إزاء ما كانت تحفل به المرحلة من زخم معرفي وثقافي.

بيد أن كل شعر هو بالضرورة خروج عن السائد والمألوف، وكل شاعر هو بالضرورة

(4) المرجع نفسه، ص 49.

(5) المرجع نفسه، ص 58.

(6) المرجع نفسه، ص 48.

مجدد. فاللغة الشعرية هي في الأصل خروج عن اللغة السابقة عليها، هي أصلاً انحراف عن المعهود وطرقٌ لصيغ جديدة في القول والتعبير.

لذلك لا معنى لإطلاق صفة الشعرية على نتاج لغوي يكرّر سابقاً عليه، أو يستعيد ما كان معروفاً مهما كانت عظمة ذلك السابق أو أهمية هذا المعروف، بل ومهما كانت براعة هذه الاستعادة أو لباقة ذلك التكرار.

وإذا كانت هذه الصفة تتردّد بكثرة اليوم، على خلاف هذا المفهوم، فيجدر فهمها مجازياً باعتبار أنها تدل على تمنّ أو أنها أثر من آثار التضخّم اللغوي.

وقد يكون هذا الخروج - الإنحراف المشار إليه المقياس الأكثر ملاءمة لتحديد مدى شعرية الأعمال التي تدعى أنها من الشعر، وأصحابها الذين يدعون أنهم من الشعراء.

يؤكد هذا المقياس شاعرية أبي نواس وشعرية قصائده الخمرية خاصة بامتياز. والناظر في شعره، بعيداً عن التحيز الأرعن والأفكار المسبقة والشطحات الزائفة، يلحظ فيها بتجاوز التفات بين أبوابه وفي كل باب، ذلك المروق الذي تتمثل فيه سيرة منحرفة عن المعهود والمقبول، كما تتمثل فيه صيغ التعبير الخارجة عن الشائع والمتداول.

في هذا الشعر كالتحام للبعد الشخصي، المتمثل في موقف تؤديه دلالات المضمون، يالبعده الجمالي الكامن في التشكلات الإبداعية التي يتخذها التعبير الكلامي، تنجدل عملية التجديد التي ميّزت هذا الشعر.

وفي القصائد الخمرية التي لا تخلص على كل حال من التعرّض للغلمان، كسقاة وموضوع رغبة جنسية في أغلب الأحيان، والتي تغلب بوضوح على ما عداها⁽⁷⁾ تتمثل عملية التجديد المذكورة على أرقى وأوضح ما يكون. ففي هذه القصائد تعبير أصيل عن أعماق الذات ومثاباتها المدلّمة في بحثها المحموم عن لذائذ الحياة وأطاييبها كما تمثلت في رحيقها الخمري، وتعبير متميز، لا يقل أصالة عن الوجه الذاتي، عن المجتمع في ظواهره الأكثر حداثة وحيوية وغنى كما جسدتها مجالس المجنون والفجور كروحه الأعمق، وكما عبرت عنها النشاطات الفكرية واللغوية والشعرية في غمرة صراعاتها ومحاولاتها الخبيثة لإرساء مدارس ومذاهب وتيارات، وفي عز احتدام المجاهبات الدينية والأخلاقية والسياسية. وعبر إشراقه الذات في أقصى حالات التفتح والتطلع إلى حرية متحلّلة من كل القيود، والسعي إلى

(7) لأبي نواس 299 قصيدة ومقطوعة خمرية في 226 صفحة، مقابل 100 قصيدة ومقطوعة مدحية في حوالي 100 صفحة. راجع: ديوان أبي نواس... المذكور سابقاً.

مارستها في خضم تفاعلات المرحلة العلمية والحضارية المعاشة، جاء الشعر الحمري النواصي يعلن خصوصيته الجمالية.

لم تكن هذه الخصوصية إذن مقتصرة على الجانب الفكري (أو الإيديولوجي)، كما تمثل في الموقف الذي عبرت عنه قصائد أبي نواس الخمرية من التقاليد والقيم السائدة، باعتباره موقفاً متمرداً على السائد ومحرضاً على الثورة؛ ولا على الجانب النفسي (أو الذاتي) القائم على اعتبار الشعر تعبيراً وجدانياً متميزاً باستمرار عن أكثر الأهواء والنزعات الذاتية عمقاً، وبأنه على هذا الأساس المنفذ الذي يتسلل منه اللاوعي إلى مدارج التعبير سافراً أو محجّباً - متخفياً أو متنكراً -؛ ولا على الجانب التعبيري المشار إليه غالباً في التشديد على تجاوز المطالع الطللية وأطر التعبير الشعري التقليدية، وفي ارتياد لأنماط من القول والتأليف تبحث عن تجانسها مع النزعات الذاتية لا مع المقاييس الخارجية المسبقة؛ وإنما في اشتغالها عليها جميعاً في تكوين لفضاء شعري متكامل، يجد في القصيدة - النص مداه المحدد الذي لا تكف الجوانب الذاتية والإيديولوجية والجمالية عن التشكل والتبلور ضمنه، في عملية تحوّل داخلي هي الوجه البنيوي الداخلي للتحوّل الكلي الذي يلعبه هذا النص على مستويات عدة وأبعاد متنوعة، معبراً عن موقف وجودي كلي، وعن كونه بالقدر نفسه أثراً من آثار هذا الموقف.

إذا كانت هذه هي سمات الخصوصية التجديدية - الشعرية لأبي نواس، كما ستكون لنا فرصة الإطلاع على تفاصيل تكوينها وتألفها في دراستنا لأحد نصوصه - دراسة هي في النهاية إطلالة على عالمه الفني والفكري، على أن التعرف الفعلي إليه يقتضي الغامرة في فضاءات نصوصه جميعاً - فلا يسعنا قبل البدء بها - في سياق هذا التمهيد - إلا الإشارة السريعة إلى بعض الدراسات والأحكام المتسرعة بصدده، التي تثير الاستغراب بقدر ما تؤكد ضرورة الرجوع الدقيق إلى النصوص ودراساتها بشكل منهجي واعٍ ومسؤول قبل السماح للنفس بإطلاق الآراء جزافاً.

نقتصر للتدليل على ما نقول في إشارتنا هذه على ملاحظات موجزة على كتاب للدكتور علي شلق عن أبي نواس⁽⁸⁾، وعلى ما ورد في الكتاب الثاني من الشاب والمتحول لأدونيس⁽⁹⁾ وفي جدلية الحفاء والتجلي للدكتور كمال أبو ديب⁽¹⁰⁾.

(8) د. علي شلق: أبو نواس بين التخطيط والالتزام، الطبعة الأولى بيروت - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982.

(9) أدونيس: الشاب والمتحول / بحث في الاتباع والإبداع عند العرب. الكتاب الثاني: 2 - تأصيل الأصول؛ الطبعة الأولى، بيروت - دار العودة 1977.

(10) كمال أبو ديب: جدلية الحفاء والتجلي / دراسات بنيوية في الشعر. الطبعة الثانية تشرين الأول 1981، بيروت - دار العلم للملايين (الطبعة الأولى 1979).

فالكتاب الأول نموذج متقدم من نماذج الدراسة التقليدية، التي لا تأتي للمطلع عليها بأي فائدة تذكر، ولكنها في المقابل قد تحمل إليه الضرر الكبير. فهو إذ يقدم العصر والشاعر على سطحية مألوفة في مثل هذا النمط من الدراسات، يقوم باستعراض قصائده في فنونها المختلفة كما وزعها ديوانه⁽¹¹⁾، منتهياً إلى تناول بعض القضايا العامة المتصلة بالشاعر وشعره. في هذا الاستعراض تغيب أي منهجية في الدراسة، فلا نجد غير تلاوة لمنتخبات من القصائد مشفوعة بتعليقات تتراوح بين الشرح المبسط الذي ينثر الكلام المنظوم والتداعي السطحي الذي يعبر من صيحات الإعجاب إلى استدعاء أمكنة وأزمنة وأوضاع، لا يبره غير التوارد الذاتي للخواطر. هكذا نجد في سياق بحث شعوية أبي نواس يقفز إلى قصور الحمراء بالأندلس وبرك المتوكل وطاسات العرب المترفين، متوصلاً إلى اعتبار الشعوية «موضة عصر» الشاعر شأنها شأن «موضة» عصرنا «بالفرنج»⁽¹²⁾. وفي سياق بحث القصة الخمرية عند أبي نواس، يمضي في قفزات لا تقبل إثارة، حين يعبر القرون والأمكنة بغرة طرف، فيعتبر أن الشاعر في خرياته «مر بالوجود مرور واحد سبق عصره، كأنه يتخطف في حانات سان جرمان [في باريس] اليوم، وحوله متحلّقون في الجانب المقابل للحلقة «سارتر»، مضيفاً: «كأنه يجيأ حاراً بلحمه ودمه في طليعة رواد حضارة اليوم»⁽¹³⁾!

أما الخطأ الشنيع أو الخطر الكبير، ففي ذلك التعامل مع النصوص حيث يجري اقتطاع الأبيات من سياقها ورضفها في سياق جديد - وهذا ما يمكن اعتباره «منهجية» تقليدية، وإن كانت تزاول إجمالاً بصورة غير واعية من قبل أصحابها الذين يتابعون نهجاً يتصل بإرث متراكم عريق - ونخلل ذلك أخطاء في فهم النص وأبعاده، حيث تتحوّل الجارية التي يتناولها أبو نواس في قصيدته التي مطلعها:

ساع بكأس إلى ناشٍ على طرب كلاًهما عجب في منظر عجب⁽¹⁴⁾
 على يد الباحث خمرة «تدعو مفترعها»، وتجعله يتحرى «في النفس غلمة
 تواقه...»⁽¹⁵⁾!

(11) راجع: ديوان أبي نواس... المذكور سابقاً.

(12) د. علي شلق: أبو نواس بين التخطي والالتزام؛ مذكور سابقاً، ص 144.

(13) المرجع نفسه، ص 123.

(14) راجع ديوان أبي نواس... مذكور سابقاً، ص 72.

(15) د. علي شلق: أبو نواس بين التخطي والالتزام؛ مذكور سابقاً ص 67 و 68 على التوالي.

كما يتحوّل الساقى الأحرور، الأهيف، الراجح الكفل في قصيدة أبي نواس التي مطلعها:

أحسن من وقفة على طلل كأس عقار تجري على ثمل⁽¹⁶⁾
إلى «نديم» من أولئك الشباب الكرام الذين يذكرهم أبو نواس في قصيدته!

بل يمضي الباحث إلى جعل الشاعر «يرغب في جمع الكون ضمن كأسه»، وإلى جعل
النديم عنده صورة للكأس الذهبية المليئة بالتصاوير!⁽¹⁷⁾ . . . الخ .

ومن غير المجدي متابعة أنماط وصيغ وكمية الأذى الذي تلحقه هذه الدراسة ومثيلاهما
في النصوص التي تتعرض لها .

الكتاب الثاني مفارق للأول - خاصة وأن مؤلفه من أعلام «الحدائث» في الشعر العربي
المعاصر - باعتباره يتقدم في ظاهره كمحاولة جديدة لمقاربة الشعر العربي، ويأتي تعرّضه لأبي
نواس في سياق البحث في أصول الإبداع والحدائث في هذا الشعر. وإذا كنا هنا لا نتعرض
للمحاولة بأكملها، فإننا نكتفي بالإلماع إلى الخلل المنهجي العام الذي يحكمها، حيث إن
أحكامها ونتائجها تستند إلى أبيات متفرقة ومبعثرة وخارج سياقها، لا إلى نصوص كاملة من
قصائد أو مجموعة من القصائد، وإن دراسة الأوضاع الاجتماعية والفكرية والدينية والشعرية
تأتي متجاوزة أو متراكمة، كل منها منفصلة كلياً عن الأخرى دون أية روابط توضح صلاتها
ببعضها، مما يذكر، بغض النظر عن الادعاءات المخالفة، بالطريقة التقليدية الشائعة التي
تحكم معظم الدراسات الأدبية. لننتقل إلى ما يتعلّق بأبي نواس تحديداً، ملاحظين أن
الأحكام الخاصة بشأنه أقرب إلى الشطح التي يأتي بها تداعي التركيب الكلامي منها إلى
الاستنتاجات المتولدة من تمعن في النصوص وتفصي دلالاتها. من ذلك ما يتعاقب من أقوال
بصدد الخمرة لا تحفل على الإطلاق بعدم صحتها ولا بتناقضاتها، إذ تعتبر أن الخمرة «حلم
ولها فعل الحلم»، وأنها تأخذ بنا خارج العادي والمرئي والملموس إلى «حيث نزول
الفواصل، ويصبح الباطن والظاهر واحداً»، وإلى «حيث تتحول الحياة إلى ما يشبه النشوة
الدائمة» وهذه النشوة هي الحياة على أشد ما تكون من «الوعي والحسية»! وأن الحلم «شكل
آخر للخمرة. إنه اليقظة» . . .⁽¹⁸⁾!

كما يعتمد الباحث، كمسلمات، مقولات هي بدورها لا تقنع كما لا تستبعد التناقض

(16) ديوان أبي نواس . . . مذكور سابقاً، ص 147

(17) د. علي شلق: أبو نواس بين التخطي والالتزام؛ مذكور سابقاً، ص 101.

(18) أدونيس: الثابت والتحول . . . الكتاب الثاني . . . مذكور سابقاً، ص 110 - 111.

فيما بينها، فيعتبر أن «انتهاك ما حرّمه الله، إنما هو خروج على الله نفسه». . . «وهذا الخروج يجعل الإنسان مساوياً لله، وشبيهاً به»، ذلك أن الإنسان «حين يخرج المحرّم يتساوى بالله، لأنه يقيم بينه وبين ما يحرقه علاقة التبعية»، و«أن التساوي بالله يقود إلى نفيه أو قتله». . . لكن الإنسان «الذي يشعر بحريته» والذي هو بذلك أرقى من الخارق للمحرم، يسعى لأن يكون «في مستوى الخليفة»⁽¹⁹⁾. . . كأن الخليفة أرقى من الله! يبرز تهافت المنطق المعتمد هنا خاصة في هذا القفز الأرعن من مستوى إلى آخر بخفة تبدو مناقضة لرجاحة عقل متوقعة. إذ كيف ينتج عن الخرق تبعية، وعن التبعية مساواة، وعن المساواة نفي أو قتل؟! وكيف يكون الشعور بالحرية أرقى من الخرق، وتوقفاً للمساواة بالخليفة بعد أن كان الخرق مساواة بالله؟! مساواة بالله؟!

وحين يعتبر أدونيس أن هذا الإنسان المتحرّر «يستقبل الموت بالفرح نفسه الذي يستقبل به ملذاته»، ويكمل «ذلك أنه يتساوى عنده، بفضل امتلائه بالحرية، الحياة والموت»! ويخلص إلى القول: «بل إنه قد يفرح بالموت أكثر من فرحه بالحياة نفسها» فالموت تتويج للذات⁽²⁰⁾. . . ! فإنه يبلغ في خفة منطقه شأواً بعيداً، حيث لا تقود الحرية إلى الموت وحسب، بل تجعل من الموت هدفها الأرقى والأعمق والألذ! لكن، ما دام الأمر كذلك، لماذا يؤخر (الإنسان/ أبو نواس؟) مجيء الموت «حتى لشعر أن الموت لا يجيء أبداً»⁽²¹⁾؟!

فيما يتعدى هذه المغالطات الفاقعة وأمثالها، نتوقف عند حكمين أشد خطورة، لأنها يتعلقان بجوانب أساسية في إنتاج أبي نواس الشعري.

يتمثل الأول في ما يعلنه الباحث في سياق تبيينه لتجديد أبي نواس الشعري: «يلبس أبو نواس، فيما يشكل صورة العالم، قناع المجنون»⁽²²⁾. ففيها يتخطى الاستعارة المعتمدة إلى دلالاتها يشير التعبير إلى أن المجنون أمر خارجي مستعار، ليس من الذات وغير أصيل ويمكن تغييره باعتقاد أي قناع آخر كالبطولة أو الورع أو الكرم. . . وفي ذلك افتتاح على الشاعر وشعره وتناقض فاضح مع ما كان الباحث نفسه قد ذكره سابقاً من أن التجديد لدى أبي نواس ينطلق من التعبير عن حياته الحاضرة، فهو «يعيد، بدءاً من تجربته، تشكيل صورة العالم»⁽²³⁾، ومع ما يذكر لاحقاً حول الخمرة وأبعادها التحويلية. .

(19) المرجع نفسه، ص 112 - 113.

(20) المرجع نفسه، ص 114.

(21) المرجع نفسه، ص 115.

(22) المرجع نفسه، ص 109.

(23) المرجع نفسه، ص 109.

ويكمن الثاني في ذلك الاستنتاج الذي يُلخص إليه الشاعر بعد استعراضه للأبعاد التحريرية للمجون والخمرة في شعر أبي نواس، حيث يقول: «تكنم جِدَّةُ أبي نواس، إذن، في الكشف عن الطاقات المكبوتة في الإنسان، وفي تجاوز الثنائية بين الذات والكون»⁽²⁴⁾. فإذا تجاوزنا الصيغة التعميمية التي يعتمدها التعبير في استعماله «الطاقات المكبوتة» و«الإنسان» و«الذات» و«الكون»، فإننا لا نرى أن شعر أبي نواس يقدم كشفًا عن المكبوت لديه بقدر ما يعبر على العكس تمامًا من ذلك عن انهماك كلي بالملذات واستغراق عميق في أوجه الاستمتاع، ولا أن هذا الشعر يشير إلى تجاوز الثنائية بين الشاعر - أو غيره؟ - والكون، بل على خلاف ذلك يبين الشعر الحمري عند أبي نواس باستمرار عن بعد بين الذات ومحيطها مجلسًا كان أو عالمًا أو كونًا، حيث يبدو هذا المحيط إزاء الذات التي تشكل محوره وبالخمرة التي تشكل مداره متكوّنًا من معطيات شتى مستقلة عن الذات ولكنها تتجاوب وتتكامل لصوغ مشتهياتها ورغائبها، وفي ذلك اقتراب من المسألة السابقة المتعلقة بالتعبير عن تحقيق الذات لمتعتها وملادها.

تكاد يجمع القصائد الحمريّة تشكّل صيغًا متنوعة في تمثيل ما نذهب إليه، بشكل مباشر وبارز معظم الأحيان. على كل حال، وهذا الأهم، لا نرى أن «جدة أبي نواس» تكنم هنا أو هناك بقدر ما تكنم في الخطاب الشعري الخاص المعتمد من قبله للتعبير عن تجربته، في تلك الخصوصية الجمالية التي تميّز بها هذا الخطاب وميزته عن سواه من الخطابات الشعرية الأخرى. وليست الكليات والتعابير الغائمة والمليئة، ولا الأحكام الاعباطية والجزافية هي التي تساعدنا على فهم هذه الخصوصية وتمثل مكوناتها وأبعادها.

أخيرًا، يأتي التعرّض لأبي نواس في الكتاب الثالث في الجزء الأول من الفصل الخامس فيه، الذي يحمل العنوان التالي: «نحو منهج بنيوي في تحليل الشعر/ دراسات بنيوية في شعر أبي نواس وأبي تمام». ويقدم الباحث هنا دراسة تعتمد «المنهج البنيوي» لثلاثة نصوص لأبي نواس، وذلك بهدف «تطوير منهج بنيوي في تحليل الشعر» و«إضاءة ملامح من بنية القصيدة عند أبي نواس، بتطبيق المنهج البنيوي»⁽²⁵⁾. واضح إذن من عنوان الفصل، فضلًا عن عنوان الكتاب ومن تحديد هدف الدراسة، هذا التشديد على المنهج البنيوي في مقارنة النصوص الأدبية. وبذلك تتميز هذه الدراسة عن سابقتها وعن معظم الدراسات الأخرى السائدة للشعر بسمتين:

(24) المرجع نفسه، ص 111.

(25) كمال أبو ديب: جدلية الحفاء والتجلى... مذكور سابقًا، ص 168.

أولاهما ارتكازها إلى منهج في البحث محدد تعلقه وتعمل على الالتزام به، وبذلك تسير على أسس موضوعية في الوقت الذي تقدم فيه هذه الأسس سافرة، فتتيح متابعتها والحكم على مدى فعاليتها وتناسبها بناءً لمقاييس واضحة ومحددة.

ثانيتهما، اختيارها للمنهج البنوي بالتحديد، وهو منهج يبدو حتى اليوم أكثر المناهج المعرفية كفاءة وملاءمة في الدراسات الإنسانية والأدبية والشعرية، ومن النادر وجود بحث أو دراسة حديثة ذات قيمة أو جدوى في هذه المجالات لم تلتزم هذا المنهج بصورة واعية أو غير واعية.

مع ذلك فإن العمل المتحقق في دراسة شعر أبي نواس في الكتاب المذكور، رغم أنه من أكثر الأعمال جدية ورسالة التي أتت لنا الاطلاع عليها، حفل - للأسف - بالعديد من الأخطاء إلى حد يثير التخوف من إمكان انعكاس «تطبيق المنهج البنوي» على «برهنة إمكانات المنهج» المذكور سلباً، ويُساء إلى هذا المنهج بصورة غير مقصودة. ولما كان المجال هنا محدوداً لا يتيح التطرق إلى الأخطاء العديدة التي يحفل بها العمل على مستوى التحقيق والممارسة، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى بعض العينات الخاصة بالتفاصيل دون أن يعني ذلك عدم أهميتها، فهي غالباً ما تكون حاسمة باعتبار أنها مرتكزات تحديد البنية محور البحث بأكمله، على أن تشير بإيجاز إثرها إلى عينات متعلقة بالمنهج البنوي العام للعمل ككل.

في سياق بحث ما يسميه د. أبو ديب «الثنائيات الضدية بين الحركتين»: الخمرة والأطلال في القصيدة الأولى التي يدرسها («صباح»)، يأتي على ذكر «ثنائية الفرد - الجماعة» في «الحركة الثانية»: «الشاعر وصحبه / الفرد الواقف في الأطلال»: (أسأل / سألتهاها)⁽²⁶⁾. ومن الواضح أن هذه الثنائية هنا هي غير ضدية إن لم تكن تماثلية، وهذا ما يغفل الباحث عنه، كما يغفل عن ذكر العلاقة في هذه «الحركة» بالذات بين جماعتين (نحن والظاعنين)، كي لا نقول بين الجماعة (نحن) أو الفرد (أنت) والفرد (هي: الدار)، كما يفترض في تمثل المنهج البنوي أن يؤديه؛ حيث لا يجدر بالفردية أن تقتصر بالضرورة على الشخصية الحية وحسب، بل يمكن لأي عنصر مكون من عناصر التعبير يدخل في شبكة العلاقات الحيوية التي تحكمه أن يتناول كـ «شخصية» فاعلة مثلها مثل الشخصية الحية. لكن الباحث أشار إلى علاقة أخرى بين جماعتين، بين «الندامي» و«الصالحين» (وهو في الحقيقة بين «نحن» أي الشاعر وصحبه الذين يدعون ابنة الشيخ بلسان الشاعر أن تسقيهم الخمر، و«الصالحين».

(26) المرجع نفسه، ص 173.

وإذا كانت المنادمة تعري الباحث، فكان الأجدد به أن يقول: «المتنادمين» ينشأ عنها «في الحركة الأولى انفصام واحد فقط»، ويعتبر أن الصالحين هؤلاء «في الواقع ألصق بعالم الحركة الثانية، لأنهم ينتمون إلى التراث الأخلاقي - الديني، والأطلال تنتمي إلى التراث الثقافي - الفكري. وكلا التراثين يستقي من الجذور ذاتها. فهما، رمزياً، تراث واحد»⁽²⁷⁾.

في هذا التعليل أولاً مغالطة خطيرة قائمة في الخلط بين «التراث الأخلاقي - الديني» و«التراث الثقافي - الفكري»، حتى أنه يوحد بينهما. فمن الواضح أن الشعر السطلي المتعلق بالتراث الأخير، يجعل هذا التراث يمتد إلى ما قبل الإسلام، بينما يجعل ارتباط «الصالحين» بالتراث الأول هذا التراث خاصاً - على الأرجح - بالدين الإسلامي وأحكامه؛ وكل من هذين التراثين مختلف ومتمايز في طبيعته عن الآخر، وفي جوانب عدة مناقض له، والادعاء بأنها «تراث واحد» مغالطة لا يتحقق من فحصها الإطار الرمزي الذي يجعل لهما، إذ ليس كل «صالح» نصيراً، حكماً، للطلل، عداك عن عالمه ولو «رمزياً»! هذا إذا قرأ الرأي أصلاً على اعتبار «الصالحين» ينتمون إلى التراث الأخلاقي - والديني»، كما يقول الباحث. فعبد الرحمن صدقي لا يجعلهم بعيدين كثيراً عن الماجنين أمثال أبي نواس، حين يعتبرهم من أولئك الذين يشربون الأنبة المختلفة والخمر المطبوخة، وهما ما «اختلف الفقهاء فيها تحريماً وتحليلاً، مشيراً إلى أبيات أبي نواس موضوع البحث هنا تحديداً»⁽²⁸⁾.

بيد أن المغالطة الأخطر هي ما ينتج بنوياً عن اعتبار الباحث «الصالحين» «ألصق بعالم الحركة الثانية»، وهو ما يؤكد لاحقاً ضاماً إليهم البخيل⁽²⁹⁾، بعد أن أهمل ذكر علاقة هذا الأخير «الفرد» بـ «الجماعة» (نحن) في سياق الثنائية الضدية التي قام بمتابعتها بين الفرد والجماعة. فمثل هذا الاعتبار يجعل «في الواقع» الحركة الثانية تبدأ من البيت الرابع في القصيدة وليس من البيت السابع، فتقتصر بذلك «الحركة الأولى» على ثلاثة أبيات؛ بينما تستحوذ «الحركة الثانية» على الأبيات الستة اللاحقة. لكن هذه النتيجة تقلب رأساً على عقب رؤية الباحث البيوية للنص بأكمله، وتجعل الاستنتاجات الدلالية التي يتوصل إليها، انطلاقاً من هذه الرؤية بالذات موضع شك على أقل تقدير. فهو كان قد لاحظ «فوراً أن الحركة الأولى تشغل الحيز الأعظم من القصيدة، ثلثيها، أي أنها تبلغ ضعف الحركة الثانية»، مضيفاً بغبطة تتردد بصورة لافتة في كتابه: «ومن الشيق أن الحركة الأولى تتألف من أربعين وحدة لغوية (كلمات + حروف جر)، بينما تتألف الثانية من نصف هذا العدد، عشرين وحدة

(27) المرجع نفسه، ص 173.

(28) عبد الرحمن صدقي: الحان الحان؛ القاهرة - دار المعارف بمصر د. ت. ص 202 ثم ص 207.

(29) كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي... مذكور سابقاً، ص 175.

لغوية»⁽³⁰⁾ . . . ليؤكد لاحقاً «أن للملامح التي ذكرت سابقاً عن حجم الحيز الذي تشغله كل من الحركتين دلالات عميقة. ومن الجلي أن الحركة التي تشغل الحيز الأعظم (الخمرة) تمثل عالماً مركزي الأهمية يرتبط به الشاعر ارتباطاً جليماً وأن الأطلال التي تشغل الحيز الأصغر تمثل عالماً جانبي الأهمية في رؤيا الشاعر للوجود»⁽³¹⁾ . . . من نافل القول التشديد على أن الرؤية البنيوية السليمة وما يمكن أن تتيحه من استنتاجات على مستويات عدة، لا يمكن أن تتم بناء على إغفال عناصر وإبراز أخرى على القدر نفسه من الأهمية، أو اعتماد مقاييس مختلفة بالنسبة للموضوع الواحد دون مبرر أو دون الأخذ بمضمونها.

إن التدقيق في مختلف التفاصيل يستدعي إطالة قد تحل بسياق البحث أو تخرج مقدمته عن غايتها المتوخاة، لذلك نكتفي بتعداد بعض العينات الأخرى حرصاً على الفائدة المرجّاة، من ملاحظتها. فلا يصح مثلاً اعتبار الطلب في «أصبحينا» يعني «استجابة الساقية فعلاً»، والقول بأن «انعدام الاستجابة» الخاص بالأطلال قائم في مطلع «حركة الأطلال»، والاستنتاج بناءً لذلك «ثنائية ضدية على صعيد الاستجابة»⁽³²⁾ . . . وتأكيد بالقول: «وشيق جداً أن عمليتي الانقسام هنا تشكّلان ثنائية ضدية: ابنة الشيخ تستجيب/ الأطلال لا تستجيب»⁽³³⁾ غير سليم، ويرتكز بوضوح على تحريف أو انحراف تأويلي. وعدا عن الفذلكة المضطربة في تمييز انقسام شاقولي إلى جانب آخر أفقي في القصيدة، فإن جعل الانقسام الشاقولي «يضع الشاعر في مواجهة الآخر - بوصف الآخر المجسّد للقيم الأخلاقية الجماعية: شراب الصالحين، البخيل»، والادعاء بأنه «هذا الانقسام أيضاً تشكل ثنائية ضدية طرفاها الأنا/ الآخر»⁽³⁴⁾ فيه شطط في أكثر من جانب، باعتبار أن البخيل - إذا تركنا الصالحين جانباً - لا يجسّد القيم الأخلاقية الجماعية بل على العكس من ذلك تماماً إن الكريم هو الذي يمثلها مبدئياً. كما أن المواجهة القائمة في القصيدة ليست على الإطلاق بين الأنا والآخر، فالنص بأكمله لا يعتمد أي ضمير للمتكلم المفرد، وإذا كان هناك من أنا فهي قائمة في الـ نحن التي تشتمل على آخر. . . أما «المخطط» الوارد (ص 177)، فإنه يتناقض مع ما سبقه من تحليل، إذ نجد «نشر» التي تتضمن «الأنا» حسب الباحث قائمة في موقع «الآخر»، ونجد «قف» التي تتضمن «الآخر» حسب الباحث دائماً - قائمة في جانب

(30) المرجع نفسه، ص 171.

(31) المرجع نفسه، ص 175.

(32) المرجع نفسه، ص 174.

(33) المرجع نفسه، ص 178.

(34) المرجع نفسه، ص 176.

«الأنا»؛ عدا «البخيل» الموجود بدوره في موقع «الخمرة»... الخ. أما الشطط الأكبر فاعتبار الباحث «ابنة الشيخ» «ابنة التراث الأخلاقي»⁽³⁵⁾ على أن الشيخ «مجسد التراث الأخلاقي - الديني والشعري أيضاً»⁽³⁶⁾. . . . ذلك أننا لا نجد ما يبرر التماهي أصلاً بين الابنة والأب، ولكننا خاصة لا نجد ما يبرر اعتبار الشيخ مجسداً حكماً لهذا التراث حين لا يكون في النص أي قرينة تسمح بمثل هذا التفسير، وبالتالي لا يمتنع الأخذ بالمعنى اللغوي القاموسي (الشيخ «الذي استبانته فيه السن وظهر عليه الشيب» . . . ويطلق اللفظ أيضاً للتبجيل على صاحب مركز أو علم أو فضيلة . . . إلخ؛ بحسب لسان العرب والمنجد في اللغة والأدب والعلوم) بل يجدر الأخذ به قبل أي معنى آخر إذا جاء متناسباً مع السياق الذي يأتي فيه بشكل يفرض نفسه بقوة كما هو الحال هنا. ومثل ذلك، اعتباره ارتباط أفعال الأمر ببعضها في الأبيات الستة الأولى «يجعل صرف الخمرة عن البخيل فعلاً مركزياً في الحركة الأولى»⁽³⁷⁾!

كما لا يفوتنا اعتماد الباحث مفاهيم غير دقيقة، قلقة ومطاطة في آن، كما هو الحال بالنسبة لـ «حركات» القصيدة التي هي «العلامات التي تتكون منها بنية القصيدة» أو «المكونات البنوية»⁽³⁸⁾، وإنما هي أيضاً «شرائع القصيدة»⁽³⁹⁾؛ وأحياناً تتألف الحركة من عدة جمل، وأحياناً أخرى تعتبر الحركة جملة مؤلفة من عدة حركات⁽⁴⁰⁾. . . الخ.

في دراسة الباحث للبنية الإيقاعية لنص القصيدة («صباح»)، يبدأ مستخدماً «مفهوم النبر»، معتمداً المبادئ التي طورها في كتابه في البنية الإيقاعية للشعر العربي، ومقتصراً في ذلك على مقارنة «الأبيات الثلاثة الأولى (بوصفها آباب حركة الخمرة) مع الأبيات الثلاثة الأخيرة - بوصفها حركة الأطلال في القصيدة»⁽⁴¹⁾. فإذا تجاوزنا التناقض الفاضح بين ما يجري إعلانه هنا من قيام «لباب حركة الخمرة» في الأبيات الثلاثة الأولى وبين ما سبق ذكره من اعتبار صرف الخمرة القائم في البيت الخامس «فعلاً مركزياً في الحركة الأولى»⁽⁴²⁾، ولم نتوقف عند التفاصيل الخاصة باختلاف مواقع «النبر اللغوي» باختلاف القراءة واللفظ، والمقارنات

(35) المرجع نفسه، ص 177.

(36) المرجع نفسه، ص 178.

(37) المرجع نفسه، ص 179.

(38) المرجع نفسه، ص 171.

(39) المرجع نفسه، ص 175.

(40) المرجع نفسه، ص 194.

(41) المرجع نفسه، ص 182.

(42) المرجع نفسه، ص 179.

العديدية التي تجري قراءتها بشكل مفتعل، فإنه لا يسعنا إلا تأكيد أمرين بخصوص هذا الجانب من الدراسة. الأول خاص بالمغالطة الأساسية القائمة في ادعاء دراسة البنية الإيقاعية، في حين تجري فيه مقارنة الأبيات الثلاثة الأولى بتلك الأخيرة، مع ما في ذلك من امتهان لمفهوم البنية بالذات باعتباره متعلقاً أصلاً بالنص ككل وليس بأجزاء مقتطعة من مجموعته وسياقه. والقول بأن «المنهج البنيوي يرفض هذا التناول الجزئي ويتهمه بالعجز والقصور»⁽⁴³⁾، هو قول يصدق على ما يقوم به الباحث هنا بقدر ما يتناقض مع ادعاءاته. وإذا لاحظنا أن هذا الاجتزاء الذي يقوم به يبتر الوحدة التعبيرية النحوية القائمة في البيتين الثالث والرابع، تبيّننا بالتحديد التشويه الذي يأتي به هذا الاجتزاء هنا! فإذا أضفنا إلى ذلك المفارقة الحاصلة وغير المعللة بين دراسة البنية الإيقاعية على الأساس العروضي وبين ما سبقت مقارنته نبرياً⁽⁴⁴⁾، فلا يسعنا إلا التشكيك بجديوى مثل هذه التعقيدات التي تحرف البحث البنيوي أكثر مما تلتزم به، وتعيقه أكثر مما تيسره.

لا تخرج الدرستان اللاحقتان لنصي «اللباب» و«ذهب منسكب» لإبي نواس عن هذا النمط، الذي لاحظنا بعض سماته بخصوص «صباح». بل يمكن القول إن دراسة النص الأخير هي أرقى من اللتين تليانها. فالأولى من هاتين مثقلة بافتراضات ذاتوية يسقطها الباحث على النص، يعبر عنها بوضوح الجدول أو «المخطط» المثبت في الصفحات 200-202 ... بالإضافة إلى رؤية كاريكاتورية لبنية القصيدة تميز حركتين في القصيدة تتألف كل منهما من جملتين ... وأحكام مخلوطة مرتبطة بها مثل اعتبار «الجملة (ب 2) تخرج الطلوع من القصيدة وبنية التجربة، إذ تنهي عن ذكرها» ... ومثل القول: «تستثير الإشارة إلى الطلوع الفعل: اسقنا نعطق (...). ثم تستثير الجملة «عفته مكرهاً وخفت الأمانة» سلسلة أفعال الأمر «أدر الكأس... وانقر الدف... ودع ذكر الطلوع»...⁽⁴⁵⁾ مع ما فيها من تناقضات...

أما الثانية فيصل فيها الانحراف والتشويه إلى الحد الأقصى، حيث تبدى الدراسة البنيوية عن ذاتوية قاصرة تفرض اسقاطاتها على النص وكان الثنائية الضدية بين الخمرة والأطلال هاجس مرضي لدى الباحث فيراها حيث لا تكون؛ إذ يجد في «حركة الأطلال» «تكتيفاً

(43) المرجع نفسه، ص 170.

(44) قارن على سبيل المثال التناظر العروضي بين البيت الأول والبيت السابع (المرجع نفسه ص 187) والتباعد بينهما في عدد النبرات وتطابق النبرين الشعري واللغوي (المرجع نفسه ص 183).

(45) المرجع نفسه، ص 218. لاحظ أيضاً «أن الجملة» الواردة هنا هي في الحقيقة جملتان.

وتجميعاً لرموز أساسية في التراث الديني، أولاً، ثم الفكري واللغوي، ثم التاريخي⁽⁴⁶⁾؛ ليمضي من فهم مغلوط لمطلع القصيدة وبالتالي الجمالية التعبير فيه، حيث يصبح ذكر أماكن ارتياد الصبا والفتوة والصحب ذكراً للأطلال الدارسة والعافية، إلى استنتاجات خارقة في اقتنائها على النص وتحريفه . . .

نكتفي بهذا القدر من الإشارات السريعة، فليس هنأ متابعة مغالطات وأخطاء الآخرين وإنما التمهيد لدراسة نص لأبي نواس، بإبراز ضرورة التخلي عن الأحكام المسبقة وأهمية الانصراف إلى معانية ودرس النصوص بطريقة منهجية سليمة، بهدف القبض على الخصوصية الشعرية التي تتمتع بها؛ ولا يجدر النظر إلى الملاحظات الأتفة إلا ضمن إطار هذا الاهتمام المنهجي وحده ومتطلباته.

ثانياً: التشكل البنوي للقصيدة:

يرتكز هذا النص على العلاقة التي يقيمها بين الخمرة والمهم.

فالهم كعنصر سلبي يحمل الحزن والكدر إلى صاحبه، كداء يعانیه هذا الأخير، يجد في الخمرة دواءه، فهي المنوطة بعلاجه ويشفاء صاحبه منه. وهي، كعنصر إيجابي، ليست كذلك إلا لخاصيتها الأساسية باعتبارها عنصر فرح ومسرة، وهذه المقدرة لديها على تحويل كل ما اتصل بها إلى مماثل لها في خاصيتها المذكورة.

تبدو الخاصية الأساسية للخمرة على هذا النحو نفسية أو «روحية»، انطلاقاً من الأثر الذي تجعله في النفس. هذا الأثر هو بالتحديد تفريري، فالخمرة تزيل الغم عن النفس فتخلصها وتنقيها من متاعبها. لكنها لا تقوم بهذا الدور العلاجي، المداوي، إلا لكونها، بحد ذاتها، عنصراً مناقضاً للهم وغالباً له. وهما لا يمكن أن يجتمعا لأنها تلغيه ما إن يلتقيا. وإذ يطلبها الشاعر ويلج في استسقاتها يبين أهمية ميزاتها الاستشفائية الساحرة. فهي التي تحول المعاناة إلى فرح، والشر إلى خير، والظلمة إلى نور، والنزاع إلى ائتلاف، والعذاب إلى مرح. . . تتبدى في هذه المقدرات الذاتية على الفعل والتأثير الإيجابيين في العناصر السلبية المختلفة للوجود عنصراً يتخطى في خصائصه إبادته للهم، ليصبح مكوناً لكل ما هو لذة ونشوة وفرح في هذا الكون.

ولما كان النص يعبر عن هذا الدور الخصوصي والتميز للخمرة، فإن بنيتها تبدو، على هذا الأساس، قائمة على الإقبال على الخمرة والإلحاح في طلبها كي تبدد بقدرتها الشفائية ما

(46) المرجع نفسه، ص 221

تعانيه النفس، من غم وكدر، كما يتمثل ذلك على أوضح ما يكون في أحد مجالسها. وإذا كانت هذه البنية معلنة في البيت الأول من النص، فإنها تبين أهمية المطلع إجمالاً في التعرف إلى البنية العامة التي تأتي الأبيات اللاحقة لتحديد التشكل الخاص الذي يتخذه انتشارها أو التركيب المتميز الذي تندرج فيه. فمنذ الشطر الأول يتحدد موقف قاطع بالقضاء على الحزن والكمند من جذوره وذلك بواسطة الخمرة. فيتمثل فيه التناقض بين الخمرة والحزن من ناحية، وغلبة الأولى على الثاني من ناحية ثانية، مع ما يؤديه ذلك من تضمين للمقدرة الحارقة للخمرة على النفس وللفعالية الفرجية التي تنتج عنها. والقصيدة بأكملها تمثل وتوضح وتفصيل لهذا الطرح الأولي. والنظر إليها على هذا النحو قد يخلص إلى أن هذه البنية المعلنة تتمثل في النص عبر توزيع أساسي يجعله قسمين رئيسين: الأول هو إعلان الموقف الاستعانة بالخمرة على الهم (أو طلب الخمرة) وهو يقتصر على البيتين الأولين؛ الثاني هو إظهار لخصائص أو مزايا الخمرة بإبراز عملي لأثرها وفعالها، كمنصر يحول كل ما يمسه إلى فرح ومسرة (أو وصفها في إطارها أو مجلس شربها) وهو قائم في الأبيات الثانية اللاحقة.

تجدد الملاحظة مباشرة أن هذا التوزيع لا يعني تقطيع وحدة النص.

فالقصيدة تتمتع بوحدة داخلية ذات بنية متناسكة يستحيل التعرض لها بتقسيم أو تجزئة، دون خطر الإساءة إلى النص ودلالاته. فهذا النص في الحقيقة تعبير كلامي يتكون بالتنامي، تتولد أجزاؤه تبعاً من بعضها البعض، وتحديد القسمين هنا لا يعني أكثر من إبراز الانعطاف الكبير الذي يعرفه هذا التعبير في مراحل التنامي المختلفة التي يتضمنها النص. وإذا كان بالإمكان تناوله في وحدته الكلية مباشرة، فإن اختياراً كهذا لا يلغي التعرض إلى مراحل التنامي والانعطاف الأهم الذي تعرفه فيه، بحيث تبدو الإشارة بدءاً إلى هذا التوزيع مساهمة في استيعاب تكوينه البنوي وفي توضيح وتسهيل متابعة عملية التحليل والدرس.

قد يكون إمعاناً في التقسيم والتبسيط، إنما لا يخلو من فائدة، ملاحظة انعطافات داخلية في النص عبر كل من القسمين المشار إليها أعلاه، أقل أهمية من ذلك الذي حددتهما. ضمن هذا المنظور، نلاحظ في القسم الأول انعطافاً أو تطوراً داخلياً يخرج المعنى المطروح في مطلع النص من مجاله النظري البحت إلى توجه نحو الممارسة، جاعلاً في هذا القسم جزءين: الأول موقف إرادي افتتاحاً يقتصر على إعلان نية أو عزم الشاعر على التداوي بالخمرة، على شربها باعتبارها شافية له من الهم، وهو موقف «نظري» يقتصر على البيت الأول. الثاني يتجاوز لهذا الموقف النظري بتوجه عملي، بطلب شرب الخمرة أو استسقاؤها قائم في البيت الثاني، وهو موقف لا يشكّل ممارسة للشرب وإن تجاوز النية في السعي إلى تحقيقها، فهو وسط بين

النظر والتطبيق على انتهاء إلى موقع النظر أقرب منه إلى موقع التطبيق، باعتبار أن الممارسة - الشرب هي المعيار. لذلك يبقى البيتان في قسم مستقل، إنما غير منفصل، عن القسم الثاني اللاحق الذي يتسم بالممارسة.

في هذا القسم الثاني، بالإمكان ملاحظة أجزاء ثلاثة داخلية يعينها تطور عملية الشرب ذاتها وتنامي التعبير عن التجربة الخاصة المرتبطة بها:

الأول يتناول تقديم الخمرة في الكؤوس للشاربين، وفيه تتمثل الخطوة الأولى نحو الشرب أو بداية الممارسة، فهو جزء لا يتجزأ من عملية الشرب الكلية، ولا معنى له إلا عمداً لهذه العملية تحديداً، وهو يقتصر على البيتين الثالث والرابع.

الثاني، يؤدي عملية شرب الخمرة في جوها الخاص، محمداً شاربيها أو المتنادمين الذين يتناولونها ومشيراً إلى امتداد الاستمتاع بها في مجلسها المتميز، معيّناً جمال وجاذبية الساقى أو الخمار الذي يبذلها لهم ومعلنناً البعد الغرامي العميق الذي يربط الشاعر بهذا الساقى الأسر الحسن، وهذا الجزء قائم في الأبيات الأربعة اللاحقة (من البيت الخامس إلى البيت الثامن).

أما الثالث، فتمثّل مرحلة متقدمة من الشرب، حيث يدخل الشاربون في جو السكر والطرب ويصدح صوت الساقى أو الخمار بالغناء فيستمع الحضور، إلى جانب الخمرة، بصوته الجميل، وهو ما يعلنه البيتان الأخيران (التاسع والعاشر).

تضح من خلال هذه العناوين الأولى عملية التنامي والتطور التي تعرفها التجربة من المشروع وطلبه إلى تحقيقه، بدءاً من تناول الكأس وصولاً إلى السكر والنشوة.

وتأتي القصيدة في تشكّلها على هذا النسق نفسه من التنامي، وتحفظ في بنائها بوحدة متياسكة ومتفردة كتباسك وتفرد وحدة التجربة ذاتها التي تعبر عنها، حيث تمثل عملية شرب الخمرة في تناميتها المشار إليه عملية التداوي من الهمم والتخلّص منه حتى بلوغ أقصى حدود النشوة والفرح.

لكن النص، في تشكّله على هذا النحو، يقيم صلة رهيبة بين ما يقوله وما يوحي به، يصبح بناء لها العالم اللفظي الذي يبينه معادلاً للعالم الخمري الذي يدل عليه؛ بحيث إن بدء القصيدة الخمرية إذ يأتيها من خارجها حافلاً بالرواسب السلبية التي يحملها من هذا الخارج المشوب بلوثة الهمم والتعاسة، يتحوّل دخولاً في نصها وجوها اندراجاً في عالم مناقض لذلك الخارج، ليتهي بمن يتولاه إلى نشوة وطرب مناقضين للرواسب التي كانت تثقل نفسيته، فيخرج من عالم القصيدة، إذ يبلغ نهايتها إلى خارجها من جديد وإنما نقض ما كان عليه حين

دخلها خفيفاً مرحاً مغرداً... لكن ما يجدر الانصراف إليه، فيما هو أبعد من الاستجابة المتسعة لإغراءات النص، هو البحث في التكوين الدلالي الخاص لتشكُّله البيوي الملاحظ أعلاه، فقد يتيح بحث هذا التكوين الدلالي التمهيد الملائم لرؤية جمالية النص، خاصة في تناسب مستوياته البنيوية الإيقاعية والنحوية والأسلوبية، مع بنيته الدلالية ومع الأبعاد الذاتية والاجتماعية التي تزخر بها، على أن يكون في توضيح ذلك إبرازاً للخصوصية الإبداعية للنص والشاعر.

ثالثاً: انتظام التكوين الدلالي للنص:

يتم فيما يلي بحث التكوين الدلالي للنص، ضمن أو في إطار التشكُّل البيوي العام الذي يحكمه.

١- ضرورة الخمرة:

أ - يبدأ مطلع النص عنيماً قوياً، معبراً عن إصرار حاسم على التخلُّص من الحزن بالخمر، وربما عن بالغ المعاناة التي تستدعي عنفاً ماثلاً. ويتخذ هذا التخلُّص هيئة الفصل والبتر والقتل. ولما كان يميح بعنصر سلمي ومؤذٍ فإنه يبدو أمراً إيجابياً وإصلاحياً. وإذا تتحدَّد الخمرة وسيلة لإنجاز عملية الخلاص والإصلاح هذه، فإنها تتقدَّم كعنصر إيجابيٍ إصلاحي. وعلى هذا النحو، تصبح عنصراً مطلوباً بل ضرورياً. ذلك أنها تؤدي دوراً تفرجياً وتحريراً وإحيائياً، ويصبح الاتصال بها على هذا الأساس همّاً وجودياً. ووجود هذا الطرح في الشطر الأول للبيت الأول يجعله يتقدم كمطلع بنيوي كما أشرنا أعلاه، كمفتاح للقصيد أو مدخل إلى سرها التكويني. ويقوم الشطر الثاني من البيت المذكور بإعلان ما هو متضمَّن في الشطر الأول، والذي كان وراء الموقف المعلن فيه: فالخمرة دواء ناجع للحزن، بل إنها أحسن دواء يمكن اللجوء إليه، فهي الطيب الأفضل. يعطي هذا الإعلان للموقف الأول مزيداً من الصلابة والقوة، لأنه يبرز المنطق الذي يقوم عليه، فيبدو بذلك معقولاً ومقبولاً. إلا أن تقدُّم الشطر الثاني كتفسير وتوضيح للشطر الأول ينزع عن هذا الأخير بعضاً من عنفه، فتتخف حدة التعبير دون أن تتراجع حدة الحسم فيه. وبإكتمال البيت الأول يكتمل الطرح الأولي الذي تعلنه القصيدة وتعلن فيه بنيتها العامة، في الوقت الذي تتلو فيه مرتكزات موقفها الأساسي.

ب - لما كان هذا الموقف على قدر كبير من الأهمية وعلى قدر كبير من الجدية والمنطق، فإن الأخذ به لا يتأخر لحظة واحدة. ويأتي البيت الثاني تمثيلاً مباشراً لهذا الأخذ من خلال طلب الشاعر الحثيث سقيه الخمرة. لكن في هذا الأخذ السريع إشارة إلى اشتداد الداء

أو ثقل وطأته، فيكون الانكباب المتدافع على الدواء تعبيراً عن الحاجة الماسة إليه، بقدر ما يمكن اعتباره تأكيداً لصحة المنطق المعتمد.

وإذا كان الطلب يقصد أحسن أنواع الخمر⁽⁴⁷⁾، فإنه يعبر عن معرفة وخبرة بها بقدر ما يعبر عن الحاجة لأرقى دواء وأكثره فعالية، في إشارة غير مباشرة لقوة الهم المتمكن في نفسه ولاحتراف معالجته. فالخمرة المطلوبة عنصر راقٍ، رقيق وعريق. بالإضافة إلى الجودة التي توحى بها الصفات المتعلقة بهذه الخمرة، فإن السلاف تعني خلاصة الخمر الصافية الرفيعة، وهي في مقدمة جميع أنواع الخمر أشرفها وأعظمها على الإطلاق. ولينها صفة ملازمة لها، بل قائمة في تكوينها وتولدها باعتبار سيلانها اللطيف خارج أي عنف يتعرّض له سواها بالعصر أو غيره. كما أن احتجابها دليل على تلك الرعاية التي أخذت بها والتي تصونها عن الطارئ والزمني والموت، محوِّلة هذه العوامل جميعاً السلبية في حد ذاتها إلى عوامل إيجابية. هكذا ينهض وضع ومنطق متميزان عن الوضع والمنطق الطبيعيين إذ بقدر ما يمر الزمان بقدر ما ترتقي جودة الخمرة، وذلك بفضل العناية الإنسانية بها. فالعمل أو الجهد الحضاري للإنسان في اثتلافه مع النتائج الطبيعي يقدم أرقى المواد وأحسنها: الخمرة (السلاف). يتم هذا الائتلاف الذي يحكمه العمل الإنساني، عملياً بين نقيضين: الطبيعة والثقافة متجسدين في العنب وصناعته. ولأنه كذلك يأتي بالمدحش والرائع والساحر: الخمر.

ج - إلا أن الذات الإنسانية هي التي تفيد من هذا الإنتاج الخاص، ففعل الخمرة يتجاوز «الجسد» إلى «الروح»، إذ يترك في النفس أثراً إيجابياً عظيماً.

هكذا ينهض طلبها والسعي لبلوغها والاتصال بها، مقابل الإبعاد والقطع والانفصال عن الهم، ذلك أنها تتقدم لتحقيق إصلاح وإحياء ما خربه الهم وما يهدد به من دمار وموت، فتكون سمة الرّصل التي تميزها مرتبطة بالحياة إزاء سمة الفصل التي تميز الهم والتي ترتبط بالموت، والانتصار لغلبتها ودحرها للهم انتصار للمتعة على الكمد، وللحياة على الموت. بيد أن هذا الانتصار يتم بطريقة متميزة. وسبق وأشرنا إلى أن النص يبدأ عنيفاً، فهو يبدأ دلاليّاً بالقتل والموت. لكن هذا القتل يتم بواسطة عنصر دمّ ولين ورقيق، وفي ذلك مفارقة يتبدى من خلالها أحد مظاهر السحر أو الإعجاز الذي يأتي به هذا العنصر. وكون موضوع القتل هنا هو الهم المؤذي للنفس، تصبح غايته نبيلة بقدر ما هي تخلص لهذه النفس وإنعاش أو إحياء لها. وفي ذلك مظهر آخر من مظاهر سحر الخمر وإعجازها. وإذ تأتي هذه الأخيرة من

(47) راجع عبد الرحمن صدقي: ألحان الحان: ؛ مذكور سابقاً، ص 210 - 212.

أعمق الأرض، فإنها تبدو أقرب إلى الانبعاث والحياة الجديدة التي تنطلق فيها. فكأن هذا التجديد الحيواني خاصة إجازية تكوينية تلتحم مع مظهري فعاليتها الوجودية السابقين، لتؤدي الحارق والعجيب: يأتي الميت، ينبعث من أعماق رماده ليسعف النفس، ينجيها من خطر الموت ويحييها، فانبعاث الخمرة يكون مناسبة لتناولها، وحياتها تقوم في اتحادها بالروح الإنسانية، فتنتعش النفس بها وتنشط وتنطلق حيويتها - وفي عملية الاتحاد والإحياء هذه تتم عملية القتل والتدمير تلك. والقتل قطع وإخراج من الذات (خلاص من الهم) والإحياء وصل ودخول في الذات (شرب الخمرة)، والأمران وجهان لعملية واحدة يؤديها فعل الخمرة السحري العجيب.

الخمرة على هذا النحو أقرب ما تكون إلى إكسير الكيمياء أو حجر الفلاسفة. ففي حين كان بعض علماء العصر يجذون وراء ذلك السائل الذي يطيل الحياة أو يشفي من جميع الأمراض، ويحقق السعادة للإنسان... ولا يصلون⁽⁴⁸⁾، يشير أبو نواس إلى الخمرة، هذا «المشروب الروحي» بامتياز، إلى خالصها وأرقاها، إكسيراً بديلاً، مسكراً، يشفي الروح من مصابها وأحزانها، ويحمل إليها السعادة والفرح، يحييها.

عجائبية الخمرة، كما هي متمثلة بفعلها وبنمط ومدى تأثيرها، قائمة كذلك في أوضاعها المختلفة. فهي حسيباً واجتماعياً شراب محبوب ومرغوب، منيع ولين، يصفى للبدن. إنها عنصر لطيف وراق يواجه تحدي الطوارئ والزمني والموت بالإمعان في اللطافة والرقى؛ وهي بخصائصها هذه تفعل في النفس فعلاً عجيباً فتشفيها وتسعدها؛ وهي لقيمتها المذكورة عنصر غال وثمين يحفظ بعيداً عن مظاهر الادعاء والتطفل، فلا ينالها إلا من يعرف قيمتها ويحسن تقديرها؛ ولما كانت الخمرة قريبة دانية لهؤلاء الأخيرين، فما على المرء إلا تمثّل طريقهم ومتابعة سلوكهم بدل الرزوح تحت المتاعب النفسية الشتى، أو إرهاب النفس ببحث منهك عن إكسير آخر مستحيل.

٢ - شرب الخمرة:

في الانتقال إلى البيت الثالث انتقال من المحجوب إلى المكشوف، من الرغبة إلى المتعة،

(48) راجع معنى كلمة: «إكسير» والكيمياء في المنجد في اللغة والآداب والعلوم - بيروت، المطبعة الكاثوليكية. ومعنى «Elixir» و«Pierre Philosophale» في «Petit Larousse illustré Paris, Librairie Larousse».

وعمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب؛ الطبعة الرابعة. بيروت - دار العلم للملايين، تشرين الثاني (نوفمبر) 1984 ص 79 و 81.

من السطلب إلى التحقيق، من القول إلى الفعل، من الإيجاز إلى التفصيل، من الإشارة إلى الانتشار، من الفصل إلى الوصل، من الهم إلى الخمر.

القسم الثاني بأكمله (من البيت الثالث إلى البيت العاشر) تمثيل لفعل الخمرة العجيب، تصوير دقيق لفعل هذا الإكسير السحري في النفس، وتميل للنشوة الحاصلة في سريانها من الكأس إلى النفس، يأتي تصديقاً لما أعلنه مطلع القصيدة وقسمها الأول.

أ - مثول الخمرة في الكأس مباشرة إثر الطلب الملح لها يدل، فيما هو أبعد من تجاوب الساقى مع الشارب، حيث إن إسراع الساقى يتناسب تماماً مع إسراع الساعى إليها، على هذا الحضور الاستثنائي للخمرة المتناسب مع خواصها. فحضور الخمرة في الكأس حضور خارق وبيدع بقدر ما هو تحقيق لرغبة مواراة مندفعة، وهو حضور لا يتناسب مع متطلبات الشارب الخبير الدقيقة وحسب، وإنما يتناسب كذلك مع وضعها الأسطوري؛ وإذ يعلن النص لونها الأصفر، فإنه يرجح هذين البعدين وتكاملهما.

فالصفراء هي السلاف المعتقة. والصفراء الذهب، الخارج من الأرض. إنها هذا الإكسير العجيب ذو القدرة التحويلية المدهشة، كما يتأكد من خلال فعلها وأثرها في كل ما ومن يمسه. فهذه الصفراء هي أيضاً النار⁽⁴⁹⁾ إن مضيئاً في ذلك، ليس «إلى ما ترى العين» وحسب بل أيضاً «إلى ما يريك العقل»⁽⁵⁰⁾، إلى تكثيف الأبعاد التحويلية الإيجابية التي تتضمنها الخمر في هذا اللون، والنار أحسن العناصر جوهرراً على الإطلاق⁽⁵¹⁾، بل إنها عنصر روحي قدسي إلهي⁽⁵²⁾؛ والبعده الناري في الخمرة هو الذي

(49) يقول الجاحظ في كتاب الحيوان (7 أجزاء في مجلدين. الطبعة الثانية، بيروت - دار صعب 1978): «وقرص الشمس في المشرق أحمر، وأصفر للبخار، والغبار المعترض بينك وبينه (. . .) ومن زعم أن النار حمراء، فلم يكذب إن ذهب إلى ما ترى العين. . .» (المجلد الثاني - الجزء الخامس، ص 208). والنار في الحقيقة بيضاء (المجلد الثاني - الجزء الخامس ص 207).

(50) الجاحظ كتاب الحيوان، مذكور سابقاً، المجلد الأول - الجزء الأول، ص 125.

(51) وقالوا: وليس في العالم جسم صرف غير ممزوج، ومرسل غير مركب، ومطلق القوى غير محصور ولا مصور، أحسن من النار. قال: والنار سهاوية علوية، لأن النار فوق الأرض، والهواء فوق الماء، والنار فوق الهواء. ويقولون: شراب كآته النار، وكان لون وجهها النار، وإذا وصفوه بالذكاء قالوا: ما هو إلا نار. وإذا وصفوا حمرة العرض، وحمرة الذهب، قالوا: ما هو إلا نار» (الجاحظ: المرجع السابق، المجلد الثاني - الجزء الخامس، ص 220).

(52) يعتبرها الجاحظ أكثر العناصر قرابة ومشاكلة للإنسان، يجيا حيث تحيا ويتلف حيث تتلف، (الجاحظ: المرجع نفسه، المجلد الثاني - الجزء الخامس ص 225 - 226).

«قال: وكانت النار معظمة عند بني إسرائيل حيث جعلها الله تعالى تأكل القربان، وتدل على إخلاص =

يفسّر اصطراعها مع الماء. فمزج الخمرة بالماء يؤدي إلى نزاع يتمثل في لفظ ينهى بشر الرقبة. ذلك أن الماء عنصر وضع وسفلي إزاء النار العلوية الرفيعة، واجتماعهما اجتماع ضدين يتنافيان. لكن ميزة الخمرة الأسطورية كأكسبر تكمن تحديداً في هذه القوة التحويلية الحارقة، التي تتجاوز التناقضات إلى أفق من المسرة فاتن. فهي الضد الذي يحول ضده إلى مثيله. هكذا تحوّل الخمرة الإساءة المتمثلة بإضافة الماء إليها إلى مكرومة متمثلة بالسورور، فيطغى الضحك على الجلبة، بل يزيلها ويحتل وحده فضاء الكأس.

على هذا النحو تعلن أولى ميزات الخمرة عن نفسها، فتظهر الصّفة أولى ميزاتها التكوينية المعلنة: ميزة فرح وغبطة، بل تبدو هذه الميزة الفاعلية ميزة تكوينية بقدر ما يمكن اعتبار الضحك الصادر عنها خصوصيتها الذهبية الأولى. وفي هذا الفرع بالذات تكمن إكسبريتها، وفي هذا الضحك الذي يعلنه تستوعب أذى الماء، ولهذا الفرع بالذات فيها تقصد لإزالة الهم والشجن، ولهذا الفرع تعتبر عنصراً روحانياً ومقدساً أو تتخذ طابع الروحانية والقدسية.

ضمن هذا الطرح الدلالي يتضح ارتباط الماء بالهم، فهو مؤذ وسلي مثله، وتعطي الخمرة في سيطرتها عليه، حتى أنها تلغيه، بالفرح والمسرة صورة عن الخلاص من الهم بواسطة. فكما تتخلص الخمرة من أذى الماء تتخلص الذات من أدران الحزن. وتتقدّم الخمرة على هذا النحو عنصراً أسطورياً إعجازياً بامتياز، وتردّي الماء إزاءها عنصراً تافهاً ومبتذلاً ومسيئاً. وإذ يرتبط بالهم والأذى والموت، وإلى العدم يمضي، ترتبط الخمرة النارية بالفرح والخير والحياة، وإلى الوجود تدعو. المشهد الحسي يمثل بعداً روحانياً ونفسياً ورمزياً في آن، يتأكد في الصورة التي يقرب فيها هذا المشهد، حيث يقدم احتدام عنصري الخمرة والماء، باعتباره ينابيع حمرة تنفجر في الكأس إعلاناً لسيطرتها على عالم المزج والحضور، تفرض عليه طبيعتها المرحية، فإذا به ينابيع فرح وضحك تشبه أعينها بأنصاف الأجراس لتقريب معنى الإحساس بتلك الأصوات الخفية الناعمة المتصاعدة من الخمرة المزوجة في الكأس. وربما كان جعلها أنصافاً إمعاناً منه في التدليل على بالغ خفوت ونعومة تلك الأصوات القريبة من همس مناقير العصفير حين تنقد الحب، أو للإشارة لاقتصارها على جانب أو وجه دون آخر. وربما أراد

= المقرب وفساد نية الدغل، حيث قال الله عز وجل: لا تطفئوا النار في بيوت. ولذلك لا نجد الكنائس والبيع أبداً إلا وفيها مصابيح تزهر ليلاً ونهاراً، حتى نسخ الإسلام ذلك وأمر بإطفاء النيران الأبقدر الحاجة (الجاحظ: المرجع نفسه - المجلد الثاني - الجزء الخامس، ص 230 - 231) في حين يقدم المجوس النار على بقية العناصر ويعبدونها (المرجع نفسه، المجلد الثاني - الجزء الرابع ص 177).

بالأجراس تلك الجلاجل التي تعلق للماشية والدواب. إلا أن السياق يدفع لقبولها أيضاً أجراس كنائس وبيع تدعو مؤمنها للمشاركة في احتفالاتها. فلا تؤدي الصورة السمعية البصرية لحركة الخمرة في المزيج بعداً نفسياً فقط، يتمثل في الفرح الذي يدل عليه الضحك خاصة، وإنما تؤدي أيضاً بعداً نفسياً اجتماعياً ذا إيماءات دينية لها طابع طقوسي احتفالي تشير إليه الأجراس المتناصفة، كما أن لها طابعاً قديماً أسطورياً عميقاً يوحي به اجتماع البعدين السابقين في ائتلاف الصورتين في مشهد واحد، يصبح على هذا النحو مشهد اختلاج الفرح وإيقاع المسرة. فهذه الخمرة تعلن عن وجودها الفرحي بهذا الضحك الذي تتردد أصداؤه نواقيس خافتة، تفرح ابتهاجاً بالأعياد أو المناسبات السعيدة، وتدعو أتباعها للمشاركة في هذه البهجة الجماعية، حائفةً شاربها على تناولها إسعاداً للروح وإسراً للنفس.

إن حضور هؤلاء الأتباع مباشر، تدل عليه تلك الكاسات المضيئة في مجلس الخمرة. والإشارة إلى السمة النورانية للخمرة هنا تأكيدٌ لبعدها الناري المشار إليه آنفاً في دورها القدسي الرفيع. وكما يكون العيد فرحاً جماعياً، يتقدم الشاربون في هذا الطقس الخاص ببهجتهم بصورة جماعية. وهم فيه متميزون عن الأعياد الطقوسية اللامخرية بأن المشاركة في مجلس الخمرة امتلاك مباشر لها. وهو امتلاك فردي يتبدى من خلاله وجه آخر من أوجه تجاوز التناقضات التي تقيمه الخمرة، فتألف الجماعية والفردية في جو الغبطة القدسي والنوراني. فالخمرة تأخذ من النار التي تنتمي إليها أرقى ما فيها وأشرف: النور. وهذا ما يفسر تحديداً البيت السابق. فما أتاح تجاوز التناقض مع الماء هو هذا الترفع الذي تنتسب فيه الخمرة إلى نور النار تحديداً. فإذا كانت النار أرقى العناصر، فإن النور هو أرقى ما فيها. وهذا ما أتاح أيضاً للصورة أن تتشكل على هذا النحو مرتكزة على مشهد التعالي الذي يلجأ إلى الضحك ويتوسل النواقيس. والخمرة كنور تدخل في تناقض مباشر مع الظلام الذي يُقدم في النص عبر الليل الشديد السواد. والنور، في المجوسية وتفرعاتها ومشابهاتها الفارسية (من مزدكية ومانيوية...) وفي معظم الأديان المعروفة ومنها الإسلام يتقدم كعنصر خير وصورة من صور الرب أو الإله. بينما يتقدم الظلام كعنصر شر وصورة من صور الشيطان. والنور والظلمة ضدان لا يجتمعان، فإذا التقيا اندحر الظلام إزاء النور. هكذا يتبدد الليل والشر في مجلس الخمر بذلك الضوء المشع منها في كؤوس شاربها، فتتأكد مرة أخرى تلك المقدرة التحويلية للأضداد لدى الخمرة. وتقرب الصورة الواردة في البيت الرابع المعنى. حيث تشبه الكؤوس بمصابيح مشعة في محراب كاهن. وليست الأدوار والصفات الخاصة بهذا

الكاهن⁽⁵³⁾ منقطعة الصلة بسياق التعبير. فهي من ناحية تتم عن التوقد المشع للكؤوس، ومن ناحية ثانية تومىء باعتبار أن الاهتمام بالمصاييح من شؤون الشمس، إلى الشخصية التي أراد الإيجاء بها من خلاله: الساقى أو الختار. فيتأكد انتصار الخمرة النيرة على الظلام، وتألّق الجو القدسي الطقوسي الذي يتم فيه هذا الانتصار كانتصار للخير على الشر. فإذا بالضوء الخمري يحظ الطريق الصحيح للخير والإصلاح نحو الفرح، وإذا بالكؤوس أقرب ما تكون إلى ابتهالات وصلوات لآله الخير والصلاح، رب المتعة واللذة. وتكون الخمرة في بعدها النوراني - الروحاني الجديد محور اجتماع مجلس قدسي مضيء، وتبلور في صفاتها حياة خاصة بالشاريين، نزوة من جسد الليل البهيم المهيمن والعام، محولة كل ما يحيط بها إلى عناصر من جنسها، إلى أضواء مشعة من السعادة والفرح. فيكتمل هنا معنى البيت السابق (الثالث). ذلك أن قرع النواقيس دعوة يلبها الشاربون فيحضرون دون تلكؤ مجلس الخمرة المنير، فتكون لهم حياة وتكون لهم متعة. جملة من طقوس خاصة تشير إلى دين جديد محوره اللذة.

على هذا النحو يتحد الظلام مع الماء، وإذا كان الماء أحد الأسودين⁽⁵⁴⁾، فإن سواده هنا يتجاوب مع سواد الليل ليتفقا معاً في ذلك الموقع الدلالي السليبي الخاص بالهم، إذ ليست السوداء (أو السويداء) إلا تلك الكتابة النفسية العميقة⁽⁵⁵⁾، ليتأكد اجتماعها كلها في موقع واحد، وتناقضها جميعاً مع الخمرة الغنية الدلالات والأبعاد والأدوار.

بيد أن الماء والليل من العناصر القائمة في الطبيعة، والتي تنتمي إلى عالمها المادي والوحيي. بينما تتقدم الخمر باعتبارها عنصراً صناعياً وثقافياً ينتمي إلى العالم الأنسي الروحي والحضاري. وإذا كانت الوحشية الأرض المستوحشة، فهي كذلك الحروف أو انقباض القلب من الخلوة، وهي أيضاً الهم. بينما الضحك إنسي أو إنساني بامتياز، وتأتي الأجراس لتستكمل في التعبير عنه بعده الإنساني في البعد الحضاري. والنور الليلي عمل حضاري إنساني آخر يشدّد على هذه الدلالة الخاصة فيه ذكر المصاييح الموقدة، الذي يدفع مجيئها في المقام الديني الرفيع بهذه الدلالة إلى حد بالغ الكثافة والغنى.

(53) يجعله شياً وهو ومن أفراد الكنيسة القائمين بكل ما يختص بها، والشهاس هو القارىء للإنجيل، المساعد في القداس، هذا على أنه قد يكون من الشهاسة من لم يبلغ الحلم، ويقول القاموس عن الشهاس: من رؤوس النصارى الذي يملق وسط رأسه، لازماً للبيعة (ديوان أبي نواس... ذكر سابقاً، ص 75).

(54) يُقال الأسودان للتمر والماء.

(55) أو كما يقول المنجد: «مرض المايخوليا، وهو فساد الفكر في حزن».

ب - الخمرة، هذه المادة اللطيفة الراقية الآلمية الأسطورية الحضارية إذن، تأتي في تلك الكؤوس البلورية الشفافة، وليدة الحضارة الراقية بدورها، والمناسبة لنورانياتها، فيتناولها شاربيون من الفتيان. مما يجعل القول مترجحاً بين معنى الشباب الغض وبين معنى الكرم والسخاء، أو يجعله قاصداً وجامعاً لها معاً. ومهما يكن المعنى فإنه يبقى في ذلك الحيز الإيجابي الذي يتيح له الاتصال بالخمرة. فكل من الشباب المتضمن لسمة الحيوية والممثل للحياة في لطافتها ونشاطها معاً، ومن الكرم المتضمن لسمة العطاء والممثل لسلوك وقيم اجتماعية إيجابية رفيعة، يتجانس مع الخمرة ويليق بها.

هؤلاء المتنادمون الذين استقطبتهم الخمرة وجمعتهم في مجلسها يتميزون بسمات حضارية راقية. فهم جماعة من المثقفين المتأدين، من ذوي الأخلاق العالية والعلم الركين. فإذا كانت السمة الأولى فيهم قد بدت، رغم إيجابيتها، ملتبسة بين الطبيعة والثقافة، فإن البعد الثقافي الحضاري يبدو هنا، في أدب جماعة الشاربيين، بارزاً وهو يطغى في تقديمهم على ما عداه.

والمتنادمون في مظهرهم كما في موقعهم الاجتماعي من السادة العظماء. وإذا كان الشمم في الأنف يجمع، مثله مثل الفتوة قبله، معنيين: أحدهما، خاص بالجمال وحسن التكوين، حسي مادي ينتمي إلى البعد الطبيعي؛ والثاني - هو المقصود على الأرجح - معنوي نفسي - أخلاقي يشير إلى العظمة والسيادة والكرم، فكلاهما إيجابيان. وهذه الإيجابية تحول كلاً منهما، كما تحولها معاً - وهذا ما قد يكون المقصد أيضاً - الارتباط بالخمرة. ومثل ما لاحظناه بالنسبة للأدب الذي يرجع البعد الثقافي - الحضاري، فإن ذكر سراوة الشاربيين يحيل إلى بعد اجتماعي - حضاري بليغ، تؤكد تلك الإشارة الأخيرة إلى حالهم التي تنفي عنهم أي نقص في هذا الإطار من عجز أو تقصير أو دناءة، بالقدر الذي توحى فيه بانتصاهم السليم.

مجلس الخمرة إذن، مجلس حضاري رفيع. إنها تستقدم الشاربيين إليها وتستقطبهم نحوها، فيبدو عنصرها النوراني مفارقاً للنور الحسي المعروف وأشعته النابذة، إنه نور روحاني جاذب. وهو في جذبه هذا يأتي إليه بنخبة الناس، بأحسنهم وأكرمهم وأعظمهم على الإطلاق. وربما كان هذا المعنى بالذات وراء هذا التعبير الذي يبدأ وكأنه مميّز ودال أكثر منه معدداً: «هذا وذاك وفتيان...» وربما كان هذا المعنى أيضاً وراء تعدد صفات ومزايا الشاربيين تمييزاً لهم بالتحديد عن عامة الناس.

الخمرة بذلك لا تصل الشاربيين بها وحسب، بل تصلهم ببعضهم أيضاً من

خلال هذا البعد الحضاري - الروحي الجامع، بقدر ما تقطعهم عن سواهم ممن هم دونهم حضارة وكرماً، خاصة عن أولئك الأذنياء العاجزين.

فالجذب اختيار وليس فرضاً، وهو في الحقيقة تجاذب يتلاءم فيه الجذب مع السعي. وليس ذلك عن مصادفة أو اعتباطية. فالأسياد الكرام العظام المتقنون وحدهم يعرفون مكانة الخمرة الروحية النفسية، وهم وحدهم يقدرون اللذة الحسية - الروحية التي تأتي بها لمعاطيها، وهم وحدهم الذين يقدرّون على الوصول إليها. فمن يراها محجوبة، ويسمع جرسها الخفي، ويحمل نورها بالبلور، ومن في أنفه شمم... وحده اللائق بها، وحده الذي يستحقها والذي تجذبه ويبلغها. هذا هو غط المريدين الذين يستدعيهم إله اللذة والمتعة. إنهم يريدون عظام يرفعهم ربهم إليه، فيرتقى بهم عن المستوى الإنساني إلى مستواه الألوهي الأرفع. وهؤلاء هم الذين يعاطيهم الشاعر هذا الشراب الساحر. ومعاطاتهم هنا الخمر من قبله ليست مناولة أو خدمة عملية، فهذه يتولأها الشادن في معنى من المعاني، أو الساقى. إنما هي مبادرة منه تضمن له أولوية في هذا المجلس العظيم، من حيث إنه يتولّى ويرعى عملية الشرب فيه، بما يتضمنه ذلك من معرفة وخبرة بالخمرة المناسبة، ومن كرم وسخاء يتخطى به هؤلاء الكرام من الشاربين، فيكون هو في وضعه هذا الأقرب إلى عنصر الخمرة والأحق والأولى بها من الجميع. حتى وإن اتخذت المعاطة بدالاتها الحسية لا المعنوية، واعتبرت تقديماً للخمرة من قبل الشاعر للشاربين، فإن ذلك يرجح كونه مقتصرأ، كما يدل سياق النص على ذلك (خاصة في البيت التاسع)، على الحركة الأولى للشراب، على الكأس الأولى. فكان الشاعر يتولّى إطلاق دورة الشراب محتفظاً لنفسه بهذا الموقع الريادي الذي تصدق عليه كذلك الأبعاد المبنية أعلاه. في كلا الحالين يقدم الشاعر للندامي تلك الخمرة - الإكسير. وهو إذ يتولّى هذا الأمر فإنه لا يأتي بها مزوجة بل صافية نقية لم يخالطها شيء. وبذلك يكون اهتمامه بالتناول حرصاً على الخمر نفسها من أن ينالها أذى من أي مصدر كان، فتأتي الشاربين بكامل كثافتها الروحية، محتفظة بكل طاقتها التأثيرية التحويلية. وربما لذلك اعتمد لها تسمية القهوة التي تفرق في إبعادها عن كل ما هو حسي ومادي، وفي الدلالة على أنها مكتفية بذاتها وتكفي بحد ذاتها.

بيد أن نسبتها للشادن الخنث محتمل تأويلات شتى. فاللام التي تصلها به تبدو لام الملك، حيث إن الخمرة تأتي من لدنه ساقياً كما يرجح المعنى، أو خماراً كما قد ينزع به إلى ذلك البيت التاسع؛ وقد تكون لام استحقاق واختصاص حيث يبدو ربه وريبتها معاً، كما قد تكون هذه جميعاً؛ ولا يخرج الأمر في ذلك عن هذا الارتباط الحميم بين

الفتى البارع الحسن والخمرة الرفيعة القدر، كما لا يخرج التعبير عن كونه أحد مركزات شعرية النص. ولا يتمتع هذا الفتى بالحس البديع، وهو أحد مؤهلاته للارتباط بالخمرة، وحسب، بل إن حنثه يمنحه ميزة نادرة على سواه من الناس ومن المخلوقات الجميلة، تتمثل في اجتماع الذكورة والأنوثة فيه. في هذا الاجتماع تجاوز للتناقض بين هذه وتلك، تجاوز هو واحد من المؤهلات الأخرى التي تجعله موافقاً للخمرة، باعتبار أنه يتأهل مع وجه من وجوه فعاليتها. وهو يمثل كذلك انتصاراً للثقافة والحضارة على الطبيعة، فهذه الازدواجية فيه وليدة تطور حضاري، تؤدي سحراً لا يقوم في المعطى الطبيعي وحده. ربما كان مبعث هذا السحر اجتماع المتفرق من اللذات في شخص واحد، فينضج وجه آخر من وجوه قرابة الفتى مع الخمرة وتناسبها. وإذ يشار إلى رشاقة قوامه وإلى تنبئه واختياله، فإن أوجه الإثارة والإغراء فيه تتعدّد. وتشبيهه بالعنص هنا (البيت السادس) ربما تعدّى الصيغة التقليدية في التعبير، ليشدّد على أوجه القرابة المتعددة مع الخمرة، عبر الاقتراب من أصولها (النباتية)، وعبر التشابه بينها كذلك في الغنج واللين. كما يأتي صوته في لينه واسترخائه ليضيف عنصراً إغرائياً جديداً وتمثالاً إضافياً مع الخمرة، بقدر ما يمكن اعتباره صنيع الحضارة وتناج فعلها في الطبيعة.

إن تعلق الشاعر بالفتى وعشقه له معبر عنه في أثر نظراته في نفسه. وهو حين يعلن أنه قد أسره بعينه، فإنه يختار فيه ذلك الجانب الجمالي الذي لا تحتكره المرأة، ولكنه في الوقت نفسه ذلك الجانب الذي تتفنن استخدامه في الاستحواذ على قلوب الرجال. وإذ يقع الشاعر رهين حب هذا الغلام إثر ما خلفته مقلته في نفسه، فإن هذا دليل على ذلك البعد الازدواجي المستمر في وضع الغلام المذكور. وهو ازدواج يضاعف من تأثيره ومن وقعه، وازدواج ما كان ليصبح موضوع متعة أو شهوة لولا ذلك العامل الحضاري الذي يداخله. وإذا كانت ميزاته الجسدية القائمة على ازدواجية ترعاها ثقافة حضارية مدعاة إغراء وإغواء قاهرين، فإن التعبير عن هذه العلاقة الجنسية - الوجدانية يقصرها على الشاعر دون سواه. فالتفرد الذي ورد بصدد منازعته الندامي للخمرة يتأكد هنا في هذا الولوع المفرد بالفتى البديع. وهو يمضي لتابعة ميزاته في اللباس، خاصة حيث يسود البعد الحضاري بامتياز. فكما تقدم الجسد جامعاً للمتناقضات في الإطار الحضاري، كذلك يتقدم هذا اللباس على مستوى أرقى من السابق، ولا يكون على هذا النحو إلا ملائماً لهذا الجسد، ليخلص التعبير عن هذا الفتى كائناً ساحراً متفرداً في سحره.

يلبس الفتى القرطق من الثياب الفارسية التي كانت مشهورة، على الأقل الحراسانية منها، بالتصاقها بالجسم وإبرازها لمحاسنه، وهذا ما كان مدعاة للفتون والإغراء، خلافاً

للألبيسة العربية الفضفاضة؛⁽⁵⁶⁾ ويضع على رأسه عصابة من زهر الورد والأس، جامعاً الحمرة إلى البياض على جمال شكل وطيب رائحة؛ فيأخذ بلب الشاعر الذي يرى إكليله تاج «ابن مارية الكريم المفضل»⁽⁵⁷⁾، ويراه ملكاً يخطر وقد جمع وحده إرث الغساسنة العظام ومجدهم.

إذا استحضرننا البعد الطقوسي الديني الذي يجعله الشاعر لمجلس الحمرة وإشارته السابقة لإشعاع الكؤوس في محراب الشساس، لا يسعنا إلا أن نرى في هذا الصبي المكمل والغسائي صفات مماثلة لذلك الشساس. ضمن هذا المنظور، يتقدّم الساقى كاهناً لهذا المجلس العزيز، بل ملكاً أو ملاكاً يبدو أقرب ما يكون إلى السيد المسيح، إنما هو مسيح المتعة لا مسيح الخطيئة والعذاب، مسيح إكليل الورد والأس لا مسيح إكليل الشوك. والألام... وتبدو مناوئته الشراب للمتنادمين أقرب إلى طقس المناولة المسيحي وإن اقتصر التعبير هنا على ذكر دم المسيح دون جسده، ربما لإصراره على إبقاء الحمرة في مستواها الروحاني المتفرد والبعيد عن أي شائبة جسدية أو حسية، فإنه لا يجوز دون استدعاء هذا الجسد والإيجاء بالوعد المقترض بصدده.

لكن التعبير يمضي إلى أبعد من ذلك. فين القرطق والإكليل وجه عربي عريق: قرشي عباسي. ومن الواضح، أن هذا الوجه بمنية مقتصر على الشكل (الحسن والكرم...) دون الدور والفعل (اللفظ المخنث والمقلة الغاوية...) وهذان الاختيران قادمان من الحضارة كما أشرنا. هكذا نجد هنا أن البعد الحضاري الملازم للخمرة يتناسب هنا معها في هذا الفعل التحويلي - أو هو يستمد منها - الذي يخرج المواد والعناصر عن ثباتها، عن طبيعتها ومألوفها، نحو آفاق جديدة وأعدة باللذة والمتعة.

(56) راجع عبد الرحمن صديقي: ألحان الحان؛ ذكر سابقاً، ص 270 وما يليها.

(57) راجع ما في قصيدة حسان بن ثابت الأنصاري التي مطلعها:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجواوي فالبضيح فحومل...
قوله:

له در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها مهي الجبال إلى الجبال البزل
الضاريون الكيش يبرق بيضه ضرباً يطيح له بنان المفصل
والخالطون فقيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرسل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
(ديوان حسان بن ثابت الأنصاري؛ بيروت - دار صادر، د.ت. / ص 179).

في هذا العالم السحري الذي يجتمع فيه الشاربون، تتقدم الخمرة مادة أسطورية إلهية محورية تفيض أو تشع على كل ما حولها؛ فالشاربون المتعددون القادمون من أماكن ومواقع شتى تهبهم الخمرة صفات مشتركة رفيعة، مقيمة بينهم نوعاً من التجانس والمساواة. إن ألوهية الخمرة الأنثوية تعطي للوجود المتصل بها، للوجود الذي تخلقه، أبعادها الخاصة والتميزة. هكذا يبدو الساقى أو الخمار، وكأنه يستمد منها أنوثته الساحرة، وقد سبق وأشرنا إلى أوجه التقارب بينها. ولهذا الاستمرار نتائج عدة تجتمع كلها في هذه المقدرة المفردة على استيعاب التناقضات. فإلى جانب الأنوثة والذكورة التي سبق التعرُّض لها أعلاه، يجمع هذا الساقى أو الخمار الفرس إلى الروم، ويضمهما إلى العرب، مصالِحاً بين متناقضات التاريخ، وبينها وبين متناقضات المرحلة أيضاً، فيما هو يجمع المتنافر في القديم كما في الحديث، في البعيد كما في القريب. وتجده في المتناقضات الدينية كذلك حلها، بقدر ما يتقدم كمسيح منتظر (اليهود)، ومسيح غساني مكلَّل (للنصارى)، ونبي عربي قرشي (للمسلمين).

إذ تصل الخمرة بين الشاربين، فإنها تزيل المتناقضات فيهم وبينهم، وتقيم علاقات جديدة. فهي لا تكتفي بالمزج بين الرجل والمرأة، وبين الشعوب والأجناس والأديان، والشاعر والندامي، والساقى أو الخمار وبقية الشاربين، وإنما أيضاً ترفعهم جميعاً إلى هذا المستوى الرفيع الذي يميزها. ويكاد يكون ارتقاؤهم بقدر اقترابهم منها. فالمجلس الخمري بأكمله مجلس أسياذ كرام، بيد أن الشاعر يميّز بينهم عبر مبادرته إلى معاطاتهم الخمرة، فيحظى بتلك العلاقة الخاصة بالساقى أو الخمار. لكن هذا الأخير يتقدّم وكأنه ملك أو نبيّ بينهم، نظراً للواشجة القائمة بينه وبين الخمرة والتي يميّز بها عن سواه. إنما لا تتوقّف العلاقات التي تقيمها الخمرة في عالمها عند هذا الحد، والأكثر كانت مفارقتها لتلك القائمة خارجه، رغم تمايزها عنها، محدودة.

ج - لذلك، وكما لاحظنا أعلاه بالنسبة للشاعر الذي يجمع إلى تميّزه عن الندامي تقديسه الخمرة لهم، بل إن رعايته للقوم وجه غير منفصل عن ذلك الخاص بتفوقه في الكرم والعظمة، فإن الساقى أو الخمار يجمع إلى تميّزه عن بقية الشاربين قيامه على الغناء والطرب، ويكاد يتمثّل في هذا الغناء الوجه القدسي النبوي أكثر من سواه. إنه هو الأقرب إلى الخمرة من سواه، يتأثر بها أكثر من غيره، ويستمد منها صفاتها الإلهية. لذلك إذ يأخذ الشرب بالمتنادمين، وتدور الكؤوس على الشاربين، يصدح هو مترغماً بفعل هذا الشراب السحري الذي يدخل الفرح إلى النفس، فيؤكد النص بذلك، من البيت الأول حتى الأخير، ارتباط الفرح والمسرة بالخمرة.

ينطلق الغناء إذن نتيجة سيطرة الخمرة والأفراح التي تأتي بها على النفس: السكر والطرب. ويأتي صوت المغني متلاهماً مع وقع الذات بالطبع، وإنما أيضاً مع وقع آخر خارجها تؤديه حركة الخمرة متهادية في أهبتها وعظمتها من الساقى إلى الشارين، وهو على كل حال يبقى متجانساً مع وضع الخمرة الضاحكة النورانية. فهذا الصوت تعبير عن تأثر الذات والتهابها بالخمرة، كما هو تعبير عن التجاوب مع الإيقاع الصادر عن اصطفاقها في الكؤوس الدائرة على الشارين.

لا شك أن ذلك كله، موضوعاً في الجو الطقوسي القدسي الملاحظ حتى الآن، يجعل هذا الساقى أو الخمار أشبه ما يكون بخوري يؤدي صلواته وقد أخذ بعض الشمامسة بالمبخرة أمامه يوزعون بخورها المقدس بين حضور المؤمنين؛ وكما يطهر البخور - عبر هوائه - الروح من أدرانها، تطهر الخمرة عبر نورانيتها - النفس من أحزانها. أو أنه، في هذا الجو الجامع المتجانس بين المشاركين، يجعل عملية الشرب أقرب ما تكون إلى زِيَّاح، تمثل فيه الكأس الأيقونة، والساقى أو السقاة والحساء جمع المؤمنين المساهمين فيه، والمغني ذلك الخوري الأكبر في صلواته وأناشيده الدينية. ويكون الغناء بناء لذلك تعبيراً نفسياً وروحياً بامتياز، يأتي وقد امتلأت النفس خمرًا وفرحاً، متناسباً مع كليهما فيما هو يعبر عنها. وعلى هذا النحو تحتفظ الكأس من البيت الأول حتى الأخير ببعدها القدسي الروحي الخيّر والصالح... لكن هذا الغناء، كتعبير روحي متجانس ومتلائم مع الخمرة وصادر عنها أو متولد منها في الوقت نفسه، يحمل سياتها التحويلية في تجاوزها للمتناقضات نحو المتعة. فالكلام المغني بث وجداني عميق يشكو صاحبه عذاباً شديداً في الحب في مختلف أوضاعه، أكان الحبيب قريباً أم بعيداً، مُطمعاً أو ميسساً. إلا أن الغناء هنا تحويل لهذا الكلام عن مدلوله الحزين إلى فرح ولذة، فكما تفعل الخمرة بالهم - والماء والليل وتناقضات البشر - يفعل الغناء بكلامه، يزيله، يحوله إلى نقيضه. وليس النقيض هنا دالاً آخر محل محل الأول، وإنما هو الدال ذاته. بذلك ينزع الغناء عن الكلام دلالاته المرجعية ويحيله إلى ترنم جمالي مطلق يتناسب مع روحانية الخمرة العلوية. لذلك يبقى المقصود فيه من كاف المخاطب غامضاً لا يستبعد الخمرة وإن رجح المرأة - هذا في حال قبول التأنيث الوارد في الديوان - وهو غموض لا يدخل التباساً إلى المعنى بقدر ما ينزع به إلى التخلي عن مدلوله، كما يشير تقديم الغناء («من سكر ومن طرب»...) إلى وجهة هذا التخلي: نحو مدلول نقيض. بذلك يرتقي الغناء الحمري عن الأناشيد الدينية المثقلة بالدلالات الواقعية أو الأسطورية المدموغة بالخطيئة والحزن، ليصبح نغماً روحانياً خالصاً من متعة ومرح. وإذا كان له مثلها دور تحليفي، فإن وسيلته تبدو أكثر موافقة للغاية المرجوة من تلك المعتمدة من قبلها. هكذا لا يعود الغناء، كما معاطاة الخمرة، عملاً وضيقاً، بل إنه، كما تلك، عمل رفيع وراقي.

في بلوغ هذا البعد الروحاني الراقى في المتعة، والذي هو درجة راقية من درجات التفاعل مع الخمرة (سكر وطرب)، يصل البعد الثقافي الحضاري مستواه الأرقى. فالغناء باشتتاله على الشعر والموسيقى معاً يتجاوزهما إلى ما هو أكثر فنية وجمالاً. فإذا تم باللفظ المخنث يخرج بالسامع إلى متاهات من اللذة والطرب فريدة، ويتبدى المستوى النغمي الغالب إن لم يكن الخالص في مداه الأرحب. وهو يشكّل في حد ذاته دليلاً إضافياً على هذا البعد التحويلي الذي تمهده الخمرة به. فليس صدفة تحويل الغناء القادم من الخمرة وإطرابها العذاب إلى راحة والألم إلى متعة والهلم إلى فرح. هكذا يحوّل الصوت المخنث القول الشعري الأكثر تحسراً وتشكياً إلى غناء موسيقي لطيف وأخاذ. وإذا كان هذا القول يكثّر من الإشارات الخفية إلى أبعاد دينية تتصل بالنار وعذابها، وبالمرغوب والمحظور، وبالقدرة والمعجز. . . فإن الغناء يخرجها جميعاً من بعدها التناقضي التمس إلى أفق الطرب الروحي.

في بلوغ هذا المستوى من الشرب (السكر والطرب) يكون الزياح قد بلغ خاتمته، وتكون المشاركة الجماعية على تمايزها قد بلغت أقصاها. فيكون هذا الصوت المغني منتهاها الذي تفضي إليه، وإنما أيضاً خلاصتها المعبرة. ولا يقوم الشاعر في النهاية إلا باستعادة هذا الصوت أو أنه يمنح صوته لآخر. في الحالين هناك اندماج بين الطرفين، يعبر عنه اندماج قول المغني بقول الشاعر في نص قصائدي غنائي واحد، في تجربة خرية روحانية واحدة. ففي مجلس محوره الكأس لا يكون الغناء مفرداً بل جمع، ولا يكون الصوت المخنث نزوة فردية وإنما طرب جماعي. لكن الجماعية هنا لا تنفي الخصوصية التي تشدّد عليها كاف المخاطب (في البيت التاسع). فالطرب أخذ بقدر ما هو عطاء، ومن اجتماعها يتولّد وتحقق لذائذه.

عند بلوغ هذا القدر من المتعة الشخصية والجماعية يأتي التعبير الأخير ليضيء القصيدة بنور جديد. ففي الوقت الذي تمثل فيه إبادة الحزن والكرب على أرفع ما يكون، يطرح البيت الأخير وكأنه ليس فقط استجابة نهائية للطلب الوارد في مطلع القصيدة، وإنما أيضاً كأنه مفتاح القصيدة ككل، مفتاح بديل لذاك القائم في مطلعها، مفتاح نهائي كامن وبديل للأول الظاهر. كأنه هو الأساس الخفي الذي بنيت عليه، يؤكد وحدتها الكلية في بناء عظيم التماسك، من حيث إن تناميها لا يمضي في اتجاه خطي جامد، وإنما في اتجاه جدلي تحويلي.

تعدّي دلالة هذا الأساس اكتمال البعد الروحاني الفرعي للخمرة، لتفتح النص في مستوياته المختلفة، وخاصّة المستوى الإيقاعي فيها، على أبعاد جديدة متعدّدة، ولتطرح خاصة مفهوماً جديداً للشعر والحياة. فالشعر كما يتقدّم في هذا النص نتاج انغماس عميق في التجربة واندماج في أبعادها الروحية والجماعية، وتداخل نصّي يستوعب نقيضه القائم قبله

ويتجاوزه. بعيداً إذن عن شعر النفاض الذي يكرس التناقضات لفظاً فيما يؤكد التماثل البنيوي والدلالي، يأتي الشعر الحمري مع أبي نواس ليستوعب التناقضات ومعها نقيضه، فيدخله في محلوله الحمري الروحي ويحيله بنيوياً ودلالياً إلى مثله، بل ليستوعبه جزءاً مكوّنًا من أجزائه، فيما يثبت ألفاظه. هكذا يفتح النص الشعري الحمري على نصوص أخرى يستوعبها ويحيلها كما في السحر إلى عناصر من عالمه المؤتلف والضاحك، وينتهي النص في وضعه الدلالي إلى تحويل المدلولات، فتجانس الدالات جميعاً في انتظام ساحر أخاذ لا ترك لها الخمرة إلا أفق المسرة والفرح مجالاً، فتتغامم متكافئة في جوها السكّري الطّربي علامات موقعة في مهرجاناتها الفني المتميّز الجميل.

في ذلك كله يؤكد البعد الطبي الشفائي للخمرة على صُعد عدة فعاليته، ويظهر العالم الحمري في تفاصيله وتشكلاته المختلفة العالم الأمثل للتخلُّص من أحزان وعذابات العوالم الأخرى، كما يظهر التعبير عنه دعوة للأخريين لطيفة بالانعطاف إليه والأخذ به، دعوة تمجد في هذا التعبير بالذات أبلغ احتجاج على تأكيد صوابيتها وإغرائها في آن، فيما يظهر النص في بنية مفتوحة على الحياة بقدر ما هي مفتوحة على النصوص الشعرية الأخرى.

رابعاً: من أوجه التناسب والتكافؤ في النص:

تقوم جمالية النص الشعري على تضافر المستويات المختلفة المكونة للقول/المكتوب فيه بما يتناسب مع الوجهة العامة للتعبير الذي تأتي به، فتقيم تكافؤاً عاماً في بنيتها العامة تتردد في مستويات تكوينه المتعددة. تتم في هذا التضافر أو التكافؤ جملة عمليات معقدة من التطابق والاختلاف، تسمح بتشكيل جملة من علاقات الترابط والتراسل بين هذه المستويات، بحيث يبدو التجانس أو التناسب غرضها الرئيسي، باعتباره الصيغة التي يتمثل فيها التكافؤ البنيوي للنص. يحكم هذه العمليات والعلاقات جميعاً الانتظام البنيوي العام للتعبير، بحيث لا تأتي بنية النص الدلالية منفصلة عن بنيتها الإيقاعية أو النحوية أو الأسلوبية. ويمكن القول إن درجة جمالية النص الشعري وإبداعيته محكومة بشكل وثيق بدرجة التجانس والتناسب بين مستوياته المختلفة. فبقدر ما يتم النص عن انساق وتناغم في بنيتها وبين مستوياته بقدر ما يبلغ حداً أرفع من الشعرية والإيقاع الإبداعي. في عملية البحث عن ذلك تشكل أوجه التطابق والتناظر في كل مستوى وفيها بين المستويات المختلفة علامات الشهداء مركزية في بلوغ المعنى المطلوب.

إذا كان من غير الممكن النظر في دلالات أجزاء النصّ خارج بنيتها العامة، التي وحدها تعطيها مغزاهما الحقيقي، كما يعطي التركيب النحوي للعبارة معاني المفردات المكونة لها،

وتحول دون الوقوع في مهاوي التشويه والتحريف أو في أحسن الأحوال الاعتباطية والتفريط، كذلك من غير الممكن بحث علاقات المستويات ببعضها خارج تشكيلاتها البنوية الخاصة التي تشكل ضماناً له من السقوط في أنماط من الإخلال والمغالطة مفتوحة على احتمالات التفريط والتحريف. بناء لذلك، نمضي في درس التشكل البنيوي للمستويات التكوينية للنص، مقتصرين فيها تبعاً على المستوى الإيقاعي فالنحوي فالأسلوبي، ساعين لتلمس مدى تلاؤمها مع البنية الدلالية للقصيدة، محاولين عبر ذلك إبراز خصوصية الإبداعية الشعرية لدى أبي نواس كما تجلت في هذا النص موضوع الدراسة.

١ - المستوى الإيقاعي :

في دراستنا لهذا المستوى اعتمدنا التوزيع العروضي «الخليل» وسيلة لبلوغ وتحديد البنية العامة لانتظام الإيقاع في القصيدة⁽⁵⁸⁾ إنما دون أن نلزم أنفسنا بمقولات تفرض على النص من خارج، محاولين الالتزام قدر الإمكان بمعطيات النص الإيقاعية نفسها. لتوضيح ذلك، نشير إلى أن التقطع العروضي للأبيات يظهر مباشرة أنها من البحر البسيط. إلا أن هذا الأمر لا يبدو كبير الأهمية كما سنلاحظ. فوزن هذا البحر هو التالي:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

وتشير كتب العروض إلى أن عروضه كاملاً، كما هو الحال في النص الذي ندرس، واحدة هي فَعْلُنْ، وأن لها ضربين الأول مثلها (فَعْلُنْ) والثاني فَعْلُنْ، والملاحظ أن الأخير هو المعتمد في هذا النص. لكننا نفاجاً بأن عروض البيت الأول تأتي مثله على فَعْلُنْ. لذلك لا نهتم في مرحلة أولى بالتسميات والجوازات وما إلى ذلك، وإنما نحاول، انطلاقاً من الوحدات العروضية الأولية (التفعيلات) المتحققة، أن نرى مدى تطابقها واختلافها فيما بينها، باعتبار

(58) رغم رصانة المحاولة التي قام بها كمال أبو ديب (راجع كتابه: في البنية الإيقاعية للشعر العربي/ نحو بديل جدي لعروض الخليل ومقدمة في علم الإيقاع المقارن؛ الطبعة الأولى: بيروت - دار العلم للملايين 1974) فإنها لا تبدو لنا صالحة لمسعى من هذا النوع. هي في الحقيقة تشكل نكوصاً عن العروض الخليلي لأنها تمضي إلى مكونات أولية فيه تقوم على ملاحظة العلاقة البدائية بين المتحرك والساكن، وتهمل وحدات أولية في التراكيب الإيقاعية يعتبر تحديدها خطوة بنوية أساسية على طريق تحديد الأوزان الشعرية عامة. كما أنها لا تصل فيما يتعلق بالشعر القديم إلى نتائج متميزة جوهرياً عما أتى به الخليل. في حين يبقى الجانب النبري فيها، وهو أهم مساهمة أتت بها هذه المحاولة، خاضعاً إلى حد كبير لطريقة اللفظ وقراءة النص المرتبطة بقوة بالفهم الخاص له من ناحية وباللهجات المحلية أو الفردية من ناحية ثانية. وربما كانت محاولته العملية في هذا المجال (تعرضنا لها أعلاه) خير دليل على قصور مثل هذه المحاولات منهجياً، وخير مثل يقدم لإنباط همة مساعٍ مماثلة.

أن ذلك يعبر عن غمط أولي من التناغم الإيقاعي يتكون من عدد محدد من الوحدات المتماثلة أو المتباعدة، وباعتبار أن أساس إيقاع النص قائم في لعبة جدلية التكرار والانحراف الحاصلة في هذه الوحدات .

بناء عليه، لا يؤثر تجاوز التسميات، حتى للبحر أو تفعيلاته، في تحديد البنية الإيقاعية الأساسية للنص، وإن كانت تقيد في الإشارة إلى الوحدات المعنية بدل استعادتها بالأرقام أو بالصورة الإيقاعية الأولية (من متحرك وساكن).

على هذا الأساس، قمنا أولاً بتحديد هذه الصورة الأولية (الحركات والسكنات) ثم عيّنا الوحدات التي تتألف منها (التفعيلات)، قبل الانتقال إلى المرحلة الثالثة والأهم وهي ملاحظة تلك التفعيلات التي تنحرف عن وضعها الأصلي (الجوازات)⁽⁵⁹⁾ وقد أشرنا إليها بخط تحته لتسهيل التعرف إليها. تبع ذلك إعادة نظر في هذه الجوازات، إذ إنها ليست مهمة بحد ذاتها بقدر ما هي مهمة في علاقتها بسواها من التفعيلات. والمشكلة الوحيدة التي واجهناها خاصة بالأعاريض والأضرب. فعروض البيت الأول (فَعْلُنْ) المخالفة لجميع الأعاريض اللاحقة (فَعْلُنْ) لا تتيح الإشارة إلى اختلاف هذه الأخيرة عن الأصل (فاعِلنْ)، وألا اختلط الأمر على الناظر، وقد يماثل بينها وبين تلك. ولما كانت الأخيرة هي المعتمدة في الأصل التطبيقي لا النظري، أمكن تجاوز الإشارة إليها دون إشكال يذكر، مما يبرز الأولى ويوضح وضعها الفعلي في التكوين الإيقاعي العام⁽⁶⁰⁾ أمّا الأضرب فممتطبة تأتي جوازاً واحداً لتفعيله لم ترد أية مرة على خلافه، بحيث قد يبدو تجاوزها وعدم الإشارة إليها معقولاً. إلا أننا فضلنا إثباتها للتماثل القائم بينها وبين العروض الأولى من ناحية، وللدلالة على خروج قائم فيها عن أصل غير وارد، مما يتيح النظر إليها في إطار التشكّل البنيوي العام للإيقاع⁽⁶¹⁾

(59) إن اعتماد صيغة الوزن تسهل عملية البحث عن المتطابق والمختلف في إيقاع الأبيات. ويمكن للباحث مع ذلك أن لا يتوقف عند هذا الأمر، وأن ينطلق من تقطيع عروضي بحث بدون معرفة مسبقة. بما هو جائز وما هو غير جائز، ثم النظر في الوحدات المتكونة لديه عن مدى تطابق أو تنافر عناصرها وتوزيعها. إلا أننا فضلنا الصيغة الأبسط لتسهيل مهمة العمل وعرضه والتعرف إليه.

(60) كان بالإمكان اعتماد حل آخر لا يغير كثيراً في النتيجة، وإنما يبقى أكثر تشدداً أو تزمناً في احترام القوانين العروضية، وذلك باستعمال خطين بلونين مختلفين يدل كل منهما على جواز مختلف عن الآخر فيما يخص التفعيل الواحدة، أو باستعمال عدد مختلف من الخطوط يقوم مقام اختلاف الألوان للدلالة على الحالة ذاتها. ولا شك أن اعتماد الألوان المختلفة باختلاف أوضاع التفعيلات وتبدل أحوالها وربط كل لون بحالة محددة لتفعيله معينة، يتيح قراءة تلاوين الإيقاع المعتمد في صورة حسية بصرية زاهية لا تسمح لنا الوسائط الطباعية السائدة حالياً التمتع بها.

(61) لا شك أن اعتماد الإشارة أو الكتابة بالألوان (راجع الملاحظة السابقة) يوفر على الباحث إشكالات عدة من هذا القبيل.

تسهيلاً لبلوغ هذا التشكُّل، اعتمدنا إزاء كل بيت رقماً يشير إلى عدد الجوازات القائمة فيه. وكلما جاء هذا العدد متماثلاً دفعنا إلى التدقيق بمواقع الجوازات الواردة، فإذا ما تطابقت فيها بينها (كما هو الحال بين البيتين الثاني والرابع مثلاً) وضعنا للرقم علامة تدل على هذا التطابق، وإلا جعلنا له علامة تدل على التمايز (كما هو الحال بين الأبيات الرابع والخامس والسادس). تسمح لنا مجمل الإجراءات السابقة بالانصراف إلى معاينة الوضع الإيقاعي العام للقصيدة على أساس واضح وسليم مبدئياً، فبرز لنا واضحة جملة من المعطيات الأولية نسارع إلى تسجيلها:

- يتميز البيت الأول عن بقية الأبيات الأخرى جميعاً باشتباهه على العدد الأكبر من الجوازات (خمسة).

- في حين يتفرد البيت الأول في عدد جوارزته، لا يأتي أي بيت آخر دون مماثل أو أكثر من مماثل له في جوارزته الخاصة، فالبيت الثاني يماثل الرابع والخامس والسادس والثامن (ذات الجوازات الثلاثة)، بينما يماثل الثالث السابع (ذات الجوازات الأربعة) والتاسع العاشر (ذات الجوازين).

- لا شك أن ذلك يعطي البيت الأول على المستوى الإيقاعي وضعاً متفرداً ومتميزاً عن سواه من الأبيات، مماثلاً لوضعه في المستوى الدلالي، حيث إنه يتشكّل فيه مطلع البنية العامة للقصيدة بأكملها. ولما كانت هذه البنية معطاة في الشطر الأول منه كما أشرنا أعلاه، فكانه يؤدي هذا الدور إيقاعياً أيضاً. فهذا الشطر يشير إيقاعياً لجملة الجوازات اللاحقة التي ستنال من تفعيلات الأبيات الباقية، فنجد فيه جميع أنواع الجوازات التالية (مُتَّجِلُنَّ وَفَعِلُنَّ وَفَعِلُنَّ)، كما نجد فيه أيضاً التفعيلة التي لن ينالها أي جواز على امتداد النص بأكمله وفي الشطرين معاً، وهي التفعيلة الثالثة في كليهما (مستفعلن). ويبدو تفرد العروض فيه أخيراً، على النحو الذي أشرنا إليه أعلاه، تأكيداً إضافياً على البعد أو الدور المطلعي البنيوي الإيقاعي الخاص الذي يضطلع به هنا. فهو إذ يتميز عن سائر الأعارض يتفق مع سائر الأضراب، ليعلم من خلاله حركة إيقاعية مركزية في النص هي حركة القافية، ومن خلال ذلك، دوره البنيوي الإيقاعي المتميز.

- هناك بين الأبيات المتماثلة ثلاثة أبيات متطابقة (الثاني والرابع والثامن) تتميز عن سائر الأبيات جميعاً، وهي تأتي على عدد من الجوازات (ثلاثة) وسط بين عددي الجوازات المتماثلة في بقية الأبيات (أربعة واثنين)، مما يشير إلى دورها المحوري في البنية الإيقاعية العامة للنص.

- هذه الأبيات المتطابقة هي التي تشكّل ركائز البنية الإيقاعية للقصيدة إذ تمثل الأسس التي يقوم عليها، أكثر من أي عنصر آخر، انتظام التكافؤ أو التعادل في هذه البنية. وهي تمثل مواقع التجاوب المحورية بين وحدات مختلفة لتمحّضها بشكل خاص تميّز هي حدوده. فالتدقيق في مواقعها يسمح برؤية تأليفها لوحدين كبيرتين: الأولى مكونة من اجتماع أولها مع البيت المتفرد والتميز بعدد جوازاته الكبير (أي من البيت الثاني والأول) والثانية من اجتماع الاثنين الآخرين مع الأبيات المتماثلة (أي من البيتين الرابع والثامن وبقية الأبيات الأخرى من الثالث حتى العاشر). وهو ما يتأثر تماماً مع التشكّل البنيوي العام للقصيدة كما يبناه على المستوى الدلالي والقائم على قسمين رئيسين: طلب الحمرة (في البيتين الأولين) وممارسة شربها (في الأبيات اللاحقة). ومن الطريف أن يشتمل القسم الأول على بيت واحد من الأبيات المتطابقة، بينما يشتمل الثاني على بيتين منها، فيتفق هذا التوارد مع التعداد الذي يمكن جعل النص عليه في توزيعه الدلالي العام.

- لكن هذه الأبيات المتطابقة تميّز أيضاً داخل هذا التشكّل الأولي توزيعاً تفصيلياً تعينه مواقع ورود هذه الأبيات المذكورة، باعتبارها فاصلة لما قبلها عما بعدها، فيتكوّن لدينا، عدا القسمين الرئيسين المذكورين، في القسم الثاني ثلاثة أجزاء يعينها البيتان المتطابقان إيقاعياً (الرابع والثامن) على النحو التالي: الأول يضم البيتين الثالث والرابع، والثاني يضم الأبيات الأربعة اللاحقة (من الخامس حتى الثامن)، والثالث يضم البيتين الآخرين (التاسع والعاشر). بينما يتيح تفرد البيت الأول الإيقاعي جعل القسم الأول جزءين: يقوم الأول في هذا البيت المذكور، والثاني في البيت الذي يليه (الثاني). فكان كل ركيزة إيقاعية متمثلة في بيت من الأبيات المتطابقة تشكل محطة يستند إليها الإيقاع لينطلق منها إلى وحدة جديدة متميزة، فيلتحم الإيقاع الكلي للقصيدة في بناء متطور ومتنام، متماسك ومنفتح في آن، باعتبار أن النص لا ينتهي إلى محطة يتوقف عندها أو يرتكز إليها. فكان الحركة الإيقاعية الأخيرة أو الجزء الأخير المشتمل على البيتين الآخرين قابل للامتداد والتجاوز، وكان البنية الإيقاعية الكلية رغم اكتمالها منفتحة على التفاعل والتوالد وعلى مزيد من التنامي والتطور. يتطابق هذا التوزيع الداخلي للبنية الإيقاعية مع التشكّل الداخلي للبنية الدلالية، الذي تعنيه انعطافات المعنى الداخلية، والذي في تشكّله على هذا النحو بالذات يؤكد الوحدة الكلية للنص في تناميتها وتطورها، وللبنية الدلالية في اتساقها وتكاملها وانفتاحها كما أوضحنا ذلك أعلاه.

- بالإضافة إلى الجمالية الشعرية التي يدل عليها هذ التكافؤ للنص بين المستويين الإيقاعي والدلالي، بإمكاننا أن نرى في التوزيع الإيقاعي للنص نوعاً من التحوّل الذي يصيبه في تطوره وتناميّه، يشير إلى وجهة عامة تمضي من التخصيص والقطع إلى

التقليل منها والتوجه نحو الوصل. وهي في سمتها العامة هذه تأتي متجانسة مع تحول الشاعر من الهم إلى الخمر والإيمان في الشرب نحو الانسجام والاندماج والانطلاق في السكر والطرب⁽⁶²⁾.

بقي أن نستكمل أخيراً ما سبق وأوردناه بصدد القافية التي لا تعلنها إيقاعياً عروض الشطر الأول وحسب، بل إن هذا الشطر يعلن كذلك رويها وحركة ما قبل ساكنها الأول عبر كلمته الأخيرة (بالكاس).

تبرز «الكأس» هنا محور الإيقاع بأكمله باعتبارها الأساس الذي بنيت عليه قافية النص، وهي بذلك تمثل سر البنية الإيقاعية ومفتاحها في آن. وهي في هذا التكوين الطريف الامتساق في ارتفاع حركة مدّه السابقة على إشباع رويّه المخفوض، لا تستعيد حسياً ونفسياً في إيقاعها الصورة المعنوية الإلمية للخمر والصورة المادية المشعة للكأس وحسب، بل تقدم أيضاً في انسبابها الإيقاعي المذكور الذي ينتهي إلى ذلك الحرف الأساسي المهموس المخفوض اللفظ الملازم لذلك النطق المخنث المائع والمثير، بقدر ما تقدم الصيغة الصوتية لذلك التنفيس أو التفريغ والارتياح أو الطرب الذي تأتي به الخمر. ولنلاحظ أن مجيئها على النحو المشار إليه في الشطر الأول يبين عن حركة كسر سابقة على الساكن السابق على الساكن الأول في القافية (حركة الباء في «بالكأس»)، وهذه الحركة القائمة في قافيتي البيتين الأولين (حركة الميم في «من أس» والذال في «ديماس») على خلاف حركة الموقع المماثل في القوافي الباقية الواردة في الأبيات الثمانية اللاحقة، والتي تتميز جميعاً بالفتح (الألف في «أجراس»، الشين في «شياس»، الألف في «أنكاس، الميم في «مياس»... إلخ). مما يؤكد مرة أخرى التطابق بين التوزيع الخاص بالبنية الإيقاعية والتشكل القائم في البنية الدلالية، وهو تطابق يتفاعل في أكثر من وجه بين البيتين ليؤدي على أبلغ ما يكون إبداعية هذا النص الشعري متمثلة في انجذاب الكثافة الدلالية بالغي الإيقاعي على هذا النحو الممتاز في تناسقه وانتظامه الرائعين.

(62) باعتبار أن جميع الجوازات القائمة في النص هي أنواع من الحذف ينال من العناصر التكوينية للوحدات الإيقاعية الأساسية التي هي التفعيلات، يمكن القول إن كثرتها تؤدي إلى تقصير الحركة الإيقاعية، بينما يتيح التقليل منها الاقتراب من امتلائها وامتدادها. والملاحظ أن وجهة الحركة الإيقاعية الكلية للنص تتجه نحو بلوغ هذا الامتلاء. ذلك أنها تبدأ بزحافات كبيرة العدد إجمالاً تنتهي إلى زحافات قليلة العدد، كما يمكن تلمس ذلك تبعاً في مراحلها المختلفة التي تعينها الركائز الإيقاعية للأبيات المتطابقة من أول بيت إلى آخر القصيدة، تبعاً على النحو التالي: من 5 و 3 (في البيت الأول والثاني) إلى 4 و 3 (حيث يتساوى تواترهما في الثالث والرابع) إلى 3 و 3 و 4 و 3 (حيث يغلب تواتر 3 في الخامس والسادس والسابع والثامن) إلى 2 و 2 (في التاسع والعاشر).

وتأتي أصوات هذا الإيقاع في التداول الغالب الذي تنشئه فيها الأحرف الذلقة مع تلك الأسلية ذات المخرجين المتقاربين، أكثر ما تكون ملاءمة للإيقاع بهذا الجو العام المرح الساحر واللذيذ، نظراً لما تتمتع به من صفات اللين والرقه والانسحاب، مقيمة في نسيج النص ككل وحدته البنيوية العامة ومؤكدة لها في آن.

٢ - المستوى النحوي :

من المتوقع أن يتيح النظر في أوضاع الجمل المستعملة خاصة من حيث الإنشاء والخبر، كما في صيغ الأفعال وأحوال الضمائر المعتمدة، وغير ذلك مما يدخل في المستوى النحوي للتعبير، تكوين فكرة عن مدى تأليف هذه الأوضاع والصيغ والأحوال لتشكل بنوي نحوي عام، ومدى تناسب هذا التشكل مع ذاك الذي عرفناه للنص في المستوى الدلالي والمستوى الإيقاعي.

ضمن هذا المنظور نتفحص أنماط التراكيب النحوية للتعبير في النص، فإذا بنا أمام تشكل أولي بارز يعلنه تميز الصيغة الفعلية التي يبدأ بها البيتان الأولان عن باقي الصيغ الفعلية الواردة في بقية الأبيات. فهي صيغة فعلية تؤلف في كل من هذين البيتين جملة إنشائية مستقلة، بينما تتتابع بقية الأبيات في صيغ اسمية أو فعلية جميعها خبرية⁽⁶³⁾. بيد أن هذه الصيغة تتميز في كل من البيتين الأولين بسمة مخالفة للأخرى، فتقيم بينهما اختلافاً لا يكفان فيه عن التعارض مع مجمل الأبيات الأخرى. وهاتان السمتان النحويتان، رغم اختلافهما، غير متعارضتين. ذلك أن الأولى تقوم على التشديد والتوكيد، والثانية على المبالغة والتكثير، وهما متقاربتان دلالياً. ونلاحظ أن صيغة التوكيد الأولى تضمّر قسماً يجعل مجيئها على هذا النحو (لزوم لام الجواب ونون التوكيد) واجباً لحتمية الإثبات،⁽⁶⁴⁾ مما يجعل انشائيتها غير

(63) تشكل صيغة التعجب الواردة في البيت الأخير (الله دركه) استثناء شكلياً. فهي لا تأتي بالفعل في جملة مستقلة، وإنما ملحقة بالجملة القائمة في البيت السابق (التاسع: «يغنيك»...) أو هي مقيدة أو قيد فيها، وبالتالي ليست مستقلة ولا يمكن بالتالي معاملتها معاملة الجملتين المستقلتين الوارديتين في البيتين الأولين. هذا عدا عن احتمال انتسابها لنص آخر وشاعر آخر. وكيفما دار الحال، فإنها لا تخص المتكلم - الشاعر وإنما تعود إلى الساتي المخبر عنه، كما لا تشتمل على التأكيد خلافاً لتينك الجملتين الإنشائيتين الأوليين.

(64) راجع الشيخ مصطفى الغلابي: جامع الدروس العربية (ثلاثة أجزاء) تحقيق شريف الأنصاري. الطبعة 12، بيروت/ صيدا - المكتبة العصرية 1973 (الجزء الأول ص 88 - 89). وعباس حسن: النحو الوافي (أربعة أجزاء) القاهرة - دار المعارف بمصر د.ت. (الجزء الرابع، الطبعة الثالثة [1974]، ص 171 وما بعدها).

طلبية. بينما تأتي صيغة التكثير الثانية في فعل الأمر الموجه للمخاطب، مما يجعل انشائها طلبية بخلاف الأولى. وفي حين تختص الأولى بالتكلم المفرد، تختص الثانية بالمخاطب المفرد المذكور مما يؤكد التمايز القائم بينها رغم اشتراكها في الإنشاء. يتطابق هذا الوضع النحوي الخاص والتميز للبيتين الأولين مع ما سبق بيانه على المستويين الدلالي والإيقاعي في قيامهما في قسم مستقل وتمايزهما فيه في الوقت نفسه. كما تأتي الصيغة الخبرية التي تسم بقية الأبيات لتتفق مع ما ورد سابقاً من قيام الأبيات المذكورة في قسم ثانٍ مستقل.⁽⁶⁵⁾

في هذا القسم الثاني تسود الصيغة الإسمية في الجمل الرئيسية، ما عدا البيت التاسع والعاشر حيث تسود الصيغة الفعلية. وهناك بيت واحد فقط لا يتضمّن أيّ فعل على الإطلاق، هو البيت الخامس الذي يعلن بذلك مفارقة بين ما قبله وما بعده، وهو نحوياً ينحى للارتباط بما يليه. فيتولد عن ذلك أجزاء ثلاثة في القسم الثاني، وهي تتطابق تماماً مع تلك التي لاحظناها سابقاً في المستويين الدلالي والإيقاعي: جزء أول قائم في البيتين السابقين

(65) لقد اعتمدنا في تعاملنا مع صيغة التوكيد الأولى (لأقطعن) القراءة التي بدت لنا الأكثر معقولة وصواباً. وهي تتفق في الحذف الذي تضمّره مع القطع الدلالي الذي يبدأ به مطلع النص. لكن ذلك لا يمنع قراءة أخرى تعتبر اللام فيها لام الابتداء الداخلة على المضارع لتفيد وتخلصها الخبر للدلال، لذلك كان المضارع بعدها خالصاً للزمان الحاضر، بعد أن كان محتملاً للحال والاستقبال (الشيخ مصطفى الغلاييني: جامع الدروس العربية، ذكر سابقاً، الجزء الثاني ص 312). ويبدو أن هذه الإفادة هي رأي البصريين، إذ إن الكوفيين لم يعتبروا أنها تمحّض المضارع الحال كما قيل (المرجع نفسه، ص 312). وفي مثل هذه القراءة يرجح أبو نواس الموقف البصري، مرجحاً في هذا التوكيد الذي يجعل الجملة فيه وفي الأمر الذي يلحقه بها (البيت الثاني) موقفاً عقلياً عاماً، نكتفي هنا بالإشارة إليه على أن نعود إليه لاحقاً.

لا تمتنع القراءتان السابقتان، في غياب أية حركة شكل مقيدة، قراءة ثالثة تعتبر اللام ذاتها لام الأمر أو الطلب الجازمة للمضارع المتكلم، وذلك رغم ما يذكره الشيخ الغلاييني قاصراً دخولها على «فعل الغائب معلوماً ومجهولاً، وعلى المخاطب والمتكلم المجهولين» (المرجع نفسه، الجزء الثاني ص 190). إذ إن دخولها على المضارع المتكلم المعلوم «قياس فصيح» كما في القرآن: «لتحمل خطابكم»، وفي قوله عليه السلام: قوموا فأصل لكم»، ومثل: «لأترك من أساء ولأصاحب من أحسن» (عباس حسن: النحو الوافي، ذكر سابقاً، الجزء الرابع ص 407).

وكل من القراءتين الثانية والثالثة لا تحول دون تميز القسم الأول (البيتين الأولين) عن القسم الثاني (بقية الأبيات)، حيث إن الأخيرة (الثالثة) تبقى على الإنشائية بالطلب الذي يتميز بأنه للمتكلم عن ذلك الذي للمخاطب في البيت الثاني. وإذا كانت سابقتها (الثانية) تنزع عن البيت الأول إنشائيته، فإنها تميز خبريته عن باقي الجمل الخبرية في النص بالتوكيد الذي يضمه مع توكيد البيت الثاني، في الوقت الذي تفارق فيه خبريته إنشائية الثاني. فتأكد باستمرار وحدة القسم (الأول) وتمايزه الداخلي بين جزئيه (البيت الأول والثاني) والخارجي بينه وبين القسم الثاني في آن.

على البيت الخامس، وهما يتميزان باحتواء كل منهما فعلاً مضارعاً، وجزء ثان يعلنه البيت الخامس ويتوقف عند البيت الثامن، يتميز بغلبة الفعل المضارع (فعلين) على المضارع (فعل واحد)، وجزء ثالث خاص بالبيتين الأخيرين (التاسع والعاشر) يتميز كما ذكرنا باعتدال الصيغة الفعلية في جملته الرئيسية، ويتميز أيضاً باحتوائه على أفعال يغلب المضارع فيها على الماضي (اثنين مقابل واحد)، متعارضاً بذلك مع الجزء السابق عليه ومكملاً له في آن، فيعرف معه الجزءان توازناً خاصاً. وفي إفادة «قد» الواردة في هذا الجزء الأخير للتكثير تجاوب يقيمه النص بين هذا الجزء والقسم الأول، إذ يتفق تكثير الغناء (وبالتالي الشرب والسكر والطرب) والتكثير في الطلب الذي ألمحنا إليه أعلاه في البيت الثاني. ويتميز الجزء الثالث أخيراً بتضمنه في الجملة التي يفتح بها البيت الأخير والمليحة والمقيدة بما قبلها في البيت التاسع صيغة إنشائية غير طلبية⁽⁶⁶⁾ تشكل تجاوباً ضمناً مع إنشائية القسم الأول وتؤكد الملاحظة الأخيرة التي جئنا على ذكرها. كما في تضمن الخبر للإنشاء فيها صورة عن تضمن الفعل للطلب عبر تحقيقه، وعن هذا التألف العام الذي يستوي نحويّاً في نهاية النص. فتردد على المستوى النحوي الأصداء الدلالية والإيقاعية التي سبقت الإشارة إليها، لتؤدي جميعاً التكافؤ الشعري المناسب مع التعبير عن متعة التجربة، نحو بلوغ متعة في النص معادلة لها حد الدهول.

قد يكون النظر في الضائتر أخيراً مناسبة لرؤية مدى تناسق هذا التأليف الكلي وتماسكه، فيما هو البعد الأساسي لجالية النص وإبداعيته، في هذا الجانب الخاص من جوانب بنيته النحوية. والملاحظ في هذا المجال أن ضمير المتكلم المفرد يفتح النص، ويظهر في البيت الثاني أيضاً ليغيب في البيت الثالث، حيث يبرز ضمير جديد للغائب المفرد المؤنث، مما يسمح لنا بالحديث عن انقطاع هنا بين البيتين الأولين وما يأتي بعدهما. ويتميز البيت الأول عن سواه من بقية الأبيات جميعاً باقتضاره على ضمير المتكلم المفرد (في «لأقطعن»)، ويتميز كذلك بتقدير هذا الضمير المحذوف. مما يعزز الموقع المتفرد والانفعالي بامتياز بهذا البيت، أو شطره الأول، خاصة حيث يرد ذلك، فيتعزز بذلك ما سبق وذكر بصوت دوره المطلعي البنيوي. وضمير المتكلم المذكور هو الذي يقيم صلة بين هذا البيت والذي يليه. وهو يرد في هذا البيت الثاني مثبتاً بين ضمير المخاطب المفرد المذكر وضمير الغائب المفرد المؤنث (في «فسقنيها») ويدعم اتصال البيت الثاني بالأول تميزه عن بقية الأبيات على مستوى ضمير المخاطب المفرد المذكر الذي يأتي، كما متكلم الأول، مقدراً غير مثبت، وهو ما لا يرد على هذا النحو فيما يخصه في أي استعمال آخر. ووجوب غياب هذا الضمير والذي قبله سمة متفردة لها عن بقية حالات الغياب الأخرى الواردة في النص. هكذا يلتحم البيتان الأولان

(66) التعجب القائم في التعبير «الله درك»، راجع: النحو الوافي، ذكر سابقاً، الجزء الثاني ص 22.

في وحدة مستقلة، وإنما غير منفصلة عما يليها. فورد ضمير الغائب المفرد المؤنث في البيت الثاني يشير إلى انفتاح جديد لا يلبث البيت الثالث أن يعلنه.

في هذا البيت (الثالث) يأتي الضمير المفرد المؤنث المذكور محذوفاً - جوازاً - (في «تضحك») ثم مثبتاً (في «أعينها»). ويظهر في البيت الرابع ضمير جمع التكلم (في «كاساتنا») إلى جانب جمع مؤنث غير العاقل الغائب (في «توقد»)، والملاحظ أن هذا الجمع الأخير يحتفظ بصيغة المفرد ويأتي مثله (كما في «تضحك») محذوفاً جوازاً. هذا التناثر الشكلي هو الذي يتيح للبيتين تكوين وحدة مستقلة تضم داخلها جمع التكلم الذي تتميز به عن سواه، حيث لا يرد الضمير المذكور إلا فيها دون سائر الأبيات، وهو الذي يتيح لها أيضاً اتصالاً بالوحدة السابقة.

مع البيت الخامس يرد ضمير جديد يؤكد تحوُّلاً جديداً نحو وحدة مختلفة عن السابقة، وهو ضمير جمع الغائب المذكور (في «لهم»). وهو نفسه قائم في البيت السادس، إنما مسبوفاً هنا بضمير التكلم المفرد المثبت (في «نازعتهم»). وضمير المفرد المثبت هذا يرد كذلك في البيت السابع إنما مسبوفاً بضمير الغائب المفرد المذكور المحذوف (في «يسيني»)، ويتبعه ضمير المفرد المذكور الغائب مثبتاً (في «بمقلته»)، ليستحوذ ضمير الغائب هذا على البيت الثامن مثبتاً (في «إكليله») ومحذوفاً (في «راح»). مما يجعل هذه الأبيات الأربعة جميعاً في وحدة مستقلة قوامها ضمير الغائب المذكور تحديداً، وإن تنوعت في توزيعها المتوازن للجمع فيه على بيتين (الخامس والسادس)، وللمفرد منه على بيتين آخرين (السابع والثامن)، يدعم الصلة بينهما ضمير المفرد المتكلم في البيتين الأوسطين من هذه الوحدة (السادس والسابع). وعلى غمط الوحدة المشكلة هنا، بغض النظر عن العدد (المفرد والجمع)، يصل ضمير المفرد المتكلم القائم في وسطها هذه الوحدة مع تلك السابقة عليها في تماثلها مع ضمير المفرد المتكلم الموجود في هذه الأخيرة (كاساتنا) في الوقت الذي يصلها أيضاً بالوحدة الأولى (في البيتين الأول والثاني). ورغم أن ضمير الغائب المذكور المفرد هو الذي يفتح البيت التاسع، فإنه يأتي مرتبطاً بضمير المخاطب المفرد المذكور المثبت (في «يفنيك») وإلى جانب ضمير الغائب المؤنث المفرد (في «تختال») لتندرج بذلك وحدة أخيرة ميزتها هذا التنوع، الذي يستكمل البيت العاشر حيث يحضر ضمير المخاطب المؤنث المفرد المثبت (في «درك») ومع ضمير التكلم المفرد مثبتاً أيضاً (في «عذبتني»). فتتميز هذه الوحدة عن سابقتها بضمير المخاطب المثبت لأول مرة في البيت الأول منها (التاسع) مذكراً، والمثبت كذلك في البيت الثاني (العاشر) مرتين مؤنثاً، متبعاً في ذلك ترتيباً عددياً متناسباً مع تراتب الوحدة التي يسمها. ومن الواضح أن صلته المثينة بالوحدة السابقة عليه (الثالثة) يؤمنها ضمير الغائب المذكور (في «يفنيك») وأنه لا يعلم صلة بالتي

قبلها (الثانية) عبر ضمير الغائب المؤنث («تختال») ولا بالوحدة الأولى عبر ضمير المخاطب المفرد المذكور. جميع هذه الضمائر «الواصلة» قائمة في البيت الأول من الوحدة الأخيرة (التاسع). ويمكن للضمائر الواردة في البيت الثاني والأخير (العاشر) أن تشكل دعماً لدورها المذكور الذي هو تأكيد ليس للوحدة الكلية المتناسقة والمتناسكة للنص، وإنما أيضاً لتناميها وتطورها على تكافؤ وانسجام رائعين، خاصة وأن هذا التوزيع بأكمله يتطابق ويتضافر مع ما سبقته ملاحظته نحويًا وعلى المستويين الدلالي والإيقاعي. إلا أن البيت الأخير يتمتع بميزة فريدة، وإن لم تكن غائبة نهائيًا في أبيات سابقة. تتمثل هذه الميزة في التباس وضع الضمائر فيه. فضمير المخاطب المؤنث فيه مبهمان لا يدلان على مدلول محدد في النص، ومثلها ضمير المتكلم المفرد الذي لا يمكن الادعاء أنه مطابق لضمير المتكلم المفرد في الأبيات السابقة حيث يشير إلى مدلول محدد هو الشاعر. ولا يمكن القطع بأنه يدل على المعنى الساقى أو الخمار، أو حسم الحكم بصدد صاحبه، وإن كان السياق يشير إلى أنه آخر غير أنا المتكلم الشاعر. لكن هذا الالتباس هو مكوّن من مكونات البنية النحوية، يأتي هنا خاصة للدلالة على هذا البعد التحويلي الذي تبلغه الخمرة في شاربها وبكل من وما تمس. فهذا الالتباس تعبير عن الانسجام النهائي في جوها الخاص، وعن النشوة المذهلة التي تبلغها نفس متعاطيها. فيأتي ليؤكد ما سبقت الإشارة إليه في هذا المستوى النحوي بصدد صيغة التعجب الإنشائية المعتمدة فيه، ويتطابق مع ما ذكر حول تحويل الخمرة للدلالات المختلفة إلى مدلول واحد من المتعة والفرح. لكننا قد نجد هذا الالتباس أيضاً في البيت الثاني والبيت التاسع على تمايز⁽⁶⁷⁾ فهو قائم في البيت الثاني في ضمير المخاطب المفرد المذكور المحذوف (في «فسقنيها») إنما على غموض محدود، حيث إنه يتوجه إلى مخاطب من أضعف احتمالاته أن يكون ذات المتكلم الشاعر، ومن أقواها أن يكون الساقى أو الخمار. بينها تردد صورة المخاطب الواقعي أو الوممي الذي يتنصب كمتخبر محدد أو مفترض إزاء المخبر أنا الشاعر. ويتفق غيابها هنا مع غياب هذا التحديد، وإنما خاصة مع غياب المطلوب. فليس حضوره الشخصي، ناهيك بافتراضه، كافياً لإعلان وجوده، بل إن فعله، سقيه الخمرة، هو الذي يجسد هذا الحضور. وما دامت مخاطبته طلبية فهي تعني غياب هذا الفعل حتى حينه، غياباً يتمثل بتغييبه وجوباً من النص. ويعود الالتباس مجدداً في البيت التاسع ليتعلق بضمير المخاطب المفرد المذكور المثبت هذه المرة (في «يعنك»)، والذي توزع

(67) أما في البيت الرابع، فإن ضمير جمع المتكلم لا يحفل بدرجة الغموض نفسها التي لضمير المخاطب، حيث إنه يتضمن في جزء منه مدلولاً معروفاً هو أنا المتكلم الشاعر، كما أن البيت اللاحق لا يلبث أن يوضح الجمع الباقي المقصود به في أولئك الندامى الذين يشاركون الشاعر الشراب.

احتمالاته بين أن يكون المدلول المقصود به التكلم الشاعر، أو الساقى الذي استدعاه في البيت الثاني، أو حضور مجلس الخمرة جميعاً مخصصاً التعبير عنهم بإفرادهم. كأن الغناء يتوجه مخصوصاً لكل واحد منهم، أو كان هذا الأفراد، على الأرجح، لدى الغناء من السكر والطرب تعبير عن هذا الانسجام الكلي الموحد للمتعدد في المجلس والذي يمهّد على هذا النحو لذلك التداخل الكلي في البيت الأخير، بما يتناسب مع ما جئنا على ذكره من تجانس الدالات المختلفة في الدلالة على الغبطة والنشوة. كما قد يكون المدلول المقصود المخاطب المخبر، ويكون التوجّه إليه توجّهاً إغرائياً يجعل كل ما سبق ذكره حول الخمرة نوعاً من دعوة ضمنية له للمشاركة فيها، ويأتي ذكر الغناء ليضيف إغراءً جديداً، ويزيد من إقناعه بالإقبال عليها. إلا أن هذا الضمير في الإثبات الذي يعرفه يعلن حضوراً كان مفتقداً في حالة الالتباس الأولى (في البيت الثاني: «فسقنيها»)، ويدخل بذلك وضعاً جديداً إلى النص عند هذا المقطع الذي يأتي فيه. ففي البيت التاسع الذي يرد الضمير المذكور ضمنه نلاحظ حذفين مقابل إثباته: حذف ضمير المغني وحذف ضمير الكأس. فكان إثبات المخاطب استحضار له من «غيابه» مقابل «تغيب» الحاضرَيْن (المغني والكأس)، وهو أمر يتخطى عملية تحويل الضد إلى تقيضه في المجلس الخمري - وهو تحويل يوحي به أيضاً هذا الغناء الذي يتوجه إلى المخاطب المذكور (في «ينيك») بضمير المخاطب المؤنث (في «درك») - إلى كون البعد الروحاني المتمثل بالشرب والغناء، أو السكر والطرب، يفارق الحضور الحسي معلناً أفق المتعة المقصودة. ويتألف هذا كله مع ما بيّناه أعلاه دلاليّاً.

٣ - المستوى الأسلوبي:

نتوقف في هذا المستوى عند الأساليب المعتمدة في التعبير لإعطائه البعد الجمالي البلاغي في الوقت الذي تؤدي فيه المعنى أو الفكرة أو الموقف، محاولين أن نتلمّس في العناصر البلاغية القائمة في النص التشكّل البنوي الذي تكونه أسلوبيّاً، بحيث يسمح هذا التكوين، فيما يتعدى الدلالات الجزئية للعناصر، برؤية دلالة كلية نسعى لرؤية مدى ملاءمتها للتشكلات الدلالية والإيقاعية والنحوية لبنية النص العامة.

أول ما يطالعنا في القصيدة افتتاحها بالتعبير المجازي في الشطر الأول من البيت الأول، حيث تلعب الاستعارة دوراً أساسياً في تكوين الصورة الواردة التي يقرب الهم فيها من المرتبة الإنسانية (أو دونها؟) للموجودات، بينما تتمتع الخمرة ببعد مادي حسي يتوسل للقضاء على الهم. تقابل هذه الصورة صورة مجازية أخرى في الشطر الثاني تلعب الاستعارة فيها أيضاً دوراً محورياً، حيث تعطى الخمرة مرتبة إنسانية (أو أرقى منها)، في حين يجتق بالهم بعد مادي

توحي به المعالجة التي يؤخذ بها. إلى جانب هاتين الصورتين المتقابلتين، يلفت الانتباه القيمة الخاصة والتميزة لاعتقاد كلمة «الكأس» في هذا البيت خلافاً لكلمة الهم. ففي حين تتكرر هذه الأخيرة لفظاً ومعنى، تؤدي تلك، نظراً للمعنى المزدوج الذي تحتمله⁽⁶⁸⁾ إلى إمكان رؤية جناس لفظي تام يحيل الصورتين المتقابلتين إلى مركب تعبيرى واحد، تنقلب في داخله المعطيات الأولى للتعبير في الصيغة البيانية العامة التي تندرج فيها، بحيث يستحيل العنصر المعنوي النفسي (الهم) إلى عنصر مادي محسوس، بينما يتقدم العنصر المادي الحسي (الكأس) ليصبح عنصراً روحانياً سحرياً⁽⁶⁹⁾.

يتراءى لنا خلال هذا التفنن الأسلوبي البعد الدلالي والإيقاعي والنحوي الذي أشرنا إليه بصدد البيت الأول، والذي يتأكد هنا خاصة بتمتع هذا البيت بالجناس الذي يفرد عن بقية الأبيات جميعاً. وإذ يأتي البيت الثاني خالياً من أي وجه من وجوه البلاغة، أو من أي صيغة من صيغ التفنن الأسلوبي، فإنه لا يتميز هو الآخر بذلك عن بقية الأبيات وحسب، وإنما يقيم أيضاً فاصلاً بين ما قبله وما بعده، حيث تسود المحسنات اللفظية. لكن البيت الثاني يجتمع مع ما قبله (الأول) لاتفاقها الشكلي في التميز والتفرد، على فارق بينهما في ذلك. فيتكون بذلك توزيع عام للنص على المستوى الأسلوبي في قسمين: أول، يجتمع فيه البيتان الأولان المتفردان على تمايز، وثان، يشتمل على الأبيات الباقية. وهذا التوزيع يتطابق بوضوح مع التوزيع البنوي العام على المستويات الأخرى، من دلالي وإيقاعي ونحوي.

إذ يفتتح القسم الثاني بالصورة التي تشكل الاستعارة أساسها، فإن هذا البعد البياني فيه يشكل قاسماً مشتركاً بينه وبين القسم الأول يعبر عن هذا التسامي التعبيري في الأسلوب كما في مستويات أخرى لاحظناها أعلاه. تدمغ هذه الصورة الخمرة ببعد إنساني بارز، من خلال التشخيص الوارد فيها، وتدمغ كذلك ما يتصل بها هنا (وهو الماء)، فتؤدي بذلك البعد التحويلي البارز للخمرة بوضوح. بيد أن التعبير لا يكتمل إلا في الشطر الثاني، حيث يبرز وجه بياني جديد هو التشبيه الذي يتجه بهذا التعبير نحو المادية والحسية. وهو يكاد يماثل الصورة المجازية من خلال تركيزه على البعد الصوتي للمشهد الحركي السمعي البصري. في هذا البعد الصوتي جوانب إنسانية كامنة في خلفية التشبيه وليس في ظاهره. أما التشبيه الوارد في البيت اللاحق فيركز على البعد النظري العياني للمشهد صارفاً إياه نحو أجواء مثقلة بدلالاتها الإنسانية. إنما يقوم داخل هذا التشبيه الأخير وجه أسلوبي آخر من البديع المعنوي هو الطباق (بين اعتكار الليل وتوقد السرج)، الذي تراءى بسيطاً في البيت

(68) فهي الإناء يشرب فيه، وهي الخمر (راجع: المنجد...).

(69) ليصدق هنا القول الشهير «إن من البيان لسحراً».

السابق (بين الضحك والشغب)⁽⁷⁰⁾. يعبر الطباقي هنا عن الدور التحويلي الذي تؤديه الحمرة في تغييرها الأشياء السلبية إلى نقيضها الإيجابي. وفي وروده داخل الصورتين البيانيتين إشارة إلى مجيء هذا الدور كخاصة داخلية من خواص الحمرة ومقوماتها التكوينية. هكذا يرتسم في هذين البيتين (الثالث والرابع) ما يميزهما عن القسم الأول: التشبيه الغالب على المجاز من ناحية والطباقي القائم فيها من ناحية ثانية، ليكونا بناء عليه وحدة خاصة لا تعدم وجه اتصال بهذا القسم كما أشرنا آنفاً، ولا بما يليها من وحدات كما سنلاحظ. مع البيت الخامس يبرز وجه بياني جديد متمثل في الكناية المعتمدة ضمنه («شم الأنوف»)، يعلن انعطافاً أسلوبياً يفارق ما سبقت ملاحظته حتى الآن. تتميز هذه الكناية بانطلاقها من الحسي للإيجاء بالمعنوي الشخصي والاجتماعي، معبرة بذلك عن طرُق الحمرة لميادين جديدة أو عن امتداداتها نحو آفاق مختلفة. لكن الوجهين الآخرين من استعارة وتشبيه لا يلبشان أن يظهرهما في البيت السادس، متجاورين في صورة واحدة تصف الساقبي أو الخنار في جماله ورشاقته وغنجه ودلاله. فتمضي الاستعارة به إلى المرتبة أو المجال الحيواني (الظبي الصغير) والتشبيه إلى النباتي (الغصن) كأن في ذلك سعياً لتقريبه في صفاته وخصائصه المادية من المرتبة المادية للخمرة، أو كأن في ذلك تعبيراً عن نظرة الشاعر إليه المستلطفة والمعجبة والموحية بأبعاد جنسية وغرامية قوية. في هذا الجانب الأخير ميل بالدالات الحسية إلى مدلولات تنخطاها. بينما يأتي تصوير فعله وأثره في النفس بصورة مجازية، قائمة على الاستعارة تنقل العنصر الحسي إلى أفق إنساني واجتماعي مثقلة بالدلالة على المدى الوجداني العميق. أما التشبيه الحسي الوارد في البيت الثامن فينقل التعبير إلى أفق اجتماعي وتاريخي ذي دلالة قوية على الأبعاد التحويلية المتعددة التي يأتي البيان بها هنا. فجميع الصور البيانية المختلفة القائمة في هذه الأبيات الأربعة (من الخامس حتى الثامن) ذات تكوين حسي مسادي واضح، إلا أن الأجواء الدلالية التي تؤديها ذات سمات معنوية غالبية، أكانت وجدانية ذاتية أم اجتماعية أم تاريخية. بل إن هذا التعدد مؤثر على غنى وتنوع الأجواء الموحية الناتجة عن ذلك بما يتلاءم مع غنى وتنوع الملهذات التي تحملها الحمرة إلى شاربها.

إذا كان البيت الرابع نهاية الوحدة الأولى من القسم الثاني (المكونة من البيتين الثالث والرابع)، متميزاً بأداة التشبيه التي يتدبىء بها («كأن»)، فإن هذه الأداة التي يبدأ البيت الثامن بها هي أيضاً نهاية الوحدة الثانية من هذا القسم (المكونة من الأبيات الأربعة، من الخامس حتى الثامن) لتشكل علامة تأكيد على أن ما يجمع الوحدتين هو هذا التشبيه (70) وهو ما يمكن تسميته بالطباقي التأويلي. راجع: السيد المرحوم أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديح، الطبعة الثانية عشرة، بيروت - دار إحياء التراث العربي، د.ت. ص 367 - 368 (الملاحظة رقم 1).

القائم في كل منهما دون بقية الوحدات أو الأجزاء الأخرى. وهو يأتي عددياً مرتين في كل منهما بالإضافة إلى اختتامها بالأداة المذكورة، ماهرأ إياهما بطابع مميّز مشترك. وإذا كانت الوحدة الأولى قد تميزت بالطباق، فإن الثانية تتميز بالكناية، وربما لم تعدم وجه صلة آخر لها بالأولى عبر طباق تأويلي (المقرطوق - الفارسي مقابل ابن مارية - القسائي والورد - الأحمر مقابل الأس - الأبيض)، وتخييلي (شم مقابل أنكاس). وكما اتصلت الأولى بالقسم الأول عبر الاستعارة، فإن الاستعارة الواردة في الثانية تقيم لها صلة بها معاً. وربما كان احتواؤها على استعارتين تعبيراً عن موقعها، كما عن هذا الاتصال المزدوج الذي تؤديه، أو خاصة تعبيراً عن هذا التنامي والتقدم في حركة النص على المستوى الأسلوبي لا تتوقف عند هذا الحد.

فالوحدة الثالثة أو الجزء الثالث من القسم الثاني والمكوّن من البيتين الأخيرين (التاسع والعاشر) يحتوي على صور مجازية ثلاث، تعتمد بدورها على الاستعارة في تكوينها. وهي إذ تؤكد جميعها البعد الإنساني البارز في التشخيص القائم في الصورة الأولى («تختال») كما في صورتين اللاحقتين («لله درك»... «عذبتني حرقاً»...). اللتين لا تستبعدان التشخيص في بعض القراءات، تعبر عن تجانس بين عناصرها رفيع، وعن انتصار رائع للجانب الإنساني والروحي على الجانب الحسي والمادي في التعبير. وكلاهما، التجانس والانتصار، يعبران عن الدور التحويلي الإيجابي للخمرة وعن الاندماج والارتقاء اللذين تصل بالشاربين إليهما. وقد لاحظنا مثيل ذلك على المستوى الدلالي والإيقاعي والنحوي. يبقى أن نضيف ملاحظة تتعلق بعدد هذه الاستعارات الثلاث، الذي يبدو وكأنه يأتي ليكمل الخط المتطور والمتصاعد الملاحظ آنفاً في الوجدتين السابقتين من هذا القسم. فهذا العدد يتأهل أولاً مع موقع هذه الوحدة الأخيرة (الثالثة)، وثانياً مع الصلات (الثلاث) التي تقيمها، ليس فقط مع الوجدتين السابقتين عليها، بل مع القسم الأول أيضاً. مما يتيح القول إن الصورة المجازية تحديداً هي المكون الأسلوبي الأساسي في النص، وهي التي تعطي في تشكيلها البنيوي العام في النص توزيعاً متناسباً (متطابقاً؟) مع ذلك الذي لاحظناه في المستويات الأخرى. وهذا التناسب (التطابق؟) بالذات هو الذي يعطي لهذا النص جماليته الشعرية الراقية.

إلا أن الاستعارة ليست وحدها المعتمدة في الوحدة الأخيرة (البيتين الأخيرين) إذ يرد الطباق الإيجابي فيها، وبعدد مماثل لعدد الاستعارات (ثلاثة). وعبر هذه الطباقات بالذات تعلن هذه الوحدة عن انتمائها إلى القسم الثاني، باعتبار أن الطباق هو القاسم المشترك بينها وبين الوحدة الأولى فيه (البيتين الثالث والرابع)، وأنه هنا كما هناك عنصر مكون في الصورة البيانية، وبالتالي فهو خاضع للتحويل الإيجابي العام الذي تؤديه الاستعارة في النص كما لاحظنا. إلا أن الطباق هو أيضاً قاسم مشترك بين هاتين الوجدتين والوحدة الثانية، إذا أخذنا

الطباق التأويلي والتخييلي فيها بعين الاعتبار. وفي ذلك كله تأكيد مرة أخرى لهذه الدرجة الرفيعة من الانسجام والتآلف والتكامل والتعادل في النص على كافة المستويات، وهذه الإبداعية الشعرية العالية التي يتميز بها.

خامساً : في الأبعاد الشخصية والاجتماعية :

يكاد درس النص حتى الآن أن يكون قد اقتصر على تحليل معانيه الداخلية وحسب. بيد أن النص، أي نص، ليس علماً مغلقاً، وإن كان مستقلاً قائماً بذاته. فهو لا يأتي في المطلق ولا يقيم في الفراغ، بل يجيء في سياق محدد من أعمال صاحبه وأعمال سواه، وحياته وحياتهم، ويحل في جملة من العلاقات الثقافية والاجتماعية المعقدة في سرورة تحولاتها وتفاعلاتها وصراعاتها. وهذا ما يسميه البعض المعطيات الخارجية للنص. فهو القائم بذاته لا يسعه الاكتفاء بها دون الوقوع في مخاطر الاختزال والالتباس والإشكال. وبقدر ما تكون هذه المعطيات الأخيرة مكونة له وفيه، بقدر ما تكون العودة إليها ضرورية لفهم الأبعاد الدلالية للنص في صورة كاملة أو متكاملة.

ذلك أن النص، أي نص، ليس مقصوداً بذاته. وإذا كانت الوظيفة الشعرية للغة تقوم على التركيز على المرسله نفسها كما يقال⁽⁷¹⁾ فلا يعني ذلك إهمال المستويات الأخرى من مستويات العلاقة التي تقيمها عملية الاتصال اللغوي بين مرسل أو مخبر ومرسل إليه أو مخبر. ولا يجدر بالتالي التوقف عند المرسله أو الخبر، إذا أردنا بلوغ الأبعاد الأخرى للنص، وعدم الاكتفاء بجزء منها أو ببعض من مستوياته. إلا أن هذا الجانب من البحث ليس تنجيماً أو تخميناً، كما أنه ليس افتراضات مسبقة. إنه ارتياد منهجي لفضاء محدد هو فضاء النص موضوع الدرس، تحكمه بنية هذا النص التي تفرض حدوده ومعامله الأولى، وتمهد في الوقت نفسه الطريق إلى أسراره وعوامله. ولا يتم ولوج هذه الطريق كينها اتفق، بصورة اعتباطية، حسب أهواء ذاتية أو ميول فكرية أو إيديولوجية؛ بل بناء لمنهجية موضوعية مستمدة من

(71) راجع : Roman Jakobson: *Essais de linguistique générale* (2t.). 1. *Les Fondations du Langage*.

Traduit et préfacé par Nicolas Ruwet, Paris, les Editions de Minuit 1963. Ch.XI: «Linguistique et poétique» (209 - 248).

Michel Patillon: *Précis d'analyse littéraire*.

2. *décrire la poésie*.

Paris, F. Nathan 1977 p. 15.

العلوم الإنسانية التي تعنى بالأبعاد الخارجية التي يجري الاهتمام بها. معنى ذلك أن الأخذ بظاهر النص، كما يجري غالباً في هذا المجال، إجراء غير سليم، لأن بنية النص ليست في معظم الأحيان معطى مباشراً وسطحياً بل هي تكوين علائقي عام وعميق، ولأن الظاهر غالباً ما يكون خادعاً، وبالتالي مدعاة للوقوع في المغالطات. فما يعطي لظاهر ما حقيقته الدلالية الفعلية هو اندراجه في بنية النص العامة وفهمه على هذا الأساس.

بناءً لذلك، وسعيًا وراء إضاءة أبعاد دلالية تتعدى النص دون أن تفارقه، بارتكازها على الأسس البنيوية التي يقوم عليها، نحاول أن نتلمس في هذه القصيدة ما يتعلّق منها بذات الشاعر أو بنيته النفسية، كما يحكم لاوعيه تكوينها، وما يتصل منها بالبنية الاجتماعية كما يشير إليها موقفه من الأوضاع والصراعات الاجتماعية السائدة أيامه.

١ - لذة المحرّم:

بحثاً عن الأبعاد الذاتية للنص، ينصرف درس النص أساساً إلى محاولة استكناه اللاوعي الكامن فيه، أو لاوعي النص. فيكون بذلك تحليلاً نفسياً لخطابه يتعرف في الظاهر على الباطن، في المعلن عن المضمّر، وفي المصرّح به عن المكبوت، سعيًا وراء ذلك المكبوت الأساسي الذي تتركز إليه جميع عناصر واشكال الكبت الأخرى، وتنظم في الهيكلية العامة التي تحددها بنيته الأساسية، ذلك المكبوت الراسخ في اللاوعي والذي يتسلّل متخفياً أو متنكراً بطرق ووسائل وصور عدة، ليتيح نوعاً من التوازن النفسي غير المستقر وإنما الضروري لعدم بلوغ حال الأزمة أو المرض. إن تحليلاً كهذا يرتكز إلى حد كبير على التأويل الذي تشكل منهجية التحليل ضماناً له من التبعض والتعسف.

لما كانت «اللاوعي البنية الجذرية التي للغة» كما يقول لاكان⁽⁷²⁾ ولما كان الكلام أكثر الميادين التعبيرية التي تعرض التحليل النفسي لها في سبيل بلوغ اللاوعي، ولما كان قد أصبح من المسلم به إجمالاً أن اللاوعي يجد في الأساليب البلاغية المختلفة، وإنما خاصة في العالم التخيل الذي يتيحه له الأدب، والشعر والفن عامة، مجالاً محظياً من مجالات التسرب والإفلات - حتى عد هذا المجال غطاءً من أنماط المعالجة والشفاء - فإن البحث عن لاوعي

(72) راجع: Jacques Lacan: Ecrits Paris, Editions le Seuil 1966 p. 594.

وسامي سويدان، «تحليل نفسي لنص روائي: القاهرة الجديدة لتنجيب محفوظ» في أبحاث في النص الروائي العربي الطبعة الأولى، بيروت - مؤسسة الأبحاث العربية، 1986 (ص 25 - 60) وفي مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت - العدد 34، ربيع 1985 (ص 48 - 60).

النص يجدر أن يقوم في بنيته التخيلية أولاً، ومن ثم في تفاصيل التعبير الجمالي فيه. على هذا الأساس المنهجي يمضي التحليل هنا في عمليات تأويله ونحو هذه الغاية يتجه.

فالمسألة المطروحة هنا ليست مسألة إسقاط تصوّر مسبق على النص، أو الانطلاق من فرضية، والسعي لإثباتها عبر استشهادات متفرقة؛ وليس من نافل القول التكرار والتشديد على أن انتزاع أبيات من سياقها، من هنا وهناك، لا يشكّل بحد ذاته تعليلاً كافياً، خاصة إذا تم ذلك من ديوان مجوي عشرات القصائد في مئات من الصفحات، لا يعوز الباحث عن تأكيد ما أن يجد ضالته، بحيث قد يؤدي ذلك في غياب تحليل نصي متكامل إلى تلفيقات لا حصر لها. فإذا تعلق الأمر بدراسة التركيبية النفسية لشاعر يصبح هذا التحليل شرطاً لازماً لا غنى عنه. فلا تشخيص لحالة أو لوضع نفسي بدون تحليل نصي، وإلا أضحي الأمر مرتبباً بمدى رجاحة بعض الأفكار التي قد تصيب بالانساق والمصادفة⁽⁷³⁾، أو تسطيحاً للمسائل والقضايا النفسانية⁽⁷⁴⁾، أو تسخيفاً متعسفاً لها⁽⁷⁵⁾.

أ - إذا كان لبنية لاواعي قائمة في النص أن توجد إذن، فلن تكون خارج تركيبته الكلية أو بنيته العامة، الدلالية منها بشكل خاص. ولما كانت هذه البنية قائمة في المطلع كما ذكرنا، فسنحاول استقراء أية دلالة نفسية يشير إليها هذا المطلع البنيوي.

إن اللجوء إلى الكأس، كما يظهر في البيت الأول، لجوء مزدوج، لمواجهة أمر واحد هو الهم. فهو من ناحية يقوم على التهديم والقطع، ويأتي عنيفاً قاطعاً، ومن ناحية ثانية يستند إلى تلك الخاصية العلاجية الإصلاحية فيه ويأتي رقيقاً ناعماً.

يشير هذا اللجوء إلى حاجة ملحة، يعطي البيت الثاني فكرة عن مدى خطورها في هذا الطلب المميز والبدال على المستوى الرفيع للمواجهة القائمة. فتبدو الخمرة في الظاهر مطلوبة ليس لذاتها، وإنما لإلغاء الحزن ودحر الكآبة وشفاء النفس من كربها. فهي تؤدي دوراً تفرجياً أو تفرجياً في النفس. هذا التحرير من الهم تحرير لها مما يزرع عليها ويثقلها ويهددها بالخطر. فالهم هو ذلك الكبت والمنع الذي يحيق بالذات ويكبلها، والخمرة هي ذلك العنصر الذي يزيل هذه الموانع والعوائق الضاغطة على النفس فتطلقها وتريحها. . وتبدو مجابهة الخمرة للهم كنوع من إزالة وإلغاء للأننا الأعلى

(73) كما هو الحال مع بعض ملاحظات عبد الرحمن صدقي في ألحان الحان؛ ذكر سابقاً.

(74) كما مع الدكتور محمد النويهي في نفسية أبي نواس، الطبعة الثانية مزينة ومنقحة [القاهرة؟] - دار الفكر/ مكتبة الخانجي د.ت. [الطبعة الأولى، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية 1953].

(75) كما مع عباس محمود العقاد: أبو نواس / الحسن بن هانئ، [القاهرة] دار الهلال د.ت. [1954].

الذي يضيق على الذات ويحول دونها ودون تحقيق رغائبها. فقطع الهم، أو تحطيم الأنا الأعلى هو الوجه الذي يتمثل فيه الاتصال بالكأس، أو الوصل بالخمرة. فطلبها هو أيضاً تعبير عن رغبة فيها واشتهاؤها. وهي رغبة لا تعلن مباشرة وإنما مداورة بعد أن توجد تبريرها المنطقي المقنع.

تصبح الخمرة على هذا النحو مزدوجة الدلالة: في القدرة التي تتيحها لشاربها كي يتخلص من كبت الأنا الأعلى، وفي اللذة التي تحققها له من خلال ذلك تلبية لرغبة ملحة عنده لا يصرح بها. عبر هذه الازدواجية، تتمثل بنية النص بأكملها باعتبار الخمرة مطلوبة لإراحة قاصدها من همّه، نظراً لقيمتها النفسية التحويلية المدهشة.

بيد أن هذه اللذة وتلك القدرة اللتين تتيحهما الكأس لشاربها تشيران، في بنية الطرح العام هذا وفي بنية النص العميقة، إلى بعدين نفسيين كامنين في هذه البنية. فالكأس التي تحطم وتبدد تمثيل للقضيب (Phallus) الذي يؤكد فحولته وقانونه وسلطته المطلقة، والكأس التي تداوي وتشفي هي تجسيد أو تحقيق هوامى للرغبة المكبوتة والقابعة في سرايب اللاوعي المظلمة. الخمرة رمز يعوض من خلال امتلاكه نقص مزدوج على الأقل: غياب سلطة قضيبية خاصة، باعتبار أن قانون الفحولة السائد يحول دون تكوينها، فإذا بالخمرة تقيم على أنقاض سلطة قمعية مسيطرة، سلطة جديدة تحريرية ولذوية؛ والحرمان الأساسي الذي يتمثل في الرغبة المكبوتة في اللاوعي تشير إليه صورة الكأس ذاتها. ففي اللذة الحسية - الروحية التي تؤديها عبر القم في النفس تسمى إلى لذة مماثلة قائمة في عملية الرضاع وما تؤديه من اكتفاء حسي ومنتعة نفسية. فكأن الكأس ضمن هذا المنظور تؤدي يعوض عن فقدان آخر أصيل هو ندي الأم الغائب والمطلوب في لذته وحميمته العاطفية. وإذا كانت الخمرة إحياء للنفس وإنعاشاً للجسد، فكذلك الرضاع معادل للحياة ومفعم بالحنان. وإذا كان الاتصال بالخمرة اتصالاً بمحرم وانتهاكاً لمنوع، فإن التعبير عنه يصبح مؤشراً على عمق الدلالة النفسية لهذا الإجراء. إن شرب الكأس انتهاك للمحرم الظاهر يرمز إلى رغبة في محرم آخر مكبوت، والتشديد على إظهار ذلك هو إصرار على إخفاء هذا. كما أن الحصول على الكأس يرمز إلى استحواذ على سلطة قضيبية، مليئاً برغبة لاواعية في الوقت الذي يؤكد قوة الخمر التغييرية والإصلاحية. وإذا كانت ميزة المطلع أسلوبياً في ذلك الجنس القائم فيه، فإن هذا الجنس بالذات هو الأسلوب الملائم للتعبير عن هذا الدور المزدوج الذي تؤديه الكأس: تعويضاً عن قضيبية مفقودة وتحقيقاً لرغبة مكبوتة لاواعية. وما كان لهذه الرغبة وتلك القضيبية أن تجتمعا في الرمز الواحد (الكأس) لو لم يكن الدال الأساسي الأولي

مزودجاً بحد ذاته. أي لو لم تكن الأم ممثلة للسلطة القضيبية وللرغبة اللاواعية في آن (76).

ولما كانت السلطة القضيبية هي الوسيلة التي يتيح امتلاكها تحقيق الرغبة اللاواعية، فإن اجتيازها يتم بغرض بلوغ هذه الغاية. لذلك ينصرف التعبير في البيت الثاني إلى التطلع النهم إلى تلك اللذة المنوعة، فيسفر الطلب عن الرغبة الأصيلية عبر الإشارة إلى الدال الذي يرمز إليها. إنه يفضح في طلبه المستدر حقيقة الرغبة الدفينة، ويأتي وصفه للخمر، كسلاف محجوبة في ظلمة الأرض والسنين، ممثلاً للحديث عن لبن الأم الخبيء في جسدها المحجوب في ظلم البعد والكبت، ليكشف في القناع المعتمد وجه الرغبة العميقة. فيكون خروج الحمرة من دنها المدفون تحت الأرض إلى الحياة والنور صورة عن خروج المكبوت و بروز الرغبة اللاواعية، لتعلن بتحققها الخلاص النفسي ولذة بلوغ المرغوب والفرح بالحصول على موضوع الحرمان. يكون التطلع إلى التمتع بالخمرة معبراً عن التطلع إلى التلذذ بذلك السائل الأمومي الخاص بالمراحل الجنسية الأولى والمرحلة الفمية منها خاصة. وهذا ما يفسر الدور المركزي لهذه اللذة، لذة الشرب التي تطفئ على ما عداها والتي تشكّل باباً تلج منه بقية اللذات وهو ما يفسر تقديمها على هذا النحو («فسقنيها»)، لتنتفح إثرها أبواب جميع اللذات الأخرى: البصرية والسمعية والجسدية والنفسية والجماعية. . . والتوجه إلى مذكر بالأمر الطلبي تأكيد لامتلاك السلطة القضيبية التي تتيحها، وهو إمعان في التورية والتكرار،

(76) يمكن في ذلك العودة إلى بعض أخبار أبي نواس التي تجمع على غياب ميكيرلأب، وعلاقة مستقلة بالأم لم تنح للطفل أن يبلغ المرحلة الرمزية التي تتيحها المرحلة الأوديبيية، حيث يسمح وجود الأب بإحلال نظام الكبت الأولي ومعه إمكانية تمهي الطفل به لتجاوز هذه المرحلة. وهذا الغياب يفسر من ناحية غياب الأنا الأعلى عند أبي نواس، ومن خلاله هذا الاستخفاف البارز بكل المحظورات والقيم الاجتماعية السائدة. كما يفسر من ناحية ثانية قصور رغبته بالأم عن أن تصبح رغبة جنسية كاملة فتتوقف وتثبت عند مراحل ما قبل الأوديبيية. فإتصاله بجسد الأم لم ينقطع نفسانياً، وهذا ما جعله يلعب بالنسبة إليها طيلة الفترة التي سبقت انقطاعها لزوجها أو انصرافها عنه قبل ذلك أو معه، دور القضيب لها. وإذ تنقطع عنه فهو يحنّ إلى تلك العلاقة الجسدية الحميمية بها، ولكنه يحرم منها ويمنع عنها، فتكبت في نفسه دون أن تزول. وينصرف تدفقه إلى ذلك نفسية متحررة إلى التعويض عن هذا الفقص بدالات كثيرة تسمى إليه ولا تعلنه، تدور حوله ولا تصل إليه. فما يحن إليه هو استرجاع هذه العلاقة الحميمية بالأم، أن يكون متصلاً بجسدها المكتنز، كما يرمز إليه ثديها الممتلئ، بالمعنى النفسي، وأن يكون لها ذلك القضيب الذي ينقصها - تنقصه. وليس شعره بناء لذلك إلا نداء مستمراً، صراخاً عنيداً إليها، لا يبلغ ما يريد ولا يتوقف عن الطلب. فيبقى ذلك القضيب النائه وذلك الفم الصدي رغم كل محاولات الإشباع التي ينغمس فيها.

ولكنه أيضاً استفادة من هذا الازدواج «الجنسي» الذي يتمثل في الشدي (الذي يذُكر ويؤنث). هذه الإزدواجية تتردد أصدواؤها في ازدواجية الكأس من ناحية، وفي الدالات الجنسية الأخرى التي تعتمد على الرغبة الأصلية لبلوغ مرماها، لتحقيق ذاتها فيما يماثلها، يعوض عن غيابها، من ناحية أخرى. على هذا النحو تفهم تلك العلاقة بالعلمان أو الغلاميات كما ستطرق إلى ذلك لاحقاً.

ب- في بنية النص تتمثل بنية اللاوعي. بعد إشهار هذه البنية في المطلع والإمعان في التأكيد عليها، ينطلق التعبير في عملية التمثيل أو التحقيق المترجم لتلك الرغبة اللاواعية. فيكون ذلك مدار الأبيات اللاحقة أو القسم الثاني من النص، كما لوحظ في المستويات المعالجة أعلاه. إذ يعلن البيت الثالث حضور الخمرة، فإنه يقدمها في وضع جنسي مثير. الخمر أنثى والماء ذكر. ومن استراتيجيتها تنهض تلك الصورة المعبرة عن العلاقة الجنسية بين الذكر الشرس والأنثى اللطيفة. إنما في هذا الالتحام الجسدي بين الأنثى والذكر، يبقى جسد الأنثى هو مركز الاهتمام، وهو الذي يسود. وراء هذه الصورة، يرسم جسد الأم المهنيء في سلطته القضيبية الواضحة، كخمرة تهيم في ضحكها على شغب المزيج، وفي أعينها على مادته، تحوّل الأذى القادم من الماء إلى فرح من مادتها، أنثى تركب الذكر وتعطي العلاقة به طابعها هي، الأنثوي. هكذا يخلص جسد الأم من شر يهدده به الذكر الآخر، ويصفو ضحكاً ونغماً جميلاً مطمئناً، مؤكداً في حضوره سلطته بامتياز. إن الاقتراب من هذا الجسد لا يمكن أن يأتي صريحاً. لذلك تدخل عناصر موهمة عدة، أهمها هنا جماعية التعبير.

توقّد الكأس - القضيب هنا، فتقلب الليل نهاراً في مكان مقدس. إن الكأس تتبع التعبير عن هذه الإثارة الجنسية إزاء حضور الجسد الأمومي. إنها تعطي الشاربين سلطة قضيبية تخرج فحولتهم على ظلمة الأنا الأعلى، فيتألق المكبوت في طقس احتفالي يتنازعون فيه، ما هو شبيه بتنازع المسيحيين دم المسيح أو جسده، حليب الأم أو جسدها. وإذا كانت المسيحية تحلّل الاتصال بالكأس، بل تدعو إليه باعتباره عنصراً أساسياً من عناصر الإيمان والتصديق، فالمعجزة الأولى هي خرية تحديداً، وطقساً أساسياً من طقوسها الكنسية، فإن ذلك يشكل مادة وخلفية للتعبير الدلالي والبياني، وإنما أيضاً فرصة لتسلل اللاوعي فيه. فمن خلال هذه الصورة المثقلة بالإيماءات المسيحية تتبدى موهمة تلك الخلفية اللاواعية التي تشير إلى «مسيحيين» جدد، لا يأخذون من المسيح إلا كونه ابن امرأة لا زوج لها، فهم أبناء أم بدون أب، ويتمتعون بحليب أو بجسد الأم دون منازع. والإشارة إلى فتوتهم، تتضمن احتمال كونهم شباناً أحدائناً.

والخمرة المتنازعة بينهم صافية لا يشوبها شيء، ومن خلال هذا الطقس الاحتفالي الجمالي تعبر الرغبة اللاواعية غير ظاهرة أو مرئية، من خلال ضمير المتكلم، من دال إلى آخر، من جسد إلى آخر دون أن تعرف الارتواء الكامل أو تكف عن الدوران حول المدلول الخفي الذي لا تبلغه ولا تعلمه.

هكذا يتقل التعبير ليرتكز حول الساقى أو الخمار الذي يتمثل استعارة بالشادن. وهذا التمثيل الذي يصدق على الأنثى كما على الذكر، يبقى التعبير مبهماً في إحدى قراءاته على الأقل حتى نهاية النص. يزيد الوضع غموضاً كون الشادن لفظاً يطلق على الأنثى كما على الذكر، كالتظبي، وكالتندي. كأن هذا الغموض وذاك الإبهام مقصودان في اللغة، كما الأسلوب، للدلالة على هذا الشخص كدال مزدوج يعلن عن الرغبة الخفية اللاواعية والمزدوجة بدورها.

ليس الشادن هو المزدوج وحده، بل أيضاً الخنث والغنج وسحر العين والقرطق والإكليل. . . . وجميعها تحيل إلى ذلك الثدي كدال أولي، يؤكد تجانس الدلالات المتنافرة قيامه في أساسها جميعاً. ففياً يتعدى الإشارات إلى الفرس والعرب، وفي هؤلاء إلى الغساسنة والقرشيين، تبدو المكانة الراقية التي يحتلها هذا الشادن - الساقى دليلاً على موقعه الدالي المذكور. . . .

إنه ليس سوى استعارة ذات مغزى في هذا السياق. إنه وليد الظبية لا يستدعيها كأم وحسب، وإنما يستدعي كذلك العلاقة الجسدية بها عبر ثديها. فالاستعارة، على هذا النحو، تحمل محل الظبية وليدها، كما يمكن للغلام أن يحمل محل أمه. ولما كان هذا الشادن في تنكيره مطلقاً، فإنه يشير إلى جسد الأم المطلق وإلى الثدي المطلق، ويبدو الغلام على هذا النحو البديل الذي يحمل محل - ويشير إلى - «الشيء» الغائب الذي يكمن وراءه، إلى المدلول المكبوت الذي لا يصح به، ثدي الأم وجسدها المرغوب - المحرم.

يقابل الشادن المذكور استعارة ثانية (في البيت السابع) تشكل الرديف المكمل له، بحيث يتأكد البعد الازدواجي فيه، كما هو الحال مع الكأس. فالشادن الولد الجميل الرقيق اللطيف الساحر. . . من جهة، يأسر من جهة ثانية الشاعر ويتحكم به من خلال أكثر عناصره رقة وسحراً: عينه!

عبر ذلك يتبدى لنا أحد أبرز مرتكزات علاقة أبي نواس بالعلمان أو الغلاميات. فهؤلاء هم الذين يقربون إليه جسد الأم بالشكل الهوامي الذي يجمع الرغبة والقضيب في

آن. وإنما كذلك هؤلاء هم الذي يمكنه إقامة علاقة جنسية معهم يتيحها تحرره من الأنا الأعلى الاجتماعي، وتتطلبها العلاقة التثبيته مع الأم الغائبة⁽⁷⁷⁾.

ويأتي التشبيه في هذا المقطع ليمعن في كشف مرامي اللاوعي في غلالات رقيقة. فالغصن المثني كصورة أنثوية تعيد وضع الشادن في هيئته الطبيعية كجزء من كل لا يقوم إلا به، مستدعياً بذلك الشجرة الأم التي ينتمي إليها ويبدو فيها قضيباً - نهذاً لها.

ولا يقوم تشبيه الإكليل، حين يستدعي تاج ابن مارية تحديداً، إلا بدور مماثل. فهو يوازي بذلك ليس بين الإكليل والتاج فقط، وإنما أيضاً بين الساقى أو الخنجر وابن مارية. في هذا التوازن يبرز الانتساب الواضح إلى اسم الأم وقانونها وجسدها؛ فهذا الشخص لا يُعرف إلا بها، فإذا غابت فهو ليس إلا ابناً وحسب، قضيباً فالتأ⁽⁷⁸⁾. لذلك يتخذ هذا الانتساب هنا شكل الانتهاء الجسدي البارز. فهذا المكمل في النهاية مماثل في شكله، بالإضافة إلى انتهائه وأصله، الثدي الذي تقوم له لعوته مقام التاج للرأس. يؤكد ذلك دخول الأس إلى جانب الورد في تكوين الإكليل، والأس في زهره الأبيض نقيض سواد اللعوة، وفي ثمره الأبيض والأسود الصغير اللذيذ يتجاوز هذا التناقض. والأس أيضاً كما هو معتمد في النص، في لفظه ممدود بحرف الجر في آخره، يأتي متجانساً مع آس مطلع القصيدة، وبشير بصورة مداورة إلى الدور الذي يلعبه الغلام - أو الغلامية - في تعويض الحرمان من الثدي الأم وجسدها.

أخيراً تطلق الخمرة لسان هذا المخنث عبر السكر، بما هو فك لعقاله، برفع تسلط الأنا الأعلى عليه، وعبر الطرب، بما هو تعبير عن هذا الاتصال الوهمي بجسد الأم. يأتي

(77) تبدو هذه العلاقة التثبيته بالأم هي الحائل الفعلي دون تمكن الشاعر من إقامة علاقة ثابتة بأية امرأة أخرى. فعلاقة كهذه تعني خيانة للأم وقطعاً للتثبيته لا يمكنه القيام بها. ولا يتم البحث اللافت عن ثدي الأم وجسدها إلا بشكل مزدوج يعلن فيه القدرة القضيية في فحولة جاعة باعتبارها استعداداً واضحاً واستدعاءً ضمناً لذلك الجسد الغائب من ناحية، ويعلم من ناحية ثانية الوفاء لهذا الجسد والتمسك المستميت به دون سواه ومع سواه في آن، دون تلك الأجساد التي تنهي علاقته به عبر علاقة دائمة بها، ومع تلك الأجساد التي لا تهدد هذه العلاقة، أجساد الغلمان والغلاميات. فهو الذي لا يستطيع لعب دور الزوج - الأب لأنه لم يتمكن من التماهي معه، وبقي في علاقة تثبيته مع جسد الأم، مع ثديها، يستعد باستمرار هذا الثدي لدى الأخريات إذ لا يكف عن طلبه لديها، ويدور من جسد لآخر قضيباً لا يستكين، لأنه يستحيل عليه التثبيته في جسد غير جسد الأم المطلوب والمستحيل.

(78) تتيج التسمية الواردة تماثلاً بين ابن مارية وبين المسيح (ابن مريم) ويكون الساقى أو الخنجر على هذا النحو امتداد ذلك الجسد الأمومي بامتياز، وفي جسده تنوظف الشهوة باعتبارها شهوة لجسد الأم بالذات.

ذلك متفقاً مع صورة الاستعارة في البيت التاسع التي تبرز الكأس امرأة متباهية متسلطنة في ذلك المجلس، وإنما أيضاً متنازعة ومتناهية من قبل حضوره. فتأتي صيحة الإعجاب فاضحة الدلالة على الأبعاد البنيوية النفسية التي يحفل بها النص.

تكمل الصورة المجازية الأولى في البيت العاشر السلطة القضائية للخمرة كمثل جسد الأم، بحيث تبدو سلطة إلهية مطلقة. والإشارة إلى الدر تحديد لذلك العنصر المحوري في هذا الجسد الذي يخلب اللب ويدهش العقل، إلى الثدي الأموي. لكن الشكوى التي تؤديها الاستعارة الثانية في البيت نفسه، تعلن بالغ التحرق الذي يعاني منه المتكلم بسبب هذا الثدي بالذات، وهو تحرق يعلن الطباق المميز فيه حقيقته الجارحة، بما هو رغبة مستحيلة التحقق ومستحيلة الاستكانة في آن.

إذا كان البيت التاسع يماثل بين سكر وطرب بقدر ما يناقض البيت الأول بين المم والكأس، ويدل على هيمنة الكأس ولذة حضوره، فإن البيت الأخير (العاشر) يعبر عن اللاوعي الكامن وراءهما على لسان الآخر. وتأتي صيغة المتكلم في كلام هذا الآخر لتسر تماثلاً بين قول الآخر وقول الذات، بين التعبير عن الآخر والتعبير عن الذات، مؤكدة أن الحرمان المستقر في اللاوعي لا يمكن أن يعرف الارتواء الجذري، وأن التعويض عن ذلك لن يكون إلاً سطحياً ومؤقتاً، وأن لا خروج من الحلقة المفرغة، وأن العذاب مقيم ومستمر رغم كل شيء مادام الارتواء لا ينال إلاً دالاً بعد دال، دون أن يبلغ الدال الأساسي أو يجسر على تسميته.

على هذا النحو يتشكّل الكلام حول الخمرة دالاً بديل الدال الآخر. وهكذا يكون هذا النص بأكمله دالاً غير كاف، يميل إلى آخر، بل إلى آخر. . . وإن تنابع النصوص هو تعبير عن هذا البحث المضني عن اكتفاء مستحيل.

٢ - الحرية المارقة:

ليس البعد الاجتماعي للنص منفصلاً عن البعد الذاتي، ولا عن الأبعاد الجمالية المختلفة فيه. فكل نص يحمل موقفاً ويؤدي دوراً اجتماعياً محدداً، قد يكون واضحاً مباشراً، وإنما هو في معظم الأحيان غامض ومورّى ومستتر أو موارد، خاصة وأن هذا الموقف لا يتصدّر المستويات الجمالية للنص. وأي ادعاء مخالف هو على الأرجح ادعاء خاتل، يريد من إظهار براءة النص تمرير موقف غير معلن، ويраهن بذلك على التجهيل بقدر ما يراهن على الجهل. فالجيب هنا ليس صفة نفسية بل اجتماعية.

كشفاً لهذا الدور الاجتماعي للنص، وتحديدًا للموقف الذي يتخذه أبو نواس خلاله من مجتمعه وعصره، نسعى إلى تلمس الدلالة الفكرية أو الأيديولوجية لبنية النص، كأساس ينهض عليه الموقف المذكور، ثم تلمس تفاصيلها المتفرقة في إثبات النص استغراقاً في تفحص أوجهها ومنحنياتها المختلفة.

أ - تتيح بنية النص المعلنة في مطلعها استنتاج الموقف العام الذي يتمثل في هذه القصيدة. ففي التوجه إلى الخمرة للتخلص من نقيضها: الهم، توجه إلى أحد أبرز المحظورات الاجتماعية والدينية لتجاوز القائم المسيء. فكما أن الخمرة عنصر تحريري ذاتي، تطيح بالأنس الأعلى لتطلق المكبوت، هي أيضاً رمزاً للتحرير الاجتماعي، تطيح بالمحظور وقوانينه لتطلق المقموع وحاجاته. فيكون الانصراف إليها على هذا النحو إعلاناً قاطعاً بالثورة والتمرد، لا يفارق السائد والمسيطر وحسب، بل يسعى كذلك إلى تدميرها والقضاء عليهما من خلال وبواسطة المنوع والمقموع، تأسيساً لنقيض يتمثل في الإطلاق والتحرير. تبدو الخمرة رمز هذه الثورة الجارفة والإصلاحية في آن. يقبل عليها للإجهاد على القمع والظلم والتمييز السائد الذي يمثل الهم مؤداه الأخير. وإذا كان الهم ذكراً والخمرة أنثى، ففي ذلك إشارة إلى الانقلاب المرتجى إحداثه في المجتمع الحاضر القديم. في هذا المجتمع تبرز الذكورة مكوناً أساسياً من مكوناته الأيديولوجية والاجتماعية والدينية (في قيم النظام الأبوي أو البطريركي، وفي علاقات نظام القرابة ومركزات السلطة السياسية، وفي قوانين الدين الإسلامي وشرائعه...)، بينما تشير الخمرة في أنوثتها إلى المجتمع النقيض، الأنثوي أو الأمومي، باعتبار أن سلطة الضعفاء هي السلطة العادلة لا سلطة الأقوياء المستبدين.

إن الإجهاد على السلطة القمعية مخلص ومصالح، لأنه يسمح بالشفاء من الهم القائم بما يعنيه ذلك من حرية وعدل ومساواة. وفي هذا الدور التخليصي، تبدو الخمرة محقة ليس للحرية وحسب، بل للوجود والحياة أيضاً. فما كان مهدداً بالقمع والكبت يطلق معها ليوجد ويجيا. بذلك يتلازم الموقف منها من الوجود بأكمله، بينما يقيم الموت ملازماً للقمع والاضطهاد. إلا أن العالم المبني على القمع والنناقض للخمرة ليس سوى العالم أو المجتمع الإسلامي تحت السلطة العربية التي تحكمه. ويكون الخروج عليه خروجاً على القيم والأعراف والأحكام الدينية السائدة. ويبدو العالم الذي تؤدي الخمرة إليه عالماً متناقضاً لذلك الذي تفرضه السلطة المهيمنة فكرباً وسياسياً واجتماعياً، عالماً من المساواة والحرية والفرح. الخمرة وسيلة تهديم وبناء، رمز تمرد وتحرير يبدأ بها وتأتي به. في هذه الثورة على الاستبداد المسيطر إعلان لموقف قدرتي

واضح، لا يعتبر الوضع السائد معطى إلهياً يجدر القبول به، إنما يعتبر الحياة من صنع الإنسان وحده، وأن الإنسان قادر على صوغها على هواه. وليست الخمرة إلا رمز هذا التحويل بقدر ما هي وسيلته في آن. هذه القدرة هي قدرة مطلقة لا يمكن حصرها بالقدرة الإسلامية التي تبقى محدودة بحدود الدين وقوانينه، فقدرة أبي نواس تتجاوز الدين نفسه باعتبارها تنطلق من خارجه، وضده في آن، لتؤكد المقدرة الإنسانية المطلقة التي لا يحدّها شيء مهما كان أمر هذا الشيء أو وضعه. هذا ما يجعل تمرد أبي نواس جذرياً وحاسماً. ربما بسبب ذلك يحذف القسم بدءاً، صورة عن حذف السلطة الإلهية المهمة وشرطاً لإطلاق القول، لإعلان التمرد والثورة، وممارسة لها.

إذا كان التمرد هو قبل أي شيء آخر ممارسة للحرية التي يتطلع إليها، فإن طلبها يأتي على القدر ذاته من التشديد الذي ظهر في تقديم دورها. لكن التمرد أيضاً لا يعرف الحلول الوسط، لذلك يأتي هذا الطلب متطرفاً، يسعى إلى أرقى أنواع الخمر كمظهر من طموحه إلى أرقى أنواع الحرية، بقدر ما هو مظهر للمواجهة القوية العنف للاستبداد الراسخ. فالخمرة كسلاف مظهر من مظاهر الحرية المطلقة أو خاصة من خواصها. إنها صورة بارزة من صور البذل الذاتي الحر. وهي لذلك، لأنها تأتي عطشاً حراً بدون أي إكراه، أفضل أنواع الخمر، وأفضل ما عبر عن الحرية. كما تبدى القدرة الإنسانية هنا - لا الدينية - في هذا التوجه نحو الأرض - لا السماء -. فالحرية، كتنقيح للقمح، تكتمل في المواجهة الشاملة لمستوياته كافة. والخمرة، كرمز لهذه الحرية، لا تأتي من الغيب، وإنما تأتي من الواقع، من صميمه، فهي من رحم الأرض - لا علباء السماء - تستل وتؤخذ. والخمرة الطاعنة في القدم، كالحرية، تنهض خفيفة لطيفة خالصة من أدران الزمن الثقيلة، يتعارض لينها ونعومتها مع ثقل وكثافة الواقع التاريخي. ذلك أن خاصيتها، كحرية، لا تتيح للزمن أن ينال منها، بل إنها «تتجوهر» على الدوام. وبخاصيتها هذه، تحوّل التراث - الإرث، الماضي... إلى لذة حاضرة.

والتمرد، كعملية تحرير بحد ذاته، يجر الخمرة نفسها، ينزع عنها حجباها الذي يخلقها ويطمسها، كما يجيها من موتها الذي ترزح فيه، فتكون بذلك الصورة الضمنية عن التحرير الإنساني. ويعطى هذا التحرير الطابع الإيجابي الذي يسم تحرير الخمرة، في الوقت الذي يسم الإنسان بتلك الصفة الراقية التي للخمرة. فإما هو محجوب ومدفون، أو من هو مقموع ومضطهد، هو أفضل الأشياء، والناس، الذي يجدر استخلاصه وإطلاقه. والصلة بين الخمرة والمرأة هنا بارزة، عبر الحجاب وعبر ظلمة الدياس أو

الخدر المفروض عليها... إلخ، فكأن الخمرة كرمز، تشير إلى المرأة كرمز للتحرير الاجتماعي الكلي، أو تجعل لها هذا التمييز الذي تناقض فيه وضعها الدوني السائد.

ب- إذ يكتمل العرض النبوي في البيتين الأولين، تأتي الآيات اللاحقة لتعطي صورة عن هذا المجتمع الجديد الذي تكوّنه الخمرة نقيض المستبد القائم. فتكون تجربة الشرب تمثيلاً حياً لهذا التمرد المعلن، بقدر ما تكون صورة رمزية غنية عن هذا المجتمع الحر الجديد. فالحرية سعادة وفرح كما تتمثل في ضحك الخمرة. وعلى هذا النحو تستوعب الحرية حتى أعداءها. فالماء، الرمز النقيض المؤذي لها، هو في الحقيقة رمز هذه السلطة الإسلامية العربية. إن الماء عنصر أساسي في حياة البداوة العربية، مرجع الثقافة العربية الإسلامية في صميمها الأساسي: اللغة. فهو يرتكز تجمعهم وتفرقهم، إقامتهم وترسلهم، يحفل بناء لذلك بثقل دلالي إيجابي عظيم في فكرهم وأديهم. وقام الإسلام بدفع وتطوير هذه الأبعاد الإيجابية للماء في الحياة والفكر، حتى أنه جعل منه عنصراً مقدساً، إلى جانب تأكيده لدوره الحياتي المطلق. فهو يربط بين الماء والحياة، بل يجعل من ذلك شرطاً لهذه⁽⁷⁹⁾، وهو يجعل منه أيضاً شرطاً للطهارة والصفاء، باعتباره مخلصاً من كل رجس يلحق بالجسد أو النفس، كما يجعل منه - عن طريق الوضوء - شرط الصلاة التي تعتبر من أهم أركان الإسلام. والماء بالإضافة إلى ذلك رمز للتعميم الإنساني، ليس فقط في تلك التجربة الروحية التي يؤديها الامتناع عنه في الصوم - الركن الأساسي الآخر في الإسلام - وإنما أيضاً في ذلك الوعد الذي يجعله الإسلام لأتباعه في عالم ما بعد الموت والقيامة، في الجنة الموعودة إلى جانب القدسية الألوهية التي يمنحه إياها.⁽⁸⁰⁾

(79) اليس القرآن هو القائل «وجعلنا من الماء كل شيء حي» (سورة الأنبياء - الآية 30)؟
(80) بصدد الكثافة الدلالية للماء في الإسلام، راجع: الآيات - والسور - القرآنية التي يشير إليها محمد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: بيروت - دار إحياء التراث العربي د. ت. [الطبعة الأولى؟ القاهرة - دار الكتب المصرية 1945] حيث ترد علاقة الماء بالخلق الإنساني في الآية السادسة من سورة «الطارق»: «فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق»، وفي الآيات الثامنة من «السجدة»، والمشرين من «المرسلات»، والرابعة والخمسين من «الفرقان». . . وعلاقة الماء بالحياة الطبيعية في سورة «البقرة»: «وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها» (الآية 164)، وسورة «الأنعام»: «وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء» (الآية 99)، و«النحل» (الآية 65) . . . ومقارنة الماء بالحياة الإنسانية عامة في سورة «يونس»: «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء» (الآية 24)، و«الكهف» (الآية 45) . . . وتذكر علاقة الماء بالطهارة في سورة «الأنفال»: «وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به» (الآية 11)، و«الفرقان» (الآية 48) . . . إلخ. أما القدسية الألوهية للماء فتشير إليها الآية السابعة في «هود»: «وكان عرشه على الماء. . . إلخ».

يبدو هذا الماء، المثقل برموزه العربية الإسلامية الرفيعة، يبدو في النص، عنصراً وضيعاً ومسيئاً. وربما كان من بالغ احتقاره وإدانتته حذفه بالإضمار في البيت الثالث وعدم ذكره على الإطلاق في نص تحتله الخمرة وتفرض قانونها عليه. هذا القانون وحده، بانفتاحه، هو الذي يجعل من التقاء الأجناس، رغم جلافة بعضها، تفاعلاً خلاقاً تؤكد فيه الخمرة، كحرية، وجهها المشرق الضاحك وعالمها، عالم الفرح والمسة. في هذا الإزاء بالماء مقابل التعظيم بالخمرة، يمكن أن تستشف «شعوبية» أبي نواس، والتي يجدر فهمها في هذا المسعى التحريري الحضاري الذي تحفل به دلالات النص البنيوية، خاصة حين يجعل من الخمرة هذا العنصر النوراني - الإلهي الذي يبسُد ظلمة الليل ويقدم سلطة الضوء. فظلام الليل يشير إلى القمع والاستبداد، إلى ظلامية الحكم وتعسف السلطة وجبروت المسيطرين المترمتمين، يأخذون الناس بالسجن والقبر والإرهاب. كما يشير إلى خواء وتردي وموات الأشاريين من مؤمنين ينامون ليلهم فيبذونه في الفراغ. وتتألق كؤوس الشاربين في محفلهم كأنوار حرية تشع على ممارسيها وتقتصر عليهم، نازعة عنهم وطأة القمع الأسود، وكمظهر لهذا التحضر الذي تأتي به الحرية، شرط كل تقدم، حاملة إلى ممارستها غنى حياتياً رفيعاً لا يعرفه سواهم.

إن مد الخمرة بهذا العنصر النوراني - الناري هو مد الحرية التي تمثلها إلى جذور حضارية عميقة، لتجد في ماضي العرب السابق على الإسلام وجوهاً إيجابية ثرة، تدل عليها نيران قبائلهم ونيران ضيافتهم وقراهم تآزرًا وكرماً ومروءة⁽⁸¹⁾، وفي طروحات المجوسية الفارسية من زرادشتية وماتوية ومزدكية، كما في أساطير اليونان وفلسفاتهم، وفي مقولات المسيحية وطقوسها، ما تناهض به الطروحات الإسلامية العربية وسنها وتتعالى عليها. تتأكد بذلك الخمرة، كحرية، خيراً وصلاً، ويتكرس الماء، كظلامية، شراً وفساداً. وتتقدم الحرية، كخمرة نورانية، معرفة ووعياً وتفاعلاً حضارياً عميقاً تصل العرب بماضيهم العظيم وتصلهم بالحضارات الأخرى، وتجاوزاً بالتالي للظلام والاتخلاق في الجهل والخرافة والغيبيات.

على هذا النحو، لا يكون تطلُّب الحرية ردة فعل عابرة أو موقفاً نزقاً، وإنما هو موقف متكامل عميق وشامل. إنه موقف متمرد يحمل معاناة الموالى والمضطهدين في

(81) يفرض هذا الموقف إعادة نظر بالحديث عن «شعوبية» أبي نواس في الشكل المطلق السائد إجمالاً، وذلك بوضعها في سياقها الصحيح من الصراعات القائمة آنذاك، ويطرحها بصورة كلية غير مجتزأة. دون أن يخيب عن البال أن شرب الخمرة كان من أهم مفاخر العرب قبل الإسلام.

المجتمع العباسي، في الموقع الثقافي الطبقي الذي ينطلق منه، ليحوّل، عبر الخمرة كرمز تحرير وتحضر، السلطة المتسلطة المتمجّرة إلى عنصر وضيع وبدائي، والفئة المغبونة والمقهورة إلى عنصر متطوّر رفيع؛ فيطرح من خلال ذلك وجهاً بارزاً من بسروز الصراعات الطبقيّة المحتدمة في مجتمعه وموقفه منها وموقعه فيها.

هكذا يتبدّى مجلس الشراب صورة عن مجتمع الحرية الجديد الذي يتصوّره أبو نواس. وأول ما يميّز حضور هذا المجلس، في صفاتهم الإيجابية المتعددة، هو المساواة فيما بينهم. ففي هذه الصفات التي تبين عظمة ورفعة وسيادة هؤلاء الشاربيين تأكيد من ناحية للتحوّل الإيجابي الذي تأتي به الحرية للمجتمع الجديد الذي تشكّل محوره، كما هي الخمرة محور هذا المجلس، وتأكيد من ناحية ثانية للجو «الديمقراطي» الذي يسود بينهم، لهذا التآلف والتجانس بينهم كعناصر متساوية ومتعادلة في سوؤدها وعظمتها. فالشاربيون أسياذ متأدّبون، وإقبالهم على الخمرة هو إقبال المتحضرين المثقفين القدرين على الحرية. وعلاقتهم ببعضهم نموذج للعلاقة الجديدة التي تقوم في مجتمعها، حيث لا يُعرف الناس، كما هو الحال في المجتمع السائد، بنسبهم ودينهم وتفاوتهم، بل يُعرفون بفكرهم وأخلاقهم وتساويهم... فمجتمع الحرية هو قبل أيّ شيء آخر مجتمع العدل والمساواة، نقيض مجتمع الاضطهاد والقمع السائد. وإذا كان لمجتمع الحرية أن يقوم على محور تنظيم حوله علاقات عناصره، فإنه يتآلف، نقيض المجتمع السائد الذي ينتظم حول الخلافة الإسلامية العربية (القرشبية - العباسية) الذكورية، بما تتضمنه من إقصاء ومن إثارة للتناقضات والنزاعات، حول محور الكأس التي تجسّد المتعة الخالصة المؤلفة والجامعة والضامّة «كألم لأبنائها».

إن مجتمع الحرية هو كذلك مجتمع الحب والغرام. والحب فيه لا يعرف القيود التي يجعلها مجتمع القمع له. إنّه الغرام المطلق. لذلك كان هذا الغموض في جنس الشادن، وكانت هذه الازدواجية في وضع الخنث، وكانت هذه الأوجه العرقية المتعدّدة فيه فارسية وعربية، قرشبية أو غسانية. فالحب في الحرية لا يترك مجالاً للصدمات بين الأجناس وهيمنة أحدها على الآخر كما في المجتمع العباسي آنذاك، إنه يؤالف بينها بل يوحدتها على أجل ما تكون، كما تتجسّد في هذا الشادن الخنث.

لكن صورة الشادن المذكور على هذا النحو لا تؤدي فقط فكرة عن الجمال الرفيع الذي يوميء إليه اجتماع العناصر العرقية المختلفة، بل إنها تتضمّن إزاء واضحاً بالسلطة الإسلامية - العربية (القرشبية العباسية) المسيطرة، في تحويلها للذكورة إلى أنوثة، وفي جعلها لأنوثة سلطة تحكّمية مطلقة. وكما لم يكن المسح بحاجة إلى سلاله

ذكورية ليؤكد عظمته، ولم يطعن في قيمته القدسية نسبةً إلى أمه، كذلك يبدو هذا الشادن في عظمة ملوكية، لا ينال خنثه منها في شيء، هذا إذا لم يكن أحد عناصرها المكونة، كما كانت مريم البتول بالنسبة للسيد المسيح، وكما كانت مارية الشامية بالنسبة لحفنة الملك الغساني العظيم.

في هذا العالم الخمري، كعالم رمزي تتمثل فيه الحرية بأبعادها الاجتماعية والشخصية العميقة، يتألف الأفراد والأجناس والأديان في جو مفعم بالعدالة والحب واللذة، وتتداخل الأدوار والعلاقات في وضع من الانسجام المطلق نقيض ما هو سائد في المجتمع. ففي حين تعطي التراتبية الاجتماعية الثابتة والمكرسة في المجتمع العباسي آنذاك صورة عن الاستبداد المسيطر والمستتب، تتحوّل الأدوار في المجتمع الجديد بدافع ذاتي وعطاء عفوي بين عناصره إلى انسجام وتناغم رائعين.

فالغناء الذي يصدح في مجلس الخمر هو، بمعنى ما، عطاء في ينطلق في هذا الجو المتحرّر في العدل والحب، ليزيده روعة بإضفاء هذه الجمالية الجديدة عليه. فيكون مجتمع الحرية أيضاً مجتمع الخلق والإبداع والتفنن. وعلى هذا المستوى يلتحم صوت المغني بصوت الشاعر. وإذا بقي وضع البيت الأخير غامض النسب، فلأن هذا النسب بالمفهوم التقليدي لا أهمية له في هذه العلاقات الجديدة. إنه الشعر بما هو نتاج هذا المجتمع ككل، ينسب إليه ككل، دون تمييز. وهو ملك الجميع دون استثناء. وإذا كان الخليفة هو الذي يغني في المجتمع المستبد القائم، فإن الشادن الملك هو الذي يغني في المجتمع الجديد، في جو من العطاء المطلق تشير إليه - بالإضافة إلى انطلاق هذا الغناء بدون طلب أو بدون غاية نفعية - أبهة الكأس التهادية في عطاء السقاة إلى الشارين. وغموض وضع المخاطب مذكراً في البيت التاسع، ومؤشراً في البيت العاشر، تعبير عن تغافل، كأن المراد به الإطلاق لا التحديد لاستيعاب الكل دون تمييز. وما يميزه فقط هو هذه الجمالية التي تعرف في الصوت المخنث تأدية خصوصية ومتميزة هي الأخرى تنهض بها إلى مستويات راقية من الفن والإبداع.

هكذا ينحو النص نحو خارجه، نحو تداخله بآخر، متوسلاً صوتاً رهيفاً، يضمن له هذا الانفتاح الأكيد. كأن النص بأكمله تحقيق حرية بقدر ما هو إعلان حرية. وبما أنه كذلك يشرع على ميدان المواجهة الفعلي، على الحياة والمجتمع، موقفاً منها وبما سائد فيها.

ج - يتقدّم النص بأكمله، في تعليقه وتفسيره، كما في توجّهه للمخاطب وفي إعلانه للموقف العام كما في تفصيل جوانبه، وكأنه عملية احتجاج وخوض لجدل لا يقوم بمحاولة إقناع المخاطب وحسب، وإنما يشركه أيضاً في الموقف الذي يدعوه إليه.

يظهر هذا الاشتراك في التحويل الذي يأخذه به، كوجه من وجوه التحويل العام الذي يحكم النص عامة، جاعلاً إيّاه انطلاقةً ساقياً يطلب منه أجود الخمر، منتهياً إلى اعتباره نديماً مشاركاً في الشرب، أو حالاً مكانه فيه من خلال هذا الغناء يتوجه به الساقى أو الخمار إليه.

يعطي النص على هذا النحو صورة عن الصراع الفكري والعقلي الذي كان سائداً والذي كان حافلاً بالنقاشات والحوارات المحتدمة في المراكز الثقافية المختلفة. وهو يؤدي في تضاعفه، كما في ما ينتهي إليه بالنسبة للمخاطب، صورة عن انتصار العقل والمنطق على السلفية والتقليد، وعن انتصار القدرية والإرادية على الجبرية والتحكمية. فالتمرد والدعوة إلى الحرية والعدل والمساواة والحب والرفق... موقف عقلائي بقدر ما هو موقف قدرى.

إنما في اعتياد هذا الموقف العقلاني القدرى، يتوصل أبو نواس إلى الخروج عن الدين مبادئ ومؤسسات، مصداقاً في ذلك للمقولة الشائعة «من تمنطق تزندق»، بل مقدماً نموذجاً حياً عليها. فإذا كانت الخمر دواءً فتحريمها حرام؛ وإذا كانت المسيحية تقول بشرها ويقول الإسلام بمنعها، فهذا تناقض ديني، وإذا كان الإنسان حراً فالحد من حرية اختياراته أو قمعه عمل غير إنساني. وهذه مقولات لا تقتصر على هذا النص، بل تتردّد في سائر خمريات أبي نواس إلى جانب أخرى مثل: أي معنى لمغفرة الله أو عصفه بدون خطيئة! كيف تُحرّم الخمر والحليفة يشربها! أي حكمة من تحريم اللذة!... إلخ. وأبو نواس من ناحية يفضح التناقضات التي تقوم عليها الطروحات الدينية، ويبين إلى جانب تهاونها وعدم تماسكها تناقضها مع المتطلبات الإنسانية الأعمق. وفي انتصار أبي نواس للإنسان وقدراته العقلية وحاجاته النفسية والجسدية، يقول إن جميع القوانين (وجميع الأديان) هي من صنعه، وإنه هو القادر كما صنعه على تغييرها. فهو ينطلق من رؤية ومنطق مناقضين للمفهوم السائد في عصره، مؤكداً أن الله صنيعه الإنسان لا العكس. وبدل ارتبان الإنسان لله أو للغيب وقوانينه (جبرية) يرهن أبو نواس هذين الأخيرين للإنسان أو للواقع وتطوراتهما (قدرية). وإذا كان هناك من حساب بصدد ذلك، فالواضح أن الحساب إنساني لا إلهي، لذلك فالند إنسان ضد. ولذلك يعيد أبو نواس الصراع حول القوانين والشرائع إلى الصراع الاجتماعي بين إنسان وآخر، أو بين فئة أو طبقة اجتماعية وأخرى، وبين مجتمع (قمعي استبدادي) وآخر (متحرر عادل)، داعياً إلى استبدال رهن الحياة الواقعية القائمة للأخرى الموعودة بالإقبال على ملذات الدنيا وتحقيق الجنة على الأرض والوعد في الحاضر. وهذا ما تجسده الخمر كرمز للذة والحرية. وربما كانت هذه الجنة المتصورة تائراً بالطروحات الأفلاطونية عن المدينة الفاصلة وإرهاصاً بتلك التي سيصوغها الفارابي بعده بمئة عام.

كلمة ختامية:

يبين التحليل السابق في تطابق المستويات المختلفة بنيوياً وتكافؤ توزيعاتها المختلفة، وفي تماثل الدلالات الذاتية والإجتماعية للنص وتجانسها بنيوياً مع المستويات السابقة، يبين عن اجتماع هذين الجانبين وتفاعلها في تكوين جمالية النص الشعرية.

ففي نص يقرب من أن يكون مقطوعة يعتمد لغة سهلة بسيطة وإنما كثيفة وغنية الدلالات، متناغمة ومتجانسة الإيقاع، بليغة وبديعة الأسلوب، قوية ومتينة التركيب، تتحد مستويات التعبير هذه جميعاً متمحورة حول بنيتها العامة، فتقيم في داخلها، ومن خلالها، وفيها بينها وحدة النص المتناسكة الراقية التأليف والانتظام على تكافؤ أو تعادل لا تكف عن إبرازه ولم تتوان عن الإشارة إليه.

هذا النص الراقى التماسك هو أيضاً راقى الزخم الثقافي في دلالاته المختلفة. يتفاعل الاكتناز الثقافي مع تكامل التعبير الإبداعي في ائتلاف بنوي عام يضيف على النص ثقلاً جمالياً خاصاً، يمكن اعتباره معطىً جدلياً لجمالية فكرية - نفسية متداخلة ومتراصة ومنسجمة مع جمالية المرسل اللغوية، يؤلف هذه الوحدة الجمالية الشعرية التي تتخطاهما معاً.

فإذا كان لحديث عن جدة في شعر أبي نواس أن يستقيم، ففي هذا الإطار الإبداعي الذي يدل عليه التحليل النصي الملموس. فوحدته الدرس المنهجي للنص بإمكانه، دون أن يدعي امتلاكه ناصية الحقيقة أو القول النهائي (الفصل)، وإنما بقدر ما يطلق القول ويستدعي الحوار (الوصل)، أن يقدم القاعدة السليمة لأية رؤية نظرية أو أي رأي تعميمي.

الفصل الثاني

احتراف القصيد بين التكسية والشعرية

دراسة نص لأبي تمام (حبيب بن أوس الطائي)
[845/? 231 - 788/? 172]:

«مق أنت عن ذميلة الحي ذاهل وقلبك منها مدة الدهر أهمل،

* نص الدراسة

* مقدمة: في شعر أبي تمام ومذهبه

أولاً: بنية النص / ديناميكية التكسب

ثانياً: التشكل البيوي / بين الاتباع والابتداع

ثالثاً: المقدمة الغزلية / بين جمود التقليد وحيوية التعبير

رابعاً: جهد المديح / خصوصية الاجتهاد في الإرضاء

خامساً: الطلب التكسيي / نهر الكلام استسقاء المال

* ملاحظات متفرقة / مضاعفات التناقضات

نص الدراسة⁽¹⁾

- 1 - متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل
1 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ /
- 2 - تطل الطلوع الدمع في كل موقف
1 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ /
- 3 - دوارس لم يجف الربيع ربوعها
2 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ /
- 4 - فقد سحبت فيها السحاب ذيلها
2 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ /
- 5 - تعفين من زاد العفة إذا اتحت
2 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ /
- 6 - لهم سلف سمر العوالي وسامر
2 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ / 1/1/ /

(1) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام (٤ مج . القاهرة، دار المعارف بمصر - ذخائر العرب (5) المجلد الثالث - القصيدة 129 ص 112 - 131. وقد أثبتنا متن القصيدة مع بعض التعديلات البسيطة بناء لما ورد في هوامش الديوان، وهي تقتصر على استبدال «وشما» (في البيت 8) بـ«وشحا» - والأرجح أنها خطأ مطبعي (راجع ص 115) - و«الخليفة» (في البيت 20) بـ «الخلاقة» (راجع ص 119) و«هاء» (في البيت 36) بـ «القناة» (راجع ص 124)، و«من أيام وعدك حامل» بـ «من أيام مصر لحامل» (راجع ص 128)؛ كما استبدلنا صُوراً (في البيت 29) بـ «صُوراً» خلافاً لما أثبتته المحقق (راجع ص 122) نظراً لما يتركه اللفظ الأول من خلل في الإيقاع يتداركه الثاني (والصور جمع أصور وصوراء كما العور جمع أعور وعوراء) وقد لا يحول المعنى ولا الكتابة دون الأخذ بالمصدر «صُوراً» إلا أن ذلك يكون خلافاً لما اعتمده التبريزي في شرحه، عدداً أن لا ضرورة تستوجبه في حال إثبات اللفظ الثاني (صُوراً). في حين لم نأخذ بما ورد خلاف ذلك من الفاظ عدة في ديوان أبي تمام -الديوان الكامل (شرح وتعليق د. شاهين عطية، مراجعة الأب بولس الموصلي، بيروت - دار صعب، د. ت. ص 226 - 229) ولم نأخذ خاصة بما اعتمده من تغيير في رواية البيت 31 هنا وتقدمه على البيت السابق عليه (راجع ص 227 - 228).

- 7 - ليالي أضللت العزاء وجوّلت
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 8 - من الهيف لو أن الخلاخل صيرت
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 9 - مها الوحش إلا أن هاتنا أوانس
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 10 - هوى كان خلّساً إن من أحسن الهوى
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 11 - أبا جعفر إن الجهالة أمها
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 12 - أرى الخشو والدماء أضحو كأنهم
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 13 - غدوا وكان الجهل يجمعهم به
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 14 - فكن هضبة ناوي إليها وحرّة
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 15 - فإن الفقى في كل ضرب مناسب
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 16 - ولم تنظم العقد الكعاب لزينة
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 17 - وأنت شهاب في الملمات ثاقب
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 18 - من البيض لم تنض الأكف كنصله
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 19 - مؤرث نار والإمام يشبّها
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 20 - وإنك إن صد الزمان بوجهه
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 21 - لئن نقموا حوشية فيك دونها
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- بعقلك آرام الخدور العقائل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 3 لها وشحاً جالت عليها الخلاخل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 2 قنا الخط إلا أن تلك ذوابل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 1 هوى جلت في أفنائه وهو خامل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- + ولود وأم العلم جداء حائل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 1 شعوب تلاقت دوننا وقبائل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 1 أب وذوو الآداب فيهم نواقل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 3 يعترّد عنها الأعرجي المناقل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 1 مناسب روحانية من يشاكل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 1 كما تنظم الشمع التشتيت الشائل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 1 وسيف إذا ما هزك الحق فاصل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 1 ولا حملت مثلاً إليه الحائل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 2 وقائل فصل والخليفة فاعل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 4 لطلق ومن دون الخلافة باسل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 3 لقد علموا عن أي علق تناضل
 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 2

- 22 - هي الشيء مولى المرء قرن مياين
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 23 - إذا فضلت عن رأي غيرك أصبحت
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 24 - وخطب جليل دونها قد شغلته
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 25 - رددت السنأ في شمسه بعد كلفة
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 26 - ترى كل نقص تارك العرض والتقى
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 27 - جمعت عرى أعمالها بعد فرقة
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 28 - فأضحت وقد ضمت إليك ولم تنزل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 29 - وما برحت صوراً إليك نوازعاً
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 30 - لك القلم الأعلى الذي شبأته
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 31 - له الخلوات السلاء لولا نجيتها
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 32 - لعاب الأفاعي القاتلات لعابه
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 33 - له ريقه طلّ ولكن وقعها
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 34 - فصيح إذا استنطقته وهو راكب
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 35 - إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- 36 - أطاعته أطراف القنا وتقوضت
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- له وابنه فيها عدو مقاتل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- ورأيك عن جهاتها الست فاضل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- وفي دونه شغل لغيرك شاغل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- كأن انتصاف اليوم فيها أصائل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- كماً إذا الملك اعتدى وهو كامل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- إليك كما ضم الأنابيب عامل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- تضم إلى الجيش الكثيف القنابل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- أعتها مذ راسلتك الرسائل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- لما احتفلت للملك تلك المحافل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- وأري الجني اشتارته أيد عواسل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- بآثاره في الشرق والغرب وابل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- وأعجم إن خاطبته وهو راجل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- عليه شعاب الفكر وهي حوافل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +
- لنجواه تقويض الخيام الجحافل
 ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ ٥/٥/ +

- 37- إذا استغزرت الذهن الذكي وأقبلت
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 38- وقد رفدته الخنصران وشددت
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 39- رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 40- أرى ابن أبي مروان أما عطاؤه
 1 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 41- هو المرء لا الشورى استبدت برأيه
 1 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 42- معرس حق ماله ولربما
 3 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 43- لقاح فلم تمدججه بالضم منة
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 44- ترى حبله غرثان من كل غدرة
 1 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 45- فتى لا يبرى أن الفريضة مقتل
 1 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 46- ولا غمر قد رقص الخفض قلبه
 1 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 47- أبا جعفر إن الخليفة إن يكن
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 48- وما راغب أسرى إليك براغب
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 49- تقطعت الأسباب إن لم تغرها
 3 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 50- سوى مطلب ينضي الرجاء بطوله
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- 51- وقد تألف العين الدجي وهو قيدها
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- أعاليه في القرطاس وهي أسافل
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
 3 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- ضنى وسميناً خطبه وهو ناحل
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- فطام وأما حكمه فهو عادل
 1 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- ولا قبضت من راحتية العرواذل
 1 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- تحيف منه الخطب والخطب باطل
 3 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- ولا نال أنفاً منه بالذل نائل
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- إذا نصبت تحت الحبال الحبال
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- ولكن يرى أن العيوب المقاتل
 1 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- ولا طارف في نعمة الله جاهل
 1 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- لسوراننا بحراً فيئك ساحل
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- ولا سائل أم الخليفة سائل
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- قوى ويصلها من يمينك واصل
 3 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- وتخلق إخلق الجفون الوسائل
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- ويرجى شفاء السم والسم قاتل
 2 /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه
- + /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه /ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه/ه

* مقدمة: في شعر أبي تمام ومذهبه:

قلما أثار شاعر من الجدل والخلاف بصدد قصائده⁽²⁾ ما أثاره شعر أبي تمام لدى معاصريه ومن تلاهم من شعراء ونقاد، لا تزال أصداؤه تتردد حتى يومنا⁽³⁾. ولم يكن اعتباطياً هذا الجدل، وهو إن لم يكن فريداً على أية حال⁽⁴⁾ له دلالات عدة. إذ قد يكون أهم مغزى عبر

(2) ربما كان المتنبّي الشاعر العربي الآخر الذي ضاهت الخلافات حوله تلك التي دارت حول أبي تمام. ولا تفتقر القرابة بينهما التي يشير إليها بعض الدارسين، في هذا السياق، إلى المغزى (راجع نجيب محمد البهيقي: أبو تمام الطائي / حياته وحياته شعره؛ الطبعة الثانية [القاهرة؟] دار الفكر - مكتبة الخانجي 1970، ص 190).

(3) يعطي أبو فرج الأصبهاني (897 - 966) صورة عن الخلاف الذي كان محتداً أيامه حول أبي تمام فيقول: «وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضل على كل سالف وخالف وأقوام يتعمدون الرديء من شعره ينشرونه ويطرون عمامته ويستعملون الفحة والمكابرة في ذلك (. . .) إن الرواة قد أكثروا في الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصبوه الشرح بلجيد شعره وأفرط معادوه في التسطير لرديته والتنبيه على رذله ودينه. . . الأغاني (20 جزءاً في 10 مجلدات مع مجلد للفهارس) عن طبعة بولاق الأصلية، بيروت؛ الناشران صلاح يوسف الخليل - دار الفكر للجميع المجلد الثامن، الجزء الخامس عشر ص 100. ويروي الأمدي (ت. 370 هـ - 980 م) وهو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، في الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحرّي (حقق أصوله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة مزينة ومنقحة، القاهرة - مطبعة السعادة بمصر 1378 - 1959) عن أبي الأعرابي قوله في شعر أبي تمام: «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل» (ص 21). ويذكر واقعة بين الشاعر وبين أبي سعيد الضرير وأبي التَّمَيْثِل الأعرابي صاحبي عبد الله بن طاهر بصدد قصيدة أبي تمام في هذا الأخير:

مَنْ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبِهِ فَعَزَمَ أَقْدَمًا أَدْرَكَ النَّجِيجَ طَالِبِهِ
إِذْ وَقَالَ لَهُ: لِمَ تَقُولُ مَا لَا يَفْهَمُ؟ فَقَالَ لَهَا: لِمَ لَا تَفْهَمَانِ مَا يَقَالُ؟» (ص 23) وعن صاحب أبي تمام أنه قال: «إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه؛ لدقة معانيه، وقصور فهمه عنه. . .» (ص 20 - 21) وأنه قال أيضاً: «فقد عرفناكم أن أبا تمام أتى في شعره بمعان فلسفية والفاظ عربية، فإذا سمع بعض شعره الأعرابي لم يفهم، فإذا نسر له فهمه واستحسنه» (ص 27).

راجع أيضاً د. عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله/ دراسة تحليلية بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر 1964/1384: فصل «المتعصبون له والمتعصبون عليه» (ص 98 - 102).

(4) راجع بالإضافة إلى ما أوردهنا بصدد أبي نواس (في الدراسة الخاصة بإحدى قصائده في هذا الكتاب) =

عنه، وهو مغزى مزدوج في نهاية المطاف، ذلك الجديده الذي أتى به الشاعر، وهزّ من خلاله المسلمات السائدة حول الشعر. فمن وجه طرح شعر أبي تمام نوعاً من إعادة النظر بالتصوّر العام السائد للشعر في زمنه، من حيث إنه أحدث خللاً فيه حين بين قصوره عن استيعاب إنتاجه الشعري، وجعله أمام واحد من خيارين: إمّا أن يعدل في مفاهيمه وأحكامه ليتقبله، وإمّا أن ينبذ هذا الوافد باعتباره غير شعري، أو في أحسن الحالات، مبتدلاً وضيعاً. ومن وجه آخر لا يفصل عن الأول، ما كانت هذه الإشكالية لتطرح لولا مفارقة شعر أبي تمام للمألوف والمعهود من شعر سابقه ومعاصره، بحيث بدت في هذه المفارقة بالذات خصوصيته الأبرز. وربما شكّل التذكير بما أثاره هذا التجديد من قضايا شعرية ونقدية مدخلاً مناسباً لدراسة بعض من نصوصه.

قد تكون أهم مسألة تناوها المتداولون لشعر أبي تمام تلك التي تتعلق بما سماه بعضهم: «مذهب أبي تمام» و«طريقة أبي تمام»⁽⁵⁾، حيث إن الأحكام النقدية بصده تجاوزت الاقتصار على بيت أو قصيدة أو حتى ميدان من ميادين التعبير⁽⁶⁾، لتتناول الأداء الفني ككل، والتعبير الشعري في سياته العامة؛ وإن بقيت تستند في منطلقاتها إلى هذه الأجزاء المنفردة التي يشكلها البيت أو التعبير، أو إلى مقاربات فيه تخضعه للذاكرة الشعرية، متناسبة في ذلك مع ارتباط الإنتاج الشعري بالرواية والحفظ. وفي ذلك دليل على التطور الذي عرفه النقد العربي والثقافة العربية، وعلى جدية وتقدم وأهمية مستوى النقاشات التي كانت جارية، وعلى التفاعل العميق الذي كان قائماً بين الإنتاج الشعري وعملية النظر فيه.

يمكن القول إن هذا المذهب الذي استدعى الجدل المتطاوّل حوله، يتحدّد في بعض

= المواقف المتضاربة، على سبيل المثال، من شعر عمر بن أبي ربيعة أيامه، ومنها ما أورده أبو فرج الأصبهاني في الأغاني (ذكر سابقاً) المجلد الأول، الجزء الأول ص 34 - 39، ولافت فيها موقف جرير الذي كان يقول عن هذا الشعر إنه شعر تهامي إذا أنجد وجد البرد حتى أنشد قوله:

رات رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر
«فقال جرير ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر» (ص 38).

(5) راجع الأغاني للأصبهاني، ذكر سابقاً، المجلد الثامن - الجزء 15 ص 100؛ والموازنة للأمدي، ذكر سابقاً، ص 16 - 17؛ وأبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله لفروخ، ذكر سابقاً، ص 85.
(6) مثلما كان عليه الحال غالباً آنذاك، كما تدل بعض الآراء النقدية التي كانت تتردد كتلك التي نجدتها في الأغاني للأصبهاني: «أبو خليفة عن محمد بن سلام قال: سألت يونس النحوي في أشعر الناس قال لا أومىء إلى رجل بعينه ولكني أقول أمرؤ القيس إذا غضب والنابعة إذا رهب وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب» (ذكر سابقاً، المجلد الرابع، الجزء 8 ص 77).

الموصفات أو الخصائص التي رآها الناظرون في شعر أبي تمام، والتي قد تعطي العناوين التالية فكرة موجزة عنها

- إغراقه في التصنع إلى حد التعقيد في القول.
- تكلفه الشديد في الأداء حتى الغموض في التعبير.
- إمعانه في الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة.
- إكثاره من البديع، وبخاصة المطابقة والتجنيس حتى الإفراط.
- تعدد الدلالات الخاصة بتعابيره حدّ التباس المقصود منها.
- خروجه عن أشعار الأوائل وطريقتهم المعتبرة (عمود الشعر؟).
- خروجه على المنطق والعقل وتجاوزه أو مجافاته للواقع والتجربة.
- استعانته بتعابير سبقه إليها الأقدمون (إغارة أو سرقة؟) . . .

معظم هذه المسائل، أشار إليها بالتفصيل الأمدي في موازنته⁽⁷⁾، مقدماً صورة تفصيلية غنية بملاحظاتها لذلك الجدل الذي اصطنح حول أبي تمام، تتعدى هذا الشاعر وقرنه البحري والموازنة بينهما، لتعطي فكرة عامة عن مجمل الوضع النقدي والثقافي في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، ومقاييسه المتعلقة بالشعر خاصة.

يقدم نجيب البهيتي بدوره، ملخصاً للإشارات النقدية إلى مذهب أبي تمام يجعله في نقاط أربع:

- 1 - «طلب المعنى البعيد، واللطف الجديد المبتدع»، على جهد وكثيرة متواصلين.
- 2 - «محاولة إخفاء المعنى المنقول عن الغير بكثير من التغميض».
- 3 - «كثرة الاستعارات و الإفراط في استعمالها، مع خفاء العلاقة وبعدها أحياناً»، حتى ليبدو المنقول معنى جديداً.

(7) يرى الأمدي أن أبا تمام، على نقيض البحري، «شديد التكلف، صاحب صنعة، ومستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه شعر الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة . . . (الموازنة . . . ذكر سابقاً، ص 11) ويروي عن بعضهم «أن أبا تمام يريد البديع فيخرج إلى المحال» (المرجع المذكور ص 125). ويقول: «إن الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره، وبالإبداع جميع فنونه» (نفسه، ص 227) ويؤكد: «إنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه، أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه؛ فتكون اللفظة المستعارة حينئذٍ لاقمة بالشئ الذي استعيرت له وسلائمة لمعناه» (نفسه، ص 234) معتبراً أن الاستعارات البعيدة قليلة لدى القدماء وأن أبا تمام احتذاها وبالغ فيها . . . الخ.

4 - اعتماد التجميل الصناعي للتخفيف من جفاء قد يعيب الشعر بسبب - إضافة إلى ما سبق - تكلف دمج الفكرة في الشعر، «فتحرى أبو تمام أنواع البديع والمحسنات اللفظية من كل وجه، ويكل سبيل. وكان من نتائج اقتران طلب المعنى بطلب اللفظ، على الوجه الذي أسلفته، جور يلحق بأحدهما. فتكون الثمرة الغموض أو الغريب»⁽⁸⁾، فاضطر إلى نحت ألفاظ من كلمات أعجمية ومخالفة قواعد النحو ونقل اللفظ عن معناه.

وفي محاولته تحديد الطابع العام لشعر أبي تمام، لا يقوم البيهقي إلا بتقديم بعض السمات الخاصة التي لا تميز في الحقيقة أبا تمام، بقدر ما تشكل دفاعاً عن شعره يعوزه الكثير من التحميص ويغلب عليه التسطیح⁽⁹⁾؛ كما نجد رواسب بل آثار النقد القديم بارزة في هذه المقاربة، ومعها الأحكام الواردة بإطلاق يفترق إلى المنطق عدك عن التحليل⁽¹⁰⁾.

يستشف من خلال ما تقدم أن أبا تمام قد أمعن في خط من التعبير مفارق للمعهود والمعترف به في أيامه، وهو ما سمي عمود الشعر⁽¹¹⁾. هذا المفهوم وإن استعمل آنذاك فإنه لم

-
- (8) نجيب عماد البيهقي: أبو تمام الطائي... ذكر سابقاً، ص 192.
- (9) يفصل البيهقي ذلك في تحديده للطابع العام لفن أبي تمام في جملة من العناصر:
- 1 - «تزاوج حسه وعقله جميعاً»...
 - 2 - «التسلسل الفكري ووحدة القصيدة»...
 - 3 - «كثرة المعاني المخترعة عند أبي تمام»...
 - 4 - «تجديده في تصوير الأبعاد النفسية بطريقة جديدة في الإدراك واللفظ»...
 - 5 - «إحساسه بجمال الطبيعة وميله إلى وصفها»...
 - 6 - «ميل أبي تمام إلى تناول الناحية النفسية»...
 - 7 - «اعتماد فن أبي تمام على الواقع والحقيقة».
 - 8 - «اعتماده النهج التقليدي للقصيدة العربية من افتتاح بالطلل وانتقال إلى الغزل فالرحلة حتى بلوغ المدح»... وهو لا يختلف فيه إلا قليلاً عن غط القصيدة العربية التقليدي».
 - 9 - «أبو تمام شاعر البطولة الإسلامية»...
 - 10 - «انتفاعه بالقصص الشعري في المدح»... (المرجع السابق ص 215 - 227).
 - (10) بعد تحديد الطابع العام لفن أبي تمام يدرس البيهقي لدى الشاعر الصورة... ثم اللفظ... فالحكمة... ونظرة أبي تمام إلى فنه... ومنزلة أبي تمام منتهياً إلى القول: «لست أعرف في العربية كلها شاعراً كأبي تمام: من حيث فيض شعره، وخصبه النفسي، وغزواته...» (المرجع ذاته، ص 242) مضيفاً: «إن الشعر العربي كفن لم يكتمل في يد شاعر اكتماله في يد أبي تمام. فقد نجد الفكرة، والجمال اللفظي، وجمال الصورة وحلاوة النفس، والشاعرية الفياضة، التي لم تنتهياً لشاعر قبله ولا بعده (...). فأبو تمام عندي شاعر العربية الأكبر، لا أعدل به شاعراً آخر من شعرائها» (نفسه، ص 243).
 - (11) هذا ما يشير إليه الأمدى حين يروي عن أبي علي محمد بن العلاء السجستاني «أنه قال: سئل البحراني =

يتبلور إلا لاحقاً في مسيرة تمتد من الأمدي (ت 980 م / 370 هـ) إلى المرزوقي (ت 1030 م / 421 هـ). ففي الموازنه يبلور الأمدي بإيجاز وكثافة في صفحات أربع يمكن اعتبارها زبدة الكتاب مفهومه للشعر، وبالتالي المقياس الذي اعتمده في الحكم على كل من أبي تمام والبحتري، حيث يقول: «وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأقي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام. ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه؛ فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف، وتلك طريقة البحتري» الذي يقول:

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

«فإن اتفق - مع هذا - معنى لطيف، أو حكمة غريبة، أو أدب حسن؛ فذلك زائد في بهاء الكلام، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه، واستغنى عما سواه»⁽¹²⁾ معتبراً، ربما لأول مرة، الشعر قائماً بذاته أو بجاليته الخاصة المتعارف عليها أساساً، وليس بما يتعداه والخارج عن هذه الجالية رغم ما يمكن لهذا التعددي أن يضيف إليه من حسن وبهاء⁽¹³⁾. ويورد الأمدي هذه الأسس الجالية السائدة أيامه حين يذكر ما سمعه «من شيوخ أهل العلم بالشعر: زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود ولا تستحكم إلا بأربعة أشياء، وهي: جودة الآلة، وإصابة الغرض المقصود، وصحة التأليف، والانتهاج إلى نهاية الصنعة من غير نقص منها ولا زيادة عليها»⁽¹⁴⁾ وهذا ما يمكن اعتباره التبلور الأول لمفهوم عمود الشعر وإرسائه على ميدان تطبيقي واسع شكلت المقارنة بين شعر أبي تمام والبحتري مداه الأقرب باعتبار أنه لم يقتصر عليها إذ استند إلى أبيات لقدماء ومولدين، واستعان بأراء متفرقة عديدة في سياق ذلك.

وقد تأثر أو تابع علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت 1001 م / 392 هـ) في وساطته عمل الأمدي في موازنته وأكملة حين صاغ أركان عمود الشعر الستة وهي:

«1- شرف المعنى وصحته.

= عن نفسه وعن أبي تمام فقال: هو أغوص على المعاني [مني] وأنا أقوم بعمود الشعر [منه] (الموازنة... . ذكر سابقاً ص 15).

(12) المرجع السابق ص 380 و 381 تبعاً.

(13) راجع حول هذه المسألة المفهومية للشعر تزيثان: تودورف: نقد النقد ترجمة د. سامي سويدان - مراجعة د. ليليان سويدان. الطبعة الأولى بيروت - منشورات مركز الإنماء القومي 1986؛ الفصل الأول: «اللغة الشعرية/ الشكلائيوية الروس» ص 23 - 38.

(14) الأمدي: الموازنة... . ذكر سابقاً ص 380 - 381.

- 2- جزالة اللفظ واستقامته .
- 3- إصابة الوصف .
- 4- المقاربة في التشبيه .
- 5- الغزارة في البديهة .
- 6- كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة⁽¹⁵⁾ .

قال: «ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض»⁽¹⁶⁾ .

«وعلى هذا، فإن الجرجاني كان يتصور أن الصنعة البديعية هي الفارق الوحيد بين ما يسمى «عمود الشعر» وما هو خارج عنه، أما عند الأملدي فقد كان الفرق بينهما أكبر من ذلك بكثير»⁽¹⁷⁾ .

مع المرزوقي تعرف نظرية عمود الشعر اكتناها تبلوراً ووضوحاً. إذ يقول «في مقدمة شرح الحماسة (1: 8-11): «... فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتين تليد الصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث. . . ويعلم أيضاً فرق ما بين المصنوع من المطبوع». والشعراء الذين ساروا على عمود الشعر وكانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف. ومن اجتباع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات؛ (ثم المقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكله اللفظ للمعنى، وشدة اقتضاءهما) اقتضاء اللفظ والمعنى) للقافية حتى لا تكون منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل بيت منه معيار (مقياس)». . .⁽¹⁸⁾ ويقول: «وهذا جماع مأخوذ به، ومتبع

(15) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري الطبعة الأولى، بيروت- دار الأمانة [و] مؤسسة الرسالة 1971 ص 322.

(16) المرجع السابق ص 323 (عن الوساطة للجرجاني ص 34).

(17) المرجع نفسه ص 323، راجع أيضاً ص 162 و 322 و 404.

(18) د. عمر فروخ: أبو تمام... ذكر سابقاً، ص 89- الملاحظة رقم (1). راجع أيضاً نجيب عماد البهبهني: أبو تمام الطائي... ذكر سابقاً، ص 188 وما يليها، حيث يثبت رأي المرزوقي بنصه المفصل اللاحق لهذا الموجز أعلاه، مختتماً بقوله: «فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب. فمن لزمها بحقها، وبنى شعره عليها، فهو عندهم الملقب المعظم، والمحسن المقدم، ومن لم يجمعها كلها فيقدر سُمِّت منها يكون نصيبه من التقدم»... (المرجع المذكور ص 189).

راجع كذلك إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب...، ذكر سابقاً ص 404 - 409.

منهجه حتى الآن⁽¹⁹⁾، معتبراً أن أصحابه «هم القائلون: أحسن الشعر أصدقه. وهم ينكرون الإحالة، والمعول عندهم على المصادقة والتحقيق، لا على المبالغة والتمثيل»⁽²⁰⁾.

واضح في هذا الصوغ النهائي لنظرية عمود الشعر استنادها إلى ما جاء متفرقاً في موازنة الأمدي، وإخراجها ما بدا خاصاً بحيز الجدل والاحتجاج الموضوعي إلى نصاب القانون العام الحاسم. ومع أخذ التوضيحات التفصيلية التي يأتي بها المرزوقي بعين الاعتبار، خاصة ما يتعلق منها بالتحام أجزاء النظم، يتبدى أن المقصود لديه بذلك لا يتعدى البيت أو العبارات والألفاظ، دون أن يبلغ النص بأكمله أو القصيدة⁽²¹⁾.

إلا أن الاهتمام الخاص بهذا الجانب، بوحدة النص أو القصيدة ككل، نلاحظه على مستوى آخر هو ما أطلق عليه البعض اسم «تعدد الأغراض». هذا التعدد هو الذي يشير إليه د. عمر فروخ في محاولته تحديد بعض خصائص المعلقات التي شكلت النموذج الشعري لدى معظم الشعراء والنقاد، فيقول: «تبدأ القصيدة القديمة عادة، أو المعلقة على الأصح، بالوقوف على الأطلال، ثم يتخلص الشاعر إلى وصف راحلته والطريق التي سلكها، ثم يطرق غرضاً آخر من الغزل أو الفخر أو الخمر قبل أن ينتقل إلى الغرض الأساسي المقصود الذي نظمت القصيدة من أجله. ويكون الغرض المقصود في بعض القصائد مديحاً (كما عند النابغة مثلاً)، أو غزلاً (كما نرى عند امرئ القيس)، أو فخراً وحماسة (كما عند عمرو بن كلثوم وعنزة) والواقع أن كل غرض من أغراض الشعر يصلح أن يكون غرضاً مقصوداً لذاته، إذا قصد الشاعر من نظم قصيدته ثم عني به ويسط فيه القول. ولقد حرص الشاعر القديم على أن يجعل كل بيت من أبيات قصائده تام المعنى في نفسه، كما كان من المستحسن أن ينطوي البيت الواحد على معنيين أو أكثر»⁽²²⁾.

بالإمكان إذن تمييز وجهين في التقليد الشعري السائد آنذاك. يتعلق الأول ببناء القصيدة عامة وانتظام هيكلها أو ما أطلق عليه «نهج القصيدة» أو «تعدد الأغراض» فيها، وهو ما لم يحظ باهتمام كبير لديهم، إذ نادراً ما خرج الشعراء في المديح عن منهجه

19) نجيب محمد البهيتي: أبو تمام الطائي...، ذكر سابقاً، ص 189.

20) المرجع نفسه ص 189.

21) المرجع نفسه ص 188 - 189؛ راجع أيضاً إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب ذكر سابقاً، ص 406 - 407.

22) د. عمر فروخ: أبو تمام...، ذكر سابقاً ص 88.

راجع أيضاً الملاحظة رقم (9) الواردة أعلاه.

العام، ولم يشذ عن ذلك أبو تمام نفسه، ونادراً ما اعتمده خارج المديح، كأنه صنو المؤسسة التقليدية المحافظة مع ما يتضمن ذلك من ارتعان وتبعية، وكان ميادين التعبير الأخرى (من غزل أو هجاء أو مجون...) هي ميادين التحرر والذاتية... ويتعلق الثاني بما يمكن اعتباره أداء المعنى وطريقة التعبير، أو ما أطلق عليه اسم «عمود الشعر» الذي عرضناه أعلاه، وفي هذا الجانب بالذات دار الخلاف حول أبي تمام. وحين يحصر أدونيس تجديد أبي تمام في اللغة فإنه يلامس هذه المفارقة بالذات، دون أن يمنع ذلك من التوصل إلى نتائج متعسفة وخاطئة، يساعده في ذلك أحكام متسرعة واعتباطية ومفاهيم مطاطة وغير دقيقة؛ كما أن ما يغيب عنه تحديداً هو المقاربة النصية للإنتاج الشعري، وهو غياب يحيل درسه لهذا الإنتاج إلى اجتزائية وإطلاقية تنتمي إلى تقليد قديم وسلفية عريقة في النقد العربي رغم كل الادعاءات المغايرة⁽²³⁾.

إن المفارقة بين النهج التقليدي للقصيد وبين الخروج عن العمود الشعري تتضمن مفارقة أخرى شائعة، متمثلة بعدم التزام النهج التقليدي خارج المديح، كما تتضمن مفارقة خاصة متمثلة بالترام هذا العمود أو عدم المغالاة في الخروج عن المألوف منه - مغالاة تجسدت خاصة في إفراط في البديع وإسراف في المجاز أدبياً إلى التباس وغموض وتعقيد في المعنى... - في هذه القصائد الأمدحية (الغزل، العتاب، الهجاء...). كأن المحافظة والتقليد سمة مكونة ولازمة من سمات السلطة التي يمثل الممدوحون بعضاً من رموزها الأكثر سطوة، وبما يتعلق بها. وكان الشعر المدحي، خلافاً لأي شعر آخر، مؤسسة أساسية من مؤسساتها، ووسيلة رئيسية من وسائل استمراريتها وإعادة إنتاجها. وكان «تعقيد الصنعة» ناتج عن هذا الاستغراق في التأليف والتزييق بغرض بز الأقربان في سوق الشعر، وإرضاء الممدوح بتقديم القصائد المفردة والتميزة إليه، كوجه من وجوه الاحتراف الأبرز⁽²⁴⁾.

إلا أن أحداً من أولئك الذي تعرضوا لأبي تمام، نقاداً وباحثين، متحاملين عليه أو

(23) راجع على سبيل المثال قوله: «ولئن حافظ أبو تمام على الشكل الخارجي لبنية القصيدة التقليدية، فلقد غير نواته الأساسية: الكلمة، وغير علاقات الكلمة، الصوتية والدلالية. ولهذا لم يعد الشكل عائقاً دون بروز هذه العلاقات. بل أصبح، على العكس، عنصراً ضدياً، يزيد في بروزها، فلقد فجره من داخل، بتركيبه اللغوي الجديد» في الثابت والمتحول/ بحث في الاتباع والإبداع عند العرب (ج3): الكتاب الثاني: تأصيل الأصول الطبعة الأولى، بيروت- دار العودة 1977، ص 117.

(24) من الجدير بالنظر والاعتبار ملاحظة ارتباط هذا «التصنيع» منذ بداياته مع زهير بن أبي سلمى بالمديح. كان التكسب المتعلق به كان دافعاً أساسياً في عملية الإنتاج التنامية.

متعصّين له، قداماء أو محدثين، لم يقم بدراسة نصّية لشعره⁽²⁵⁾ مما يجعل من أحكامهم آراء - كما دعتهم - مجتزأة متعسفة وغير جديرة بالاعتبار، رغم ما يصدف أن يبلغها بالاتفاق أو الحدس من إصابة أو حصانة فتكون مدعاة للاستئناس أكثر من أي شيء آخر، علماً أن التعرف عليها كذلك لا يتم إلا إثر درس منهجي للنصوص التي تناوّلها. وهذا ما سنحاول القيام به هنا بخصوص نص الدراسة المثبت أعلاه.

(25) على الأقل فيما أتيج لنا الاطلاع عليه من أعمال، باستثناء دراسة يتيمة لقصيدة أبي تمام في مدح المعتصم: رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليبه يشكر قام بها كمال أبو ديب في كتابه جدلية الخفاء والتجلي/ دراسات بنوية في الشعر الطبعة الثانية، بيروت - دار العلم للملايين، تشرين الأول 1981 (الطبعة الأولى 1979) ص 229 - 261. وهي دراسة جديرة بالاهتمام للمجهود الذي يبذله فيها الباحث من أجل اكتشافه تصور دلالي - جمالي في عمق النص لا سطحه، من خلال عملية تحليل دقيقة وورصينة للمعنى تستعين من حين لآخر بعناصر نحوية وأسلوبية، رغم الملاحظات العديدة التي تستثيرها وخاصة بصدد التعرف إلى بنية النص التي لم تتمكن الدراسة من بلورتها؛ ويصدد ادعاء تطوير أبي تمام قصيدة المديح إلى بنية لحماية تخرجها من نصب تغطي إلى رؤيا وتسبر غور الإنسان (الحاكم والمحكوم) من خلال منظور «الطبيعة - الأرض / الربيع» (ص 232)، وهو ادعاء يصعب القول إن الدراسة حققت حيث أن سبر الغور الإنساني فيها لم يتجاوز استعراض معاني المديح في النص؛ ويصدد التركيز على تضاد تعتره الدراسة جوهرياً بين الممدوح والربيع تتابع من خلاله رؤيا القصيدة الأساسية «من خلال مفهومي التحول - الاستمرارية/ التحول: الانقطاع» (ص 247) في حين لا يشكل هذا التحول إلا جانباً هامشياً في بنية القصيدة التي لا تعتمد إطلاقاً على التضاد وإنما على التماثل والتجانس والتجاوز؛ ويصدد حضور «اللائين - في - واحد» باعتباره «روح القصيدة الفعلية وجوهر حركتها ورؤياها»، بل «روح الحدائث في شعر أبي تمام» (ص 236) على أن ظاهرة الحدائث حسب الباحث «ظاهرة لا تاريخية» (ص 250) بينما لا يشكل الحضور المشار إليه إلا بعداً جزئياً في النص، وأن الحدائث لا تقتصر عليه، عدا عن كونها ليست متعالية أو مطلقة بل هي في تحديدها بالذات لا تكتفي إلا في السياق التاريخي الذي تحمي فيه. هذا عدا الاضطراب «الحركي» في الدراسة التي تجرد في البيت الأول «حركات متواشجة» (ص 234) وللقصيدة «حركاتها» (ص 236) و «الحركة الأولى» في البيت الأول تستمر في «حركات القصيدة التالية» (ص 234) منها «حركة جديدة» في البيت التاسع (ص 237) و «حركة جديدة» أخرى في البيت الحادي عشر (ص 238) تتبعها «الحركة الجديدة» في البيت الرابع عشر (ص 240) أو أن «هذه الحركة» تتم ابتداء من البيت (13) (ص 241) و «حركة جديدة» تبدأ من البيت الحادي والعشرين (ص 243) لتعلن فيما بعد أن الحركة الأولى في بنية القصيدة تضم البيتين التاسع والثالث عشر (ص 245) و «حركاتها الثانية» (ص 248) أو «الحركة الأخيرة» تضم الأبيات 21 - 32 (ص 250) إلى جانب «حركتين جوهريتين» وتعلقان بدورها في لباب القصيدة (ص 249) علماً أن «لباب القصيدة» هو الذي يشغل «الحيز الواقع في مركز القصيدة (الأبيات 5 - 7)» (ص 242) إنما: «... تتحرك القصيدة حركة هادفة غنية بالدلالة وتتجمد حركتها في نقطة مركزية في القصيدة» قائمة في البيت الثامن! و «على جانبي نقطة التجمد المركزية هذه (...) تترامى حركاتنا القصيدة...» (ص 258) =

أولاً: بنية النص / ديناميكية التكبُّب:

يُعد شعر المديح من الكلام الموجَّه إلى مخاطب محدَّد هو الممدوح. إنه مرسله كلامية يرتكز فيها التعبير على بلوغ هذا المخاطب، لتؤدي اللغة في عملية الاتصال التي تقيمها على هذا النحو وظيفة طلبية مبدئية، تبدو مهمة الشاعر الأساسية فيها إرضاء المخاطب - الممدوح، وذلك ليس كفرد وحسب، وإنما غالباً كبطانة ومجلس أو بلاط وجو ثقافي عام كذلك⁽²⁶⁾. كما أن مهمة الإرضاء المذكورة كثيراً ما كانت تتجاوز شخصية الممدوح المفردة لتتناول جماعة قبلية أو عائلية، أو تياراً سياسياً أو دينياً ينتمي الممدوح إليها أو إليه. يتم ذلك بهدف محدَّد إجمالاً: في سعي للتوصل إلى مكافأة يتوقع أن تكون بقدر الرضى الحاصل عامة. إذ يتطلع المرسل - الشاعر في النهاية إلى غرض نفعي محدَّد يناله من المتلقي - المخاطب يتمثل في عطاء يمنحه إياه هذا الأخير (الممدوح). وهذا ما يجعل شعر المديح طلبياً ومرجعياً إلى حد كبير. إنه يميل إلى المرسل إليه أو المخاطب الممدوح، كما يميل إلى السياق الذي تتم فيه عملية المديح وهو سياق له قيمه وقوانينه. إذ لم تكن عملية المديح هذه بأكملها مزاجية أو اختيارية، رغم كل مظاهر الاستهواء أو النزق التي تتردد في الأخبار المتعلقة بها، بل كانت في أساسها عملية اجتماعية مركبة بلغ من تعاطف أثرها وخطورها أن أضحت مؤسسة، لها أصولها وأعرافها وتقاليدها، كما لها دهاقتها وسدنتها والساهاون على التزام قوانينها وانتظام فعاليتها. وهؤلاء يتجاوز حضورهم المجلس أو البلاط وحتى البلد أو الولاية أو العاصمة، ليقوم في شبكة من العلاقات الشعرية - النقدية - الثقافية العامة التي تعم أرض السلطة العربية. ولم يكن عبثاً هذا السهر وتلك العناية اللذان تابع بها هؤلاء شعر المديح - ومن خلاله الشعر عامة - نظراً للدور المركزي الذي لعبه - إلى جانب الدين - في إرساء السلطة السياسية - الدينية العربية وتأمين شروط إعادة إنتاج سيطرتها من خلال تحصينها بوسائل الدفاع الفكرية - القيمة ومساعدتها في المواجهات المختلفة التي كانت معرضة لها، ومدّها بعناصر الترويج والدعاية اللازمة لذلك وخاصة على الصعيد الإيديولوجي. ونظراً للتداخل الثقافي - اللغوي الذي كان حاصلًا بين المؤسسة الدينية و«المؤسسة الشعرية»، فقد كانت مساهمات الشعراء في المديح خاصة أبعد أثراً وخطورة على الصعيد المذكور، بل إن مستواها الفني والجمالي أتاح لها أن تؤدي دوراً فاعلاً فيه لا يتعدى المجال الإسلامي وحسب - ليتصل بفئات وجماعات غير

= وهو اضطراب لا يحتاج إلى تعليق فنيا هو يدل على خلل مفهومي من ناحية، وعلى خلل في المقاربة التحليلية - ناهيك بالبنوية - للنص من ناحية ثانية.

(26) راجع الأخبار التي تروى عن تجرمة المتنبّي في بلاط سيف الدولة على سبيل المثال، فهي تقدم رغم خصوصيتها صورة نموذجية عن مجلس الممدوح والجو الثقافي العام الذي كان سائداً فيه والعلاقات التي كانت تحكمه.

إسلامية لم تكن مهمة عددياً فقط، بل كذلك ثقافياً وإدارياً واجتماعياً - وإنما أيضاً يتجاوز في معظم الأحيان الحواجز المختلفة التي تنتصب في وجه أنواع أخرى من الخطاب الإيديولوجي (كتناول قضايا السلطة مباشرة أو الاقتصار عليها، وكصعوبة وسائط الانتقال والانتشار...).

على هذا الأساس كان اهتمام أولي الأمر والسلطة الشديد بالمديح، وكان عطاؤهم ومحاسبتهم لشعرائه ينم عن معرفة ووعي بخطورته، وكان كذلك حال الشعراء في استعدادهم له وإرهاقهم أنفسهم في سبيله وتنافسهم المحموم في ميدانه. وقد يكون هذا الأساس أيضاً مدخلاً لمعرفة الأبعاد الاجتماعية - التاريخية للضجة التي أثارها أبو تمام حوله وبعده، بصدد شعره في المديح. فالملاحظ أولاً أن هذه الضجة كادت وتكاد أن تقتصر على قصائده في هذا المجال. وتكاد بقية شعره، وفيها كثير من المجون في الخمرة والغزل والغلمان، تمر دون اهتمام يذكر. وقد كان الشعر غير المدحي قد اجتاز مراحل في التطور - ليس عمر بن أبي ربيعة من جهة ومسلم بن الوليد من جهة ثانية إلا بعض علاماته الفارقة - بلغت به شأواً متقدماً في التغيير والاختلاف عن التقليد السابق - كما مع أبي نواس - لم يكن لشعر المديح أن يبقى ببناءً أو بمعزل عنه. وإذا كان التطور الاجتماعي الحاصل في أساس هذه التحولات، فإن شعر أبي تمام قد أتى متناسباً ومتجاوباً معه أكثر من كونه قد جاء معارضاً أو متجاوزاً له، وإن الموقف المعادي أو المناقض له إنما جاء من قبل جزء من «المؤسسة الشعرية» يحمل رواسب القديم، وينم أكثر من سواه عن رجعية هذه المؤسسة ودورها المحافظ بامتياز. وليس نجاح أبي تمام في مهمته أو مهنته إلا دليلاً على تلبيةه لحاجات فعلية كانت السلطة - على الصعيد الثقافي والشعري - تفتقر إليها دون أن تتمكن من قضائها.

إن التحولات التي عرفها المجتمع العربي خلال القرن الأول من الخلافة العباسية من تطور مدني متعاضد، وموازاته من تكون واختيار لنية اقتصادية - اجتماعية قد يكون من أهم سماتها الانفتاح التجاري الواسع ومعه تداخل العناصر الأعجمية من عبدة وموالي في صلب نسيج العلاقات والممارسات اليومية، وما كان لذلك كله من أثر في وضع لم يعد العنصر القبلي فيه يمثل موقع الصدارة - دون أن يُلغى مع ذلك فارتد إلى موقع ثانوي - وما أتاحه بالتالي من أنماط جديدة في العيش والسلوك تقوم على تأنيق متزايد في الممارسات والمظاهر، واستغراق في التفتن في أنواع الملذات والمتع المختلفة؛ وما كان للتبديل الطارئ على أوضاع السلطة المركزية من تعدد مراكز القوى والقرار وضعف هيمنة العنصر العربي فيها، أن يؤدي إليه من ضعف دفاعات المؤسسات التقليدية - ومنها «المؤسسة الشعرية» - وتعرضها للاجتياح من قبل العناصر الوافدة والجديدة... كل ذلك شكّل الشروط التاريخية التي نفذ منها أبو تمام أو التي أتاحت

له قول «جديده»، إن لم نذهب إلى حد القول إنها هي التي استدعته، كما يدل على ذلك النجاح الذي حققه احترافه شعر المديح⁽²⁷⁾.

لكن هذا القول لم يكن له أن يقتصر على وظيفتي الطلب والمرجعية المشار إليها، والأمتنع أصلاً أن يكون شعرياً، وإنما كان أكثر تعقيداً من ذلك. فالشاعر ينطلق من الموقع الخاص والتميز الذي يشغله المخاطب - الممدوح في هرمية السلطة القائمة، وهو في النهاية موقع اقتصادي في النسيج الطبقي - الاجتماعي الذي يحكم مجمل العلاقات الاجتماعية، لبحث فيه عما يتيح له استيحاء المزاي والمآثر، الفردية والجماعية، مستعيناً بالتراث الشعري - الاجتماعي كما تكون لديه في مسيرته الشعرية الخاصة، عاملاً على صوغ متطلبات الواقع والتراث في تعبير متقن وجميل يحمل خصوصيته الإبداعية وسماة تفوقه، وبالتالي استحقاقه المبدئي للعطاء المفترض.

ضمن هذه المعطيات تقوم علاقة مفارقة بين المتكلم - المرسل والمخاطب، أساسها هذا الانقلاب الحاصل بين الفعل ورد الفعل كما يتم الأمر في عملية المديح. فالقصيدة فعل إشادة وتعظيم بالممدوح تتوخى رد فعل عليها في المكافأة المتحصلة التي تعتبر ثناء مادياً على هذا العمل غالباً ما يكون عطاء مالياً دون أن يقتصر مع ذلك عليه (إذ يمتد مبدئياً ليشمل كل ما يقع تحت سلطة الممدوح وفي ملكيته من عبيد وجوارٍ وخيل وجمال، وولايات وإقطاعات ووظائف إدارية أو مراكز اجتماعية . . .). لكن التعبير يتشكّل فعلياً كثناء وشكر على عطاء لم يتم بعد. ومبدئياً بقدر ما يكون الثناء المسبق ناجحاً بقدر ما يكون العطاء كبيراً، محدثاً بذلك انقلاباً في الصيغة المعهودة من العلاقات، إنما لغير صالح الفاعل - الشاعر والفعل - الشعر. والعلاقة المفارقة هذه هي أول وجه من أوجه الارتعان الخاصة بهذا الشعر وشاعره.

الوجه الثاني من الارتعان الذي يقع فيه الشعر والشاعر هو هذا الالتحاق بالسلطة والنظام القائم الذي يقعان فيه. إذ لما كان الممدوحون هم من أولي الأمر والمال، فإنهم يمثلون رموز السلطة القائمة. ولما كانت هذه السلطة إجمالاً مستبدة ومستغلة، فإن مدحهم يأتي في سياق عملية سياسية - فكرية عامة ومركبة، تتم فيها إعادة إنتاج سيطرتهم وتكريسها، بل وتحسين مواقعهم. ولما كان الشعراء المداحون من الطبقات الاجتماعية الوضيعة إجمالاً، فإن

(27) وهو نجاح يكاد يجعله البعض قريباً من الاحتكار كما يدل على ذلك ما يورده أبو الفرج الأصبهاني في روايته لأخبار أبي تمام عن محمد قال حدثني أحمد بن يزيد المهلب عن أبيه قال ما كان أحد من الشعراء يقدر على أن يأخذ درهماً بالشعر في حياة أبي تمام فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه (الأغاني ذكر سابقاً، المجلد الثامن، الجزء الخامس عشر ص 102).

انصرفهم إلى مدح هؤلاء المستبدين يؤدي دوراً مضاعفاً في الدفاع عن السلطة القائمة وتثبيت دعائمها والترويج لها⁽²⁸⁾.

الوجه الثالث من الارتباك، وهو متصل بما سبق، هو الأخطر لأنه يتعلق بالإنتاج الشعري نفسه، ويتمثل في هذه المحافظة التي تسمه. وذلك ليس لأن الارتباك والتعبية للسلطة القائمة يؤدي حكماً إلى موقف من هذا النوع، حيث إن كل سلطة إجمالاً هي سلطة محافظة، لأن في المحافظة والتقليد تكريساً لسلطتها، وحسب، وإنما أيضاً لأن هؤلاء المدوحين كانوا في عقليتهم المحافظة التقليدية يتطلعون إلى نماذج في المدح وأصوله وطرائقه لم يكن بإمكان الشاعر إغفالها إذا كان اهتمامه بإرضائهم جدياً. ثم إن معظم هؤلاء المدوحين كانوا محاطين بجماعات من أهل الأدب والثقافة، عدا عن تملقها لهم ومسايرتها لأهوائهم ومتطلباتهم، كانت تمثل الحارس اليقظ على القيم التقليدية والسلفية وتسهر على تمثيلها وعدم تحطها. هذا عدا الجو الثقافي والأدبي العام الذي لم يكن الشاعر نفسه معظم الأحيان بعيداً عن التأثير به والتزامه غالباً، وهو جو تقليدي حكماً، لأنه يأخذ بالتوارث والمعهود.

ينتج عن ذلك بالطبع مسخ للشعر ولدوره. فهو كعملية إبداعية يصبح سجين الصيغ والمقولات الجاهزة، وكوسيلة تعبيرية يتحوّل إلى عملية تلفيقية همها الإرضاء بكل طريقة وسبيل، وكعمل فني شرطه التجديد وصنوه التغيير ورهانه التحرير يصبح صنعة مدروسة محافظة ومعيقة لكل تطور.

بيد أن الشاعر قد يحاول التمرد على هذا الوضع الأسر والاعتراي، وله في ذلك مذاهب عدة. أولها ما يتيح المديح نفسه، بل ما يتطلبه. فالمدح إذا كان يشترط صيغاً وقوالب جاهزة، فإنه يفرض ميدان الإبداع ومقاييسه. فهو لا يقبل أن يقال أي شيء كيفما كان. إنه المؤسسة الشعرية التي تقيم ضوابطها وتفرضها. وفي هذا الميدان بالذات يجد الشاعر أول مدى - رغم محدوديته - للحرية التعبيرية والإبداعية. فهو القادم في سياق من سبقه ومن يعاصره يحاول دوماً التجاوز والتقدم، وعلى الأقل التهايز.

وفي هذه المحاولة ضمن الإطار التقليدي العام يظهر أول وجه من أوجه مواجهة الجمود والمحافظة. ولهذا السبب بالذات على الأرجح كان لشعر المديح أن يحتل المكانة العالية بين فنون القول الشعري عامة، وأن يحظى بعناية واهتمام من قبل الذواق والعلماء يفوقان أي فن آخر. فالشاعر يتوجّه إلى المدوح بالطبع (وظيفة اللغة الطليبية)، وإنما عبره إلى مجلسه ومتذوقي الشعر في مجتمعه، بل كذلك إلى ذلك الجمهور التاريخي الذي يقدر هذا

(28) لا يعدل شيئاً يذكر في الصورة وجود مدوحين غير مستبدين، أغنياء أفاضل أو غير أغنياء عظام.

الشعر ويحفظه وينقله؛ بما يستدعيه ذلك من اهتمام بالإنتاج اللغوي . . الجمالي (وظيفة اللغة الشعرية)⁽²⁹⁾.

أمّا الوجه الثاني فيتمثل في هامش الاختيار الذي يبقى متاحاً للشاعر في اختيار ممدوحه . مما يسمح أحياناً للشاعر أن يجد بعض من يقتنع به منهم، فيأتي قوله الشعري «الطلبي» بصورة رئيسة «انفعالياً» أيضاً . بما يعنيه ذلك من إمكان الارتكاز فعلاً إلى تجربة واقعية تجرد في موضوعها - الممدوح - وفي العلاقة القائمة بينه وبين الشاعر مدى من التفاعل الخلاق يفتح أمام هذا الأخير مزيداً من إمكانات التجدد والتأيز، بقدر ما تشحذ انفعاليته وتحرّض مخيلته .

هناك وجه ثالث يتمثل في الهامش الداخلي للحرية الذي يتيح التعبير التقليدي . وهو هامش قائم في بنيتها ذاتها، ويتجسّد على أوضح ما يكون في المطالع المهتدة للمديح ، حيث يمكن للشاعر أن يعبر عن بعض انفعالاته العاطفية أو آرائه الشخصية . ولكنه قائم أيضاً في ثنايا القصيدة، حيث يمكن له تلوين بعض قساها بالسيات الخاصة . إذ ينصرف الشاعر فيها إلى تأملات أو حكيم وآراء تتجسّد فيها المجاهدة أو المعاناة النفسية أو الفكرية الفردية . كما قد يتسرّب في صلب لغتها التعبيرية، حيث يمكنه استغلال الإمكانيات المعجمية والتركيبية والأسلوبية دون أن يتعرض للتشدّد ذاته الذي يواجهه به إطار المديح في مستويات أخرى، مثل المعاني أو المضمون أو الإيقاع . . .

هكذا يثار الشاعر لنفسه من شروط التكسب التي يخضع لها باحتراف الشعر الذي «يختاره» . في هذا الاحتراف استغراق في الجمالية وسعي إلى الارتقاء في الإبداعية، بقدر ما فيه من تعويض عن أوجه الاستلاب التي يتعرّض لها؛ إذ يصبح الاهتمام بهذا الشعر بحد ذاته معادلاً للاهتمام بموضوعه، إن لم يتجاوزه . وربما كان في نجاح الشاعر هنا، كمظهر من مظاهر الرد على ما يحده، تفسير لهذا الاهتمام اللاواعي العام بهذا الشعر، وهو اهتمام يضارع اهتمام المؤسسات السلطوية بنقل الخلفيّة الأيديولوجية التي يشحنها ويتناقض معها في آن .

قد يكون في درس نص المديح نفسه أفضل وسيلة للقبض على خصوصية هذا الوضع وخاصة على الجمالية والإبداعية التي تعطيه قيمته الفعلية (الشعرية) . وضمن هذا المنظور نمضي في دراسة نص أبي تمام: «متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل . . .» .

(29) يدخل في هذا الإطار تتبع الأمدي لسرقات أبي تمام، واعتداد السرقة معياراً أساسياً من معايير الحكم على القيمة الفنية للأعمال الشعرية . .

إن أول ما يلفت انتباهنا في هذا النص قيام بنيتي على منطق تقليدي شائع، ليس اعتماده هنا إلا تأكيداً على الدور التقليدي المحافظ الذي يشغله ويساهم في تكريس أسسه. فالإشادة بمزايا المددوح من علم وعدل وبعد نظر وكرم... ليست إلا المقدمة الضرورية لطلب رعايته وماله، للاشتغال على حسناته. فيتشكل النص على أساس الغاية النفعية التي يهجس بها.

إلا أن هذه البنية العامة تتميز هنا بخصوصية لا تخرجها عن المجهود، بل تكرر الأبعاد السلفية فيها، فيما هي تدمجها بفرادة المعالجة. إذ يشفع المنطق الطلبي المذكور معطيات وعناصر تدعمه وتؤيده. فالعلم والثقافة من صفات المددوح، وإنما أيضاً من صفات الشاعر. فمعنى المديح هذا إذن عنصر مشترك بين الطرفين يميزهما كنخبة إزاء جهل العامة. فإذا كان الجهلة والعامة يجتمعون بناء لما يميزهم، فالأجدر بالنخبة المثقفة أن تتعاون فيما بينها وتتحد. على هذا الأساس يدعو الشاعر المددوح لتكوين هذا التجمع النخبوي ورعايته. يبرر هذه الدعوة تحديداً ما يتمتع به المددوح من مزايا ينصرف النص إلى إبرازها وتفصيلها، مولياً مزية العلم والمعرفة وحسن التدبير فيها اهتماماً بارزاً يتخطى ما عداها. فإذا أضيف إلى ذلك كون الشاعر - كبقية المتكسبين - يحاول في شعره بلوغ المثال عبر إشادته بالمددوح، فإن طلبه يصبح إذًا منطقياً ومعقولاً، ومقبولاً حكماً بناءً لذلك من قبل المددوح المذكور. إذ لما كان العنصر الثقافي - النفسي عنصراً مشتركاً بينهما، فإن الشاعر يركز عليه، بالإضافة إلى ما يتمتع به المددوح من صفات حميدة، راجياً إياه جعل العنصر الاقتصادي - الاجتماعي عنصراً مشتركاً يدعم السابق مشكلاً سدى لحمته. فعظيم مثل المددوح لا يمكنه إلا أن يرعى أولئك العظماء الصغار دون سائر الناس وأن يخصصهم بعطاياه فيما هم يخصصونه بالتمجيد. والشاعر يؤدي بذلك الدور المزدوج الذي يفترضه المديح: تعظيم المخاطب للاستفادة من عطائه. ويبدو في طرحه مقنعاً إلى حد كبير. فدعوتاه المددوح لتولي أمر العلماء - الأدباء ليست ناتجة في الحقيقة عن مقارنة يقيّمها بين هؤلاء والعامة، وإنما هي صادرة عن الوضع الذي جعلهم فيه سلوك العامة حيث إنه حوّلهم إلى غرباء وهجناء بين هؤلاء. مما اقتضى إيجاد حل لهم يراه الشاعر في تجمع خاص بهم، يريده راقياً مناسباً لهم؛ وهنا بالتحديد يأتي دور المددوح كناظم وراعٍ للتجمع المطلوب.

لكن هذا المنطق مخرج للممدوح بقدر ما هو معظّم له. فالدور الذي ينيطه به يستند إلى انتهائه إلى النخبة المثقفة، بحيث يبدو تخلفه عن الاستجابة لطلبه تكوفاً عن هذا الانتباه وخروجاً من هذه النخبة، ويصممه بالتسالي بالتقصير وبالعجز الثقافي والاجتماعي ويحيله في أحسن الحالات إلى مثقف نكرة، مثله مثل أي مثقف آخر عاجز عن الاضطلاع بالدور

القيادي المطلوب؛ هذا إن لم يحل - في أسوأ الحالات - إلى عنصر ينتمي إلى العامة الجاهلة. هكذا يحمل النص في داخله جوابه على احتمالات موقف الممدوح منه بحيث تعطيه استجابته الكريمة استحقاقاً لمعاني المديح المعلنة فيه، بينما يردده عدم تجاوبه إلى التعريض، أو الهجاء المتضمن فيه.

على هذا النحو يبين النص في بنائه العامة ما يمكن اعتباره مدى نشاطية أو ديناميكية التكبُّب التي تشكله على هذا النحو المشار إليه في ظاهره كما في باطنه. وهي ديناميكية غير منفصلة عن النشاط الثقافي العام السائد آنذاك، والذي كان المعتزلة لولبه الأساسي. كما تقدم هذه البنية نموذجاً عن كيفية ابتلاع المؤسسة التقليدية للعناصر الجديدة الوافدة. فالقيم الجديدة التي تنشأ مع الحياة المتطورة (التجمع المهني أو الفكري... بما هو انقطاع عن عصبية قبلية أو عرقية أو دينية...) والرؤية الفكرية التي تنتج عن غنى وتطور وتفاعل التيارات الثقافية والدينية والفكرية المختلفة، بدل أن تتجسد إعادة نظر جذرية بالأوضاع القائمة، تنخرط فيها وتكرسها رغم ما يترامى من محاولات مناورة تبقى في النهاية هامشية.

ثانياً: التشكُّل النبوي / بين الاتباع والابتداع:

رغم الخصوصية التي تتمتع بها البنية العامة للقصيد لا يبدو التشكُّل الخاص الذي تنبئ فيه متميزاً عما ألفته قصائد المديح حتى ذلك التاريخ الذي جاءت فيه. فالشاعر يفتتح قصيدته بمطلع غزلي طلي قبل الانتقال إلى الإشادة بمزايا الممدوح المختلفة مضمناً إياها تطلعاته إلى الاستفادة منها، لينتهي إلى إعلان هذه التطلعات بشكل صريح ومباشر. كأن أبا تمام هنا يحوِّك القصيدة على نموذج قائم مسبقاً وجاهز، هو «نهج القصيدة» الذي أشرنا إليه أعلاه. بل كأن هذا الحوِّك يمضي بشكل ميكانيكي غير آبه حتى بإخفاء نموذجه الميكانيكي أو تمويه تنوعاته البارزة، وإن كان يهتم بشكل خاص بالصياغة التعبيرية التي تقوم فيه، باعتبار أن إبداعه الخاصة تتجلى في الزخرف الخاص الذي يكوِّنه فيه، دون أن يستبعد مع ذلك اهتمامه بتضمينه موقفه المتميز الذي يحفظ له كرامته أو «ماء وجهه» إذا ما خاناه الحظ ولم يحصل على «ماء الممدوح» أو دَرَه. فتتوزع القصيدة بناءً لذلك في أقسام ثلاثة متتابعة بما يخدم الغرض المقصود منها على النحو التالي:

1 - مقدمة وجدانية في الطلل والغزل تؤديها الأبيات العشرة الأولى.

2 - تعظيم الممدوح والإشادة بصفاته الكريمة خاصة منها الأدبية والسياسية، مع التلميح إلى تطلعات الشاعر التكميلية، كما تعبر عن ذلك الأبيات الستة والثلاثون التالية للمقدمة (من البيت 11 إلى البيت 46).

3 - خروج من المديح إلى الطلب المباشر، حيث يركّز التعبير على محور العطاء دون أن يستبعد الشكوى التي تجهر بالاستعطاء، وذلك في الأبيات الأربعة عشرة الأخيرة.

بالإمكان ملاحظة كون بناء القصيدة على هذا النحو لا يفارق كثيراً بنيتها العامة، بل إنه، عدا المقدمة الغزلية التقليدية، يقيم نوعاً من التماثل مع هذه البنية. وهو، مع التزامه البناء المعهود في النبح التقليدي المتبع في تراكيب القصائد، يجتزل ويحمل الموضوعات التي تصل بين المقدمة والموضوع المقصود. فلا تناول لصيد أو طرد، ولا لرحيل أو سفر. . . بل انتقال مباشر من الغزل إلى المدح بدون أي توسط أو تمهيد.

في النص جملة من العلامات التي تميّز هذه الأقسام الثلاثة عن بعضها على مستويات عدة وترفدها بالتالي بمشروعية متعددة الأوجه.

على المستوى اللغوي تعلن كنية الممدوح كلاً من القسم الثاني والقسم الثالث مميزة لها في الوقت نفسه عن القسم الأول، كأن في هذا التمايز صورة عن ذلك القائم بين بناء القصيدة وبنيتها، بقدر ما فيه من إشارة إلى تمايز الموضوع المطروق في القسمين الموسومين بهذه الكنية عن ذلك المعالج في المقدمة. كما تدل السمة المشتركة بينها على توافق وتكامل الطرح الدلالي القائم فيها.

على المستوى النحوي يتأكد التوزيع المذكور من خلال اعتماد صيغة النداء في مطلع كل من القسمين الثاني والثالث، وفي نهاية هذا الأخير، واقتصارها على هذه المواضع الثلاثة في النص، فتقيم تمييزاً واضحاً بين الأقسام الثلاثة متطابقاً مع ذلك المشار إليه على المستوى الدلالي واللغوي مؤكدة خصوصية القسم الثالث (الاستعطائية)، حيث أن النداء يتفق والوظيفة الطلبية التي تقوم في خلفية اللغة الشعرية. وإذا كان الطابع الطلبي غير غائب عن مطلع القسم الأول (الاستفهامي)، فإن ذلك يحث على ترقب علاقة (طلبية) بين الأقسام الثلاثة، وبالتالي رؤية ذلك التواصل والتنامي الذي يمضي فيه النص ضمن وحدته الكلية.

على المستوى الأسلوبي، يبدو اللجوء إلى الطباق المعنوي لأول مرة في البيت الحادي عشر من النص إشارة للحد الفاصل بين ما قبله (القسم الأول)، حيث يسود الجناس به كمل بارز، وما بعده (القسمين الثاني والثالث) حيث يسيطر الطباق بقوة. وإذا كانت بعض أنواع الطباق قائمة في القسم الأول (بين الربوع والأغفال في البيت الثالث، والزاد والعفاة في البيت الخامس، والوحش والأوانس في البيت التاسع). وإذا كان القسمان الثاني والثالث لا يستبعدان الجناس نهائياً، فإن ذلك يؤكد، إلى جانب تمايز القسم الأول عمّا يليه، عدم انقطاعه الكامل عنه بل تواصل الطرفين في التمايز كما تبين أعلاه في المستويات السابقة.

أما التماثل القائم أسلوبياً بين القسمين الثاني والثالث، فيعبر عن التقارب الحاصل بينهما. ولما كان الثاني ينطلق من التناقض الذي يعبر عنه الطباق المشار إليه سابقاً (في البيت الحادي عشر) والوارد في صيغة بيانية، وينطلق الثالث من التماثل الذي تدل عليه الصورة البيانية التي لا تستبعد في تراكيها الطباق (في البيت السابع والأربعين)، فإن بالإمكان اعتبار ذلك مؤشراً على التمايز الحاصل في التقارب الذي يجمعهما، وبالتالي على الخط العام الذي تتجه فيه القصيدة.

على المستوى الإيقاعي يبدو البيت العاشر، وهو أول بيت في النص يأتي خالياً من الزحافات علامة إيقاعية فارقة بين ما قبله، كما انتهى إليه معه، وبين ما بعده، كما يبدأ مع البيت الذي يليه، محددًا بذلك نهاية القسم الأول ومميزاً له عما يليه. وإذا كان القسم الثاني معلناً في بيت يتميز إيقاعه عن كل ما سبقه (البيت الحادي عشر)، فإن ما يعلنه القسم الثالث هو زوج من الأبيات المتطابقة والمتعاقبة مباشرة يختلف عن كل ما سبقه من أزواج على هذا النحو (في البيتين 47 و 48). ومن الملاحظ أن القسم الثاني يبدأ بإيقاع ذي زحاف واحد (البيت 11)، وينتهي بأخر مماثل له عددياً (البيت 46). وهذا التماثل العددي قائم أيضاً بين البيت الأول فيه وما يليه (البيت 12 كما بينها وبين البيت الأخير وما قبله (البيتان 45 و 44)، ويشير إلى الطابع الإيقاعي الغالب على هذا القسم، حيث يتقدم عدد الأبيات ذات الزحاف الواحد على ما عداها (وهي خمسة عشر بيتاً مقابل سبعة أبيات لتلك ذات الزحافين، وسبعة لتلك ذات الزحافات الثلاثة، وخمسة للأبيات الخالية من الزحافات، وبيتين في كل منهما أربعة زحافات). بينما يأتي تطابق البيتين 47 و 48 وتماثلهما مع البيت الأخير (60) ليعلن حدود القسم الثالث والأخير، ويشير في الوقت نفسه، كما هو حال ما قبله إلى الطابع الإيقاعي الغالب إذ يتقدم عدد الأبيات ذات الزحافين ذاك الخاص بالأبيات ذات الإيقاع المخالف لذلك: (فهناك خمسة أبيات ذات زحافين مقابل أربعة ذات زحافات ثلاثة، وثلاثة ذات زحاف واحد، وبيتين أحدهما خال من الزحافات والأخر فيه أربعة زحافات). إلا أن هذه النظرة العامة تبقى أولية، ويبقى الوضع الإيقاعي للنص بحاجة، لكي يتبلور تشكله الفعلي، إلى تفحص توزيعاته التفصيلية في كل من هذه الأقسام، عبر الوحدات المختلفة التي تؤلفها الأبيات المتطابقة فيها بشكل خاص.

هذه الإشارات المتعددة على المستويات المختلفة تكوّن التمايز وتوحي بالصلوات القائمة بين الأقسام الثلاثة المكوّنة للنص، مؤكّدة وحدته وترابط عناصره التكوينية الأساسية في هيكلية عامة متناسكة، وتشكل معالم أساسية في إضاءة التشكل البنيوي للقصيدة، وتحديد وحداتها التركيبية من جهة، وعلاقات هذه الوحدات ببعضها من جهة ثانية. وستكون ملهمة

لنا في تناول هذه الوحدات وعلاقتها في سعينا لتحليل النص في تفاصيله وعناصره التعبيرية المختلفة، من أجل تلمس مدى التكافؤ أو التعادل المتحقق فيه بين مستوياته المختلفة، لنلاحظ في السياق التقليدي الذي يندرج فيه مدى الإبداعية الخاصة التي يتمتع بها.

ثالثاً: المقدمة الغزلية بين جمود التقليد وحيوية التعبير:

بناءً لما سبق توضيحه يتقدم النص في مقدمته مترسماً آثار الأقدمين، متابعاً ما كان قد أضحى تقليداً عتيقاً. فالشاعر يفتح القصيدة بالغزل معبراً عن معاناته الخاصة في العشق، وعلاقته الوجدانية بالأطلال واصفاً هذه الأطلال وأحوالها وما طرأ عليها من تغيير في غياب أصحابها من رجال كرام وفرسان ومن نساء حسناوات، متوقفاً عند تجربته الغرامية بهن وعند جمالهن المتميز، منتهياً إلى تأملٍ في الحب والغرام.

عدا عن كون هذا التقديم لا يتصل ظاهرياً بالموضوع المقصود (المديح) موحياً بتفكك خارجي يصيب النص، فإنه يبدو، ظاهرياً كذلك، مفككاً إلى حد ما في بنائه التكويني، موحياً بتفكك داخلي يصيبه هو نفسه. ذلك خاصة لضعف تلاحم الأجزاء المولفة له والتي تتناوب وكأنها تتجاوز أو تتراصف دون روابط تشدها إلى بعضها البعض. كأن هناك اهتماماً محصوراً بالتعرض لهذه الأجزاء ثثار تبعاً جرياً على المهود دون جهد يذكر في الالتفات إلى ترابطها الكلي أو تماسكها الشامل في هيكلية متينة التناسق. إلا أن النظر في الأبيات العشرة الأولى يبين عن جملة من المتعارضات والمتباينات تعطي لهذا التفكك الظاهري وحدة في خلفيتها الدلالية فتؤمن تلاحماً داخلياً، وتقوم بإداء الصلة بين المقدمة والموضوع كما سنرى، فتحقق تلاحماً خارجياً، نازعة بذلك عن التقديم الغزلي - الطللي ظاهرة التتالي الميكانيكي والتهاون بشأن تجاوزه كما بدا لأول وهلة.

فالسؤال الذي يفتح القصيدة يعلن حياً ثابتاً وراسخاً يشغل العقل كما يشغل القلب، وبذلك يقيم تماثلاً بين متعارضين (العقل والقلب) حيث أن ذهلية الحي تشغلها معاً. وهذا ما يؤكد البيت الثاني فيما يخص به المتعارضين (الدمع والصب) من تماثل في تعرضهما معاً لمعاناة السلول. ويبرز في هذه المعاناة تناقض بين الذات والخارج يؤازره تناقض آخر بين الماضي والحاضر. إلا أن التعبير لا يبرز التناقض بقدر ما يركز على التجانس.

على هذا الأساس من التماثل والتناقض يندرج القسم الأول كتعبير عن هذا الحب المستمر بأشكال متعددة. فتنهض مقابل الذات الأهله الأطلال الدارسة، ومقابل الحضور الدائم الغياب الطاريء، ومقابل الماضي «الحضاري» الحاضر الطبيعي... وإلى جانب

العقل والقلب والدمع والصبر يقوم في الطبيعة تماثل بين الربوع والأغفال، وفي «الصناعة» ومؤداها الإنساني بين الخلاخل والوشح وبين الساق والخصر، كما ينهض تماثل بين الطبيعة «الخصبة» والإنسان (الكريم) وغزلان الطبيعة ونساء القبيلة... فإذا كانت التناقضات تقيم قسمة بين الذات ومحيطها، بين الإنسان و(حضارته)، والطبيعة معبرة في ذلك عن أزمة شخصية واجتماعية، فإن التماثلات تشير إلى تواصل بين مختلف، وبالتالي إلى تداخل دلالي بين العناصر المتباينة مكونة مواقع مشتركة تخرج هذه العناصر عن حدودها المعهودة إلى أبعاد أوسع وأعمق، تتجاوز فيها اختلافها وتباينها لتقيم معالم جديدة من الأجواء الدلالية المشتركة يشدد التعبير عليها أكثر من أي شيء آخر. فهي لا تكتفي بجمع ما يضمه مجال دلالي واحد (الطبيعة أو الصناعة أو الإنسان)، بل إنها تجمع داخلها مجالين دلاليين مختلفين (الطبيعة والإنسان). إلا أن النص لا يقيم مساواة بين العناصر التي يماثل بينها، بل يشير إلى أن هذا التماثل، الذي لا يقضي على اختلافها وتمايزها، لا يحول كذلك دون رؤية الدور المتميز لأطراف فيها على أخرى. هكذا لا يحل خصب الطبيعة مكان كرم الغائبين، بل إن غياب هؤلاء هو الذي يسم حضوره. ولا يعوض جمال البقر الوحشي عن جمال النساء الغائبات، ولا الرماح الخطية عن قدهن البارح الحسن، وذلك لتمييزهن بالأنس واللطف عن تلك البقر، وينضارتن أو امتلائهن عن تلك الرماح، أي بالحياة عن هذه الأخيرة وبالبعيد الإنساني عن تلك الأولى⁽³⁰⁾. ربما كان هذا التماثل في التماثل هو الذي يحول دون الشاعر والعزاء. إذ لو كان بالإمكان تجاوز التمايز، وبالتالي تحقيق المساواة، لأمكن استعاضة طرف بآخر. وليس هذا التمايز إلا تمايز جمال النساء عن أي جمال آخر (طبيعي أو صناعي)، ومن مظاهر هذه السمة الخاصة به أنه يمضي إلى تحويل العناصر الأخرى عن طبيعتها أو عن دورها إلى طبيعة أخرى أو دور آخر. هناك بالطبع «أرام الخدور» التي تدمغ حيوان الطبيعة بالسمة الإنسانية، وإنما هناك أيضاً تلك الخلاخل والوشح التي يخرجها جمال النساء من دورها الخاص بامتلاء الساق إلى دور آخر خاص بالرشاقة أو ضمور الخصر. وفي ذلك يتعدى المبالغة التقليدية إلى أبعاد دلالية جديدة يحددها السياق البيوي للنص نفسه، ولم

(30) يذكر الأمدى في الموازنة... (ذكر سابقاً) أن أبا تمام أخطأ في قوله:

مها الرحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

موضحاً: «وإنما قيل للقنا ذوابل» للينها وتنتنهما، فنفي ذلك عن قدود النساء التي من أكمل صفاتها التي واللين والانعطاف... (ص 140) وهو بذلك يبقى عند سطح التعبير، ومقايسه الأساسي في الحكم مرجعيتان: واقعية من ناحية (وضع المرأة في الواقع...) وتراثية من ناحية ثانية (الوصف السائد لها في الشعر...). بيد أن الرجوع إلى المعنى المعجمي لـ «ذوابل» يسمح للباحث أن يستدل على المقصود من استعماله من قبل الشاعر، والدلالة العميقة التي يؤديها ضمن السياق الذي يرد فيه وجملته علاقته...

يكن هذا أو ذاك ليتم لولا ذلك الحسن المتميز والمتجاوز لكليهما⁽³¹⁾. وهذا ما يفسر إشارة

(31) يورد الأملدي في المرجع السابق ما يلي: «وانكر أبو العباس على أبي تمام قوله:

من المصيف لو أن الخلاخل صوّرت لها وشحاً جالت عليها الخلاخل
ولم يذكر موضع العيب فيه، ولا أراه علمه، و[أنا أذكره وأخصه فأقول: إن] هذا الذي وصفه أبو تمام
ضد ما نطقت به العرب، وهو أفتح ما وصفت به النساء؛ لأن من شأن الخلاخل والبرين أن توصف
بأنها تعضّ في الأعضاء والسواعد، وتضيق في الأسوق، فإذا جعل خلاخلها وشحاً تجول عليها فقد
أخطأ الوصف؛ لأنه لا يجوز أن يكون الخلاخل - الذي من شأنه أن يعض بالساق - وشاحاً جائلاً على
جسدها؛ لأن الوشاح هو ما تقلده المرأة متشحة به، فتطرحه على عاتقها، فيستبطن الصدر والبطن،
وينصب جانبه الآخر على الظهر حتى ينتهي إلى العجز، ويلتقي طرفاه على الكشح الأيسر؛ فيكون منها
في موضع مماثل السيف من الرجل، وإذا كانت هذه صورة الوشاح فغير جائز أن يوصف بالسعة والطول،
لبدل على تمام المرأة وطولها، ويكون ذلك لا تقاً بتشبيه النساء في البيت الثاني بقنا الخط، وإنما يوصف
الوشاح بالقلق والحركة ليستدل بذلك على دقة الحصر؛ لأنه يقلق هناك إذا كان الحصر دقيقاً، والبطن
ضامراً، بل حركته تدل على ضمير البطن أكثر، وليس طوله في نفسه مما يدل على امتلاء ولا خص، وإذا
كان الخلاخل - وهو الحلقة المستديرة المعروف قدرها - وشاحاً للمرأة فإنه يأخذ أعلى جسدها كله، وإذا
كانت كذلك فقد مسخت إلى غاية القساة والصغر، وصارت في هيئة الجعل . . . » (ص 131 - 132).
ونلاحظ بوضوح هنا المرجعية الواقعية للناقد الذي لا يتأخر عن إعلانها واضحة في قوله: « . . . وكل ما
دنا من المعاني من الحقائق كان ألوط بالنفس، وأحل في السمع [وأولى بالاستجابة] » (ص 140)؛ وهو
يتبعها بمرجعيتها التراثية حين يتابع قوله السابق: « . . . وقد تصف العرب الحصر بالدقة، ولكن تعطي كل
جزء من الجسد قسطه من الوصف » (ص 132) مضيفاً: «ومن عادة العرب أنها لا تكاد تذكر المهيف وطبي
الكشح ودقة الحصر إلا إذا ذكرت معه من الأعضاء ما يستحب [فيه] الامتلاء والري ». (ص 133).
إلا أن الطريف في الأمر أن المرجعية الأخيرة تحفل بتعابير مماثلة لما يأخذه الأملدي على أبي تمام، ولكنه مع
ذلك يستحسنها بعد استقباحه قول الشاعر المذكور، إذ يقول: «وقد يبلغ الشاعر في أشياء حتى يخرج منها
إلى المحال، ويخرج بعضها خرج النادر، فيستحسن ولا يستقبح، نحو قول الشاعر:
من رأى مثل حبّتي تشبه البدر إذ بدا
يدخل اليوم خصرها ثم أودفها غدا
ومثل هذا كثير. . . » (ص 138) كقول النابغة:
إذا ارتعشت خفاف الجبان رعاشها
ومن يتعلق حيث عُلق يفرق
وأبي العتاهية:
ومخصّرات زرننا بعد المُدوّ من الخدور
نُفج روادفهن يلبسن الخواتم في الخصور

واضح أن المزاجية وحدها هي التي تسمح للأملدي رفض واستقباح قول أبي تمام وقبول استحسان قول
أبي العتاهية ومن قبله. وإذا كان المرزوقي قد رد على الأملدي في عملية مركبة في تأويل لغوي وإسناد
شعري ليؤكد أن المقصود بالوشاح مقره ومنتهاه أو وسط صاحبه، وليس هو بذاته، فإنه مع ذلك يبقى
في المرجعية المزدوجة نفسها التي اعتمدها الأملدي، ولا يغادر الوجه السطحي للتعبير. ولم تكن هذه
المرجعية ولا الطريقة الانتقائية الاجتزائية في معالجة هذا التعبير خارج سياقه لتتيح مغادرة كهذه.

الشاعر إلى إضلاله العزاء، وهو يفسر في الوقت نفسه حديثه عن خلس الهوى. فحسن من هذا النوع الساحر لا يمكن له إلا أن يكون صاعق الإغراء والتوليع، أو أنه لا يمكن لمن أحبه أن يأتيه إلا خفية واسترقاقاً، بقدر ما يستحيل على من يقع في غرامه الصبر والعزاء. لذلك ينتهي إلى ذلك الرأي الذي يحمل في صيغة التأمل التي يأتي فيها انطلاقاً من واقع هذا الغرام تمنياً واضحاً بالتمتع المديد الذي لا ينغصه كشف أو افتضاح.

أخيراً، ليس التماثل إلا صيغة من صيغ الإخلاص والوفاء، لأنه يلحق المختلف بالتطابق الذي يؤكدهما أكثر مما يلحقه بالمتناقض، ويكون التميز الذي ينتهي إليه القسم الأول متفقاً مع الرغبة والغرام بالطبع، ولكنه يشكل أيضاً نوعاً من الاستجابة للوفاء والثبات في الحب الذي يعلنه البيت الأول. على هذا النحو يأتي البيت العاشر نوعاً من جواب على السؤال المطروح في البيت الأول أو نوعاً من تجاوز له. فالوصل الذي يتطلع إليه يجعل ذلك السؤال غير ذي موضوع، فلا معنى في الحضور وفي تلبية الرغبة للحديث عن النسيان أو السلوان الذي يترأى في ظل الانقطاع والغياب.

يمضي هذا التفاعل الخاص بين التعارضات والمتناقضات والمتماثلات إذن في الملمة القسم الأول وحبك وحدته التعبيرية، حيث يتوزع إلى تعبير انفعالي عن الذات في الحب وما يرتبط به من طلال يثير شجناً لا يمكن رده (في البيتين الأولين)، وإلى توقف عند هذا الطلل يصف ما آل إليه حاله إذ تركه أصحابه (في الأبيات الأربعة التالية)، فانصرف إلى وصف النساء اللواتي رحلن وخلقن في نفس الشاعر الأسى العميق مبيّناً حسنهن التميز (في الأبيات الثلاثة اللاحقة) قبل أن ينتهي من ذكر الهوى إلى تأمل وإبداء رأيه الخاص فيه (في البيت العاشر). فتكتمل الوحدة التعبيرية في تماسك مستقل يعتمد التوازن بين أجزائه المكونة، حيث تشكل الانفعالية الذاتية إطاره (في البيتين الأولين وفي البيت العاشر) ويتوزع الطلل والنساء ضمنه على تداخل واضح يؤديه ذكر الجمال (في البيت السادس). لكن الإطار نفسه ليس منفصلاً عن متضمنه حيث إن الأطلال قائمة عبر فعاليتها الذاتية في البيت الثاني. هكذا تبدو هذه الأجزاء المختلفة المكونة للقسم الأول متداخلة متلاحمة بمتانة تؤدي من خلالها متانة التركيب ووحدة القسم وتماسكه. وتبدو مرتكزة إلى توالد متتابع يمضي من الحاضر المتجه إلى المستقبل نحو الماضي ليعود فيتصل بالمستقبل مجدداً، وعند هذا المستقبل بالذات يلتقي الوفاء (البيت الأول) بالتمني (البيت العاشر).

في هذا التوحيد المتوازن يشكل الجناس على المستوى الأسلوبى العلامة الفارقة في الصور البيانية المختلفة القائمة. وهي علامة تلائم في جمعها الشكلي للمفارقات الصيغة الدلالية التي

تجمع المختلف والمتعارض في المتماثل، وتمنح بالتالي سيطرة المناقض. لكن الجنس أيضاً هو هذه الميزة الخاصة للتعبير الشعري الذي ينتظم في الهيكلية والبنائية القديمتين. في هذا التمايز خصوصية للتعبير، وتميز له يعطيه قيمة إضافية بقدر ما يدخل من تعقيد، من صعوبة جديدة، من جهد أكبر، وجمالية تتجاوز المعهود بالإضافة لا بالنقض. والجناس هو الذي يتيح الانتقال من الظاهر إلى الباطن، من المعنى القريب إلى البعيد. ما يبدو مفارقاً ومنقطعاً عن موضوع المديح ظاهراً يضحى باطناً - عن طريق الجنس - قريباً منه ومتصلاً به كما سنرى. وهو جناس لا يدخل تعقيداً جديداً في الصورة (قديمة أو حديثة) وحسب - وهو على هذا النحو فقط يثير تحدياً صعباً بحد ذاته - وإنما أيضاً يجمع أحياناً بين الصور والتعبير المختلفة. فالمفارقة لا تأتي فقط على سبيل المثال بين ذهلية وذاهل وإنما أيضاً بين ذاهل وأهل، ليجتمع في التعبير القائم في البيت (الأول) بأكمله نمط «جديد» - غير مألوف من القول حتى حينه - ينض من هيكل قديم ومتوارث من الافتتاحيات المعهودة. فإذا اجتمع لفظان متباعداً للدلالة في جناس مكون لصورة بيانية في شطر من البيت (الثاني) يقابل مثلاً له في الشطر الآخر، يبلغ اللامألوف أو الغرابة حد الاستهجان والاختلاف في الفهم كما في الحكم... كأن جهد الإبداعية الشعرية في هذا العمل التقليدي هو بلوغ التمييز في الصور عبر نقلها من المألوف إلى اللامألوف، فيمضي التعبير من المعهود في البكاء إلى التمثيل بالصبر ليس من الحسي إلى المجرد وحسب، بل ومن التجسيم إلى التشخيص في الوقت نفسه (البيت الثاني)، ومن المعروف في الاندثار والعفاء إلى التذكر والتواصل (البيت الثالث)، ومن المعقول في المهم كما في المهجس إلى تصور يجمع الحسي إلى الإنساني (في البيتين السابع والأول)، ومن الشائع في الغزلان الرشيق والبقر الوحشية والرماح الذابذة إلى فريدة تغذيها مبالغة متطرفة... كأن هم النشاط البلاغي هنا تجاوز سابقه انطلاقاً مما بلغوه... وإنما التفرد المتميز حقاً هو في جمع الأضداد في هذه الصور البيانية المختلفة، لتؤلف فيها بينها أجواء وحالات أكثر مما تؤدي معاني أو دلالات محددة ونهائية. فيتجاوز الحضور والغياب (في البيتين الأول والثاني)، والعفاء والازدهار (الثالث والرابع)، وغياب الكرم وحلول الخصب (الثالث والرابع، والخامس والسادس)، والرقعة والغلظة (الثامن)، والوحشية والإنسية كما الصلابة والبطاوة (التاسع)، بل تتداخل في ظلال من غلالات الرؤى، وليس في خطوط واضحة وقاطعة الحدود الدلالية. وتأتي اللغة المعتمدة لأدائها إلى جانب ما يحل في صلبها من جناس خاصة وما يتردد من طباق أو تكرار، كأنها تستجيب لترادف صوتي أكثر من اهتمامها بتمثيل فكرة أو معنى. بل كأن المعنى المتمثل في الصورة البيانية محكوم بتوالده من الحركة الإيقاعية التنظيمية التي تساهم أصوات الحروف فيها. على هذا النحو يرجع مجيء ذاهل مع ذهلية، وتطل مع الطلول، وتمثل مع الموائل والربيع مع الربوع والغافل مع الأغفال... إلخ، ليلعب التعبير في هذه

الأجواء الإيمانية مستوى متميزاً من الاتقان يطرح إشكالية فهم الدارسين له، بقدر ما يشكلُ تفوقاً على الأقران والمنافسين في ميدان التكسب الذي لا يرحم.

ضمن هذا المنظور يصبح التوزيع الداخلي الذي لاحظناه أعلاه لهذا القسم تعبيراً عن فهم له لا يستبعد فهماً آخر، ليس من الضروري أن يكون مطابقاً له أو حتى قريباً منه، إذ يكاد كل بيت من الأبيات العشرة الخاصة بالقسم المذكور يحتمل أكثر من معنى⁽³²⁾ . . .

على المستوى الإيقاعي العروضي يتقدم القسم الأول كوحدة متميزة قوامها الأبيات المتطابقة والمتماثلة فيه. إذ تشكل الأبيات الأربعة الأولى مجموعة من الأبيات المتطابقة يليها بيتان متماثلان في عدد زحافاتهما، ثم أربعة أبيات أخرى مختلفة الإيقاع. مما يتيح رؤية توازن عام في المجموع العام للأبيات يشكل البيتان المتماثلان وسطه، وتشغل كل من الأبيات الأولى والأخيرة جهة مقابلة للأخرى، تتجانس الأولى منها في التطابق (بين البيتين الأولين ثم بين الثالث والرابع) والأخيرة في التناقص (من الزحافات الثلاثة في البيت السابع إلى انعدام الزحافات في العاشر تبعاً وبالتدرج). إلا أن القسم الأول يتمتع عروضياً، بالإضافة إلى وحدته الإيقاعية العامة، بمزايا داخلية ليست منعقدة الصلة بتشكله الدلالي. فالتطابق الإيقاعي القائم بين البيت الأول والثاني يشير إلى تغيُّرها في وحدة مستقلة، فيما يعلن التطابق

(32) فالبيت الأول على سبيل المثال يتضمن إلى جانب التباس معنى بعض المفردات التي يشير إليها التبريزي في شرحه للفصيدة (راجع ديوان أبي تمام يشرح الخطيب التبريزي ذكر سابقاً، ص 112) صيغة استفهامية قد تكون استنكارية كما قد تكون توكيدية. وعدا الوجهين المتعارضين اللذين يجتمعهما «مثل» في البيت الثاني (إذ يؤدي الظهور والانصباب كما الزوال والدروس) هناك معنى ثالث يقدمه المرزوقي - وهو العقاب الشديد - (انظر المرجع السابق ص 113)، كما لا يبدو أن اعتياد أحدها لا يؤثر على التعبير القائم في الشطر الأول من البيت نفسه. ويكاد الأمر يستمر على هذا النحو حتى البيت العاشر - وكنا قد أشرنا سابقاً إلى الجدل حول البيت الثامن والرأي المختلف بصدد البيت التاسع - حيث يمكن اعتبار التعبير الوارد بعد الجملة الأولى (هوى كان خلساً) مماثلاً، مؤكداً لها و«خامل» فيه يدل على الخفي والسري، أو مختلفاً، مناقضاً لها، و«خامل» بالتالي يدل على خمود وضعف؛ كما قد يدل «خامل» على انعدام النباهة فلا يضطر من يأتيه إلى العجلة . . الخ.

إن إعادة النظر بمعاني المفردات والأبيات تؤدي إلى إعادة نظر في التوزيع الدلالي الذي تتشكل فيه وحداتها، وتفترض بالتالي البحث في النص عن مقابلات على المستويات الأخرى تقيم توازناً وتعادلاً أو تكافؤاً فيما بينها جميعاً. فعلى سبيل المثال يمكن النظر إلى القسم الأول في توزيع رباعي آخر يضم في جزئه الأول البيت الأول وحده، وفي الثاني الأبيات الأربعة اللاحقة، وفي الثالث الأربعة التي تليها، وفي الرابع البيت الأخير أو العاشر، حيث تتحدد المحاور الدلالية تبعاً بالذات، فالأطلال، فالراجلين أو الغائبين، فالهوى الخ.

الثاني بين الثالث والرابع وحدة ثانية تتألف منها ومن البيتين اللاحقين والمثاليين لها في عدد الجوازات. ورغم أن الأبيات اللاحقة تأتي متمايزة لا تطابق أو تماثل فيها، فإنها تَمْضِي متناقصة في عدد زحافاتهما ليتميّز الأخير بينهما (العاشر) بوضوح في خلّوه من أي زحاف، معلناً في تمايزه الجزء الرابع الذي يختص به وحدود الثالث السابق عليه والمحصور بينه وبين الثاني في الوقت نفسه. ومن الواضح أن التطابق القائم في الجزء الأول أو الوحدة الأولى يتفق مع الوضع الدلالي الذي تشكل المعاناة المحيطة بالذات محوره، وأن التمايز في الجزء الثاني بين المتطابق والمثالي يتفق مع تمايز التعبير عن الأطلال في وضعها الراهن (في البيتين 3 و4) وعن مغادرة ساكنيتها لها ورحيلهم عنها (في الخامس والسادس). كما أن تميز الجزء الثالث على النحو المذكور أعلاه عن بقية الأجزاء يؤكد تميزه الدلالي، فهو الجزء الخاص بالضياح والفرق والتشتت، وإنما أيضاً الجزء الذي يعتمد الاختلاف والتمايز والتخطي. وربما كان غياب التطابق عنه تعبيراً عن غياب التوازن العقلائي وعن الضلال الذي أحاق بالتكلم (المخاطب)، بقدر ما يشير التناقص المتصاعد في عدد زحافات الأبيات تبعاً إلى وجهة إيقاعية تبلغ غايتها في البيت التالي، فتؤدي على المستوى الإيقاعي الترابط القائم على المستوى الدلالي بين الجزئين. وكان البيت الأخير (العاشر) في مجيئه كاملاً يعلن اكتمال القسم الأول بأكمله، متلائماً في ذلك مع أداء المعنى فيه، حيث إنه يعلن على المستوى الدلالي عن اكتمال القول فيه، باعتباره مجسداً لزبدة القول في هذا القسم والأساس الذي ينهض عليه.

هكذا تلتحم الأجزاء المكونة للمقدمة في وحدة مترابطة في خلفيتها الدلالية كما في صيغتها التعبيرية الأسلوبية والإيقاعية على حد رفيع من التوازن والتلاؤم. ويكاد استعمال الضمائر - على المستوى النحوي - أن يأتي مؤكداً له ورافعاً إياه إلى حدٍ متقدّم من التكافؤ أو التعادل البنيوي. فإذا ينطلق الجزء الأول من ضمير المخاطب المفرد المذكر العاقل المنفصل («أنت») ثم المتصل (في «قلبك») يأتي الجزء الثاني مع أول ضمير يليه وهو ضمير الغائب لجمع المؤنث غير العاقل المتصل (في «ذيلها»)، وينتهي بضمير جمع العاقل المذكر المتصل (في «فيهم»)، ويكون ظهور ضمير المخاطب المفرد المذكر العاقل - المتصل على صيغتين (في «أضللت» وفي «بعقلك») - مجدداً علامة على بدء الجزء الثالث ليتداخل في بيته الباقيين ضميراً جمع المؤنث للعاقل وغير العاقل (في «ولها» و«عليها» وفي «صيرت»). بينما يتقدم ضمير جديد في الجزء الرابع هو ضمير الغائب المفرد المذكر لغير العاقل - المجرد، مضمراً ومتصلاً ومنفصلاً إلى جانب ضمير المخاطب المفرد المذكر العاقل المتصل.

إذا كانت العلاقة بين الإنشاء (الوارد في البيت الأول) والخبر (الذي يعم بقية الأبيات

الأخرى من الثاني إلى العاشر لا تتيح، من هذه الزاوية، رؤية تطابق المستوى النحوي مع بقية المستويات، فإن زاوية أخرى في النظر قد تتيح بلوغ مثل هذا التطابق. فالبيت الثالث يحمل صيغة النفي التي تميز البيتين السابقين عما يليهما جاعلة إياهما في جزء خاص (أول) ينتهي إلى اعتماد صيغة الفعل المضارع، بحيث أن عودة هذه الصيغة بالذات في البيت السادس تشكّل علامة نحوية على نهاية الجزء الثاني. وفي حين يبدأ البيت السابع باعتياد صيغة الفعل الماضي، فإن غياب الجملة الفعلية في البيت التاسع يُقيم فاصلاً بين هذه الأبيات الثلاثة (من السابع إلى التاسع) لتشكّل الجزء الثالث، وبين البيت الأخير (العاشر) الذي يستعيد صيغة الفعل الماضي مجدداً ليشكل الجزء الرابع. وذلك كله في تشكّل عام يميل إلى التلاؤم مع التشكل الدلالي والإيقاعي والأسلوبي الملاحظ آنفاً.

لا يصعب علينا أن نجد في الخلفية الدلالية لهذا القسم ما يمهّد فعلاً للمديح ويستدعيه. فإذا كانت التعارضات تعبيراً عن الانقطاع الحاصل، كما عن الانقلاب الحادث، وبالتالي عن المعاناة الشخصية العميقة المتصلة بذلك، فإنها تصبح بذلك أيضاً تعبيراً عن الشكوى بما تتضمنه هذه الشكوى من تطلع إلى المعالجة والرعاية. وإذا كانت التنايلات تعبيراً عن التوافق والتجانس، عن تواصل ما بين المتفارقات، وبالتالي عن نزوع نحو ثبات ما في العلاقات والصلات، فإنها تصبح كذلك بدورها تعبيراً عن الوفاء والإخلاص، وفاء وإخلاص لا يستبعدان التلميح إلى طمأننة المستمع وتأكيد الصدق وإيجاء الثقة. إن التحام التعارض والتنايل في التعبير قد يكون إشارة دلالة ضمنية على التحام الصدق الموحى به بالرعاية المرغوب بها، كما يلتحم التمني بالشكوى في البيت العاشر والبيتين الأولين. هكذا تكون المقدمة الغزلية، فيما هي تعبير عن علاقة غرامية بالمرأة، تلميحاً قوياً إلى علاقة تكسبية بالمدح، مما يخفف كثيراً من حدة الانتقال المفاجيء من الغزل إلى المديح، إن لم يجعله سيراً ولطيفاً.

إنما يجدر الإلماع هنا إلى أن التلميح لا يقتصر على هذا الجانب «الشخصي»، فهناك أيضاً في الخلفية الدلالية للمقدمة إثارة لموضوع الكرم والعطاء، من خلال تعرض الشاعر لكرم الجماعة التي تنتمي إليها المرأة المعشوقة. بحيث يرتبط غياب هذه بغياب تلك ومعها الكرم نفسه ويكون التطلع إلى حضورها غير منفصل عن حضور تلك الجماعة وكرمها. وتأتي الإشارة إلى العطاء الطبيعي السخي كنوع من التنايل بين ما يجري في الطبيعة وما يتم في العلاقات الإنسانية. لكن الكرم الإنساني - كما هو حال الجمال الإنساني - أرقى من الطبيعي وأجمل. ضمن هذا المنظور يكون التعرض له دخولاً مباشراً - وإنما رهيماً - في موضوع المديح بقدر

ما يعتبر إثارة الكرم إثارة لأريحية المدوح ودعوة له كي يعرض على الشاعر غيابه، بل كي يتجاوزه بكرم أعظم وأجل.

تجتمع إذن الخلفية الدلالية من إعلان الإخلاص وتمني الوصل، أو تأكيد الصدق والتطلع إلى الرعاية، كأنها تكوين في البعد الدلالي للمصيغة التائية الغالبة على التعبير وعلى توزيعه المتوازن. وتصبح المقدمة استدراجاً لثقة المدوح بالشاعر واستدراجاً لعطفه وعطائه في الوقت نفسه. إنها بناء لذلك بدء المديح. كأن اعتماد ضمير المخاطب فيها للتعبير عن الذات دلالة لغوية - نحوية - أسلوبية على هذا التماثل الدلالي المقصود بين الغزل والمديح. وعلى هذا النحو يلتحم القسم الأول بمباليه بقدر ما يمهد له ويستدعيه ضمناً، وإنما خاصة بقدر ما يقوم بينهما من تماثل بنيوي قوي وإن بقي خفياً أو مموهاً.

رابعاً: جهد المديح / خصوصية الاجتهاد في الإرضاء:

يبدو النداء الذي يفتح قسم المديح (الثاني: من البيت 11 إلى 46) أكثر من التفات (حسن) إلى المدوح، يعبر في مجيئه مباشرة بعد المقدمة الغزلية عن لفة في بلوغ الموضوع. قد يشكل على هذا النحو - بعد الاندخال في الحب وصلاله - استغاثة يتوقع الشاعر من ورائها خلاصاً من معاناته التي شكها منها. إنما هو كذلك استعادة للعقل وخروج من العاطفة الوهلي، مهد له ذلك انتهاء المقدمة إلى التأمل. إنما على خلاف موضوع التأمل هذا (أحسن الهوى) الذي يغلب عليه الطابع الشخصي والانفعالي، يأتي موضوع التأمل هنا محوره العقل (العلم والجهل) الذي يغلب عليه الطابع الاجتماعي والواقعي. فكان استحضار المدوح بالنداء يغير معطيات التعبير الظاهرة، ويستبدل موضوعاً بآخر ورأياً بغيره. غير أنه لا يستبعد الشكوى بدوره، فهو ليس معانية موضوعية متجردة، بل إن له غاية محددة كما ستدل على ذلك متابعة هذا الانصراف إلى المدوح المخاطب.

هكذا تبدو مفارقة القسم الثاني للأول قائمة على قاعدة الاختلاف والتماثل. فهناك اختلاف ظاهر في المضمون عبر الانتقال من الغزل إلى المديح، وفي التعبير النحوي عبر الانتقال من المخاطب - المتكلم إلى المخاطب - السامع، وفي التعبير الأسلوبى عبر الانعطاف البارز نحو اعتماد الطباق (الجهالة الولود مقابل العلم الحائل) الذي يصبح العلامة الأسلوبية المميزة لهذا القسم (الثاني) لغلبته فيه، وفي الإيقاع الذي يعلن في البيت الأول منه (البيت 11) اتجاهًا جديدًا مختلفاً عما عرفه القسم السابق (الأول). في هذا الاتجاه الجديد يغلب التطابق بين الأبيات بوضوح إزاء غلبة الاختلاف بينها في القسم الأول⁽³³⁾. كما أن هناك

(33) يضم القسم الثاني 12 وحدة إيقاعية متميزة نسبة الوحدات المتطابقة على تلك غير المتطابقة 3/9 أو 1/3 =

تمثالاً بين القسمين متضمناً في هذه المستويات المختلفة، بقدر ما يتداخل الغزل والمديح فيكون الأول توطئة للثاني واندرجاً فيه، ويكون الثاني غزلاً بالمدوح وتعبيراً عن العلاقة الخاصة التي تربط الشاعر به، ويقدر ما يتم في كلا القسمين من استعمال لضمير المخاطب العام المهم، ويقدر ما يقوم في الثاني من جناس غالب في الأول، وفي هذا من طباق غالب في الثاني، ويقدر ما يستعيد الثاني في متطابقاته العروضية وحدات الأول الإيقاعية متطابقة أو مفردة، فيتشكّل من ذلك كله تواصل وتداخل هو ميزة أساسية من ميزات خصوصية هذا المديح، وخصوصية محاولته الإبداعية في آن.

بيد أن هذا المديح لا يساق كيفما اتفق. فالكلام هنا أبعد ما يكون عن إلقائه على عواهنه، محسوب بدقة الحساب المفترض في عملية التبادل التي يخضع لها. والنظر في المستوى الدلالي فيه يتيح تبين أجزاء أربعة مكوّنة له:

الأول: دعوة المدوح إلى رعاية الأدباء (من البيت 11 إلى 16).

الثاني: إشادة بفضائله، خاصة بما يتعلق منها بحماية الخلافة (من البيت 17 إلى 29).

الثالث: تعظيم موقعه الأدبي والفكري كما يتجسد في الكتابة خاصة (من البيت 30 إلى

39).

الرابع: تقرّظ مزاياه التي يطغى الكرم فيها على ما عداه (من البيت 40 إلى 46).

إذا كان القسم الثاني يتصل عبر المفارقة القائمة على الاختلاف والتباين بالقسم الأول كما ألمحنا، فإن أجزاءه الداخلية أبعد ما تكون عن التفتك، رغم ما قد يوحي مظهرها بذلك للوهلة الأولى. فهي تتمتع بتناسك في البناء تتواصل خلاله في وحدة تشبكها ببعضها البعض، إذ تخفي متلاحمة متدافعة في تأكيدها جميعاً لعظمة المدوح التي تتجسد هنا رياسة اجتماعية وأدبية وأخلاقية، يصعب إخفاء غايتها والهدف المرجو منها، وهو استجداء عطف المدوح وعطائه كما يعلن القسم الثالث ذلك سافراً بعدها. فدعوة المدوح إلى احتضان ورعاية أهل العلم (في الجزء الأول) ذات العلاقة الحميمة بالقسم الأول كما أشرنا، تجسد تبريرها في الصفات - المزايا التي يتمتع بها المدوح. فموقعه بالنسبة للخلافة وقدرته العالية على القيام بأعبائها يجعله في المركز الأرقى الذي يفسّر ويبرّر التوجّه إليه (في الجزء

== ونسبتها في المجموع 12/9 أو 4/3، أما نسبة الأبيات المتطابقة فيما بينها على تلك غير المتطابقة فهو 3/33 أو 1/11؛ يقابلها في القسم الأول ثلثي وحدات بينها وحدتان فقط متطابقتان، مما يجعل نسبتها إلى غير المتطابقة 6/2 أو 3/1 وللمجموع 8/2 أو 4/1، أما نسبة الأبيات المتطابقة إلى غير المتطابقة فهي 6/4 أو 3/2.

الثاني) كما أن دوره الأدبي المتميز يؤهله لأن ينهض بمهمة كالتى يدعو إليها الشاعر (في الجزء الثالث) مثله مثل بقية المزايا الأخرى وخاصة الكرم (في الجزء الرابع). هذا الكرم هو «بيت القصيدة» إذ لا يوضح أبعاد الاحتضان المطلوب وحسب، وإنما يعين كذلك وجهة وغرض المديح بأكمله. على هذا النحو ينكفئ المعنى الذي ينتهي إليه المديح في هذا القسم على ذلك الذي بدأ به ليضيقه ويوضح حقيقة أبعاده والقصود المتوخى منه، وبالتالي ما يستتبعه أو يبرره ويستند إليه، وبذلك يعرف القسم الثاني تكتلاً ووحدة تعطيه كامل استقلاله وتمييزه عما سبقه وعما يليه.

لا يللم الكرم أجزاء القسم الثاني على النحو المين من التكتل بشكل منفصل عن سياقه، إذ يبدو كذلك عنصر لحمية أيضاً بينه وبين ما قبله وما بعده. فهو يصل هذا القسم بالغياب الذي شكل أساس الشكوى في القسم الأول، متمثلاً بالكرم الذي عفت منه الطلوع الدارسة والذي كان سبب خرابها. وهو يشده أيضاً ويوضح أقوى أصرة إلى القسم الثالث الذي يعتمد ركيزة انطلاق لتجاوز أزمته وصوغ تطلعاته الطلية. فيتأكد بذلك النحام مجمل أقسام النص الثلاثة ببعضها في حركة واضحة الاتجاه والمحور، رغم الصيغ والتلاوين التي تتخذها، يشير إليها منطلق دلالي ضمني غير ذلك المنطق الظاهر، وهو منطق يعتمد بشكل خاص على التناقض والاختلاف والتماثل في تجسيد رؤيته العامة كما شكله التعبيري، على غلبة واضحة لهذا الأخير كما يتراءى في توزيع النص الكلي من ناحية، وكما يظهر في تفاصيل تركيب أقسامه من ناحية ثانية. فإذا كان التناقض حاضراً، بل هو مكوّن لإطار التعبير وقاعدته هنا، كما تدل على ذلك الطبقات المعتمدة، فإن التماثل هو المقصود، بل هو سبيل تجاوزه، كما تشير إلى ذلك الصيغ البيانية المختلفة. وستكون لنا عودة إلى ذلك من خلال مقاربتنا لأجزاء هذا القسم بالتفصيل.

١ - الرياسة رعاية :

يمكن اختزال معنى المديح القائم في الجزء الأول من القسم الثاني إلى كون المدوح يتمتع بمؤهلات علمية عالية، تبرر للشاعر أن يدعو إلى احتضان الأدباء وصونهم عن العامة المجتمعين على الجهل.

ليس في هذا المعنى جدة أو طرافة، خاصة إذا كان المدوح من الأدباء، إذ تقتضي أصول المديح المعهودة الانطلاق من موقع المدوح الشخصي والاجتماعي لاستحساء معاني المديح والمبالغة فيها تعظيماً وتبجيلاً. إلا أن تقصي التعبير فيه يبدى عن تميز وفرادة يفرجها به عن التقليد الشائع في المديح. والفرادة كامنة في الصيغة التي يجتهد الشاعر في إخراجها

على ما يرضي ممدوحه، والتي إذ لا تكتفي بتكريس المؤلف في المعنى، تسعى إلى طرق اللامألوف من خلال لعبة كلامية متعددة المداخل أو الأساليب، فتبلغ بذلك تجديداً داخل المعنى التقليدي نفسه.

يتضمن التعظيم المثبت هنا إعلاناً يكاد يكون مباشراً بغرض الشاعر الطلبي. فليست الإشادة بالرياسة الأدبية للمدوح ودعوته إلى احتضان الأدباء إلا شكلاً من أشكال دعوته للاهتمام بأحدهم، وهو الشاعر هنا تحديداً، وصونه عن ابتدال العامة، وذلك برفعه إلى موقع النخبة المتميزة. فورا الرياسة الأدبية التي يلحظها الشاعر لدى المدوح يرمي إلى رياسته الاجتماعية كي يستفيد الأدباء - وهو ضمنهم إن لم يكن في مقدمهم - من خيراتها، فيبدو الشاعر متلهفاً لإبلاغ طلبه، أو عاجزاً عن إخفاؤه، كاشفاً عن هدفه الشعري بما لا لبس فيه. فإزاء تناقض أهل العلم مع أهل الجهل الذي يسيء إليه وإلى سواه من الأدباء لا يجد في غير التماثل بين هؤلاء والمدوح وسيلة لتحسين وضعه وأوضاعهم.

إن المعنى المدحي في هذا الجزء الأول يمضي متشكلاً في اتجاهين:

أ - داخلي، يعلن جملة متعارضات تبلغ غالباً مستوى التناقض قائمة في الواقع بين الجهل والعلم، والخصب والعقم، وأبناء القبيلة والنواقل فيها، والاجتماع والتفريق... . كان هذا التفريق والتشتت والاعتراب الذي يسم أهل الأدب والعلم هو العلة المشكو منها، بحيث يأتي التطلع إلى المدوح كي يجمعهم ويوحدتهم نوعاً من الحل أو المعالجة لها. يسر أمر الحل للممدوح ذلك التماثل أو التناسب بينه وبين أهل الأدب، مما يجعله يصونهم عن الجهلة أياً كانوا وإنما أيضاً يسمح له أن يبلغ فيهم مبلغاً رفيعاً من الجلال والعظمة لا يمكن حتى للعقود الثمينة البديعة أن تصل إليه.

لا يقدم الشاعر في هذا الجزء أي معنى مدحي مباشر، بل يكاد الطلب يطغى في ظاهره على ما عداه. إلا أنه يكفي النظر في الدلالة العامة لهذا الطلب، وخاصة في النتيجة التي يتطلع إلى تحقيقها، كما تتمثل في البيت الأخير منه (البيت 16) لتبتدى جملة من الدلالات المدحية المتضمنة فيه، وحيث يتبلور التمايز القائم في التماثل. فإذا كان المدوح ممثلاً لبقية الأدباء، فإنه يتميز عنهم بهذا الدور التجميعي الذي يناط به وحده دونهم، وبالتالي في ما يبلغه عمله فيهم. وتشير الصورة الواردة في البيت (16) إلى بعد في - أدبي في عمل المدوح، إذ يتكوّن لديه من رعايته للأدباء اجتماع النخبة منهم عنده، وبالتالي اكتسابه لأعظم وأغلى الناس على الإطلاق؛ لكنها تشير في الوقت نفسه إلى تميزه عنهم، بل إلى ارتقائه عن مستواهم كما توميء لذلك علاقة الكعاب بالعقد.

على هذا النحو تكون دعوة الشاعر للممدوح للقيام بهذه المهمة دلاً له على ما يأتيه عمل كهذا بالنفع والفائدة بقدر يتجاوز بكثير ذاك الذي يؤديه . وفي ذلك كله براعة في المديح هي في النهاية براعة في القول تخرج المعهود والمكرّر إلى حالة من الجدة والابتكار . وهي لا تقتصر على هذا الجانب .

ففي المعارضات المطروحة هنا استمرار للشكوى التي عرف المطلع مظهرها منها . إلا أنها هنا تركز على إهمال أو إجحاف يحيق بالشاعر (ويسواه من الأدباء) ، وهي بذلك تتميز عن سابقتها بكونها جماعية - كأنها بذلك تشير إلى طابعها الاجتماعي - مقابل تلك الفردية التي تتصل بالعلاقات الشخصية - العاطفية . وإذا كانت الأولى تتحسر على وصل مفقود، فإن الثانية تتطلع إلى اتصال معقول، فتكون المتأملات وسيلتها لذلك . إنها تنطلق من تمائل قائم لثمنى تماثلاً آخر، فبناء للتمائل الأدبي بين الممدوح ونخبة المثقفين يتطلع الشاعر إلى تماثل اجتماعي ينهض بهؤلاء من الإهمال والهامشية إلى الإهتمام والصدارة . فيجد الشاعر بذلك رداً على شكواه وخلصاً من معاناته، بقدر ما يجد الممدوح مجالاً لإنجاز أجماده ويلتحم بذلك المديح بالتكسب بشكل قوي، بل يشترط أحدهما الآخر، كما يشكل هذا الالتحام نوعاً من الحل لأزمة اجتماعية معيشية ومعنوية .

ب - خارجي، يقيم تعارضاً بارزاً بين القسم الأول والقسم الثاني كما يبيده التعبير هنا . ففي ما ينتهي إليه هذا الجزء الأول من تطلع إلى اجتماع الشمل والبناء الاعتصامي، ومن تشديد له على البعد الروحي والعقلي، واعتماده الصورة البيانية حيث الممدوح هضبة وحرّة يسعى فيها لتأكيد التفرد والتفوق، يبدو في تعارض واضح مع القسم الأول حيث يسود الرحيل والانقطاع والطلل المباح، والتشديد على البعد الحسي الجسدي والعاطفي، والتصوير المشهدي للمكان الضافي بالحياة الطبيعية الزاخرة بالخصب الزاهر النضر، للتعبير عن العادي أو المؤلف (مكان اللقاء المعهود الماضي) .

يتكامل هذا التشكل في الاتجاه الخارجي مع ذلك الداخلي . فالتعارض المشار إليه هنا بين القسمين يتكامل مع أوجه المعارضات المشار إليها آنفاً، فيجتمع بذلك العقل مع العلم مقابل العاطفة مع الجهل، عقم الأرض الموعودة للسكن مجازاً مع عقم العلم، مقابل خصب الأرض السكنية المهجورة حقيقة مع خصب الجهل . . إلى تميز علاقة جديدة بالممدوح مع الحاضر مقابل تذكّر علاقة قديمة بالمرأة الغائبة، ليحل علاقة الجمع بهذا الحاضر محل علاقة الفراق بتلك الغائبة في عملية تفاعل وتوالد مركبة . ويأتي التعبير عن العلاقة الجديدة في هذا الجزء مؤزّعاً بشكل متوازن بين أبيات ثلاثة أولى (الأبيات 11 - 13 تعالج التناقض القائم في الواقع بين الجهل والعلم، حيث يتميّز الأول على الثاني، وأبيات ثلاثة لاحقة تنطرق إلى

التماثل في اجتماع مأمول على يد المدوح لأهل العلم والأدب يرتقي فيه العلم على الجهل (الآيات 14 - 16).

على المستوى الأسلوبي، يؤدي هذا التوزيع بين التناقض والتماثل إلى اعتماد الطباق بارزاً في المقطع الأول أو المجموعة الأولى من الآيات (11 - 13) بين الجهالة والعلم، الولود والحائل، الجهل والآداب، يجمعهم أب ونواقل؛ وإلى الاستعانة بالجناس في الثاني أو المجموعة الثانية (14 - 16) بين مناسب ومناسب، تنظم وتنظم، الشمل والشماثل... إلخ إلى جانب وجهي البديع هذين اللذين يميزان التشكل الدلالي لهذا الجزء، تبرز أوجه البيان المختلفة لضمها معاً في اتجاه دلالي واحد، يحول دون قيام عازل أو فاصل بين مقطع وآخر في الجزء نفسه. لكن هذا التوحيد البياني للجزء يحافظ بدوره على تمييز كل من هذين المقطعين عن الآخر، في الوقت الذي يبلغ في العمل الشعري حداً عالياً من الزخرفة والاتقان. هكذا مثلاً، إذ يقوم في البيت الأول (11) طباق يؤديه التناقض بين الجهل والعلم، ويؤكد التناقض بين الولود والحائل ويكرسه التقابل بين أم الجهل الولود وأم العلم الحائل، فإن البيان الذي يأتي هنا استعارة تتمثل في التشخيص القائم في كلا الصورتين المتقابلتين، يجعل من التعبير بأكمله وحدة تنجدل فيها هاتان الصورتان كوجهين لعملية واحدة، كقطبين لمحور دلالي واحد. هذان القطبان نجدهما حاضرين على امتداد الجزء كله، وإن رجح كل من المقطعين حضور أحدهما على الآخر⁽³⁴⁾. وإذا كان في هذا الترجيح تمييز لكل منهما عن الآخر، فإن التمييز مؤدى أيضاً بيانياً حيث إن التشخيص هو المعتمد في الآيات الثلاثة الأولى، في حين يُلجأ إلى التجسيم في الآيات الثلاثة الأخيرة استعارة وتشبيهاً⁽³⁵⁾. مع كل ما في ذلك من تكثيف أسلوبي لا يعتبر تزييناً وحسب، بل هو عبارة عن استغراق في بلورة جمالية خاصة في الموشور الدلالي العام، بقدر ما هي بلورة دلالية ضمن الموشور الجمالي المعتمد، بلوغاً في الشعر إلى حد من الاتقان الاحترافي متقدم لا يقتصر على هذا المستوى وحده.

على المستوى الإيقاعي، سبق وألحنا إلى التوجه الإيقاعي المختلف لهذا القسم (الثاني)

(34) من الواضح غلبة قطب الجهل عن العلم في الآيات الثلاثة الأولى، وغلبة قطب العلم في الآيات الثلاثة الأخيرة، ولكننا نلاحظ وجود العلم في الأولى في «أم العلم» (البيت 11) وفي «دوننا» (البيت 12) وفي «ذو الآداب» (...). نواقل» (البيت 13). إن متابعة النظر في الآيات الباقية من هذه الزاوية يبدي عن وجود الجهل في «الأعوجي المناقل» (البيت 14) وفي الدلالة العامة لكل من البيتين اللاحقين باعتبار أن المشكلة (البيت 15) كما «الشماثل» (البيت 16) يعنان العلم كما الجهل.

(35) قارن أم الجهل وأم العلم وكأنهم شعوب وقبائل ويجمعهم أب ونواقل من جهة، بالمهضبة والحرة ونظم العقد والشمع الشتيت من جهة ثانية.

عن سابقه كما يعلنه بيته الأول (11)، بما يتفق مع الاختلاف الدلالي فيها متمثلاً في الانصراف من الغزل والتعبير العاطفي إلى المديح والتعبير العقلاني. والنظر في التوزيع الإيقاعي - العروضي للجزء الأول من هذا القسم يتيح التعرف إلى استقلالية في هذا التطابق القائم بين إيقاع البيت الأول والبيت الأخير فيه (11 - 16). وإلى التوازن الداخلي الذي يقوم عليه بناؤه الإيقاعي، كما يشيده بالإضافة إلى التطابق المذكور ذلك القائم بين البيتين الرابع والخامس (14 - 15)، مما ينتج عنه تبلور مقطعين متقابلين يتألف الأول منهما من الأبيات الثلاثة الأولى (11 - 13). والثاني من الأبيات الثلاثة الأخيرة (14 - 16)، على تمايز في كل منهما: للبيت الأول عن الاثنين اللاحقين في الأول، مقابل الأخير عن البيتين السابقين عليه في الثاني تبعاً. وغير خاف أن هذا التوزيع يتفق إلى حد بعيد مع ذلك الذي لاحظناه لهذا الجزء على المستوى الدلالي. فإذا كان تطابق الأول مع الأخير يكرس دور هذا الجزء في التأكيد على الانعطاف الدلالي من الغزل نحو المديح، فإن تطابق الرابع والخامس (14 - 15) في تطابقه مع بيتي مطلع القصيدة (1 - 2)، يشير إلى أهميتها المحورية على صعيد القصيدة ككل. فكان هذا التطابق يشير إلى مكانتهما فيها، وكأن بدء القصيدة الفعلي ينطلق منها. يكرس هذا الوضع الإيقاعي أهميتها الدلالية فيما يشتملان عليه من مديح، هو أول ما يذكر في هذه القصيدة، وإنما خاصة من طلب نفعي (أو تكسبي) ملازم له، يفضح الغرض منه ومن النص بأكمله. يتأكد ذلك على المستوى النحوي حيث إن المقطع الأول يفتتح بالنداء الخاص بالمدوح متميزاً بإنشائيته الطلبية الخاصة هذه عما سبقه (استفهام القسم الأول)، بينما يفتتح المقطع الثاني بالطلب مباشرة (الأمر - الرجاء) الذي هو الصيغة الأكثر مباشرة في تلبية المسعى التكسبي. كأنه بذلك يعلن الغاية ليس من النداء وحسب، بل أيضاً من الاستفهام الذي يأتي في مطلع القسم الأول.

في ذلك كله، وعبر المستويات المتعددة تأكيداً للإيقان الرفيع الذي يبلغه العمل الشعري فيما هو احترام يبين عن الاهتمام البالغ بالإخراج الجمالي لأكثر المعاني تقليدية، يخرجها عن موقعها هذا إلى مواقع جديدة تفاجيء بعدها عن المألوف وتجاوزها للمتوقع في بناء متكافئ من التكامل والتوازن العميقين.

2 - سيف الخلافة المضيء:

يمضي النص في المديح إثر الدعوة إلى الاحتضان وكأنه تفسير أو تبرير لهذه الدعوة. فللمدوح قدرة فريدة ومتميزة هي التي تفسر هذا التوجه إليه. على هذا النحو من التوالد والتهاusk تتمثل براعة المديح. إن المدوح نار ونور يجلي ظلمة الأزمان، إنه قوة وبطش في

سبيل الحق حاسم. فهو في الجانب الأول قدرة خارقة على المروءة وعمل الخير، وفي الثاني قدرة خارقة لا مثيل لها على الإصلاح والعدل. ليس هناك أدل على هذه القدرة الخارقة من الدور الذي يشغله في السلطة - الخلافة، حيث يبدو هذا الدور أساسياً وحاسماً في المبادرة فعلاً وقولاً، إلى درجة أن الخليفة يظهر وكأنه تابع له وملحق به. ورغم كونه سمحاً كريماً بصورة عجيبة يعاكس فيها الزمان والقدر، فإنه أيضاً شجاع عسير بصورة مثيرة في صونه للخلافة والدفاع عنها. ذلك أنه رغم ما تفترضه هذه المهمة من صعوبات جمة ترتبط بنفاسة السلطة وجلالها من ناحية وبالصراعات القاتلة التي تحدث حتى بين الأقارب بل بين الإبن وأبيه من أجلها من ناحية ثانية، بحيث يقصر المرء عن القيام بأعبائها، لم ينجح الممدوح فيها حيث عجز الآخرون وحسب، بل إنه تجاوز في تفوقه كل حد حين أعادها إلى تألقها بعد انحطاط اعترافها. ليس هذا التائق إلا كمالاً يعكس كمالاً في النهج والنفس ليلتحم بذلك صون الخلافة والحفاظ عليها بصون الكرامة والإيمان الذاتيين كشرط للساحة والكرم. يتجسد ذلك على أحسن ما يكون فيما أنجزه الممدوح من تجميع وتوحيد لمسؤوليات الخلافة ووظائفها بعد تبعثر نال منها، فخضعت بذلك له ومضت في ركابه.

تتمحور معاني المديح في هذا الجزء عند موضوعة مركزية تكاد لا تغيب عن أي من الأبيات فيه هي موضوعة الخلافة والسلطة الإسلامية، ومنها تستمد جميع المعاني الواردة هنا قيمتها وأثرها. وكما لاحظنا بصدد الجزء السابق (الأول) ينطلق الشاعر هنا من موقع الممدوح الاجتماعي - السياسي (الوزارة) كما انطلق هناك من موقعه الثقافي - الاجتماعي (العلم) ليركز على تعظيم شأنه، وبيالغ في التفضيم بقدره، في سعي دائم لإرضائه والحصول على عطائه. وقد سبق وعابنا حدود إثر رأي كهذا في نص تعتمد جماليته بشكل خاص على النسيج الداخلي التفصيلي لتعبيره.

إن المضي وراء هذا النسيج يُظهر أولاً أن هذا المحور الدلالي للمديح يأتي مكتملاً وداعماً لما جاء قبله. وهذا الاستكمال يعطيه دلالة خاصة. حيث إن المركز العلمي والأدبي للممدوح يأتي وكأنه مدخله إلى هذا المركز الاجتماعي والسياسي. وفي ذلك إعطاء أهمية أكبر لمعنى المديح السابق، وإنما أيضاً للنتيجة المترتبة على ذلك. فالطلب المعلن في الجزء الأول هنا يستند أساساً إلى تماثل أدبي بين الشاعر والممدوح كما أشرنا، وهو هنا يجد استكمالاً لتبريره في موقع الممدوح (في الحكم)، حيث يبدو تشكل التعبير في هذا الجزء يرجح صحة توقعات الشاعر منه. وهذا ما يقودنا إلى البحث في هذا التشكل بالذات.

يبدو هذا التشكل منتظماً هنا في وحدتين اثنتين تعطيان، رغم هيمنة الخلافة - أو

الوزارة فيها على ما عداها، تصوراً عما يريد الشاعر أن يصل إليه منها، وذلك من خلال ما يحيط هذا المحور الدلالي فيها من إشارات موحية .

في الوحدة الأولى المكونة من الأبيات الخمسة الأولى (من البيت 27 إلى 21) يتبع المديح منحى ازدواجياً ليمهد لدور الممدوح في الخلافة . فعمل الخير كما فعل البيطش يمضيان، مثلها مثل الساحة والنفار، من أجل الخلافة . لكن عمل الخير مثل الساحة يتقدمان كعمل كرم ومروءة قبل أي شيء آخر . هكذا يكون وجه أساسي من وجهي التقديم لدور الممدوح في الوزارة مرتبطاً بالمعطاء والبذل الذي يسأله إياه الشاعر . لكن المهم التكسي لا يغيب مع ذلك عن الوجه الآخر . فالبيطش والحسم والنفار جميعها هي صون للمركز السلطوي من الابتدال، وهو صنو الوجه الأول كما كان حال صون العلماء صنو رعايتهم في الجزء الأول . وليس هذا المركز على كل حال إلا مركزاً علمياً قبل أي شيء آخر . من هنا دور العقل والحكمة فيه على ما عداها، وتمييز الممدوح في ذلك عن بقية الناس، كما تبين الوحدة الثانية (التمثلة في الأبيات 22 - 29) فتبدو الرياسة العلمية شرط الرياسة الاجتماعية، وأثرها عظيم وباهر، إن لم يكن أسطورياً . وإذا كان المركز العلمي - الاجتماعي للممدوح هو الذي يبرر التوجه إليه وطلب الرعاية منه، فلأن إنجازه الأسطوري هذا يقوم بالتحديد على التجميع والرعاية كما توضح هذه الوحدة الأخيرة، فالكمال الذي انتهى الممدوح إلى إنجازه هو كمال في الضم والتأليف على أحسن ما يكون من الإلتقان والتنظيم، وبالتالي من الفعالية . ضمن هذه الرؤية لا تشكل أعمال الخلافة إلا جزءاً يسيراً من نشاط الممدوح، أو من المجال الحيوي لفعاليته التأليفية . وبذلك يبلغ المديح هنا حداً من المبالغة يجعل عظمة الممدوح تتجاوز بكثير حدود الوزارة التي يتولاها أو الخلافة التي يرعى شؤونها .

هكذا يندرج السياق الدلالي في هذا الجزء الخاص بالمديح في تسلسل لوحدين صغيرتين أو مقطعين فيه، يتولد الواحد منها من الآخر في سعي نحو التوحيد أو التفصيل مترايد الدقة . وينتهي هذا الجزء إلى حيث تركز الطلب في الجزء الأول، وبصيغة مماثلة لتلك التي انتهى إليها فيه : إلى التجميع والتوحيد في صيغة الضم والتنظيم، دون أن يكف الثاني عن التوازي والتكامل مع الأول في سيرورة هذا التسلسل . ليس أدل على ذلك من هذا التماثل بين دعوة الممدوح ليجمع الأدباء المتفرقين، كأفضل مما تنظم الكعاب العقود، وبين جمع الممدوح لأموال الخلافة المبعثرة كما يجمع الصانع القصب .

على هذا النحو لا تأتي الإشادة بالدور السياسي - الديني للمدوح عضوية أو اعتبارية . فالدور الذي قام به هنا هو نفسه المطلوب منه بالنسبة للأدباء (والشاعر) : التجميع والرعاية .

فإذا كان الأمر الصعب (الحلافة) يأتيه بمثل هذا اليسر، بل لا يشكّل إلا جزءاً بسيطاً من مآثره، ولا يشغل إلا جانباً ضئيلاً من طاقاته، فإن الأمر اليسر (الرعاية) يصبح شأنًا مفروغاً منه، والأيسر (العطاء) أمراً أكثر من مضمون. ليس صدفة إذن أن يبلغ المديح هذا الحد الاستثنائي في المبالغة، حيث تبدو الوزارة أو شؤون الحلافة (في البيت 28) مهمة بسيطة من مهام المدوح، لأن في ذلك تهويًا كبيراً في المقابل في ما يطلبه منه ويقصده من أجله. فيتأكد على المستوى الدلالي التفصيلي ما أشرنا إليه على المستوى العام من اندراج القصيدة في تبرير المسعى الطلبي فيها.

وإذا كان الجزء الأول في مضمونه وإيقاعه.. يؤكد أهميته الأولى وصدارته الدلالية، بحيث يشكل بديلاً للمطلع، فإن الجزء الثاني في ارتباطه بالأول يعتبر بلورة واستكمالاً له. كما يبدي في الوقت نفسه عن تعارض مع الجزء الثاني من القسم الأول ليشكل المقابل الدلالي لهذا الجزء الأخير، بقدر ما هو بديل إيجابي لسلبه، وليعلن في هذا التميز الدلالي تميزاً في المديح، كأن صدارة هذا المديح تتمثل فيه بالذات وليس في الجزء السابق عليه. فتتكرس بذلك وحدة النص الدلالية في تناميا وحيويتها المتقنة الإخراج، إذ يتم ذلك كله على رهافة في التأليف وانتظام في الوحدات الدلالية وتجاوبها وتضافرها. فالطرح الدلالي العام القائم في هذا الجزء يعتمد على تجمع عناصر معنوية تتعارض مع تلك التي يمكن ملاحظتها في المطلع. يتولد عن ذلك جملة من المقابلات بين الشهاب والسحاب والسيف والرمح، البيض والسمر، النار والماء، الوجه الطلق وظل الدموع، السنا والليالي... بحيث تركز التعارضات فيها على الجانب المضيء - الخَيْر هنا مقابل الجانب المظلم - المسيء في القسم الأول. فتكتمل على هذا النحو ما بدأه الجزء السابق (الأول)، وتؤكدده خاصة في ما تخلص إليه من تشديد على الجمع والضم إزاء الغياب والتفرق اللذين يهيمنان على التعبير في القسم الطلبي (الأول)، لتعلن من خلال ذلك هذه المراهنة العميقة على الدور الذي ينتظره الشاعر من المدوح. مما يؤكد - مرة أخرى - لبراءة المديح، وسفور التكسب عن وجهه بطرق عدة. وفي ذلك براعة في التعبير تهب جماليته حسناً إضافياً، علماً أن الجمالية نفسها تقوم خاصة في ذلك التكافؤ الذي يرسم في بنية النص من خلال توازن وتجاوب المستويات المختلفة المكوّنة له.

ضمن هذا المنظور، نتابع على المستويات الأخرى التوزيع الخاص الذي لاحظناه لهذا الجزء على المستوى الدلالي. وأول ما يلفت انتباهنا على المستوى النحوي وجود بيت (22) متميز عن بقية الأبيات في كامل هذا الجزء، من حيث اقتصاره على الجمل الاسمية وحدها وعدم احتوائه على أي فعل، خلافاً لما هو حاصل في جميع الأبيات الأخرى. ولا يقتصر هذا البيت نحويًا على هذه السمة الفارقة، إذ نجد أنه يتم فيه استعمال للضمائر مختلف عن ذاك

السائد قبله، حيث يعم اعتماد ضمير المخاطب المفرد المذكور بينما تقوم الجملة الرئيسة التي تفتحه على اعتماد ضمير الغائب المفرد المؤنث. مما يجعل هذا البيت نحويًا يعلن حدًا فارقًا بين مقطعين ينتمي هو إلى ثانيهما حيث يظهر ضمير الغائب المفرد المؤنث كذلك في البيت الذي يليه (23)، مستنداً إليه في الجملة الرئيسة. هذان المقطعان هما ما سبقت ملاحظتها على المستوى الدلالي: الأول متمثل في الأبيات الخمسة الأولى (17 - 21)، والثاني في الأبيات الثانية التي تليها (22 - 29).

عروضياً، يشكّل اعتماد البيت الأول في هذا الجزء (17) لإيقاع جديد علامة فارقة تعلن انعطافاً جديداً عما سبق، يماثل ذلك الذي لاحظناه بصدد البيت الأول في الجزء السابق (11)، بما يتلامم مع الدور المماثل له الذي يؤديه، فيما هو يكمل ما بدأ معه. وبين التدقيق في إيقاع هذا الجزء عن تشكّل داخلي خاص به. إذ يحظى إيقاع البيت السادس فيه (22) بوضع متميز، فهو يتردد ثلاث مرات، وهو الوحيد الذي يقيم متطابقين متجاورين في هذا الجزء (25 و 26) معلناً خصوصية هذا البيت الإيقاعية هنا المتلازمة مع خصوصيته النحوية والدلالية الملاحظة أعلاه، والتي تجعل الجزء يعرف بناءً لذلك توزيعاً إيقاعياً بين وحدتين فيه، تضم الأولى الأبيات الخمسة الأولى (17 - 21) والثانية الأبيات الثانية اللاحقة (22 - 29). فعدا التمايز الذي يقيمه البيت (22) بين الأولى والثانية، فإن الوحدة الأولى تعرف انتظاماً خاصاً قوامه هذا التفرد الغالب عليه. ففي حين يبقى البيت الأول (17) دون إيقاع مطابق له في هذا الجزء، بالإضافة إلى ما قبله، فإن البيتين الأوسطين فيما يليه (19 و 20) يتفردان بدورهما في هذا القسم الثاني بأكمله، بينما يعرف البيت السابق عليهما (18) تطابقاً مع سابقه في القسم الأول (8)، ومع آخر في المقطع الثاني أو الوحدة الثانية هنا (28) - على وتيرة لاقية للنظر - ويعرف اللاحق عليهما (21) والمتفرد بدوره عما سبقه تطابقاً مع أحد أبيات الوحدة الثانية أو المقطع الثاني (27) لتلتئم بذلك الوحدة الأولى بأكملها، رغم التفرد الطاعني عليها، بالوحدة التي تليها.

في هذه الوحدة (الثانية) يقيم إيقاع الأبيات المتطابقة توازنها الداخلي إذ يحل البيتان المتعاقبان منها (25 و 26) في وسطها ليتوزع عدد مماثل من الأبيات (ثلاثة) قبلها وبعدها. وبينما يقيم الأول من تلك السابقة عليها (22) تطابقاً معها، ويتفرد اللاحقان عليه في هذا الجزء (23 و 24)، بل إن الأول منهما يتفرد في النص إطلاقاً⁽³⁶⁾، يقيم الأولان من تلك

(36) إذا كان للجزء الثاني من القسم الثاني من صلة بالجزء الثاني من القسم الأول فإن مجيء هذا البيت (23) المتفرد على مستوى النص في الأول منها يتجاوب مع مجيء بيت مماثله من حيث التفرد على مستوى النص في الثاني منها (البيت 6) لتأكيد هذه الصلة.

اللاحقة عليهما (27 و28) تطابقاً مع الوحدة السابقة (21 و18) ويتفرّد الأخير (29) في هذا الجزء. فلا يحول التفرد هنا دون التلاحم، ولا يلغي التطابق سمات التفرد وإن كان يميل إلى استيعابها. ربما كان في هذه الميزة الإيقاعية، كما في التفاوت الحاصل بين الوحدتين المكونتين للجزء بأكمله، أثر للتركيز الدلالي على المدح والبعث الخاص الذي يحظى به موضوع الخلافة فيه، أو تلاؤم معه. وهو على كل حال يتجاوب مع التوزيع الذي يبيئه المستوى النحوي الذي سبق تناوّلنا له. ويأتي التشكّل الخاص الذي ترسمه أسلوبية التعبير لترفد هذا التلاؤم بمزيد من القوة والتناسك.

فعل هذا المستوى أيضاً يبرز التوزيع الذي سبقت ملاحظته على المستويات الأخرى في وحدتين متمايزتين. تتمثل الأولى في الأبيات الخمسة الأولى (17 - 21) حيث تؤدي الكناية المزدوجة («مؤرث نار».. و«قائل فصل...») الواردة في البيت الأوسط (19) محور توازنها الذي تقوم على جانبيه الصور البيانية، حيث يعتمد التجسيم والتشخيص في البيتين السابقين عليه («أنت شهاب».. و«سيف».. و«هزك الحق»..). كما في البيتين اللاحقين («صد الزمان بوجهه».. «عن أيّ عليّ تناضل»..) والذي يشترك مع البيتين المحيطين به (18 و20) في احتوائها جميعاً على الطباق (وهي تباعاً: لم تنض.. ولا حملت.. وقاتل.. وفاعل.. وصد بوجهه.. وطلق..) فتبلغ هذه الوحدة درجة عالية من التكثيف الأسلوبي ومن الانتظام المتوازن الذي يميزها عن الوحدة الثانية الخاصة بالأبيات الثمانية اللاحقة (22 - 29). في هذه الأخيرة يعم الطباق جميع الأبيات تقريباً (ربما كان البيت الأخير هو الاستثناء الوحيد بينها الذي لا يحتوي على طباق) ويبرز الجناس (كما في شغلته.. وشاغل.. وكمالاً.. وكامل.. وأعمالها.. وعامل..) إلى جانب المقابلة (في قوله: فضلت عن رأي غيرك.. ورأيك عن جهاتها فاضل، وخطب جليل شغلته.. في دونه شغل لغيرك..) واعتقاد التشبيه مع أداته (كأن انتصاف اليوم أصائل..)، وكما ضم الأنايب عامل) على خلاف ما هو قائم في الوحدة السابقة. ولا تخفى مع ذلك الصلة التي يقيمها الطباق بين الوحدتين، مضيفاً إلى البعد البياني الجامع عنصراً داعماً يؤازره ويؤكد التواصل القائم بينهما، وبين هذا الجزء بأكمله وذاك السابق عليه.

يبقى هذا الجزء (الثاني) متميزاً بالاستغراق المترادف في الأداء التصويري على دقة وتكثيف وتعدد من العناصر والمقومات البلاغية، بحيث يشكل التعبير، وأحياناً الجملة الواحدة، حشداً مزدحماً منها قد يفيض حيناً عن البيت الواحد (17 - 18) أو يكتفي غالباً بجزء منه أو شطر (17, 19, 20, 22...). إن النظر في أي من هذه التعابير ينبيء عن بالغ

التعقيد الذي يبلغه في زخرفة تبدو وكأنها مقصودة لذاتها، أو كأن الجهد منصب فيها لبلوغ متنهاها. فالتعبير الأول يقوم إلى جانب الاستعارة أو التشبيه البليغ في إسناد الشهاب إلى ضمير المخاطب العاقل بإخراج الممدوح من بُعد الإنساني - الأرضي إلى بعد سايوي - كوني، لكن إلحاق شبه الجملة بهذا الإسناد يحدّد الدور الذي يؤديه، فيبرز الممدوح كمفرض للنكبات ومخلص من الشدائد، ويأتي النعت أخيراً ليعطي لهذا التفريغ بعداً قوياً قاهراً لأيّ مانع مهما بلغت مقاومته، مُزجياً أي كرب مهما بلغت شدّته. ومن اجتماع هذه العناصر المختلفة من الاستعارة المزدوجة والنعت الخاص بالأولى منها تتولد صورة ذات دلالة موحية بالمعنى أكثر مما هي دالة تعييناً عليه. في هذه الدلالة الإيحائية تتجمّع عناصر أسطورية علوية - إلهية، تتعدى فيها أعمال الخير والمروءة المعطيات الحسية والواقعية لتبلغ في تصدّيها الخارق لمصائب الدهر بعداً يتجاوز القضاء والقدر ليحقق سلطة الخير المطلقة على الوجود، بما يعنيه ذلك من تجاوز لكل الظروف والدينية التي بقيت فيها سلطة الشر قائمة (عبر الظلام أو أهريمان أو الشيطان...). لكن التعبير لا يتوقف عند هذه الجملة، بل يشتمل أيضاً على تلك التي تعطف عليها (وسيف...) مع متعلقاتها، حيث يمضي وصف السيف المسند إلى الممدوح لا ليضيف إلى مضائه عناصر حسية تعرفه وتحدده، بل ليمنع أي تصوّر حسي أن يحمق بهذا السيف الماضي القطّاع، أو ليخرجه من معلوم البشر وتجاربهم (لم تعرف مثله كف أو حمالة) فيرفعه بذلك من الواقع إلى الخيال والوهم، خاصة حين يجعل الحق دافعاً أو محرّكاً له. كأنه في النهاية مشرع في يد الحق يقطع به الباطل ويرسي قانون العدل.

على هذا الأساس من التصور الأسطوري يستقيم التعبير الموحى الأول حيث يجتمع عمل الخير والمروءة مع فرض الحق والعدل في وحدة معنوية يبدوان فيها وجهين لعملية واقعية واحدة. وعلى قاعدة ما ينتهي إليه هذا التعبير تشاد بقية التعابير التي تليه في بناء متناسق بديع الزخارف، ومن خلاله تفهم أبعادها الدلالية التي تعرف في المبالغات التي تندفع فيها هذا المزيج من الأسطوري والواقعي في آن. ففي البيت التاسع عشر تأتي الكناية ملتحمة بالطباق لتوحي بهذا المزيج بالذات، معلنة بذلك دوراً للمدوح يتجاوز فيه الخلافة ويتصل بالخارق والإلهي المطلقين. لذلك يقيم الممدوح زمانه الرغد والسعيد في هذا الانبساط الدائم بديلاً لزمان النوائب والصروف. فيكون التشخيص تعبيراً ليس عن حيوية الزمان أو إنسانية فيه بل عن عظمة في الممدوح يقاس كل وجود على هيئتها وكيانها، ويحضر الطباق معه في الصورة الواحدة ليبيّن بالغ التجاوز الذي تمضي فيه عظمة الممدوح لأي عظيم آخر ولو اتخذ وجه القدر. لكن التعبير لا يكتمل إلا في قيام هذه الصورة بأكملها مقابل صورة أخرى تعلن حمية الممدوح في الدفاع عن الخلافة... هذا التعبير المكتمل في بيت واحد يستعيد ويؤكد البعد

الأسطوري - الواقعي للممدوح إذ يجعل غضبه للخلافة ينهض في زمان انبساطه بالذات،
ليعلن في هذه المفارقة بعضاً من خوارقه ومعجزاته، معجزات لا يكف هذا الجزء عن متابعتها
بصدد الخلافة بالذات.

ليس توقفه عندها كثرة معنوية للجزء بأكمله إلا لأنه فيها يتجسد البعدان الديني
والدنيوي، الأسطوري والواقعي، الإلهي والإنساني. لذلك فإن تحديده لها لا يقوم إلا
بإعلان عجزه عن الاستحواذ عليها، واعترافه بهذين البعدين المتناقضين فيها، واللذين
يفسران الانقلاب الذي تحدته في البشر والذي تحاول الطباقات الإشارة إليه بقدر ما تحاول
الإشارة إلى كون من يتولاها (الممدوح) هو من طينة تفوق طينة البشر. هذا التفوق عقلائي،
يؤديه ذلك التجسيم المقابل لتجسيم آخر فيها هو طباق له (البيت 23) بحيث يجعل بين
صاحبه وبين البشر شأواً لا يمكن تصوّر إدراكه. وهو يتكرّر (البيت 24) كتأكيد على استحالة
هذا الإدراك، بقدر ما هو تأكيد على تحقيق الممدوح للمستحيل. وهذا المستحيل هو ما تؤديه
الصورة المجازية المركبة التي يأتي التشبيه لبلورتها في البيت 25 الذي اختلف الرواة
والشارحون في هاء ضمير شطره الأول، وقد يختلف آخرون في إسناد شطره الثاني، ولكن
الاتفاق حاصل على الخارق الذي يدل عليه البيت، ذلك أن ما يأتيه الممدوح من عمل
أسطوري يقصر العقل الواقعي عن فقهه. ومثل ذلك هذا الطباق القائم في أساس الصورة
التالية، والذي لا يعبر عن تناقض إلا في مقاييس هذا العقل، بينما يعبر هو عن تماثل في
مفهوم الممدوح، مؤكداً باستمرار تفوقه العقلي. وهذا التفوق بالذات هو محور التعبير اللاحق
(في البيت 27 وما يليه). وإذا كانت الصورة المجازية فيه تستند إلى الحسي لتوضيح الخارق
الذي يأتيه تدبير الممدوح، دون أن تبلغ المراد بالاستعارة، فإن التشبيه يضيف إليها توضيحاً
أو إبانة عن سهولة إنجاز الممدوح لأعماله فيزيد من خوارقه ومعجزاته. ولا يقوم التشبيه
اللاحق (في البيت 28) إلا بتأكيد هذه الأسطورية ومضاعفة مداها، حتى ينتهي التعبير إلى
صورة جديدة تبن في الانتقال الذي تجعله للمسند إليه فيها، من الحسي الذي عرفه في
الصورة المجازية الأولى إلى الحيواني، من ذلك الأثر الخارق الذي يحدثه الممدوح في كل ما
يسه ويجعله يستجيب لمشيئته.

يبقى أخيراً أن نشير إلى أن هذا التركيز على البعد العقلائي في الفعل الأسطوري يتجاوب
مع التركيز على البعد العلمي أو الأدبي الجامع بين الممدوح والشاعر، والذي شكّل منطلق
المديح ومحوره الأساسي في الجزء الأول. وليس التشبيه الذي يتمثل فيه فعل الممدوح في
الوحدة الأخيرة من الجزء الثاني (البيت 27)، والمماثل لذلك الوارد في البيت الأخير من الجزء
الأول (البيت 16)، إلا واحدة من الصيغ المتعددة التي تؤكد على المستوى الأسلوبى استكمال

الجزء الأول في الجزء الثاني وتضافهما معاً في إقامة المنطق الطلبي في صلب المنطق المدحي وشبكها ببعضها في تداخل لا فكاك منه⁽³⁷⁾.

3 - قلم المعجزات الفصيح :

إذا كانت الرسائل علامة على تجاوب النواحي والولايات مع حكم المدح وولائها له، وبالتالي علامة على استتباب الأمر له ونجاحه في المهام التي تولها كما فصل النص ذلك حتى الآن، مما يعتبر مآثرة عظيمة كان رأيه الفاضل أساساً وراء بلوغها، فإن توقف الشاعر عند ميزة الكتابة (القلم) لديه هو استجلاء لتلك المقدرة الرفيعة والمنفردة التي ارتقت لتصبح من رفيع الصنائع ورفعت صاحبها إلى أعلى المناصب، يستكمل فيه ما سبق إيرادها في الجزء الثاني من مديح خاص بالعقل الذي برز المدح فيه سواء من الناس وتمثل هناك بحسن الرأي والتدبير، فيتابع فعاليته في ميدان من أكثر الميادين تقدماً ثقافة وأدباً، على انتظام في سلك المعنى وصوغه متناسك ومتسلسل، بقدر ما هو في الوقت نفسه استكمال للدعوة القائمة في الجزء الأول والتي اعتمدت بالتحديد على هذا الجانب الثقافي والأدبي لتبرر طلبها الخاص باهتمام المدح بالأدباء ورعايتهم، على رهافة في الحبكة وشبك نواحي التعبير المختلفة ببعضها راقية. وإذا كان في وضع المدح وزيراً وكاتباً ما يبرر هذه الوجهة في التعبير، فلإن الملح لا يكتفي باستنهاض هاتين الميزتين، بل يمضي إلى جعلها معاً باتجاه غرضه التكميلي،

(37) لا يحول ما جرى توضيحه بصدد هذا الجزء (الثاني من القسم الثاني) دون ملاحظة تشكل دلالي وعروضي ونحوي مختلف. فبالإمكان مثلاً ملاحظة توزيع عروضي ودلالي متمايز لا يخرج عن الواجهة ذاتها وإن تشكل بصورة مختلفة تنهض فيه الأبيات الثلاثة الأولى لتعبر عن علاقة المدح بالخليفة، يعلن البيت 19 بمفاهمه من عدد زحافات عال نهايتها؛ فتميز عن الأبيات الستة اللاحقة التي تعبر عن مآثر المدح بصدد الخلافة، وحيث يشكل البيتان 22 و 25 دعائمي بثانها التميز؛ وتأتي إذاك الأبيات الأربعة الأخيرة محددة وسائله في ذلك، وكأنها تستلهم إيقاعاً الوجدتين السابقتين إذ يجدها البيت 26 المطابق للبيتين المتطابقين 22 و 25 بداية مقابل البيت 29 وقوامها البيتان الأوسطان المطابقان لما سبق وروده في كل من الوجدتين السابقتين (البيت 27 مع 21 والبيت 28 مع 18). في هذا السياق يتجه التشكيل النحوي إلى تأكيد التوزيع ذاته عبر التوجه إلى المخاطب مباشرة بالضمير المنفصل (البيت 17) وبالضمير المتصل (البيت 20) وبالضمير المستتر - بعد فعل مضارع - (البيت 26). في هذا التشكيل يكون المدح كمنسند إليه، كمرجع وملجأ، وحدة الجزء العامة.

على المستوى الأسلوبى يتكرس خط المبالغة في التعبير العام، وتبدى في صيغ يسودها المجاز بالاستعارة في الوحدة الأولى، والطباق في الوحدة الثانية، وتشتمل على هذا وذاك وغيرها في الثالثة. وتناسب هذا التوزيع مع ذلك الملاحظ على المستويات السابقة بارز بوضوح. قد يتم التوصل إلى تشكيل آخر أو تشكيلات أخرى تتمتع بالتناسك والتكافؤ وتعبر، على تفاوت، عن جمالية النص المركبة وعن كثافتها وغناها.

منبدياً في ذلك عن براعة في احتراف المهنة فائقة. فالإشادة بالقلم المجلي هي - كما كانت حال الإشادة بسياسة المدوح التأليفية في الوزارة أو الخلافة - تشديد على موقعه المبرز بين أهل العلم والأدب، وبالتالي على دوره المقترض في رعايتهم يبرر ويؤكد طلب الشاعر المشار إليه سابقاً (في الجزء الأول).

قد ينمّ توقف الشاعر المطول عند هذه الميزة الخاصة بالمدوح وإبلاؤه إياها اهتماماً خاصاً عن تعظيم لها وللعلم والثقافة عامة، يبدو في النهاية وكأنه تقديم للأدب على السياسة أو الموقع الاجتماعي - السياسي، حتى لتكاد الخلافة نفسها تترأى من خلال هذا الطرح وكأنها تستمد عظمتها منه. والشاعر لا يخرج في ذلك كله عن المديح والطلب المرتبط به، على أساس أن الزعامة الأدبية التي يدعو المدوح إلى القيام بأعبائها متوفرة حكماً لديه باعتبار أنها شرط الزعامة السياسية، والعكس غير صحيح⁽³⁸⁾. فيلتحم لديه في هذا الجزء (الثالث) تعظيم الأدب - والذات ضمناً - إلى جانب المدوح، مع توريث هذا الأخير بالطلب التكسيبي الذي يشكل التجاوب معه وتحقيقه شرطاً لا بد منه - في منطق المديح القائم هنا - لاستحقاقه ليس معاني المديح وحسب، وإنما أيضاً منصبه السياسي - الاجتماعي نفسه.

يبدأ الشاعر بتأكيد تفوق المدوح المطلق في هذا المجال (الأدبي). «والقلم الأعلى» اختصار مكثف لهذا التفوق الذي تأتي متابعته نوعاً من الكشف لمزاياه الاستثنائية. فهو العنصر الذي يصبح، باختصاره وقائع العظمة فيما هو يجمع بين أربابه، أقرب إلى الرمز منه إلى الواقع. والتوقف عنده توقف عند هذا البعد الرمزي الذي يشمل الشاعر بظلاله. فالقلم يقدم في معطاه الكلي المجمل كقدرة مطلقة تحقق على يد صاحبه (المدوح) ما يريد، على إتقان وحسم فائقين، فينال غرضه في صميمه وفي تفاصيله معاً. يكون القلم الأعلى في هذه القدرة الاستثنائية وجهاً من وجوه قدرة المدوح الأسطورية، وتأتي متابعة تفاصيلها تبعاً لقسمات هذا الوجه بالذات.

أول ما يتعرض الشاعر له ضمن هذا المنظور ذو علاقة مباشرة بالسلطة - والخلافة - متبعاً بذلك ما بدأه بشأنها محافطاً على انتظام في المعالجة والتعبير. فيبدو القلم في ما يشه من نجاوى وأفكار شرط انتظام أمر الحكم أو هو شرط عظمته وأهنته، وفي الحالين هو شرط وجوده. لكن للقلم قدرة أهم وأخطر مما يبديه بصدد السلطة فهو يتحكم بالوجود بأكمله موتاً

(38) ضمن هذا المنظور قد تجري قراءة مختلفة للجزء الثاني تعتبر سيف الحق ونصل الأبيض المنفرد من الصور البيانية التي لا تحيل إلى معنى القوة والبطش بقدر ما تحيل إلى معنى الكتابة والأدب. مثل هذه القراءة تحفظ للنص مستوى أرقى من التباسك والانصهار الداخلي الحيوي في كليته وفي أجزائه.

وعذاباً من ناحية، وحياة ولذة من ناحية ثانية، بما يحمله من سم قاتل أو غسل شهبي . إنه يجسد بذلك المقدرة الأسطورية للممدوح في بلوغ المشيئة الإلهية المطلقة، وفي اشتغاله على التناقض في وحدته الخالصة . إلا أن هذا الجانب الأخير (التناقض في الوحدة) لا يقتصر على فعل الحياة والموت الذي يؤديه، بل هو قائم كذلك على مستويات عدة تسعى الأبيات اللاحقة في تفصيلها . فهو موجود في تلك العلاقة التي تنهض بين كينونة فعله وبين مخلفات هذا الفعل أو مضاعفاته، بين الشيء اليسير والمحدود الذي يأتيه في الكتابة وبين هذا الانتشار العظيم والحضور القوي لأثره وقيمته في الكون بأكمله؛ كما هو موجود في كيانه نفسه إذ لا يبين كلامه ساكناً أو مهملاً لكنه يأتي فصيحاً واضحاً في حركته وكتاباتة، فإذا به عنصر أعجوبي يحمل التناقض في داخله كما يطلقه خارجه . ومن خلال هذا التناقض يشار إلى القائم الفعلي بالمعجزات: الكاتب أو الممدوح نفسه صاحبه، الذي ليست أعمال القلم هذه إلا بعض تجلياته الأسطورية . لذلك ينصرف التعبير إلى ملاحقة هذه العلاقة بين الكاتب والقلم، انصراف هو استغراق في طرافة التعبير وجماليته بقدر ما هو توضيح للفكرة الكامنة فيما ورد قبله . فيصف القلم في إداثه - متحركاً أو راكباً - حيث يوضح أن ما يمده بهذه الفعالية الأسطورية هو بالتحديد هذا الفكر، فكر الممدوح الذي باتصاله به يعطيه هذه المقدرة المطلقة الرهيبية والتي تتجاوز الواقع والمعقول إلى تخوم الخيال واللامعقول . ثم يتغمس مجدداً في تفصيل هذا الإداء في عملية الكتابة مؤكداً باستمرار التناقض الحاد بين الفعل والفاعل، ملاحقاً بذلك أوجه الغرابة والإدهاش المختلفة .

يتشكل التعبير على هذا النحو استغراقاً في متابعة تفاصيل هذه المعجزات، فتلاحق الأبيات وكأنها تفسر بعضها بعضاً، فيما هي تكمل بعضها البعض . نبتين فيها انتظاماً في الوحدات الدلالية بناء لذلك يأتي فيه البيت الأول والعام (30) مشكلاً وحدة أولى، تليه الأبيات الأربعة اللاحقة التي تمثل تفصيلاً له مشكلة وحدة ثانية، بينما تؤلف الأبيات الخمسة الأخيرة (35 - 39) التي تأتي بدورها تفصيلاً لما سبق الوحدة الثالثة . وقبل المضي إلى البحث عن مدى تناسب وتكافؤ هذا التوزيع الدلالي مع المستويات الأخرى نشير إلى أن علاقة هذا الجزء بسابقيه قوية، حيث أن هذا التركيز على الكتابة ودورها الأسطوري يرتبط مباشرة بما أورده الجزء الثاني حول فضل علم الممدوح في استعادة الخلافة لمجدها المتألق، هذا العلم الذي شكل محور وقاعدة التعبير في الجزء الأول⁽³⁹⁾ .

(39) إذا كان هذا الجزء يأتي استكمالاً لما قبله، فهو يأتي أيضاً مقابلاً - متعارضاً مع الجزء الثالث القائم في القسم الأول، إذ أن محور العقل الذي يأتي بالمعجائب تطعيه القنا ويقوض الجحافل يتعارض مع الهوى الذي يضل العقل ويمائل بين رماح القوم ورشاقة الأجساد؛ وهو المرتبط بالصنعة البشرية الراقية (القلم أو =

على المستوى الإيقاعي يلحظ أن البيت الأول من هذا الجزء (30) يتطابق مع البيت الأخير من الجزء السابق (الثاني)، وفي ذلك دلالة على العلاقة القريبة والمباشرة التي تربطه به والتي تتفق مع ما لاحظناه دلاليًا حول العلاقة بين الكتابة (المراسلة) والقلم . . بيد أن علاقة التطابق الأقوى هي تلك التي تقوم بين هذا البيت (30) والذي يليه (31) من جهة مع البيتين الأخيرين من الجزء نفسه (38 و39)، وهو تطابق يمثل علامة فارقة قوية تعين حدود هذا الجزء بأكمله بقدر ما يساهم في تحديد تشكله الإيقاعي الداخلي.

فالأبيات العشرة التي يتألف منها الجزء المذكور تتوزع بناءً لذلك إلى مقطعين حيث تلتحق الأبيات الستة الوسطى بالتساوي بهذه الأبيات المنطابقة، فترتبط الثلاثة الأولى منها (من 32 إلى 34) بالبيتين الأولين (30 و31) والأبيات الثلاثة الأخيرة منها (من 35 إلى 37) بالبيتين الأخيرين (38 و39). هذا التوازن النسبي قد يكون أشد تماسكاً إذا ما اعتبرت حركة الهاء المخفوضة في «عليه» (في البيت 35) مشبعة ليصبح البيت الذي ترد فيه متطابقاً إيقاعياً مع البيت 37 ويتكرس بذلك تميز المقطع الثاني عن المقطع الأول.

يمكن المضي أبعد من ذلك في ملاحظة التطابق بين البيت الثالث في المقطع الأول (32) والبيت الثاني في المقطع الثاني (36) وهو تطابق يشير إلى تمايز التوازن القائم في الأول عنه في الثاني، حيث أن اجتماع هذا البيت (32) مع البيتين الأولين (30 و31) يشكل وحدة مقابلة لاجتماع البيت (37) مع البيتين الأخيرين (38 و39) المطابقين للأولين. ويبقى التطابق الذي يقيمه البيت الأول (30) مع السابق عليه يميزه داخل وحدة الجزء الكلية ووحدة المقطع الأول الجزئية. وفي هذا التمييز كما في التشكل العام للجزء وتشكل مقطعيه يبلغ المستوى الإيقاعي لهذا الجزء حداً عالياً من التجانس والتألف مع مستواه الدلالي.

على المستوى النحوي تبدو الصيغ التركيبية المعتمدة متناسبة إلى حد كبير مع التحول الدلالي في اتجاهه العام نحو التفصيل، كما يعبر عن ذلك اعتداد حرف جر مع ضمير المخاطب المتصل (لك) في بدء البيت الأول (30) وبدء البيت الأخير بضمير المخاطب المتصل على تمايز عن الأول (رأيت) تعبيراً عن وحدة هذا الجزء الكلية بأكمله. وفيما تعلن صيغة الجر المعتمدة في البيت الأول وحدة خاصة بها، تأتي صيغتا الجر المطابقتان لها والتميزتان باعتداهما ضمير

= الكتابة) والإنتاج الثقافي المتميز في اجتماع التناقض فيه عن الطبيعة يتعارض مع الارتباط بالجسد الإنساني (الأثوري) الذي يماثل بين الإنتاج الصناعي المختلف، كما يماثل بينه وبين عناصر الطبيعة.

الغائب المفرد المذكر في تطابقها في البيت 31 و 33 لتنضبا إليها مع ما يتبع كلاً منهما من بيت لاحق عليه في توازن متناسك. يزيد هذا التماسك صلابة كون الضمير المفرد المذكر المجرور في البيتين المذكورين وارداً أصلاً في البيت الأول ومتفرعاً منه، بما يتناسب مع خصوصية هذا البيت من ناحية، وترابط المقطع من ناحية ثانية وتلاؤم ذلك كله مع التفصيل الدلالي والإيقاعي الملاحظ سابقاً من ناحية ثالثة. كما تأتي الصيغتان الشرطيتان المتطابقتان في البيتين 35 و 37 ليكونا وحدة ثالثة تجدد في جواب شرط كل منهما كما في التضمين الذي يسم الأبيات الخاصة بكل منهما توازنها الخاص، معبرة بدورها في ورود الصيغة ذاتها في الوحدة السابقة (إذا استنقطته . . .) عن تفرعها عنها بما يتناسب كذلك مع التفصيل الدلالي والتجاوب الإيقاعي القائمين فيها. وهي، إذ تضم كذلك ضمير الغائب المفرد المذكر وتنتهي إلى ضمير المخاطب المفرد المذكر كما أشرنا، تؤدي نحويًا ما سبق ولاحظناه عرضياً ودلاليًا. بالإمكان القول إن التشكل التعبيري يعرف على المستوى النحوي هنا تعادلاً وتكافؤاً مع ذلك الذي تبدي على المستويين الدلالي والإيقاعي على درجة فائقة من التناسب تسم الجزء كله بجسالية إبداعية رفيعة⁽⁴⁰⁾.

(40) بالإمكان تمييز توزيع دلالي - إيقاعي - نحوي آخر لا يقل تناسقاً وتناسباً عما لاحظناه حتى الآن. فإذا كانت وحدة الجزء العامة تقوم دلاليًا حول الإشادة بقلم المدوح، أو كتابته باعتبارها عملاً أسطوريًا يأتي بالمعجزات، فإن هذه الأسطورية تأتي للسلطة والحكم أو الملك بالعظمة والنفوذ. ولكنها أيضاً تأتي بالبخارق والعظيم الشأن إطلاقاً، فيتوزع بناءً لذلك إلى مقطعين: أول خاص بعظمة الملك (في الأبيات الأربعة الأولى: 30 - 33) وثانٍ خاص بسلطته وعظمته المطلقتين (في الأبيات الستة اللاحقة: 34 - 39). يتفق هذا التوزيع مع توزيع إيقاعي يعتمد الإزدواج ركيظه التوزيعية بناءً لذينك الزوجين المتطابقين من الأبيات اللذين يعنيان حدود وحدة هذا الجزء الإيقاعية ككل (30 - 31 و 38 - 39) بحيث أن البيتين الأولين يؤلفان مع البيتين اللاحقين اللذين يبدأان ببيت له مطابقه بين الأبيات اللاحقة وحدة جزئية أولى، مقابل تلك الثانية التي تليها والتي تتألف من زوج من الأبيات الثلاثة تنتهي الأولى منها عند بيت مطابق لما سبقه (البيت 30) مع البيت (32) والأخيرة بالبيتين الأخيرين المطابقين بدورها لما سبق (38 و 39 مع 30 و 31). أما إذا أخذ إشباع حركة الهاء الأنف المذكر (في البيت 35) فيضحي هذا التوزيع أكثر تماسكاً وأمن توازناً.

هذا التوزيع نفسه نبيته كامناً على المستوى النحوي في ذلك التطابق الذي يقيمه الجار والمجرور في مطلع كل من البيتين 31 و 33 لبؤلفا وحدة متميزة (أولى) عن تلك التي تليها (الثانية) التي يشكل تطابق أداة الشرط فيها علاقتها المميزة في كل من البيتين 35 و 39، في الوقت الذي يشكل ضمير المخاطب في مطلع كل من البيت الأول (30) والأخير (39) علامة فارقة تعين الحدود الخاصة بهذا الجزء بأكمله.

هذا الانسجام البارز بين المستويات المختلفة يحقق، عبر التكافؤ العالي الذي يبلغه، جمالية التعبير الفني هنا. وهو يتضافر مع ذلك الذي لوحظ أعلاه ليشير إلى الدرجة الراقية التي تتوصل إليها العملية الإبداعية للتعبير في هذا الجزء، والتي يشكل تعدد أوجه التوازن والتعادل في وبين مستوياته المختلفة قرينة دالة =

على المستوى الأسلوبي تستمر الوجهة العامة التي لاحظناها أعلاه من حشد للصيغ البلاغية المتعددة في صور تتلاحق متحدة أو مترابطة لتبني الفضاء العام لهذا الجزء وأجواء وحداته التفصيلية . وإذا كان للجزء المذكور أن يتميز عن سابقه في هذا القسم (الثاني) ففي هذا التعقيد الذي تبلغه الصور فيه أحياناً وما يستدعيه تركيبها من استطالة غير موجودة في الجزء الأول . وهي إن لم تغب عن الجزء الثاني (راجع البيتين 17 و 18) لا تبلغ فيه المدى الذي تعرفه في هذا الثالث (كما أشرنا في 35 - 36 وفي 37 - 39) والذي يفرض تضميناً في الأبيات المعنية بذلك، كأن التعبير في مساره النظمي يتناسب في تقدمه مع التعقيد الأسلوبي وتنامي الزخرفة الفنية فيه . وهو في ذلك كله يعتمد توزيعاً خاصاً ينفرد فيه البيت الأول في الاستعارة المكتبة التي تأتي فيه مرتكزة على المادي - الجامد المفرد (تجسيم؟) من جهة (شبهة القلم) وعلى الحيوي - المتحرك المتعدد (تشخيص؟) من جهة ثانية (كل ومفاصل الأمر) في علاقة سيطرة للأول على الثاني توحى في مداها النهائي (القتل) بالقدر المطلق للممدوح على تحقيق ما يريد . فالصورة التي يصبح فيها القلم سلاحاً (سيفاً وسهماً معاً؟) يرمي به الممدوح غاياته أهدافاً يصيبها في صميمها ونواحيها، تقديم لوسيلة سيطرة ترقى على السلاح نفسه الذي قد يصيب الصميم أو غيره (وقد يخطئ؟) . وما هي كذلك إلا لأنها متميزة بوجودها في يد الممدوح على ما عدها (القلم الأعلى) . والصورة نفسها تتميز عن باقي الصور اللاحقة في هذا الجزء الذي تأتي الأبيات الأربعة التالية (31 - 34) ببعض منها عمزوجة جميعاً بطباق يسمها ويميزها عما قبلها وعما بعدها، وتأتي الأبيات الخمسة الأخيرة (35 - 39) ببعضها الآخر الذي يتميز بالتعقيد والاستطالة كما أشرنا أعلاه .

فالملاحظ أن الصور المتلاحقة في الأبيات الأربعة المذكورة تأتي متنوعة ومتناسقة في آن في اعتمادها التشخيص بدءاً ونهاية (31 و 34) على ارتباط مباشر بالقول واللفظ، وفي إفرادها الوسط الداخلي (32 و 33) لأنواع من الاستعارة تتردد بين الحيواني والنباتي والطبيعي تبعاً لتوحى من خلال ذلك كله بالبعد الأسطوري العام والبالغ الأثر الذي تسعى جميعها لتقدمه . وهي لا تكتفي لذلك بالعناصر البيانية التي تنوسلها، بل تلجأ إلى الطباقات المختلفة (في الخلوات والمحافل . . . ولعاب الأفاعي وأري الجنى . . . والسطلل والوابل . . . والفصيح والأعجم . . . والراكب والراجل . . .) لتبين من خلال التناقضات التي تتضمنها وتشير إليها، ومن خلال اجتماعها في هذه الصور، المدى الأعجوبي الذي تفضي إليه .

= عليها ومؤكدة لها، بقدر ما يشكل علامة فارقة فيها وبميزة لها ليست بغائبة عن أجزاء أخرى، لتضحي بذلك علامة فارقة وبميزة في جمالية النص الإبداعية ككل .

أما الأبيات الخمسة الأخيرة فتشتمل على صورتين تبدوان في التعبير المجازي المركب القائم في كل منها. حيث يجتمع التشخيص والتجسيم متلاحقين مرتين (امتطى . . . وشعاب الفكر . . . ثم إطاعته أطراف القنا . . . وتقوضت الجحافل . . .) في الصورة الأولى التي تضم إلى الاستعارة التشبيه مقيمة المفارقة بين الفعل وفاعله (تقوضت لنجواه . . .) على مبالغة تنسب للخارق في مجيئها على فروسية خاصة هي فروسية الفكر التي تبدى فعاليتها المطلقة على أبلغ ما تكون؛ كما يجتمع إلى المجاز والاستعارة (استغزر . . . ورفدته . . .) التشخيص والتجسيم (أقبلت أعاليه . . . والشأن الجليل . . . والخطب السمين . . .) والطبقات المتتالية (الأعالي و الأسافل . . . الجليل والمرهف . . . السمين والناحل . . .) في الصورة الثانية التي، إذ تصل عبر هذه العناصر البلاغية الوحدات المختلفة ببعضها كأنها تستطيل لاستيعاب ميزاتهما جميعاً، تمضي في الظاهر نحو واقعية في الوصف أدق من الصورة الأولى، لكنها في الحقيقة تتجاوز هذه نحو العظمة المطلقة التي لا تقتصر على الفروسية وحدها، فتحافظ على الجوى الأسطوري العام وهي تمهد للالتفات اللاحق مباشرة إلى الممدوح. على ما في هذه الوجهة العامة من اتقان تعبيري يشير في تلاؤم تفاصيلها مع التوزيع الدلالي والإيقاعي والنحوي المبين أعلاه إلى الشاؤم الرفيع وربما الاستثنائي الذي يبلغه في التفنن والإبداع.

٤ - الكرم مداد الحكمة والشعر:

إذا كان الحديث عن الموقع السياسي (من الخلافة - الجزء الثاني) والعلمي (في الكتابة والقلم - الجزء الثالث) مرتبطاً بالطلب الافتتاحي (بالرعاية - الجزء الأول) ومبرراً له، فإن التطرق إلى الكرم الذي يشكل المحور الدلالي للجزء الرابع والأخير من هذا القسم (الثاني) يبدو أكثر قوة ووثوقاً في العلاقة بالطلب المذكور منها؛ بل يبدو الموضوعان السابقان وكأنهما دوران حوله وإشارات ضمنية إليه قبل الكشف السافر عنه.

إن الكرم، في صيغته المتنوعة من نول وعطاء وبذل . . . يكاد لا يخلو من ذكره شعر مديح على الإطلاق. إذ باعتباره شكراً مسبقاً على العطاء اللاحق أو المتوقع يجري التشديد عليه إجمالاً كتشجيع للممدوح على بذل ما يرضي الشاعر، ويطلق فيه هذا الأخير لخياله وهواماته العنان كأن المبالغة كلما كانت بشأنه أكبر كلما جاء العطاء أعظم. والشاعر هنا يجعله في ختام قسمه المختص بالمديح ليكون زبدة القول فيه، وليمهّد به القول للقسم الثالث الطلبي المباشر، معلناً في موقعه التنظيمي موقعه الدلالي في المديح كمجال مشترك بين الممدوح والشاعر، بين التعظيم والتكسب . . .

في هذا الجزء (الرابع) لا يقتصر التعبير على الكرم وحده، فهناك إلى جانبه العدل

والرأي والحق وانعدام العيوب . . إنما يشكّل الكرم محور التعبير فيه، فيأتي مباشراً أو غير مباشر يكاد لا يخلو منه بيت هنا، مما يجعله في ما يشفع به من معانٍ متعددة أكثر كثافةً وغنىً، ويحظى بأبعاد متميزة يجدر بالبحث تبين خصائصها .

إن الإشارة الأولى إلى عطاء الممدوح تقترن بحكمه العادل، في تقابل يوحى بعلاقة متبادلة ومتعادلة بين الأمرين، فتقيم بذلك صلة مباشرة ومتينة بما سبق التعرض له من أوجه إشادة وتبجيل، بقدر ما تعطي المعنى المدحي الخاص بهذا الجزء والذي يجري تفصيله لاحقاً . كما لا يفوت الناظر أن الحكم مزدوج المعنى (فهو القضاء وهو إدارة شؤون البلاد) وقد يكون المعنيين مصودين . كما قد يكون اعتماد النسب في ذكر الممدوح (ابن أبي مروان) في البيت الأول تذكيراً بخط عريق في هذا المجال، واستشارة لمجد تليد خاص بالممدوح . في هذه الوجهة تضي الأبيات اللاحقة لتفسر وتوضح هذا المعنى العام . فإذا بأصداء المعاني المدحية السابقة تتردد قوية، ومعها يتأكد بصيغ مختلفة معنى الكرم بشكل خاص . هكذا يبدو التعرض إلى استقلال الممدوح برأيه متفرعاً من القول بحكمه العادل بمعناه السياسي، بقدر ما هو واضح تفرع عدم تأثر سخاء الممدوح باللوم الذي يوجه إليه بهذا الصدد منها معاً ومن كرمه الضافي كذلك .

في هذا التفرع المزدوج مبالغة في المعنى الأول وإمعان في المديح . ففي التفصيل الأول يتجسد عدل الحكم في مواجهة الجور والاستبداد ولو كان جماعياً أو أكثريةً أو كان نخوباً أو عرفاً، مما يشكل رفعةً من قدر صاحبه يعلو به على أولي الأمر بقدر ما يعرض بهم وينسب إليه ضمناً الإخلاص والشجاعة والثبات إلى جانب العدل، مقدماً عبره النموذج المثالي للإنسان العاقل . أما في التفصيل الثاني فالمبالغة تحاول تجاوز الأولى أكثر من تأكيدها، فذكر العوازل بحد ذاته دليل على إسراف يضاهي العطاء الطامي إن لم يتفوق عليه، وعدم التجاوب مع هؤلاء العوازل تأكيد على ذلك .

يتجاوب التفصيلان في هذه الأصالة الراسخة التي تذكر بخط المجد العريق الذي يتسبب الممدوح إليه . فكرم الممدوح لا يجد منه لوم كما أن رأيه لا يغيره إجماع الآخرين . في هذا التوازي الذي يقيمه الشاعر بين الرأي والكرم يتبدى الرأي صالحاً رغم انفراده عن رأي الجماعة، وقد يكون مديحاً للممدوح في تشييعه بقدر ما هو نبيل من الموقف المخالف له، ومن أصحاب السلطة العباسية نفسها . وهو تمثيل للحكم العادل الذي أشار إليه البيت الأول (40) يدخل تفسيراً جديداً للملحح الوارد في الجزء الثاني (الخاص بالخلافة) يجعل مآثر

الممدوح البادية هناك ناتجة عن تشييعه المترائي هنا⁽⁴¹⁾. كما يتبدى الكرم وكأنه امتداد للموقف السياسي الديني، متفرداً مثله، بحيث يصبح التخلي عنه وكأنه نخل عن هذا الموقف. وبالتالي تصبح الإشادة بالممدوح على هذا النحو محاولة توريط له بحكم موقفه اللاحق بحيث لا يترك مجالاً آخر أمامه غير العطاء اللامحدود.

يدعم هذا الفهم البيت 42 الذي يعلن في تفصيله نوعاً من التداخل والتلاحم بين الرأي والكرم حيث أنه يشير إلى كون الممدوح لا يبذل ماله إلا في الحق، فيكون إسراره إمعاناً في هذا الحق وتطرفاً فيه، ويكون في الوقت نفسه تجسيدا لأخلاقه وأفكاره في آن. وإذ يشار إلى استثناء قد يقع في ذهاب المال إلى غير هذا الوجه فإن الشاعر يجعله في مكروه خارج عن إرادة الممدوح، وبما أنه كذلك فإن ماله الباطل، مقيماً بذلك تعارضاً بين البذل والانتزاع يتجانس مع ذلك القائم بين الحق والباطل، مستدعياً في الوقت نفسه عطاء الممدوح باعتباره حقاً، دالاً في بالغ إسراره على إمكان نيل الباطل منه أكثر من دله على غضب الزمان وأحداثه لاله.

إلا أن هذا العطاء مقدم على أنه لقاح بما يتضمنه من عطاء تام أو متتام ينزهه عن أي شائبة داخلية أو خارجية، أمّا كانت من الممدوح أم غضباً من قبل سواه؛ فيجتمع إلى جانب البذل المادي الكرم الأخلاقي للممدوح وأنفته العالية. وفي تأكيد إيجابياته، ونفي سلبياته، يتقدم كرم الممدوح في تفاصيل علاقاته بالعدل والحق والأفنة عملاً عظيماً راقياً اجتماعياً ودينياً وشخصياً.

من المعنى الأخير تنطلق الأبيات الثلاثة اللاحقة (44-46) مفصلاً كل منها لما قبله على توالد وترابط يميزانها جميعاً عن الأبيات الثلاثة السابقة عليها (41-43) التي جاءت تفصيلاً

(41) عقب ابن المستوفي على البيت 41 بقوله: «وفي الطرة بخط يحيى بن محمد الأزني: إنما عرض أبو تمام في هذا البيت بما كان يعتقد في محمد بن عبد الملك من التشيع، فبريد أن الشورى وما ذهب إليه عمر في أن جعل علياً عليه السلام واحداً من ستة لم يملك على محمد رأيه في أن علياً عليه السلام كان أولى بالأمر، وقد صرح أبو تمام بذلك مذهب محمد بن عبد الملك في البائية حين قال:

وزير ملك ووالي شرطة ورحى ديوان حرب وشيخي محتسب»

(ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ذكر سابقاً، المجلد الثالث ص 125 - الملاحظة رقم 3). إن صح هذا التعقيب يتخذ المديح طابعاً سياسياً مباشراً ليس في أبعدها المثالية المتعددة الأوجه كما هو الحال في هذه الأبيات وحسب، وإنما أيضاً في أبعاده الأسطورية المتنوعة الصيغ كما مر معنا أعلاه؛ ومنها على سبيل المثال البيت 25 حيث يبدو العمل الأعجوبي للممدوح وكأنه يرد في سياق من المعجزات تجسد مرجعها الأساسي في معجزات النبي محمد والإمام علي بن أبي طالب... خاصة فيما يروى عن رد الأخير للشمس من مغيبيها ليؤم في جماعته الصلاة، المتأخرة بسبب استتالة إحدى معاركه الحربية، في حضورها.

لمعنى البيت الأول (40)؛ كما تتميز عنها باقتصارها على الطابع السلبي للمديح، أي أن المديح فيها لا يقوم على إلحاق صفات إيجابية بالمدوح كما جرى في التفصيل الأنف (المدح الإيجابي)، بقدر ما يقوم على استبعاد صفات سلبية عنه (المدح السلبي). فالبيت 44 يتناول ما أشار إليه السابق عليه من تنزيه لكرم المدوح عن الشوائب فيؤكد أن صلاته جميعاً خالية من أي غدر مبيتاً تفرد به بزهته هذه في وضع سمته الغدر والإساءة. يتابع البيت التالي (45) هذا التوسع حين يبعد عن المدوح أي عيب كان، معتبراً أن مقتل المرء وحياته ليس في قلبه وإنما في أخلاقه، جاعلاً بذلك من حياة المدوح بأكملها حياة فاضلة نقية. أما البيت الأخير (46) فينفي عن المدوح الطيش في هذه الحياة لترف يصيبه فيها، كما ينفي اضطرابه في نعمة إلهية تعمها. فكأنه في ذلك كله يعيد الصلة بما ذكره من قبل بصدد أصالة المدوح الكريم. وهنا، كما هناك، تشديد على الكرم واستدعاء له حتى ليبدو النكوص عنه عيباً لا يليق بالمدوح، بل يكاد يكون مخاطرة في الموت لا يمكنه أن يقدم عليها. يتمتع من ذلك وعيه وعقله، كما تمتعه أصالته والبعد الديني لوضعه.

بناء عليه يتشكل هذا الجزء (الرابع والأخير من القسم الثاني) في وحدات دلالية ثلاث تقوم الأولى في البيت الأول (40) والثانية في الأبيات الثلاثة التالية (41 - 43) والثالثة في الأبيات الثلاثة الأخيرة (44 - 46). ولا يقوم الترابط والتناسك والتجاوب والتآلف في داخل هذا الجزء وحسب، في التحام السلب مع الإيجاب والتفصيل مع التعميم لتكوين وحدته المتميزة، وإنما يقوم كذلك في التحامه مع الأجزاء السابقة عليه ليستكمل عملية التعارض مع القسم الأول فيما يهيء الانتقال إلى القسم الثالث. فهو يدخل في تعارض مع الجزء الأخير (الرابع) من القسم الأول (البيت 10) من حيث أن حكم المدوح العادل ورأيه الحق والصواب يدخل في تناقض مع الهوى والعاطفة، وأن الهوى الخلس في ذلك الجزء السابق يتعارض مع ما يذكر هنا من شيوع الكرم وإعلانه كما يدل على ذلك العوازل وكما يؤكد التعبير الفعلي المركزي في النص (أرى.. وترى.. ويرى).. مبدياً عن بالغ الانتظام الذي تدخل فيه جملة أقسام وأجزاء النص. على هذا النحو يصبح اكتمال المديح غير متعلق بالقسم الثاني فقط، وإنما أيضاً بالقسم الأول على متانة وتناسق، وهو ما يجعل من القسم الثالث تويجاً للقسمين السابقين معاً.

قد يكون في تتبع أوجه التكافؤ والتعادل بين مستويات هذا الجزء المختلفة ما يتيح إظهار المدى الذي يبلغه الإخراج الشعري من إتقان وإبداع.

ضمن هذا المنظور يتبين لنا أن التركيب النحوي المعتمد يأتي متناسباً مع هذا التوزيع

الدلالي مؤكداً له . فالوحدة الأولى (البيت 40) تفتتح بصيغة المتكلم المفرد، بينما تفتتح الثانية (41 - 43) بصيغة الغائب المفرد المذكر الذي يعمها في أبياتها الثلاثة قبل أن تأتي صيغة المخاطب المفرد المذكر لتعلن التحول إلى الوحدة الثالثة (44 - 46) . وتسهم العناصر اللغوية المعتمدة في تأكيد هذا التوزيع، إذ يأتي فعل أرى خاصاً بالوحدة الأولى، وهو يغيب عن الوحدة الثانية ليعود فيظهر في الوحدة الثالثة بقوة من جديد. . .

أما المستوى الإيقاعي فيكاد يتطابق في توزيعه مع المستويين الدلالي والنحوي . إذ في الحين الذي يتميز فيه هذا الجزء بأكمله في التطابق الذي يقوم بين بيته الأول (40) وبيته الأخير (46) يقيم التطابق بين البيت الثاني (41) والبيت الخامس (44) توازناً داخلياً فيه، يتولى على أساسه كل منهما تصدر مجموعة من الأبيات متماثلة في عددها ومتميزة في إيقاعها . في هذا التوزيع الإيقاعي العام يعلن البيت الأول (40) في زحافه المفرد المطابع الإيقاعي العام للجزء، ويأتي البيتان المتطابقان ليؤكدوا، إلى جانب الوحدتين اللتين يميزانها، تماثلها مع البيت الأول، ليتضافر هذا التماثل مع ذلك الذي يعم الوحدة الثالثة حيث يتطابق البيت الأخير فيها مع البيت الأول السابق بما يتناسب مع التشكل الدلالي والنحوي، الذي لاحظناه أعلاه .

هذا التناسب قائم أيضاً في تجاوب إيقاعات هذا الجزء مع تلك السابقة عليه، حيث أن التطابق الإيقاعي الذي يجده في بدايته ونهايته هو ذلك الذي ينطلق فيه المديح المباشر في الجزء الثاني (البيت 17) ليتلاءم التركيز على الكرم مع هذا التوجه الذي يضع الكرم في أولوياته . كما أن التطابق الداخلي (بين 41 و 44) يتجاوب مع البيتين المتطابقين في الجزء الأول واللذين تمثل فيهما بدء المديح في صيغته الطلبية (14 و 15) ليشتركا معها في الأهمية التي لاحظناها لهما والتي دل عليها التطابق الإيقاعي مع البيتين الأولين في القصيدة . في حين يتجاوب إيقاع البيتين الأوسطين في الوحدتين الداخليتين لهذا الجزء (42 و 45) في الثانية والثالثة مع متطابقين أشرنا إلى ورودهما أعلاه في الجزء السابق (30 - 38 و - 32 - 36 تبعاً) . كأن هذه الوحدات الإيقاعية تتضافر وتتكامل فيما بينها لتكون شبكة من العلاقات الإيقاعية متجانسة إلى حد كبير مع الشبكة الدلالية - النحوية ومتجاوبة معها .

على المستوى الأسلوبي يكاد أن يجد التوزيع الدلالي - النحوي - الإيقاعي في صيغ التعبير تشكلاً من العلامات الفارقة مناسباً له . ففي حين يكاد البيت الأول (40) يخلو من أي صورة تعبيرية على خلاف بقية الأبيات الأخرى فيتميز بذلك عنها بما يتلاءم وتكوينه لوحدة خاصة به، يأتي الطباق بارزاً في الصورة المجازية القائمة على الاستعارة إلى جانب الكناية في البيت اللاحق (41) في حين يظهر الجنس في الصورة المجازية التي يضمها البيت

44 إلى جانب الكناية أيضاً ليشكل كل من هذين البيتين على هذا النحو علامة فارقة تميز كلاً من الوجدتين الملاحظتين آنفاً (الثانية: 41 - 43، والثالثة: 44 - 46). لا تقتصر العناصر الأسلوبية على ما أشرنا إليه. ففي الوحدة الأولى تقوم المقابلة بين العطاء والحكم بجمعها معاً كما ألمعنا أعلاه بحيث يصبح الكرم المتدفق وجهاً من أوجه الحكمة والعقل. وفي البيت الأول من الوحدة الثانية (41) يلتحم التشخيص الوارد في الشطر الأول مع الطباق في صورة تعبيرية تقابل الكناية الواردة في الشطر الثاني ليؤلفا معاً تعبيراً واحداً هو في النهاية وجه آخر للمعنى السابق. ويستمر التشخيص في البيت الثاني مع الطباق والمقابلة المزدوجة بين الثابت الإيجابي والمحتمل السلبي معرّس حتى... وربما تحيف منه الخطب) وبينها وبين الثابت السلبي (الخطب باطل) في صورة واحدة تقدم وجهاً جديداً للمعنى الأساسي الأسبق. كما يأتي الطباق في البيت الثالث (43) في صورتين متقابلتين ليؤدي تلك المفارقة الحاصلة من الكرم الغزير والتام دون من ناحية ودون غضب من ناحية ثانية، مستمراً في التشخيص والمقابلة، مما يحفظ لهذه الوحدة طابعها الأسلوبى الموحد والتميز عما قبلها وما بعدها. في الوحدة الثالثة يبدأ البيت الأول (44) بالاستعارة المكنية التي تشكل جزءاً من الصورة التعبيرية فيه، بينما تشكل الكناية جزءها الثاني، ويحل الجناس فيها معاً ليقوي من حسن المفارقة الحاصل من اجتماعها. وإذا كان الطباق قائماً في البيت التالي، فهو لفظي مختلف عما لاحظناه في الوحدة السابقة حيث يسود الطباق المعنوي، كما انه يبرز هنا وجه الاستدراك الذي يحل الاستعارة محل الكناية في التعبير الواحد (الذي يبين حسن الرأي وحيد الخصال). ويقابل التعبير الأخير بين نقيين فيجمعها مؤكداً في صيغة التوازن الذي يجعلها فيه اتزان الممدوح، إذ تتجاوب صورة الشطر الأول (في البيت 46) حيث يسود التشخيص مع صورة الشطر الثاني حيث يظهر التجسيم على تضافر يشدد على المعنى الواحد الخاص بأصالة نعيم الممدوح ورفاهه. ويعطي هذا التضافر المتجاوب للصورة التعبيرية بأكملها قيمة جمالية تتجاوز الحدود التقليدية لكل من طرفيها.

إن النظر في مجمل هذا الجزء الخاص بالمديح يبين بدوره عن اتزان، كما لا يقال عن تحفظ، غير معهود حتى الآن من قبل الشاعر. فالمبالغات المستعملة هنا خيولة بل حسيرة إذا قيست ليس بما ورد قبلها وحسب، بل بما شاع كذلك حول معنى المديح المتناول هنا (الكرم). إذ أطنب شعراء كثر في هذا المجال في تصويره بالمطر والبحر والربيع... وغير ذلك. إزاء هذا الكلام المكرر والمعاد تعظيماً للمدح يبدو المديح الوارد هنا ضعيفاً وقاصراً لا يتردد في الإشارة إلى غضب الباطل لماله وفي تركيز معظم جهده على نفي العيوب المختلفة عنه.

وإذا كان المديح الخاص بهذا الجزء يأتي مثقلاً بالهم التكمسي القوي الحضور، تشجيعاً وترغيباً في الإيجاب، وتنفيراً وترهيباً في السلب، فمن الملاحظ أيضاً أنه يأتي ضعيفاً، خاصة في جانبه السلبي هذا، أو قاصراً عن ذلك المدى الأسطوري الذي لاحظناه في الأجزاء السابقة. قد يكون لهذا الضعف صلة بذلك الهم، خاصة إذا صح ما يتردد عن عسر المدوح في العطاء وتشده مع الشعراء؛ وقد يكون أثراً من آثار التطرق إلى الموضوعات القديمة والتقليدية خلافاً لما جرى في الأجزاء السابقة، فيكون جهد الشعر هنا بلوغ حد أقصى من الزخرفة والتزيين للمحافظة على تماسك نص يمكن للضعف أو التحفظ فيه أن يخل به أو يسيء إليه. وإذا كانت هذه الزخرفة الأسلوبية تأتي متلائمة ومتجاوبة مع التشكل الدلالي والنحوي والإيقاعي فإنها تمنح التعبير هنا بعداً جمالياً يتكامل مع جملة الأبعاد الأخرى التي أتاحت لنا معاينتها حتى الآن.

مع انتهاء هذا الجزء ينتهي القسم الثاني أو الأوسط الخاص بالمديح المباشر، وإذا كان المعنى الأخير الذي ينتهي إليه يتعلق في جانب مهم منه بالجهل فليس ذلك صدفة؛ إذ أن الجهل كان هو أيضاً منطلق التعبير في بداية هذا القسم. ولما كان جهل البدء موضع شكوى، فإن جهل الختم موضع نفي، كأن اتجاه المديح تطهيري، أو كأن انتظام الكلام يمضي باتجاه نظم العلاقة بالمخاطب، في التلميح كما في التصريح.

إلا أن هذا القسم نفسه (الثاني) الذي افتتح ببدء استغاثة طلبية لم تلبث أن عبرت عن قصدها، ينتهي كذلك إلى التلبث عند نعمة المدوح وغناه، كأن منتهى الكلام فيه منتهى القصد والغاية، وهو في الوقت نفسه منطلق سواه: الطلبي المباشر. فليس أفضل من هذا البيان توطئة لإطلاق الطلب المتوثب والمتحفز على امتداد القسم بأكمله.

خامساً: الطلب التكمسي / نهي الكلام استسقاء المال:

يعلن الالتفات إلى المخاطب، بالنداء المائل لذاك الذي افتتح المديح (القسم الثاني). الانتقال إلى محور دلالي جديد (في القسم الثالث) لا ينفصل عن سابقه بقدر ما يتكئ عليه. إن تكرار النداء هنا يذكر بما يليه مباشرة من طلب كما مر في الحالة الأولى (القسم الثاني): الجزء الأول؛ كما أن الطلب الذي يميزه عن سابقه يستند إليه كالبناء إلى أركانه، فهو يأتي كأنه استنتاج منطقي لكل ما سبق عرضه. وبينما كان هذا الطلب غير مباشر ومموهاً إجمالاً حتى الآن، فإنه يصبح في هذا القسم الأخير (الثالث) مباشراً وسافراً. ولما كان يستحوذ على ربع القصيدة تقريباً (14 بيتاً من 60) فإنه يدل على بالغ اهتمام الشاعر به. فإذا أضيف إلى

ذلك الإشارات المتضمنة في المديح تبث الأهمية الكبيرة المعطاة لهذا الغرض بحيث يشكل إعلاناً واضحاً لهدف النص ومآل قوله .

يمضي هذا القسم في وجهته الدلالية من تبيان أهمية موقع الممدوح بالنسبة للمتكسبين عامة (في الأبيات 47 - 51) لينتقل إلى تناول علاقة الشاعر به مبدئياً شكواه وحرمانه من العطاء (في الأبيات 52-56) مبيّناً في المقابل ما يقدمه من شعر عظيم (في الأبيات 57-59) منتهياً إلى رجاء يمزج فيه الاستعطاف بالاستعطاء (في البيت الأخير 60) فيفصح بذلك في نهاية النص ضميره الخفي ويكشف سرّه المكنون .

تسمح لنا هذه القراءة تمييز أجزاء داخلية أربعة تتقدم في عددها متجانسة عديداً مع التوزيع الداخلي الذي عرفه كل من القسمين السابقين (الأول والثاني) . وهي تقدم تكاملاً دلالياً معها كما يمكن لنظرة أولية أن تبديه . فأهمية موقع الممدوح (الجزء الأول من القسم الثالث) تتصل بدعوته من قبل الشاعر إلى رعاية الأدباء (الجزء الأول من القسم الثاني) التي لاحظنا علاقتها بمعاناة الشاعر الخاصة (الجزء الأول من القسم الأول) ، أما الحرمان الذي يشكو منه (الجزء الثاني - القسم الثالث) فيحيل إلى اعتباره الممدوح شهاب الملمات السمع (الجزء الثاني - القسم الثاني) وإلى الغياب الخاص بالكرم كما بالجمال عن الأطلال (الجزء الثاني - القسم الأول) ، في حين يبدو اعتزازه بقصيدته (الجزء الثالث - القسم الثالث) متعلقاً بالإشادة بقلم الممدوح الأعلى (الجزء الثالث - القسم الثاني) وبذهاب النساء الحسنات بعقله (الجزء الثالث - القسم الأول) ، بينما يتقدم استعطافه الممدوح (الجزء الرابع - القسم الثالث) على صلة وثيقة بكرم الممدوح البارز (الجزء الرابع - القسم الثاني) وبالتحسر على الهوى «الحامل» المفقود (الجزء الرابع - القسم الأول) . فيتبين من خلال هذه العلاقات المتداخلة التي ترفد سواها كما أشرنا إلى أهمها أنفاً ، أي نسيج محكم بالغ الاتقان يؤلف بنيتها العامة وتفصيلها الجزئية ، وبالتالي أي جمالية شعرية رفيعة تتيج توقعها . ربما كانت متابعة تفاصيل التعبير في هذا القسم (الثالث) فرصة لتلمس المدى الذي تحققت فيه هذه الجمالية .

- يركز بدايةً الجزء الأول على أهمية الموقع الاجتماعي للممدوح بالنسبة لطالبي العطاء . فالزاوية التي ينظر من خلالها إلى الممدوح زاوية تكسبية مباشرة ، يظهر هذا الأخير من خلالها واسطة لا غنى عنها لبلوغ المراد ، حتى أن افتقادها معادل للموت ، إن لم يكن الموت نفسه . مما يبين عن هذا الشرط الحيوي (العطاء) في عملية التكسب ، وهو شرط يهدد افتقاده المادح - الشاعر في عيشه الفعلي أو الحقيقي والرمزي أو المجازي . فإذا كان آخر طموح المتكسبين

بلوغ الخليفة باعتباره الأغنى والأقدر، فإن الممدوح - الوزير يبدو شرطاً لا غنى عنه لبلوغه كما تدل صيغ التعبير المختلفة على ذلك.

في هذا الموقع الذي يجعل الشاعر الممدوح فيه نوع من الإشادة به باعتباره جزءاً لا يتجزأ من الخلافة نفسها، ونوع من التدليل على خطورة موقفه، فهو الذي يصل ويقطع بالنسبة لهذه الخلافة. إنما يقوم في خلفية الصورة ضعف من حيث كونها تتضمن من هو أعظم من الممدوح (الخليفة)، بالإضافة إلى كون اعتبارها الوزير واسطة فيه انتهازية وانتفاعية لا تليقان أو لا يليق بصاحبها إعلانها بهذه الفجاجة، عدا عن كونها تمثل تراجعاً وتردياً عن الشاؤ الذي بلغه المديح سابقاً (راجع الجزء الثاني من القسم الثاني). بيد أن الشاعر يسعى في هذا القرن (بين الممدوح والخليفة) إلى نوع من المساواة بين الطرفين، خاصة في البيت الثاني (48) الذي يجعل موقف كل منها مماثلاً للآخر. بل يكاد يميز الممدوح ويرفع من قدره إزاء الخليفة نفسه حين يعلن أن عونه هو شرط لا بد منه لنجاح أي مسمى، وبلوغ أي هدف، وأن افتقاد هذا العون لا يفضي لغير العدم، عدم لا ينال الأهداف وحدها ولا الوسائل ذاتية وخارجية فقط، ولا ينال الوجود ذاته بالمعنى الجزئي والكلي وحسب، بل يصبح كذلك أمنية مرغوبة!

على هذا النحو يتصاعد التعبير المدحي في هذا الجزء دون أن يغادر المعنى الأساسي، ففي إشارته إلى أهمية موقع الممدوح يركز على دور التوسط والوصل الذي يؤديه، إن في بلوغ الخليفة أو في تحقيق الأمان، وهو دور لا يمكن إغفال علاقته بالدور الذي دعا الشاعر الممدوح إلى القيام به من جمع شمل الأدباء ورعايتهم (الجزء الأول من القسم الثاني) على تمايز واضح هنا يتوصل فيه لأن يجعل من هذه الرعاية بالذات شرط وجود هؤلاء.

في الجزء الثاني إمعان في توضيح المقصود مما سبق، وفي كشف صريح للعلاقة بين الشاعر والممدوح من إلحاح الأول في الطلب ومن إهمال الثاني للعطاء. يذكر الشاعر إصراره رغم البعد الزمني على انتظار تحقيق الممدوح لوعده. وهذا الإصرار يجعله يبتذل الزمن فيبدو رغم طوله (سنون . . .) كأنه اللحظات القصار، ويتجاوز المكان محوياً البلدان إلى منازل . . . ساعياً في هذا التحويل وذاك الاختزال إلى التقرب من الممدوح واستنجاهه وعده أو استعطائه ماله. وهو يشير بما يشبه التنبيه إلى أن عطايا العطاء ضمانة لتنكر الزمان لهم، بل ضمانة كي لا ينقلب هذا الزمن ضدهم، مؤكداً ضرورة الإسراع فيها خشية تهمد مكانتهم. وهو تنبيه غير بريء خاصة في السياق الذي يأتي فيه أو بعد ذكر امتداد الوعد، وهو غير ملائم للسبب نفسه، وخاصة لأنه يذكر بعد الإشادة السابقة بقلم الممدوح. لكن البيت الأخير هنا (56) يتجاوز التنبيه إلى ما يشبه اللوم، حين يعتبر أن حرمانه من العطاء لا يمرر له، خاصة لامتلاء

المدوح قدرة وغنى . . . كان التعبير هنا مثله مثل ما مر معنا في الجزء السابق، يتجه بشكل تصاعدي عن التعريض المداور إلى اللوم المباشر . . . ومثله أيضاً يشكل تراجعاً مريعاً عما سبق من مديح خاص بالعطاء الطاغى، وشهاب الملمات الثاقب (القسم الثاني: الجزء الرابع والثاني).

إن الشاعر يقيم هنا تعارضاً واضحاً بين وضعه ووضع المدوح، فهو الوفي الصبور يقابله إهمال المدوح كي لا نقول نكته لوعده وخيانتة لعهوده، وهو الحريص على مجد المدوح (عطائه) باعتبار أن العطاء شرط المجد واستمراره يقابله استهتار الآخر بالكرم مع ما يجره عليه امتناعه عن العطاء من إساءة . . . وفي تركيز الشاعر هنا على المجد والمعالي يذكر بما سبق وأشار إليه من أمجاد تمكن المدوح من إنجازها (خاصة بالنسبة للخلافة: الجزء الثاني من القسم الثاني)، فكانه هنا يرهن القول السابق (المديح) بالفعل اللاحق (العطاء). فلكي يكون للمديح وجود دائم ولكي لا يكون كلاماً عابراً، على المدوح أن يسارع إلى نواله وعليه ألا يدع مجده يتهاوى . . .

في الجزء الثالث مزيد من التخصيص والتصريح في الغرض والعلاقة. وكلما استغرق الشاعر في هذا الاتجاه كلما أضحى التعبير فجاً. فهو يذكر المدوح بفضلته، بعطائه هو له، بمدحه، مشيراً بما يشبه الفخر إلى أهمية هذا المديح. وقصيدته تأتي بالأعاجيب، فهي تشفي وتمرض (تحمي وتميت)، وهي بذلك ترفع المجد الساقط، وتنهض بالعظمة المنسية. إن مدحاً هذا شأنه ليس بحاجة لشيء، هو جميل بحد ذاته. لكن مدحاً يأتي بالعجائب كما أشير لن يكون جماله في حال تزيينه بالعطاء إلا عجباً جديداً!

هناك من ناحية اعتداد بالذات، وخالطة الفخر للمديح. لكن هذا الاعتداد ليس مقصوداً لذاته بل هو معتمد وسيلة للطلب، فهو نوع من الإلحاح في التكتسب يذكر المدوح بما أهدي. وهو بالأخص دعوة لهذا المدوح ليس للرد على هذه الهدية بالمثل، بقدر ما هو دعوة له كي يتجاوب مع المستوى الراقي (العجائبي) لهذا المديح فيكون عطائه مترعاً (عجائبياً) مثله. وليس ذلك مستبعداً من شخص أسطوري كالممدوح، بل إن ما سبقت الإشارة إليه في القسم الثاني حول عجائبه الاستثنائية تجعل من المتوقع بل من المرجح أن تجيء ردة فعله على هذا المستوى المذكور. كأن الشاعر يؤكد في الوقت نفسه أن هذا الشعر الأعجوبي هو ما يناسب المدوح الأسطوري وأنه هو نفسه بالتالي لا يقل أسطورية عنه، ليس فقط في فعل الإحياء والإماتة (الذي يذكرنا بسم القلم وعسله في الجزء الثالث من القسم الثاني: البيت 32) وإنما في الجمع والتأليف الذي تنجزه قصائده. فإذا كان هذا العمل (التجميعي) الميزة الأساسية في مآثر وأمجاد المدوح (راجع الأبيات 27، 28 . . .) ويشكل أساس الصيغة

الطلبية التي يتوجه بها الشاعر نحوه (راجع البيت 14) فإنه أيضاً مأثرة القصيدة فيما تؤديه وفيما تتميز به. فهي تقوم عبر تأليفها محديداً باستعادة امجاد المدوح ويلورتها - تماماً كما فعل هو نفسه عندما جمع أعمال الخلافة فرداً إليها ألقها المجيد (في الأبيات 25-27) - وتبرز عبر نظمها كذلك على أجمال وأبهي ما تكون لتستدعي في جالها هذا العطاء المناسب لها فتبلغ به المطلق - تماماً كما يمكن لتلبية المدوح طلب الشاعر أن تبلغ مستوى استثنائياً مطلقاً (في البيت 16) - .

أخيراً يجعل البيت الأخير من القصيدة (الجزء الرابع) زخم التصعيد الماضي في الإلحاح بالطلب والإفصاح عنه. إليه ينتهي النص بأكمله كخلاصة للجهد الذي صاغه وكهدف يستوعبه. يعلن هذا الطلب عن نفسه مفصلاً عن طبيعة العلاقة التكسبية بين الشاعر والمدوح. فالشاعر يتوجه إلى المدوح برجاء يقرب من الإذلال، مستعظماً إياه، موضحاً حاجته الماسة إلى عطائه، وقدرة المدوح الواسعة على تلبيةها. فإذا باعتداده الشاعر السابق الذي بلغ الفج في حد مساواته بالمدوح يتردى ليعبر عن ارتهانه له ارتهاناً يتخذ شكل الخضوع الكامل، باعتبار أن حياة الشاعر نفسها تضحي هنا محكومة بعطف المدوح وتبقى رهن عطائه. فتختتم القصيدة على هذا النداء - الاستغاثة، كأنها بأكملها هذا الصوت المستجير.

يتناسب هذا التوزيع الدلالي مع صيغ نحوية معتمدة تؤكد له. إذ يسم الجزء الأول مطلع المتفتح بنداؤ المخاطب المفرد بكنيته (أبا جعفر: البيت 47) متطابقاً في ذلك مع النداء الذي يفتتح القسم الثاني (البيت 11) كأنه يشير بذلك إلى غاية المديح - والقصيدة - الحقيقية: الطلب التكميلي. كما يلحظ اعتماد ضمير مبهم للدلالة في هذا الجزء هو ضمير جمع المتكلم (في وادنا: البيت 47).

ويسم الجزء الثاني استعماله في البدء ضمير المتكلم المفرد (لي: في البيت 52) في جملة خبرية اسمية. هذا إضافة إلى استعمال ضمير متكلم الجمع محديداً هنا للدلالة على المثني (البيت 53). وإذا كان ضمير المتكلم المفرد هو الذي يفتتح الجزء الثالث فإنه معتمد هنا بصيغة جديدة مغايرة لتلك التي لوحظت في الجزء الثاني (منحتكها: في البيت 57) ويأتي في جملة فعلية خلافاً للاسمية هناك، بالإضافة إلى هيمنة ضمير التانيث الغائب للمفرد على أبيات هذا الجزء. ويعود نداء المخاطب المفرد بصيغة الجمع تبجيلاً (أكابرنا: البيت 60) ليعلن الجزء الرابع والأخير. ويأتي ضمير جمع المتكلم (الذال على المتكلم؟) وحده معه. فيختتم نداء المخاطب مع متكلم الجمع القسم كما بدأه معاً تأكيداً لوحدته في انشائته الطلبية وتكسيته التقليدية. في حين يتردد ضمير المتكلم في جزئه المتضمنين (الثاني والثالث) معبراً عن البعد الشخصي الخاص الغالب. وكان استعمال ضمائر المتكلم في انتقالها من الجمع المهم

(في الجزء الأول) إلى الجمع الدال على المثني (في الجزء الثاني) إلى المفرد (في الجزء الثالث) فالجمع - الدال على المفرد؟ - (في الجزء الرابع) يشير إلى خطّ تطوّر وتنامي العملية الطلبية التي يعبر عنها القسم بأكمله، فيؤدّي في تعاقب وتوالد أجزائه، وفي ترابطها وتماسكها في وحدته الكلية على المستوى النحوي التشكّل الخاص الذي يؤدّيه المستوى الدلالي.

على المستوى الإيقاعي يعلن تطابق البيتين الأولين (47 و 48) الجزء الأول، يليهما أبيات ثلاثة أوسطها يتماثل في عدد زحافاتهما معها. بينما تتقدم أبيات ثلاثة (52-54) البيتين المتطابقين في الجزء الثاني، ويتماثل أوسطها في عدد زحافاتهما معها. كأن التطابق يضمهما معاً بقدر ما يميز التماثل كلاً منهما، في توافق ينسجم بقوة مع المستويين الدلالي والنحوي. ويشكّل التوزيع العروضي المتطابق في البيتين 57 و 60 إعلاناً لكل من الجزئين الأخيرين بقدر ما يضمهما معاً في وحدة إيقاعية خاصة.

كأن الإيقاع يشير بدوره إلى تمايز أجزاء هذا القسم وترابطها في آن، في توازن داخلي يتجاوب ويتكامل إلى درجة كبيرة مع الوضع الدلالي والنحوي. والملاحظ أن الاضطراب الذي لوحظ أعلاه على المستوى الدلالي في ما يتعلّق بالجزئين الأول والثاني ينعكس على الوضع الإيقاعي في كل منهما، إذ يقصر التطابق العروضي عن تكوين وحدة إيقاعية قوية التوازن والتناسك، كما قصر المديح الطلبية عن تكوين فضاء دلالي مناسب ومتلائم. يضاف إلى ذلك أن ورود الإيقاع المتفرّد على صعيد النص بأكمله في الجزء الثاني (في البيت 52) يقوّي من اضطرابها في ظل الاختلاف المهيمن على الإيقاع المحيط به. وإذا كان لبعض التوازن أن يبدو لاحقاً في اجتماع الجزئين الأخيرين في وحدة إيقاعية واحدة، فإن هذا الاجتماع يتفق مع الوجهة الدلالية - النحوية التي تربط المتكلم المفرد والمخاطب المفرد في الثالث بتكلم الجمع ومخاطب الجمع في الرابع. يذكر الاضطراب الإيقاعي الحاصل هنا بما سبق ومر معنا بصدد القسم الأول. وتبدي نسبة الأبيات المتطابقة على تلك المختلفة هنا عن تماثل كبير مع تلك التي رأيناها هناك، فعدد الأبيات المتطابقة أقل من الأبيات المختلفة (نسبتها 6 إلى 8 أو 4/3) وتؤلف جميعاً إحدى عشرة وحدة عروضية تحظى الأبيات المتطابقة بثلاث منها مقابل ثمان للمختلفة مما يوحي باضطراب إيقاعي يخفف منه التوزيع الذي يحكم إيقاع القسم بأكمله وترابط وحدته، كما يخفف من الاضطراب الدلالي في المديح الطلبية (اللوم والتعريض) وجهته التعظيمية العامة ومآله الاستعطائي.

أخيراً، قد يكون في التوقف عند جانب خاص من جوانب القافية ما يضيف تأكيداً لهذا الاستنتاج، فالصيغة التي تأتي فيها في مطلع النص مكررة في التصريح الذي تفتتح به

القصيدة (البيت الأول) حيث تعتمد حرفاً واحداً (الهاء) سبق حرف الروي المشيع، لا تتكرر في القسم الأول منها؛ وهي ترد مرة واحدة في القسم الثاني وتحديداً في نهايته (البيت 46)، كتأكيد ربما على الوجهة الدلالية المعارضة المعتمدة في هذا القسم بالنسبة لما قبله؛ إلا أنها تتكرر مرتين في القسم الثالث في جزئه الأخيرين: في مطلع الثالث (البيت 57) وفي الرابع (البيت 60)، حيث تستعيد الأولى منها اللفظ نفسه الذي اعتمد في تصريح القصيدة (ذاهل) وتأتي الثانية في البيت الأخير ربما لتأكيد الدور الطلبي لهذا القسم المتقدم نتيجة لسابقه معاً، وللقصيدة بأكملها بالتالي، منهية بذلك النص إيقاعياً كما ينتهي دلالياً، لتبقيه بأكمله مفتوحاً على ذلك السؤال الذي يبدأ به، وذلك الطلب الذي ينتهي إليه، صوتاً يترجع واستغاثة تتردد بانتظار من يلبي نداءه المحموم. وإذا كانت هذه الصيغة تتواتر أربع مرّات كما هو بين من التعداد السابق فإنها تستعيد بذلك تشكلاً لم يكف النص عن الإشارة إليه في كل قسم من أقسامه المختلفة، ليعبر ذلك كله عن درجة عالية من التكافؤ والتعادل الشعري:

على المستوى الأسلوبي يعم الطباق والتجسيم والمقابلة جميع الأجزاء التي يتكون منها هذا القسم على تفاوت بينها لا يحول دون التدليل على وحدتها من خلال هذه الأنماط من البيان والبديع، ولعلها تدل في هذا الطابع الأسلوبي العام الذي تمنحه للقسم عن طابعه الدلالي المتوتر في تطلعه للانتقال من حال إلى حال على تعارض معه، وعن البعد الحسي المادي الذي يسم هذا التطلع، أي عن الإلحاح التكسيبي العام فيه.

بيد أن ذلك لا يحول دون رؤية عناصر أسلوبية تيسم كل جزء من هذه الأجزاء وتميّزه عن سواه. فرغم أن الطباق والتجسيم والمقابلة قوية في الجزء الأول (البحر والساحل.. القطع والوصل.. والشفاء والقتل..؛ بالإضافة إلى الخليفة البحر.. والممدوح الساحل.. وقطع الأسباب.. واغارة القوى.. ووصلها باليمين.. وانفناء الرجاء.. وإخلاق الوسائل..؛ وإلى الراغب.. والوسائل..، والرجاء.. والوسائل..، وألف الدجى.. ورجاء السم.. تبعاً) خلافاً لما هو عليه الأمر في الجزء الثاني حيث ترد على ضعف لافت (الشول والحافل.. بالإضافة إلى قطع السنين وبناء المعالي.. وإلى الحرمان من الدر.. والدر حافل.. تبعاً) لكن التشبيه يتقدم عنصراً مشتركاً بينهما (الخليفة البحر.. وأبو جعفر السالح.. وإخلاق الوسائل إخلاق الجفون.. في الأول وقطع السنين كالمراحل.. وجزيلات الصنائع معاقل.. واسترحام المعالي كاسترحام المنازل في الثاني). وبينها يقتصر استعمال التشخيص، أو ما يمكن اعتباره كذلك، على الجزء الثاني (الهمة الحامل.. والليالي المناكرة..). فيميزه عن الأول، يشكل انتهاء كل منهما بالكناية (في البيتين 51 و56 تبعاً) عنصراً مشتركاً وجامعاً وعلامة فارقة في إقامة الحد بينهما، وبينها وبين ما يليها.

إن الجزء الثالث يختلف عن السابقين تحديداً في غياب هذه الكناية عنه، وكذلك في اعتماده الجناس (البيت 58) الذي يميزه عن بقية الأجزاء جميعاً. إلا أنه يتصل بالجزء الثاني عبر الوجه الذي يميزه عن الأول أي التشخيص أو ما يمكن اعتباره كذلك والذي يعم أبياته الثلاثة دون استثناء (شفاء الجوى . . ورد القوافي للأعجام . . وتحلية القوافي المواطل . . .) ويشكل في الوقت نفسه فارقاً بينه وبين ما يليه. فالجزء الرابع يحمل في الكناية التي يأتي بها الحد بينه وبين ما قبله، ويلتقي بذلك مع الجزئين الأولين، ولكنه في غياب التشخيص واعتماد التجسيم والطباق والمقابلة يبدو أكثر اقتراباً من الجزء الأول.

إن التوزيع الأسلوبي يتجاوب مع التوزيع الدلالي والنحوي والايقاعي نسبياً في الجزئين الأولين، ولكنه يفارقهما في الجزئين الأخيرين، وإن أدى على صعيد القسم بأكمله جواً إيحائياً متناسباً معها (فالكناية مثلاً التي تعم الأجزاء الثلاثة ويخلو منها الجزء الثالث تتفق مع تميز هذا الجزء بالفخر (الطلبي) خلافاً للمديح (الطلبي) في بقية الأجزاء).

● هكذا تبدي القصيدة عن بالغ الجهد والصنعة اللذين يحكماها. وتأتي شبكة العلاقات الدلالية والنحوية والايقاعية والأسلوبية التي تحكم نسيجها على مستوى راق من الاتساق والانسجام. كان عمل الشعر ينصب على حياكة نسيج النص جسداً متكامل التقاسيم حيوي الحركة. إن هذا التكامل الحيوي العام لجسد النص هو الذي يجعل من بعض نقاط الضعف في نسيجه هوامش ثانوية، وذلك بقدر ما يضمها ويلفها في هذا النهج التزويقي التفنني العام الذي يسمه في بنيتها كما في تفاصيل تشكلاتها، كما كانت لنا فرصة معاينة ذلك⁽⁴²⁾.

(42) ربما كانت نقاط الضعف هذه والمتمثلة خاصة في الاضطراب الذي عرفه المديح في الجزء الرابع من القسم الثاني وما يليه (منذ البيت 40 وما بعده . . .) كما أشرنا إلى ذلك في سياق الدراسة، من بين الأسباب التي جعلت الممدوح محمد بن عبد الملك الزيات الكاتب الخبير والمثقف الأريب يمتنع عن إنالة الشاعر، ويثبت ديوان أبي تمام بشرح الحطيب التبريزي (ذكر سابقاً) خيراً لهذا الأخير يورده إثر البيت السادس والخمسين نثبه هنا لدلالته البليغة على نمط العلاقة التي كانت تقوم بين بعض الشعراء والممدوحين، وعلى بعض مقاييس النقد والتقويم التي كان يؤخذ بها في الحكم على قصائد المديح، وعلى جانب من شخصية الشاعر؛ وهو إن لم تصح واقعته يظل دالاً على غط من التصور الذي تبلور بهذا الصدد. يقول التبريزي: «فلما قرأ هذه القصيدة استحيا من جفائه فاحتج بأنه مدح غيره ممن هو دونه، وأنه لو اقتصر عليه لأعطاه، وإن إكثار مدحه الناس زهده فيه، فقال ووقع بها إليه:

رأيتك سمح البيع سهلاً وإنما يغالي إذا ما ضن بالشيء بائعه
فأما الذي هانت بضائع بيعه فيوشك أن تبقَى عليه بضائعه
هو الماء إن أجمته طاب ورده ويفسد منه أن تباح شرائعه =

* ملاحظات متفرقة / مضاعفات التناقضات

ربما لم يكن هم أبي تمام الابتداع والتجديد بقدر ما كان همه الإرضاء وجلب التقدير، وكان الجانب الأول بالتالي محكوماً بالجانب الثاني. وإذا كان لجهد إبداعي أن يتمثل في هذا النص فإنه يقتصر على تفنن في الإخراج الداخلي تقدم الأطر التقليدية التي يحافظ عليها في إبراز حدوده، كما تعكس آثارها على جمالية الوحدات التفعيلية الخاصة التي ينتجها. تبنت هذه الجمالية استغراقاً في الصنعة الشعرية، فكان هذا الحوك المتقن لعملية التعبير الشعري متميزاً بالتطرف في التفنن بالاهتمام الكبير بالمحسنات اللفظية والمعنوية، ما أطلق عليه «غلواً» و«تكلفاً» في هذه الصنعة، مع احترام واضح للمتطلبات الإيقاعية خاصة والبيانية إجمالاً. ولما كانت هذه المحسنات حتى ذلك الحين مقتصرة في حال تكثيفها على المجال النثري خطابة أو ترسلاً حيث تبرز المعنوية بينها على ما عداها، كان اهتمام البعض لشعر أبي تمام بالسقوط في النثرية⁽⁴³⁾. وكان اعتماد الشاعر عليها إحدى العلامات الأساسية الكبرى التي تدل على الانزياح الخاص الذي عرفتها لغته الشعرية. وهو انزياح من مجال (نثري) إلى آخر (شعري) ظاهراً (على الصعيد الخارجي)، وانزياح في الصياغة التعبيرية كامناً (على الصعيد الداخلي) ربما شكل الملقى الذي وجدت فيه إبداعية الشاعر فضاء انطلاقها الأرحب تعويضاً عن الحصار الذي فرضه البناء التقليدي للقصيدة، وهو قد مثل على كل حال مساهمته المتفرقة والجديرة بالاهتمام.

= فقال أبو تمام وكتبها إليه:

أبا جعفر إن كنت أصبحت شاعراً	أساهل في بيعي له من أبياعه
فقد كنت قبلي شاعراً تاجراً به	تساهل من عادت عليك متافعه
فصرت وزيراً والوزارة مكرع	يخص به بعد اللذافة كارع
وكم من وزير قد رأينا مسلط	فعادت وقد سدت عليه مطالعه
ولله قوس لا تطيش سهامها	ولله سيف ليس تنبو مقاطعه

(المجلد الثالث ص 130 - هامش رقم 11).

كما يمكن لاضطراب المديح المذكور، بل لتناقضه الناتج عن تحوله في القسم الثالث إلى تعريض بالمدوح يتعارض مع المبالغة في الإشادة به التي عرفها القسم الثاني؛ كما للتناقض الذي يثيره الفخر الناتج مقابل التذلل المستعطف في الأبيات الأربعة الأخيرة أن يثير الشك في تلاعب نال من هذا النص إثر موقف المدوح من صاحبه. لكن ذلك كله لا يعدو باب الافتراض ويحتاج إلى تحقق وإثبات غير متوفرين حتى الآن.

(43) من ذلك ما يرويه الأمدني عن بعضهم عن دعبل بن علي الخزاعي قوله في أبي تمام: وما جعله الله من الشعراء، بل شعره بالخطب والكلام المثور أشبه منه بالشعر الموازنة، ذكر سابقاً، ص 21.

لم يكن لمثل هذا الوضع أن يأتي اعتبارياً، وهو في التشكل الخاص الذي يتجلى به في هذا النص يحفل بدلالات اجتماعية وذاتية جديرة بالمتابعة. وفي محاولة للقبض على أهم هذه الدلالات سنقوم بتتبع بنية النص العامة في تفاصيل تشكلها الخاص.

1- بالامكان الانطلاق لتلمس دلالات النص الاجتماعية من الطلب الذي يشكل محور بنيته الدلالية. ولما كان هذا الطلب يركز إلى مديح يعتمد على مآثر المدوح خاصة في السياسة والأدب، ويأتي بدوره إثر مطلع غزلي عن الطلل وابتعاد الأعبة، فإنه يشير، خاصة في الإلحاح المستغيث الذي يبلغه، إلى عمق المعاناة الشخصية - الاجتماعية لفئة من المثقفين. تبدو هذه المعاناة متصلة باضطراب اجتماعي إن لم يهدد حياة أصحابها بالموت، فإنه يهددها حتى بالنعاسة أو الضيق. وهو اضطراب يواجهه الشاعر برؤية عامة حاضرة ومستقبلية يتولد عنها موقف محدد: دعوة المدوح إلى العطاء كما تتجسد في صيغة لف الشمل وجمع المتفرق ورعاية الضعفاء. فهناك تأكيد على ضرورة التعاون لمواجهة الأخطار التي تعرّض لها الجميع دون استثناء. فالعطاء هو بمثابة مساعدة للمحتاجين حالياً، ولكنه أيضاً احتراز للمستقبل من تغير الأحداث. كأن العملية بأكملها على هذا النحو نمط من التعاونية يجد الجميع فيها نوعاً من الاستقرار والضمان، ربما بسبب ذلك اعتمد الشاعر في طلبه المباشر صيغة جمع المتكلم تعبيراً عن حسن جماعي - طبقي أو فئوي أو أثرأ من آثاره اللاواعية.

- في هذا الوضع الاجتماعي المضطرب يلحظ بلوغ بعض المثقفين مراكز السلطة، وهو أمر لا يخلو من الاضطراب كذلك. فالتحولات الاجتماعية فرضت الاستعانة بخبرات بعض الأطر المتخصصة. وهي تتم عن تعقد وتعدد هيكلية السلطة السياسية، كما تشير إلى بروز فئة الكتّاب كطرف جديد في مواقعها المحدثة، أي الوظائف الإدارية التي تولدت عن التطور الاجتماعي. فتبدو الإشادة بالقلم اشادة بهذه الفئة الاجتماعية الجديدة، وإذا ما عدها النص باب الخلافة، فإنها أيضاً عدتها الجامعة والموحدة. وبذلك تظهر دروب جديدة لبلوغ المراتب الاجتماعية العليا، والتقرب من أصحابها، لكن هذه المواقع الجديدة ليست ثابتة أو آمنة. وعلى هذا الوتر القلق بالذات يضرب الطلب معزوفته، وعلى هذا الأساس الاجتماعي العام يبني تصوره التعاوني الخاص. وتكون الأوضاع الاجتماعية في تطورها واضطرابها قائمة في خلفية الصيغة الطلبية ومركز تبريرها المنطقي.

- لوضع اجتماعي جديد، وفئات اجتماعية جديدة، علاقات اجتماعية جديدة أيضاً. فالدعوة التي يصر الشاعر عليها ذات مرتكزات فكرية - أدبية بشكل خاص، تبين أسساً جديدة للتجمعات السياسية - الاجتماعية مغايرة لما سبق. إذ لم تعد الانتهات الدينية أو القبلية

هي الحاسمة، بل إن الإشارة إلى موقع ديني للممدوح مخالف للمفهوم السائد أو المسيطر تبين تراجع هذا المستوى لحساب عوامل أخرى. وتوضح الإشارة إلى الصراع على السلطة أنه لا يعبأ بأكثر علاقات القرابة حميمية (فيتحول الابن عدواً مقاتلاً لأبيه . . .). فالرعاية النخبوية التي يتطلع الشاعر إليها مهنية تتصل بنشاط مجمل الأدباء والعلماء بشكل عام، كما أنها «روحانية» أيضاً، خاصة بالطبع والمزاج والأخلاق. وفي هذا الجانب كما في ذلك دلالة على ذلك النسيج الاجتماعي الذي أخذ بالتشكل، بتنوع أصوله وانتهائه، في إطار الهيمنة الإسلامية - العربية. ربما في هذا التشكل بالذات كمنت مصادر التفنن الأسلوبي ضمن الإطار التقليدي للقصيدة عند أبي تمام.

- يأخذ التشديد على دور العقل والفكر بعداً مهماً من التشكيل البيوي للمديح. فهو لا يقتصر على تبرير الزعامة الأدبية للممدوح، بل إنه في أساس الإشادة بدوره المخارق في حفظ الخلافة وإعادة مجدها الغاير إليها. كما أن التوقف عند قلمه لا يخرج عن هذا الإطار فيبدو هذا الطرح أثراً من آثار سيطرة الاعتزال المنتصر للعقل على النقل بشكل أساسي. وإذا كان الوزير المثقف يعظم أكثر من الخليفة الوارث للسلطة، ففي ذلك أيضاً أثر من انتصار العقل على النقل. وقد لا يكون أثر الاعتزال مقتصرأ على هذا الجانب الدلالي، بل يضي إلى صلب التعبير أيضاً، بحيث يرجح اعتبار الجهد التروقي للنص ناتجاً عن هذا الاهتمام بالأسلوب، ليس لأن المعزلة كانوا من كبار البلاغيين وحسب، وإنما أيضاً لأن هذا الأسلوب كان الدال الذي لا يكفي بمدلوله المباشر، وإنما يتم بتأويله، بمعنى معناه تأليفاً وفهماً.

- عناصر أخرى يجدر تبينها في ذلك التحول العام الذي يبرزه الانقطاع الحاصل بين المقطع الغرامي والقسم الخاص بالمديح، والذي يشي بتحول اجتماعي عام يقطع مع الارتباطات العاطفية ومنها علاقات النسب والحب والصدقة. . نحو ارتباط مترابطة بالمؤسسات والمصالح التي تمثلها، ومنها المؤسسات السلطوية والمهنية والثقافية.

● وفي الخطر الذي مثله العلم والكتابة خاصة في بنية المجتمع، من حيث ارتباطها بأهم جهاز من أجهزة السلطة، وهو الإدارة، كما تبدي ذلك جملة الاشارات التي ترفع من قدر العلم والرأي على ما عدها، وخاصة على الأعمال العسكرية وأنواع السلاح، وما يدل عليه ذلك من اختلاف في القيم والعلاقات الاجتماعية نفسها.

● في الصورة المثالية التي يقدمها المديح الموجه إلى محمد بن عبد الملك نموذج عما يفترض بالوزير أن يشتمل عليه من صفات ومزايا، لا يعتبر مقياساً معيارياً لهذا الدور السياسي

وحسب، وإنما أيضاً لما يجدر بالخلافة نفسها أن تتسم به من حق وعدل وخير ومروءة، وبالأخص من علم وأدب أهم مما يتمتع به هؤلاء الوزراء.

● في تصور للعطاء يمكن اعتباره معياراً آخر يخرج الكرم عن مزاجيته ليجعله محكوماً بالرأي - العقل من ناحية وبالحق - العدل من ناحية ثانية، ويخرج التكسب من التملق والتذلل ليجعله قائماً على الإثارة الابداعية والمتعة الجمالية.

● وفي ذلك التزيق الفني والأسلوبي الذي يجهد لضمان الأسبقية في ميدان المديح، ويشير من خلال هذا النمط في التعامل مع اللغة والأساليب إلى نمط سائد في العلاقات قائم على التزلف والمراهننة والتدجيل، بقدر ما يشير إلى تعقيد هذه العلاقات وما تفرضه على أصحابها أو أطرافها من تصنع متزايد - وربما دخل في هذا السياق إشادة الشاعر المرجحة بتشيع المدح -.

2- قد نجد في عملية البحث عن الدلالات النفسانية للنص انطلاقاً من البنية العامة المكونة له تناسباً بينها وبين الدلالات الاجتماعية التي جئنا على ذكرها. فارتكاز المديح والتكسب فيه إلى طلب رعاية المدح للمتفرق والضعيف من المثقفين لا يتم فقط عن حاجة إلى حماية اجتماعية إزاء المضطرب والمتقلب والعسر الاقتصادي، وإنما يتم أيضاً عن حاجة إلى رعاية «فحولية» إزاء الحرمان الجنسي المتمثل في الانقطاع عن المرأة. يبدو هذا الانقطاع كما يقدمه القسم الأول، على المستوى النفساني، غير متعلق بامرأة بعينها بقدر ما هو متعلق بالجسد النسائي الذي يجيل، في لاوعي النص، إلى جسد الأم. فالمرأة تتحول في هذا القسم الغزلي من ذهلية غائبة حاضرة إلى عقائيل تجول بالعقل. . وموضوع هوى خلس. في هذا التحول إمعان في الإحالة إلى ذلك الجسد الأمومي الذي يبدو انقطاع تناوله المفاجيء مرتبطاً بما بلغه من كشفه ومتعلقاً باستحضار أبوي تدل عليه صيغة النداء المباشر فيه.

- يشير الأسلوب المعتمد خاصة في صيغته البيانية والبديعية إلى التوتر الذي يسود التعبير عن هذه العلاقة وإلى التماثل الذي يسعى من خلاله إلى تجاوزه. هكذا فإن الدلالة النفسانية لبعض الصور التعبيرية تتجاوز المرجعية الدلالية لها أو الأحكام المنطقية الموضوعية بصدها، مثلما هو الحال بصدد البيت الثامن حيث تبدو المبالغة المتطرفة لا تعبر عن رغبة جنسية جامحة بهوامياتها وحسب، وإنما تعبر أيضاً عن تجاوز الحدود بين المتعارضات والتأكيد على أن كل شيء ممكن ومباح، شعرياً على الأقل.

- إن استحضار المدح الأبوي الذي يأتي في القسم الثاني هو استحضار فحولي بامتياز، كما

تدل عليه الصيغ الاسلوبية المختلفة من الشهاب الثاقب والسيف القاصِل . . وصولاً إلى صاحب القلم الأعلى الذي لا يكف وصفه المطول عن الإحالة القوية إلى القضيبي بامتياز⁽⁴⁴⁾ . يقابل هذا الحضور الفحولي انغماس الشاعر بقوة (في القسم الثالث) في سمات انثوية مرتبط وجودها بموقعه التكميلي تحديداً . فمن رجائه السم إلى همته الحامل من أيام وعد المدوح، إلى قصيدته العاطل يتطلع حسنها إلى تحليتها من قبل المدوح يتأكد هذا الوضع الأنثوي - الدوني للشاعر .

- لكن هذه السمات الأنثوية ليست هي وحدها التي تخص الشاعر . فهناك تماثل بينه وبين المدوح في الفحولة أيضاً، وإن لم يبلغ فيه مدى المدوح، كما يدل على ذلك اشتراكهما في العلم والأدب . هذا التماثل الفحولي هو الذي يمثل أساس تطلعه إلى مشاركته في ماله وسلطته، أي في تحقيق رغباته المكبوتة من خلال ذلك . وما يجعل هذا التطلع مبرراً أيضاً موقع المدوح نفسه كذلك، حيث أن استدعائه كآب يحيط أبناؤه بالرعاية لا يحول دون التذكير ببنته (البيت 40) ولا بموقعه الدوني - كإبن كذلك؟ - إزاء طرف آخر هو الخليفة (البيت 47) ولا دون الأعمام إلى جوانب انثوية فيه (في البيتين 14 و 56)، وجميعها تشكل عناصر تماثل وتقريب بينه وبين الشاعر .

- على هذا النحو يتبدى المدوح أضحاً أكبر يتمتع بالجسد الأمومي الذي يرمز إليه هنا بالخلافة . فإذا كانت الخلافة علقاً نفسياً يتصارع من أجله المرء ومولاه والأب وابنه، فإنها أقرب ما تكون إلى جسد الأم . ويصبح ضمها من قبل المدوح إليه (في البيتين 27 و 28) استحواداً على هذا الجسد وتنعماً به في ظل الأب القاصر (الخليفة) . ولا يكون تطلع الشاعر لرعايته وعطائه إلا نوعاً من التطلع إلى مشاركته هذا النعيم الذي حرم منه، وبطريقة ماثلة، أي في ظل الأخ الأكبر . كأن في هذا التطلع محاولة لحل الأزمة الأوديبية سلمياً، بمشاركة الأبناء في التمتع بجسد الأم . وهكذا لا يلغي هذا التطلع التفاوت ولا التنافس بين الإخوة، وإنما يقيهما في حدود التأزر (الأبيات 14 و 15 و 54) .

(44) لا يخفى على الناظر اللبيب أن يلحظ مدى التقارب بين القلم الأعلى والقضيبي في هذا التصوير الذي يشير إلى شبة القلم التي تصيب الكلي، وإلى لعبه العسلي القتال، وإلى ريقته الطل والنابل، وإلى فصاحته راكباً وعمجته راجلاً، هذا القلم الذي يقوض الجحافل، وتأتي أعاليه أسافل، والجليل الشأن المرهف، والسمين الخطب الناحل . . . هذا مع الإشارة إلى أنه يجدر عدم قصر دلالة القضيبي نفسانياً على العضو الجنسي للرجل (راجع بهذا الصدد: د. عدنان حب الله: «الأنثوية بين الرجل والمرأة» في الفكر العربي المعاصر بيروت؛ العدد 23، كانون الأول 1982 - كانون الثاني 1983 (ص 85 - 90) ص 87) .

- ربما أتاحت هذه النظرة إلقاء ضوء جديد على الصور التعبيرية المختلفة، مثلما هو الحال بالنسبة للصورة البيانية الأولى التي يبدأ بها المديح (البيت 11) حيث يبدو ذكر الأم إثر انقطاع الغزل مرتبطاً بالأولاد في مقارنة تفيد أن العدد القليل من أبناء الأم (أم العلم - والعلماء) يتيح التفاهم بينهم والتمايز عن العدد الكبير من الأبناء الجهلة. ويصدق الأمر نفسه على صيغ النداء المختلفة التي يعتمدها الشاعر لمخاطبة المدوح مثلما هو حال تلك القائمة في نهاية النص للاستعطاف («أكابرنا» في البيت 60) المكملة والمؤكدة لهذه النظرة في التحليل.

- تجدر الإشارة أخيراً إلى أن صيغ البديع المعتمدة تتمتع بأهمية خاصة. ذلك أنها في تعبيرها عن هذه الأوضاع المتوترة من التعارض والتناثر في أحوال الذات كما في علاقاتها، تشي كذلك بازدواجية الشاعر الجنسية في عشقه للغلمان كما في غرامه بالنساء، وتفضح بذلك دوراً أساسياً بين الأدوار التي تؤديها، بقدر ما تسهم الرغبة الدفينة بالجسد الأموي في تفسير الازدواجية المذكورة. وفي هذا الصدد يمكن فهم إشادة الشاعر بقلم المدوح باعتبارها أبعد من تعظيم لفحولة المدوح، ومن خلاله لفحولة الشاعر، دليلاً آخر عن العلاقات المثلية الجنسية التي يومية النص إليها.

● لا تمثل هذه الإشارات الموجزة إلى الأبعاد الدلالية الاجتماعية والفسانية للنص بلورة نهائية لمعطياتها، وتبقى على كل حال خطوطاً أولية عامة تضيء مقاربة أولى له على هذين المستويين توضح مدى تناسبها وتلاؤم طرحهما البيوي مع ما سبق توضيحه على مستويات أخرى، مما يرفد جمالية النص بمزيد من الكثافة والغنى، بقدر ما يكشف عن حقول دلالية متشابكة وغنية السمات. وقد تسمح معالجة نصوص أخرى، والاستعانة بمراجع أدق وأوسع عن الشاعر ومجتمعه بمقاربة أفضل.

الفصل الثالث

من الشعر النضالي الملتزم:

دراسة نص لحسان بن ثابت الأنصاري (50 هـ - 670 م):

«إن الذوائب من فھر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع...»

● نص الدراسة

* مقدمة: في النص النضالي

أولاً: بنية القصيدة: النموذج الإسلامي في جدالية الترغيب والترهيب

ثانياً: التعرف التعليمي: النموذج الجدير بالاتباع

ثالثاً: نصح تهويلي وثناء إرشادي

رابعاً: أبعاد جمالية ودلالية

نص الدراسة⁽¹⁾

1 - إن الذوائب من فهد وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
 1 0/0/0 0/0/0/0 0/0/0 0/0/0/0 0/0/0/0 0/0/0/0

(1) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري بيروت، دار صادر، د. ت. ص ١٤٥ - ١٤٦.

وهذه القصيدة تأتي تحت عنوان «مفخرة بين الزبيرقان وحسان» وفي سياق إخباري نثبه هنا لفائدته:
 «وكان وفد على رسول الله ﷺ، وفد بني تميم سنة الوفود، بعد فتح مكة، فيهم عطار بن حاجب بن
 زرارة، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، ونعيم بن زيد، وعتبة بن حصن بن حذيفة بن بدر،
 والأقرع بن حابس في لفهم ولفيهم، ودخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ، من وراء حجراته أن اخرج
 إلينا يا محمد، فتأذى رسول الله ﷺ، من صياحهم، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد! جئناك لتفأخذنا
 لشاعرنا وخطيبنا، قال: قد أذنت لخطيبكم، فليقل، فقام عطار بن حاجب فقال: الحمد لله الذي له
 علينا الفضل، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً وهب لنا أموالاً عظيمةً نفعل منها المعروف، وجعلنا أعز
 أهل المشرق، وأكثره عدداً، وأشدّه عداً، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن
 فآخرننا فليعد مثل ما عددناه. وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكننا تنحننا عن الإكثار، وأقول هذا لأن تأتوا
 بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا. ثم جلس. فقال رسول الله ﷺ، لثابت بن قيس الخزرجي: قم فأجب
 الرجل في خطبته، فقام ثابت بن قيس فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره
 ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فعله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خير
 خلقه رسولاً أكرمه نسباً، وأصدق حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه واتمته على خلقه، وكان خيرة
 العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس
 أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، وخير الناس فعلاً، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب الله حين دعاه رسول
 الله ﷺ، فنحن أنصار الله ووزراء رسول الله نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع بماله
 ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، أقول هذا، وأستغفر الله لي وللمؤمنين
 والمؤمنات، والسلام عليكم. فقام الزبيرقان بن بدر التميمي فقال:

نحن الكرام، فلاحني يعادلنا،	منا الملوك، وفيينا يتقسم الرُبُعُ
وكم قرنا من الأحياء كلهم،	عند النهاب، وفضل العز يُتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا،	من الشواء، إذا لم يؤنس القزع
ثم ترى الناس تأتينا سراهم	من كل أرض هُويوا ثم نصطنع
فنسحر الكوم عبطاً في أرومتنا	للسازلين، إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم،	إلا استقادوا وكانوا الرأس يُتقطع =

= إنا أبينا، ولم يأب لنا أحد، إنا كذلك عند الفخر نرتفع
فمن يقادُرنا في ذلك يعرفنا، فيرجع القوم والأخبار تُسمع
وكان حسان بن ثابت غائباً، فبعث إليه رسول الله، ﷺ، قال حسان: فلما جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما
دعاني لأجيب شاعر بني تميم خرجت إلى رسول الله، وأنا أقول:

منعنا رسول الله، إذ حل وسطننا، على أنف راضٍ من معنٍ وراغم
منعناه لما حل وسط بيوتنا، بأسيافنا من كل باغٍ وظالم
قال: فلما انتهيت إلى رسول الله، ﷺ، وقام شاعر القوم، فقال ما قال عرضت في قوله، وقلت على نحو
ما قال، فلما فرغ الزبيرقان بن بدر من قوله قال رسول الله لحسان: قم يا حسان فأجيب الرجل فيما قال؛
فقال حسان:

إن الذوائب من فهر وإخومهم قد بينوا سنة للناس تتبع
(... [إلى آخر النص])

فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله قال الأقرع بن حابس: وأبى إن هذا الرجل لمؤق له، لخطيه أخطب من
خطينا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم
رسول الله، ﷺ، فأحسن جوائزهم. (المرجع المذكور، ص 143 - 146).

من الجدير بالذكر هنا أن بعض الباحثين يثبت نص القصيدة في ترتيب مختلف (راجع: د. سيد حنفي
حسني: حسان بن ثابت شاعر الرسول القاهري؛ وزارة الثقافة والإرشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب (20) د. ت. ص 179 - 181) وهو ما لا يمكن
الاطمئنان إليه باعتبار أنه مستند على الأرجح إلى نسخة خطية من ديوان الشاعر بمعهد المخطوطات العربية
كما يشير إلى ذلك ثبت المراجع (ص 231) دون أي تحديد لمكانها ورقمها وصاحبها وتاريخها. . . ونص
الديوان المعتمد من قبلنا هو نفسه الذي نجده كذلك في شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ضبط
وتصحیح عبد الرحمن البرقوقي؛ بيروت - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع 1978 ص 304 - 307،
وإن اختلفت رواية بعض الألفاظ القليلة جداً، وأجدها بالذكر ذلك الخاص بالبيت الواحد والعشرين
حيث يرد «قلب» بدل «قوم» الموجود في نص الديوان.

إلى ذلك فإن البيتين السابقين على هذا النص هما جزء من ميمية مثبتة في الديوان نفسه (ص 229 - 230)
حيث يردان بترتيب آخر أو رواية أخرى (راجع ص 229). والرواية والترتيب المعتمدان من قبل د. سيد
حنفي حسني في كتابه المذكور أعلاه لأبيات أربعة منها مختلفان عن ذينك الواردين في الديوان (راجع كتاب
حسني ص 172)، ولكنها يتفقان مع الرواية والترتيب اللذين يعتمدهما شرح ديوان حسان بن ثابت
الأنصاري المذكور آنفاً في سياق تقديمه للعينية «إن الذوائب من فهر. . .» (راجع ص 302 - 303) في حين
أنه يعتمد في المامش رواية وترتيباً يتفقان مع نص القصيدة الميمية الكامل المثبت لاحقاً فيه (راجع ص
439 - 441) والمطابق للنص الوارد في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري المذكور سابقاً. وتأتي أبيات المامش
ضمن ملاحظة جديرة بالتسجيل حيث يثبت الشارح: «قال بن هشام: حدثني بعض أهل الشعر من بني
تميم أن الزبيرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا، إذا احتفلوا عند اختصار المواسم
بأننا فروع الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم =

- 2 - يرضى بها كل من كانت سريرته
 1 ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه
 3 - قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهم
 + ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه
 4 - سجية تلك منهم غير محدثة
 2 ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه
 5 - لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم
 1 ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه
 6 - إن كان في الناس سابقون بعدهم
 1 ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه
 7 - ولا يضمنون عن مولى بفضلهم
 3 ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه
 8 - لا يجهلون، وإن حاولت جهلهم،
 1 ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه
 9 - أعفة ذكرت في السوي عفتهم
 3 ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه
 10 - كم من صديق لهم نالوا كرامته
 1 ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه
 11 - أعطوا نبيّ الهدى والسر طاعتهم
 1 ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه ه//ه//ه

= وأنا نذود المعلمين إذا انتخوا
 وأنا لنا المرباع في كل غارة
 (...) فقام حسان فأجابته وقال:
 هل المجد إلا السؤدد العبود والسندى
 ونضرب رأس الأصيد المتفاسم
 تغير بنجد أو بأرض الأعاجم
 وجاء الملوك واحتمال العظائم»

... الخ (راجع الملاحظة رقم (5) ص 302 - 303).
 وأوضح أن هذه الرواية الأخيرة التي تذكر حضور حسان وقيامه بالرد على أبيات الزبيرقان الأولى تتناقض مع
 الرواية الأولى التي تشير إلى غيابه واستدعاء النبي له، كما أنها تدخل مفاخرة شعرية أخرى إلى جانب
 الأولى التي تكتفي الرواية السابقة بإثباتها. إنما لا يخلو ديوان حسان... وشرح ديوان... في إثبات كل
 منها للميمية المعنية هنا من الإشارة إلى أنها قيلت «يوم الوفادة أي يوم وفود بني تميم على النبي» (راجع
 ديوان... ص 229، وشرح... ص 439).

- 12 - إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم
 أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا
 13 - ما زال سيرهم حتى استقاد لهم
 14 - خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا
 15 - فإن في حربهم، فاترك عدواتهم
 16 - نسمو إذا الحرب نالتنا مخالها
 17 - لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم
 18 - كأنهم في الوغى والموت مكتنع
 19 - إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم
 20 - أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
 21 - أهدى لهم مدحي قوم يؤازره
 22 - فإنهم أفضل الأحياء كلهم
- أهل الصليب ومن كانت له البيع
 ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
 شراً يخاض عليه الصاب والسلع
 إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
 وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
 أسد بيثشة في أرساغها فدع
 كما يدب إلى الوحشية الذرع
 إذا تفرقت الأهواء والشيع
 فيسا يجب لسان حائك صنع
 إن جد بالناس جد القول أو شمعوا
- 1
 2
 1
 2
 1
 2
 3
 2
 2
 1

* مقدمة : في النص التضالي

لا يبرز الإطار الذي جاءت قصيدة حسان بن ثابت الأنصاري هذه ضمنه في ديوانه من تقديم وتذييل⁽²⁾ فقط الظروف التي أحاطت بالقصيدة واستدعتها، بل أيضاً الدور الذي لعبته في حقبة تاريخية مليئة بالتغيرات وبالصراعات التي ميزتها.

يعتبر فتح مكة سنة 630م في موقعه حُنين إثر ثماني سنوات من الهجرة منها بدأت سنة 622، وتحللتها معارك وصدامات عدة بين المسلمين بقيادة النبي محمد وبين أعدائهم من المكيين بقيادة أبي سفيان بن حرب تعتبر موقعة بدر (انتصار محمد سنة 624) وموقعة أحد (هزيمته سنة 625) وموقعة الخندق (حصار مدينة يثرب سنة 627) من أشهرها، تحولاً أساسياً في هذه الحرب ومفترقاً حاسماً في مصير الدعوة الإسلامية. إذ أن هذا الانتصار، كما تمثل في استيلاء المسلمين على واحد من أهم المراكز التجارية - الاقتصادية والدينية - الثقافية والقبلية - السياسية في شبه الجزيرة العربية، شكل خللاً نوعياً في توازن القوى القلق والمضطرب الذي كان سائداً قبله بينهم وبين معارضيه، بحيث أنه استقر إلى حد كبير لصالحهم، وغير بالتالي من المعطيات الدينية والسياسية والاجتماعية التي كانت سائدة حتى حينه؛ مما دفع القبائل العربية لتحديد موقفها النهائي من الدين الجديد فكانت سنة الوفود التي جاءت النبي في مكة تتعرف إليه وتختبره وتقرر ما تراه بشأنه، خاصة وأن معظم أعيانها كانوا قد سمعوا بهذا الدين واطلعوا على بعض من أطروحاته، إما في لقاءات مباشرة مع النبي في المدينة (يثرب) أو عبر وسطاء تيسر لهم مثل هذه اللقاءات، وإما عبر بعثات كان النبي يرسلها للاتصال بهذه القبائل والدعاية للدين الإسلامي الجديد أو مبادرات خاصة ممن تكون لديهم فكرة أو تصور ما عن هذا الميدان.

في هذا السياق تأتي زيارة وفد بني تميم للنبي في مكة⁽³⁾. ويتضح من رواية الخبر

(2) راجع الملاحظة السابقة، وديوان حسان بن ثابت الأنصاري ذكر سابقاً، ص 143 - 145 وص 146.
(3) تميم قبيلة عربية تنسب إلى تميم بن مُر بن إد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان؛ بينما ترجع قريش في نسبها إلى فهر بن غالب بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، =

الموطىء للقصيد أن اللقاء أبعد من أن يكون لقاء جدل أو نقاش حول المسائل والقضايا الدينية أو السياسية، كان لقاء مفاخرة كلامية. إلى هذا الوضع يشير العنوان الداخلي: «مفاخرة بين الزبيرقان وحسان». في واقع الأمر، كان لهذه المفاخرة الكلامية وجهان، نثري تمثل في خطبتي عطار بن حاجب بن زرارة التميمي وثابت بن قيس الخزرجي، وشعري تجسد في قصيدة أو مقطوعة الزبيرقان بن بدر التميمي ومعارضة حسان له في هذا النص موضوع البحث.

ربما كان في هذه التوطئة إشارة ضمنية قوية للشكل الذي اتخذته الصراع الاجتماعي - السياسي والفكري - المعتقدي في تلك الفترة، وبالتالي للصيغة المتميزة التي اعتمدها الدعوة الإسلامية بارتكازها إلى النص الإعجازي. فحين لا يحتكم للسياق المجري الاحتكام للكلام. فهذا الأخير هو وسيلة الصراع «السلمي»، الوجه الآخر للصراع «الحربي». وإذا كان السيف يقطع ويحسم (وهو «الحسام») فإن الكلام يصل ويجرح (فالتكلم تحدث بعد تهاجر أو محادثة بعد صرم أو انصرام والكلم والتكلم الجرح كما أن التكلم التحديث...). فالحسام (السلاح) لا يكون لغير البتر والقتل، بينما يتردد الكلام بين التراضي والتطاعن؛ ولذلك يكون المدى الذي يشغل الحيز الفاصل بين حريين هو مجال الكلام بامتياز. يغلب فيه الجانب الأول (التراضي) إذ يأتي بعد إحداهما مكروساً سلمياً انتهت إليه، أو يغلب فيه الجانب الثاني (التطاعن) إذ يأتي قبلها معبئاً ومهيئاً الأجواء القتالية اللاحقة ومبادراً إلى المساهمة فيها. أما إذا جاء في خضم الحرب وبين مواقعها، بعد انتهاء مرحلة وأثناء التحضير لأخرى، كما كان عليه الحال في تلك الفترة التي تلت مباشرة سيطرة المسلمين على مكة، فإن غلبة التطاعن في الجانبين اللذين قد يتداخلان تصبح طاغية؛ علماً أن السيف هو الذي يرسم في حده حدود هذا الكلام وفضاءه التعبيري. هكذا كان فتح مكة إذن فتحاً لباب الكلام على حد السيف الذي يسره، وعلى حد السيف الذي سينطلق منه نحو أفق جديد.

وقد تعطي المفاخرة النثرية صورة عن هذا الوضع، وعن المفاخرة الشعرية اللاحقة لها كذلك. فخطبة عطار بن حاجب اعتداد مباشر باستئثار قبيلته بالمزايا التي كانت موضع اعتزاز وتفخر بين القبائل على تفوق يجعلهم «رؤوس الناس» وذلك بفضل الله ومنه. فهو الذي جعلهم على درجة عالية من العظمة والغنى والجاه وكثرة العدد وشدة العدة و«ملوكاً» و«أعز أهل المشرق». إنهم يأتون عمل الخير ويعتمدون التواضع لثقتهم بأنفسهم ويأمن أحداً

= ومنها النبي ومعظم المهاجرين؛ في حين كان ثابت بن قيس وحسان بن ثابت من الخزرج، وهم مع الأوس مسلمو يثرب الذين عرفوا بالأنصار، وهم من أصل واحد من القبائل اليمنية التي انتقلت إلى الشمال بعد انفجار سد مأرب بين 540 - 570 م. والتي تعود إلى قحطان أبي قبائل اليمن العربية مقابل عدنان أبي القبائل الشمالية.

لا يمكنه منافستهم في غير عزمهم ومجدهم، وها هم في ميدان المفاخرة، فليبرز لهم من لديه شكٌ بذلك.

منطق الخطبة هنا قبلي فاضح، لا يأتي ذكر الله فيه إلا ليكرس العنجهية القبلية الاستعلائية فلا يضيف إلى المعايير القبلية السائدة جديداً، وإنما يدعمها ويقويها. وهي معايير تقوم على القوة والبأس والسيطرة والتفوق. لذلك يرتبط ذكر الله بهذا الدور الذي يناط به ويقتصر عليه. وتأتي الصيغ الإنشائية من استفهامية وطلبية معبرة عن هذه العنجهية بتحديها واستفزازيتها.

استجابة لهذا التحدي تأتي خطبة ثابت بن قيس لدحض الادعاءات المعلنة فيها وتأكيد أخرى بدلاً منها. الكلام المتبادل هو أقرب ما يكون إلى التطلع من شيء آخر. وهو يتخذ هنا صيغة منازلة فردية تقوم على توجيه الضربات وردّها. ينتصر فيها من يحسن ردّ ضربات الخصم ويتمكّن من إصابته بلباقة وشدة. وهذا بالتحديد ما يفعله ثابت.

فرداً على تأكيدات عطارده وتساؤلاته يعلن ثابت أن الله جعل المسلمين «ملوكاً» واختار أفضل الناس إطلافاً لرسالته واثمنه على خلقه وكان خيرة «العالمين». لكنه لا يكتفي بالرد فهو يستكملهم بالمجوم حين يربطه بالدعوة للإيمان بالنبي محمد جاعلاً من الموقف من هذه الدعوة مقياساً للمجد والعظمة والخير أو الذل والمهانة والاحتقار، ومقياساً في الوقت نفسه للحياة أو الموت. وبذلك يتخطى بكثير موقف خصمه ويتجاوز منطقته. فالمنطق المعتمد هنا منطق إسلامي لا لبس فيه. إن النظرة إلى الله ليست سطحية أو هامشية كما لاحظنا في الخطبة الأولى، وإنما هي عميقة ومقرّرة. فقدرة الله المطلقة في الوجود بأكمله، ولا تقتصر على فئة أو قبيلة، والسلطة التي أولاها للمسلمين مرتبطة بالرسالة التي كلف بها نبيهم الذي يحمل كتابه (القرآن) ويرعى خلقه. لذلك كانت دعوة الله «الناس إلى الإيمان به» دعوة للناس أجمعين. وإذا كان المهاجرون (من مكة)، أكرم الناس وأحسنهم، أول المستجيبين لها، فإن المسلمين بأكملهم «أنصار الله ووزراء رسول الله». على الخلق جميعاً إذن أن يختاروا بين هذا الإيمان الذي يحفظ لهم ما لهم وحياتهم، وبين الكفر الذي يعرضهم لقتال المسلمين والموت.

من الملاحظ أن هذا المنطق منطوق ديني وليس قسرياً. وإنه بالتالي ينقل التحدي من حيز إلى آخر، ومعه مضاعفاته. فهو لا يعبأ كثيراً بدحض ادعاءات الآخر بقدر ما يعنى بعرض حيثيات الدين الجديد ومرتكزاته، وبأبعاد العظمة الجديدة التي يقوم عليها. وهي عظمة تستوعب عظمة الآخر القديمة وتتجاوزها، ولا تتناقض معها إلا بقدر ما يكفر الآخر بها. بناء لهذا المنطق الثنائي يضع النص الإسلامي (النثري) الطرف الآخر أمام واحد من

خيارين: إما الإيمان والانضمام بالتالي إلى بقية المسلمين وكرام الناس، وإما الكفر وبالتالي مواجهة هؤلاء المسلمين، مواجهة لا تعني غير القتال والقتل. على هذا النحو يخرج الكلام من حيز القول إلى حيز الفعل، من مجال التفاخر اللفظي إلى مجال الاحتكام إلى السلاح. ويجلو النص موقفاً كأنه يجلو سيفاً. هذا الموقف موقف توحيدى. إنه، عكس الآخر القبلي، لا ينفي الآخر بل يستدعيه ويسعى لاحتوائه، ويفتح بالتالي أفقاً جديداً في العلاقات والقيم السائدة حتى حينه. وهو، في ذلك كله، يستوحى الطرح الإسلامى كما كان يتجسد في القول القرآنى. بل إنه يستوحى من النص القرآنى معانيه وتعايره كما يتضح في هذا التقديم للعظمة الإلهية الذي يعلن تصوراً للكون والوجود، وفي هذه الخاتمة التي تبدي عن بعد إنساني يشير إليه ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين مما يقوي من الفارق بين الموقفين الإسلامى والقبلي. يؤكد ذلك كله أسلوب مختلف عن النص القبلي بغياب أي صيغة إنشائية فيه، وبتميزه في اعتماد الإخبار القريب من القصص في طرح موضوعاته؛ وخاصة في منطقة الثنائي من التطمين والتهديد الذي يؤدي إلى صيغ الشرط والمقابلة؛ وأخيراً في صيغة الدعاء في الخاتمة التي تتجاوب مع دعاء الافتتاح معلنة طابعاً إسلامياً عاماً للنص.

لكن الخطبتين تشبان أيضاً بسلمات اجتماعية - تاريخية قد يكون من أهمها كون الفئمة الإسلامية الجديدة مدنية أو حضرية بشكل واضح مقابل فئات معارضة أو وافدة تغلب البداوة على سلماتها. فالوفود المقبلة إلى النبي هي وفود القبائل ذات الطابع البدوي البارز، وتصرفاتها وأقوالها وأحكامها... جميعها بدوية - بدائية. إزاءها يستند النبي إلى فئات حضرية بامتياز، إلى جماعات تعيش في المدن ومتحدرة من تراثها الحضاري، إلى الخبزج من المدينة القحطانيين القادمين من اليمن. وليس صدفة أن يجد النبي أنصاره في هذه الفئات الاجتماعية قبل وأكثر من سواها، إذ أنها أكثر انفتاحاً ومعرفة، كما أنها أقل عصبية وجموحاً؛ وهي أكثر اتزاناً وإحساساً بالسلطة وخضوعاً لها إزاء تمرد البدو وشغفهم بالحرية واللائنضباطية، هذا ما يفسر جزئياً مواجهة الادعاءات البدوية الجماعية بنظام متناسك في العرض والتفسير، على اعتدال ووضوح في المنطق والتعليل.

ليس البعد القبلي مع ذلك غائباً، بل إنه بارز بقوة، إنما يتخذ وضعاً جديداً؛ حيث أنه لم يعد هو المعيار الوحيد في الأحكام المعتمدة، بل إنه لم يعد هو العنصر الأساسي فيها. إنه مكون من مكونات عدة يحكمها جميعاً البعد الديني المهيمن بامتياز: الإيمان بالله ورسوله. هكذا فإن الإشارة إلى أكرم النسب وأفضل الحسب وأحسن الوجوه ليست مقصودة بحد ذاتها، وإن كان لها أن تترد على ادعاءات الآخر فلإنها معتمدة لتبيان أهمية الدين الجديد

وخطره العظيم. كما أن اصطناع القيم والمقاييس القبلية هنا ليس للتعريض بالآخرين كما هناك، وإنما لاستدراجهم إلى الدعوة الإسلامية الجديدة. فكأن البعد القبلي صلة وصل بين واقع قائم وبين مشروع ينجز، كأنه وسيلة بعد أن كان غاية بحد ذاته، وسيلة لغاية تتخطاه دون أن تتناقض معه. قد يكون هذا الاعتماد الضمني للبعد القبلي هو ما يجعله يأتي متضمناً في السياق الديني للنص.

ضمن هذه المعطيات بالتحديد تدخل قصيدة الزبرقان. إنها مفخرة بدوية مشبعة بروح التعالي والمبالغة، وروح التفوق والسيطرة على الجميع دون استثناء. مرجعها كما مألها قبليان قبل أي شيء آخر. كأنها تأكيد لخطبة عطار بقدر ما هي رد على خطبة ثابت وتهديده. يكاد مضمونها يختصر في شطر بيتها الأول الذي يؤكد الكرم والسطوة على تفوق مطلق، وذلك بقدر ما يعني الكرم في مفهومه القبلي من سخاء وأنفة وعظمة. . . والسطوة من مجد وعز وسيطرة. . . لكن أهميتها قائمة في هذه الصيغة الشعرية التي تعتمدها، والتي ترفدها بقيمة جمالية خاصة. إذ يبرز ادعاؤها الكبير في اعتماد ضمير جمع المتكلم الذي يقيم، بالإضافة إلى تعبيره عن العصبية القبلية - الجماعية في طغيانه على الأبيات جميعاً، توازناً واضحاً فيها فتأتي بناء لكللماتها الأولى على ازدواج متعاقب: اثنين اثنين. . . (نحن - نحن) (نحن) ننحز - (نحن) إنا). كما تأتي ثنائية الكرم والتفوق على تجاور وتداخل في وحدات النص المختلفة، حيث تتبع كل وحدة (بيتين) الأخرى لتعلن جانباً من جوانب الفخر ضمن تشكل ثنائي يتخذ الصيغة التالية:

الأولى: اعتداد بالكرم والغلبة، والكرم هنا يعني العز أو الجاه الاجتماعي، والغلبة القوة والسيطرة المطلقة (في البيتين الأولين)؛

الثانية: اعتداد بالكرم والمجد، أي بالبذل والسخاء في أصعب الظروف وأقساها، وبالولاء الذي يعلنه لهم أسياد الأقوام وأربابهم (في البيتين الثالث والرابع).

الثالثة: اعتداد بالكرم والتفوق عطاء وسيادة لا يحدان (في البيتين الخامس والسادس)؛

الرابعة والأخيرة تقدم استنتاجاً لذلك كله: تبرير المفاخرة في منعة تميم المطلقة التي تؤكدتها التجارب في الفعل والقول (في البيتين الأخيرين السابع والثامن).

هكذا تتردد الثنائية القائمة في مضمون النص ودلالته مشفوعة بعلاجات نحوية تؤكدتها. كما يكرس هذا التوزيع الثنائي وتميز الاستنتاج فيه التوازي القاسم في عروض كل وحدة، حيث يتعاقب ضمير الجمع الموصول للمتكلم مع ضمير جمع الغائب الموصول، ليزول موقع «نا» إلى العروض الأخيرة ويحل مفرد «أحد» مكانه ويزول بذلك «هم» نهائياً.

يتجاوب مع هذا التوزيع الدلالي - النحوي توزيع إيقاعي يميز تطابق وحداته العروضية أوضاعه. فهناك أربعة أبيات متطابقة: الثاني والخامس من ناحية، والرابع والسادس من ناحية ثانية. ولا يعلن هذا التطابق وحدات النص وحسب، حيث يؤلف الخامس والسادس وحدة، وينهي كل من الثاني والرابع وحدة خاصة به، ويبقى البيتان الأخيران وحدة متميزة عما سبق، ولكنه يعلن أيضاً احتواء الوحدة الثالثة لما يتضمن في كل من الوجدتين السابقتين. مما يعطي هذه الأبيات بعداً جمالياً خاصاً لا يمكن إغفال تأثيره الإيجابي على أبعاده الدلالية، وخاصة منها الفكرية - المعنوية ومضاعفاتها الاجتماعية - السياسية.

في هذا الشعر البدوي - على خلاف النثر السابق - لا ذكر لله (البعث الديني) على الإطلاق. إنه ميدان العنجهية البدوية بامتياز. ولكنه أيضاً ميدان المدافعة والمهاجمة. ففي هذا النص الشعري رد على دفاع ثابت باستعادة التأكيد على عظمة وسيادة بني تميم، ورد على هجومه بإبراز ما بدا خافتاً في خطبة عطار حول بأس القبيلة وسطوتها وذلك عبر الإشارة إلى إرغامها لقبية القبائل وإخضاعها لجميع الناس مهما كانت قوتهم وشراستهم. وفي ذلك، خاصة في الأبيات الثلاثة الأخيرة، رد على التحدي الإسلامي بتحد مقابل يثبت مناعة القبيلة بقدر ما يعلن بطشها الأكيد. والملاحظ أن هذا النص يهمل الطرح الديني للأمر (الإسلامي) ليعود للتركيز على الطرح القبلي دون سواه. فكان التطلع الكلامي يتزامن مع تجاذب قيمى يسعى كل طرف فيه لجعل المعركة تدور على أرضه، على الأسس وبالفاهيم التي يتبناها.

ردة فعل حسان بن ثابت الأولى، إذ استدعى للرد على الزبيرقان أو في معارضته قوله الأول - حسب الرواية - دينية - قبلية - ومآلها السيف. إنها بدورها تأكيد لطرح ثابت حول الرسالة الدينية الجديدة. لكن هذا التأكيد بسيط وهامشي إزاء الزخم القبلي الذي يطغى على القول. وطفغان الوجه القبلي في ردة الفعل الأولى معادل للبناء التفاخري الزبيرقاني - التميمي. وهو يتمثل في تأكيد البعد الجماعي باعتباره عصبية جماعية - قبلية متعالية عبر اعتماده ضمير جمع المتكلم في مطلع البيتين الأولين وفي عروض كل منهما، وفي انصرافه إلى العنصر القبلي الخالص ليس في الوسيلة المعتمدة لحيازة النبي وإنما أيضاً في التصور الفكري للمجد والعظمة. بل إن الطرح القبلي لا يستبعد استشارة الصراع العريق بين العدنانية والقحطانية، ويكاد الفخر بالذات القبلي يحتكر القول المباشر ليؤكد تجاوز البعدين القبلي والديني لدى أولئك المسلمين؛ وهو تجاوز يفيد الدين الجديد برفده بالقوى والقيم القبليّة القديمة فيتضافران، ومن

حين لآخر يطغى أحدهما على الآخر حسب المعطيات القائمة⁽⁴⁾.

لا يغيب هذا الوضع عن الطابع العام للقصيد موضوع التحليل⁽⁵⁾ كما ستتاح لنا فرصة التعرض بالتفصيل لها. لكننا نلتمع هنا إلى أن مرجعها المباشر هو النص الآخر، قصيدة الزبيرقان. فهذا النص يحدد لها موضوع التعبير ومجاله باعتبارها رداً استدعاه النص المذكور، كما يفرض إطاره وشكل صياغته بقدر ما يستوجب التزامات في القول ليس احترام الوزن والقافية إلا بعضاً من وجوهها. فالنص موضوع الدرس جدالي ينجدل على نص آخر، ويسعى في هذا الجدل - الانجدال إلى التفوق عليه (جندلته؟). إنه يخوض على المستوى الكلامي حربه الخاصة، نزال الخصم في ميدان المواجهة الحاسم. وهو في مهمته المذكورة لا يهدف إلى دفع تهمة خاصة أو تأكيد عظمة ذاتية له بقدر ما يهدف إلى الانتصار لقضية وإلى نصره مبدأ، مما يجعل منه نصاً ملتزماً، نصاً نضالياً.

لا يبين دور وأهمية هذا القول إلا في سآله، في النتيجة التي يصل إليها ويحققها وهي إسلام وفد بني تميم. فانضمام هذا الوفد إلى جماعة المسلمين لم يجر لاقتناعه بالأطروحات الدينية لدعوتهم، وإنما لنجاح وتفوق كلامهم النثري والشعري على نثره وشعره. في هذه المنازلة الكلامية لم يكن للنبي دور مباشر، فليس هو الذي تصدى للخطيب أو الشاعر التميميين، لكنه في المقابل قام باختيار من رد عليهما؛ وبذلك كان يدير المعركة حريصاً على انتقاء الكفو لها للانتصار فيها، واعياً لخطورتها ومضاعفاتها، فيؤدي دور القيادي بامتياز من قبوله التحدي وخوض المجابهة والمضي فيها حتى بلوغ النصر والغلبة.

(4) هذه الإشارات السريعة تحاول فقط وضع نص الدراسة في إطاره وسياقه التكويني، وإذا صحّت رواية ابن هشام فقد يكون من المناسب وضع هذين البيتين أو الأبيات الأربعة بدليتها أو - وهذا أصح - القصيدة الميمية بأكملها في معارضة أبيات الزبيرقان الميمية الأربعة الأولى (راجع الملاحظة رقم (1) أعلاه) ودراستها جميعاً على هذا الأساس. وربما جاءت ميمية حسان في هذا الإطار أشد قوة وعنفاً في التعبير، وأكثر زخماً وعصبية قيليتين، وأفضل انتظاماً وتماسكاً من العينة موضوع الدراسة، كما أننا هناك نربط وتلازم بين البعدين القليل والشعري لا يمكن فصله عن التطور التاريخي - الاجتماعي الذي حكم المسيرة الشعرية العربية حتى ذلك العهد.

(5) يعدها البعض من أفضل قصائد الشاعر الإسلامية، فالدكتور سيد حنفي حسنين في حسان بن ثابت شاعر الرسول (ذكر سابقاً) يعتبر قصيدتي حسان:

عفت ذات الأصابع فالجسواء إلى عذراء منزلها خلاء
... الخ.

وإن السذائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تنبوع
... الخ «من أشهر ما مدح به حسان رسول الله...» (ص 172).

ضمن هذا الإطار يجدر فهم موقف النبي هنا من اصطناعه الخطباء والشعراء في خضم المسيرة النضالية لدعوته الدينية، وموقفه العام من الشعر والشعراء عامة في الحديث كما في القرآن، باعتبار الكلام الجبالي سلاحاً فكرياً ومعتقدياً خطيراً. وفي الإطار نفسه يجدر فهم ما يقوله البعض من أن حسناً كان سلاحاً خطيراً في أيدي المسلمين لا يقل عن أسلحتهم الحربية الأخرى فهو صحيفتهم اليومية وهو لسان دعائيتهم. وقد قدر الرسول هذا كله فكان يدعو له قائلاً «اللهم أيده بروح القدس» ولقد تطورت هذه الفكرة عند بعض المسلمين حتى قالوا إن جبريل كان يمدّه بأبيات تساعد في نظم قصائده⁽⁶⁾ أو ما يذكره البعض الآخر من أن النبي كان «يقول له: «اهجهم وروح القدس معك». وكان أبو بكر يدلّه على معائب القوم ومثالبهم، وعلى من ينبغي هجوها من النساء⁽⁷⁾ بسبب ذلك خاصة كانت لحسان بن ثابت تلك المنزلة الرفيعة لدى النبي وبين المسلمين. وهو وإن لم يكن النابغة قد قدمه على شعراء آخرين كالأعشى والخنساء قبل الإسلام⁽⁸⁾ فإن عمرو بن الحارث الأعرج القسائي، كما يروي أبو عمرو الشيباني الكوفي، فضله على النابغة نفسه وعلى علقمة بن عبدة (الفحل) واعتبر لاميته:

لله در عصابة نادمتهم بجلق في الزمان الأول...

البتارة التي بترت المدائح⁽⁹⁾.

في جميع الأحوال، هناك تأكيد على الحيز الخطير الذي شغله الكلام في مطلع الدعوة الإسلامية ليشكل جزءاً لا يتجزأ من نضالها العام. وإذا كان لنا أن نمضي أبعد مما فعلنا في الخروج عن النص فإننا نشير إلى أن التزاماً بالإسلام على النمط الذي قام به وفد بني تميم لا يستبعد النكوص عنه في أي مناسبة مؤاتية، وقد جاءت هذه بوفاة النبي. فكانت الردة وحروبها، وكان بنو تميم بين المرتدّين عن الإسلام حتى ردهم خالد بن الوليد إليه، وجيئهم

(6) المرجع السابق ص 174.

(7) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ذكر سابقاً، ص 5.

(8) يذكر أن النابغة قال للخنساء بعد أن أنشدته في عكاظ بعد الأعشى وحسان رثاءها أخاها صخراً: لولا أن أبا بصير أنشدني لقلت إنك أشعر الجن والإنس...

راجع الدكتور إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب/ نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، بيروت، دار الأمانة - مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1971، ص 19.

(9) المرجع السابق ص 12 - 14.

واللامية المذكورة هنا هي تلك التي مطلعها:

أسألت رسم السدار أم لم تسأل بين الجواهي فالسُفُيع فحومل

راجع ديوان حسان بن ثابت الأنصاري المذكور سابقاً، ص 178 - 181.

في فتح الكوفة والبصرة وخراسان كما يذكر المؤرخون. إلا أن ما يهنا هنا، وما ستوقف عنده هو نص حسان بن ثابت بالتحديد الذي جاء في خضم هذه الصراعات والتحويلات الحاصلة.

أولاً: بنية القصيدة: النموذج الإسلامي في جدالية الترغيب والترهيب

يبدو هذا النص بأكمله وكأنه مرافعة احتجاج، تقوم بالدفاع عن قضية والترويج لموقف تحذر من معارضته وتدعو إلى تبنيه. وعبر ذلك يعلن التزاماً واضحاً بهذا الموقف ويتقدم كنص نضالي له مهمة محددة يسعى لبلوغها، وعلى هذا الأساس تقوم بنيتها وتشكل بناؤه.

فالقضية المركزية التي يتبناها هذا النص هي قضية الانتماء إلى الدين الإسلامي الذي كان «نبي الهدى» أو «رسول الله» يدعو إليه. يتمثل هذا الانتماء تحديداً بطاعة هذا النبي والعمل بمشيئته. وتشكل هذه القضية محور النص الأساسي، عندها تنجدل جميع العناصر الأخرى المكونة له، كما يقدم تشكله الكلي صورة حية عن ذلك بانصبابه وتجمعه عند هذه القضية وتفرد وتوزعه منها. فالنص عبارة عن تمجيد يتتابع ويتعاضد حتى يبلغ الذروة في هذا الانضواء تحت قيادة النبي كما يعبر عنه البيتان الحادي عشر والثاني عشر، وعن نتائجه البيت الثالث عشر؛ بحيث يوظف التمجيد المذكور لتقديم المعنيين به جماعة نموذجية تعطي صورة مثالية عن المسلمين وتضع الآخرين، سواهم من غير المسلمين، أمام ضرورة التمثل بهم وعدم معارضتهم. وبذلك يحقق هذا النص غايته ويبلغ هدفه، وفي هذا الطرح بالذات تقوم بنيته الأساسية: إعطاء نموذج تبجيلي عن المسلمين يشجع على احتذائه بقدر ما يفرض على الآخر ضرورة الأخذ به، نظراً للمكاسب التي يحققها لأنصاره والرزايا التي يلحقها بأعدائه.

في هذا الطرح الاحتجاجي الدعائي تتحقق الوظيفة الطلبية الرئيسة للغة⁽¹⁰⁾ متمثلة على أوضح ما يكون في هذه الدعوة المباشرة للآخر كي ينضم إلى هذه الجماعة المثالية. ربما كان لهذه الوظيفة بالتحديد، في الدور النضالي المناط بالنص، أن تقربه إلى حد كبير من نص الخطبة النثرية التي تعتبر الوظيفة المذكورة فيها سمة رئيسة مميزة لها. فالطلبية تفترض منطقاً إقناعياً يبرر دعوتها أو يغري بها. والمنطق الإقناعي قائم في هذا النموذج الصالح نفسه الذي يتكشف عن اعتماده الضمني والعلني على عنصري الإغراء والتهويل أو الترغيب والترهيب:

(10) حول وظائف اللغة أنظر: 1. Roman Jakobson: *Essais de linguistique générale* (2 t.): 1. *Les fondations du langage* traduit et préfacé par Nicolas Ruwet, Paris, les Editions de Minuit coll «Arguments» 1963, Ch. XI: «Linguistique et Poétique» (pp. 209 - 248).

الترغيب بالانضمام إلى جماعة قوية بطائفة كريمة فاضلة مخلصه، إلى مجدها وانتصاراتها . . .
والترهيب من مواجهتها لما تتضمنه هذه المواجهة من خسارة للمكاسب الأتفة حكماً، ومن
ضرر وقمع وانكسار شديد يصيب من يتولاها . . . يطرح هذا المنطق الثنائي أو يفترض
تناقضاً أساسياً تنشأ عنه جملة من التناقضات الفرعية أو أنها تتضافر وتتكامل لتؤديه وتكونه .
فمن التناقض بين القبول أو الموالاتة (الإيمان) والرفض أو المعارضة (الكفر) تنفرع تناقضات
عدة بين السلم والحرب، النفع والضرر، التشيع والعداوة، القوة والضعف، الحلم والجهل،
الكرامة والذل . . الخ . وهي تؤلف جسد النص راسمة فيه متضمنات كل من الخيارين
الذين تطرحهما على الآخر والمضاعفات المترتبة عليه .

في هذا الجسد الموسوم بالثنائية وبالطلبية المرجحة لأحد طرفيها تعرف بنية النص توزيعاً
خاصاً محكمه هاتان السمتان بوضوح . فصيغة الأمر التي تفتتح لأول مرة بيتاً (البيت 14) في
القصيدة تميز بوضوح قسمين هاميين في هذه الأخيرة . القسم الأول منها يمتد قبلها (من
البيت الأول إلى 13) ويمكن اعتباره نوعاً من التقديم والتعريف بجماعة المسلمين بصفاتها
وميزاتها ومآثرها وخصوصياتها، يشكل تنبيهاً للمخاطب وإطلاعاً له على حقيقة هؤلاء
المسلمين . بينما يأتي القسم الثاني بدءاً منها حتى نهاية النص (من البيت 14 إلى 22) ويمكن
اعتباره نوعاً من نصح المخاطب وإرشاده بما يشبه التوجيه والتحذير بصدد الموقف الذي يجدر
به اتخاذه من هذه الجماعة، فيما يستكمل التعريف بها . بذلك لا يتشكل هذان القسمان في
انقطاع يفصل احدهما عن الآخر، وإنما في تواصل يميز في المخاطبة غلبة الجانب الإعلامي -
المعرفي (التعليمي) في الأول منها، وغلبة الجانب العملي - الإجرائي المطلوب (الإرشادي) في
الثاني . على هذا الأساس يحافظ النص على تجانس وتكامل في الطرح والتعبير، يتأكد ذلك
من خلال انتشار المخاطبة في النص بأكمله، وتدرجها من العلم (فاعلم) والافتراض (وإن
حاولت) في القسم الأول، إلى الأمر والنهي (خذ . . ولا يكن . . واترك . .) فالأمر التعجبي
(أكرم . .) في القسم الثاني، بما يتلاءم وهذا الانتقال والتواصل معاً بين القسمين .

رغم أن هذا القول يأتي رداً على قول آخر، فإن العرض الذي يتمثل فيه لا يتوقف
عند منطق الآخر وحدود طرحه . فبينما يكتفي نص الزبيرقان (القبلي) بتأكيد الكرم والتفوق،
لا يكتفي نص حسان (الإسلامي) بتأكيد ما يعارضه مبالغاً في تصوير عظمة أكبر وتفوق أعلى
للمسلمين على غيرهم، وإنما يمضي إلى ما هو مختلف عن ذلك حاملاً دعوة محددة تفترض
جواباً عليها، عارضاً موقفاً واضحاً يتطلب البت بشأنه . وهذا بالتحديد ما يغيب عن النص
القبلي، أكان ذلك الذي أتى به شاعر تميم أم خطيبها، وهو ما يميز خاصة النص الإسلامي
باعتباره نص قضية، نصاً ملتزماً بدعوة محددة . ففي حين يكتفي النص القبلي باستشهاد

الأخر على كرم أصحابه ويقرر بالتالي أمراً واقعاً، يأتي النص الإسلامي إرشادياً تعليمياً ويفترض بالتالي تغيير الأمر الواقع .

إذا صح أن مطلع النص منبئ في معظم الحالات ببنيته دال عليها، فإن مطلع هذه القصيدة يعتبر تأكيداً على ذلك . فمنذ البيت الأول يتبدى لنا تقديم لجماعة رفيعة من الناس ينتسب بعضها إلى قبيلة محددة ولكن بعضها الآخر لا ينتسب إليها . فالتبجيل الخاص بها يتعدى الإطار القبلي المحصور . لكن أبعاد هذا التخطي تصبح مطلقة تتعلق بجميع البشر عندما يتعلق الأمر بالمنهج أو الطريقة التي اختطتها هذه الجماعة للناس أجمعين . كأن هذه الجماعة الكريمة تضيف إلى مكارمها مآثرة عالمية تسمى إلى إلزام الناس بها أو أنها جديرة بالالتزام من قبلهم . ولا تتضح الأبعاد الدينية لهذه المآثرة إلا في البيت الثاني مع ذكر تقوى الله .

يتبين إذن أن أكرم الناس في قريش يحملون مع أنصارهم من القبائل الأخرى ديناً جديداً يعرضونه على الناس عاملين بذلك من أجل خيرهم، ويجدر بهؤلاء اعتناقه إذا كانوا يخشون الله فعلاً . فتتضح منذ البداية الخطوط العامة لبنية النص من خلال هذا التعريف التعليمي بالدين الجديد الذي يستوعب القبائل المختلفة فلا يقتصر على طرف دون آخر رغم انطلاقها من واحد يعتبر من أعظمها، ويتوجه إلى العالم بأسره مما يجعل البشر جميعاً أمام واحد من خيارين، وذلك بناء لحقيقة إيمانهم بالله وتصديقهم الفعلي بجبروته: إما الأخذ بهذا الدين الجديد عن تقبل ورضى، وإما رفضه وتحمل المضاعفات الناتجة عن الموقع الذي يجعلون أنفسهم فيه . واضح أن هذا الخيار الأخير يجعلهم ليس فقط على عداء مع هذه الجماعة الكريمة من الناس، وإنما أيضاً مع الله الذي يبدو بموقفهم هذا عن استخفاف به وبقدراته .

هكذا يعلن مطلع هذا النص بنيته في كونه نصاً ملتزماً يدافع عن قضية دينية جديدة من خلال تعريفه التعظيمي بها وبأصحابها، ودعوته الناس أن يسيروا على طريق هؤلاء المؤمنين كي لا يتعرضوا لنقمتهم ونقمة إلههم . بيد أن المطلع ليس إلا جزءاً من وحدة أكبر هي القسم الأول الذي يفتحه بقدر ما يفتح النص ككل . وقد يكون في متابعة تفاصيل التشكل البيوي لهذا النص، وتقصي أوجه التماسق والتناسب بين مستوياته المختلفة ما يتيح التعرف إلى جماليته الشعرية الخاصة .

ثانياً: التعريف التعليمي: النموذج الجدير بالاتباع

يبدأ التعريف بالمسلمين، كما سبق ولاحظنا، من منطلق قبلي محدد (ذوائب فهر: قريش) ولكنه لا يقتصر عليه. فكأنه يبدأ بما هو قائم ومفهوم وسائد قبل أن يطرح الجديد والوافد والمختلف. كما قد يشكل هذا البدء اعترافاً بالدور المتميز للعنصر القبلي في الدعوة الإسلامية، ولعل موقعه يتماثل مع الموقع الذي يحتله التعبير عنه في النص: إنه البدء، المنطلق.

بيد أن هذا المنطلق ليس كافياً للتعريف، وهو في نهاية الأمر ليس قبلياً خالصاً؛ إذ يبين، في جمعه إلى فهر إخوتهم، عن عدم انحصار في إطار قبلي ضيق، كما يشير إلى انفتاح توضح الدعوة الدينية أبعاده الإنسانية العامة. هذا الانفتاح هو ما يميزه كذلك عن الانتقال القبلي الذي يأخذ به نص الزبرقان (التميمي). وربما كان لرده على هذا النص أن يدعوه إلى انتساب مقابل لانتسابه القبلي.

إلا أن النص الذي يبدأ ليناً وإخبارياً في تعريفه، لا يلبث أن يتحول إلى القوة والعنف حين ينصرف إلى التشديد على ما هو مضمّر ومتضمن في البيت الثاني، معلناً قدرة هؤلاء المسلمين المطلقة في توازن يلحق الضرر بأعدائهم ويأتي بالنفع لأنصارهم، جاعلاً التهديد في ذلك إلى جانب الترغيب، مقدماً الجانب الأول على الثاني، ليوازن من جهة أخرى بين ما يرد هنا (البيت الثالث) وما سبق ذكره (في البيتين الأول والثاني).

يتفق هذا التوازن، يكرسه التوزيع الذي يعرفه في استقلال كل من الجانبين بشرط من البيت، مع الخيار الذي يطرحه هذا الوضع على الناس. إن المقدرة التي تعني شدة البأس والقوة بشكل خاص تقدم باعتبارها خلقاً وصفة قديمة لدى أصحابها. وفي ذلك إيحاء بمشيئة أزلية يرفدها بطش وكرم مطلقان، بما يتضمنان من تخط للبعد الزمني، للطاريء والوافد والمتغير (المحدث)، وارتكاز إلى البعد السلاتاريني والطبيعي والدائم. ربما كانت هذه المبالغة تهدف إلى تعظيم وتمجيد الدعوة الإسلامية وأنصارها، وبالتالي تشجيع عليها بقدر ما تخيف منها، باعتبار أن هؤلاء العظماء العريقين من أصحاب العزم والمروءة التليدين يتعرفون إلى ما في هذه الدعوة من خير وصلاح أكثر من غيرهم، فيبادرون قبل سواهم إلى محضها تأييدهم ودعمهم. لكن التعبير لا يقتصر على ذلك فيقابل هذا المعنى بمعنى آخر يستمد منه متحولاً من التخصيص إلى التعميم، ومن لهجة إخبارية إلى لهجة تعليمية تعلن رأياً يتخذ شكل الحقيقة المطلقة. وهي حقيقة تشكل دعماً وتأييداً للتعظيم الخاص بهؤلاء المسلمين الأوائل، ولكنها تشكل كذلك إدانة لأي تغيير أو خروج عن المعهود والمألوف أبداً كان. فيبدو هذا الرأي

متناقضاً أو مفارقاً حيث أن الدعوة الإسلامية الجديدة كانت بحد ذاتها بدعة، وكان دعواتها وأنصارها متهمين بالمرور عن عادات وتقاليد ومعتقدات مجتمعهم.

قد يكون في مثل هذا الحكم دلالة على التصورات الأولية للدين الإسلامي، لا تفهمه كما تكرس لاحقاً في شرائعه وقوانينه ومؤسسته بقدر ما تفهمه على مزاجيتها وخلفيتها الفكرية القبلية السابقة. كما قد يكون الهم الترويجي والدعائي لهذا الدين وراء تقديمه على هذا النحو باعتباره استمرارية ومتابعة لما قبله وليس انقطاعاً وانفصلاً عما كان سائداً على أنه ارتقاء وتقدم نحو الأفضل والأحسن. ضمن هذا المنظور الأخير يتجانس المعنى المطروح هنا مع ذلك الذي افتتح به النص، فيبدو الاتجاه (الإسلامي) الذي يمضي فيه فهو وإخوتهم يدلون الناس عليه ويحثونهم على الأخذ به، ليس ابتداءً أو إحداثاً وإنما هو اتباع واستكمال. وهذا ما يعطيه متانة وصلابة، إذ يتجذر في وجود العظماء من الناس المطلق.

بذلك يكتمل (حتى البيت 4) ما يمكن اعتباره تعريفاً أولياً بالمسلمين. يلاحظ فيه غياب أي ذكر مباشر لدينهم. فرغم الإيجاء القوي به القائم في مطلع النص (في البيت الأولين) ليس هناك من تسمية لهذا الدين أو لما يدل عليه تحديداً دون سواه. إذ أن الإشارة إلى «السنة» و«تقوى الإله» تصدق عليه بقدر ما تصدق على سواه. لكن النص في معارضته لنص آخر، وفي المرجعية التي يحيل إليها سياق هذه المعارضة، يوضح عبر «الذوئب من فخر وإخوتهم» كقرينة دالة، هذا البعد الإسلامي. كما يرتكز، من جهة ثانية، هذا التعريف الأولي، إلى ثنائية مطلقة تقيم تعارضاً تناقضياً بين الأصدقاء والأعداء، بين المسلمين ومناهضهم، بين النفع والضرر، بين الخير والشر. وهو أخيراً يشكل رداً إجمالياً على نص الزبرقان مقبياً في ثنائه هذه نقضاً لثنائية هذا الأخير، بقدر ما تتكون كقضية لها. هذا الرد هو مدار الأبيات الأربعة التالية (5 - 8) حيث يتخذ صيغة الدحض عن طريق نفي متواصل لما يمكن أن يلحق بأفعال المسلمين من ضعف أو تراخ. وهو يتناولها من جهتين: الأولى خاصة بما يمكن أن يأتي من قبل سواهم من عمل يتجاوز أعمالهم فينقضها أو يغلبها، والثانية بما يمكن أن يأتي من قبلهم من تقصير أو تهاون يسيء إليهم ويلحق العيب بهم. في الوجهة الأولى هناك تعرض لعلاقات المسلمين العامة مع الناس جميعاً كما تبديها أفعالهم وممارساتهم بشكل خاص، ومن خلاله تأكيد للمعاني السابقة الخاصة بالقوة والمجد والفضل والكرم. . . وهي تتخذ إلى جانب التعميم عمومية في التعبير لا تحول دون تمييز وجه النزاع والبطش عبر الإشارة إلى كفاءتهم ونجاحهم في الهجوم وفي الدفاع من ناحية، ووجه المكارم والمروءات عبر الإشارة إلى تقدمهم في المآثر تفوق أدائها أمجاد سواهم ومفاخرهم من ناحية ثانية. وفي الحالتين يجري التأكيد مجدداً على بزهم لغيرهم وتفوقهم عليهم. في الوجهة الثانية هناك تناول

لعلاقات، المسلمين الخاصة، مع بعض الناس أو في حالات محددة، وهي متعلقة بأخلاقهم ومزاياهم بشكل خاص، ومن خلاله تأكيد لعطائهم وخيرهم ولتجردهم وعفتهم من ناحية، ولحلمهم ورزانتهم رغم أي استفزاز قد يتعرضون له من ناحية ثانية، وفي الحالتين يمضي القول ليؤكد بدوره معنى سابقاً (الكرم والنفع) فيفصله هنا ويتعرف للملابساته الخصوصية، وليضيف كذلك إليه معاني أخرى ترفده بأبعاد مضاعفة من التعظيم والتقدير.

من خلال الوجهتين المذكورتين يؤدي النفي دوراً إيجابياً فيعظم شأن المسلمين ويرفع من قدرهم فوق مستوى الناس جميعاً وينزههم عن عيوب قد تحمل عليهم. وربما بدت الصيغة المعتمدة لذلك هشة وغير ملائمة لعنجهية الفخر أو المديح التقليدية. فالنفي الإيجابي هو أضعف أنواع الإثبات، وبالتالي يسم المديح أو الفخر المسيطر بطابع ضعفه. إلا أن السياق السجالي الذي يأتي فيه النص يعطي هذا النفي دلالة مختلفة. فهو كما أشرنا دحض لمقولات الآخر (الزبرقان) لا يؤكد صفات ومزايا المسلمين الإيجابية وحسب، وإنما يطعن كذلك في ادعاءات الآخر المقابلة. فالنفي، في جانب مهم منه، تعريض بالآخر ومفاخره تماماً كما كان الإثبات في الأبيات الأربعة الأولى نقضاً مباشراً لها. كأن النص هنا يشير إلى نقص في مفاخر الآخر، في كرمه وفي سطوته، محيلاً تفوقه المزعوم إلى شأن بسيط قاصر عن عظمة المسلمين وتابع لأقل ما فيها، بقدر ما يشير إلى كمال هؤلاء المطلق في تصرفاتهم كما في سرائرهم، جاعلاً من مفاخرتهم نوعاً من الاستفزاز يستحيل عليه إخراجهم عن حلمهم. ربما كان هذا الاشتغال بقول الآخر هو الذي يجعل هذه الأبيات خالية تماماً من أي بعد إسلامي أو ديني إجمالاً. وهذا بالتحديد ما يميزها عما قبلها وعما بعدها، مكونة وحدة ثانية بينهما، فتأتي معانيها مفعمة بالقيم والمقاييس القبلية دون أن تغيب عنها ثنائية التهديد والتشجيع المشتركة بينهما جميعاً.

على هذا النحو يستكمل التعريف بجماعة المسلمين، فإذا بهم متفوقون على أخصامهم أو معارضتهم ومنافسيهم على أرض هؤلاء وفي مجال امتيازهم التقليدي. كأن النص بذلك يكمل البعد القبلي الذي شكل جانباً من التعريف الأولي بهم، ويقتصر عليه مؤكداً مزيداً من الصلابة والتجذر في أسس وقواعد منطلقاتهم. ربما بسبب ذلك تم إيرادها قبل الجانب الآخر في التعريف المذكور، أي البعد الديني الذي يشكل مدار الأبيات الخمسة اللاحقة (من البيت 9 إلى البيت 13). في هذه الأبيات لا يعود البعد الديني المبروز مجدداً وحسب، وإنما يظهر أيضاً في طرحه الإسلامي الصريح، وهو ما يميزها بالطبع عن الوحدة السابقة عليها (الثانية: من البيت الخامس إلى الثامن) كما يميزها عن الوحدة الأولى (من البيت الأول إلى البيت الرابع)

التي لم تتجاوز التلميح الديني العام. كأن النص يتدرج في ذلك من التعميم إلى التخصيص، بقدر ما يتدرج من القائم المعروف إلى الطارئ المجهول.

هكذا تذكر الرسالة الإلهية (الوحي) في سياق الإشادة بجماعة المسلمين كتمة للإشادة بمكانتهم السابقة بمفاهيم غير إسلامية. وهي تذكر كمرجع يكفي إيراده لتأكيد صحة ما يقال، بما يتضمنه ذلك من ممارسة إسلامية مصدقة لما جاء في هذه الرسالة. ولما كانت عفة المسلمين هي موضوع الرسالة فإن نفي الطمع عنهم يأتي في المقابل مكرساً لهذا التصديق مبنياً لصوابيته، وكأن الواقع العيني يتجاوب ويتأثر مع الطرح الديني. لكن ميزة المسلمين هذه لا معنى لها خارج المقدرة على تجاوزها، لذلك يأتي تأكيد هذه المقدرة بإبراز لقوة بطش المسلمين يستعيد ويكرر ما سبق ذكره (البيت الثالث) من حملهم للخير لأنصارهم والشر لأعدائهم، في تحقيقهم لكرامة وعزة أولئك ولقمع وإذلال هؤلاء.

على هذا النحو تستمر الثنائية في صفات المسلمين ليناً وشدة، وفي أفعالهم خيراً وشرأ، مشددة على ثنائية الترغيب والترهيب باستمرار. بيد أن البعد الإسلامي الأبرز متقدم في التعبير عن تلك العلاقة التي تربط المسلمين بنبيهم؛ وهي علاقة تقوم على الولاء المطلق والطاعة التامة من ناحية، وعلى الاندفاع الزخم والمثابرة الحثيثة من ناحية ثانية. وإذ يجري ذكر نبي المسلمين باعتباره نبي الصلاح والحق والخير، فإن ذلك يتضمن إشادة بدينهم واضحة. لكن الإشادة بهذا الدين تبرز أقوى في التعرض لموقف المسلمين منه. فهؤلاء كما تقدم ذكرهم من خيرة الناس كراماً ومجداً وبأساً، والتزامهم بهذا الدين يبين عن عظمتهم. ولما كان هذا الالتزام خضوعاً لمشيئة النبي، فإن هذا الأخير يحظى بالقدر الأعلى من التبجيل والتعظيم من خلال موقفهم منه وعلاقتهم به. ويجري تمثيل هذه العلاقة في مسيرة يحشون فيها الخطى وسعهم إذا ما طلب النبي التقدم، ويتوقفون لا يتحزحزون إذا ما طلب منهم الانتظار. وليست المسيرة هذه إلا مسيرة دينية نضالية تسعى لنصرة الدين الإسلامي الجديد وفرضه على العالمين، ولذلك نفهم هذه الإشارة إلى انتصارهم على المسيحيين واليهود وإخضاعهم لهم كنصر للدين الإسلامي على سواء من الأديان في محيطه، ونصر للنبي في قيادته للمسلمين، ونصر لهؤلاء المسلمين في طاعتهم له.

تضافر هنا معاني الاعتزاز والمديح وتتداخل لتبلور في هذه الآيات، وخاصة منها تلك المتعلقة بعلاقة المسلمين بنبيهم، البعد الإسلامي الخاص في تقديمهم والتعريف بهم. وبذلك يعرف هذا التعريف مآله المركزي الذي يعطيه سمته المميزة وطابعه الخصوصي، ويعرف به اكتياله التام. بناء عليه يتخذ كل ما تقدمه وضعاً جديداً أو فهماً مختلفاً. فجميع ما سبق

ذكره من فروسة ومروءة وكرم يصبح مرهوناً بولاء المسلمين لنبيهم حتى ليبدو وكأنه أثر من آثاره، مثله مثل انتصاراتهم وسيطرتهم على أبناء الأديان الأخرى. وهذا ما يميز الفخر الإسلامي عن الفخر القبلي - التميمي. ففي حين يبقى الأخير مغلقاً ونابذاً، يتقدم الأول منفتحاً وجابذاً. فهو ينقل المسلمين من المعطى القبلي الضيق إلى المعطى الإنساني الشامل. وفي هذا الانفتاح على الأفق الغيبي - الإنساني ينطلق المسلمون بمشروع تاريخي يواجهون به العالم في حاضره وفي تراثه، ويدعون إلى المساهمة فيه. وفي حين يبقى النص التميمي (القبلي) تعبيراً عن رعونة محصورة في مداها القبلي وبخاصة بالأحياء المتقاربة، ولا يتطلع لغير السيطرة والقهر، يأتي النص الإسلامي ليشير إلى مدى أبعد من هذه الأحياء متناولاً أصحاب المعتقدات الأخرى أياً كانوا، مشدداً باستمرار على تمييز الصديق من العدو، مقدماً في موقف المسلمين من النبي، وهم نخبة المجد والجبروت، نموذجاً مثالياً لما يجدر بالناس، والمخاطب أو المخاطبون على رأسهم، أن يلتزموا ويقتدوا به. عند هذا الموقف بالذات يقوم لولب النص ومحوره المركزي. فيه تتجسد الدعوة الإسلامية على أبرز ما تكون، ويعرف تعظيمها مستواه الأرقى؛ عنده يندجل سياق التعبير السابق عليه، ومنه يتفرع السياق اللاحق، وفيه يجد كلاهما مغزاهما الفعلي الأعمق.

ضمن هذا المنظور يتقدم التعريف بحد ذاته دعوة للانخراط في الدعوة الإسلامية بقدر ما يشكل رسماً نموذجياً للمسلمين الأوائل يرهب من معاداتهم ويرغب في التمثل بهم. وإذا كانت هذه الدعوة لا تأتي مباشرة صريحة فيه، فإن اكتماله يتيح لها أن تتشكل على هذا النحو كما يظهر في القسم الثاني.

ثالثاً: نصح تهويلي وثناء إرشادي:

إذ يتم الشاعر قوله في تقديم جماعته من المسلمين بدءاً من نسبه القبلي وصولاً إلى إنجازاتهم العالمية يكون قد أرسى القاعدة الصلبة والإطار المتناسك للانطلاق إلى دعوة الآخر (الزبرقان ووفد بني تميم، وكذلك العرب الذين لم يسلموا بعد) إلى موالاتهم والانضمام إليهم، بحيث تحظى هذه الدعوة بكل التبرير الملائم لها وتصبح نتيجة مناسبة يستدعيها المنطق السليم والفهم المستقيم.

لكن الشاعر لا يكتفي بما سبق من تقديم، فهو يعمد في إطار دعوته هذه إلى التركيز على جانب متميز فيهم هو ذلك الذي تردد في أبياته السابقة والذي انتهى إليه التعبير في بعض أوجهه في القسم الأول، وهو فروسية المسلمين، بما يتضمنه هذا المفهوم من معاني القوة

والصلابة والبراعة في القتال والشدة في الحرب الخ. فيتوقف عنده مطوّلاً، نسبياً، ويفصل فيه ويضيف إليه ما لم يتطرق إليه من قبل، ليخلص منه إلى الثناء على هؤلاء المسلمين فيما يعتبر إجماعاً للأخيراً لمشاركته في ذلك.

على هذا النحو يتوزع القسم الثاني في طلبته العملية إلى وحدتين: أولى تقوم على النصح والتحذير متخذة من بأس المسلمين وقاتليهم وسيلة تهويل لترجيح الموقف الذي تدعو إليه (من البيت 14 إلى البيت 19)، وثانية تعتمد الحض والتشجيع مستندة إلى إعطاء المثل في تقدير المسلمين وتقريظهم (من البيت 20 إلى البيت 22). في هذا التوزيع نلمح بوضوح ثنائية الترهيب والترغيب بارزة في المضمون كما في البناء، بعد أن كانت قائمة على امتداد القسم الأول وفي وحدانه وأجزائه المختلفة. كأن هذه الدعوة الاستنتاجية والختامية تقيم حداً فاصلاً ونهائياً بين الخيارين المطروحين لا يترك التباساً بصدد التناقض القائم بينهما، ويستدعي بالتالي موقفاً واضحاً منها.

إذا كانت الوحدة الأولى (التهويلية) تحتل حيزاً أكبر من الثانية (هي ضعفها من حيث عدد الأبيات) فأولوية دورها الذي تستدعيه المفارقة نفسها، كما يبين نص الزبرقان ذلك، وإنما أيضاً لتلك الأهمية التي يحظى بها على الأرجح الترويج في نضالية الدعوة الإسلامية لإثبات وجودها وتأمين انتصارها. وطلبية النص هنا بارزة على أوضح ما يكون في هذه اللهجة الحازمة في الدعوة إلى ما يجدر القيام به وما لا يجدر. فالطلب هنا يأتي حاسماً ليعلن في إيجابيته كما في سلبية ضرورة الموالاة أو الطاعة التامة التي يفترض بالمخاطب أن يلتزمها إزاء المسلمين. وهي طاعة ليست في الحقيقة إلا امتداداً لتلك التي يمارسها المسلمون أنفسهم إزاء نبيهم. ولما كانت هذه الأخيرة، كما انتهى إليه القسم الأول، قد أدت إلى انتصاراتهم الساحقة فإن النص يتابع هنا ما يبدو نتيجة منطقية لما ورد هناك مشيراً إلى مخاطر مواجهتهم وعداوتهم. لذلك تبدو دعوته الآخر إلى الولاء لهم نصحاً يتم لصالحه، وتحذيراً يجري لغيره. ويقدم هذا الولاء استجابة كاملة وقبولاً تاماً بكل ما يصدر عنهم من إيجاب وسلب يتوزعهما شطرا البيت على توازن يعلن في تقابلهما عن التناقض في الوحدة، أو عن التنوع في الشمولية. ويأتي التفسير الذي يعقب هذا الطلب ليجعل من القوة والبطش، كما ألمح إلى ذلك الغضب في البيت الأول هنا (البيت 14)، وكما يؤكد النصح المتكرر (في البيت 15)، مبرره الفعلي؛ إذ يمضي إلى تصوير عواقب معاداة المسلمين بتعظيم الضرر الذي يصيب أعداءهم. ذلك أن المسلمين أرباب حرب وقاتل، وإذا كانت المعارك البسيطة تذلل الفرق والطوائف أو الجماعات المختلفة، فإن المعارك المهيولة مناسبة لسمو المسلمين ورفعتهم، مع ما يتضمنه هذا القول من إشارة إلى شدة بأسهم واحتياهم، إلى جانب الأذى المريع الذي يلحقونه بأعدائهم، وحثمية

انتصارهم . والملاحظ أن الشاعر يتكلم لأول مرة هنا بصيغة جمع المتكلم، كأنه عند هذا الحد من مجرى الكلام يجدد موقعه فيها هو يدعو الآخر إلى موقف محدد . أو كأن في هذا الانتقال من المخاطب إلى المتكلم استجابةً للأول إلى صف الثاني، استباقاً لاستجابته لما يطلب منه من ولاء، ودفعاً له في هذا الاتجاه .

قد يكون من دلائل احترام المسلمين للحرب وثقتهم بالنصر النهائي فيها ما يذكر من عدم تأثرهم بمجرياتهما، إيجابية كانت أو سلبية . فهي لا تثير مباهاة في حال الانتصار، كما لا تؤدي بهم إلى التضعف والجزع في حال الهزيمة . إنهم أقرب ما يكونون إلى الأسود المتوحشة الشرسة في تلك المعارك التي يدنو فيها الموت ويستريح بالقاتلين . إنهم الأقوى والأصلب، ومن الطبيعي أن يغلبوا أعداءهم، وإن لحق بهم أذى فلن يتوانوا عن الرد عليه والانتقام من فاعليه . ولا يتوقن أن يسروا لقتال عدو لهم بلطف ولين . هنا أيضاً يتكرر اعتماد صيغة جمع المتكلم لتعلن هذا الحضور الجماعي الذي يقوي من التحذير، إلى جوار غائب يستبعد المخاطب ليتيح لهذا الأخير اختيار أحد موقعين دون امتهان كبير لكرامته، وهو الموقع الذي لا يكف النص عن توجيهه ودفع المخاطب إلى الانحياز إليه وتبنيه .

هذا ما توحى به بقوة الوحدة الثانية (التشجيعية) التي يأتي موقعها في نهاية النص ليشكل خاتمة مأنوسة له، باباً يمد منه إلى الدين الإسلامي من بقي خارجه، خلاصاً من الإحراج الذي جعلته فيه الوحدة السابقة (التهويلية) . فتكون على هذا النحو ناتجة عن الترهيب المهيمن على ما سبقها بقدر ما تحيي داعمةً للترغيب الذي يتراءى في ثناياه . فيها تصريح واضح بسمه أساسية من سمات هذا الدين، وهي اعتبار داعيته الأول النبي «رسول الله»، تعبيراً عن بلوغ التعريف منتهاه والقول خاتمته والموقف بالتالي مآله . كأنه حض مباشر على دخول الإسلام وإعلان الشهادة . لذلك تتخذ الإشادة بالمسلمين هذه الصيغة في المخاطبة، كأنها استدعاء للمشاركة فيها . وهو استدعاء يأتي رداً على تفاخر الآخر وتعالبه على الناس جميعاً، كأنه طلب للتخلي عن هذا الفخر الذاتي (القبلي) والانضمام إلى الفخر الجماعي (الإسلامي) . موضوع الإشادة هنا الوحدة التي تتجسد في التفاف المسلمين حول نبيهم إزاء اختلاف الآخرين وتعدد نزعاتهم وتكتلاتهم . فيبرز من خلال ذلك جانب مركزي من جوانب الدعوة الإسلامية باعتبارها عامل توحيد مقابل العصبية القبلية باعتبارها عامل تفریق . بذلك، عبر الالتفاف والتوحيد، يتم تجاوز حرب المسلمين وأذاهم القاتل، ويتحقق بالتالي السلم والحياة الكريمة للجميع عن طريق الإسلام .

يتقدم موقف الشاعر هنا مثلاً صالحاً لأن يقتدى من قبل المخاطب، فهو يعبر عن

انتصاره لجماعة المسلمين كما يتحقق عملياً في هذه المعارضة - المفاخرة، في نص المديح - الفخر هذا، إذ لا يفوت الشاعر، وهو يشير إلى دوره ومساهمته في هذه الدعوة، الاعتداد بشعره وفنه الكلامي، مكماً وممثلاً في ذلك ما سبق لعظمة القبائل والناس أن مارسوه بإسلامهم. وإذا كان له أن يفسر هذا الموقف، فإن هذا التفسير يأتي خاتمة للنص هي خلاصة القول بأكمله بصدد المسلمين: إنهم أعظم جماعات الناس على الإطلاق، لا فرق إن جد هؤلاء الناس أو هزلوا. ذلك أن عظمتهم تفرض نفسها على الجميع وفي كل الأحوال، ولا يمكنهم إلا الاعتراف بها. وفي هذا الموقف أيضاً رد على ادعاء الزبيرقان «كم قسرنا من الأحياء كلهم»، وتعريض به من خلال الإيحاء باحتمال الهزل في قوله في أفضل الحالات، دون أن يمنع احتمال الهذر الخارج عن الحد والهزل فيه، وبالتالي الخروج عن واقع الناس وحقيقة الإنسان.

هكذا يكتمل التعريف بالمسلمين وتحديد مواقع الأطراف جميعاً منهم، يكتمل الموقف الدفاعي رداً على مقولات الآخر ودفعاً لادعاءاته، كما يكتمل الموقف الهجومي عرضاً لأطروحات المسلمين وتحذيراً من معارضتها.

إذا كان التهويل غالباً على النص، فإنه لا يستبعد الإغراء، وبه يختم القول كأنه يتشكل كردع للآخر واستمالة له في آن، وإن هذه لا تقوم إلا على ذلك. إلا أن التهويل لا يبلغ تطرف قول الآخر (التميمي - القبلي) وهو يتميز عنه بواقعية تكثر من نفي السيات السلبية التي لا ترد لدى الآخر على الإطلاق، مثلها مثل الوقائع المحددة التي يستعين النص الأنصاري (الإسلامي) بذكرها ويدعم بها منطقاً وحججه.

في حين يبقى الترغيب عموماً غامضاً، ويبدو قائماً في تجنب الأذى أكثر مما هو قائم في الحصول على مكاسب محددة. معظم عناصره تستند إلى نتائج قهر الآخر والتغلب عليه أكثر من استنادها إلى تقديمات حسية مباشرة عكس نص الآخر (التميمي - القبلي) الذي يبرز، رغم إيجازه، هذه التقديمات بقوة في إشارات واضحة إلى مكررات تعين مواقع وحالات تفوق جماعته (قبيلته) على الآخرين وبزها لهم في الأوضاع الحرجة.

كأن ذلك متصل بالواقع الصراعي الذي كان المسلمون يخوضون غماره، وبالتحول الذي كانت تتعرض له القيم العربية، وبالأثر الذي كان أهل الحضرة والمدن يتكونه فيها. وسيكون لنا عودة إلى ذلك إثر تفحص الأبعاد الجمالية لهذا النص فيما يلي.

رابعاً : أبعاد جمالية ودلالية :

1 - الأبعاد الجمالية :

إذا كان لتجانس المستويات المختلفة التي يتكون منها النص أن يبين جماليته، فإن التكافؤ البيوي الذي تبلغه هذه المستويات يعبر أكثر من أي شيء آخر عن المدى الرفيع الذي تصله جمالية النص ويشكل الوجه الأبرز في عمليته الإبداعية .

سعيًا وراء تلمس المدى الخاص الذي تبلغه إبداعية قصيدة حسان بن ثابت، تمضي في تتبع التشكل البيوي الذي تتخله في كل من مستوياتها التكوينية المختلفة بدءاً بالنحوي وصولاً إلى الأسلوبي مروراً بالإيقاعي تبعاً .

- على المستوى النحوي تتحدّد القصيدة بأنها نص يتوجه به مرسله (المتكلم) إلى مخاطب (أو مرسل إليه) بما يتلاءم مع الوظيفة الطلبية للغة، ومع بنيتها السجالية باعتباره نصاً فضالياً يحاول اقناع المخاطب بموقف محدد. وقد سبق لنا ولاحظنا في التوزيع البيوي العام للنص كيف يشكل افتتاح البيت الرابع عشر بفعل الأمر للمخاطب علامة فارقة تعين الموقف الذي يسعى هذا النص لإقناع الآخر (المخاطب) به .

إن النظر في وضع ضوائر المخاطب في النص بأكمله يبين عن توافق وانسجام توزيعها مع التوزيع التفصيلي الذي لاحظناه على المستوى الدلالي . فالبيت الرابع يتضمن فعل أمر للمخاطب (فاعلم) في جملة معترضة تدل على وجهة الخطاب التعليمية، وهي الوجهة الغالبة على القسم الأول، وتحدد في الوقت نفسه الوحدة الأولى في هذا القسم (من البيت الأول إلى الرابع)؛ بينما يعين ضمير المخاطب (حاولت) في جملة معترضة أخرى في البيت الثامن الوحدة الثانية في القسم نفسه (من البيت الخامس إلى الثامن). ويشكل ورود الضميرين في هذا التركيب الخاص (الاعتراضي) عنصراً جامعاً ومشتركاً بينهما ويميزاً لوضع القسم الذي تكون الأبيات اللاحقة (من البيت التاسع إلى الثالث عشر) فيه وحدته الثالثة .

إذا كان فعل الأمر (خذ) الذي يفتتح البيت الرابع عشر يعين كما ذكرنا الانتقال إلى القسم الثاني، فإن فعل الأمر الآخر (أكرم) الذي يفتتح البيت العشرين يعين في هذا القسم بدء الوحدة الثانية بحيث يتشكل بناءً لذلك على النحو الذي لاحظناه في التوزيع الدلالي في وحدتين: الأولى من البيت 14 إلى البيت 19، والثانية من البيت 20 إلى البيت 22 .

(11) يقول حسان بن ثابت إنه لما «قام شاعر القوم فقال ما قال عرضت في قوله، وقلت على نحو مما قال» (راجع أعلاه الملاحظة رقم (1) وديوان حسان... المذكور ص 145).

إلا أن القسم الثاني لا يقتصر على هاتين الحالتين من ورود الضمير المخاطب. فهناك حالتان أخريان قائمتان في البيتين الرابع عشر والخامس عشر، في الأولى منها يرد هذا الضمير متصلاً بالاسم (همك) متفرداً بذلك عن جميع الحالات الأخرى، وهو يأتي ليضعف التمييز الذي يدخله فعل الأمر الأول (خذ) على صعيد النص ككل وتجيء الحالة الثانية (فاترك) في وضعها الاعتراضي مماثلة للتركيب القائم في القسم الأول، لتبين استمرار التقديم الذي هو ميزة هذا القسم ضمن الطلب المميز للقسم الثاني.

إلى جانب المخاطب المفرد هذا هناك مخاطب آخر جمع لا علاقة له بالمخاطب الأول المذكور، بل إنه يكاد يكون نقيضه. وهو يتميز عنه بأنه ليس مخاطباً حاضراً يتولاه المتكلم الحاضر، وإنما مخاطب غائب يتولّى مخاطبته متكلم غائب كما هو واضح في البيت الثاني عشر، حيث أن المخاطب الجمع فيه يقصد به المسلمين الذين يتوجه إليهم النبي بالمخاطب والقول. هكذا تقتصر مخاطبة غير المسلم في النص على صيغة المفرد دون الجمع. وإذا كان في اعتقاد النص الآخر (التمييزي) هذه الصيغة الإفرادية في المخاطبة ما قد يفسر هذا الوضع، فإن التفسير المرجح كذلك قد يكون في دلالتها على احتقار أو تصغير المخاطب، أو في أحسن الأحوال على جعله في مرتبة دون مرتبة المتكلم الذي لا يخرج عن صيغة الجمع في نص الزبيرقان. كأن نص حسان في معارضته ودحضه للأخر ينزع عنه هذا الامتياز (الجمع) ويقتصر مخاطبته له على الأفراد (التصغيري). لكن اختلاف النصين لا يقتصر على هذا الجانب. فهناك في وضع ضمائر النص الأنصاري ما يميزها عن النص التيمي بشكل لافت للنظر. ففي حين يأتي التعبير عن بني تميم مقتصرأ على ضمير جمع المتكلم فإن التعبير عن المسلمين يؤدّي بضمائر عدّة أبرزها ضمير جمع الغائب وضمير جمع المتكلم، وإنما أيضاً ضمير الغائب المفرد وضمير المتكلم المفرد، بالإضافة إلى ضمير جمع المخاطب الذي جئتنا على ذكره.

إن توزيع هذه الضمائر يأتي متآلفاً مع التوزيع الدلالي الذي أكدته ضمائر المخاطب (المفرد). ففي القسم الأول يعم ضمير جمع الغائب الخاص بالمسلمين، مقابل ضمير جمع غائب واحد خاص بالناس (في البيت الخامس)، يرفده ضمير الغائب المفرد الخاص بالنبي، مقابل ضميرين للغائب المفرد أحدهما للتقي السريرة (في البيت الثاني) والثاني لصاحب البيع (في البيت الثالث). ويأتي كل من الاستعمالين معبراً عن علاقة التمايز التي يقيمها في مجاله الخاص وعن دوره المتميز فيها: جمع المسلمين بالنسبة للناس عامة في العز والغلبة، والنبي المفرد بالنسبة لكل مؤمن خاصة في الخير والصلاح. فلا ذكر للأعداء صراحة (العدو في البيتين الثالث والعاشر، وأهل الصليب في البيت 13) في أي من الصيغتين. وإذ يعم القسم الثاني ضمير جمع الغائب الخاص بالمسلمين مقابل عدد مهم نسبياً خاص بسواهم، يحتمل

الأول بين هذه الأخيرة الدل على أعدائهم (في البيت 16) ويبرز الثاني صريح الإشارة إلى هؤلاء الأعداء (في البيت 19) بينما يتعلق الأخيران بالناس عامة (في البيت 22) من ناحية، بالإضافة إلى ضمير الغائب المفرد المتعلق بالمسلمين في (الآيات 14 و 15 و 21) من ناحية ثانية، فإن المميز في هذا القسم هو وزود ضمير جمع المتكلم من ناحية، وضمير المتكلم المفرد من ناحية ثانية. تشكل المرتان اللتان يظهر فيها ضمير المتكلم الجمع (في البيتين 16 و 19) علامتين مفارقتين تميزان الوحدة الأولى في القسم الثاني في توزيعها الداخلي الذي تعرضنا له آنفاً على المستوى الدلالي. والموضعان اللذان يرد فيها هما الموضعان اللذان يرد فيها ضمير جمع الغائب الخاص بأعداء المسلمين، حيث يشكل عدد المتكلم ضعف الغائب في كل منهما، كأن في ذلك تعبيراً عن الصراع العنيف بين هؤلاء وأولئك الذي يشكل مدار الوحدة الأولى نفسها، وعن غلبة المسلمين فيه على أعدائهم، يؤكد ذلك اتصال ضمير الغائب المفرد بهم دون سواهم (في البيتين الرابع عشر والخامس عشر). يبرز هذا الضمير المفرد مرتين في الوحدة الثانية إلى جانب ضمير المتكلم المفرد (في البيت 21) ومرتبطة به في آن، لتدل جميعاً على طرف إسلامي، مقابل المرتين اللتين يرد فيها ضمير جمع الغائب الدال على الناس إطلافاً، للإيماء بهذا التمايز الخاص بالمسلمين كما يعلنه ويبيئه الشاعر إزاء أقوال الآخرين. هكذا يقوم ضمير جمع المتكلم بتوليّ المواجهة العسكرية للآخرين - الأعداء المحارِبين، بينما يتولى ضمير المتكلم المفرد مهمة المواجهة الكلامية للآخرين - الأعداء القوالين. وهنا كما هناك تبرز الغلبة واضحة للمسلمين كما هي واضحة غلبة الضمائر الدالة عليهم في تنوعها المتميز. كأن في هذه الغلبة العددية والنوعية نوعاً من التضخيم والتعظيم للطرف الإسلامي مقابل الحد والتصغير الذي يلحق بالمخاطب، فيما يشبه الحصار الذي يتناوله من جهات عدة ولا يترك أمامه مجالاً للنجاة غير الانضمام إلى الطرف المذكور، فتؤدي الضمائر في تشكلها وعلاقتها ما تسعى البنية الدلالية للتعبير عنه.

بالإمكان متابعة أوضاع الجمل المختلفة على المستوى النحوي نفسه، حيث يلاحظ تناسبها إلى حد كبير مع ما سبق استنتاجه. فبالإضافة إلى التوزيع العام الذي تقيمه صيغة الأمر الإنشائية في البيت الرابع عشر (خذ... .) في النص معلنة بدءاً منها قسماً ثانياً مقابل القسم الأول السابق عليها، نلاحظ أن الوحدة الأولى في هذا القسم (الأول) تفتتح بالإثبات (إن الذوائب... . في البيت الأول) وتنتهي به (إن الخلائق... . في البيت 4) بينما تفتتح الثانية بالنفي الخاص بالفعل المضارع (لا يرفع الناس... . في البيت 5) وتنتهي بافتتاح مماثل في البيت الأخير منها (لا يجهلون... . في البيت 8) وهو ما يغيب تماماً خارج هذه الوحدة، في حين تأتي الوحدة الثالثة جامعة للسابقتين تفتتح بالإثبات (أعفة... . في البيت 9) وتنتهي بالنفي

ما زال . . . في البيت 13) وكلاهما متميزان عما سبق. أما في القسم الثاني فيبرز إلى جانب الافتتاح الإنشائي لكل من الوجدتين داخله الصيغة الشرطية التي تنهي كلاً من مجموعتي الوحدة الأولى (إذا الحرب . . . وإذا الزعانف . . . في البيت 16، وإذا نصبنا . . . في البيت 19) والوحدة الثانية كذلك (إن جد . . . في البيت 22) على تمايز بينهما يتفق مع تمايز وضع كل منهما عن الأخرى. وفي ذلك كله من التوافق في التشكل البنيوي بين المستويين الدلالي والنحوي قدر كبير.

- على المستوى الإيقاعي تحدد الأبيات المتطابقة وزناً علامات فارقة فيه تعين وحدات إيقاعية فينتج عن توزيعها تشكلاً إيقاعياً عام من الضروري تبين بنيتها العامة ومدى ملاءمتها للبنية الدلالية والنحوية التي سبق التعرض لها.

أول ما نلاحظ هنا أن جميع الأبيات تقيم فيما بينها عدداً من صيغ التطابق الإيقاعي باستثناء بيتين هما التاسع (ذو الزحافات الثلاثة) والثاني والعشرون (الأخير ذو الزحاف الواحد). إذا كان لهذا التفرد من تفسير فقد يكون في حددهما لمجموعة الأبيات الخاصة بالبعد الإسلامي. فالبيت التاسع هو أول بيت يشير إلى هذا البعد الذي تبنى عليه الأبيات اللاحقة، والأخير خاتمها.

أما فيما يتعلق بالتطابقات فإن أول بيتين متطابقين تباعاً هما العاشر والحادي عشر، وهما في الوقت نفسه البيتان الوحيدان بين الأبيات المتطابقة اللذان يتمتعان بمثل هذا الوضع مما يعطيها أهمية استثنائية تتفق والأهمية التي يؤديانها على المستوى الدلالي، في الدور الخاص الذي يشغلانه في التعريف بالمسلمين وتقديم النموذج المميز في سلوكهم للأخريين. إلا أن بين الأبيات المتطابقة كذلك تباعاً لا فردياً بل ازدواجي نجد قائماً بين البيتين الرابع عشر والخامس عشر من جهة والسابع عشر والثامن عشر من جهة ثانية. وهو تطابق يتفق مع الخيار المزدوج الذي يضع النص المخاطب إزاءه، بقدر ما يتفق مع المضمون القتالي الذي يأتي به كل طرف منها. كما قد نجد في هذا التطابق المميز والوحيد في النص بأكمله إشارة إلى التطور الذي يمضي فيه النص من قسم أول تعريفي بهذا الدين الجديد الذي تدل عليه القيادة الواحدة (النبي) يسميه التطابق الأول (الفردي) إلى القسم الثاني الذي يطرح النص على المخاطب في التهديد والترغيب (النشائي) يسميه التطابق الثاني (الازدواجي). وإذا كان لهذا التطابق الأخير من دور خاص آخر، ففي إعلان هذا القسم الثاني بالذات، مما يتيح بناء لذلك رؤية توزيع إيقاعي عام يتلاءم مع التوزيع البنيوي الدلالي والنحوي العام.

إذا دققنا في تتابع الوحدات الإيقاعية للأبيات انطلاقاً من بداية النص نلاحظ أن أول

تطابق يصادف فيها هو الذي يظهر مع البيت الخامس (المتطابق مع البيت الثاني) ثم مع البيت الثامن (المتطابق مع البيت الأول). مما يتيح تصور وحدتين إيقاعيتين يحد الثانية منها بدءاً ونهاية البيتان المتطابقان مع ما قبلهما، على أن هذه الأبيات المتطابقة تقيم توازناً إجمالياً ضعيفاً ومتميزاً في هاتين الوحدتين مع أبيات متفردة فيها. ويجعلنا انتهاء القسم الأول عند البيت الثالث عشر نلاحظ تميز الوحدة الثالثة فيه خلافاً لما سبق بتفرد ما يجدها بدءاً ونهاية عن كل ما سبق من أبيات، في حين لا يتطابق البيتان داخلها (العاشر والحادي عشر) فيما بينهما وحسب، بل مع البيت السادس أيضاً (في الوحدة الثانية) في حين يتطابق البيت الثالث داخلها (الثاني عشر) مع البيت الثالث (في الوحدة الأولى) لتشير في هذا التطابق المتعدد إلى توازنها الداخلي المتميز من ناحية وترابطها مع الوحدتين السابقتين عليها من ناحية ثانية، بما يتفق والدور الدلالي الخاص الذي تؤديه كوحدة متميزة تتم فيها بلورة التعريف الذي تشغل مقارنته الأبيات السابقة عليها.

وإذا كان التطابق الازدواجي الذي سبقت الإشارة إليه (بين البيتين 14 و 15 من جهة 17 و 18 من جهة ثانية) يعين القسم الثاني، فإنه يعين في الوقت نفسه الوحدة الأولى فيه بناء للتوازن الذي يؤديه في الأبيات الستة الأولى حيث يتميز البيت الثالث في كل من المجموعتين اللتين يؤلفهما. والملاحظ أن التطابق المزدوج فيها يقيم صلة قوية بالقسم الأول في اشتغاله على وحدة عروضية (في البيتين 14 و 17) مطابقة لوحديتين عروضيتين قائمتين في الوحدة الإيقاعية الثانية (في البيت 6) والوحدة الثالثة (في البيت 10 و 11)، وعلى وحدة عروضية ثانية (في البيتين 15 و 18) مطابقة لتلك الواردة في الوحدة الإيقاعية الأولى (في البيت 4) من هذا القسم. وإذا كانت الوحدة العروضية المتميزة في المجموعة الأولى (في البيت 16) تتفرد عما سبقها، فإن تلك القائمة في المجموعة الثانية (في البيت 19) تتطابق مع تلك القائمة في وسط القسم الأول (في البيت 7) بحيث لا يعود هناك أي بيت في القسم الأول - عدا البيت التاسع - لم يعرف تطابقاً مع ما يليه.

تبدو أخيراً الوحدة الإيقاعية الأخيرة (الثانية في القسم الثاني) التي تقيمها الأبيات الثلاثة الأخيرة متجانسة مع هذا التوزيع الثلاثي الذي أعلنته الوحدة السابقة عليها (الأولى من القسم الثاني) ومتميزة عنها بغياب أي تطابق فيها. إلا أن البيت الأول فيها (البيت 20) يقيم تطابقاً مع البيت الذي تفرد إيقاعه في الوحدة الأولى من القسم الثاني (البيت 16) بينما يقيم الثاني (البيت 21) تطابقاً مع ذلك الذي تفرد إيقاعه في نهاية القسم الأول (البيت 13) في

(12) راجع الملاحظة رقم (3).

حين يبقى البيت الأخير منفرداً في النص على الإطلاق. في التطابق الأول كما في التوزيع الخاص بالوحدة (حيث يتطابق بيتان ويتفرد بيت فيها) تؤكد هذه الوحدة تماثلها مع مجموعتي الوحدة السابقة عليها؛ وفي انتهائها بوحدة عروضية منفردة كما انتهى إليه القسم الأول، بالإضافة إلى ضمها المطابق لهذا الانتهاء كما ذكر تتقدم وكأنها تحاول استيعاب ما قبلها دون أن تلغي خصوصيته إذ يبقى تفرد البيت التاسع قائماً، كأنها تقيم تماثلاً آخر مع هذا القسم (الأول) وتميّزاً عنه في الوقت نفسه. ويبدو اتسامها بالتفرد، خاصة فيما تنتهي إليه، يتلاءم والدلالة المشددة على تفرد المسلمين (البيت 22) في ترابط مع فردية المتكلم (البيت 21) ووحدة قيادة المسلمين - الرسول (البيت 20). ربما كان هذا التفرد الإسلامي أيضاً وراء حد البيتين المتفردين في النص لما يتم تناوله بصدد المسلمين كما أشرنا من قبل. ولما كانت الثنائية الطابع النبوي العام للنص، فإن ثنائية التفرد تستعيد إيقاعياً مرجحة لهذا الجانب التشجيعي على ما عدها بما يتلاءم مع ما سبق التطرق إليه أعلاه على المستوى الدلالي. هكذا يمكن القول إن التوزيع الإيقاعي العام للنص، وإن عرف بعض الضعف في التوازن الداخلي لوحداته (في الأبيات الأولى والأبيات الثلاثة الأخيرة خاصة) فإنه يتمتع على الصعيد التأليفي العام بدرجة كبيرة من التوازن يتناسب إلى حد كبير مع التوزيع الدلالي - النحوي ويرفده بقسط كبير من التجانس والانسجام.

- على المستوى الأسلوبي يظهر النص بأكمله وحدة وتميّزاً بناء لما يقوم على امتداده من أوجه بيان وبديع.

إن الطباق الذي يعمه من بدايته حتى نهايته يمهره بوحدة أسلوبية عامة تتفق مع وحدته النبوية العامة في هذا التمييز الذي يجريه النص في تعريفه العام بين خيارين متناقضين على المخاطب أن يحسم موقفه إزاءهما، وفي هذا الانتصار للطرف الإسلامي على سواه من الأطراف الأخرى فيحظى بالعناصر الإيجابية مقابل سلبية تلك الأطراف أو دونيتها إزاء تفوقه.

لكن الوحدة العامة لا تحول دون رؤية التمايز داخلها بناء للمصيغ البيانية المعتمدة فيها. والملاحظ في هذا المجال أن الصور البيانية ضعيفة في القسم الأول من النص على خلاف القسم الثاني. إلا أن التمييز بين القسمين لا يقتصر على هذا الوجه. ففي الأول منها تبرز الكناية علامة فارقة ومميزة لوحداته المختلفة؛ تعلن في مطلع كل منها (كما هو الحال في الأبيات: الأول والخامس والتاسع) كما هي متضمنة فيها (في البيتين السادس والثاني عشر) ترفدها صور بسيطة من المجاز والاستعارة (في البيتين الرابع والثامن تبعاً). وإذا كان التشخيص والتجسيم قائمين في الوحدة الثانية (في البيتين السادس والسابع ثم البيت الثامن

تباعاً) فإنها يردان كذلك في الوحدة الثالثة (في البيتين التاسع والحادي عشر ثم البيت الحادي عشر تبعاً) ليتفق ذلك مع الدور التعريفي الأولي الذي يتولاه هذا المقسم على تناسق وتوازن كبيرين . بينما يتخذ المجاز والاستعارة في القسم الثاني شكل الصور المركبة التي تعتمد أكثر من تشخيص أو تجسيم في الصورة الواحدة على قوة وإجاء أكبر مما لاحظناه سابقاً (كما هو الحال في الأبيات 15 و16 و21) لتتفق مع الطابع التهويلي للتعبير الذي ينتجه لذلك نحو البداوة والترحش . إلا أن ما يميّز هذا القسم عما قبله بيانياً فهو اعتاده التشبيه (في البيتين 18 و19) الذي في اقتصره على المسلمين يبين عن الخصوصية التي يحظون بها في التعبير هنا بما يتفق مع ما سبق ذكره بصدد التهويل والترجيع ، في الوقت الذي يميّز فيه الوحدة الأولى عن الثانية في القسم الثاني .

بذلك يقارب التشكل الخاص للنص على المستوى الأسلوبي ذاك الذي لاحظناه له على المستويات الدلالية والنحوية والإيقاعية دون أن يعرف تكويناً متكافئاً معها على الدرجة نفسها التي رأيناها لها فيما بينها . في ذلك خلل في وجه هام من أوجه جماليته الفنية يبين عن قصور في العملية الإبداعية التي يرتكز عليها . فإذا أضيف إلى هذا الخلل الجانبي ذاك الذي يعتري بعض تفاصيل النص في مستوياته المختلفة كما هو حال الموقف من البدع (في البيت الرابع) وضعف الفخر في اعتياد الصيغ السلبية (في الأبيات 7 و9 و16 و17 و19) والاضطراب والتفاوت الحاصل بين معاني الفخر والمديح (كما في البيتين 18 و19 على سبيل المثال) على المستوى الدلالي؛ وضعف التوازن الإيقاعي في القسم الأول ونهاية القسم الثاني؛ واضطراب التماسك التناظري في الوحدة الثالثة من القسم الأول فيما يخص الإثبات والنفي كما الخبر والإنشاء على المستوى النحوي في الحين الذي تشكل فيه هي بالذات محور ولولب البنية الدلالية للنص . . . يمكن لنا أن نكون فكرة أولية عن المستوى الفني الذي يبلغه هذا النص والذي يصعب فصله عن التزاميته أو نضالته التي قد يكون التوقف عند الأبعاد الدلالية للنص أن يزيد من توضيح سياتها أكثر مما تقدم بهذا الشأن حتى الآن .

2 - الأبعاد الدلالية :

- لعل الملاحظة الأولى التي يستدعيها هذا النص باعتباره نصاً إسلامياً ضعف البعد الإسلامي مقارناً بالبعد غير الإسلامي حكماً في عملية الاحتجاج والتفاخر التي يؤديها، حتى ليكاد ينحصر في بعض المعاني المحدودة والمتفرقة العامة (في البيت الثاني) أو الخاصة (في البيت التاسع) أو المتعلقة بالنبي (في الأبيات 11 - 13 و20) في سياق عام تغلب عليه معاني الفخر المعهودة قبل الإسلام والتي يعطي نص الزبرقان الذي جاءت قصيدة حسان رداً عليه فكرة موجزة عنها . من الجدير بالذكر هنا أن نص الزبرقان لا يمثل تهجماً على الدين الإسلامي ،

بل إنه يتجاهله (أو يجهله؟) تماماً، ويشدد في مفاخرته على تفوق بني تميم في الكرم والسطوة. وليس في الجانب الأول (الكرم) ما يتناقض مع الإسلام مبدئياً، ولذلك لا يأتي رد حسان على الزبيرقان على هذا الصعيد بشأن يذكر؛ بل إن مفاخرته في هذا الجانب تبدو ضعيفة ركيكة وغير مقنعة إزاء التشديد الحاسم والتمثيل المقنع الذي تأتي به أبيات الزبيرقان (قارن على سبيل المثال البيت السابع من قصيدة حسان بالأبيات الثالث والرابع والخامس من نص الزبيرقان). في حين يحظى الجانب الثاني (السطوة) باهتمام بارز بحيث يكاد يستحوذ على مجمل القول الإسلامي، ذلك أنه يشكل موضوع التناقض الفعلي وميدان الصراع الحقيقي بين الطرفين. وفي هذا الجانب تكاد تنحصر مفاخرة حسان أو معارضته لمفاخرة الآخر. يدل هذا التركيز على البعد الحقيقي للطرح الإسلامي كما تقدمه قصيدة حسان بن ثابت. ففي هذه القصيدة تسود واقعية لافتة بموضوعاتها كما بتعابيرها، إذ يكاد ينعدم فيها أي إشارة غيبية ذات شأن. فهي لا تتطرق لأخرة أو حساب، لجنة أو نار، لجن أو ملائكة... إلخ مما يشكل جزءاً أساسياً من حيثيات الدين الجديد، ووسيلة من وسائل الترهيب أو الترغيب التي يعتمد عليها. ولولا ورود بعض الكلمات كإله (في البيت الثاني) والوحي (في البيت التاسع) ورسول الله (في البيت العشرين) لكاد هذا البعد الغيبي وبالتالي الديني ناهيك بالإسلامي ينعدم نهائياً فيها.

إذا كانت واقعية الموضوعات نجد تفسيرها في العقلية العربية السائدة حتى حينه، كما تتردد في أشعار ما قبل الإسلام عامة، فإن تلك الخاصة بالتعبير عن هذه الموضوعات تبدو مفارقة للأساليب السائدة في هذه الأشعار، بحيث أنها تظهر متزنة ومعتدلة إزاء مبالغاتها المتطرفة. هذا الاتزان غير مألوف في سياق الفخر والمدح كما هو وضع قصيدة حسان التي لا تكفي باعتقاد النفي الإيجابي (في الأبيات 7 و8 و9 و11) بل إنها تمضي إلى اعتماد الاحتمال السليبي (في البيتين 16 و17). وقد يكون تفسير ذلك في هذه العقلانية الجديدة التي بدأت تسم العقلية العربية بقدر ما تجده في توازن القوى المتصارعة المضطرب آنذاك في وجهته الراجحة لصالح المسلمين، وفي الموقع الحضري الذي كان ينطلق منه القول.

إنما يبقى إطار المفاخرة بالذات هو الذي يحكم القول، حتى ليبدو في رده على المنطق القبلي الذي يسم القول الآخر (الزبيرقاني) يتقدم أحياناً وكأنه موسوم بدوره بقبلي مماثلة لتمدى الانتساب القبلي المعلن الذي يفتحه لتقييم في مرتكزات التعبير وفي خلفيته المعيارية المنطق القبلي المعتمد من قبل الآخر. فتبدو جماعة المسلمين بناء لذلك قبيلة بين قبائل عدة وإن ميزها هذا القول عن بقية القبائل وجعلها أرقاها جميعاً. هكذا يقدم النص المسلمين كجماعة لها أعداؤها وأنصارها، محارب أولئك وتتنصر لهؤلاء (في البيتين الثالث والعاشر)

يؤذون ويؤذون (في البيت 17) وإن تفوقوا على سواهم في المجد أو الفضل (في البيت 6) فإنهم يتفوقون تحديداً كقبيلة إزاء بقية القبائل الأخرى (في البيت 22). ولم يكن هذا المنطق القبلي غالباً عن ذهن النبي كما لم يكن خطره خافياً عليه وعلى أنصاره. وقد يكون هذا المنطق هو المنطق الفاعل والمؤثر في مواجهة الآخر كما يدل على ذلك موقف النبي وردة فعل القبائل⁽¹³⁾. وفي اعتقاد هذه الأسس القبلية في المواجهة دلالة على المرحلة البدائية في تكون واختيار الدعوة الإسلامية، كما يؤكد ذلك ما يشير إليه البيت الرابع من تناقض فاضح بين إدانة البدع والانتفاء إلى الدين الجديد. لذلك يبدو الطرح المقترح على غير المسلمين لا يخرج عن هذا النموذج القبلي في حديه السليبي والإيجابي. ففي هذا الطرح من جهة تهويل على الآخر وتخدير له من مغبة معارضة المسلمين؛ وجميع العناصر المعتمدة لذلك غير إسلامية. فوسائل التهديد كلها تحملو من أي أثر إسلامي كان، وتعتمد المقاييس والمعايير ذاتها السائدة في النموذج القبلي من قوة وشدة وعنف وقسر. . . إلخ. ولكنه من جهة ثانية إغراء وتشجيع على الانضمام للدعوة الإسلامية الجديدة، وهنا قد نجد بعض الآثار الإسلامية، ودورها الظاهر محدود يقتصر على ردف وتبويب ما يجري تأكيده على المستوى غير الإسلامي. إلا أن هذا الدور في الحقيقة حاسم نظراً للبعد الجديد الذي يجمعه والذي يشكل موضوع الرهان التاريخي للدعوة الإسلامية. هذا البعد هو البعد التوحيدى تحديداً، كما يشير إليه البيتان الحادي عشر والعشرون، والذي تبرز إيجابيته خاصة إزاء التفرق القائم خارجه.

ليس التتبويب المذكور إداء تعبيرياً وحسب، إنه دلالة كذلك على العلاقة التي قامت بين

(13) إلى جانب ما سبق وأشرنا إليه في المقدمة بصدد موقف النبي، يذكر البرقوقي أن أحد أمواجس التي كانت وراء تردد النبي في إباحته الرد على أعدائه وهجائه في قريش انتباهه إليها ونسبه فيها، إذ يقول حسان الذي تطوع لذلك: كيف تهجوم وأنا منهم؟ أجابه حسان «لأسلكت منهم كما تسل الشمرة من العجين، فقال انت أبا بكر فإنه أعلم بأنسب القوم منك، فكان يمضي إلى أبي بكر ليقيه على أنسابهم فكان يقول له كف عن فلانة وفلانة واذكر فلانة وفلانة. . .». ويضيف البرقوقي أن كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة قد ساعدا حسان بن ثابت في مهمته. وقالوا: وكان عبد الله بن رواحة يعبرهم بالكفر وعبادة سالا لا يسمع ولا يضر ولا ينفع، وكان حسان وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر ويذكران مثاليهم، قالوا: فكان قول عبد الله بن رواحة يومئذ أهرن القول عليهم وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم (. . .) قالوا: إن دوساً إنما أسلمت فرقاً من قول كعب بن مالك: قضينا من هامة كل وتر وخيبر ثم أغمدنا السيوفنا نخيرها ولو نطقنا لقاتل قواطعهن دوساً أو ثقيفاً. فقالت دوس انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف. . .». شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ذكر سابقاً، ص 42 و 43 تبعاً.

الطرح الإسلامي والقبلي، بحيث أن الأول لم يأت نقضاً للثاني بقدر ما جاء إكمالاً وإنضاجاً للنزعات المتقدمة فيه، وفي طليعتها هذا التوحيد الذي كان يفترض تحديداً التخلّص من كل الشوائب والعناصر التي كانت تعيقه على المستويات المختلفة، وهذا بشكل أساسي ما جاء الدين الإسلامي لينجزه.

ضمن هذا المنظور يتخذ المنطق الثنائي الذي يسود النص أبعاده التاريخية، باعتباره ليس انعكاساً للمنطق الإسلامي كما يتمثل في النص القرآني بشكل بارز وواضح وحسب، وإنما أيضاً استجابة لمطالبات المشروع التاريخي التي يحملها الدين الإسلامي الجديد حيث لا يحتل التهاون بين الوحدة والانقسام أو التبعض، بين الانضمام إلى الدين الموحد ومواجهته أو معارضته، بين طاعة نبيه و معصيته أو التفاخر عليه. . . إلخ إنه منطق القول الفصل، أو حسم القول على حد السيف المتصل به. ومن خلال ذلك تبرز أهمية القول الحاسمة في الصراع الاجتماعي في تلك الفترة في شبه الجزيرة العربية، كما يديها على أفضل وجه النص القرآني نفسه.

- في تفصينا للبعد الذاتي في النص تبقى بنيتة المرجع الأساسي لذلك، كما يشكل ضمير المتكلم دليلاً متميزاً في التعرف إلى خصوصية دلالتها على هذا المستوى. والملاحظ بدءاً أن هذا الضمير محدود الاستعمال في النص، حيث يقتصر على أبيات ثلاثة، اثنان منها خاصان بضمير جمع المتكلم (البيتان 16 و19) والأخير يتضمن ضمير المتكلم المفرد (البيت 21) (14) في الحين الذي يطغى على النص ضمير جمع الغائب بوضوح. ربما يكون لانحسار ضمير المتكلم، والمفرد منه بشكل خاص، علاقة بالطرح الديني الجديد الذي يتقدم كمعطى خارجي أساساً، كما قد يكون لذلك علاقة بالصيغة الموضوعية التي يحاول النص الإيماء بها في تقديمه لهذا الدين وأصحابه، أو بالنص الآخر (القبلي) الذي يعارضه. فمقابل نص الزبرقان (القبلي) الذي لا يعرف غير ضمير متكلم ذاتي واحد هو «نحن»، فإن نص حسان (الإسلامي) يتميز بأن متكلمه الذاتي يعتمد ضمائر متعددة بدءاً من «هم» وصولاً إلى «أنا» مروراً بـ «نحن». فإذا كان النص الأول يعبر عن عصبية مخلقة ونايذة، فإن الثاني يعبر عن انفتاح واستيعاب للمتعدد في الوحدة واستقطاب. في الأول لا دور للأنا مختلف عن النحن فلا يذكر. أما في الثاني فإن استعمال الأنا مباشرة وغير مباشرة يشير إلى موقع ودور خاص ومتميز لا تتضح أبعاده الحقيقية إلا في إطار الطرح النبوي العام للنص. ففي هذا الطرح

(14) في الحقيقة يقتصر وجود ضمير المتكلم على الشطر الأول في كل من الأبيات الثلاثة المذكورة، حيث أن ضمير جمع المتكلم يرد مرتين في كل من الشطرين الأولين في البيتين 16 و19 (نسمو ونالتنا، ثم نصبنا وندب)، بينما يرد ضمير المتكلم المفرد مرة واحدة في الشطر الأول من البيت 21 (مدحي).

تعريف بالمسلمين كما ذكرنا ونصح بعدم معارضتهم وبالانضمام إليهم، وعلى هذا الأساس يتشكل النص كما تقدم. ضمن هذا الطرح نجد أن اعتماد ضمير جمع الغائب، الدال على الأنا والنحن (المسلمين الأنصار وبقية المسلمين من مهاجرين وغيرهم) يعم النص كما يعمه تقديم المسلمين. لكن ضمير المتكلم يبرز خاصة في القسم الثاني حيث يصبح التعبير طلبياً بشكل خاص محذراً من جهة مشجعاً من أخرى. وهنا نجد أن ضمير متكلم الجمع خاص بهذا الجزء التحذيري، في حين يرد ضمير المتكلم المفرد خاصاً بالجزء التشجيعي. إن استعمال الضمائر المتعددة للتعبير عن الذات يشير إلى تفاوت في الدلالة عليها حسب مواقع الاستعمال المختلفة، بحيث تتدرج هذه الدلالة من البعد الأقصى مع ضمير جمع الغائب إلى القرب الأقصى مع ضمير المتكلم المفرد مروراً بموقع وسط بينهما مع ضمير جمع المتكلم. فإذا ما اعتمدت هذه الدلالة على المستوى البنيوي كما هو مؤدى في التوزيع الذي يشغله في النص يمكننا القول إن الذات الفردية لا تشغل إلا دوراً ثانوياً بسيطاً في التعريف القائم في القسم الأول الذي يتصدره «الذوات من فخر وإخوتهم» حيث يمكن تصور وجود النحن ضمناً. ولكن هذا النحن الذي يبرز في التهديد الذي تؤديه الوحدة الأولى من القسم الثاني يتميز عن ضمير (هم) بأنه يأتي في سياق المعنى السلبي («نالتنا مخالبتهم» في البيت 16) أو ذاك الذي لا يتضمن الإيجابي حكماً («لاندب لهم كما يدب إلى الوحشية الذرع» في البيت 19) فيشترك مع «هم» في هذا الجانب («أصبيوا» في البيت 17) دون الجانب الآخر الإيجابي حكماً («أصابوا من عدوهم» في البيت 17)، «كأنهم في الوغى والموت مكتنع أسد ببيشة...» في البيت 18). فكان هناك تقصيراً للذات الجماعية (الأنصار؟) عن الجماعة الكلية للمسلمين التي يتصدرها ذوات فخر (المهاجرون؟) في هذا الدور التهديدي تحديداً.

يتكامل فهم ذلك على ضوء الدور الذي يناط بالذات الفردية حيث ترد في الوحدة الثانية من القسم الثاني التي تركز خاصة على التشجيع والترغيب. فكان في هذا الدور إشارة إلى الموقف الذي يرجحه المتكلم على سواه. كأن الخيار الذي ينتصر له أو يفضل على سواه بين الحرب (الكفر) والسلم (الإسلام) هو هذا السلم تحديداً الذي يتجاوب مع الندين الجديد الذي يدعو إليه من ناحية، ومع تجنب القتال من ناحية ثانية. يضاف إلى ذلك ما يفصح عنه الشاعر هنا من خصوصية نمط مؤازرته للمسلمين فيحصره بالدور الكلامي الذي يؤديه، ومن خصوصية نمط تعبيره عن هذا الدور إذ يقيم بعداً بين «أنا» وبين «هم» المسلمين، باعتبار أنهم هم الذين يتولون الدور القتالي الترهيبى بامتياز من ناحية، ويقترّب عبر صيغة ضمير الغائب المفرد التي يلجأ إليها من الموقع الذي يشغله النبي والدور الذي يؤديه، باعتباره أنه هو «نبي الهدى» (في البيت 11) - مقابل إهداء حسان مدحه للمسلمين

(في البيت 21) - وهو الذي يقول ويقول (في البيت 12) - مقابل لسان حسان الخائف الصنع (في البيت 21) - من ناحية ثانية. وفي ذلك كله يعبر حسان عن موقعه ودوره في خضم الدعوة الإسلامية آنذاك، في ابتعاده عن الحرب والقتال من جهة وتقربه من أصحاب السلطة والنفوذ من جهة ثانية. يتفق هذا الاستدلال مع ما يتردد من أخبار حول جبهته (15) وحول تكسبه في الشعر مع ما يتطلبه هذا التكسب من انتهازية ومداهنة وتذلل (16). وإذا كانت هذه الاستنتاجات تشكل إشارات دلالية إلى بنية نفسية طفولية أو ذات سمات تثبئية فلإنها لا تسمح مع ذلك - وبغيا عن معلومات خارجية تعضدها - بالمضي نحو تأويلات بعيدة بصدد اللاوعي وخصوصياته التثبئية (17).

أخيراً، أتاحت لنا دراسة هذا النص تقديم صورة أولية عن غط من القول ومن أصحابه؛ إن كان يصعب الادعاء أن تناول نص واحد يفي لتوضيح خطوطها وألوانها بشكل جازم ونهائي، فبالإمكان التأكيد أنها صورة غير مغلوبة وعلى حظ كبير من الموضوعية، تضع المسائل الجمالية كما الاجتماعية والذاتية في نصابها الصحيح، وتبين من خلال هذا النص سمات تعددها لتتصل باتجاهها في الشعر والتعبير يسهل التعرف إلى تجلياته المختلفة على امتداد النتاج الشعري العربي منذ أيام حسان حتى اليوم، بناء لمنهجية واضحة في التحليل والتأويل.

(15) من المشهور عن حسان بن ثابت أنه لم يشهر سيفاً في الإسلام ولم يقاتل في سبيله، وأنه كان جباناً رعديداً. راجع ما يذكر بصدد الشاعر من أحكام وأخبار خاصة بجبهته في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري المذكور سابقاً، ص 5؛ وفي شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ذكر سابقاً، ص 21-22.

(16) راجع ديوان حسان بن ثابت... المذكور، ص 5؛ وشرح ديوان حسان... المذكور أيضاً، ص - 23-28.

(17) ربما أتاحت لنا، على مستوى التحليل النفسي، هذا الجنب في السلوك رؤية ضعف في الفحولة من ناحية، وهذا التطفل في المعيشة بين استغراق في الطفولية من ناحية ثانية، قد يشكل ترابطهما على المستوى النفسي تثبئاً عند مراحل نفسية طفلية ما قبل الأوديبية قد لا تكون الفمية بينها هي المستبعدة كما تسمح باستنتاج ذلك الإشارة إلى موقف الشاعر الخاص ولسانه (في البيت الحادي والعشرين). يتطلب تأكيد ذلك النظر في نصوص أخرى والاطلاع على معلومات وافية حول شخصية الشاعر.

الفصل الرابع

النص المعلق على منعطف المرحلة

دراسة نص لأبي عقيل ليبيد بن ربيعة العامري (560 ؟ - 660 م؟).

«عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجاسها»

● نص الدراسة.

* مقدمة: في إرث الشعر ونقله.

أولاً: بنية النص ومطلعه البيوي.

ثانياً: التشكل البيوي للنص.

ثالثاً: تناسق المستويات البيوية وانسجامها.

رابعاً: في الأبعاد الدلالية.

نص الدراسة⁽¹⁾

- 1 - عفتِ الديارُ محلها فمقامها بمئى تآبَدَ عَوَّلها فِرْجَامها
+ 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0
- 2 - فمدافعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رَسْمها خَلَقاً كما ضمنَ السُّوجيَ سِلامها
1 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0
- 3 - دمنَ تَجَرِّمَ بعدَ عهدِ أنيسها حججَ خلونَ حلالها وحرامها
+ 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0
- 4 - رُزقتَ مرابيعَ النجومِ وصايبها ودقُّ الرواعدِ جَوْدَها فِرْهامها
2 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0
- 5 - من كلِّ ساريةٍ وغادِ مدجن وعشيةٍ متجاوبِ إِرْزامها
3 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0
- 6 - فعلا فروعُ الأيْهقانِ وأطقلت بالجهلتينَ ظباؤها ونعامها
2 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0
- 7 - واليمينِ ساكنةٍ على أطلالها عُوذاً تَأَجَّلُ بالفضاءِ بهامها
3 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0
- 8 - وجلا السيولُ عن السلولِ كأنها زُبْرٌ تُجِدُّ متوتها أقالمها
1 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0
- 9 - أوجعَ واثمةُ أَيْفٍ نُوورها كَفَفاً تعرَضَ فوقهنَ وشامها
1 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0
- 10 - فوقتُ أسألها وكيف سؤالنا صماً خوالدِ ما يبينَ كلامها
1 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0 0//0//0

(1) ديوان لبيد بن ربيعة العامري بيروت؛ دار صادر، د.ت. ص 163-180 وشرح المملقات السبع للزوزني (أبي عبد الله بن الحسين بن أحمد) بيروت؛ دار القاموس الجديد، د.ت. ص 125-162.

- 11 - عربت وكان بها الجميع فأبكرها
 منها وغودر نُزَّيها ونُمامها
 1 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 12 - شاقنتك ظعنُ الحلي حين تحملوا
 فتكنسوا قطناً تصير خيامها
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 13 - من كل محفوف يُظلل عَصِيئهُ
 رُجلاً كأن نعاج تُوضِح فوقها
 4 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 14 - حُفرت وزايلها السراب كأنها
 بل ما تذكرُ من نوازٍ وقد نأت
 1 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 15 - مُرِيَّة حَلَّت بِفَيْئِدٍ وجاورت
 بمشارقِ الجبلين أو بِمُحَجَّرٍ
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 16 - فضوائقُ إن أيمنت فمُظَنَّةُ
 فاقطعُ لُبانةً من تعرُّضٍ وصلهُ
 3 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 17 - واحبُّ المجاملُ بالجزيلِ وصرمهُ
 بطليحِ أسفارِ تركن بقيةً
 4 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 18 - وإذا تغالى لحمها وتحسرت
 فلها هبابٌ في الزمام كأنها
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 19 - صهبة خفت مع الجنوب جهامها
 طردُ الفحول وضربها وكدامها
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 20 - وأصل نخله صرامها
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 21 - وإذا تغالى لحمها وتحسرت
 فلها هبابٌ في الزمام كأنها
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 22 - أو مُلجِعٍ وسقت لأحقب لآحهُ
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 23 - وإذا تغالى لحمها وتحسرت
 فلها هبابٌ في الزمام كأنها
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 24 - أو مُلجِعٍ وسقت لأحقب لآحهُ
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/
- 25 - وإذا تغالى لحمها وتحسرت
 فلها هبابٌ في الزمام كأنها
 2 ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ه/ه/

- 26 - يعلو بها حَدَبَ الإِكَامِ مُسْحَجٌ
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 27 - بِأَحْرَزةِ الثُّلُبوتِ يربأُ فوَقَها
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 28 - حتى إذا سلخا بُجَادى سِتَّةً
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 29 - رجعا بأمرهما إلى ذى وِرةٍ
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 30 - ورمى دوابرها السُّفا وتبيجت
 1 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 31 - فتنازعا سَبَطاً يَطيرُ ظلالُه
 + o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 32 - مشموليةٌ غَلِثَتْ بنابتِ عَرَفِجِ
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 33 - فمضى وقدمها وكانت عادةً
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 34 - فتوسطا عَرَضَ السَّرِيَّ وصدعا
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 35 - محفوفةً وشط السِّراعِ يُظِلُّها
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 36 - أفتلك أم وحشيةً مسبوعةً
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 37 - خنساءٌ ضيعتِ الفريزَ فلم يرمِ
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 38 - لمعقِرٍ قَهْدٍ تَنازِعُ شِلوَهُ
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 39 - صادفن منها عَرَّةً فأصينها
 4 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- 40 - باتت وأسبلت واكفَّت من ديمةٍ
 4 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- قد رابهُ عَصيانُها ووجامها
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- قَفَرَ المَرابِيبَ خَوْفَها آرامها
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- جَزءاً فطال صِيامُها وصيامها
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- حَصِدٍ ونُججِ صَرِيمةٍ إِبرامها
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- رِيحُ المصايفِ سَوَمُها وبِهامها
 1 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- كُدُخانِ مُشَمَلَةٍ يُشَبُّ خِرامها
 + o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- كُدُخانِ نارٍ ساطِعِ أسنامها
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- منه إذا هي عَرَدَتْ إقدامها
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- مَسجورةٌ مُتجاوِراً قَلامها
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- منه مُصَرِّعُ غابَةِ وقيامها
 3 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- خَذَلتْ وهادية الصُّوارِ قِوامها
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- عَرَضَ الشقائق طَوَفُها ونُغامها
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- عُجِبَسَ كِواسِبُ لا يُؤمِنُ طعامها
 2 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- إن المنايا لا تَطيشُ سهامها
 4 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/
- يُروى الخِمايِلُ دائِماً تَسْجِامها
 4 o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/ o//o//o/

- 41 - يعلو طريقةً متنها متواترُ
 2 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 في ليلةٍ كفسرَ النجومَ غمامها
- 42 - تجتافُ أصلاً قالصاً متنبذاً
 3 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 بعُجوبٍ أنقأءِ يميلُ هيامها
- 43 - وتضيءُ في وجه الظلام منيرةً
 2 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 كجمانه البحري سُلَّ نظامها
- 44 - حتى إذا انحسر الظلامُ وأسفرت
 2 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 بكسرت تزلُّ عن الثرى ألامها
- 45 - غلِهتُ ترددُ في نهاء صعائد
 3 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 سبعاً تَواماً كاملاً أيامها
- 46 - حتى إذا يثستُ وأسحقَ خالئُ
 3 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 لم يُبيلو لإرضاعها ونظامها
- 47 - فتوجستُ رزَّ الأئيس فراعها
 3 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 عن ظهر غيب والأئيس سقامها
- 48 - فعدتُ كلا الفرجين تحسب أنه
 2 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 مولى المخافة خلفها وأمامها
- 49 - حتى إذا يثس الرماة وأرسلوا
 3 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 غُضفاً دواجنَ قافلاً أعصامها
- 50 - فلحقن واعتكرت لها مذبذبة
 2 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 كالسهمريئة حذها وتامها
- 51 - ليتلودهن وأيقنت إن لم تُذذ
 2 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 أن قد أحَمَّ من الحُتوف جسامها
- 52 - فتقصدتُ منها كسابٍ فصرجت
 1 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 بدمٍ وغودر في المكسر سُخامها
- 53 - فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى
 1 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 واجتباب أريدة السراب إكامها
- 54 - أقضي اللبانة لا أفترط ريبه
 3 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 أو أن يلوم بحاجة لوامها
- 55 - أو لم تكسن تدري نوازُ بأنني
 3 ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/ ه/ه/ه/
 وصالَ عقيد حبائل جدامها

- 56 - تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَها
 4 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 57 - بَلْ أَنْتِ لَا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ
 5 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 58 - قَدْ بَتَّ سَامِرُها وَغَايَةَ تَاجِرٍ
 2 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 59 - أَغْلِي السُّبَاءَ بِكُلِّ أَدَكْنٍ عَاتِقٍ
 2 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 60 - بِصَبُوحٍ صَافِيَةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ
 2 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 61 - بَادَرْتُ حَاجَتَها الدِّجَاجَ بِسُحْرَةٍ
 2 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 62 - وَغَدَاةَ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقَزَّةَ
 2 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 63 - وَلَقَدْ هَمَيْتُ الْحَيَّ تَحْمَلُ شِكَّتِي
 2 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 64 - فَعَلَّوْتُ مَرْتَقِباً عَلَّ ذِي هَبِيَّةٍ
 2 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 65 - حَتَّى إِذَا أَلَقْتُ بَدَأَ فِي كَافِرٍ
 4 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 66 - أَسْهَلْتُ وَانْتَصَبْتُ كَجَذَعٍ مُنْفِيَةٍ
 3 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 67 - رَفَعْتُها طَرْدَ النِّعَامِ وَشَلُّهُ
 2 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 68 - قَلَقْتُ رِحَالَتَها وَأَسْبَلَ نَحْرَها
 1 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 69 - تَرَفَّى وَتَطَعَنَ فِي الْعِنَانِ وَتَنَحَّى
 2 01/01/01 01/01/01 01/01/01
 70 - وَكَثِيرَةٌ عَزِيَاؤُها مَجْهُولَةٌ
 3 01/01/01 01/01/01 01/01/01

- 71 - غُلِبَ تشَدَّرَ بالدُّحُولِ كأنها
 3 o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 عندي ولم يفخر علي كرامها
- 73 - وجزورٍ أيسارٍ دعوتُ لحنفها
 3 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 بمغاليقٍ متشابهٍ أجسامها
- 74 - أذعر بهن لعاقيرٍ أو مُطْفِئٍ
 2 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 بُذلت لجران الجميح لحامها
- 75 - فالضيْفُ والجارُ الجنيْبُ كأنما
 3 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 هبطا تبالَةً تُخصِباً أهضامها
- 76 - تاوي إلى الأطناب كلُّ رديئةٍ
 3 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 ومثُلُ البليَّةِ فالصُّ أهدامها
- 77 - ويكَلِّون إذا الرياح تناوحتُ
 4 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 خُلجاً تُمدُّ شوارعاً أيتامها
- 78 - إنَّا إذا التقتِ المجامع لم يزلُ
 1 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 منا ليزاز عظيمه جشامها
- 79 - ومقسَّم يعطي العشيرة حقها
 3 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 ومُعذِّمٍ لحقوقها هضامها
- 80 - فضلاً وذو كرمٍ يُعين على الندى
 2 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 سُمح كسوبٍ رغائب غنامها
- 81 - من معشر سننت لهم آباؤهم
 3 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 ولكل قوم سننة وإمامها
- 82 - لا يطبعون ولا يبور فعالمهم
 4 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 إذ لا يميل مع الهوى أحلامها
- 83 - فاقنع بما قسم المليك فإنما
 3 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 قسم الخلائق بيننا علامها
- 84 - وإذا الأمانة قُسمت في معشرٍ
 2 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 أو في بأوفر حظنا قسامها
- 85 - فبني لنا بيتاً رفيعاً سُمكهُ
 3 o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/ o/o/o/o/
 فسما إليه كهلهما وغلامها

- 86 - وَهَمُّ السَّعَاةِ إِذَا الْعَشِيرَةُ أَفْظَعَتْ
 1 ٥//٥//٥/ ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 87 - وَهَمُّ رَيْبِخٍ لِّلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ
 2 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- 88 - وَهَمُّ الْعَشِيرَةِ أَنْ يَبْطِئَ حَاسِدٌ
 1 ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥// ٥//٥//
- وَهَمُّ فَوَارِسُهَا وَهَمُّ حَكَامِهَا
 وَهَمُّ رَيْبِخٍ لِّلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ
 أَوْ أَنْ يَبْطِئَ حَاسِدٌ
 وَهَمُّ الْعَشِيرَةِ أَنْ يَبْطِئَ حَاسِدٌ

* مقدمة: في إرث الشعر ونقده:

«أحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثني محمد بن عمران الضبي قال حدثني القاسم بن يعلى عن المفضل الضبي قال قدم الفرزدق فمر بمسجد بني أقيصر وعليه رجل ينشد قول لبيد فيه:

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زبر تجمدَ متوتِّهاً أقلامها
فسجد الفرزدق فليل له ما هذا يا أبا فراس فقال أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا
أعرف سجدة الشعر»⁽¹²⁾

لم يكن هذا التعظيم لشعر لبيد بن ربيعة العامري طارئاً على النصف الثاني من القرن الهجري الأول، فقد عرف في الفترة السابقة على الإسلام، وإن لم يبلغ هذا المستوى من الربوبية أو التأليه، كما يظهر من روايات بعض الإخباريين الذين يذكرون لقاء الشاعر بالنابغة الذبياني باب النعمان بن المنذر وإعجاب الذبياني المتنامي بما أنشده إياه لبيد، حتى إذا انتهى إلى قصيدته:

عفت الديار محلها فمقامها بمى تأبد غولها فرجامها،
«قال له النابغة اذهب فأتت أشعر العرب»⁽³⁾

استمر الإعجاب بشعر لبيد بعد الإسلام، كما تشير إلى ذلك أخبار عائشة بنت أبي بكر (603 - 698 م) زوجة النبي محمد التي ينسب إليها قولها: «رويت للبيد اثني عشر ألف بيت»⁽⁴⁾ وهو، دون أن يقتصر على العهد الأموي، امتد إلى أيام العباسيين. ومن المشاهير

(2) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (20 جزءاً في 10 مجلدات مع فهرس) بيروت، عن طبعة بلاق الأصلية، الناشران: صلاح يوسف الخليل - دار الفكر للجمع 1970. المجلد السابع - الجزء الرابع عشر ص 98.

(3) المرجع السابق: الجزء الرابع عشر ص 101. والقصيدة المذكورة هي المعروفة بـ «المعلقة» أو «معلقة لبيد» ومنها البيت المذكور سابقاً.

(4) ديوان لبيد بن ربيعة العامري ذكر سابقاً، ص 15. انظر أيضاً د. ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، الطبعة الخامسة، القاهرة؛ دار المعارف 1978 (الطبعة الأولى 1956) ص 210.

الذين يذكروهم الإخباريون في هذه المرحلة المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد - (842 - 795) الخليفة العباسي الثامن (833 - 842) إذ «كان يعجب بشعر ليبيد» حافظاً ومنشداً له .
ومما يروى عنه في ذلك استنشاده يوماً قصيدة الشاعر في رثاء أخيه أربد بن قيس :
بليينا وما تبلى النجوم السطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
فلما لمي بعض الحضور طلبه وأنشد بيتين منها «بكى المعتصم حتى جرت دموعه وترحم على
المأمون وقال هكذا كان رحمة الله عليه ثم اندفع هو ينشد باقيها . . .»⁽⁵⁾

وقد عني أئمة اللغة والرواية بشعر ليبيد «فعمل ديوانه غير واحد: منهم أبو عمرو
الشيبياني والأصمعي والطوسي وابن السكيت والسكري، وشرحه محمد بن حبيب والطوسي،
كما أن معلقته قد شرحت مع سائر المعلقات على يد ابن النحاس وابن الأثيري والتبريزي
والزوزني وغيرهم».⁽⁶⁾

وإذا كان بروكلمان قد أبرز الخلاف حول شعر ليبيد حين ذكر «أن الأدباء لم يتفقوا في
تقويم شعر ليبيد. فقد قال الأصمعي في شعره: «كأنه طيلسان طبراني»، أي أنه محكم الأصل
ولا رونق له. وقال أبو عمرو بن العلاء: «ما أحد أحب إلي شعراً من ليبيد بن ربيعة لذكره
الله عز وجل وإسلامه ولذكره الدين والخير، ولكن شعره رجي بزر»⁽⁷⁾ فإن بعض الباحثين
المحدثين والمعاصرين توقفوا عند هذا الشعر وخاصة عند قصيدته «المعلقة» بإعجاب واهتمام
لافتين للنظر. من هؤلاء طه حسين الذي قدم هذه المعلقة غموضاً على البناء المتناسك المتين
والمستقيم للقصيدة القديمة رداً على ذلك الاهتمام المضحك الذي يتبناه أولئك القائلون بأسطورة
تفكك هذه القصيدة العربية، فاعتبر أنها «بناء متقن محكم، لا تغير منه شيئاً إلا أفسدت
البناء كله ونقضته نقضاً . . .»⁽⁸⁾ واعتمد د. كمال أبو ديب المعلقة ذاتها في دراسة منهجية
جديدة باعتبارها واحدة «من القصائد الرئيسية في التراث العربي» جاء اختياره لها نابغاً «من

(5) الأغاني ذكر سابقاً، ص 99.

(6) ديوان ليبيد بن ربيعة العامري ذكر سابقاً، ص 15.

(7) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (3 أجزاء) نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار. الطبعة الثانية،
القاهرة؛ دار المعارف بمصر، د.ت. [1968/1] الطبعة الأولى [1959/1] الجزء الأول، ص 146. وإلى شيء
قريب من ذلك يشير آخرون بالقول: «أخذ عليه العلماء بعض الأخطاء، كما وقعوا حائرين أحياناً في تفسير
بعض الفاظ وردت في شعره، ولكن مهما يكن من شيء، فإن في شعره ذخيرة كبيرة من اللغة النجدية التي
أصبح شعره شواهد لها في كتب اللغة، وكان البدو الكلابيون الذين روى العلماء عنهم اللغة ذوي أثر في
تقريب شعره إلى الألفهام». ديوان ليبيد بن ربيعة العامري ذكر سابقاً، ص 15.

(8) طه حسين: حديث الأربعماء (3 أجزاء) الطبعة الثامنة، القاهرة؛ دار المعارف بمصر، د.ت. الجزء الأول،
ص 32.

حُدس عميق بأن رؤياها الأساسية للوجود تحتل مكاناً مركزياً في الشعر الجاهلي كله، ثم من كونها، على الأقل بنوياً، إحدى أكثر قصائد التراث تشابكاً وتعقيداً وغنى...»⁽⁹⁾

بيد أن في دراسة د. كمال أبو ديب تعريضاً واضحاً بعمل طه حسين يمكن إدرجه في باب التجني. ذلك أن هذا العمل لم يكن من المحاولات التي جرت «لوصف بنية القصيدة الجاهلية» بحيث يصح مأخذ د. كمال أبو ديب عليها أنها «وقعت في خلط واضح بين التصورات الحديثة للوحدة بما فيها الوحدة العضوية عند كولريديج، وبين التطور والانتقال المنطقيين من موضوع إلى آخر في القصيدة».⁽¹⁰⁾ إذ يكاد عمل طه حسين يقتصر على التعريف اليسر والمحيب بالشعر القديم كما يفترض ذلك مقال أسبوعي في صحيفة يومية، وقد اعترف هو نفسه في مقدمة الكتاب الذي ضم مقالاته فصولاً فيه «بأن ما كتبت منه فضلاً إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص، محتاج إلى استئناف العناية به والنظر فيه» وبأنها «فصول ناقصة شديدة الحاجة إلى الإصلاح...»⁽¹¹⁾

إلا أن هذا الاعتراف لا يبرر لطه حسين تقصيره، ولا يمنع من ملاحظة ادعائه النافج بأن في عمله إلى جانب جلاء ما كان غامضاً من تاريخ الأدب العربي «ضرباً من مناهج البحث أحسب أن الأدباء لو يفهمونه لاستطاعوا أن يستغلوا هذه الكنوز القيمة التي لا تزال مجهولة...»⁽¹²⁾ وقد اختزل إلى استعادة أو توليف لما ورد في الأغاني بشكل خاص من ناحية، وإلى شرح سطحي أولي للنص من ناحية أخرى.⁽¹³⁾ فإذا خرج من هذا وذاك فإلى تعليق يقع غالباً إذا ما تجاوز السطحية في السخف، من غير أن يحول ذلك دون ومضات

(9) د. كمال أبو ديب: «نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي» بحث نشر على قسمين تبعاً في المعرفة مجلة ثقافية شهرية تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية: العدد 195، أيار 1978 (ص 28-51) والعدد 196، حزيران 1978 (ص 72-110). وما أثبتناه في المتن ورد في القسم الأول- العدد 195، ص 29 و 30 تبعاً.

(10) د. كمال أبو ديب: المرجع السابق ص 29 و 105. وراجع ما يذكره بهذا الصدد د. محمد النهومي: في الشعر الجاهلي/ منهج في دراسته وتقويمه (جزءان) القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، د.ت. [1957؟] الجزء الثاني، ص 435 وما بعدها.

(11) طه حسين: حديث الأربعاء ذكر سابقاً؛ الجزء الأول ص 5-6 و 6.

(12) المرجع السابق: ص 8.

(13) المرجع نفسه: ص 40-54، ثم ص 18-27 تبعاً؛ مع الإشارة إلى أن كلمة سطحي هنا لا تحمل حكماً تقويمياً سلبياً، إنما تلاحظ غمطاً من القراءة يستعيد سطح النص بصورة تيسر فهمه الأولي للجمهور الذي يتوجه إليه، فهو نوع من الشرح من الجدير، في المناسبة، الإشارة إلى أنه شرح سليم إجمالاً ولطيف مفارق في ذلك للسائد والمعهود.

لأحكام صائبة تستند إلى ذوق وحس وذكاء أكثر مما تستند إلى منجج متماسك متكامل . ولو تخطينا في ما يتعلق «بوحدة القصيدة عند الشعراء القدماء» دور الله الذي - حسب طه حسين - «أوجدتها وأتقنها، وأتمها إتماماً لا شك فيه، ولا غبار عليه . . .»⁽¹⁴⁾ فإنه لا يسعنا إلا أن نتوقف عند الحتمية التي يراها في أهم منعطفات القصيدة⁽¹⁵⁾، والتأويل المضحك الذي يعتمد لتفسير إيجاز تشبيه وإطناب آخر،⁽¹⁶⁾ لنلاحظ منجج في التعامل مع النص والتعليق عليه هو مزيج من الاعتبارية والمزاجية، وأبعد ما يكون عن منهجية يمكنها أن تسبر أغواره وبلوغ مكتنزاته، هذا إن لم يشوّهه ويسيء إليه . لم يحل مع ذلك هذا المنحى دون اتخاذ طه حسين موقفاً سلبياً على الإجمال من وحدة «واستقامة بناء القصيدة» القديمة، ممثلاً عليه في معلقة لبيد بن ربيعة العامري تحديداً.⁽¹⁷⁾

كما لا يبرر للد . كمال أبو ديب تأكيده أن التحليل المقدم من قبله بصدد معلقة لبيد «يمثل عملاً في طريق الانجاز قد يستغرق تبلور نتائجه النهائية عدداً من السنين، لا آراء نهائية في صياغتها»⁽¹⁸⁾ التعسف البالغ الذي يسم عمله والذي لا يتأتى من الخلل المنهجي والتطبيقي الذي يسري في مفاصله ومركباته وحسب، وإنما ينتج أيضاً عن التناقض الفاضح بين إدعاءاته المبدئية ومغالطاته الإجرائية .

يمثل الخلل المذكور في هذه الإلصاقية الميكانيكية التي يأتي بها في اعتياده «بشكل خاص» على «منهج التحليل البنيوي للأسطورة كما طوره واستخدمه كلود ليفي - شتراوس»⁽¹⁹⁾ وتبريره

(14) المرجع ذاته ص 30 .

(15) في عرضه للبناء المتماسك لقصيدة لبيد يذكر طه حسين أن الشاعر بدأ، كغيره من الشعراء القدماء، بالتعرض لأحوال الديار - الأطلال - وأتبع ذلك بذكر الأجيال . . . ثم «انتهى إلى نتيجة المحتومة، وهي اليأس المريح والتعزي عن الحزن بالارتجال:

فأقطع لسانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرّامها
المرجع ذاته ص 34 .

(16) يقول طه حسين عن لبيد أنه «لم يطل في وصف السحاب الخفيف، لأنه لا يستطيع أن يساير السحاب الخفيف، ولا أن يجري معه في الجو، ولا أن يسابقه تحت تأثير الريح الباردة أو العاصفة، ولكنه يستطيع أن يتبع الأتان الوحشية، وأن يلو من أخبارها، ويعرف من أمرها، ما يعرضه عليك في هذا الشعر الرائع الجميل:

أو ملمع وسقت لإحقب لاحه طرد الفحول وضرها وكدامها
المرجع ذاته ص 35 .

(17) المرجع ذاته ص 30 - 32 .

(18) د . كمال أبو ديب: «نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي» ذكر سابقاً، القسم الأول: ص 30 .

(19) المرجع السابق ص 29 .

في «كون هذا المنهج قد برهن على غنى إمكانياته وطاقاته في دراسة ظاهرة أخرى عميقة الغنى والتعقيد هي الأسطورة»،⁽²⁰⁾ والتي تبدو رغم الاستدراكات الاحتياطية تتحكم في سيرورة العمل التحليلي بأكمله فـ «أحد المنطلقات الأساسية للتأويل المقدم في هذه الدراسة هو التشابه المثير الذي يمكن رصده بين بنية الأسطورة، خصوصاً كما يجلها ليفي - شتراوس، وبين بنية (ت. م. أ.)». ⁽²¹⁾ كما يتمثل، على سبيل المثال لا الحصر، في ذلك الاقتصار «على اكتناه وحدة الأطلال اكتناهاً دقيقاً (الآيات 1 - 11)»⁽²²⁾ مع ما في هذا الاقتصار من بتر لجزء من كل لا يكتنه أصلاً - عدا عن دقة الاكتناه - إلا في هذا الكل الذي يأتي فيه، ومع ما في هذا الاقتصار - البتر من تعسف تتبدى مضاعفاته الخطيرة في ذلك التخطيط المقدم لـ «الحركات المشكلة» للقصيد⁽²³⁾ حيث لا يكفي د. أبو ديب بتجاوز القراءة المزاجية⁽²⁴⁾ إلى إسقاطات وإضافات من لدنه،⁽²⁵⁾ وإنما يمزق الوحدة النحوية للعبارة في عملية إجتراف وتشويه وتخلخل⁽²⁶⁾ لا يمكن للمنطق «السوي» أن يقبلها فكيف إذا كان بنوبياً!⁽²⁷⁾

(20) المرجع ذاته ص 30.

(21) المرجع ذاته ص 33-34، على أن وت. م. أ. «تعني التيار المتعدد الأبعاد الذي يجعله د. أبو ديب مقابل التيار وحيد البعد، يميزهما في الضامين المختلفة للشعر السابق على الإسلام كتيارين ومن التجارب الجذرية يشكلان ثنائية ضدية» (المرجع نفسه ص 31).

(22) المرجع ذاته ص 32.

(23) المرجع ذاته ص 38.

(24) كما في قوله أن الشاعر يشير بعد وصف الديار (الآيات 1-11) والنساء الراحلات (12-19) «إلى توتر يسود العلاقة بينه وبين نوار محبوبته (19-21)». «المرجع نفسه ص 37» وأنه، ابتداء من البيت (19) وحتى البيت (56) تسيطر على القصيدة درجة عالية من التعقيد والتشابك البيويين... (المرجع نفسه، ص 38، والتشديد من قبلنا).

(25) كما في قوله أن الشاعر «يقول أنه سيصرم علاقته بها ويرحل على ناقته عبر الصحراء» (المرجع نفسه ص 37؛ والتشديد من قبلنا).

(26) وذلك حين يفصل الجار والمجرور وما يتصل بهما (في البيت 22) عن الفعل الذي يتعلقان به (في البيت 20) وحين يجعل توتر العلاقة بين الشاعر ونوار (في الآيات 19-21) «حركة مشكلة» (راجع التعريف الخاص بهذا المفهوم في الملاحظة رقم 12 ص 106 من المرجع نفسه) مستقلة عن تلك الخاصة بـ «تطوير وصف للناقة (22-53)» (المرجع نفسه ص 37) مقدماً في هذا التحديد للحركة الأخيرة على إجراء مماثل، فاصلاً الجار والمجرور الغائمين في البيت 53 والمتعلقين بالفعل الوارد في البيت اللاحق (54) عن هذا الأخير الذي يجعله في حركة جديدة تشير إلى «التوتر الذي يسود العلاقة بين الشاعر ونوار وتؤكد كبرياء الشاعر وعزمه على صرم هذه العلاقة (54 - 56)» (المرجع نفسه ص 38)!

(27) إذ لا ننسى أن د. أبو ديب يأخذ على المحاولات الحديثة لوصف بنية القصيدة السابقة على الإسلام كون عمكاتها النقدية «ذات طبيعة منطقية» (المرجع نفسه ص 29) وأنه يقدم عمله على النحو التالي: «ينبغي التذكير بأن القضية الأساسية التي تدور حولها الدراسة الحاضرة هي بنية القصيدة» (ص 33).

أما مغالطات التحليل المتناقضة مع الحدود التي ترسمها الدراسة لنفسها فأكثر من أن يتسع لها هذا السياق. لذلك نكتفي بعينة منها تضاف إلى الاجتزاء المشار إليه أعلاه والمتناقض مع الادعاء بأن الدراسة تناول «بنية القصيدة». ⁽²⁸⁾ فهناك قراءة سطحية لـ «قسم الأطلال» تصمه «بالغياب المطلق منه لأي تعبير مشحون انفعالياً»، ⁽²⁹⁾ تقابلها محاولة تضخيم وتهويل لا تتفق والمعطى الفعلي للتعبير ومضمونه تلحظ فيه «المفارقة (Paradox)» وتسطع فيه إثارة «الدهشة بصورة فورية» بالاعتقاد على فهم مغلوط للنص في مضمونه ودلالاته. ⁽³⁰⁾

(28) كما يتردد في أكثر من مكان مثل قوله: «يعتمد التصور الذي تطوره الدراسة الحاضرة لبنية القصيدة... (المرجع نفسه ص 33) وأن «القضية الأساسية التي تدور حولها الدراسة الحاضرة هي بنية القصيدة» (المرجع نفسه ص 33) ... علماً أن هذا الاجتزاء لا يقتصر على ما ذكر، بل إننا نجد كذلك لاحقاً في دراسة صورتي تشبيه الناقة بالأتان وبالبقرة الوحشية (المرجع نفسه ص 81-82) ...

(29) المرجع ذاته ص 38-39.
(30) يقول: «يتلو الإشارة الأولى السريعة إلى أن الديار قد عفت مباشرة عنصر من المفارقة (Paradox) يتشكل في اللفظة وتأييد...» (المرجع نفسه ص 39). يلي ذلك اصطلاح معانٍ لـ «تأييد» لتأكيد هذه المفارقة في حين يعطي المعنى المعجمي للفظ دلالة لا تفارق أبداً العفاء التعلق بالديار، وإنما على العكس من ذلك تتفق معه وإن لم تكن تفترضه وترتبط به. يقال تأييد: وإنما توخّش، وتأيد المكان: أفر وألفته الوحوش (المجسد في اللغة والأدب والمعلوم بيروت، المطبعة الكاثوليكية - «أبد») وأبيدت الوحش وتأييدت: توخّشت، والتأييد التوحش. الأويد جمع آبدة، وهي التي توخّشت ونفرت من الأنس؛ ومنه قيل للدار إذا خلا منها أهلها وخلفتهم الوحش بها: قد تأييدت؛ قال لبيد: معنى، تأيد غولها فرجامها. وتأيد المنزل أي أفر وألفته الوحوش... (لسان العرب...).

يضيف الكاتب إثر ذلك: «أما البيت الثاني فإنه يثير الدهشة بصورة فورية، بسبب صورة مجاري الماء التي تبرز فيه إذ أن إدخال صورة الماء والمجاري التي يتفجر منها إلى المشهد العام له دلالة - رغم أنه يأتي في مظهر نفي لوجود الماء الآن، في اللحظة الحاضرة ومجاري المياه عارية» ويضي في ذلك حول التشبيه الذي ينسبه لمدافع الريان... (المرجع نفسه ص 39) مع أن النص، على الأقل حسب تفسير الزوزني له، والذي يدعمه استعمال مماثل في البيتين الأولين من معلقة امرئ القيس، لا يعني أن مدافع الريان جافة ومجاريها عارية ولا أن التشبيه بالتالي خاص بها، بل إن «عري رسمها» يعود للديار وأن التعبير بالتالي خاص بهذه الديار.

أما المقصود بالاستنتاجات المغلوطة فأمثال هذا التأكيد على أن «ليس الخط الدلالي المسيطر خط العفاء والزوال» في القسم الخاص بالأطلال (المرجع نفسه ص 42) وذلك بالارتكاز على فهم لفعل المضارع في البيت 8 لا يأخذ بالاعتبار كونه محكوماً بالفعل الماضي الذي جاء قبله، فلا يميز بين الاستعمال البلاغي (المجازي) والاستعمال التقريري (الحقيقي) فيسمح لنفسه استنتاج «أن ما يقال هو أن الأقلام تجد الكتابة (وستجدها إلى الأبد)...» (المرجع نفسه ص 42). وإن نعدم أمثال هذه المغالطات على امتداد النص. قارن على سبيل المثال القول «الأتان تعصاه لأنها، في احتمال، تريد أن تستقر وتتظر لحظة الولادة بأمان في مكان تعرفه» (المرجع نفسه ص 72) بما ورد لاحقاً: «الأتان تغادر القطيع مع الذكر لتتقد الجنين» (المرجع نفسه ص 84) ...

لا تحول هذه الملاحظات مع ذلك دون التنبيه إلى الفائدة التي يمكن لدراسة د. أبو ديب أن تؤديها باعتبارها عملاً جدياً ودؤوباً في التزام التحليل النصي بطريقة منهجية. (31) وهي في مجملها لا تستنفد كل ما يمكن قوله حول ما تعرضت له قصيدة لبيد في المقاربات التي ذكرناها، ناهيك باستنفادها جميع المقاربات التي تمت بشأنها أو التي جرت بصدد شعره. إنما هي تدليل موجز حول عينة بسيطة من التعامل مع هذا النص، شددت بالطبع على سلبياتها للتنبيه إليها كي لا يتكرر الوقوع فيها، وكي يتم تجاوزها عبر أبحاث أكثر رصانة وأشد فعالية في انفتاح رياضي متطور.

ضمن هذه الوجهة الأخيرة لا تعني هذه الملاحظات دحضاً لكل ما سبق من محاولات لتعلن بغيره ليس له ما يبرره قدوم المحاولة «المتظرة»، فلا تسعى إلى تحويل الأعمال السابقة أنقاضاً تبرز ما يتم إنشاؤه لاحقاً إزاءها، بقدر ما تعتمد هذه الأنقاض أساساً في البناء الذي يجري تشييده. ففي الوقت الذي تشير فيه إلى قطع مع وضع سابق، تعلق وصلأ به، استكمالاً مغايراً له، عله ينتج من هذه الجدلية عمل جدير بالتطلعات المعلنه. قد تكون في هذه الجدلية أصداً للتمني الذي ألمع إليه د. كمال أبو ديب في دراسته المشار إليها آنفاً، (32) إلا أن من المؤكد أنها لا تستجيب لطموحاتها إلا بقدر ما تستثير تفاعلاً معها بعض رهاناته الأساسية تحطيتها وتجاوزها.

أولاً: بنية النص ومطلعه النبوي:

ربما بقي تشديدنا المستمر على الأهمية الحيوية والمحورية لاكتناه بنية النص كشرط أولي لا يمكن الاستغناء عنه، ليس في تحليله وحسب بل في فهمه كذلك، دون المرجحى. وقد يظل تكرارنا المتواتر أن أجزاء النص وعناصره لا تفقه ولا تبلغ دلالاتها بمعزل عن وحدة النص الكلية ووضعها فيه كما يحدده موقعها في الهيكلية العامة التي تولفه، وفي السياق المحدد الذي

(31) كان الأجدد بهذا الدأب أن يتوصل إلى التخلص من هذا الاضطراب الذي يحكم بعض مفاهيمه التي تضيف لذلك تعقيداً على تعقيد دون تبرير ظاهر على الأقل، كما في القول بـ «وحدة مشكلة» (المرجع نفسه ص 32 و 34) و «الحركات المشكلة» و «قسم الأطلال» (نفسه ص 38) و «حركة الأطلال» (نفسه ص 34) و «وحدة الأطلال» (نفسه ص 44) للدلالة على ملول واحد، لا يبدو أنه ذاته حين يقال «وحدة الظباء والنعام والبقر الوحشي» (نفسه ص 48) . . .

(32) وإذ تقدم هذه الدراسة، يؤمل أن تثير اهتماماً جديداً بالموضوع وتؤدي إلى ردود فعل من قبل باحثين آخرين في مجال الدراسات العربية وخارجه، لعل ذلك أن يؤدي في النهاية [إلى] وضع بنية القصيدة في منظور جديد وأن يخلق نظرة مختلفة جذرياً عن النظرة السائدة إلى الشعر الجاهلي: طبيعته، ومعناه، وتقنياته وتطورها» (المرجع نفسه ص 29-30).

تدرج فيه والنسيج الداخلي من العلاقات التي تتكون ضمنه، غير كاف. وإذا كانت بعض أعمال «البيويين» أنفسهم تبدي، كما لاحظنا أعلاه، عن استخفاف بالبنية وتجاوز للمبادئ الأولية في التعامل معها، فليس من العجب أن يعمد كثيرون ممن يجهلون البنيوية (والبنية) أو يتجاهلون معرفتها إلى مهاجمتها وإدانتها، متوجسين فيها خطراً نادراً ما يصرحون به فيما يعلنونه من مآخذ، قد يكون خطر المنهجية في المعرفة لتبقى هذه حرزاً أو سرّاً لا يبلغه إلا الخدس أو فراغ الكلم، أو خطر مناوأتها لمنهجيات أخرى تفضح هي بلاء هذه أو قصورها.⁽³³⁾

إن بنية نص هي تلك الشبكة البسيطة التي تنسجها العلاقات الأساسية التي تقوم بين عناصره المكونة مبينة وحدته الكلية. إنما لا يكفي لبلوغها الحديث عن ثنائيات قائمة فيه وحسب، وإنما يجدر بهذه الثنائيات أن تكون أساسية أولاً وعمامة ثانياً تشمل النص بأكمله، بحيث تجد جميع العناصر الأساسية المكونة له موقعها فيها. أما في حال انعدام هذه الشمولية فيشار إلى الإنكسار الحاصل وإلى التعدد الذي يأتي به، ومن ثم إلى العلاقات المرتسمة بين أطرافه بحيث تبقى وحدة النص كاملة في عرضها. كما لا يكفي ذكر هذه الثنائيات ومتابعة مواضع تواجدها أو تمظهرها، بل يجدر إبراز العلاقة التي تقوم بين طرفيها الأساسيين أو أطرافها الأساسية أولاً، وإيضاح التشكل الخاص الذي تبدي فيه هذه العلاقة على امتداد النص ككل ثانياً. فالمرغوب أن هذه الثنائيات تحمل سمات إيجابية أو سلبية، وبالتالي فإن العلاقة التي تقوم بينها تميل إجمالاً إلى انتصار لطرف على آخر أو دونه، أو إلى الإفضاء إلى طرف ثالث جديد، وفي حال وجود توازن بين الطرفين وهذا نادر كي لا نقول مستحيل يجري إبرازه والبحث في تعليل أو تأويل معطياته وشروطه. كما هو معروف أن هذه العلاقة ليست نمطية الإداء في نصوص متائلة البنية لمؤلفين مختلفين أو للمؤلف الواحد نفسه، مما يفسح المجال واسعاً للتعرض لتشكلات متعددة للبنية الواحدة.

إن تحديد البنية هو أساس ومرتكز العمل في تحليل النص ودرسه. إنما، إذ ينطلق منه لا يتوقف عنده أو يكتفي به. في الشعر - في نصوصه الإبداعية الراقية، ويقدر هذا الرقي فيها - ينتظم النص بنويًا على مستويات عدة، بحيث تأتي بنيته الدلالية متألّفة مع بنيته

(33) راجع مقدمة د. أسعد ذبيان لكتابه المخصوص في المتنق من النصوص: 1 - امرؤ القيس بيروت؛ دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، د.ت.، وانظر خاصة كميّة على جهل البنيوية تقديمها في مجال النقد على أنها ترتكز «إلى أن القصيدة (أو أي عمل فني) مكونة من بنيات جزئية، هي قوام العمل الفني» (ص 9)، وعلى مهاجمتها ورفضها بقولات تذكر بتلك التي يمتدّها بعض الرجميين في مجابتهم لحركة التقدم عامة والحركة الشيوعية خاصة إذ تعتبرها نظرية مستوردة لا صلة لها بأدبنا، ولا صحة لشموليتها (ص 11).

الإيقاعية والنحوية واللغوية والأسلوبية، تألفاً يصل إلى حدود بالغة التقدم من التجانس أو التكافؤ. وإذا كان للنص أبعاد دلالية ذاتية واجتماعية وتاريخية، فإن هذه البنية هي مفتاح ولوج فضائها، أهم وسيلة لارتدادها وبلوغ مراميها. فهي لا تحدد جمالية النص وحسب، بل تقدم القاعدة الموضوعية المناسبة للتعرف إلى مرجعيته وتأويل إشاراته.

على هدي هذه الطروحات الأولية نتعامل مع النص، دون اعتبارها مع ذلك نهائية مغلقة؛ إذ يمكن لمسار التجربة والممارسة والتأمل أن يتيح إعادة نظر فيها أو إدخال بعض التعديلات عليها.

إن قراءة متأنية ومتعمقة للنص موضوع الدراسة تتيح رؤية ثنائية متكونة من القطع والوصل فيه يحكمها التناقض وتعم جميع العناصر والعلاقات المختلفة التي تقوم في صلبه، ويميل الموقف الخاص للشاعر فيها إلى الانتصار للوصل على القطع الذي يدينه ويحاول تجاوزه. فالشاعر في وقوفه إزاء الديار الدارسة يعلن انقطاعاً حاصلًا وقائماً في ذلك المكان. هو انقطاع عام مكاني وزمني، بقدر ما هو انقطاع إنساني، يؤديه هذا الاندثار والاندثار فيها والبل الذي أصابها والبعد الزمني المديد الذي انقضى على غياب الناس عنها، أولئك الذين كانوا قد حلوا فيها. وهو انقطاع يتصل بآخر ويشكل استمراراً له: رحيل هؤلاء الناس بمن فيهم نساؤهم ومنهن نوار إلى مكان آخر لا يتيسر بلوغه. فيدعو نفسه إلى التعامل مع الآخرين حسب مواقفهم منه، بأن يقيم وصلًا بمن يحسن معاملته وقطعاً بمن يسيئها. يعبر عن هذا القطع من خلال توقفه عند الوسيلة التي يعتمد عليها في ذلك، فيأتي ذكر الناقة تمثيلاً للانصراف عن من يقطع علاقته به ويلاحق التشبيه زخم هذا القطع تحديداً في الغمام الخفيف تدفعه الريح منقطعاً عما هرق ماءه، وفي الأتان الواسق يفصلها فحلها عن بقية الفحول (والحمير) بشدة إلى مكان يفردان فيه أشهراً ستة قبل أن يغادره إلى العين المسجورة بكل لب التعطش المحموم إلى الماء، وفي البقرة الوحشية المسبوعة انقطعت عن طفلها فأنهكت أياماً سريعة بحثاً عنه تندفع بعنف هرباً من الصيادين وتقتل ما يصل إليها من كلابهم. بينما يعبر عن الوصل بحضوره اللاهي مجلس الخمرة يصل فيه الليل بالنهار، وبحماية الناس من غوائل الطبيعة وحماية قبيلته من الأعداء، وبحضوره المتفوق في المجالس الاجتماعية الرصينة وكرمه المتدفق على الجيران والضيوف والمحتاجين؛ كما يعبر عنه بوحدة العشيرة في زعامتها الصالحة وكرامها، وفي مجدها وفوارسها، متواصلة في ذلك مع ما فيها، مقيمة لانحداد وتماسك أبنائها.

على هذا الأساس من التناقض بين القطع والوصل بصيغه وأشكاله المتعددة، ومن موقف واضح للشاعر منحاز للوصل ومتنصر له بارز خاصة في عدم مبادرته للصرم واعتماده

ردة فعل على جفاء الآخرين أو فساد مواقفهم، على عكس مبادرته إلى الوصل يبذل في سبيله المال ويتكلف المخاطر ويحبه التحديات، متهاجياً في ذلك مع الموقف العام للعشيرة وسراتها.

بيد أن هذا التكوين البنيوي العام للنص في معطاه الأيسر والأعم يشكل نواة يتألف حولها وبها نسيج دلالي عام لا يكف النص عن بلورته وتأكيد، طارحاً بذلك الحقل الذي تنجدل فيه الأبعاد الذاتية والاجتماعية التاريخية للنص. فانتصار الشاعر للوصل يتقدم تعبيراً عن تطلع داخلي عميق إلى وصل بالمرأة. وهو إذ يدين القطع ضمناً فإنما يعبر عن أسفه العميق لغياب هذه المرأة، لانقطاعها عنه، وحرمانه منها.

على هذا النحو تندرج القصيدة من بدايتها إلى نهايتها نوعاً من الاستدعاء لهذه المرأة الغائبة بدءاً من وقوف للشاعر على ظلها يجعل بالإشارات السلبية المتعلقة بانقطاعها وغيابها، انتهاء بإشادة من قبله بقومه المجتمعين والمتحدين تطفح بالإشارات الإيجابية الخاصة بهذا الاتصال العميق. لكن هذا الانتصار للوصل هو أيضاً تعبير عن موقف من أوضاع اجتماعية - تاريخية يمكن اختزالها هنا بالتعارض بين التحضر والتوحش، أو الحضارة الإنسانية والطبيعة الوحشية. كأن النص يعتبر الانحلال والاندثار الحضاري قائماً في القطع والرحيل والغياب الانساني المرتبط بهيمنة التوحش؛ بينما يبدو البعد الحضاري فيه متمثلاً في الوصل والاجتماع والتعاون واستمرارية التواصل. وهذا الطرح قائم في مجمل النص من بدايته التي تتعرض للطلل العافي حتى نهايته الخاصة بالعشيرة المجيدة.

إذا كان لمطلع النص أن يشير إلى بنيته العامة أو يوحى بها، فإن هذا مطروح في ذلك التعارض الذي يقيمه بين الديار البالية وبين الأمكنة المتأبدة منذ البيت الأول. حيث أن هذا التأبد هو الوجه الآخر المكمل لذلك البلاء. فالديار الدارسة، إذ تشير إلى غياب ونقص، تشير في الوقت نفسه إلى تبدد واندثار. ويبدو وجود الوحش في ذلك المكان نتيجة لهذا الغياب ودليلاً عليه. يرتبط هذا الوجود بدوره بخصب يوميء إليه انتشار الوحش الشامل لجميع الأمكنة. إن الغياب كلي يشير إلى دمار عام، فالإقامة مؤقتة أو دائمة اندثرت وقضت، مقابل الحضور القوي والكثيف لظواهر الطبيعة وحيوانها.

وإذا كان الشاعر يتوقف عند الآثار الدارسة فللبعد الإنساني الذي تمثله بالنسبة إليه. وهو بعد قائم في الأثر الذي تركه الإنسان في الطبيعة والذي لا يلبث أن يعلنه ذلك التشبيه الذي يحيل إلى أثر آخر (نقش الكتابة على الحجر) ذي بعد حضاري بعيد وقوي، دافعاً التعبير إلى أفق أوسع ودلالة أعمق. فما لا يعلنه النص صراحة يشير إليه تلميحاً، والصورة البيانية إحدى وسائله المعتمدة لذلك. فالرسم البالي يتبدى عن كتابة، عن كلام مكتوب،

عن خطاب يقول انقطاعاً عن المكان وإمهالاً له، حتى أن الشاعر إذ يقف إزاءه يتمكن من قراءته. وهذه القراءة هي التي يقوم بها عملياً منذ البيت الأول.

يعلن المطلع إذن خطاب القطع الذي يحل في المكان ويعلن فيه رسالة يتقرى الشاعر حروفها ورموزها، فلا يكون نصه بناءً لذلك إلا نص قراءته هوها، أي نصاً يتضمن النقل والتعليق، الفعل ورد الفعل، الرسالة والإجابة عليها. هذه الإجابة ترد تلميحاً في ذلك الانحياز الواضح للبعد الحضاري الذي يشكل غيابه بلى واندثاراً بقدر ما يشكل توحشاً ووجشة بكل مدلولاتها المختزنة والمتضمنة. إلا أن خصوصية البنية وتميزها الفعلين فقائمان في ذلك التشكل الذي تعرفه في الانتظام الكلي للنص وهو انتظام يكمن فيه تحديداً أحد الأوجه البارزة لجمالية النص الإبداعية ولدلالاته المتعددة. وهو ما سنحاول متابعتها فيما يلي.

ثانياً: التشكل البنوي للنص:

يمثل التشكل المعنوي الانتظام الذي تتخذه البنية في السياق المتتابع لكلم النص، أو هو التوزيع الذي تأتلف فيه الوحدة البنوية الكلية على المستوى النظمي للتعبير. فبنية النص، بما هي رسو راسخ للعلاقات الكلية الأساسية التي تحكمه، يمكنها أن تتبدى بصيغ وطرائق عدة، وخاصة أيضاً بمظاهر وأشكال متنوعة من الأداء. لا يغير هذا التشكل شيئاً يذكر في صميم البنية المعنية، ولا ينال من العلاقات الأساسية بين أطرافها، إلا أنه مع ذلك يبرز خصوصياتها ويوضح ألوانها المتباينة. لكنه بالأخص، وعلى هذا النسج الخاص الذي يجعلها فيه، يتيح متابعة العملية الإبداعية في توازن وتجانس مستوياتها التعبيرية المختلفة من إيقاعية ونحوية ولغوية وأسلوبية. . . . لمعرفة مدى تكافئها أو تعادها، بقدر ما يتيح تقصي الأبعاد الدلالية المتعلقة بالنص المدروس تحديداً لمعرفة مراميهِ الفردية والاجتماعية. إذ لا يغيب عن البال أن هذا التشكل الخاص للبنية بالتحديد هو ما يميزها بشكل رئيسي عن سواها من بنى نصوص أخرى متطابقة أو متماثلة أو متوافقة معها.

إن التدقيق في النص، بناءً لذلك، يسر لنا تمييز ثلاثة أقسام كبيرة فيه، وهذا التوزيع يتخذ مغزاه في إطار حركة الفصل والوصل التي تعم النص وتطيه انتظام تشكله البنوي كما سنلاحظ ذلك مفصلاً فيما يلي:

1- القسم الأول: خاص بالطلل ورحيل أهله (من البيت الأول حتى البيت التاسع عشر) هو محاولة من الوصل فاشلة إذ تصطدم بقطع الآخر. يوضح القسم بأكمله في تنامي التعبير وتطوره عبثية محاولة من هذا النوع. في هذا الوضع الكلي للتعبير تتضح قيمة القسم الأول الدلالية كما تتضح علاقته بالقسمين الثاني والثالث اللذين يليانه.

- إذ يلحظ الشاعر ما حل بالديار من بلاء عام وشامل يمضي إلى مطالعة رسومها الدراسية، كما أوضحنا في المطلع، ليقرأ فيها توالي السنين على غياب أهلها منها (من البيت الأول إلى البيت الثالث). وإذ يعلن الكثرة دون تحديد، فإنه في المقابل يعلن اكتساح السنين العديدة. يؤدي هذا الاكتساح دوراً مهماً لأنه يعيد الشاعر إلى الإطار الزمني الأول تقريباً، إلى العهد الذي سبق مباشرة قطع الصلة بهذا المكان، ليقيم من خلال هذا التماثل الزمني قوة الفارق بين الأنس والوحشة، فيبدو الإنسان غائباً والوحش حاضراً، والبناء دارساً بالياً والطبيعة بانعة حيوية.

- تستعيد الأبيات التالية (من الرابع إلى التاسع) هذا التناقض في تصوير مفصل، حيث تستمر قراءة المكان مبنية توالي الأمطار عليه دافقة ومحدودة، كما يدل على ذلك بالغ الخصب الذي يعمه. فيرتفع نبته عالياً ويتوالد حيوانه من دواب وطيور بانسجام وأمان بديعين. يتناقض هذا الخصب النباتي الحيواني في الطبيعة الوحشية مع العقم المستمر في الوجود الإنساني وحضارته، حيث أن السيول قد كشفت عن آثار الديار الدراسية فأبرزتها وأوضحتها فبدت سافرة عن غياب يمتد ويطول؛ يعود الشاعر في إداء صورتها إلى تشبيه مماثل لذلك الذي اعتمده في المطلع، لكنه ليس مطابقاً له، إذ يجعل الآثار في ذلك المكان كتابة في صحف وجلاء السيول عنها أقلماً تجدد خطوطها. ثم يخرج إلى تشبيه مغاير، دون أن يكون مفارقاً للأول، حين يعتبر هذه الآثار وشوماً وكشف السيول لها ذراً للنزور عليها يعيد إظهارها ورونقها، مشدداً بذلك، في ذكره للطلل، على البعد الحضاري للوجود الإنساني المتمثل فيه، مؤكداً دوره إزاءها قارئاً يتهجى حروفها المجلوة من جهة، وإنما أيضاً متمعناً في هذا العمل الفني الجميل الذي يستحضره مرتبطاً بالمرأة وبالزينة الإنسانية المتصقة بالجسد من جهة ثانية.

- عند هذا الاستحضار بالذات يتحول التعبير إلى ذاتية تبين موقف الشاعر الخاص إزاء الطلل، وهو موقف الوصل والاتصال بهذا البعد الإنساني القائم فيه. فهو الذي يقف عند الطلل يتأمله ويتهجاه ويستدل به على البعد المذكور. لكنه أيضاً يتصل به من خلال سؤاله الذي يستجيب للاستدلال الذي انتهى إليه. إلا أن عبثة السؤال ومعه محاولة الاتصال التي يتضمنها ليست خافية على الشاعر، إذ يستدرك مباشرة في سؤال العارف استحالة الأفضاء إلى نتيجة فيه، فلا جدوى من التوجه إلى تلك الحجارة الصلبة التي لا تفصح في تعبيرها. وكان صيغة الاستدراك الجماعية تخلص للتعبير من إसार الوجدانية الذاتية والتحاق بالعقلانية العامة. إن محاولة الوصل الجارية في هذا البيت (العاشر) تصطدم بقطع باتر ونهائي. يبدو الموقف الذاتي المتدفع نحو البعد الإنساني للطلل موقفاً واعياً لحدوده، فكأنه

يسجل بذلك مفارقتة لوضع مناقض له، مدلاً على أن الانقطاع القائم لا يعود إليه، ويبدو سؤاله يتعدى الاستفهام أو التعجب إلى الأسف واللوعة. وينتهي تحول التعبير الذي عرفه البيت من الوصل إلى الفصل فيرتد منعطفاً إلى وجهة أخرى يسلكها البيت اللاحق (11) فيبدأ مجدداً من العري الملاحظ آنفاً مرتبطاً بالبلاء والعفاء في تجسيده للانقطاع الإنساني الحاصل في المكان، ليستحضر ذلك الوجود الإنساني الماضي في كثافته وكنيته، لا للتوقف عنده كحضور ويقاء وتواصل، وإنما للإشارة إليه كمغادرة وسفر وانقطاع. فيكون ارتداد التعبير إلى الماضي تفسيراً لواقع الحاضر المكاني، ولكنه أيضاً تفسير لواقع الحاضر الذاتي.

- يستكمل البيت الثاني عشر وما يليه ما بدأه البيت الحادي عشر ليفسر موقف الشاعر إزاء الظلل ويوضح خصوصية الصلة التي تربطه به، ومن خلال ذلك الدلالة الفعلية للأبيات السابقة. فما يدفعه إلى الظلل، إلى السوقوف عنده وسؤاله، هي في الحقيقة تلك الأحاسيس العاطفية التي تتوقد في نفسه نحو نساء القبيلة. فالعشية العقلانية نجد هنا تبريرها وغايتها الوجدانية. ويرتبط الهياج الانفعالي برحيل هؤلاء النساء الذي يلاحق الشاعر تفاصيل اكتماله بصورة تعبر عن تعلقه الشديد بهن وحرصه على متابعتهم (في الأبيات الممتدة من 12 إلى 15). فهو يلاحق رحيلهن بصورة تلتزم خط هذا الرحيل من ركوب البعير حتى النأي البعيد، فيذكر دخولهن الموادج وصرير خيامهن مدققاً في الظلال الواقعة على عيدان المسودج مما عليه من ستر رقيق وكثيف. ويشير إلى ابتعاد الإبل بهؤلاء النسوة أخذات معهن ليس بجاهل وحسب، بل أيضاً ذلك البعد العاطفي الذي يوميء إليه العطف في البيت الرابع عشر؛ وإذ تمنع في الابتعاد تترامى خلل السراب قطعاً ضخمة عظيمة توميء إلى عظمة أصحابها ومنعتهم. إن هذه المتابعة تبدو وكأنها سعي للتواصل وإصرار على التمسك بهؤلاء النساء يتعارض مع حركة الانفصال والابتعاد التي تقطع صلة النساء بالمكان والشاعر. كأن الوصف محاولة جادة لبقاء هؤلاء المغادرات في المكان، أو لتأخير غيابهن على أقل تقدير. لذلك يأتي هذا التكبير للمشهد المتناقض مع الابتعاد المصغر للرؤية كتنوq لفي هذا البعد وما يتضمنه من غياب واقع. وهو يتوقف مع اكتمال الغياب وفشل المحاولة. ويأتي التشبيه هنا ليسعفه في محاولته حين يبدي في ارتكازه إلى نجاج توضح وظباء وجرة من ناحية، وأثل ورضام بيشة من ناحية ثانية، لا معقولة هذا الانقطاع الحاصل باعتباره لا يتفق مع الانتفاء المكاني المتزايد من تشبيه لآخر تجذراً وصلابة بقدر ما يبدي عن أن الانتفاء إلى المكان هو انتفاء إنساني قبل أي شيء آخر. إن تحديده بالتالي قائم على هذا الأساس، فإذا تم انقطاع الإنسان عنه تعرض للالتباس والخلل.

- ربما كانت الأبيات الأخيرة في هذا القسم (من 16 إلى 19) أبلغ تعبير عن الاختلال

الذي يؤدي إليه الانفصال. إذ أن ارتداد التعبير إلى الماضي والذكرى أفضى بدوره إلى الغياب الذي يسد منافذه، فينعطف بجددًا إلى الحاضر في ذلك الاستفهام الذي يطرح عبثية أخرى متعلقة بلا جدوى الذكريات - كما كان سؤال الأطلال أعلاه -. ذلك أن هذه الذكريات كحالة من حالات الاتصال بالمرأة لا معنى لها ولا تفضي إلى شيء لأنها تتعلق بطرف بالغ في القطع والانفصال حتى التلاشي والضياع. فنوار قطعت كل صلة لها بالشاعر قوية كانت أو ضعيفة، وهذا القطع يتمثل بابتعاد مكاني يصل إلى أقصى حالاته في حركته المعنوية في الانفصال، بقدر ما تبدو مخالفة للمنطق والمعهود. فنوار المرئية، إذ تنفصل عنه، لا تقيم في مكان نهائي معروف منه. وبين فيد والحجاز، ومشارق الجبلين وصوائق اليمن تضيق ويكاد بلوغها أن يستحيل. ويكون تردده في تحديد هذا المكان تعبيراً عن التفكك أو التلاشي الآتي مع الانفصال، وهو ما لا يمكن للظن أن ينجيه منه أو يجيب عليه.

على هذا النحو يتشكل القسم الأول في محاولات مستمرة للاتصال لا تفضي إلى غير الفشل واللاجدوى، مقابل انفصال مسيطر يحكم مواقعه المختلفة، وتبدو المرأة محور هذه المواقع وتلك المحاولات. وتظهر نوار تحديداً موضوع الطلب والغياب، موضوع الرغبة والحرمان.

2 - القسم الثاني: يفتح بالبيت 20 ليسجل انعطافاً أساسياً في تنامي التعبير التنظيمي للنص. إنه يشكل قطعة مع القسم الأول باعتباره مجال نفوذ الفصل وفشل الوصل، معلناً بذلك التحاقاً باتجاه ساكس يرسم تتابع الأبيات الممتدة من البيت العشرين إلى الرابع والخمسين ملاحه، ليفضي إلى التحام بديل بمجال يهيمن الوصل عليه ويفرض قوانينه بشكل بارز (القسم الثالث).

قد يكون البيت العشرون مفاجئاً في الدعوة التي يطلقها إلى قطع العلاقة بمن لا بس وصله عيب من فساد أو انحراف، في مجيئه إثر محاولات الوصل العديدة التي لاحظناها في القسم الأول. إنما تصبح هذه الدعوة منطقية بعد الفشل الذي لحق بهذه المحاولات، وقد كان المنطق دوماً في هذا القسم دافعاً نحو موقف مائل. كأن هذه الدعوة هي المال الذي وصلت إليه مداخلاته، وهي في النهاية تأتي في الصيغة الموضوعية التي ترد فيها تعبيراً عن كونها صنيعة. تنهض هذه الصيغة الموضوعية في التوجه العام والمطلق الذي يجتمه التعبير، كما تنهض في إحالته إلى مسلمة تعطيه صوابيته وسلامته.

في إعلان المسلمة أن شر الأحية من ينتقض على صاحبه ويهجره، يبدو موقف الشاعر في سلبه الشكلي إيجاباً بقدر ما هو سلب للسلب، أي انفصال عن منفصل. وتكمن إيجابيته

في التحول من عبثية الموقف في وصل لا يصل إلى موضوعه الغائب والمقطع، إلى معقولية وصل يتجه إلى موجود وقائم.⁽³⁴⁾ وتمنع الجملة المعترضة التي يتضمنها البيت الواحد والعشرون أي التباس بهذا الخصوص، فلا يزال الوصل هو الموقف العام الملتزم به، بحيث يكفي تجاوب شكلي معه ليأتي على ود كبير، وليس القطع والصرم إلا إجراء يلجؤ إليه في حال انحراف الطرف المقابل. ينصرف التعبير مجدداً بعده إلى متابعة القطع الإيجابي الذي يدعوه إليه متوقفاً عند الوساطة التي يعتمدها في ذلك: الناقاة.

إن هذا التوقف المطول عند الناقاة يعطي للأبيات المتعلقة بها (20-54) لحة خاصة، جاعلاً منها وحدة وسيطة بين الانقطاع المهيم على القسم الأول قبلها والاتصال السائد في القسم الثالث بعدها. وموقعها الوسطي يقوي من هذا الدور التوسطي الذي تؤديه بقدر ما يؤديه أيضاً الالتحام الراقى الذي يجمعها ويوحدها بامتياز.

الناقاة هنا تجسيد هذه الوساطة في خصائصها كما في دورها. فالناقاة المعنية ناقاة مجرية أنهكتها الأسفار حتى تجردت من كل ما يعيق حركتها، فهي لذلك أنشط وأسرع في بلوغ هدفها. إنها في ذلك تجسيد مصغر للقطع الإيجابي باعتبار أنها تفصل كل ما يعيق الاتصال، أو تقطع القطع السلبي. تؤكد تفاصيل الوصف الخاص بها هذا الوجه العام السائد من قطع إيجابي، أو قطع لقطع سلبي، في الإشارة إلى ضمور الناقاة الذي يتضمن معنى تخلصها من الشحم المعيق لحركتها، وإلى تقطع السيور الذي يتضمن معنى النشاط والزنخم في الحركة المديدة.

أ - إن محاولة استقصاء التعبير عن ذلك تدفع بالنص إلى إيضاحه بالتشبيه الذي يستغرق معظم هذا القسم (الثاني). فمقارنتها بالسحابة الحمراء، التي تحففت من مائها تدفع بها ريح الجنوب، تسعى لتأدية السرعة والخفة في الحركة بالتأكيد، وهي ترفعها إلى مستوى سهاوي راق، ولكنها أيضاً تؤدي تحديداً لوجهة الحركة التي تتخذها مع الريح مفارقاً للضياح الذي أحاق بمكان المرأة (نوار) وربما جاء معاكساً له إذا صدق ظن الشاعر في

(34) يعلق الزوزني في معرض شرحه لهذا البيت قائلاً: «يذم من كان وصله في معرض الانتكاث والانتقاض. ويروى «وخيّر وأصل...» وهذه أوجه الروايتين وأمثلهما، أي خير وأصل المحبات أو الأحباب إذا رجا غيرهم، قطاعها إذا ينس منه». شرح المعلقات السبع ذكر سابقاً، ص 136. إن موقف الزوزني هنا أكثر انسجاماً مع سياق النص وتنامي حركة التعبير فيه، بحيث تأتي الرواية الأخرى معبرة بطريقة أفضل عن تحول هذا التعبير في اعتباره القطع المطلوب استكمالاً لما سبق، وخاصة لجوهر محاولات الوصل التي سعى فيها. ويكون التركيز على الخير المرتبط بموقف الشاعر إذناً بتحول التعبير نحو اتجاه في الوصل يجعل هذه السمة الإيجابية، أفضل من التركيز على الشر المرتبط بموقف المرأة المقصود بإدانة من هذا النوع تحمل هذه السمة السلبية.

ميامنة نوار (في البيت 19)، في الوقت الذي تؤدي فيه الاستجابة للريح التي تدفعها وتقودها صورة عن استجابة وتلبية الناقة لغرض صاحبها، بما يفارق ويناقض وضع نوار التي يمثل غيابها وانقطاعها عصياناً لرغبة الشاعر وقمرداً عليها. في الحالتين يؤكد التشبيه الأول وصلاً في القطع بقدر ما هو قطع لقطع. بقدر ما تشكل حركة الغيم استجابة لدفع الريح لها، تقدم صورة عن ذلك القطع الذي أراده الشاعر مع أولئك الذين لا يستحقون الوصل، وتقدم بالتالي وصلاً بالغاية التي يسعى لتحقيقها. في هذا الإطار يصبح تخلصها من الماء قطعاً مع ما يعيق حركتها الملية لاتجاه الريح، وبالتالي وصلاً متجاوياً معها.

ب - يأت التشبيه الثاني للناقة بالأتان كأنه استدراك بصورة أوضح وأقرب لتحقيق المراد. فهو يجعل الأتان حاملاً أشرفت أطباؤها باللبن، من فحل شرس وعنيف استخلصها لنفسه يدفع بها فوق منحنيات التلال، ليمضياً أشهر الشتاء الستة مكثفين برطب النبات دون الماء، قبل أن يسرعا بزخم وقوة مع إقبال الصيف وحره إلى نبع ماء تجاور قصبها. إن مظهر هذا التشبيه المركب مفارق لمراده. فمن ناحية يضيع وجه الشبه في حكاية مطولة للأتان وغيرها، ومن ناحية تتوارى الأتان المقصودة فيه وراء الفحل الذي يحتل واجهة الصورة. بيد أن هذا الظاهر يتكشف عن أبعاد معنوية عميقة تجعل من هذا التشبيه المركب تعبيراً راقياً عن الجوهر الدلالي المقصود.

يبدأ سرد الحكاية من ابتعاد حاد عن وضع سلبي يدل عليه «طرد الفحول وضربها وكدامها». هذا الابتعاد إذن قطع مع قطع سلبي بارز أو هو قطع إيجابي يبادر إليه وصل بارز يجسده حمل الأتان من الفحل الذي تصحبه. إن انفرادهما أشهراً ستة على الرطب، وامتداد صيامهما عن الماء خلال هذه المدة، وإصابة الشوك لحوافرهما، وهيجان ربح الصيف الحارة، جميعها من العناصر التي تؤكد على المعاناة التي عرفها بما تتضمنه خاصة من ضمور وغليان داخلي، أي من تخلص عبر الإجهاد من الشحم المعيق للحركة والاندفاع، ومن تحول الوضع الإيجابي إلى سلبي بانقطاعها خاصة فيه عن الماء مع قدوم الصيف. هكذا يضحى تركها له قطعاً مع القطع المتمثل فيه، أي قطعاً إيجابياً لا يوحى اندفاع الحمارين الوحشيين المضطرم والوافر الحيوية - رغم كل ما قاسياه - نحو الماء بقوة وصلابة ونشاط الناقة وحسب، بل إنه يوحى أيضاً في ما يتكلم به من وصول إلى النبع المسجورة ببلوغها المتوقع هي أيضاً لغايتها الإيجابية في ذلك القطع الإيجابي الذي تبادر إليه.

في هذا التمثيل الكلي، في وحدته العامة كما في تفاصيله وأجزائه، تؤدي الصورة وتنهض الدلالة. لكن هذه وتلك لا تكتملان مبدئياً إلا في جلاء جانب هام فيها وهو تبرز الفحل على الأتان. وهو جانب لم يغب في التشبيه الأول تماماً (عبر ربح الجنوب) وإن لم يتخذ فيه هذه الأهمية التي نشهدها في الثاني. فالفحل هو الذي يصل الأتان، يلقحها، وهو الذي يحمل سمة القطع مع محيطه بالتسحيح البادي عليه، وهو الذي يقودها في عملية القطع الايجابي على ارتياب فيها وحذر من قفر الاعالي المرتفعات، هو الذي يقودها مجدداً محتاطاً لتعريفها في العملية الثانية التي تصلها بالماء، فتبدو هذه القيادة حاکمة لمفاصل الحكاية والصورة الدلالية. فليست الأتان شيئاً فيزيائياً كالغيمة، بل إنها حيوان له ميوله ونزواته، إنها أقرب إلى الناقة من هذه، وبالتالي لا يحاول التعبير الإحاطة بقوتها وجلدها وحسب، بل أيضاً بالسيطرة عليها كشرط لبلوغ الأهداف المتحققة تبعاً بما يتلاءم مع وضع الناقة المقصودة من خلالها.

في هذا الطرح الكلي العام تكتمل مبدئياً الدلالة العامة للتعبير الخاص بالأتان وفحلها. إلا أن تفاصيل هذا التعبير لا تقل مساهمة عن سياقه العام في إثارة هذه الدلالة وإخراجها، إذ يدل على مجال القطع الأول «طرد الفحول وضربها وكدامها» كتجسيد حي وبلغ للنفور والانفصال العدواني الذي يسوده، وعلى مجال القطع الثاني «رمي السفا للدوابر...» كتجسيد آخر للأذى الحال في المكان والدافع إلى تركه والافتلاع منه، وعلى الحزم في القطع الايجابي «نجح صريمة إبراهيم» المتجاوب في دلالتة كما في صيغته مع التعبير المماثل القائم في مطلع هذا القسم (البيت 20: «ولشر واصل خلة صرامها»...)، وعلى تناقض مجال الوصل الذي ينتهي إليه مع مجال القطع المغادر «النعج المسجورة المحضوفة والمظللة بالبراع...» المتناقضة مع الجزء والصيام والسفا وسهام ربح الصيف... الخ.

من الملاحظ أخيراً أن القطعين الايجابيين يشيران إلى وضعين سلبيين الأول اجتماعي - حيواني والثاني طبيعي - مناخي، كأنها محاولة إحاطة بمقتضيات القطع الإيجابي، وإيحاء مع ذلك بنجاحه وبلوغه مراده. والتشديد على المسار الذي يتخذه الانتقال من وضع لآخر يتفق مع الدور التوسطي للناقة التي تأتي الصورة للتعبير عنها. وإبراز المجال الإيجابي الأخير إيلاء لأهمية دوره في الإيحاء بتحقيق القطع الإيجابي المقصود لغاياته.

ج- مع ذلك يأتي التشبيه الثالث وكأنه هو أيضاً استدراك لما لم يبلغه الثاني، ومحاولة متجددة لأداء تعبير بطريقة أفضل أو للإحاطة بمعنى بصورة أدق. فيه حكاية البقرة الوحشية التي فقدت ولداً لها تناهشته كلاب أو ذئاب شرسة فمضت تلوب في المكان بحثاً عنه أكثر

من أسبوع، حتى لاحقها الصيادون ثم هاجمتها كلابهم فدافعت عن نفسها وقتلت كلبتين منها.

هكذا يمضي التعبير هنا كما في سابقه في ما يشبه السرد القصصي يورد مغامرة خاصة لهذه البقرة الوحشية بأحداثها وتفاعلاتها. لأول وهلة قد لا يبدو وجه الشبه من حيث الخفة والنشاط بين حكاية البقرة المذكورة وبين ناقة الشاعر واضحاً، أو قد لا يبدو كذلك على الأقل قبل الجزء الأخير من هذه المغامرة الخاص بالصدام الذي يقع بين البقرة الوحشية وكلاب الصيادين. مع ذلك يمكن للرؤية البنيوية لتشكل المعنى هنا أن تبين بسهولة أن هذه البقرة الوحشية لا تستقيم لها ميزات القوة والعنف والشراسة، كما تتجسد في الصراع الذي تخوضه مع كلاب الصيد الشديدة المراس، في مداها الحقيقي إلا بقدر ما تحمي إثر الأحداث والتطورات التي سبقتها من ضياع فريرها وبحثها الخيبي عنه حتى اليأس وبالغ الإجهاد، وكذلك إثر فرارها الفزع من الصيادين حتى إيثاسهم. إذك تتبدى الميزات المذكورة على قدر عظيم من الكمال والفعالية، وتلي بذلك الدور المفترض بها أن تؤديه ضمن السياق الذي ترد فيه.

بيد أن الخروج من البنية السطحية إلى البنية الدلالية العميقة كما يمكن لقراءة بنيوية - وربما لها وحدها - أن تنجزه، هو الذي يتيح لنا هنا - كما أتاح لنا من قبل - بلوغ المدلول الأساسي الذي تستند عليه جملة المعاني الواردة من ناحية، وبلوغ الانتظام المعنوي والدلالي لوحدات التعبير المختلفة ضمن شبكة العلاقات التي ينسجها النص الذي تمجيء فيه.

بناء لذلك نلاحظ أن سرد حكاية البقرة الوحشية يبدأ من القطع الذي يعلنه نهايتها وإمامها لولدها، وهو قطع يتفاهم في قطع أكبر يتمثل في ضياع لذلك الولد، وهو في الحقيقة قطع دموي نهائي باعتباره قتلاً يشير إليه تمزيق السباع وتناثرها لجسد الفريير. تحاول البقرة الوحشية، في جهلها حقيقة القطع هذه، إصلاحه بالوصل الذي تمجد فيه وتصبر عليه في بحثها العنيد عن هذا الولد الضائع. وهي لذلك تقوم بقطع إيجابي شكلاً بقدر ما هو قطع مع وضع سلبي يتمثل بتركها للصوار ومفارقتها لهاديتة. لكن الوصل المبتغى مستحيل عملياً نظراً لأن طرفه الآخر غائب ومنقطع بشكل نهائي ومطلق بالقتل. لذلك لا تصل البقرة فعلاً لغير اليأس، الذي هو تكريس للقطع السائد.

هكذا يكون الجزء الأول من حكاية - مغامرة البقرة الوحشية مجال القطع الباتر بامتياز من الإهمال إلى اليأس مروراً بالقتل والفراق. وهو مشفوع بقطع آخر يبدأ من الخوف الذي يجيق بالبقرة الوحشية ويجعل من المكان بأكمله مصدر خطر يفترض الابتعاد

والقطع . ويكون فرارها تجسيدا لمحاولة الابتعاد وتحقيق الفصل المنشود، الذي يعتبر هنا قطعاً إيجابياً بقدر ما هو قطع مع وضع سلبي . أما محاولات الرماة للقبض عليها فهي محاولات لمنعها من تحقيق هذا الفصل، وهذا ما تسعى إليه كلاب الصيادين أيضاً . يصبح النجاح في الهرب والانفصال بناء لذلك معادلاً للنجاة والحياة، بينما يصبح العجز عن الابتعاد والقطع معادلاً للقتل والموت . وإذ تتمكن البقرة الوحشية من قتل الكلبتين المهاجرتين فإنها تؤكد بذلك مقدرتها على النجاة وتجاوز الخطر إلى الحياة، عبر القطع الإيجابي الذي يمثله سلوكها .

في الحين الذي يسود في المقطع الأول الخاص بالقطع المسيطر أو الوصل الفاشل تعابير تؤكد لوباً لا يفضي إلى نتيجة، أشبه ما يكون بالدوران في حلقة مفرغة كما يدل على ذلك «لم يرم عرض الشقائق طونها ويغامها» و«علته تردده» . . . والاستقرار في «أنقاء يميل هيامها» و«كجمانه البحري سل نظامها» و«تزل عن الثرى أزلامها» . . . فإن المقطع الثاني الخاص بالقطع الإيجابي يحفل بتعابير تؤكد السعي لتجاوز المجال السلبي الذي يطبق على البقرة الوحشية مثل «المخافة خلفها وأمامها» و«أرسلوا غضفاً . . .» بما يوحي بتجاوز هذا السعي واختراق الطوق السلبي الذي كاد إن يقضي عليها مثل «غودر في المكر سخامها» . . . على هذا النحو يصبح مفهوماً أن يظهر هذا المقطع الأخير أقرب إلى تمثيل وضع الناقة من الأول، فهو يتفق مع هذا الوضع باعتباره قطعاً إيجابياً على أقوى وأعنف ما يكون . لكن التشبيه يتضمن المقطعين معاً في وحدة كاملة، وهنا بالتحديد تكمن قيمته الفعلية . لذلك يبدو وضع البقرة الوحشية الكلي في انتقالها من السعي إلى وصل عبثي مستحيل (المقطع الأول) إلى القطع الإيجابي الناجح (المقطع الثاني) خير ممثل لوضع الناقة التي إذ تنجى إلى القطع الإيجابي (المؤتمن نجاحه) تأتيه قادمة من وصل مستحيل (القسم الطللي) . كما تشكل عملية الإجهاد التي تتعرض لها في بحثها المضني عن ولدها وتعرضها لمطر الليل وحر النهار، واستمرارها كذلك أكثر من سبعة أيام، حتى بلي ضرعها إرهاقاً وحسرة، عملية مماثلة لتلك التي عرفتها الناقة حتى تخلصت من كل ما يعيق خفتها وحركتها .

لكن تجربة البقرة الوحشية توحى بأكثر من ذلك . فهي التي أدت بانفصالها السلبي عن ولدها إلى مقتله، وهي التي تضطر كي تنجز انفصالها الإيجابي عن الكلاب أن تقتل اثنتين منها، كأن النص يشير عند هذا المستوى من التعبير إلى الأهمية الحيوية - المصيرية لعملية القطع أو الوصل . إن البقرة الوحشية، في اشتغال تجربتها على هذين القطعين السلبي والإيجابي، تشير إلى مخاطرها معاً، فيتجسد في الأول منها «شر واصل خلة

صراهما» في صيغة القتل المريع، وتستين في الثاني كلفة «قطع لبانة من تعرض وصله» في صيغة قتل لا يقل ترويعاً عن الأول. كأن تجربة هذه البقرة تحاول أن تستوعب في ما يتعدى وجه الشبه المباشر الأبعاد الكلية للقطع باعتباره أمراً سلبياً يحتمل مخاطر القتل والدمار بالنسبة للمقطوع كما بالنسبة للقاطع، بما يتضمنه ذلك من انتصار للوصل باعتبارها أمراً إيجابياً مفتوحاً على الحياة والتوالد.

إن هذا التشبيه أخيراً، إذ يتقدم وكأنه استدراك لما سبقه، يفترض كذلك تبين ما يتميز به عن هذا الأخير. وقد مر معنا أن التشبيه السابق (الثاني) تضمن بدوره قطعين مع وضعين سلبيين، لكن التشبيه الراهن (الثالث) يتميز عنه بإبراز ما كان تلميحاً فيه، والارتقاء عنه بدلالة القطع والوصل من حيث الدرجة ومن حيث النوع إلى مستوى بالغ التقدم والحسم لا يلبث أن يبرز طرحاً جديداً قد لا يكون من المستبعد أن يشكل الغاية المقصودة من هذا الاستدراك المتتابع. فالأذى الخارجي يتم هنا بتواطؤ داخلي. إن القطع السليبي الأول الذي تتابع إثره بقية الانقطاعات يتمثل في إهمال البقرة الوحشية وخذلاتها للفرير، متيحة بذلك للسباع الكاسرة الغرة التي نفذت منها إلى الولد الضعيف. إزاءه يبقى ما يمكن أن يوحي به ترتيب العير في الأتان من دور لها في الأذى الذي لحق به دون ذلك. كما إن القطع الذي يحصل هنا هو، في أهم مواضعه، قطع دموي قائم على القتل. فضياع الفرير كقطع سلمي هو في الواقع اغتيال السباع المفترسة له، أي قطع حاسم ونهائي لا يتوخى منه من ثم أي وصل. ونجاة البقرة الوحشية من كلاب الصيد كقطع إيجابي يتمثل بدوره في قتلها كلبتي الصيد كقطع حاسم ونهائي لدورهما لا يمكن توقع أي إمكانية لاستعادته أو لوصله، وهو كذلك أقوى وأشد قسوة من القطع الأول الذي عرفه العير المسحج وأتانه بما فيه من عضّ وضرب، وبالطبع من القطع الثاني الذي لم يتجاوز أذى الطبيعة من شوك وحر. . .

د - ربما قدم هذا المستوى الخاص بنوعية الأطراف المؤذية والدافعة للقطع توضيحاً أدق على الفارق الذي يميز التشبيه الأخير عن سابقه. فكما أشرنا سابقاً يرد الأذى في هذا الأخير (الثاني) من موقعين: من وضع اجتماعي - حيواني (في القطع الأول) ومن وضع طبيعي - مناخي (في القطع الثاني). في الموقع الأول يسود تجانس واضح في هذا الوضع (لا يتعدى نوع الحمير الوحشية - آكلة الأعشاب). بينما يتسلل الأذى في التشبيه الذي يليه (الثالث) من موقعين مختلفين: من اختلال يصيب الوضع الاجتماعي - الحيواني (في القطع الأول) حيث يتناقض تدخل السباع الكاسرة كحيوانات مفترسة آكلة للحوم مع وجود الفرير كحيوان آكل للأعشاب غير مفترس، ومن اختلال يصيب المعطى المكاني

بشكل أعمق من السابق (في القطع الثاني) حيث يتدخل البعد الإنساني إلى جانب الحيوان المفترس الذي يتميز عن مثيله أعلاه بدوره المصرح به كحيوان مدرب، وتخاضع بالتالي للوجود الانساني الطاعى الخطورة.

يبين طرح كهذا عن تصور كلي مركب للوجود والاجتماع. وبالقدر الذي يشف عن توازن وتماسك فإنه يسمح بالاستنتاج أنه كلما كان اختلال المعطى الوجودي في مستوياته المتعددة قوياً كلما كان الخطر المتولد عنه قوياً، وكلما كان القطع معه حاداً. وتعد تجربة البقرة الوحشية ضمن هذا الفهم إمعاناً في هذا الطرح حتى أقاصيه، وبلوغاً في التعبير أبعد مراميه.

بناء عليه يدخل الاختلال الوجودي - الاجتماعي الجديد العلاقة بين الفصل والوصل في وضع جديد مغاير لما رأيناه حتى الآن، على الأقل في صراحته ومباشرته. ففي الصورة السابقة حيث يسود التجانس واللاتنافر بين المعطيات الاجتماعية - الحيوانية - الطبيعية للأطراف المتنابهة لم تذكر مواجهة ذات شأن لعمليات القطع والوصل التي ينخرط فيها الحارارن الوحشيان. إنما مع البقرة الوحشية يختلف الوضع إذ يقوم في صلب تجربتها صراع واضح بين وصل وقطع تريده وتسعى لتحقيقه وبين وصل وقطع مناقضين يتولى أمرهما طرف مقابل - نقيض بحيث ما يعتبر وصلاً للأولى يصبح قطعاً للثاني، وما هو قطع للأولى وصلاً للثاني. هكذا نجد أن قطع الفريير (وتقطيعه) يعتبر وصلاً ناجحاً للسياج التي افترسته، وأن قتل البقرة الوحشية للكلبتين وصل لها بقدر ما هو قطع لها ولدورها بشأنها. يشكل إدخال هذا البعد الصراعى إلى ثنائية الفصل والوصل تعقيداً وغنى في جدليتهما، إذ يزدوجان ليتكون من هذه الثنائية الازدواجية الأرضية الصالحة لاستيعاب الطرح المتكامل الخاص بها. ضمن هذا التصور تقع التعابير الموحية بالوصل الخاصة بالسباع المتوحشة في عملية القطع الأولى (لا يمن طعامها... أصبنا: المنايا لا تطيش سهامها...) مقابل تلك الموحية بالفصل والخاصة بالبقرة الوحشية (مسبوعة... خذلت... ضيعت...) كما تلك الموحية بالصراع العنيف بين وصلين وقطعين في عملية القطع الثانية (مثل: أرسلوا غضفأ... فلحق... مقابيل: لسرودهن... فتقصدت...). ارتكازاً إلى هذا المنظور يقيم النص تمييزاً بين قطع أو وصل سلبي، وقطع أو وصل إيجابي. وضمن هذا التمييز بالذات يجدر فهم قطع الشاعر الإيجابي في تميزه عن قطع نوار السلبي.

يبقى أن نلاحظ أمراً شكلياً، وإنما ذو قيمة جمالية غير سافرة، يتعلق بتنامي العناصر المعنية مع تنامي الطرح الدلالي من خلال التشبيه. ففي حين يقتصر التشبيه الأول على

عنصر الغيمة التي لا تتضمن أكثر من عملية قطع واحدة، فإن الثاني الخاص بالأثان يتضمن في حملها عنصراً ثانياً يؤكد مع عمليتي القطع التي تمر بها الموقع الذي ترد فيه. بينما يدل عدد القتل (ثلاثة) وعمليات القطع الواردة (الثلاثة): من ترك الفرير إلى ترك القطيع إلى ترك المكان الخطر في التشبيه الثالث على موقعه المذكور، كما يمكن لازدواجية عمليتي القطع الدمويتين فيه أن تدل عليه كذلك.

هـ- يبقى أن هذا التشبيه المثلث في تشديده على القطع الإيجابي وانتصاره الضمني بذلك للوصل على القطع يجد في ما ينتهي إليه القسم الثاني بأكمله ما يؤكد دلالة هذه ووضعها في إطارها الصحيح. إذ يحدد البيتان الثالث والخمسون والرابع والخمسون اعتماد الناقاة التي جرى تفصيل وضعها بالوصف وما تلاه من تشبيه مطول، واسطة لتحقيق الغاية المرجوة، فإننا نلاحظ أن هذه الغاية تتخلى عن موقعها في مجال القطع الإيجابي لتتقدم هنا كواسطة وصل يصر على التنبيه على إيجابيته بقدر ما يحرص على تحقيقه. فتحقيق المأرب في أصعب الأوقات وأسوأ الظروف دون إهمال أو تقصير في ذلك إعلان واضح للحرص على الوصل وإنجازه. ولا يشكل الاستدراك اللاحق نيلاً من الحرص المذكور، وإنما هو يستكملة باستبعاد ما من شأنه أن يلحق اللوم به، كأنه حرص إضافي يشمل الطابع الإيجابي له تمييزاً عن أي وصل سلبي آخر.

في انتهاء القسم الثاني عند هذا الحد يكتمل تشكله الوسيط على امتداد دلالي يبدأ من القطع (الإيجابي) المعلن في البيت 20 إلى الوصل (الإيجابي) المعلن في البيت 54، مؤمناً بذلك انتقال التعبير في النص من مجال القطع (السلبي) المسيطر على القسم الأول إلى مجال الوصل (الإيجابي) المهيمن على القسم الثالث.

3- القسم الثالث: يفتتح بالتساؤل المتعلق بوضع الشاعر في علاقاته مع الآخرين، وضمناها أو على رأسها علاقته بنوار. كأنه يعجب لجهل هذه المرأة له في كونه مطلق المشيئة في التحكم بعلاقاته، ويدفعه جهلها به إلى إطلاعها على نفسه وعلى قومه أو عشيرته. واضح أن البيتين الأولين (55 و56) يشكلان مدخل القسم الثالث، إذ يمهدان لما يلي بقدر ما يربطانه بما سبق. فإعتبارهما يدوران حول جهل نوار يصبح تقديم الشاعر لنفسه ولعشيرته نوعاً من تعريف يجيب على هذا الجهل تحديداً، لكنها يكملان في الوقت نفسه ما انتهى إليه المعنى في القسم الثاني - الوسيط في تأكيدهما لقدرة الشاعر على حسم علاقاته الشخصية - الاجتماعية وصلاً وفصلاً، وتخصيص القطع الإيجابي تحديداً بالتفصيل حيث يشار إلى انفصال الشاعر عن المكان المزعج أو المكروه مع ما يتضمنه هذا القطع الإيجابي من احتمال بلوغ لحده الأقصى

واعتماده الصيغة الأكثر تطرفاً وهي الموت. وإذا كان بيناً لا لبس فيه هنا الطرح البنيوي للعلاقة بين الفصل والوصل بشكل يكاد يكون حرفياً في مفاهيمه المعتمدة، فإن هذا الطرح بالذات يجد تجسيده الفعلي على المستوى العام للقسم بأكمله الذي يتشكل بناءً لذلك كجواب عن تساؤل مطروح، كتعريف لشخص بما يجهل، كوصل لما هو قطع. على هذا النحو يكون هذا القسم بمجمله مجال الوصل بامتياز، وهو وصل قائم في تفاصيل التعبير كما في مفاصل أجزائه.

أ- يتقدم الحديث اللاحق عن الذات (في الأبيات 57 - 77) كتعريف لها وكاستكمال لما بدأ حولها في البيتين السابقين. ولا يحدث فصل هنا بل يتكرس الوصل ويقوى بالتكرار واستحضار الغائب.

السمة العامة الأولى التي تغلب على تفاصيل وأجزاء التعبير هنا اتخاذ الوصل صورة الانخراط في الجماعة والاتصال بها بأشكال متعددة. فمن مجلس الخمرة إلى الولائم العظيمة مروراً بحماية القبيلة وحضور مجالس العظاء، تُعين تباعاً مواقع الوصل المختلفة التي لا تنشط الذات فيها وحسب، بل إن نشاطها هو أيضاً فعل وصل صريح. إن مجلس السمر واللهو الذي لا يستقيم كذلك في ندمانه وفي موسيقى جاريته إلا في شرب الخمرة ومجاذب الحديث، يتقدم الشاعر نفسه ليقومه عن طريق شرائه الخمرة الغالية النادرة أو الصعبة البلوغ، وعن طريق محادثته الليل بطوله لنداماه الكرام. إنه هو الذي يصل الخمرة ويصل الآخرين ويصلها ببعضهما ليشكل محور الوصل لهذا المجلس الخمري اللطيف. بل إنه كذلك يصل الليل بالنهار في تلك الصبوح التي يتابع شربها عند الفجر معبراً، فيما يتعدى الاعتزاز بثرائه وكرمه وتحمله لشرب الخمرة، عن دور الواصل بامتياز. ووصله هو وصل متعة ولذة وهو؛ وفي توجهه به إلى نوار محاولة إغراء لا تخفى ولا تتوقف على كل حال عند هذا الحد، بل إن أوجه الوصل المختلفة المستعرضة تدخل في إطارها.

يتمثل الوجه الثاني للوصل في مبادرته إلى النهوض باكراً يكفّ عادية البرد الشديد عن الناس. فمقابل الوصل اللاهي مع الندامي الكرام ليلاً يبرز وصل رصين مع المحتاجين الضعفاء نهاراً. تقوم بذلك صلة بينه وبين هؤلاء الأخيرين، كما تقوم صلة بينهم وبين غير المحتاجين، قوامها على الدوام الشاعر واصلاً دوماً في الخير الذي يتجسد هنا بدعة العيش.

يتجلى الوجه الثالث للوصل في حماية الشاعر لقومه، إذ يكرس موقفه العام هنا انخراطه في المجتمع الذي يعيش فيه والتحامه في الوحدة الانسانية التي ينتمي إليها، كما يؤدي دوره الخاص كربيثة لقومه امتداداً واضحاً لهم واتصالاً بعيداً بهم يمتد إلى مواقع تتعداهم وقد ينفذ منها اعتداء عليهم. وإذا كان لحديث عن شجاعة أو فروسية أن يخاض هنا، ففي هذا الإطار الذي يحيط بالوصل (والقطع) حدوده الأولية. الشجاعة هنا هي هذا الامتداد الأقصى حتى خطوط الأعداء الأولى والإحاطة بها دون علمهم، أي بلوغ أبعد الوصل دون الوقوع في القطع. في ذلك منتهى الشجاعة مشفوعة بالحكمة. أما الفروسية فمتجسدة في الفرس نفسها التي تدل صفاتها وأفعالها جميعاً على هذا التفوق في الوصل كما يشير إلى ذلك ارتقاء الأعالي الصعبة في النهار، والانحدار منها ومن السفوح الشديدة الخطر ليلاً إلى السهول، وخفة سرعتها التي توازي سرعة النعام أو تتفوق عليها في ذلك، وبلوغها أهدافها كما يرد الحمام ماءه. إذ تصل إلى ما تريد فإنها تمتنع وتحول دون وصول الآخرين إليها كما يوميء إلى ذلك تشبيه البيت السادس والستين. إن تفوق الوصل معطى أيضاً في هذا العلو والارتفاع الذي يعم صفاتها وأفعالها، وهو يتناسب مع الامتداد الذي يفترضه الوصل ذاته. فسما هذا الوصل قائمة في تكوينها وقائمة في أعمالها كما هي قائمة في علاقتها بصاحبها الذي لا تنفصل عنه من مطلع الشمس إلى مغيبها. مما يجعل من التعبير عنها تعبيراً كذلك عن تلك الصلة الوثيقة بينها.

أما الوجه الرابع للوصل فتمثل في تفوق الشاعر في ميادين جديدة أو في مجالات غريبة تتعدى المجال القبلي المحدود أو المحلي المعهود، وهي بذلك تخضعه لامتحان الوصل أو القطع في صيفتي الإكبار (العطاء) أو الإذلال (المعيب). إن التشديد بين على خطورة الموقف من خلال إبراز عدوانية وشراسة الحضور. وفي تمكن الشاعر من رد الباطل وإقرار الحق إعلان للانجاز المزدوج الذي حققه: للقطع الايجابي والوصل الايجابي. وفي هذا الانجاز بالذات يتمثل تفوقه الذي يعتبر امتداداً في مواقع جديدة لذلك الحاصل في المواقع السالفة، أي يعتبر التحاماً واتصالاً بآخرين يقوي مواقع الوصل ويزيدها أهمية.

أخيراً يتبدى الوصل في وجهه الخامس استقطاباً شاسع الأبعاد يرسي الشاعر مركزه، كما يدل عليه بذله جزور النياق للجيران والضيوف ولكل محتاج من أرامل ويتامى، في عز الضنك وشدة المواسم. بذلك يصل بكرمه وخيره الأقربين والأبعدين من الناس في عز القطع، إذ يتحول مقصداً للمعسرين والمتأزمين. في ذلك مد للوصل نحو غايات مفرقة في البعد والاتساع والشمول. يعم هذا الوصل تفاصيل التعبير بما يزيد من دلالاته

تحديداً. فتحويل الجزور من المسير إلى البذل هو تحويل من القطع إلى الوصل في العملية وغايتها. ذلك أن المسير فصل بين رابع وخامس، بينما البذل عطاء ووصل للجميع. إن الوصل إقامة للمساواة التي يشكل غيابها أحد أوجه القطع البارزة كما يدل عليه الفقر أو الحاجة. تتساوى العاقر والمطلق في النحر، كما يتساوى في العطاء جميع الجيران من ناحية والجيران والضيوف من ناحية ثانية، وهؤلاء جميعاً مع الفقيرات المعجزات من النساء ومع اليتامى المساكين والمحتاجين من ناحية ثالثة. يقرب العطاء للجميع من الأغنياء والقادرين فيكون بذلك وجهاً من أوجه الوصل.

سبق وألحنا إلى أن أوجه الوصل المتعددة هذه هي نوع من إغراء للمرأة المخاطبة. ذلك أنها جميعاً ترسي أسس أوضاع مستقرة وعلاقات تعاون وأجواء مسرة تجعل من غياب وانفصال المرأة نشازاً غير مفهوم على هذا الصعيد. فإذا كان انتقال العشيبة يعود لسبب طبيعي من جذب أو غيره، أو لسبب اجتماعي من عدوان أو غيره، فإن الشاعر يرسم في تعريفه بنفسه لوحة شروط الإقامة الثابتة والهائلة. يبدأ الشاعر بالليل لاتصاله بالرغبة في المرأة متعرضاً للهوى وغنائمه مقدماً شروط المتعة المرتبطة بها، مرغباً بهذه الأجواء التي يوجد فيها المرأة في الإقبال عليه والارتباط به. وهو يذكر النهار ومعه رد العاديات الطبيعية والانسانية موجياً بالاطمئنان الذي يمكن أن يوفره للمقيمين (والقيمة) معه. وإذا كانت عظمته لا تقل عن عظيمة الأشداء والأقوياء من أحياء وديار أخرى، فلا معنى للبحث عن حمى أو كرم عظيم سواه. وإذا كان عطاؤه مقصداً للمحتاجين فلا معنى للبحث عن أرض غير أرضه. إن ذكره في هذا السياق لوادي تبالة اليمن في خصب نواحيه المطمئنة تمثيلاً على كرمه (في البيت 75) تأكيد لهذا الإغراء الذي يسعى به نحو نوار التي يظن أنها غادرت مع حبيها إلى اليمن (في البيت 19) فتتعاضد وتتحد أوجه الوصل في سلوكه في دعاء متصل للقائه هذه المرأة ووصلها. كأن هذا الدعاء لا ينقطع إطلاقاً باعتبار أن أوجه الوصل ذاتها لا تتباعد بل إنها تتعاقب متصلة فيما بينها بشكل يجعل من جميع لحظات الوجود لحظات وصل ودعاء لوصل. فإذا كان وصل اللهو يبدأ في الليل (في البيت 57 و 58) ويستمر حتى السحر (البيت 61) فإن وصل الناس بالمساعدة يبدأ من الفجر حتى طلوع الشمس (البيت 62) وقبل طلوع الشمس يكون الشاعر قد استعد لأعمال فروسية (البيت 63) لا تتوقف قبل مغيبها (البيت 65). وإذا كان تمييزه في المجالس الصعبة والحرجة غير محدد بفترة من اليوم معينة بدقة فلأن حضورها غير يومي، بينما يبدو عدم تحديد فترة الجود دليلاً على عدم توقفه كما يوحي التشبيه بتبالة الأنف الذكر بذلك. إنما خارج هاتين الحالتين، هناك وصل لا ينقطع من

الليل إلى الليل في نشاطات من الوصل لا تتوقف، دعاءً متصلًا لنوار بالوصل، لا يتوقف فيما يلي وإن اتخذ صوتاً أعمق وأبعد: صوت الجماعة التي يعرف بها.

ب- يأتي ذكر الجماعة التي ينتمي إليها الشاعر (في الأبيات 78 - 88) كاستمرار واستكمال لما ذكره عن نفسه. فكأنه تعريف لوجه آخر في هذه الذات، وجهها الجماعي الذي لا ينفصل عن وجهها الفردي، كما يرجح هذا توجهه في ذلك إلى نوار. ذات الشاعر هنا

جزء لا يتجزأ من هذا الكل الجماعي الذي هو العشيرة، و«هي» في أي صيغة تم ذكرها («هم»؟) تعبير عن الـ«نحن» التي تتضمن حكماً الـ«أنا». في دخول الذات في هذا الكل انخراط كامل يدل على وصل كامل، وهو أرفع مستوى من مستويات الوصل التي ظهرت حتى الآن، حيث لا يعود هناك من حاجة لذكر الأنا، إذ تحمل نهائياً في خضم هذا الكل الجديد.⁽³⁵⁾

ميزة هذا الكل هو ذلك الاتصال بالدم الذي يجمع بين أعضائه أو عناصره من الناس. إن العشيرة قائمة على القرابة الدموية، على وصل بالتوالد والتناسل هو أقوى أنواع الوصل ونقيض أرقى أنواع القطع الذي لاحظنا أنه يتمثل بالقتل والموت. إلا أن الشاعر في تقديمه لعشيرته لا يتوقف عند هذا الجانب البدائي والأولي (الطبيعي؟) في تكوينها، بل يمضي إلى ذلك الجانب الاجتماعي والقيمي (الخصاري) في سلوكها وأعمالها، حيث يجد الوصل امتدادات أوسع وأشمل من النطاق الضيق والمباشر للجانب الأول. فتتقدم العشيرة هنا باعتبارها جامعة للعطاء وأهل الفضل والكرم، تتمتع بالمركز الأرقى بين سواها من العشائر مجداً وعظمة، وتضم أهل المروءة والفروسية والسلطة والكرم، في وحدة لا تشوبها شائبة عملياً.

غلبة الوصل بادية منذ البيت الأول (78) في ذلك الحضور الاجتماعي المستديم والتفوق المستمر فيه لأبناء العشيرة. وتؤدي الألفاظ المستعملة وضع الوصل المتميز هنا في «الجامع» و«اللزاز» وفي «التجشم» وعدم الزوال... كما يؤديه هذا الانحياز الواضح

(35) لم يستعمل ضمير جمع التكلم هذا قبل هذا الجزء الثاني من القسم الثالث باستثناء ما ورد في صيغته في القسم الأول (في البيت 10) حيث لا يدل على جماعة محددة بقدر ما يشير إلى تعميم، ويقصد الذات المتكلمة.

حق العشرة، عطاء وتطلباً وانتزاعاً، موسوماً دائماً في هذا الإحسان المبادر إليه (في البيتين 79 و 80) وفي هذا الكرم يتصل بكرم، عطاء يضاف إلى عطاء، فيصل بهذا الوصل، وهو هنا وصل متعدد الأوجه سليم بقدر ما هو خير، إلى غايته من المجد والعظمة (البيت 80).

إن مجالات الوصل المتعددة هذه هي ذاتها تقريباً التي لاحظنا انشغال الشاعر فرداً فيها (قارن ما ورد بما سبق ذكره خاصة حول المقطعين الأخيرين المتعلقين به في الأبيات 70-72 و 73-77). يؤدي ذلك إلى نوع من الإحالة من موقع إلى آخر، هو صيغة من صيغ الوصل والالتحام التي تميز هذه الأبيات.

بيد أن الوصل لا يقتصر على البعد المكاني - الزماني المحدود، بل يمضي إلى البعد القانوني - التاريخي (في البيتين 81 و 82) ليشير إلى تواصل واستمرارية زمانية تتعدى الواقع والحاضر إلى ماض تليد. وركيزة هذا التواصل التاريخي قانون ثابت ورئيس قذوة، تشفعها ركيزة أخرى هي العقل الذي يشير مقابله الهوى في اضطرابه واختلافه إلى التوازن والاستقرار والتواصل الذي يتضمنه إذ يحول دون أوجه قطع متمثلة في التدنيس والإفساد.

هكذا تكون الدعوة إلى القناعة بما وهبه الله للناس (البيت 83) نوعاً من الانتصار للوصل المطلق كما يتجلى في العطاء الإلهي. بذلك يتم وصل ما هو جار على الأرض والواقع بما هو قائم خارجها، إغراقاً في الوصل ومداً له إلى آفاق الغيب. والقناعة بالوصل هنا تشمل ما أتى ذكره وما يليه، أي أنها أيضاً تصل القبل بالبعد، وموقعها الوسطي يدعم دورها المذكور. إن أول ما يرد في ما البعد وفاء لما قبل، أي حفاظ على الوصل والتمسك به (البيت 84). فالوفاء الذي تبرز فيه العشرة سواها من الجماعات هو تأمين لصلة الماضي بالحاضر وصوناً للأشياء تصل إلى أصحابها، وللعلاقات تصل بين الناس. وإذا كان الله قد أراد ذلك لها فهذا وصل لوصل، وارتقاء به إلى مستويات مطلقة ومجردة، وفي الوقت نفسه تعزير وتثبيت له.

لكن المجد الخاص بالعشرة مقدم هو كذلك كصلة ربانية عظيمة وفريدة بقدر ما هي ثابتة وراسخة (البيت 85)، وهي لا تدعم الوصل المتواتر بين الواقع والغيب، الحسي والمجرد فقط بل تدعم أيضاً الوصل بين أبناء العشرة نفسها في هذا الانتفاء المشترك الذي يتخطى المعطيات الطبيعية للقطع فيهم محيلاً إياها إلى وصل في هذا الإطار الحضاري الرفيع.

في الأبيات الثلاثة الأخيرة (86-88) تعداد لأدوار وصل مختلفة يقوم بها أبناء العشرة مماثلة لما سبقته ملاحظته بالنسبة للأبيات الثلاثة الأولى. فمبادرة بعض أبناء العشرة لجه ما

تعرض له من مصيبة أو عدوان أو خلاف صورة عن التواصل المتين الذي يؤمن سلامتها ووحدها واستمرارها المتصل. في حين تشكل أعمال الكرم والجلود من قبلهم أو اصر تريبط مجاورهم والأرامل بهم، أي تصل أولئك الذين يتهدهم الفقر أو العوز بالانقطاع بهم، أو تعرض عن اللواتي انقطع عنهن أزواجهن بالموت وصلاً بديلاً بالرزق والعطاء. ويأتي تضامنهم أخيراً ضامناً للعشيرة من أن يصيبها تهاون البعض أو انحراف الآخرين. فيكون الوصل بذلك ضامناً لتضامنها الكلي ووحدها الشاملة، كما يكون ضامناً لها من أن تتعرض لفساد خارجي أو داخلي، أي ضامناً ضد القطع، فيؤدي وصل البعض إلى وصل الكل أو إلى وصل كلي في وحدة العشيرة المتناسكة.

على هذا النحو تظهر العشيرة وكأنها ذات كبرى أو مجموعة ذوات فردية سبق تقديمها. وإذ تتكرر في عملية تقديم العشيرة معظم الصفات التي مرت بصدد تقديم ذات الشاعر تبدو العشيرة وكأنها أنا مضخمة أو أنا متعددة. في ذلك، قبل أي شيء آخر، مظهر بارز من مظاهر الوصل الراقى والتميز الذي يبين على هذا الجزء بشكل خاص. إنما فيه أيضاً هذا التمييز الذي يجدر استخلاصه بين ما هو مضخم وما هو متعدد. فالأول شامل كلي مطلق، والثاني جزئي مسيطر يعطي الكل طابعه دون أن يكون شاملاً أجزاء الكل بدون استثناء. وفي هذا التمييز تدليل على دور خاص يلعبه هذا الأخير في إقامة وحدة الكل وتأمين الوصل واستمراره. ولما كان التعدد أقرب إلى وضع الشاعر الخاص ففيه استكمال لما بدأه من تعيين لهذا الدور في الوصل، وبالتالي تأكيد إضافي على الوصل المهيم في خصوصياته ودقائقه.

إذا كان الوصل مهيمناً هنا فإن التعبير عنه يأتي على مستوى راق من التماسك والاتحاد. يبرز ذلك خاصة في هذا التجاوب الذي تؤديه الأبيات الثلاثة الأخيرة (86 - 88) مع تلك الأبيات الثلاثة الأولى (78 - 80) عبر تماثلها في التعبير عن العشيرة وتقديمها خاصة كمجموعة ذوات، في الوقت الذي تفضي هذه الأولى إلى قانون العشيرة التاريخي العام وتتحدر تلك الأخيرة من بيت مجدها الرفيع، أي ارتباطها كل من ناحية بالوحدة الوسطى التي تقدم العشيرة كذات كبرى مؤكدة الدور التوسطي الوصلي بامتياز للبيت الأوسط فيها (83). إنما يتعدى التشكل التعبيري المتوازن والمتناسك هذه الوحدة الخاصة من الأبيات (78-88) ليكون كذلك سمة هذا القسم (الثالث) بأكمله الذي هو قسم الوصل ومجال هيمنته بامتياز كما أسلفنا، باعتباره جزءاً من هذا القسم مكملاً للأول فيه (في الأبيات 55 - 77) وعبر التماثل القائم بين الذات المفردة والذات المتعددة، وإنما أيضاً عبر الدور الذي يؤديه كصوت للجماعة

يضخم ويكبر صوت الذات في استدعاء المرأة الغائبة وإغرائها بالوصل. وإذا كانت الأبيات التي تعبر عن العشيرة كمجموعة ذوات واضحة في تأكيدها لما سبق وذكر حول وضع ذات الشاعر (العظمة، الحق، الفضل، الكرم، الفروسية...) خاصة فيما تنتهي إليه في الأبيات الثلاثة الأخيرة من إشارة إلى حمية ومرؤة وتعاون أبناء العشيرة بما تتضمنه من دفع لعدوان خارجي، ومحافظة على السلم الداخلي، ومن إقامة لربيع دائم مستمر تجد فيه حتى الأرامل بغيتها، ومن تضامن يحول دون أي انقطاع كان، تؤكد وتشدد على المستوى الاجتماعي على ما سبق ذكره على المستوى الفردي، فإن تلك الأبيات التي تناولت العشيرة كذات كبيرة تمنح هذه التأكيدات أبعاداً جديدة تخرج بها من المستوى الواقعي إلى التاريخي والغبيبي حيث تتقدم إغراءات المرأة بالوصل أكثر من موجية، حيث أن الخط التناسلي هو الذي يشكل أساس البعد التاريخي، وأن الله يجي هذه العشيرة بوصل فائق يتمثل في النص بيتاً وطيداً يلم شمل العشيرة من أقصاها إلى أقصاها. على هذا المستوى لا يأتي صوت العشيرة ليضعف من قوة صوت الذات وحسب، بل يعطيه أيضاً مغزى ولهجة جديدين هما مغزى ولهجة المفارق والقدسي. بذلك يكتمل النداء، دعوة المرأة للوصل، باكتمال نص القصيدة نفسه على أعلى ما يكون من درجات التلاؤم والالتحام والتكامل.

ثالثاً: تناسق المستويات البنيوية وانسجامها:

إذا كانت القيمة الجمالية لنص شعري تتحدد أساساً في درجة التناسق التي يبلغها في كل مستوى من مستويات تكوينه المختلفة، الدلالية والايقاعية والنحوية واللغوية والأسلوبية... وفي مدى التكافؤ أو التعادل الحاصل من تفاعلها فيما بينها والمؤلف للنسيج الكلي للنص، فإن النظر في وضع كل من هذه المستويات من حيث تركيب وحدته العامة والعلاقة التي تنظم هذا التركيب في علاقته بغيره من المستويات يعتبر نهجاً ضرورياً من أجل تحديد أصول هذه القيمة الجمالية التي تعطيها الدراسة النصية عناية خاصة؛ كما أن درساً منهجياً كهذا هو الذي يجبر البحث الدلالي، في عمليات التفسير والتأويل المختلفة التي يلجأ إليها لتعيين الأبعاد الذاتية والاجتماعية للنص، بأسس ارتكاز لذلك ثابتة ومثينة. ضمن هذا المنظور تتضح أهمية الرؤية البنيوية، أو المنهج البنيوي في مقاربة النصوص وتحليلها. ذلك أن البنيوية وحدها كمنهج تتيح تعيين التناسق المنشود في كل مستوى، وتسمح بالتالي بتحديد مدى التآلف والتناغم بين مختلف المستويات. إذ أن الباحث لا يقع خارج بنية النص إلا على المنفرد والمبعثر والمشتت من ومضات فكر أو لمعات صور وما شابه... ولا يتوصل في أفضل الحالات إلا إلى تفكك أرقى عندما يتمكن من القبض على بعض مدارات النص أو محاوره

وما شابه . . . ويبقى إجمالاً قاصراً عن التعرف على العلاقات الأساسية التي تحكم النص في وحدته الكلية، والتي تهب وحداته الكبرى كما الصغرى مدلولاتها الفعلية والمناسبة.

على أساس هذه الملاحظة وعملاً بمقتضاها نمضي إلى درس البنى الإيقاعية والنحوية والأسلوبية تبعاً مقتصرين عليها في محاولتنا التعرف فيها إلى تركيبها الخاص من ناحية، وإلى مدى تلاؤمها مع البنية الدلالية - وبالتالي فيما بينها - في تشكيلها النظمي الذي يبناه آنفاً.

1 - البنية الإيقاعية :

نقتصر في هذه البنية على البعد العروضي من وزن وقافية كما أرسيت قواعده إجمالاً في بحور الشعر المعروفة. وأول ما يسترعي انتباهنا في هذا الإطار البساطة الكبيرة التي يقوم عليها هذا الإيقاع. فهو يعتمد وحدة عروضية بسيطة (تفعيلة: مُتفاعِلن) واحدة لا تعرف إلا غمطاً واحداً من التبدل أو التغير (الزحاف: مُتفاعِلن). لكن هذه البساطة لا تلبث أن تتكشف عن وحدات مركبة على جانب مهم من التعقيد. هذه الوحدات المركبة (أوزان الأبيات) هي الوحدات الأساسية التي تؤلف في تكرارها (ست مرات في البيت الواحد) مع القافية المعتمدة الإيقاع النظمي العام للقصيدة. فعلى تفاعل من هاتين الوحدتين البسيطتين (التفعيلة وزحافها) تنتظم وحدة مركبة (وزن عروضي) تؤدي في تنوعها المحدود، الذي يقبم بين الأبيات المختلفة علاقات من التقارب والتأثر والتطابق، مع القافية الواحدة وحدة النص الإيقاعية هنا.

- لو تتبعنا هذه الوحدات المركبة (أوزان الأبيات) في محاولة أولى لفرز المتطابق إيقاعياً منها عن سواه، باعتبار أن هذا التمييز الأولي هو المعيار الأساسي في بحث التشكل البيوي لهذا المستوى الإيقاعي، فسنجد أنها تشتمل على واحد وأربعين تشكلاً عروضياً متميزاً، وهو عدد مهم في نص واحد. إنما يمكننا أن نميز فيه نوعين كبيرين: المتفرد منها حيث لا يتكرر الإيقاع العروضي إطلاقاً في النص فيأتي مرة واحدة فقط، والمتعدد أو المتكرر حيث يرد الإيقاع العروضي أكثر من مرة واحدة في النص بناء للتطابق الحاصل بين تشكيلات الوحدات الإيقاعية للأبيات. مما يسمح بملاحظة أن الأبيات المتفردة تبلغ ثلاثة وعشرين بيتاً، أي أنها تشمل ربع النص الكامل للقصيدة⁽³⁶⁾ مقابل غلبة عدد الأبيات المتعددة أو المتكررة الإيقاع العروضي التي تشغل القسم الباقي من القصيدة (ثلاثة أرباعها) بنسبة ثلاثة أضعاف النوع

(36) الأبيات المتفردة هي: 5 و 7 و 9 و 12 و 18 و 19، و 27 و 28 و 29 و 32 و 36 و 40 و 42 و 45 و 47 و 56 و 57 و 60 و 64 و 74 و 75 و 76 و 85 من قصيدة تضم 88 بيتاً.

المتفرد. ولما كان التفرد تعبيراً عن انقطاع، عكس التعدد المعبر في تطابقاته عن اتصال، فإننا نلمح تفاعل المعطى البنيوي الدلالي العام للنص في انتصاره للوصل على الفصل قائماً هنا في البنية الإيقاعية العامة حيث لا يتمثل في وزن يغلب فيه المتحد على المفرد فقط، وإنما يتمثل كذلك في القافية التي تحمل في تكوينها ذاته طابع الوصل المذكور. فهي تحتوي إلى جانب حرف الروي (الميم) على حرف الوصل (هاء) وما يردفه من حرف خروج (الألف اللاحقة عليه). فإلى جانب حرف الوصل المحدد هذا القائم فيها، هناك هذا الوصل البنيوي الذي يُشير إليه إشباعها وامتدادها بما قبلها وإلى ما بعدها، والذي يسري في أبيات النص جميعاً مؤكداً الطابع العام للوصل الغالب على النص. يضاف إلى ما سبق أن توزيع الأبيات المتفردة في صيغها المتعددة يبين عن وضع جدير بالأهتمام. ففي هذه الأبيات نجد توزيع حالات الزحاف العددية التي يشتمل عليها النص والتي يبلغ عددها الخمسة، بعدد الزحافات التي يمتوئها كل بيت. لكن توزيعها في أقسام التشكل البنيوي للنص ينم عن خصوصية تعكس خصوصية التوزيع المذكور. فالقسم الأول يتفرد باحتوائه على الحالة الأولى بينهما - الزحاف الواحد (في البيتين 9 و 18) - ويتفرد القسم الثالث باحتوائه على الحالة الخامسة - الزحافات الخمسة (في البيت 57) - في حين تشترك الأقسام الثلاثة في احتوائها على الحالات الثلاث الأخرى - الزحافين (في الأبيات 12؛ و 27 و 28 و 29 و 36؛ و 60 و 64) والثلاثة (في الأبيات 5 و 7؛ و 32 و 42 و 45 و 47؛ و 74 و 75 و 85) والأربعة زحافات (في الأبيات 19؛ و 40؛ و 56 و 76) - مما يتلاءم مع أوضاع الأقسام المذكورة حيث يقف كل من الأول والثالث على طرفي تعارض، ويشغل بينهما الثاني دور الوسيط.

إلا أن ما هو أجدر بالإهتمام من ذلك هو النظر في تلك الأبيات المتكررة أو المتطابقة والتي يُبدي تفحصها الشامل وجود حالات خمس من التطابق متعددة الصيغ، بناء لعدد الزحافات القائمة فيها، والتي تبدأ بالتدرج من الأولى حيث لا يوجد أي زحاف إلى الخامسة حيث يوجد أربعة زحافات. وفي حين تشترك أقسام التوزيع البنيوي الثلاثة للنص في بعض الحالات فإنها تتميز عن بعضها في الصيغ المعتمدة فيها بشكل يتلاءم مع هذا التوزيع ويؤكد.

إذ أخذنا بعين الإعتبار اشتراك الأقسام الثلاثة في الحالة الثانية - الزحاف الواحد⁽³⁷⁾ -

(37) في الحالة الثانية - الزحاف الواحد تشترك الأقسام الثلاثة في مجموعة الأبيات التالية: 10 و 11 و 15، و 30 و 53، و 68 و 88. أما في بقية صيغ التطابق التي تتضمنها فيشترك فيها القسم الأول والثاني (في البيتين 2 و 52) والقسم الأول والثالث (في الأبيات 8 و 14، و 77 و 86) حيث يبرز موقع متميز فيها للقسم الأول يتجاوب مع سمة التفرد التي أشرنا إليها أعلاه.

وفي الحالة الثالثة - الزحافين الإثني⁽³⁸⁾ - فلإن الحالات الثلاثة الباقية (الأولى والرابعة والخامسة) تبدي عن أوضاع خاصة في تآلفها أكثر تمييزاً ودلالة. إذ تغيب الحالة الأولى (انعدام الزحافات) عن القسم الثالث مقتصرة بالمقابل على القسمين الأول والثاني على غلبة واضحة للأول بينهما⁽³⁹⁾، ويشارك القسم الثاني في الحالة الرابعة - الزحافات الثلاثة - مع القسم الأول من جهة والقسم الثالث من جهة ثانية مع رجحان بارز لهذه الأخيرة⁽⁴⁰⁾، بينما يقوم تطابقان في الحالة الخامسة أحدهما مجتمع فيه القسمان الأول والثاني والآخر يقتصر على القسم الثالث مضافاً على هذا الأخير وضعاً متميزاً إزاء السابقين⁽⁴¹⁾. مما يسمح لنا بقراءة أولية إجمالية تجرد في أوضاع الحالات الثلاث هذه تماثلاً مع أوضاع التشكل البنوي الدلالي الذي تم استخراجُه آنفاً. ففي الأولى يغلب الأول نسبياً بما يتناسب مع الطرح الأولي للقصيد انطلاقةً من القطع المعلن منذ البيت الأول والسائد في القسم الأول؛ وفي الحالة الرابعة يؤدي القسم الثاني دوراً متوسطياً مع جنوح واضح نحو القسم الثالث بما يتفق مع وضعه الدلالي بما هو قطع للقطع، أي قطع مع الأول وتماثل مع الثالث، وهو ما يفسر توزع وتوازن الصيغ القائمة في المجموع؛ وفي الحالة الخامسة انتقال لهذا التوازن إلى وضع جديد يرجح القسم الثالث في نهايته كقسم يهيمن الوصل عليه. وإذا كانت الحالة الثانية تشكل نوعاً

(38) في الحالة الثالثة - الزحافين الإثني تشترك الأقسام الثلاثة في الأبيات التالية: 4 و 6، و 22 و 24 و 38 و 48، و 62 و 87. أما في بقية صيغ التطابق فيشترك القسم الثالث والأول (في البيتين 16 و 61) والثالث والثاني (في الأبيات: 20 و 44، و 83؛ وفي 21 و 25 و 37 و 41، و 58 و 59 و 67 و 69؛ وفي 23 و 43، و 63) مما يعطي موقعاً متميزاً للثالث هنا تماثلاً للأول في الحالة السابقة. بيد أن هناك صيغتين أخريين أيضاً في الحالة الثالثة تتيحان للقسم الثالث تجاوز وضع التماثل المذكور. الأولى منهما متمثلة في تطابق يقتصر على القسم الثاني فقط (في البيتين 50 و 51)، والثانية في تطابق يقتصر على القسم الثالث فقط (في البيتين 73 و 79). مما يجعل علاقة القسم الثالث بالثاني أوطد وأقوى من ناحية، وبالتالي تجعل من موقع الثالث في هذه الحالة موقعاً أشد خصوصية من موقع الأول في الحالة الثانية، حيث أنه يقيم علاقة تطابق على صيغتين مع الأول، ويتجاوز في علاقته مع الثاني هاتين الصيغتين إلى صيغة ثالثة من التماثل، موحياً عبر ذلك بالموقع البنوي الدلالي الذي يحتله في النص في علاقته بالقسمين الآخرين من ناحية ثانية.

(39) يقتصر التطابق في الحالة الأولى - انعدام الزحافات على صيغة واحدة تشتمل على الأبيات الثلاثة التالية: 1 و 3، و 31 (الأولان قاتمان في القسم الأول والأخير في الثاني).

(40) في الحالة الرابعة - الثلاثة زحافات يشترك القسم الثاني مع القسم الأول في البيتين 17 و 35، بينما يشترك مع القسم الثالث في الأبيات التالية: 26 و 46، و 72؛ وفي 34، و 55؛ وفي 33، و 70 و 84؛ وفي 49 و 54، و 66 و 71 و 78 و 80 و 82. حيث لا يتفوق الارتباط الأخير بالثالث على الأول وحسب، وإنما أيضاً يتفوق عدد الأبيات المنتمية إلى القسم الثالث هنا على ما عداها.

(41) في الحالة الخامسة - الأربعة زحافات يشترك القسمان الأول والثاني في بيتين متطابقين هما 13 و 39، مقابل تطابق بيتين قاطمين في القسم الثالث مقتصرين عليه هما 65 و 81.

من الاستمرار للحالة الأولى وإن اختلفت عنها، فإن الثالثة توطن وتقوي وضع الخامسة خاصة في هذا التمييز الذي يتمتع به التطابق القائم داخل القسم الواحد والمقتصر عليه، باعتبار هذا التطابق في محدوديته من العناصر الإيقاعية الخاصة والتميزة الدلالة، بحيث يتيح صيغة الثلاث الواردة فيها وفي النص بأكمله تأكيد الوجهة العامة للتوزيع الدلالي، باعتبار افتقاد القسم الأول لأي تطابق من هذا النوع، واشتراك الثاني والثالث في الحالة الثالثة⁽⁴²⁾ وتفرد الثالث في الحالة الخامسة⁽⁴³⁾. مما يبين عن تدرج من الغياب إلى الحضور يتفق والتدرج الدلالي للنص في صيغة قد لا تكون الجدلية غريبة عنها في هذا الانتقال من الموضوعة (القطع) إلى نقيضها (قطع القطع) فالاستنتاج المتخفي لهما (الوصل).

- إلا أن هذا التلازم الإيقاعي في تناسبه مع التوزيع البيوي الدلالي لا يقتصر على هذا التوزيع الأولي لحالاته وصيغته المختلفة، وإنما يتأكد أيضاً في ذلك التوزيع الداخلي الخاص بكل قسم من الأقسام الثلاثة للنص حيث تشكل بناء لأبيات المتطابقة بشكل خاص والمتماثلة، وحدات إيقاعية تتلاءم إلى حد بعيد مع وحدات المعنى التي ينتظم التشكل الدلالي فيها. هكذا نلاحظ في القسم الأول الغلبة الواضحة لأبيات الزحاف الواحد⁽⁴⁴⁾، وهي غلبة تتفق كذلك مع توزيع الأبيات المنفردة من ناحية وتوزيع الأبيات المتطابقة من ناحية ثانية الموضحين أعلاه ليتكسر على هذا النحو تمييز هذا القسم كوحدة إيقاعية دلالية كبرى مستقلة عن القسمين الآخرين. داخل هذه الوحدة تبيين وحدتين إيقاعيتين صغيرتين أو جزءين بناء لما تؤلفه الأبيات المتطابقة فيها من وحدات إيقاعية أصغر أو مقاطع إيقاعية، وذلك عن طريق التوازن الإيقاعي الذي ينشئه تواردها فيها، يمكن تمييزها على النحو التالي: المقطع الأول من الأبيات الثلاثة الأولى التي يحدّها متطابقان (البيتان 1 و 3)، الثاني من الأبيات الأربعة اللاحقة بناء للبيتين المتعاقبين غير المتجاورين فيها (البيتين 4 و 6)، الثالث من الأبيات الأربعة التي تليها بناء للبيتين المتعاقبين المتجاورين (البيتين 10 و 11)، بينما يغيب التطابق في الأبيات الثانية اللاحقة ليميز بذلك جزءان إيقاعيان داخل القسم الأول: يمتد الأول من البيت الأول حتى البيت الحادي عشر، والثاني من البيت الثاني عشر حتى البيت التاسع عشر. وهذا التوزيع هو الذي سبق ولاحظناه في التشكل الدلالي.

يبد أن الجزء الثاني لا يعدم بدوره علامات فارقة فيه تميز الأبيات الأربعة الأولى عن

(42) في البيتين 65 و 81.

(44) هناك في الأبيات التسعة عشر التي تؤلف القسم الأول ثمانية أبيات من زحاف واحد من مجموع لهذا النوع في النص عدده 15، والأبيات الثمانية هي: 2 و 8 و 9 و 10 و 11 و 14 و 15 و 18.

الأربعة الأخيرة في مقطعين متعاقبين، وذلك بناء لما ينشئه البيتان الرابع عشر والخامس عشر في المقطع الأول من توازن خاص بناء لتطابقهما مع بيتين سابقين في الجزء الأول (البيتين 8 و10 تبعاً)⁽⁴⁵⁾ ليؤدي التوزيع الإيقاعي على هذا النحو تناسباً قوياً مع التوزيع الدلالي في وحدته الصغرى إلى جانب الكبرى. بالإضافة إلى الجزئين الكبيرين نلاحظ أن الإيقاع يتميز في كل منها بتميز المعنى، فالمقطع الأول يتفق مع الحديث عن الديار الإنسانية الخربة، والثاني مع الخصب الحيواني والنباتي، والثالث مع أحوال الطلل مجدداً وإنما في علاقته بالشاعر والرحيل. وإيقاع الثالث متميز عن سواه في القسم بأكمله أولاً لأن المتطابقين اللذين يؤلفانه يأتيان متتابعين متجاورين خلافاً للزوجين السابقين المتفرقين، ولأنه ثانياً يتجاوب إيقاعياً مع ما يليه عبر وحدتين إحداهما زوج المتطابقين القائمين فيه؛ وهو الذي يرسي إيقاع الرابع (الأول في الجزء الثاني) كما يرسي الرحيل معنى الأبيات التي يتضمنها هذا الأخير. وهذا يعطي للوحدة العلنية في البيت العاشر بعداً خاصاً ومتميزاً، فهو الذي يأتي في مقطع وسط (ثالث) بين المقاطع الخمسة المكونة للقسم الأول يقع تحديداً في منتصف مجموع الأبيات المؤلفة لهذا القسم (العاشر بين 19 بيتاً) فيبدو عبر التوزيع البيوي للإيقاع هنا لولباً تنتظم إيقاعات القسم حوله متفقاً في ذلك مع دوره اللولي في المعطى البيوي الدلالي. ويأتي تطابقه مع البيت الذي يليه (11) ليوضح على المستوى الإيقاعي ما سبقت ملاحظته على المستوى الدلالي من انعطاف التعبير عنده من الوصل الذي يحاوله الشاعر إلى القطع الذي يجابه به والذي يعلن البيت اللاحق عليه توجه التعبير نحو هذا القطع بالذات ليهيمن على الأبيات اللاحقة بشكل ساحق. وإذا يأتي المقطع الخامس والأخير مكوناً من متبعثر ومتفرق لا يقوم فيه ولا يجمعه بقبله أي تطابق، فإنه يتفق كذلك مع هذا التبدد الذي أصاب وضع المرأة في رحيلها. كان هناك توافقاً بين المعطى المكاني في البنية الدلالية والمعطى التوازني في البنية الإيقاعية حيث أن التوازن النسبي القائم في تنوعه في الجزء الأول يتفق مع ثبات المكان، بينما يغيب هذا التوازن مع غياب هذا الثبات. وإذا كان لهذا الجزء صلة بما قبله فبقدر ما يتعلق التعبير في الجزء الثاني بهذا المكان الثابت (المقطع الرابع)، وما أن يتم الإنقطاع عنه حتى يتم الإنقطاع في الإيقاع كذلك (المقطع الخامس). لا يسعنا أخيراً إلا أن نلاحظ أن علاقته بما بعده تؤكد هذا الانقطاع والتبدد، إذ أن البيتين الأولين فيه فقط (16 و17) يقومان صلة محدودة عبر التطابق بما يليهما (بالبيتين 61 و35 تبعاً) بينما يتفرد البيتان الأخيران (18 و19)

(45) في الحقيقة يتطابق البيت الخامس عشر مع العاشر والحادي عشر المتطابقين في الجزء الأول، مما يجعل الصلة بها أقوى من صلة البيت الرابع عشر مع الثامن، وينعكس ذلك في مجيء تشكيل المقطع الإيقاعي هذا في الجزء الثاني على النمط نفسه للمقطع الثالث في الجزء الأول.

منقطعين عما يليهما كأنهما تعبير إيقاعي عن القطيعة الدلالية التي يقيمها النص بين القسم الأول والقسمين الثاني والثالث. وكما رأينا على المستوى الدلالي كيف أن محاولات الوصل في القسم الأول تفشل ويسود الفصل، فإن الوحدات الإيقاعية فيه تبن عن غلبة الفصل على الوصل، حيث أن الأبيات المتطابقة أقل من تلك المنفردة فيه⁽⁴⁶⁾، ويؤول الإيقاع فيه من الوصل (في التطابق كما يديه الجزء الأول) إلى القطع (في التفرد كما يديه الجزء الثاني).

- في القسم الثاني تتابع الأبيات الأولى متماثلة في عدد زحافاتهما بشكل لافت للنظر⁽⁴⁷⁾. وهذا النوع من الزحافات بالتحديد (المزدوج أو الثنائي) هو الغالب على هذا القسم إذ يشمل حوالي نصف عدد أبياته، وإنما أيضاً هو الغالب على النص، ويضم القسم الثاني نصف عدد أبياته الإجمالية⁽⁴⁸⁾. نجد في ذلك تأكيداً لما لاحظناه آنفاً بالنسبة لتوزيع المفرد والمتطابق، وبالنسبة لتوزيع البنيوي الدلالي للنص، من دور توسطي يؤديه هذا القسم، معبراً عن هذا الدور في الموقع الوسطي الإنتقالي الذي يجتله في التشكل التنظيمي لبنية النص كما في التشكل الإيقاعي لأكثر الوحدات الإيقاعية المتميزة فيه.

كما في القسم الأول تكون الأبيات المتطابقة في القسم الثاني وحدات إيقاعية من مقاطع وأجزاء ليست منقطعة الصلة بانتظام المعنى وتركيبه فيه. على هذا الصعيد تتميز صيغتنا التطابق القائمتان في البيتين الحادي والعشرين والثاني والعشرين على ما عداهما، إذ ترد كل منهما أربع مرات⁽⁴⁹⁾ مقابل مرتين لكل من صيغ التطابق الأخرى⁽⁵⁰⁾. بناء عليه وعلى ما يستدعيه توارد الأبيات المتماثلة في عدد الزحافات هنا من خصوصية يمكننا تمييز وحدتين إيقاعيتين كبيرتين تبدأ الأولى من البيت العشرين وتنتهي عند البيت الخامس والثلاثين، في حين تغطي الثانية الأبيات اللاحقة (من البيت 36 حتى 54). وإذا كان التطابق الظاهر في

(46) باعتبار أن الأولى تقتصر على 9 أبيات (1 و 3 و 4 و 6 و 8 و 10 و 11 و 14 و 15) بينما تشغل الأخيرة الأبيات العشرة الباقية (2 و 5 و 7 و 9 و 12 و 13 و 16 و 17 و 18 و 19).

(47) وهي الأبيات الستة الأولى (20-25).

(48) تعد الأبيات ذات الزحافين في القسم الثاني 18 بيتاً وهي: 20 و 21 و 22 و 23 و 24 و 25 و 27 و 28 و 29 و 36 و 37 و 38 و 41 و 43 و 44 و 48 و 50 و 51. وهي تشمل نصف عدد أبيات القسم الثاني الخمسة والثلاثين (من 20 إلى 54) لكنها أيضاً تضم نصف عدد الأبيات ذات الزحافين الواردة في النص والبالغة بدورها 35 بيتاً (أربعة منها في القسم الأول و 13 في القسم الثالث).

(49) فهناك تطابق بين الأبيات 21 و 25 و 37 و 41 من ناحية، وبين الأبيات 22 و 24 و 38 و 48 من ناحية ثانية.

(50) المقصود بذلك تطابق الأبيات 20 و 44، و 23 و 43، و 26 و 46 و 49 و 54، و 50 و 51.

هاتين الوحدتين يشير إلى نوع من التماثل الإيقاعي بينهما خاصة في المطلع، فإنها لا تعدمان مظاهر اختلاف خاصة في التشكل الإيقاعي الذي تعرفه كل منهما، بما يتناسب إلى حد كبير مع التماثل والاختلاف الدلاليين اللذين يساهما.

تتوزع الوحدة الإيقاعية الكبرى الأولى إلى وحدتين أو مقطعين إيقاعيين: الأول يحكمه التطابق في تتابع العدد المتماثل من الزحافات (من البيت 20 إلى 25)، بينما يحكم الثاني الاختلاف بين الصيغ الإيقاعية للأبيات (من البيت 26 إلى 35). تقيم أبيات المقطع الأول المتطابقة (21 و 25 و 22 و 24) نوعاً من التوازن فيه له خصوصيته المميزة غير المنقطعة عن خصوصية الدلالة والتعبير، حيث أن ورودها في هذا الشكل التضميني (تضمن تطابق لآخر) يتجانس مع تضمين الوصل في قطع القطع دلاليًا، ومع التضمين الذي يحكم قافية الأبيات ومع الاستدراك المعتمد فيها. وإذا كان الاختلاف سائداً في المقطع الثاني فإنه يعرف بعض الانتظام الذي يقيمه التطابق والتفرد بين أبياته العشرة وسواها من الأبيات خارجه. فالبيتان اللذان في وسطها (30 و 31) يعرف كل منهما مطابقاً له ورد في القسم الأول حيث عد بين متطابقيه⁽⁵¹⁾. وفي حين ينتهي هذا المقطع عند بيت (هو البيت 35) يجد مطابقاً له في القسم الأول (البيت 17)، فإن البيت الأول فيه (26) لن يعرف مطابقاً له إلا لاحقاً في الوحدة الإيقاعية الكبرى الثانية من القسم الثاني (البيت 46). لكن هذا البيت (26) متبوع بثلاثة أبيات متماثلة في عدد زحافاتهما (مزدوجة) مختلفة الصيغ الإيقاعية جميعها متفردة لا مطابق لإي منها في هذا القسم (ولا في النص بأكمله). في حين يسبق البيت الأخير (35) ثلاثة أبيات في عدد زحافاتهما (ثلاثية) مختلفة الصيغ الإيقاعية جميعها متفردة لا مطابق لأي منها في هذا القسم، وإن عرف اثنان منها علاقة تطابق مع القسم الثالث (33 مع 70 و 84 و 34 مع 55) بحيث لا يحتفظ بالتفرد منها في النص إلا بيت واحد (32). لا يخفف هذا الانتظام البسيط من ضعف التوازن الإيقاعي الذي يسود هذا المقطع والذي يعود بشكل خاص لغياب أي تطابق عروضي بين أبياته يتيح تأمين ركائز قوية لتشكيل توازن إيقاعي متين. قد يكون هذا التوضع على صلة بالمنحى القصصي الذي تتجه إليه أبيات المقطع، وبالاضطراب الذي يسود التوضع الذي تلاحقه وبالقلق الذي يسم التحرك الذي تتابعه.

أما الوحدة الإيقاعية الكبرى الثانية فتبدأ كما أشرنا بمجموعة من الأبيات المتماثلة في عدد زحافاتهما شبيهة في ذلك بحالة الوحدة الكبرى السابقة وإن لم تعرف شأوها؛ وهي تقيم في الوقت نفسه تطابقاً مزدوجاً معها، حيث أن تعاقب صيغتي الإيقاع في البيتين الحادي

(51) يتطابق البيت 30 مع الأبيات 10 و 11 و 15، والبيت 31 مع البيتين 1 و 3.

والعشرين والثاني والعشرين في الأولى هو نفسه الذي يتكرر في البيتين السابع والثلاثين والثامن والثلاثين من الثانية. لما كانت هاتان الصيغتان هما اللتان شكلتا ركيزة التوازن الإيقاعي في الوحدة الأولى، وهما يؤديان دوراً مماثلاً في الثانية، فإن ذلك يعبر عن تلاحم قوي بين الوجدتين يطبع القسم بأكمله بركائز متينة من التوازن الإيقاعي العام يدعمه ويقويه ورود مطابقات أخرى بين الوجدتين (بين الأبيات 20 و 44 و 23 و 43 و 26 و 46) ليغطي ويتجاوز ما يتضمنه في داخله من اضطراب أو بعثرة. في هذا التلاحم والتوازن الإيقاعي العام صورة عن الوحدة الدلالية العامة التي ترسي في القسم الثاني ترابطاً وثيقاً يستوعب الانتشار الذي تمضي فيه ملاحقة المعنى ومتابعة تفاصيله. ويأتي التوزيع الإيقاعي الخاص الذي تعرفه هذه الوحدة الكبرى (الثانية) لبيان عن توازن فيها تحكمه المطابقات من أبياتها خاصة، وإن لم تغب عنه مطابقات بين هذه الأبيات وغيرها، يمكن أن نحدده في ثلاث وحدات أو ثلاثة مقاطع متتالية. يعين التطابق القائم بين البيتين السابع والثلاثين والواحد والأربعين المقطع الأول منها في ذلك التوازن المحدود الذي يتيح تماسكه ورود بيت سابق وبيتين لاحقين على كل منها بحيث يشمل المقطع الأبيات الثانية من السادس والثلاثين إلى الثالث والأربعين، وتنتهي كل مجموعة تتألف حول هذين المتطابقين إلى بيت يتطابق مع بيت سابق عليه (الأول 39 مع البيت 13 في القسم الأول، والثاني 43 مع البيت 23 في القسم الثاني). أما حدود المقطع الثاني فيعينها ورود التطابق الثاني في هذه الوحدة بين البيتين الثامن والثلاثين والثامن والأربعين، بحيث يشمل على الأبيات الخمسة من الرابع والأربعين حتى الثامن والأربعين التي تجدد ركائز توازنها في الأبيات المتطابقة مع أخرى قائمة في الوحدة السابقة (كما هو الحال بين الأبيات 44 و 20 و 46 و 26 و 48 و 24 و 22 بالإضافة إلى 38) وهي أبيات تحيط بمتمفردين في النص بأكمله ذوي عدد متماثل من الزحافات (ثلاثة) وهما البيتان الخامس والأربعون والسابع والأربعون ويقوم هذا التوازن البسيط في إحالاته التطابقية بالتخفيف من حدة الاختلاف المائل في هذا المقطع.

يبقى مقطع ثالث يعين حدوده تطابق البيتين التاسع والأربعين والرابع والخمسين، كما يساهم هذا التطابق مع ذلك الآخر القائم بين البيتين الخمسين والواحد والخمسين في تعيين شكله وتوازنه الداخلي، حيث يقابل هذان المتطابقان (50 و 51) البيتين اللاحقين عليهما (52 و 53) اللذين لا يتمتعان بتماثل في عدد الزحافات (واحد) وحسب، وإنما أيضاً يجد كل منهما مطابقتاً له في ما قبله على تمايز، بحيث أن الأول بينها (52) يقتصر على التطابق مع البيت الثاني (في القسم الأول) بينما يتجاوب الثاني (53) في تطابقه مع الأبيات الثلاثين (في القسم الثاني) والخامس عشر والحادي عشر والعاشر (في القسم الأول) بما يتفق مع خصوصية دلالة

كل منها. كما أن الانتظام المتقدم والتوازن القوي الذي يعرفه المقطع الثالث يتفق مع احتمال المعنى الدلالي فيه، ويتجاوب مع ذلك الذي عرفه مطلع القسم الثاني، ليتجسد في هذا التجاوب تجاوز ضعف التوازن الذي عرفه المقطع الثاني في الوحدة الأولى، والمقطع الثاني في الوحدة الثانية في هذا القسم. وهو يشير إلى وجهة إيقاعية جديدة عبر تلك الصيغة التي ينتهي إليها (في البيت 54) لن يلبث القسم الثالث أن يعتمد أكثر من أي صيغة أخرى، كأنه بذلك يدل إيقاعياً على ما يفضي إليه القسم الثاني دلاليًا، مؤدياً دوراً رئيساً في الترابط الداخلي والخارجي على قدر كبير من التناغم والتجانس. من السهل ملاحظة اتفاق هذا التوزيع الإيقاعي مع التوزيع الدلالي للأبيات في هذا القسم الثاني. فإلى جانب التمييز الذي تجرته الوجدتان الكبيرتان فيه، والذي يتفق مع استطالة التعبير في حكايتين يتقصى في كل منهما وضماً خاصاً بحيوان يمكنه أن يؤدي على هذا النحو وضع الناقة الخاصة بالشاعر، تأتي مقاطع هاتين الوجدتين لتتلف مع خصوصيات التعبير في كل منها وفي القسم بأكمله.

- في القسم الثالث يلفت الانتباه أولاً مجموعة الأبيات المتماثلة في عدد زحافاتهما (المزدوجة) والمتعاقبة والتي تتجاوز في عددها المجموعة التي لاحظناها في القسم الثاني (سبعة أبيات مقابل ستة بداية)، وهي تؤدي في متطابقتها دوراً أساسياً في تحديد وحدة إيقاعية كبيرة نسبياً تؤلف المقطع الأول في هذا القسم وتمتد من البيت الخامس والخمسين إلى البيت التاسع والستين. فالتطابق القائم بين الأبيات الثامن والخمسين والتاسع والخمسين والسابع والستين والتاسع والستين يقيم ركائز توازنه ويعين الحد الذي ينتهي عنده معاً، كما أنه يتيح تمييز مجموعتين مترابطين داخله يحدد البيتان المتطابقان الأولان (58 و 59) الأولى منها، إذ يقومان وسط أبيات ثنائية تتقدمها فيها أبيات ثلاثة مختلفة في عدد زحافاتهما بينها بيتان منفردان في النص (56 و 57) أحدهما (57) متفرد على الإطلاق في حالته وصيغته (وحده من خمسة زحافات) إلى جانب بيت واحد له مطابق سابق عليه في القسم الثاني (البيت 34)؛ ويليهما أبيات ثلاثة متماثلة في عدد زحافاتهما أولها (60) متفرد في النص والآخران (61 و 62) لهما أبيات متطابقة وأحدهما يتميز بأنه يأتي في الصيغة الأكثر تواتراً⁽⁵²⁾. بينما يحدد المتطابقان الأخيران (67 و 69) المجموعة النائية من هذا المقطع، ذلك أنها يشكلان مع البيت المتضمن فيها (68) المتطابق مع أبيات سابقة في القسمين الأول والثاني (مع الأبيات 10 و 11 و 15 ومع 30 و 53 تبعاً) أبياتاً ثلاثة مقابلة للأبيات الثلاثة الأولى فيها (63 - 65) التي يتفرد فيها البيت الأوسط (64)

(52) وهي تتكرر 8 مرات في الأبيات: 4 و 6 و 22 و 24 و 38 و 48 و 62 و 87، متفوقة في ذلك على جميع الصيغ الأخرى ما عدا تلك التي ترد بنسبة مساوية لها في الأبيات: 21 و 25 و 37 و 41 و 58 و 59 و 67 و 69.

في النص بينما يتطابق الأول (63) مع ما قبله (23 و 43) والثالث (65) مع ما بعده (81) بتوسطها جميعاً البيت 66 وهو المتطابق مع ما انتهى إليه القسم الثاني (54). إلا أن هذا البيت نفسه (66) مطابق لبيت لاحق عليه (71) يأتي وسط مجموعة جديدة من الأبيات ميزتها التماثل في عدد الزحافات (70 - 72). كأنها معاً تؤكدان على هذا النحو صلة هذا القسم بما انتهى السابق عليه (الثاني) إلى اعتياده (في تطابق البيتين 49 و 54). وفي حين شكلت المجموعة الثانية من المقطع الأول هنا وحدة إيقاعية مع سابقتها أساسها التطابق، تشكل المجموعة الأخيرة المشار إليها (70 - 72) مع الأبيات اللاحقة عليها (حتى البيت 77) وحدة جديدة أو مقطوعاً إيقاعياً سمته الاختلاف القائم بين الصيغ العروضية للأبيات جميعها (70 - 77) يذكر هذا الوضع بما انتهى إليه المقطع الأخير من القسم الأول (16 - 19) في حينه، كأنه بشكل استجابة إيقاعية مفارقة تتلاءم مع المضمون الدلالي المفارق فيه لما جاء في القسم الأول، بقدر ما يشكل رداً عليه ودعوة للمرأة المعنية فيه للاستجابة لاغرائه. وكما عرف مقطع القسم الأول المذكور أبياتاً متطابقة لاحقاً ليشير ذلك إلى وجهة اندراج الإيقاع والمعنى، فإن هذا المقطع الثاني من القسم الثالث يعرف بدوره أبياتاً متطابقة معه في ما قبله وفي ما بعده، ليشير ذلك أيضاً إلى اتجاه في الإيقاع والمعنى مختلف عن سابقه ويجعل تطابق بعض الأبيات وتفرد الأخرى لهذا المقطع انتظاماً أولياً قوامه تطابق الأبيات المتماثلة مع أبيات سابقة عليها. فبالإضافة إلى البيت الواحد والسبعين الذي تناولناه، يتطابق البيت السبعون مع الثالث والثلاثين والثاني والسبعين، ومع السادس والعشرين والثاني والأربعين؛ لكنه يتطابق كذلك مع الرابع والثمانين ليعين في مطلع هذا المقطع تواصل الإيقاع وتنايميه بما يتناسب ووضعه الدلالي. وفي حين لا يعرف البيت الثالث والسبعون غير التطابق مع التاسع والسبعين في الجزء الذي يلي، فإن الأبيات الثلاثة اللاحقة عليه تأتي منفردة في النص على الإطلاق، ليعود البيت الأخير فيعلن في تطابقه مع ما قبله (البيتين 8 و 14) وما بعده (86) ما سبق للبيت الأول أن أشار إليه وما تكرر من خلال البيت الثالث والسبعين، بالإضافة إلى صيغة البيت الواحد والسبعين التي لا تجمع فقط بين مقطعي هذا القسم، وبينها وبين القسم الثاني كما بينا، وإنما تشكل كذلك ركيزة الجزء الثاني من القسم الثالث الإيقاعية لتدل بذلك على التلاحم الإيقاعي بما يتناسب والتلاحم الدلالي.

في هذا الجزء (الثاني) الممتد من البيت الثامن والسبعين إلى الثامن والثمانين تكون الصيغة العروضية للأبيات المتطابقة بينها (78 و 80 و 82) والتي جرى الإيماء إليها في نهاية القسم الثاني (في البيتين 49 و 54) وفي كل من المقطعين الإيقاعيين اللذين لاحظناهما في الجزء الأول من القسم الثالث (في البيتين 66 و 71) مرتنح التوازن الذي تعرفه الأبيات الخمسة

الأولى وحدودها في الوقت نفسه . ليس هذا التوازن وحده هو ما يفضي إليه الإيقاع هنا، وإنما أيضاً يأتي احتواء هذه الأبيات الخمسة (78 - 82) على بيتين يتطابق كل منهما فقط مع بيت واحد سابق عليه في كل من مقطعي الجزء الأول من القسم نفسه (79 مع 73 و 81 مع 65) حتى أن الأخير منها يشكل مع لاحقه تطابقاً مزدوجاً مع المقطع الأول (81 و 82 مع 65 و 66) ليمهر هذا التطابق إيقاع هذا الجزء (الثاني) أيضاً بحد عال من التجاوب مع سابقه يتناسب مع العلاقة التي يرسيها الوضع الدلالي بينهما . هذه الأبيات الخمسة هي التي تعطي الجزء بأكمله توازنه باعتبارها مقابلاً للأبيات الخمسة الأخيرة يقوم البيت الثالث والثانيون بينهما بدور الوسيط، وهو دور يؤكد له تطابق مع البيت الأول في القسم الثاني (البيت 20) والبيت الرابع والأربعون من هذا القسم أيضاً الذي هو قسم انتقالي، ليحصل من اجتماع هذه الأبيات كلها وحدة إيقاعية تختم القصيدة . وإذا كانت الأبيات الخمسة الأخيرة منها تفتقد إلى أبيات متطابقة داخلها أو بينها وبين الخمسة الأولى، فليس فيها مع ذلك غير بيت واحد متفرد في النص (البيت 85) في حين تتطابق الأبيات الأربعة الأخرى جميعها مع أبيات قائمة في الجزء السابق وعبره مع أبيات أخرى في القسمين الآخرين، لنتهي عند الصيغ الأكثر تواتراً فيها⁽⁵³⁾ كأن الإيقاع يحاول هنا في توازنه بين المتطابق الداخلي والخارجي للوحدة الإيقاعية الكلية للجزء إقامة التلاحم والتواصل مع بقية الوحدات الإيقاعية الأخرى بما يتلاءم ودلالة الوصل الغالبة على هذا الجزء وقسمه .

من السهولة متابعة تناسب التوزيع الإيقاعي في النص بأكمله مع التوزيع الدلالي الذي يأتي فيه، فتميز البنية الإيقاعية في تشكيلها العام على تعادل أو تكافؤ كبير مع وضع البنية الدلالية للنص وإذا جاء انتظامها في توزيع الوحدات التفصيلية أحياناً قاصراً إلى حد ما في بلوغ التطابق الكامل والدائم مع التوزيع البنيوي الدلالي، فإنه بقي إجمالاً متجانساً ومتآلفاً معه، مما وفر للقصيدة بعداً جمالياً راقياً لا شك أن اكتماله الحقيقي لا يظهر قبل إنجاز متابعة هذا التجانس والتآلف على مستويات بنيوية أخرى .

2 - البنية الأسلوبية :

في بحثنا على هذا المستوى عن البنية الخاصة التي تتمثل فيها أسلوبية النص، وعن مدى تجانسها مع البنيتين الدلالية والإيقاعية، نكتفي بتناول أهم سماتها العامة البارزة في النص .

(53) فالبيت 84 يتطابق مع 70 و 33، و 86 مع 77 ومع 14 و 8، و 87 مع 66 ومع 48 و 38 و 24 و 22 و 6 و 4، و 88 مع 68 ومع 53 و 30 و 15 و 11 و 10 .

- نلاحظ أن أول عنصر أسلوبى يفتح به النص هو عنصر بدعي يعتمد الطباق بين «محلها» و «مقامها» (وبين «غولها» و «رجامها»؟). إن تتبعنا لذلك في القصيدة بين عن افتتاح كل قسم من الأقسام الثلاثة فيها به. فبالإضافة إلى القسم الأول يعتمد القسم الثاني الطباق في بدئه بين القطع والوصل والواصل والصارم (في البيت 20)، كما يعتمد الثالث في بيته الأول بين الوصل والجذم (في البيت 55). مما يشكل إشارة أولى إلى الدور العام الذي يؤديه في النص، معبراً في ذلك عن وحدته الكلية في إطار التمايز الذي يدل عليه التماثل في العفاء بين المحل والمقام (والتأبد بين الغول والرجام في البيت الأول) مقابل الاختلاف في وضع الحياتل بين الوصل والجذم (في البيت 55)، واجتماع الاختلاف والتماثل معاً في قطع اللبنة والوصل المتعرض، وبين شر الوصل (أو خيره؟) والصرم (في البيت 20). كأن في هذا التمايز بالذات إشارة إلى تمايز أوضاع كل قسم عن الآخر، خاصة في تناقض الأول مع الأخير، ولعب الثاني دور الوسيط. كما يتضح أن الأبيات التي يأتي فيها هذا العنصر الأسلوبى تختلف من قسم لآخر في نسبتها إلى مجموع الأبيات التي يظهر فيها، مما يتيح تقديم فكرة أولية عن توزيعها العام في الأقسام الثلاثة. فالقسم الأول يتضمن خمسة طباقات تمثل في الأبيات الواردة فيها ربع مجموعة القسم تقريباً،⁽⁵⁴⁾ بينما يتضمن القسم الثاني ستة طباقات تمثل أبيتها سبع المجموع الذي يتألف منه القسم،⁽⁵⁵⁾ في حين يحتوي الثالث ثمانية طباقات تمثل بدورها حوالي ربع المجموع الخاص به.⁽⁵⁶⁾

ينم هذا التوزيع في أوليته عن التوازن العام الذي يؤلفه الطباق في النص، توازن يؤديه التسائل النسبي القائم في كلا القسمين الأول والثالث، ينهض بينهما القسم الثاني كعنصر وسيط وانتقالي. بيد أن هذا التوزيع الشكلي لا يعطي فكرة حقيقية وكاملة عن الدور الفعلي الذي يؤديه الطباق في النص. إذ أن الطباق في جمعه لمتناقضين إما أن يعبر عن مفارقة وتنافر، وإما أن يعبر عن تجانس وتماثل، بحيث تدل الحالة الأولى على صراع بين طرفيه يحول وجود أحدهما دون وجود الآخر، بينما تدل الحالة الثانية على تكامل بين طرفيه يسمح لهما بالتجاوز دون أن ينفي أحدهما الآخر. بناء لذلك يمكن النظر في الطباقات المعتمدة لمعرفة حقيقة بعدها الاستعمالي في النص، وبالتالي النفاذ إلى مرتكزات التوازن الأولى العام.

(54) الأبيات الخمسة التي يرد فيها طباق هي: 1 و 3 و 4 و 5 و 16 في القسم الأول الذي يتألف من 19 بيتاً.
(55) أبيات الطباق الخاصة بالقسم الثاني هي الستة التالية: 20 و 21 و 35 و 43 و 46 و 48، وهي ترد في مجموع أبيات القسم الثاني الذي يصل إلى 35 بيتاً (من 20 إلى 54).
(56) أبيات الطباق الثانية في القسم الثالث هي على التوالي: 55 و 56 و 70 و 72 و 74 و 79 و 82 و 85، وهي قائمة في مجموع من 34 بيتاً (من 55 إلى 88).

إن أول ما نلاحظ في هذا الإطار أن طباقات القسم الأول لا تعبر، في السياق الذي تأتي فيه، عن صراع ما، وإنما تعبر عن تعميم وعن تكامل، وذلك في جميع حالات ورودها هنا بدون استثناء.⁽⁵⁷⁾ بينما يقوم توزع متوازن في القسم الثاني بين طباقات تعبر عن مواجهة وصراع، وبين طباقات تعبر عن تماثل وتكامل. فبين الطباقات الستة التي يحتويها هذا القسم نجد ثلاثة منها تعبر عن الحالة الأولى (في الأبيات 20 و 21 و 43) مقابل ثلاثة تعبر عن الحالة الثانية (في الأبيات 35 و 46 و 48).⁽⁵⁸⁾ أخيراً نجد غلبة واضحة لحالة التناقض والصراع على التماثل والتكامل في القسم الثالث حيث ترد خمسة طباقات تنتمي إلى الحالة الأولى (في الأبيات 55 و 56 و 70 و 72 و 82) مقابل ثلاثة تعبر عن الحالة الثانية (في الأبيات 74 و 79 و 85).⁽⁵⁹⁾ كأن هذا الاختلاف الواضح في توزع الحالات الطباقية يعكس التباين القائم في أقسام النص الثلاثة، على أن الطباقات الأولى المتماثلة تشير إلى الغياب الكامل للمفرد لأي تفاعل، بحيث يتفق تجانس الطباق وتكامله مع الفصل السائد في القسم الأول والذي يهيئ محاولة الوصل فيه بالفشل التام. بينما تؤدي الطباقات الثانية دوراً متطابقاً أو متجانساً مع دور القسم الثاني في الشكل كما في النوع. فعددها الموزع بتوازن بين التماثل والصراع يعكس الدور التوسطي الانتقالي بين القسم الأول حيث تسود الحالة الأولى والثالث حيث تغلب الحالة الثانية، ويتألف كذلك مع الوضع الاختياري الذي يتمثل فيه دلاليًا. كذلك هو حال هذا القسم الثالث الذي في توزعه إلى ثلاثة طباقات في الحالة الأولى المذكورة (التماثل) وخمسة طباقات في الحالة الثانية (الصراع) لا يعكس عبر هذا التشكل ارتباطاً بكلا القسمين معاً على

(57) يشترك المحل والمقام في العفاء (البيت 1)، والحلال والحرام في الخلاء (3)، وجود دق الرواعد ورهامها في الصوب (4) وكذلك السارية والنادية (5)، ويشترك الأسباب والرمام في التقطع (16).
(58) في الأبيات الثلاثة الأولى نجد القطع والوصل، كما الواصل والصرام (البيت 20) وجبو المجالس بالجزيل وصرمه الباقي (21)، والإضاءة المنيرة في وجه الظلام (43). تعبر جميعها عن تناقض صراعي واضح بين طرفين لا يجتمعان في وحدة دلالية أولدى عنصر واحد، إنما يتواجه فيه وحدتان أو عنصران؛ عكس ما الحال في الأبيات الثلاثة الأخيرة حيث يجمع السياق الدلالي وحدتي التناقض في الطباق في إطار من التجانس والتكامل كما هو حال مصرع الغاية وقيامها اللذين يظلان معاً النبع (البيت 35)، والإرضاع والفطام اللذين يلبيان معاً صرع البقرة الوحشية (46)، وتختلف هذه البقرة وأمامها اللذين يشكلان معاً مصدر خوف لها (48).
(59) الصراع بارز في الطباقات الخمسة التالية حيث يغيب أي عنصر جامع بينها: بين الوصال والجذام (البيت 55) والترك والاعتلاق (56) والنوازل المرجوة والذم المهاب (70) والباطل المنكر والحق المباه به (72) والمهوى والحلم (82) على خلاف ما هو عليه وضع الطباقات الثلاثة الأخرى التي يشترك طرفا كل منها في وحدة دلالية مشتركة: العاقر والمطفل في بذلها لجيران الجميع (البيت 74) وفي المقسم الذي يعطي الحق ويضمه (79) وفي سمو الكهل والغلام إلى المعالي (85).

تمايز (بالتالي عبر الخمسة وبالأول عبر الثلاثة) وحسب، وإنما يؤكد أيضاً في غلبة حالة التناقض والصراع عن تلك المقدرة التي تشكل أساس التعبير الدلالي فيه، مقدرة تتعارض مع العجز السائد في القسم الأول وتمثل عبر أوجه الوصل المختلفة التي يشير إليها القسم (الثالث). تؤدي هذه الغلبة إلى إخراج مدلولات التماثل إلى وضع جديد. فإذا كان التماثل الأول يشير إلى الغياب والفصل، فإنه هنا، في ظل غلبة الصراع، يشير إلى الوصل والالتحام.

على هذا النحو يتألف التوزيع البديعي في أساسه الطباق مع التوزيع الدلالي للنص.

- بالنسبة للجانب البياني في هذا المستوى الأسلوبي يبرز التشبيه كذلك في مطلع النص دلالة على أهميته المركزية فيه. فهو يعم النص إجمالاً ويتوزع في أقسامه الثلاثة بحيث يرد خمس مرات في الأول، وسبع مرات في الثاني، وخمس مرات في الثالث⁽⁶⁰⁾ متماثلاً بذلك مع التوزيع النسبي للطبقات الذي سبقت الإشارة إليه، ومع التوزيع البنيوي العام للنص في التقابل الذي يديه بين الأول والأخير وتوسط الثاني بينهما.

لا يمكننا هنا المضي إلى التدقيق في نسبة التشبيه في أبيات كل قسم كما فعلنا بالنسبة للطباق، لأنه إذا أتاح القسم الأول والثالث ذلك فإن القسم الثاني في بعض تشابهه التي يتجاوز إداؤها البيت الواحد ليشمل أبياتاً عدة، كما هو حال التشبيه الثاني الذي يمتد لخلل أحد عشر بيتاً (من البيت 25 حتى البيت 35) والتشبيه الخامس الذي يطول ليستوعب حوالي سبعة عشر بيتاً (من البيت 36 حتى البيت 52)، وفي احتواء هذا البعض في الوقت نفسه على تشابه أخرى، كما هو حال التشبيهين اللذين أتينا على ذكرهما واللذين يتضمن كل منهما تشبيهين (في البيتين 31 و 32 بالنسبة للأول، وفي البيتين 43 و 50 بالنسبة للثاني)، يحول دونه.

لا شك أن هذا الوضع الخاص والتميز للتشبيه في النص يرفده بسمة تعبيرية على مستوى الأسلوب فريدة ويستدعي توقفاً عند ميزات تشكله.

إن التشبيه بما هو تمثيل يقوم على قرن شيء بآخر يشبهه في ناحية من نواحيه، ساعياً لم سمة أو وضع طرف ما نحو معنى بعينه بتوسط آخر، يعبر عن المعنى المراد عن طريق هذا

(60) في القسم الأول ترد التشابه في الأبيات التالية: 2 و 8 و 9 و 14 و 15، بينما يدل كل من الأبيات التالية على التشابه الواردة في القسم الثاني: 24 و 25 و 31 و 32 و 36 و 43 و 50، وتضمن الأبيات التالية تشابه القسم الثالث: 66 و 69 و 71 و 75 و 76.

الطرف الوسيط بالذات. لكن هذا الطرف الأخير لا يؤدي فقط هذا المعنى، تلك السمة أو ذلك الوضع وحده، وإنما يقدم كلاً آخر يشكل المعنى المقصود جزءاً طاعياً وبارزاً في معظم الأحيان منه. إن التحليل البنيوي للتشبيهات الواردة في النص يظهر في هذا الكل المتفرق لها وحدة جامعة توميء، إلى جانب تأديتها للمعنى المراد في كل حالة، إلى معنى آخر هو المعنى البنيوي الكامن في النص. فالتشابه الخمسة الأولى القائمة في القسم الأول تؤكد جميعها معنى الإقامة، كأن التشبيه على هذا المستوى التعبيري تعويض لواقع سيء يتجه فيها هو يؤديه إلى الإيجاء بنقيضه. وهي موزعة عبر المشبه الذي تخصصه إلى فئتين متفقتة بذلك مع التوزيع الدلالي الذي يعرفه القسم الأول في جزئه. في الجانب الأول تدور التشابه الثلاثة حول الطلل (في الجزء الأول) بينما يدور التشبيهان اللاحقان حول النساء الراحلات في هوادجهن (في الجزء الثاني). إنما في الموضعين يسعى التشبيه إلى الإيجاء بالثبات والدوام. في الأول يجري تمثيل فعل الزمن والطبيعة وأثرهما على الطلل بعملية التجديد والتكرار، بما يؤكد ثباته واستمراره. فمن جهة يكرر تمثيل الطلل بالكتابة مرة نقشاً في الحجر ومرة خطأً بالقلم في الكتب (في البيتين الثاني والثامن) كما يمثل هذا الطلل بالوشم (في البيت التاسع). في الحالات الثلاث يبرز التشبيه، فيما يتعدى الاندثار والعفاء أو جلاء السيول، جانب الاستقرار والثبات وتجديدهما. ومن جهة ثانية يبرز تشبيه النساء الراحلات ببقر توضح وطلباء وجرة، كما تشبيه الظعن المفارقة بأثل ورضام منعطفات بيثة، هذا الاتجاه، فيما يتعدى جمال النساء أو عظمة هوادجهن، إلى تمثيل المغادرة بالإقامة والانتقال بالثبات. وهنا كما هناك، في جميع حالات التشبيه، يجري التعبير وكأنه مواجهة لذلك الفصل الحاصل والمسيطر بالتزوع نحو الوصل المرغوب والمتخير.

في القسم الثاني يبدو التشبيهان المديدان وكأنها يؤديان شكلياً، باعتبارهما يؤلفان عددياً ازدواجاً يربو في هذا القسم عما هو قائم في كلا الآخرين، الدور التوسطي الخاص لهذا القسم على مستوى التشبيه البياني في الأسلوب. لكنهما يؤديان أيضاً في نوعيتهما المتميزة القائمة بشكل خاص على هذه الاستطالة والإفاضة، وعلى التضمين والاحتواء - خاصة وأن في كل منها زوجاً من التشبيه - هذه المحاولة الحثيثة للتعبير عن هذا الوضع الانتقالي باعتباره تحولاً من الفصل إلى الوصل. تأكيد ذلك قائم في اجتماع التشابه الأساسية الثلاثة (في الأبيات 24 و 25 و 36 . . .) - دون الأربعة المتضمنة في الآخرين - عند مشبه واحد هو الناقاة وسيلة الانتقال دلاليّاً من وضع إلى آخر، من الفصل إلى الوصل عبر القطع الإيجابي الذي يمضي من الابتعاد - قطع اللبانة (البيت 20) - إلى البلوغ - قضاء اللبانة (54) - من دون أي انقطاع.

إذا تتبعنا أوضاع هذه التشابيه فإننا نجد أنها تمثل هذا الانتقال محديداً وبعده الإيجابي في القطع . فالتشبيه الأول يشير، كما ألمعنا إلى ذلك أعلاه، إلى ما هو أبعد من الخفة والسرعة، إلى اتجاه بعينه تحده حركة الريح . هذا الاتجاه هو انعكاس معاكس للاتجاه الذي انتهى ظن الشاعر إلى أن المرأة اتخذته . إنه يؤدي عبر ذلك وجهة معاكسة لصرمها، نحو الوصل . أما التشبيه الثاني أو التشبيه الكبير الأول (في الأبيات 25-35) فيتحول في امتداده إلى حكاية مركبة تمرحل فيها المصاعب وتتفاعل الأبعاد الزمانية والمكانية فيها، كما تتفاعل العلاقة بين الأتان والعير، فيتم عبر ذلك سلوكهما عن أبعاد نفسية واجتماعية تتعدى الإطار الحيواني إلى الواقع الإنساني وقضاياها، ويبلغ التعبير خلال ذلك مستوى رفيعاً من الإلتقان والكثافة والغنى، كما يبلغ بعداً قصياً من أبعاد الذات الشخصية . قد تكون العلاقة بين الأتان والعير فيما يتعلق بذلك الانتقال الذي يبدأ به التشبيه وذلك الذي يفضي إليه هي الأكثر دلالة هنا عما نتناوله . ففي الحالتين يبدو العير هو الذي يقود الأتان (في البيتين 26 و 33)، وتشير الحالة الثانية إلى أن له طريقة خاصة في ذلك إذا ما شاب تجاوب الأتان تلك أو تأخير . كأن هذا التشبيه ينم عن ذلك الأسف الذي يملك الشاعر إذ لم يقد نواره على هذا النحو، مستخلصاً إياها من عشيرتها كما استخلص العير أتانها بالعنف (البيت 25) . فنجاح هذا الانتقال المزدوج لهذا الزوج الحيواني يمثل ما هو أبعد من بيان قوة وشدة تحمل الناقة، قطعاً إيجابياً تكمن فيه رغبة الشاعر غير المصرح بها والموهبة بموقف آخر مختلف . ويكاد التشبيهان الأخران القائمان فيه يكونان واحداً لاعتادهما المشبه نفسه ووجه الشبه ذاته مع اختلاف بسيط في وضع المشبه به، اختلاف يشير إلى احتدام المعنى في الصورة وتناميه وتطويره . ربما كان لذكر ربح الشمال هنا ما يساعد في تحديد وجهة الحركة التي يمضي فيها الأتان والعير، والتي عنها يتولد هذا الغبار موضوع التشبيه . فلا يمكن للصورة المتكونة هنا أن تتقدم قوية ومعبرة إلا إذا كانت حركة النار مواجهة لحركة الريح، ويمكن القول أنه بقدر ما تكون المواجهة متقابلة ومتعكسة وعنيفة كلما كان الالتهاب والاشتعال أقوى والغبار أشد وأكثف والصورة بالتالي أحلى وأجمل . على هذا الأساس تبدو ربح الشمال هنا معاكسة لاتجاه حركة الأتان والعير اللذين يرجح اتجاههما بناء لذلك شمالاً أي في الواجهة المعاكسة مبدئياً للوجهة التي اتخذتها نوار دون الشاعر، أي أخيراً باتجاه معاكس للفصل والصرم، باتجاه الوصل والالتحام . هذا ما يتأكد في المآل الذي تنتهي إليه الحركة باعتباره مكان وصول للهدف وتحقيقاً للحاجة والرغبة . وإذا كانت قوة التشبيه تصل في المراد الأول - السطحي - أقصاها عند هذه النار الساطعة الأستام (البيت 32) المعبرة عن زخم الحركة القصي عند نقطة تمثل أوج المعاناة التي بدأت من اعتلاء منحنيات التلال (البيت 25) مروراً بالجزء ستة أشهر وصولاً إلى أذى

الشوك وحر الصيف، فإنها تمثل أيضاً في المراد الثاني - البنيوي - هذا اللمب المحتدم لوصول نجد في النبع المسجورة ما يطقته .

التشبيه الأساسي الثالث أو التشبيه الكبير الثاني (في الأبيات 36-52) يتناول ويمتد أكثر من سابقه (الكبير الأول) كأنه يميل في هذا التطاول المترابيد إلى تأكيد وجهة التعبير في النص الممتد نحو التواصل كلما أمعن في التقدم نظماً. كما يصبح التعبير القائم فيه كتمثيل للانتقال والقطع الإيجابي أشد عمقاً وحسباً إذ يبرز بوضوح أكثر من السابق باعتباره خياراً بين الموت والحياة. ومن الموت إلى الحياة يحكي هذا التشبيه مسيرة البقرة الوحشية في عملية القطع الإيجابي التي تمارسها، والتي تتعدى التعبير عن قوة التحمل والجلد وحيوية البطش والعنف لدى الناقة، في إطار قصصي أكثر غنى وتعقيداً من السابق. إذ تتعدد شخصياته وتتداخل متفاعلة باضطراب قوي فوق ساحة مكانية أكثر محدودية، وفي إطار زمني أكثر حصرماً من التشبيه الكبير الأول. ينشأ عن هذا التكثيف في التعبير والدلالة أثر إبداعي عظيم لا تحتزل أبعاده في تلك المحاور التي ألمحنا إليها، وإنما أيضاً تتعدد وتتشعب لتوحي بأبعاد إنسانية وشخصية أعمق غوراً وأشد إثارة. من الغياب القاتل سلبياً إلى الحضور القاتل إيجابياً يرسم هذا التشبيه الوضع الانتقالي الإيجابي القطع الذي يشكل الأساس البنيوي للتعبير. وبين تتبع هذا التطور في النص عن وجود تشبيه داخلي متضمن في كل من الموقعين، الأول يجتم الغياب، والثاني في ذروة الحضور، كنوع من التشديد على هذه الوجهة الانتقالية المذكورة. ففي جانب الغياب القاتل جهل ومسعى غير مجد، وتوجه مناقض للواقع باعتباره بحثاً عن غير موجود. وهذا ما يؤديه التعبير برهافة عالية في الإشارة إلى قتل الفريير من ناحية وإلى المطر الغزير من ناحية ثانية، كما يؤديه التشبيه الداخلي الأول (البيت 43) الذي يأتي، فيما يتعدى الإلماع إلى جمال البقرة الوحشية مبللة في ليل المكان، ليؤكد فرادتها وتناقض وضعها مع الوضع المحيط. وإذا كان الزمن المهدور والطاقة المبذولة موظفين في إطار الوجه المعلن من التشبيه، فإنها يردان أيضاً توطئة لذلك الامتحان الشديد الذي ستعرفه مع الصيادين وكلاهم والذي سيكون امتحاناً بين الموت والحياة في حضور مكثف لأكثر من طرف. وهو امتحان لا تتجاوزه إلا بتلك الوسيلة التي تحمل أصداء الحرب والقتال كما يؤديها التشبيه الخاص بقرنها (البيت 50) وهو التشبيه الداخلي الثاني الذي يأتي في سياق من المواجهة الحادة بين البقرة وبين الصيادين وكلاهم. وإذا جاء القتل خاتمة هذا التشبيه فليشير إلى أكثر من عنف ووحشية البقرة، إلى ذلك الحد المأساوي الذي يواجهه التحدي بين الفصل والوصول، بين القتل والحياة، بين الجمود والانتقال. ويكون بذلك انتصار البقرة في الاستمرارية، انتصاراً لانتقالها ووصولها، فيما يتخطى الإشادة بقوتها وبأسها.

عل هذا النحو تتألف التشابيه في أبعادها البنيوية العميقة وفي توزعها البنيوي العام مع معطيات القسم الثاني الدلالية والإيقاعية التي سبقت الإشارة إليها.

أما في القسم الثالث فأول ما يلفت الانتباه اجتناع التشابيه الخمسة التي يتضمنها في الجزء الأول منه الخاص بالتعريف الفردي (في الأبيات 55-77) في حين يخلو الجزء الثاني الخاص بالتعريف الجماعي (78-88) من التشابيه خلواً تماماً. وهذا وضع جديد لم يعرفه القسبان السابقان، وهو إن دل على شيء فربما على أن هذا الوصل المتجسد في التعبير الجماعي الخاص بالجزء الثاني لا يحتاج إلى هذه الوسيلة التوسيطية التي يؤديها التشبيه في النص ليعلن نزعته نحو الوصل، فهذا الأخير معطى مباشرة في هذا البعد الجماعي الطاغوي في الجزء المذكور. إن التشابيه الخمسة الواردة في الجزء الأول المذكور تؤدي ما سبق للتشابه السابقة أن قامت به من محاولات التأكيد على الوصل بأشكال مختلفة، وتتجاوز ذلك إلى الكشف عن علاقة خاصة تميز هذا الوصل بالذات. فالتشبيهان الأولان خاصان بفرس الشاعر (في البيتين 66 و69) يمثلها الأول بالنخلة العالية العظيمة، والثاني بالحمامة الجادة في الإيراد، وكلاهما يشددان على الوصل ككل على طريقته فيما يتعدى الضخامة أو الارتفاع من ناحية والخفة والسرعة من ناحية ثانية. فالأول ينزع بها نحو ذاك العنصر الثابت والمستقر بقوة (النخلة...). والثاني إلى هذا السعي الحثيث ضمن الجماعة نحو البلوغ والوصول كأفضل ما يكون الوصل طريقاً وهدفاً. ويؤكد التشبيهان اللاحقان (في البيتين 71 و75) بعد الثبات والإقامة بشكل قوي وذلك، فيما يتجاوز تمثيل الأول للعظمة والرهبة والثاني للعطاء والكرم، عبر اعتماد التعبير في كل منها لاسم مكان علم معروف (البدني وتباله). ولما كان المشبه الأول غرباء ومجهولين، وبالتالي موضوع انقطاع، فإن التمثيل يأتي لجعلهم، دون أن يلغي صفتهم هذه، معروفين محددين، وبالتالي موضوع اتصال لا انقطاع. ولما كان المعنى بالثاني الضيف والجار الجنب، وبالتالي موضوع عبور وانتقال، فإنه جعل العطاء لها بمثابة موطن إقامة واستقرار واتصال مستديم. أما التشبيه الأخير (في البيت 76) فتمتيز عن جميع ما سبقه من تشابيه وإن كان مماثلاً لها في الدلالة المزدوجة القريبة والبعيدة التي يتضمنها. فعدا عن كونه تمثيلاً للمرأة الفقيرة المعذمة، يعطي هذا التشبيه بعداً مطلقاً للاتصال حتى أنه يتخطى الحياة إلى الموت، بالغاً في ذلك أقصى حالاته من الارتباط والالتحام. لذلك لا يبدو مستغرباً عند هذا الحد الذي يبلغه أن يشكل آخر تشبيهه وارد في النص. لكنه في الوقت نفسه يتخطى حدود المقطع والقسم الذي يرد فيه ليقيم صلة ذات دلالة عميقة بالقسمين السابقين عبر أهم التشبيهات فيها، وذلك تحديداً لقرنه المرأة بالنافقة هنا. فهو بذلك يفضح وضعا كانت التشبيهات تكتمه، وهو خاص بعلاقة التماثل بين الطرفين، مما يدفع إلى قراءة النص بأكمله

مجدداً على ضوء هذا التماثل، ويتيح بذلك رؤية اعتماد القسم الأوسط للتشبيه المديد تعبيراً عن تلك العلاقة الخاصة بالمرأة كما يوهها الحديث عن الناقة.

يبدو مجيء هذا الكشف في القسم الثالث نتيجة جدلية للطرح القائم في كل من القسمين السابقين، فإذا كان الأول قد شبه المرأة بالبقرة الوحشي (البيت 14)، وإذا كان الثاني قد شبه الناقة بدوره بالبقرة الوحشي (البيت 36) فإن تمثيل المرأة بالناقة (البيت 76) يصبح استنتاجاً متوقفاً، ومثله تمثيل الناقة للمرأة (الموحى به).

هكذا يتألف إلى حد بعيد الوضع البيوي العام للتشبيه كما تشكل الخاص الذي يتخذه في النص مع الوضع البيوي الدلالي العام وتشكله، ويتضافر مع المستوى الإيقاعي في تأكيد قسائه المتنايزة.

- لا تشذ الأوجه الأسلوبية الأخرى المعتمدة عما لاحظناه سابقاً بصدد الطباق والتشبيه من تأكيد لتكامل النص وتجانس مستواه الأسلوب مع المستويين الدلالي والإيقاعي بنيوياً. ليس لنا إلا أن نتابع أوضاع الاستعارة (والمجاز) والكناية للثبوت من ذلك. وإذا اكتفينا بالإلماع السريع إلى هذه الأوضاع فإننا نشير إلى أن القسم الأول يخلو من أي كناية، في حين أنه يتضمن بعض الاستعارات البسيطة تشكل الأبيات التي ترد فيها حوالي سبع مجموع أبيات القسم بأكمله.⁽⁶¹⁾ ويحتوي القسم الثاني، إلى جانب بعض الكنايات فيه تشكل نسبتها تسع المجموع، مجموعة مهمة من الاستعارات تكاد تشكل ربع المجموع.⁽⁶²⁾ ويتضمن القسم الثالث عدداً مهماً من الكنايات تشكل حوالي خمس المجموع وعداداً أهم من الاستعارات تكاد تشكل ربع المجموع⁽⁶³⁾. كأن مسار الكناية والاستعارة في النص يتبع خطاً متصاعداً من الغياب إلى الحضور، من الفصل إلى الوصل. وتبدو الكناية القائمة على ذلك المزج الملتبس بين البعيد والقريب، ملائمة للتعبير عن الوصل في أوجهه المختلفة دون القطع، فتغيب نهائياً عن القسم الأول وتظهر في الثاني، لتعرف وجودها الأقوى والأشد في الثالث. كما تظهر الاستعارة لونها من النزوع إلى الوصل أشد رهافة من التشبيه بقدر ما هي أشد اختصاراً وبلاغة (أو بلوغاً) في التعبير منه. على هذا النحو تواجه فصلاً قائماً في القسم الأول، وتحيق

(61) هذه الاستعارات قائمة في الأبيات: 10 و 12 و 16.

(62) تقوم الكنايات في الأبيات الأربعة التالية: 22 و 38 و 46 و 52، وتشغل الاستعارات الأبيات الثمانية الآتية: 20 و 21 و 31 و 39 و 43 و 46 و 47 و 53، من مجموع أبيات القسم الثاني الذي يبلغ 35 بيتاً.

(63) نجد الكنايات الخاصة بهذا القسم الثالث في الأبيات السبعة التالية: 61 و 63 و 70 و 77 و 81 و 84 و 86، أما الاستعارات ففي الأبيات الخمسة عشر التالية: 55 و 56 و 57 و 58 و 62 و 65 و 68 و 76 و 77 و 78 و 80 و 82 و 83 و 85 و 87؛ علماً أن هذا القسم مؤلف من 34 بيتاً.

أوجه القطع الذي يتضمنها القسم الثاني بإيجاءات متعددة من الوصل، وتتميز في القسم الثالث، خاصة في جزئه الثاني، حيث تؤدي الوصل بأمتن صيغته.

هكذا تتضافر الكناية والاستعارة مع التشبيه والطباق على المستوى النبوي للأسلوب لتؤدي وتكرس ما يتم التعبير عنه على المستوى النبوي للدلالة والإيقاع.

3- البنية النحوية:

قد يكون من المناسب للنظر في الوضع النبوي للتعبير على المستوى النحوي لهذا النص البدء في تملي الوضع العام للجمل المعتمدة فيه لتلمس مظاهر الوصل والفصل فيها. ضمن هذا المنظور يبدو الفصل قوياً في القسم الأول، بينما يتمتع القسم الثاني بوصل يكاد يعمه جميعاً، وتبدو غلبة الوصل واضحة في القسم الثالث، بما يتفق إجمالاً مع التوزيع النبوي للدلالة والإيقاع والأسلوب. وقد تتيج متابعة أوضاع الفصل والوصل في هذه الأقسام رؤية نواحي هذا التوافق بشكل أوضح.

- فالقسم الأول يحفل بأوجه متعددة للفصل بارزة. إذ نجد البيت الثالث منفصلاً عما سبقه، لكن الفصل هنا شكلي وذلك لتواصل المعنى المعبر عن الحراب الذي حل بالمنازل. وهو مغاير للفصل القائم في البيت الرابع والذي يتجه بالتعبير نحو الحصب الذي حل في المكان. كما أنها مغايران للفصل البادي في البيت العاشر تملنه فاء الاستئناف إذ تقطع المعنى السابق لتطلق معنى جديداً لا يلبث أن يتبع باستئناف آخر (بالواو) يضيف قطعاً إلى آخر. هذا الاستئناف الأخير نجده أيضاً في البيت الحادي عشر. أما البيت الثاني عشر فإنه يعلن فصلاً في الشكل والمعنى، وذلك بشكل آخر من الفصل يتمثل بعطف شكلي يؤدي فصلاً بقدر ما يشكل استدراكاً وتحولاً وانقطاعاً عما سبق⁽⁶⁴⁾.

في هذا الفصل المتردد نجد تناسباً مع التوزيع الإيقاعي والأسلوبي الخاص بهذا القسم، خاصة في ذلك التوجه نحو الفصل في البيت العاشر، هذا البيت اللولبي الذي يجيء الاستئناف فيه دامغاً للفصل الذي يسمه، وفي تماثله مع البيت الحادي عشر باعتياد الفصل الداخلي (بالواو)، وهما البيتان اللذان ينتهي إليهما الجزء الأول دلاليًا وإيقاعياً. كما يتفق الفصل القائم في البيتين الثاني عشر والسادس عشر مع التوزيع الدلالي والإيقاعي الذي يتخذه الجزء الثاني ويؤيده.

(64) يقول الزوزني في تعليقه على البيت: «ثم أضرِب عن صفة الديار ووصف حال احتيال الأحباب بعد تمامها وأخذ في كلام آخر من غير إبطال لما سبق. بل، في كلام الله تعالى، لا تكون إلا بهذا المعنى، لأنه لا يجوز منه إبطال كلامه وإكذابه...» شرح المعلقات السبع للزوزني ذكر سابقاً، ص 134.

من الواضح أن فاء الاستئناف تعلن قطعاً حاداً في البيت العشرين ينحوبه بعيداً عما سبقه، مشيرة بذلك إلى بدء القسم الثاني. وإذ تترابط جمل هذا القسم نحوياً بالفعل الأول الذي يطلقه فإنه لا يعرف غير فصل واحد قائم في فاء استئناف أخرى في البيت الثالث والخمسين، لا تعلن في الحقيقة قطعاً بقدر ما تعلن صلة. فهي إعلان لاستعادة من جديد لبداية التعبير الذي طال اتصاله، بحيث جاء القطع هنا شكلاً لوصل فعلي. هذا الوصل في تجده وثانيته يتلاءم مع الوضع التوسطي للقسم الثاني، ومع الدور الفعلي الذي يؤديه في تعارضه مع القسم الأول وانحيازه إلى القسم الثالث.

إن الفصل واضح بين القسمين الثاني والثالث حيث يأتي العطف بـ «بل» داخل القسم الأخير يعلن توافقاً مع ما سبق أكثر مما يدل على فصل، لتتابع الأبيات اللاحقة في وصل شكلي غالب ومعنوي أحياناً. فإلى جانب العطف المتكرر بالـ «واو» الذي تحدد مواقعه التوزيع الداخلي للجزء الأول في هذا القسم بوضوح إذ تعين مطالع مقاطعه المختلفة وتسم بدء آخر بيت فيه، مما يشكل تطابقاً عالياً مع المستويين الإيقاعي والدلالي، تتجاوز معظم الأبيات الأخرى في التحام نحوي متين. بيد أن فصلاً قائماً بين الجزء الأول والجزء الثاني من القسم الثالث يديه البيت الثامن والسبعون، وهو فصل يبدو أقرب إلى الاتصال المعنوي بقدر ما يتضافر مع الجزء الأول ويؤكد، خاصة في استكمال التعريف بالذات الجماعية بعد الفردية. كأن هذا التأكيد يأتي من خلاله أبلغ، أو كأن الحضور الجماعي لا يحتاج إلى وصل خارجي. وعلى كل حال فإن هذا الفصل الشكلي يتفق مع التمييز الدلالي والإيقاعي والأسلوبي بين الجزئين، كما يتفق مع هذا التمييز ذلك الفصل القائم في البيت الأوسط فيه (البيت 83)، في حين تأتي الأبيات الأخيرة مفعمة ببعد وصلي قوي ومتميز تختم به كامل النص عبر هذا التكرار الذي يسمها («وهم . . .»).

- إن أوجه التطابق التي لوحظت حتى الآن محدودة، لكن أوجه التماثل والتجانس قوية غالبية. بيد أنه لا يمكن الاكتفاء بهذا الوجه من البنية النحوية، وهو وجه على كل حال أولي، ومن المفترض البحث في جانب أسامي ومهم في البنية المذكورة وهو ذلك الخاص بالخبر والانشاء.

في هذا الجانب يمكننا أن نلاحظ أولاً البدء الخاص بكل قسم من الأقسام. فالأول منها يفتتح بجملة خبرية على خلاف كل من القسمين الثاني والثالث اللذين يفتتح كل منهما بجملة إنشائية تعبر عن التعارض القائم بين هذين القسمين والقسم الأول، ولكنها تعبر أيضاً في تمايزها في القسم الثالث عنها في القسم الثاني عن التمايز في التماثل الذي يجمعها. قد يكون في

ارتباط الخبر بالغياب والإنشاء بالحضور إجمالاً ما يؤكد علاقة القسم الأول بالفصل مقابل ارتباط القسمين اللاحقين بالوصل؛ وإذ يبقى موضوع الإنشاء في مطلع القسم الثاني عاماً، والمخاطب المقصود فيه متردداً بين المطلق والمتكلم، فإن هذا الموضوع، مع بقاء وضع المخاطب على حاله، يصبح محددًا في مطلع القسم الثالث. وإذا كانت هذه النظرة الأولية تعطينا فكرة تؤكد ما سبق وذهبنا إليه من توزيع بنوي للنص، فإن الدلالة الفعلية لاعتقاد الخبر والإنشاء لا تتوضح إلا من خلال البحث في العلاقة المحددة التي ترتسم بينهما في النص وفي كل قسم منه. ولما كان الخبر هو الغالب على النص، فإن تفحص الإنشاء فيه، وهو محدود، كفيل بإعطائنا صورة أولية عن هذه العلاقة.

أول صيغة إنشائية نلتقيها تأتي - خلافاً لجميع الصيغ الإنشائية الأخرى - متضمنة داخل بيت شعري واحد (العاشر) فلا تستحوذ إلا على قسم منه. وهو البيت الذي سبق ولاحظنا أهميته على المستوى الدلالي والإيقاعي والأسلوبي وكذلك النحوي من زاوية الفصل والوصل فيه. إن الصيغة الإنشائية المعتمدة هنا استفهامية مثلها مثل الصيغة الإنشائية الأخرى القائمة في القسم الأول أيضاً (في البيت 16). والصيغتان لا تتماثلان في الاستفهام فقط، بل إنهما تتماثلان أيضاً في الاستعمال الخاص الذي يعرفه الاستفهام في كل منهما، فيتبايز في كل حالة عن الأخرى بما يتناسب مع موقع كل منهما في واحد من الجزئين اللذين يتألف منهما القسم يختلف عن الآخر. إن كلا من هذين الاستفهامين لا يطرح بغرض تلقي جواب يفيد عن أمر يجمله السائل، وبالتالي لا يشكل استفهاماً طلبياً. فالأول منها أقرب إلى التعجب منه إلى أي شيء آخر خاصة وأنه مطروح بهذه الصيغة الجماعية للمتكلم، أما الثاني فأقرب إلى الاستنكار منه إلى السؤال، خاصة وأنه يأتي بعد ما تم تذكره بصدها ليركز على الابتعاد الذي أضحت عليه المرأة. يضيف هذا الوضع على الصيغة الإنشائية المعتمدة في القسم الأول طابعاً غير طلبى يتفق في وجه من وجوهه مع الفصل المسيطر عليه، والذي لا يتيح إمكانية انفتاح على معطى آخر، وبالتالي إمكان اتصال به، فلا يستدعي السؤال مجيباً بقدر ما يشير رأياً ويعلن موقفاً ينتهي عنده.

يقابل هذا الوضع غير الطلبى للإنشاء في القسم الأول وضع طلبى واضح للإنشاء في القسم الثاني. فالجملتان الإنشائيتان الأوليان القائمتان في مطلعته (في البيتين 20 و 21) تعتمدان صيغة الأمر الطلبى الحاسم. وهما تتميزتان عن الصيغة الإنشائية الثالثة القائمة في هذا القسم (في البيت 36) والتي تعتمد الاستفهام. لكن هذا الاستفهام بدوره طلبى لأنه يطرح سؤالاً يفترض إجابة عنه، بناءً للتخيير بين طرفين يضعهما الواحد إزاء (تلو؟) الآخر (الأتان والبقرة الوحشية). بذلك يتميز هذا القسم بطابع الانفتاح على معطى آخر يتيح

تصور شكل من أشكال الاتصال به . وإذا كان الأمران يفترضان إجراءين متناقضين فإن الاستفهام يتقدم عبر متناقلين . يمكن لنا أن نجد في هذا الوضع المزدوج رجماً للدور التوسطي الذي يؤديه القسم الثاني، وفي مجيء كل طرف إنشائي في مطلع جزء من الجزئين الكبيرين اللذين يتألف منها القسم مجانساً وتآلفاً مع التوزيع البنيوي الدلالي والايقاعي والأسلوبي . لكن ما هو أكبر أهمية من ذلك ملاحظة توجه سياق هذا القسم، بناء لهذا الوضع، من القطع الذي يتمثل في التناقض إلى التواصل الذي يتجسد في التماثل، ليؤدي الدور الانتقالي الذي تكررت الإشارة إليه من الفصل (في القسم الأول) إلى الوصل (في القسم الثالث) . وفي ذلك كله يتبين التجانس الكبير الذي يتكون في النص بين مستوياته المختلفة .

يتضمن القسم الثالث جملتين إنشائيتين ليؤكد الدور التوسطي - الانتقالي للقسم الثاني على الصعيد العددي في ما يقيمه هو من مقابل متوازن مع جملي القسم الأول . لكنه يؤكد أيضاً توازن التوزيع البنيوي داخله حيث تأتي كل من هاتين الجملتين في واحد من الجزئين اللذين يكونانه . إن صيغة الجملة الأولى فيه (في البيت 55) استفهامية طلبية على خلاف ما هو قائم في القسم الأول، وإنما أيضاً على تمايز عن ذلك الموجود في القسم الثاني . ففي حين يطرح هذا الأخير خياراً بين متناقلين، يطرح الأول (القسم الثالث) مسألة معرفة اجتماع القضيضين . وإذا كان سؤال البيت السادس والثلاثين يتناسب مع الدور التوسطي الانتقالي للقسم الثاني والتوزيع البنيوي الدلالي - الايقاعي فيه، فإن سؤال البيت الخامس والخمسين يتناسب مع هيمنة الوصل البارزة في القسم الثالث، ويأتي عمداً في بيتين (55 و 56) مضيفاً شكلاً متميزاً إلى وضعه المتميز عن بقية صيغ الاستفهام الأخرى في النص .⁽⁶⁵⁾ وهو أخيراً، على خلاف ذينك اللاطليبيين في القسم الأول، وذلك القائم في القسم الثاني يخير بين طرفين أحدهما سابق والآخر لاحق عليه، يأتي جوابه بعده في ذلك التعريف الذي يسعى فيه النص للشاعر ولقومه، فيجد الطلب جوابه في النص نفسه تدليلاً على هذا الاتصال المسيطر في القسم الثالث .

أما الجملة الثانية في هذا القسم (في البيت 83) فتأتي بصيغة الأمر الطلبي، إلا أن هذا الأمر يختلف عن ذلك الذي لاحظناه في القسم الثاني . فعداً عن أن المقصود المرجح في هذا

(65) قد يكون التمييز بين الاستفهام التصوري (لطلب التصور) والاستفهام التصديقي (لطلب التصديق) معياراً يعتمد كذلك لتمييز هذا الاستفهام الوارد في القسم الثالث عن تلك الواردة في القسمين الأول والثاني . فهذه الأخيرة جميعها تصورية، على خلاف الأول (في الثالث) التصديقي (راجع جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع تأليف السيد المرحوم أحمد الهاشمي، الطبعة الثانية عشرة المعدلة مطولة منقحة . . . بيروت، دار إحياء التراث العربي، د . ت . ص 86-87).

الأخير هو الذات، في حين أن المقصود المرجح في الثالث هو الآخر، فإن الطلب القائم في الثاني (في حالتيه) يفترض فعلاً أو إجراء يقدم عليه المخاطب، في حين أن الطلب الوارد في الثالث يفترض تحديداً عدم القيام بأي فعل أو إجراء. فالقناعة بما هي قبول وموافقة تجرد في صيغة الأمر هذه تعبيراً عن وصل قائم ودعوة للمحافظة عليه أفضل من أي صيغة أخرى. وإذا لاحظنا أنها تقع في البيت الأوسط من الجزء الثاني فإنها في الوقت الذي تمتد دلالتها إلى ما قبلها بقدر ما تمتد إلى ما بعدها، مؤكدة عبر هذا الامتداد المجال الذي يحيل الطلب إليه، تتفق وتتألف مع التشكل الخاص الذي يعرفه هذا الجزء على المستويات الأخرى، مشيرة إلى وصل يتضافر مع آخر على مستويات عدة.

- أخيراً قد يكون تفحص أوضاع الضمائر في النص مناسبة لاستكمال تفحص بنيته النحوية ومدى تماسك هذه البنية وتناسبها مع غيرها في بقية المستويات.

الملاحظ هنا أن ضمائر الغائب مسيطرة على القسم الأول من النص، في حين أن ضمير المخاطب المفرد يفتتح القسم الثاني ويحكم التعبير فيه، ويبرز ضمير المتكلم في آخره، بينما يسود ضمير المتكلم القسم الثالث مفرداً في جزئه الأول وجمعاً في جزئه الثاني. تعطيتنا إذن هذه النظرة الأولى العامة فكرة أولية عن استعمال للضمائر يجسد علاقة الفصل والوصل في النص كما هي متمثلة في توزيعها البنيوي في الأقسام الثلاثة. فالغائب يبدو هنا متفقاً مع الفصل المسيطر على الأول، بينما يؤكد التحول من المخاطب إلى المتكلم الدور الوسيط للقسم الثاني، وتؤكد هيمنة المتكلم هيمنة الوصل في القسم الثالث.

يسمح التدقيق في أوضاع الأقسام التفصيلية بتبين المزيد من الخصوصية في هذا التوزيع العام. ففي القسم الأول يبرز البيت العاشر - مجدداً - كأول بيت يأتي بضمير يخرج عن ضمير الغائب المؤنث السائد حتى مجيئه. إن الضمير الأول الذي يأتي به هو ضمير المتكلم المفرد الذي يثبت ظاهراً أولاً ثم يقدر مضمراً ثانياً. وهو متبوع مباشرة بضمير الغائب المؤنث، كأن في ذلك إشارة للعلاقة الحميمة التي تربط الضميرين ببعضهما. لكن هذا التجاوز يبدي تعارضاً حاداً بين الضميرين حيث أن الأول مفرد مذكر متكلم (حاضر) عاقل، إزاء آخر جمع مؤنث غائب غير عاقل، (باعتبار أن الـ «هاء» تمثل السطول هنا) يمكن اعتباره صورة عن ذلك التناقض القائم بين الأطلال في كونها تجسيدا للغياب والانقطاع، وذات الشاعر في كونها تجسيدا للحضور والاتصال.

إلا أن الشطر الأول يضم ضميراً ثالثاً هو ضمير جمع المتكلم العاقل وتبدو علاقته بضمير جمع المؤنث الغائب غير العاقل مماثلة للعلاقة الأنفة الذكر بين المتكلم المفرد والغائب

المؤنث. وإذا يقتصر حضور ضميري المتكلم (المفرد والجمع) على هذا البيت (العاشر) من القسم الأول، فقد يكون في ذلك إشارة إلى توافقها وإعلان ضمني في وسط القسم، في هذا البيت اللولبي على أكثر من مستوى، للعلاقة التي تربط الذات وبعدها الجماعي بذلك الغائب المؤنث. كما قد تكون تلك النسبة العددية بين ضميري المتكلم إشارة إلى ذلك البعد الشخصي الغالب في تلك العلاقة، وربما أيضاً إلى المدى المزدوج الذي يحتله ضمير المفرد المتكلم بالنسبة لضمير جمع المتكلم في النص مؤذناً بالتوزيع الذي سيرهه القسم الثالث.

في البيت اللاحق (11) يبرز ضمير جديد مختلف عن ضمير الغائب المؤنث هو ضمير الغائب المذكر. ويبدو متآلفاً معه، بل إنه يؤلف وإياه في الشطر الأول مقابل متعارضاً مع الشطر الأول للبيت السابق (10) حيث أن ضميرين للغائب المؤنث يردان تبعاً، مضمراً ثم مثبتاً، قبل مجيء ضمير جمع الغائب المذكر. ويظهر هذا التعارض أكثر حدة في مجيئه في بيتين متطابقين إيقاعياً، كأنه حصار يحيق بالحضور ويقطع صلاته مؤكداً الغياب والانقطاع. يتناسب هذا الدور كذلك مع موقعه إذ يأتي في نهاية الجزء الأول من القسم الأول.

يبرز في الجزء الثاني من هذا القسم ضمير مختلف آخر خاص بالمخاطب المفرد المذكر، وذلك في موقعين كل منهما مطلع مقطع خاص ضمن هذا الجزء كما سبق ومر معنا دلاليًا وإيقاعياً. الموقع الأول في البيت الثاني عشر (في الشطر الأول) حيث يجتمع هذا المخاطب مع ضمير الجمع الغائب المذكر. لكن هذا الاستعمال للضمائر هنا هو أقرب إلى المجاز منه إلى الحقيقة، فضمير المخاطب المفرد المذكر يحل مكان ضمير المتكلم المفرد ويؤدي دوره، كأننا في ذلك إزاء تحايل نحوي - ودلالي - على الانقطاع الذي أصاب ضميري المتكلم في البيت العاشر وامتداده في البيت الحادي عشر، في محاولة للاتصال بذلك الغائب المؤنث عبر التباعد الذي يعتمد عليه. لكن حلول ضمير جمع الغائب المذكر مكان ضمير المؤنث الغائب يقيم انقطاعاً جديداً أبعد من الأول. في التحول الأول تعبر السيات المشتركة بين الطرفين المستبدل أحدهما بالآخر عن الوصل الذي يحكمه،⁽⁶⁶⁾ مقابل تعبير السيات المتعارضة بين طرفي استبدال التحول الثاني عن الفصل الذي يسوده، والذي يؤكد التكرار غلبته⁽⁶⁷⁾.

(66) ذلك أن كلاً من المتكلم والمخاطب هنا هو مفرد ومذكر.

(67) إذ إن اعتماد جمع المذكر الغائب يبدو نافرماً ليس في علاقته بضمير المخاطب، وليس في علاقته بالضمير المؤنث الذي حل محله وحسب، بل أيضاً في هذا الاستعمال الذي يجري فيه كما تدل على ذلك حالة وروده الثانية (تنكسوا...) حيث لا يصبح مبدئياً - أو حقيقة - ورود احتمال التذكير فيها.

الموقع الثاني حاضر في البيت السادس عشر حيث يجتمع ضمير المخاطب المفرد المذكر مع ضمير الغائب المفرد المؤنث العاقل . وهذا الأخير يجيل لأول مرة إلى المرأة التي كان ضمير التأنيث يلمح إليها عبر الديار والطلول والظعائن . لكن الذات تبقى متوسلة لضمير المخاطب المذكور مؤكدة للتباعد القائم بينها وبين نوار المعنية بضمير التأنيث الغائب مشيرة إلى الانقطاع المستمر في العلاقة بينهما، بدعمه اختلاف الصيغتين الفعليتين اللتين يأتیان فيهما (المضارع للأول والماضي للثاني) كما تدعمه صيغة التقدير (الإضمار) هذه التي يأتي فيها مقابل صيغة الإثبات (الحضور) القائمة في البيت الثاني عشر، كأنها إشارة إلى مزيد من التباعد والانقطاع . وإذ يتكرر الضمير المؤنث للغائب في البيت فإنه يعلن سيطرة لهذا الغياب المؤنث الذي يعم بوضوح في بقية الأبيات مكرساً انفصلاً واضحاً .

أما القسم الثاني فيبدأ بضمير المخاطب المذكر المفرد ويكرره (في البيتين 20 و 21) . يبدو هذا الضمير استمراراً لذلك القائم في القسم الأول، وهو ينتهي باعتقاد ضمير المتكلم المفرد المذكر، كأنه إرهاب بما سيسود في القسم الثالث . ولما كانت ذات المتكلم هي - على الأرجح - المعنية في مخاطب المطلع هنا فهي تبدو مكونة للإطار الكلي للقسم بأكمله؛ كما تأتي الصيغتان المعتمدتان مناسبتين للدور التوسطي الذي يقوم به هذا القسم بحيث تتصل الأولى بتلك السابقة عليها في القسم الأول، وتتصل الأخيرة بتلك اللاحقة عليها والمهيمنة على الجزء الأول من القسم الثالث . وقد يكون تكرار ضمير البدء تأكيداً على تواصله بما سبق ولاحظنا تكراره في القسم الأول (في البيتين 12 و 16) بينما يشكل ضمير النهاية (في البيت 54) مطلع تلك السلسلة التي تمتد إثره في القسم الثالث . إنما يجاور ضمير البدء ضمير الغائب المفرد المذكر في حالتي التكرار اللتين يأتي فيهما . وإذا لم يكن من الممكن الحسم في أن هذا الغائب يدل، في عملية استبدال يتكرر لجوء النص إليها، على المرأة الغائبة، فإن تضمينه الدلالي عليها أكيد على كل حال . في هذا التضمين تحول جديد يزيد من انقطاع المرأة وفصلها بما يتفق مع الموقف الجديد المعلن في هذا القسم؛ ويقوي من هذا البعد التضميني اتصال الضمائر الأربعة المتعاقبة نحوياً (في البيتين 20 و 21) بأربعة ضمائر مؤنثة للغائب، غلبة المفرد فيها واضحة وإن كانت تدل جميعها على غير العاقل (في البيت 22) . وغير خفي أن هذا الاتصال النحوي يتفق مع البعدين الدلالي والايقاعي في الأبيات المذكورة .

والملاحظ أن ضمير المتكلم في نهاية القسم (في البيت 54) يرتبط بدوره بضمير الغائب المؤنث المفرد الوارد قبله (في البيت 53) كشكل من أشكال التماثل مع ضمير المخاطب في بدء القسم . وهو يؤذن بما سيأتي بعده من هيمنة لهذا المتكلم، كما لا يعدم صلة له بما تقدمه . فإذا

كانت صيغة المتكلم المتطابقة معه في القسم الأول (في البيت 10) قد ارتبطت بضمير تأنيث غائب هو جمع لغير العاقل الجامد (الطلول) فإن صيغته الواردة هنا (في البيت 54) ترتبط بضمير تأنيث غائب هو مفرد لغير العاقل الحيواني (الناقة). كأن هناك تطوراً يحدث من القسم الأول إلى القسم الثاني ويهيء لبروز العلاقة بضمير التأنيث الغائب المفرد للعاقل (نوار) في القسم الثالث (في البيت 55).

خلال شبكة العلاقات المتداخلة هذه، وعبر ما تعرفه من سيرورة في القسم الثاني الذي يشهد استعمالاً متنوعاً للمضائر، خاصة لضمير التأنيث المسيطر في داخله الذي يؤكد استمرار البؤرة الدلالية للقسم الأول فيه وبروز أنواع جديدة، خاصة منها المثني (في الأبيات 28 و 29 و 31 و 34) الذي يدل على الوصل المتضمن في هذا القسم المتوسطي، يتنامى التعبير في ما يشبه الكشف المتتابع عن علاقاته المحورية العديدة.

في القسم الثالث يتقدم ضمير المتكلم المفرد منذ البيت الأول (البيت 55) بصيغة مطابقة لتلك التي انتهى إليها في القسم الثاني (الباء)، وهو يأتي في سياق تعبير نحوي يمتد في بيتين متعاقبين (55 و 56) مثله وإن تميزت الوجهة فيه هنا عن تلك القائمة هناك، كتأكيد عبر هذين الوجهين على هذا الاتصال القوي بين القسمين. إن ما يميز عنه كما أسلفنا بارتباطه بضمير الغائب المؤنث المفرد للعاقل الدال على المرأة المعنية في النص بأكمله (نوار). في ذلك تمايز أيضاً عن حالة اللقاء الأول بين هذين الضميرين (في البيت 16) حيث لم يرتبطا في إطار نحوي، وحيث اعتمد ضمير المخاطب المقدر (الغائب) مع هذا الضمير المؤنث، وبالتالي إمعان في الاتصال بين الطرفين. وهو يظهر أقوى وأشد في البيتين اللاحقين (57 و 58) حيث يحل ضمير المؤنث المفرد للمخاطب (مثنياً ومقدراً معاً) محل ضمير المؤنث الغائب مرتبطاً بضمير المتكلم. في هذا الاختلاف تقريب واضح يستحضر الغائب وإن كان يصمه بالسلب، ويبدو هذا الاستحضار مذكلاً لانطلاقه الذات عبر ضمير المتكلم في عملية استعراض واسعة على مرحلتين يسود المفرد منه في الأولى منها المتضمنة في الجزء الأول (حتى البيت 77) ويسود جمعه في الثانية التي تتخذ من الجزء الثاني (في الأبيات 78 و 88) مجالها الحيوي.

لا يغيب عن الانتباه أن ضمير المتكلم المفرد المذكور يقيم صلة واضحة وتمييزة في الجزء الخاص به مع ضمير التأنيث الغائب الذي في تناوبه الدلالة على الليلة (والخمسة والجمعة) والكرينة) وعلى الريح (أو القرية) وعلى الفرس (والشكة والمرتفعات والمنخفضات والحمامة) والدار المهية (وجنّها) وجزور الأيسار (والرذينة والرياح) لا يكف عن الإحاطة إلى ذلك المؤنث الغائب المستحضر (المرأة) والتذكير به. كما لا يغيب أن ضمير المتكلم المفرد المذكور

نفسه قائم في ضمير جمع المتكلم (المذكر) الذي يفتح ويسود الجزء الثاني. وهو ما يفسر التحام الجزئين دون حاجة إلى أداة وصل بينهما كما ألمعنا إلى ذلك سابقاً، وما يجعل من هذا القسم بأكمله القسم الأرقى وحدة ووصلاً في هذه الهيمنة المطلقة لضمير المتكلم المذكور. ويتمتع ضمير جمع المتكلم في الجزء الثاني بميزة سبق ولاحظناها بالنسبة لضمير المتكلم المفرد (الخاص بالشاعر) في القسم الأول خاصة وضمير الغائب المؤنث (الخاص بنوار) في القسم الثاني خاصة، تتمثل في التحولات المختلفة التي تطرأ على مدلوله أو في الصيغ الضميرية المختلفة التي يتخذها هنا. فجماعة الشاعر التي ينتمي إليها (قبيلته أو حيه أو عشيرته) والتي يدل عليها ضمير جمع المتكلم، تعرف تحولاً من «نحن» (في البيت 78) إلى «هي» (العشيرة: في البيت 79) إلى «هم» (العشر: في البيتين 81 و 82). كأن في هذا التعدد استجابةً للتعدد السابقين واحتواءً لهما في الإطار الجماعي الذي يدل عليه الضمير الأخير، أو كأن فيه الحل المتوخى لانفصال الضميرين السابقين ومدلوليهما.

في ذلك كله تلاؤم مع المعطي الدلالي والإيقاعي والأسلوبي للنص إن لم يبلغ أحياناً درجة راقية من التطابق فإنه بقي غالباً على نسبة عالية من التماثل والتجانس. فينض النص بناء لذلك على قدر كبير من التكافؤ أو التعادل بين مستوياته البنيوية المختلفة يدل على إبداعه الشعرية الرفيعة.

رابعاً: في الأبعاد الدلالية:

إن بحثنا في الأبعاد الدلالية المختلفة للنص يقتصر على محاولة التوقف، دون تمعن وتفصيل، وذلك تلافياً لتطويل يستلزمه تأويل غير محصور الحدود، عند الخطوط الكبرى لأهم بعدين عامين منها: الاجتماعي والذاتي، معتمدين في استقرارها على الأسس التي تمت بلورتها بصدد بنية النص وخصوصية تشكيلها النظمي.

1 - البعد الاجتماعي:

تبين لنا أعلاه أن بنية النص العامة قائمة على صراع بين الوصل والقطع فيه انتصار واضح للأول على الأخير، في انتظام نصي يمضي من القطع إلى الوصل عبر توسط بينهما يعطيه شكلاً ثلاثياً. لكن الفصل المسيطر على القسم الأول يتجسد في مطلع في الديار الدارسة التي غادرها أصحابها. وتبدو هذه المغادرة جاثمة في أساس معاناة الشاعر. ولأنها غيبت الحبيبة في المجهول يتجه الشاعر، كما رأينا في القسم الثاني، نحو المستقر والمعلوم كما يتمثل في القسم الثالث.

ضمن هذا المنظور يمكن القول إن الفصل الذي يشكل قاعدة شكوى الشاعر يشير إلى ظاهرة اجتماعية محددة تقوم على التنقل والرحيل وعدم الاستقرار، وتتم عن وضع اجتماعي معين في ذلك الحين هو وضع البداوة. في المقابل يشير انتصار الشاعر للوصل وتعظيمه بديلاً من الفصل الذي يواجهه بسلبية إيجابية كما أوضحنا آنفاً إلى انتصار للحضارة ضد الغياب، وللحضارة ضد البداوة.

هكذا يتبدى النص وكأنه في بنيته العميقة يحفل بنزوع قوي نحو التحضر باعتباره حلاً للمشكلات التي تنشأ عن البداوة. ويقدم تشكيلها التنظيمي عرضاً مفصلاً لهذا المنزع. فالترحل المرتبط بالبداوة مرتبط أيضاً بالحياة البدائية والوحشية. والقسم الأول يبدي عن تجاورهما بحيث تحمل الواحدة محل الأخرى دلالة على ذلك القرب المكاني الذي يجمعهما. يجعل هذا القرب النص يقيم نوعاً من المساواة بينهما، بحيث يأخذ المجتمع الوحشي الذي يحل في المكان المتروك من المجتمع البدوي، حيزاً مساوياً له فيه. فتغلب على الجزء الأول من هذا القسم الذات الحيوانية، في حين تغلب الذات الإنسانية المترحلة على الجزء الثاني، كما يتناوب كل من الطرفين الإغارة على مواقع الأخر في عمليات التشبيه التي تعنيها. فيقوم بين الطرفين تماثل قوي يستغله القسم الثاني في عملية إدانته للقوانين التي تحكم أحدهما (البدوي) من خلال تعبيره عن الآخر (الوحشي). وإدانة القطع في هذا القسم، بقدر ما هي إدانة للمجتمع الوحشي، هي أيضاً إدانة للمجتمع البدوي بما هو قائم على الاضطراب ومعرض للخطر، مع ما يحتمله هذا وذاك من أذى وضرر ومن تفكك وانحلال. والإدانة قائمة في ذينك التشبيهيين المديدين للناقة بالأتان ثم بالبقرة الوحشية. ففي الأول يتقدم الاضطراب في جسم العير نفسه، وفي هذا الانفصال الذي يمضي فيه مع أتانه. إن الانتقال مدعاة مخاطر كما تشير إلى ذلك مخاوف العير من مرتفعات الطريق. لكن الإقامة في الموضع الجديد مدعاة خطر آخر يدفع بالعير وأتانه إلى الانتقال مجدداً إلى مكان آخر. أما الثاني فيبين بدءاً عن نمط من الخطر الذي يجيق بهذا الوضع الوحشي - البدوي، حيث أن الأذى الحاصل من قبل السباع ينم عن بالغ أذاه كما هو متحقق هنا بموت الفرير، كما أنه يتهدد حياة البقرة نفسها، ويدفعها إلى فرار رهيب يشترط القتل.

إن هذا المجتمع المعرض باستمرار لخطر الطبيعة أو الأعداء، والمضطرب على الدوام للتنقل والبحث عن مكان أفضل، هو مجتمع هش وضعيف، مهدد دوماً بالبعثرة والتمزق. إنه باختصار عالم الصراع المستمر مع الطبيعة أو مع الآخر. وهذا الصراع هو أحد أسباب قوة اضطرابه وعدم استقراره الرئيسية. إزاءه يبدو المجتمع الحضري مجتمع الثبات والاستقرار، وإنما أيضاً مجتمع المناعة والحماية، والقوة والتضامن. كما يدل على ذلك القسم

الثالث، وخاصة الجزء الثاني منه حيث تبرز بقوة قوانين هذا المجتمع ثابتة راسخة تقوم على الحق والخير والكرم والوفاء والمجد. لذا يبدأ هذا الجزء بالجمع وينتهي بالجمع متمثلاً في وحدة دلالية وإيقاعية وأسلوبية متميزة، إذ تكرر البعد الحضري الذي يوحي به الرصد الغالب عليه تكرر كذلك وحدة اجتماعية متماسكة تشترطه. في هذا الجانب الأخير يظهر الانتصار للمجتمع الحضري قائماً على أساس الانتصار لوحدة العشيرة أو الحي أو القبيلة. فالنزوع إلى التحضر مفهوم في النص على أساس من اللحمة القرابية أو القبلية، أو من العصبية العشائرية أو القبلية التي تتكفل بتأمين مختلف الشروط التي يقتضيها هذا المشروع. فإذا كان من هذه الشروط قوة ومنعة المجتمع، وغناه وثرأوه، وتعاونه وتضامنه، فإن العصبية القبلية التي تلم متفرق العناصر المكونة لهذا المجتمع في وحدة صلبة متينة تتنافس (العناصر) في الدفاع عنها (الوحدة) والمبادرة في المكارم والفضائل فيها ومجابهة المصاعب الطبيعية والعدوانية التي تتعرض لها تؤمن الإطار الوحيد الذي يجد الفرد فيه الطمأنينة والأمان. ربما شكل هذا التوجه الأساس المادي - التاريخي للتغني فخراً أو مديحاً بصفات ومزايا مثل القوة والبطش والبروة والكرم والسخاء، أو بالعكس - في حالة غيابها - تعريضاً وهجاء في الشعر العربي القديم، بحيث كونت مقولات فكرية وقيماً إجتماعية وأخلاقية رسخت في التعبير الشعري وأصبحت تقليداً يتردد لاحقاً في المستوى الفني والجمالي له وإن بعدت العلاقة أو انتفت بينها وبين الأوضاع الاجتماعية - التاريخية التي أتاحتها.

على هذا الأساس يصبح الانتصار للوصل، قبل أن يكون انتصاراً للتحضر، انتصاراً للعصبية القبلية بقدر ما هذه تشترط ذلك. ويصبح الانتقال، بدل أن يكون توجهاً قلقاً يفضي إلى مجهول أو يهدد مصيراً (كما في البيت 56)، إقامة لمواطن ومواقع معروفة ومتصلة تؤدي غاياتها وتخدم أصحابها، وبدل أن يكون استنزافاً ضائعاً (كما المرأة . . والأثان . . والبقرة الوحشية . .) حتى الموت (كما مع الفريزر . . والكلبتين . .)، يصبح عملاً مثمرًا ومنتجاً بل محبباً (كما بشأن الرذية . . والأيتام . . والعشيرة . . والمرملة . .). وبدل أن يكون الإنسان والمجتمع عرضة لتحكم الطبيعة والآخر، يصبح هو المتحكم بهما والسيد عليهما (كما بالنسبة للعشيرة في البيت 86 . . والربيع في البيت 87 . .). بل إن هذا التغلب على «الطبيعي» الخارجي يتصل أيضاً بالتغلب على «الطبيعي» الداخلي القائم في الذات أيضاً، لإنجاز ما هو حضاري ومدني فيها (لا يميل مع الهوى . . في البيت 82 . . وهم العشيرة . . في البيت 88). إن الرضا الذي تتم الدعوة إليه في وسط السياق الخاص بالعصبية القبلية النازعة إلى التحضر (في البيت 83) إنما يأتي في موضعه الدلالي والتنظيمي معبراً عن هذا التوازن والانسجام بين الذات ومحيطها القبلي الحضري بما يتضمنه ذلك من نفي للانتقال ومخاطره (في البيت 56) بقدر

ما يمثله من ضمان لأمن وطمأنينة الذات في هذا المحيط .

يبدو هذا الطرح بأكمله وكأنه يعين حداً قاطعاً تاريخياً حاسماً من تطور المجتمع العربي في نجد والجزيرة العربية عشية أو مطلع القرن السابع الميلادي . فهو يشير إلى تنامي التطلع إلى مجتمع حضري متطور يتخلص من البداوة ومشكلاتها، متأثراً في ذلك بما كان يعهده قومه وحوله خاصة في إمارتي الحيرة والشام، أو امبراطورتي الفرس والروم، من تطور وتقديم حضاريين، مرتبطين بالإقامة والاستقرار، بالمجتمع المدني تحديداً . كما يشير في الوقت نفسه إلى منطلقاته وتصورات المبنية على أوضاعه الخاصة المتمثلة خاصة في العصبية القبلية . وفي ذلك يعلن النص مأزقه : عدم انسجام الوسيلة المتبناة مع الغاية المتوخاة . ذلك أن الحضارة، المجتمع الحضري أو المدني، هي انفتاح وتعدد بشكل رئيس، في حين أن العصبية القبلية انغلاق وتوحد .

ربما كان لنضج الظروف التاريخية - الاجتماعية، ولتفاقم مأزق المسعى لتطورها وتحسينها، ما يفسر تكون الشروط المادية - الفكرية لاستقبال دعوة جديدة تنبئ هذا التطوير بوسيلة جديدة إن لم تفرط في العصبية القبلية فإنها لم تتوقف عندها . وهذا ما تولاه الطرح الديني الجديد (الإسلام) آنذاك .

2 - البعد الذاتي :

على ذلك المعطى البنيوي للنص في التناقض المطروح بين الفصل والوصل والانتصار البارز للوصل على الفصل فيه يتشكل التعبير الذاتي عن الرغبة الشخصية للشاعر، صريحة تتعلق بالتشكل النظمي للبنية الدلالية للنص، ومموجة تتصل بالتحقق الاستبدالي لهذه البنية نفسها .

إن الطرح الخاص بالفصل والوصل طرح موضوعه المرأة . إذ ليس الفصل هنا إلا ابتعاداً للمرأة عن الرجل، والانتصار للوصل إعلان صريح عن الرغبة بهذه المرأة الغائبة . ضمنها التصور يصبح النص بأكمله، بقدر ما هو تعبير عن المعاناة التي يطلقها غياب المرأة، تعبيراً عن رغبة بالوصل أو الوصال، نداء للمرأة الغائبة واستدعاء لها . إنه الصوت الذي تطلقه الرغبة بقدر ما يعبر عنها . فهو ينطلق من الطفل، من غياب المرأة الذي يدل عليها بقدر ما يستحضرها . فالمطلع الطليل صورة حية للحرمان الذي يواجهه الشاعر، وتعبير عن مضاعفاته من جهة، وصورة عن ذلك التعويض الذي يستدرجه من ناحية ثانية . إنه الواقع الحسي الذي يبدي بشكل بارز ومكبر، هوامي، انفصال المرأة وغيابها، وبالتالي أثره التدميري

العظيم. لكنه أيضاً تعويض عن هذا الحرمان بقدر ما هو تمثيل له، بقدر ما يشكل استحضاراً للمرأة هوامياً بدوره.

يتقدم المكان الطلي على هذا النحو بديلاً للجسد المفقود. وهو إذ يثير الشوق إليه ويبدى عن عظيم الحاجة إليه والرغبة فيه، يقدم صوراً غير مباشرة وموهمة عنه. هكذا يتشكل هذا المكان وكأنه جسد المرأة الغائب، فيصبح تأمله، وتتبع قسائمه المختلفة تعويضاً عن التأمل والتمتع في ذلك الجسد المستحيل. في هذا التعويض بالذات يكمن النزوع الذاتي نحو الاتصال أو الوصال بهذا الجسد. ضمن هذا السياق يصبح التشبيه مناسبة لكشف هذه النزعة بطريقة موهمة ومنتكرة. فإذا كانت الأطلال فيه كتابة ووشماً، فإنها تعبر بذلك عن هذا البعد المزدوج لها باعتبارها صوتاً للرغبة يطلقه النص وتمثيلاً لموضوعها. أي ذلك الجسد الذي يرتسم الوشم عليه. ربما كان الاستغراق في هذا الجانب هو الذي يدفع الشاعر إلى المضي في التعامل معها تعاملأ إنسانياً، فيسألها في وميض لحظة حميمة لا يلبث العقل أن يجد من مداها. فتسترد الواقعية التعبير من هوامه التخيلي، ويبدو التعويض عثياً، والجسد مستحيلاً، والإحباط محكماً ليتفق ذلك مع القطع السائد في القسم الأول.

في انعطاف النص بعيداً عن هذا الإحباط لا يكف القول عن الإيحاء بتوجهه الأساسي نحو الوصل. كما يدل على ذلك القسم الثاني من قطع اللبنة إلى قضائها (من البيت 20 إلى البيت 54). هكذا تصبح الناقة وسيلة للجسد وراء الرغبة من أجل تحقيقها، والقسم الثاني سعيأ وراء الوسيلة التي تتيح التخلص من الشروط التي أدت إلى ذلك الإحباط. يصبح التعويض المجال المحظي لهذا الانتقال؛ ويأتي التشبيه هنا مجدداً ليعبر عن هذا التحقيق الهوامي للرغبة في المرأة. فالناقة بديل المرأة الغائبة، وذلك بالتوهم القائم في وجه التشبيه، في إتقان قيادتها لتحديداً، حيث تبدى الناقة على أفضل ما يكون من الأداء بفضل تحكم زمام راكبها بها: كصهباء تقودها الريح... أو ملمع يقودها أحقب... أو مسبوقة يقودها حبهما لوليدها وللحياة... تتميز هذه الحالات الثلاث هنا بتأكيد المشبه به فيها لذلك الجموح المتصاعد في السرعة والانتقال. وتتعدد أنواع القيادة فيها كأنها تحاول استيعاب أوجه القيادة المتنوعة لذلك الذي يمسك بزمام الناقة، ماضية فيها من الخارج نحو الداخل بما يتفق مع اتجاه القسم الثاني، في وضعه التوسطي، من القطع في القسم الأول إلى الوصل في القسم الثالث. ويكون التشبيه الثلاثي تطلعاً إلى احتلال موقع راكب الناقة هذا كتعويض عن افتقاد موقع ركوب آخر. فبديلاً لتلك المرأة الغائبة يجري تحكم بما هو قائم، يعلن عبره مشيئة ومقدرة فحوليتان إزاء العجز الذي سيطر في القسم الأول. تبدو هذه المقدرة عظيمة بقدر ما تلقى من مقاومة أو تواجه من مصاعب. وهي تتصاعد بوضوح من الغيمة التي تكاد لا تعاند حركة

الريح، إلى الأتان التي تظهر موضع ارتياب ووحام وتعريد، إلى البقرة الوحشية صاحبة الغفلة القاتلة وتابعة الهادية والعاصية على الصيادين وكلاهم.

يأتي إعلان هذه القدرة الفحولية مدخلاً لاستعراض مجالات نفوذها. فهي التي تنال، في الجزء الأول من القسم الثالث، المستعصي (الخمرة . .) وتتحكم بالطبيعة (الريح) وتحمي ساحتها (فروسية) وتبين كفاءتها الرجولية المتفوقة على كل الصعد (في الدار البعيدة وفي الدار القريبة: إزاء الغرباء ومع النساء والأطفال . . .) والتي تبين، في الجزء الثاني من هذا القسم، عن انتباهها إلى القانون الأبوي (البطبركي) وعن انتسابها إلى الأنا - الأعلى، مكرسة بذلك وجودها الاجتماعي، منتزعة فيه شرعيتها وشرعية رغبتها، تصدح بها في جوف الجماعة. في هذين الجزئين الأخيرين يعلن القسم الثالث الشروط المؤاتية لذلك الوصل المطلوب. فهذه المقدرة الفحولية العظيمة، وذلك الاعتراف الجماعي بها وبموضوع رغبتها، يستدعيان حكماً مجيء تلك المرأة، وصلها.

هذا التشكل العام للنص ككلام للرجبة لا يكف عن الإيماء إلى ما يتعدى العلاقة بالمرأة المذكورة. فالرجبة المعلنه يتمويه لا يخفى على الناظر تشبي برغبة بنوية أعمق لا يسر غورها بسهولة وبساطة. إذ يركز النص على السلوك والفعل دون النوايا والمقاصد، كما يبدو ذلك بالنسبة لنوار التي يدين بعدها دون أي إشارة لعاطفتها، وللمجامل الذي يحسن معاملته بغض النظر عن نواياه، أو اللثيم الذي تضمه العشرة دون التفات إلى نفسيته، فكأنه يستغرق في عملية تمويه مضاعفة، من خلال محاولته الإيحاء بأن الاتهام يجدر أن ينصب، فيما يتعلق بالنص، على قوله الظاهر دون باطنه ونواياه ورغباته الدفينة.

إن اسم المرأة لا يعلن إلا في المقطع الخامس (الأخير) من القسم الأول، كأن هناك عملية كشف متنامية تتابع حتى الوصول إليه من «الأنيس» (في البيت الثالث) إلى «الجميع» (في البيت 11) إلى «الظعن» (في البيت 12) حتى بلوغه (في البيت 16). لكنه يغيب تماماً في القسم الثاني، ليعود فيتبع وجهة معاكسة في القسم الثالث، إذ يرد في مطلعته (في البيت 55) ليمضي التعبير لاحقاً في عملية متصاعدة من الابتعاد يشير إليها «مجلس الكرينة» (في البيت 60) فـ «الحمي» (في البيت 63) فـ «مجلس الغرباء» (في البيت 70) فـ «الجميع» (في البيت 74). كأن الوسط الذي يأتي رداً على تفاقم الغياب، ويتفاقم فيه التشبيه أيضاً، هو مجال التمهيد للتعبير عن الرغبة اللاواعية. يتمثل هذا التمهيد بأشكال متعددة تأخذ منحى تتابعياً يقوم خاصة التشبيهان المطولان الواردان في هذا القسم (الثاني) بأدائه. ذلك أن التشبيه الموجز يبدو وكأنه نوع من التضييع، من إيهام بتضعيد كما بخيادية يؤديها عنصره العالين والأنثويان، كأنه بذلك مدخل لما يليه.

يشي التشبيه المطول الأول، في العلاقة التي تقوم بين الأتان والأحقب، بالتعبير عن عقدة أوديبية عميقة. ذلك أن الأتان التي تشبه الناقة يقودها فحل عفيف. كأن هذا الفحل يمثل بصورة لا واعية الشاعر الذي يقود الناقة. لكن هذا الفحل ليس ذكراً يؤكد فحولته وحسب، وإنما هو أيضاً أب (أو مشروع أب) في إيساقه للأتان. كأنه بذلك يمثل تلك الرغبة الدفينة اللاواعية لدى الشاعر في لعب دور الأب والحلول محله. لكن هذه الرغبة لرهبتها لا تصدر فقط بهذا الشكل المموه والمقنع، وإنما أيضاً بشكل إعلانها على هذا النحو مناسبة لتعبير آخر يرتبط في وجه من وجوهها. وهذا ما يؤديه التشبيه المطول الثاني الذي ينطلق تحديداً من مقتل الإبن. كأن هذا القتل يأتي مباشرة عقاباً له على هذا الاختراق الاستثنائي لحواجز المنع وبلوغ ميدان اللاوعي العميق. ويكون العقاب على المستوى نفسه «للخطيئة»، «بأن يموها مثلها. إن البقرة الوحشية التي تشبه الناقة هنا تبدو مدفوعة في انطلاقها بدءاً بالبحث عن ابنها الضائع. كأن هذا السبب، بالإضافة إلى التشبيه الأول، يقيم صلة بين الشاعر والأبن المذكور. لكن العلاقة لا تتوقف عند هذا الحد. فهناك جانب آخر يتمثل في الشكل الخاص الذي يتخذه قتل الإبن. كأن التشبيه يعبر عن رهاب نفسي هنا لا ينفصل عن جانب العقاب الأول. فالشاعر يشير إلى أن إهمال المرأة له وابتعادها عنه مع جماعتها إنما يعرضه لخطر القتل تماماً كما حصل للفريز. فلا يكون في هذا التشبيه استدعاء لنوار وحسب، وإنما يتمثل فيه المدى النفسي العميق الذي تشغله علاقته بهذه المرأة. يؤكد وجهة التفسير هذه، كما يفهم على ضوءها، التشبيه الوارد في الجزء الثاني من القسم الأول والخاص بالنساء المغادرات للمكان. فالتشبيه المذكور يقرنهن بالنعاج والظباء (في البيت 14)، وكان الجزء الأول قد أشار إلى أطلال وبهام البقر الوحشي التي حلت مكانهن في ذلك المكان (في البيت 7).

إذ ينال الابن عقابه، لتمثله بالأب والحلول محله، فإن الرغبة الأوديبية يمكن لها أن تتحقق من ثم دون عوائق تذكر، وإنما أيضاً من دون تصريح مباشر. هكذا لا يكون القسم الثالث مظهراً فحولية طاغية وحسب، وإنما تأدية مباشرة (لعباً مباشراً) لدور الأب. فالمقدرة على نيل الصعب، والتحكم بالريح وركوب الفرس العظيمة، والظهور كند للغرباء المخيفين، وذبح النوق للمحتاجين... جميعها أدوار رجولية فحولية تنضح بالدلالات الجنسية المثيرة. لكنها أيضاً تشير بقوة إلى دور الأب الذي يجبي المجلس بخمرته، ويحمي الفقراء من الطبيعة، كما يجبي الحمي من الأعداء، وينجح في مواجهة آباء آخرين، وفي إعطامه للمحتاجين... في هذا الجانب الأخير خاصة يأتي البيتان الأخيران (76 و 77) لتأكيد هذا البعد الأبوي - الأوديب، أي باعتباره حلولاً مكان الأب الذي يجري التخلص منه. ففي البيت

الأول (76) يجعل الشاعر المرأة الضعيفة الفقيرة رذية ويشبهها بالبلية،⁽⁶⁸⁾ كأن في تلك الاستعارة والتشبيه محاولة لبلوغ الرغبة اللاواعية: قتل الأب - من أجل «الاعتناء» أو الاستحواذ على الأم؟ - ذلك أن المرأة هنا تقدم كمن قضى معيها أو صاحبها، ويأتي الشاعر فيخلصها ويحییها عن طريق إعالته لها، حلولة محل الزوج الذي قضى.⁽⁶⁹⁾ يتأكد هذا المعنى المقصود في البيت الثاني (77) في ذكر الأيتام الذين يتولى الشاعر أمرهم على أفضل ما يكون.

يتم في الجزء الثاني من القسم الثالث، باعتباره مجال الوصل الأرقى، الاعتراف المموه بهذه الرغبة وتحققها، باعتبار هذا السلوك سنة الأبناء... (في البيت 81)، خاصة في هذا التوضيح في الإطار الجماعي (وإن كان للغائب - كمزيد من التمويه) للدور الأوديبى، من خلال الاهتمام بالنساء اللواتي قضى أزواجهن، بالأرامل. في هذا الإطار حيث يصبح الوصل عالياً يجيء كذلك تحقيق الرغبة اللاواعية، فيلتحم على هذا النحو اللاوعي التاريخي باللاوعي النفسي في التشكل البيوي للنص.

على هذا النحو لا يقول النص مرحلته التاريخية وحسب، وإنما أيضاً مرحلته الأوديبية. وإذا بقي درسه في هذه وتلك أولياً يكتفي بالخطوط العامة فلأن المعطيات المتوفرة عنهما أولية. ربما أتاح الإطلاع على معلومات أوفى وأدق فرصة العودة مجدداً إلى هذا الخطاب المتعدد الأبعاد لبحث تفاصيله وتقصي دقائقها بشكل أتم وأكمل.

(68) يعلق الزوزني: «الرذية: الناقة التي ترذى في السفر، أي تخلف لفرط هزالها وكلالها، والجمع الرذايا، استعارها للفقيرة. البلية: أناة التي تشد على قبر صاحبها حتى تموت...» شرح التعليقات السبع - ذكر سابقاً، ص 158.

(69) يؤكد هذه الوجهة في التفسير الكناية التي استعملت في مطلع القسم الثاني حيث اعتمد ركوب الناقة (في الأبيات 20-22) رداً - وتمويضاً؟ - على انفصال المرأة وابتعادها عنه.

الفصل الخامس

ملكوت الكلام على سفار الشهوة والموت

دراسة نص لامرئ القيس بن حجر الكندي (ت 530 هـ / 540 م):

«الأعم صباحاً أيها الظلال البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي»

● نص الدراسة

* مقدمة: شبهة النص

أولاً: بنية القصيدة وتشكلها

ثانياً: المقدمة الطللية والتهمة الشنيعة

ثالثاً: الفحولة المضحمة في الغرام والفروسية

رابعاً: أبعاد جمالية ودلالية

نص الدراسة⁽¹⁾

1 -	ألا عم صباحاً أيها الظلل البالي	وهل يعمن من كان في العصر الخالي
3	وهل يعمن إلا سعيد مخلد	قليل المهموم ما بيتت بأوجال
4	وهل يعمن من كان أحدث عهده	ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال
4	ديار سلمى عافيات بذى خال	ألح عليها كل أسحم هطال
2	وتحسب سلمى لا تزال ترى طلاً	من الوحش أو بيضاً بميثاء محلال
3	وتحسب سلمى لا تزال كعهدينا	بوادي الخزامى أو على رَسّ أوعال
3	ليالي سلمى إذ تريك منضَباً	وجيداً كجيد السرثم ليس بمعطال
4	ألا زعمت بسباسة اليوم أنني	كسرت وألا يحسن اللهو أمثالي
3		

(1) ديوان امرىء القيس: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة؛ القاهرة - دار المعارف بمصر [سلسلة] ذخائر العرب (24) د.ت. [1969، الطبعة الأولى 1958] القصيدة الثانية (ص 27-39).
وقد بدا لنا هذا الديوان في اعتياده نسخة الأعلام الشتمري لرواية الأصمعي، وفي الجهد التوثيقي الذي بذله محققه فيه، أجدر بالثقة من شرح ديوان امرىء القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الاسلام ويليه أخبار النوايع وآثارهم في الجاهلية وصدر الاسلام لحسن السندوي، الطبعة الثالثة القاهرة ل.ن. [مطبعة الاستقامة بالقاهرة] 1373 هـ/ 1953 م (ص 158-167) الذي يثبت تسعة وخمسين بيتاً لهذه اللامية مقابل الأربعة والخمسين بيتاً الواردة هنا مع بعض الاختلاف في الرواية والترتيب، وهو ما لم نأخذ به.

- 38- ولم أسباب الزَّقِّ الرُّويِّ ولم أقل
 39- ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحَا
 40- سليم الشظى عَيْلُ الشَّوى شَنجِ النسا
 41- وصمُّ صلاب ما يقين من الوجى
 42- وقد أعتدي والبطير في وكناتها
 43- تحاماه أطراف الرماح تحامياً
 44- بعجلة قد أتزرز الجري لحمها
 45- ذعرت بها سرباً نقياً جلوده
 46- كأن الصوار إذ تجهد عدوه
 47- فجال الصوار واتقين بقرهب
 48- فعادى عداء بين ثور ونعجة
 49- كئني بفتخاء الجناحين لقوة
 50- تحطف خزان الشربة بالضحَا
 51- كأن قلوب الطير رطباً وباساً
 52- فلو أن ما أسمى لأذن معيشة
- لخيل كُري كَرَّةً بعد إجمال
 على هيكل نهد الجزيرة جوال
 له حجبات مشرفات على الفال
 كأن مكان الرَّدْف منه على رال
 لغيث من الوسمي رائده خال
 وجاد عليه كل أسحم هطال
 كميبت كأنها هراوة منوال
 وأكرعه وشي البرود من الخال
 على حمزى خيل تجول بأجلال
 طويل القرا والروق أخنس ذيال
 وكان عداء الوحش مني على بال
 صيود من العقبان طأطأت شمال
 وقد حَجرت منها ثعالبُ أزال
 لدى وكرها العُتاب والحشف البالي
 كفاني ولم أطلب قليل من المال

* مقدمة : شبهة النص :

تتصل بالشعر الذي يطلق عليه «الشعر الجاهلي» - والصحيح أن يقال الشعر السابق على الإسلام أو شعر ما قبل الإسلام، والأصح أن يقال شعر الفترة الممتدة من النصف الثاني من القرن الخامس إلى مطلع القرن السابع الميلادي - إشكاليات عدة أهمها إشكالية النحل التي وإن كانت قد طرحت مراراً من قبل أولئك الذين عنوا بجمعه وتبويبه وشرحه وتحقيقه ودراسته . . . فإنها قد عادت بقوة إلى البروز مطلع هذا القرن مع ذلك الاهتمام الذي أولاه بعض المستشرقين لها والمضاعفات التي نشأت عنه لدى الباحثين العرب وخاصة منهم مصطفى صادق الرافعي وطه حسين. (2) وبدا كتاب هذا الأخير (3) في الموضوع، عبر الضجة التي أثارها والملايسات التي رافقتها، من أبرز المداخلات التي حاولت أن تجمع متفرق ما قيل حول نحل هذا الشعر وأسبابه السياسية والدينية والقصصية والشعرية والروائية . . . في توقّف مطوّل عندها ينتهي إلى رفض معظم ذلك الشعر المنسوب لامرئ القيس وعبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل ومهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة والأعشى . . . واعتباره منحولاً حمل على أصحابه لغايات عدّة وضّحها في الكتاب المذكور.

ليس يعني هنا تناول هذه الآراء وسواها، (4) إنما نهتم منها خاصة بتلك التي تعرضت

- (2) راجع بهذا الصدد كتاب د. ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية الطبعة الخامسة القاهرة: دار المعارف بمصر، 1978 (الطبعة الأولى 1956) وهو في الأصل «بحث نال به مؤلفه درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز سنة 1955» وهو يقدم في الباب الرابع منه («الشك في الشعر الجاهلي (الوضع والنحل)» خاصة وفي الفصلين الثالث («النحل والوضع في الشعر الجاهلي / آراء المستشرقين ص 352-376) والرابع («النحل والوضع في الشعر الجاهلي / آراء العرب للمحدثين» ص 377-428) بالأخص عرضاً مفصلاً لهذه الإشكالية بأطروحاتها وأعلامها والنقاشات التي أثارها.
- (3) طه حسين: في الأدب الجاهلي القاهرة، دار المعارف بمصر 1962 (الطبعة الثانية 1927، وهي طبعة معدلة للأولى التي صدرت تحت عنوان في الشعر الجاهلي القاهرة، دار الكتب المصرية 1926).
- (4) في كتاب د. ناصر الدين الأسد مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية المذكور أعلاه متابعة دقيقة وواقية لهذا الموضوع من الزاوية التاريخية ومن الزاوية النقدية يمكن العودة إليه لتكوين فكرة واضحة عن المسألة في وجوهها المختلفة.

للشاعر (امرئ القيس) وبالأخص لنصه الذي ندرس (اللامية المطولة الثانية: «ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي...»). وإذا كانت أسباب الشك لدى طه حسين وغيره في الشعر السابق على الاسلام وجيهة، ومعظمها في الحقيقة قديم ومستعاد، فإن من الصعب إن لم يكن من المستحيل تقبل استنتاجاته بهذا الصدد. ذلك أنه في اعتياده الاحتفال التأويلي له من ناحية ثانية، هذا الشعر من ناحية، لا يأنف في المقابل من اعتياد الاحتفال التأويلي له من ناحية ثانية، ليخرج بذلك عن المنطق الذي يدعوا لالتزامه ويقع في التناقض ويتخطى في الاضطراب والتشويش، كما هو وضعه بالنسبة لامرئ القيس حيث يسود منهج الظن والاحتمال والترجيح ليبي، مقابل «الأساطير» التي يعتبر أنها كونت سيرة حياة الشاعر المعروفة، أسطوره الخاصة التي قد تبدو أكثر ضعفاً وتهافتاً من سواها⁽⁵⁾.

(5) بعد أن ينطلق طه حسين من الاضطراب الذي يسم سيرة حياة امرئ القيس معتبراً إياها «أوضح دليل» على أن «الناس لم يعرفوا عنه شيئاً إلا اسمه هذا، وإلا لطائفة من الأساطير والأحاديث تتصل بهذا الاسم» (في الأدب الجاهلي، ذكر سابقاً ص 196) يتابع ما يذكره بعض الإخباريين عن كندة وآل الأشعث من إسلامهم وارتدادهم حتى ثورة محمد بن عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج وانتحاره بعد فشله وغدر ملك الترك به ليلحظ «وقصة امرئ القيس بنوع خاص تشبه في وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن بن الأشعث» (المرجع نفسه ص 198) قبل أن يخلص إلى القول: «واليس من السير أن نترض بل أن نرجح أن حياة امرئ القيس كما يتحدث بها الرواة ليست إلا لوثاً من التمثيل لحياة عبد الرحمن استحدثه القصاص إرضاء لموى الشعوب اليمنية في العراق واستعاروا له اسم الملك الضليل اتقاء لعمال بني أمية من ناحية، واستغلالاً لطائفة يسيرة من الأخبار كانت تعرف عن هذا الملك الضليل من ناحية أخرى؟» (المرجع ذاته ص 199) متغافلاً عن جميع العناصر التي تتضمنها «أسطورة حياة» امرئ القيس والمتناقضة مع سيرة عبد الرحمن بن الأشعث - أم محمد بن عبد الرحمن بن الأشعث؟ - هذا بدءاً من الموقع الاجتماعي والتاريخي وصولاً إلى الممارسات السلوكية والشعرية.

من الواضح أن هذا النمط من الافتراض اعتباطي محض، لا تؤكده أي واقعة أو وثيقة تاريخية. وهو يستهتر بمعلومات ويرجح أخرى دون سواها، ولا يلتفت إلى التناقض بين مساهمة آل الأشعث في قتل حجر بن عدي وثورتهم انتقاماً له، ولا إلى الاختلاف الفاضح بين طلب ملك إمارة قبل الإسلام زال بانقلاب دموي على صاحبه وبين محاولة انقلاب فاشلة على حكم علي تابع لسلطة مركزية إسلامية. عدا عن أن أوجه الشبه لا تعني التطابق حكماً، ولا هذا الأخير التوحيد حتماً. مع عدم نسيان هذا الفارق الجوهري بين الشخصيتين: شاعرية أحدهما...

ربما بسبب هذه الشاعرية لم يكتف طه حسين بما سبق، بل مضى إلى الاستنتاج: «وخلاصة هذا البحث القصير أن شخصية امرئ القيس - إذا فكرت - أشبه شيء بشخصية الشاعر اليوناني هوميروس، لا يشك بوجودها إنما لا يطمأن إلى أخبارها (المرجع ذاته ص 199) حيث لا يناقض هذا الحكم سابقه الخاص باختلاق سيرة الشاعر وحسب (راجع بهذا الصدد مقدمة سليمان البستاني: «إلياذة هوميروس معرفة نظماً» وعليها شرح تاريخي أممي (جزءان) بيروت، دار إحياء التراث العربي د. ت.، خاصة الصفحات: 67-9) وإنما يناقض أيضاً ذلك الاحتمال الخاص بعبد الرحمن بن الأشعث أو ابنه...

ففي الحين الذي يرفض طه حسين معظم ذلك الشعر المنسوب إلى امرئ القيس يؤكد: «فتحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد، وشبه الخيل بالعصي والعقبان وما إلى ذلك، ولكننا نشك أعظم الشك في أن يكون قد قال هذه الأبيات التي يرونها الرواة. وأكبر الظن أن هذا الوصف الذي نجده في المعلقة وفي اللامية الأخرى فيه شيء من ربح امرئ القيس، ولكن من ربحه ليس غير»⁽⁶⁾. واللافت للنظر في ما يتعقبه د: ناصر الدين الأسد في مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية أن التشكيك في شخصية الشاعر وشعره لم يظهر إلا متأخراً ومرتبلاً بصراعات ونزاعات متعددة يصعب معها تمييز التحوّل والحمّل من الموضوعي والأصيل. فعدا عن عمر بن الخطاب الذي قال فيه: «امرؤ القيس سابقهم، خسف لهم عين الشعر، فافتقر عن معان غور أصبح بصر»،⁽⁷⁾ فإن جريراً كان يرى أن «امرأ القيس اتخذ من الشعر نعلين يطوهما كيف شاء...»⁽⁸⁾. وقال فيه يونس بن حبيب الضبي إنه «أشعر الناس إذا ركب...»⁽⁹⁾ في حين لاحظ الجاحظ: «أما الشعر فحدث الميلاد صغير السن، أول من نبج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلل بن ربيعة»⁽¹⁰⁾ ذكر الأصفهاني أخباره وأورد أشعاراً له في الأغاني⁽¹¹⁾، كما نقل ابن الأثير سيرته في الكامل⁽¹²⁾. وينقل عن الأصمعي قوله: «إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه»، وإشارته إلى زيادات في قصائد بعض الشعراء ونسبة بعض القصائد من مرحلة ما قبل

(6) طه حسين: المرجع السابق، ص 207.

بالطبع لا يقدم طه حسين هنا أي إثبات لهذه الريح أو غيرها، كما لا يقدم أي إثبات حين يعتبر أو يقبل بأن امرأ القيس وقد نبغ في وصف الخيل والصيد والسيول والمطر، واستحدث في ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوفة من قبل» (المرجع ذاته، ص 207) معبراً في ذلك عن انتقائية واضحة في قبول بعض أحكام القدماء ورفض الآخر، دونما مقياس علمي أو موضوعي سليم.

(7) د. ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ذكر سابقاً، ص 208-209.

(8) المرجع السابق، ص 227.

(9) طه حسين: في الأدب الجاهلي، ذكر سابقاً ص 233.

(10) الجاحظ: كتاب الحيوان تحقيق وتقديم فوزي عطوي (7 أجزاء في مجلدين) الطبعة الثانية؛ بيروت، دار صعب 1397 هـ - 1978 م، المجلد الأول: الجزء الأول ص 54.

(11) راجع الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (20 جزءاً في 10 مجلدات مع فهرس عن طبعة بولاق الأصلية) بيروت الناشران صلاح يوسف الخليل [و] دار الفكر للجمع (روائع التراث العربي) 1970 م / 1390 هـ، خاصة المجلد الرابع: الجزء الثامن ص 62-77.

(12) الكامل في التاريخ تأليف الشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير (12 مجلداً مع فهرس) بيروت، دار صادر [و] دار بيروت 1387 هـ / 1967 م المجلد الأول ص 511-520.

الإسلام إليهم. (13) كما تعرض أبو عبيدة إلى اختلاط شعر امرئ القيس بغيره من الشعراء ومنهم علقمة... (14)

يحلنا ذلك كله إلى هذا الشعر الأخير وخاصة منه إلى القصيدة موضوع الدراسة هنا. فقد أفرده ناصر الدين الأسد في كتابه المذكور أعلاه القسم الأكبر من الفصل الأول من الباب الخامس (دواوين الشعر الجاهلي): «الدواوين المفردة» لتناول الروايات المختلفة لشعر امرئ القيس لينتهي منه إلى اعتبار النسخ المختلفة لديوان هذا الشاعر تستند إلى أصلين: رواية الأصمعي البصري والمفضل الكوفي، ملاحظاً أن الأول روى سبعة وعشرين قصيدة ومقطعة، وأن الثاني لم يتجاوز روايته أربعين قصيدة ومقطعة... مشيراً إلى إنكار البعض لسينية وبائية في رواية الأصمعي. (15)

وفي ديوان امرئ القيس الذي حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ذكر للنسخ المختلفة التي اعتمدت في جمع قصائده. وهي ست أهمها نسخة الأعلام الشنمري أبي الحجاج يوسف ابن سليمان بن عيسى النحوي عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي عبد الملك بن قريب، وفيها ثمان وعشرون قصيدة ومقطوعة مشفوعة بست قصائد اختارها من رواية المفضل الضبي وأبي عمرو الشيباني وغيرهما. وهي تنتهي على النحو التالي: «هذا آخر ما صحح الأصمعي من شعر امرئ القيس، والناس يحملون عليه شعراً كبيراً وليس له؛ وإنما هو لصعاليك كانوا معه». (16) فتبدو رواية الأصمعي لشعر امرئ القيس أهم مصدر اعتمد في جمع قصائده وتكوين ديوانه، فقد اعتمد الأعلام في ما جلبه «من هذه الأشعار على أصح رواياتها، وأوضح طرقاتها، وهي رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي، لتواطؤ الناس عليها واعتقادهم لها، واتفاقهم على تفضيلها» واتبع ذلك بـ «ما صح من رواياته قصائد متخيرة من رواية غيره». (17) وتستند هذه الرواية، كما يذكر أبو حاتم عن الأصمعي نفسه على رواية حماد: «كل شيء في

(13) د. ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ذكر سابقاً، ص 327.

(14) يذكر د. ناصر الدين الأسد أن أبا عبيدة نسب أبياتاً إلى امرئ القيس وغيره، كما أورد أبياتاً لعلقمة أولها:

وقد اغتدي والظير في وكسناهما وماء السندی يجري على كل مغنّب
وقال: «وقد يخلط قوله بشعر امرئ القيس بن حجر. وقد نسبت شعر امرئ القيس وأفرده من شعر
علقمة». المرجع السابق ص 329-330.

(15) المرجع ذاته، ص 481-542.

(16) ديوان امرئ القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ذكر سابقاً ص 11.

(17) المرجع السابق ص 9.

أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية، إلا نتفأ سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء⁽¹⁸⁾.

هكذا تبرز رواية حماد المصدر الأساسي المعتمد في جمع أشعار امرئ القيس. وكان لذلك أن يفتح الباب واسعاً أمام الافتراضات والتكهنات المعقولة والخيالية حول النحل الذي أصاب هذه الأشعار نظراً لما ورد من الأخبار المختلفة عن تصرفه بالشعر على هواه، وعن سلوكه الماجن والمستهتر⁽¹⁹⁾. وإذا كان الأصمعي نفسه قد شكك ببعض القصائد التي رواها عن حماد⁽²⁰⁾ في حين ذكر «النحل» صريحاً في روايات أخرى⁽²¹⁾ فإن شبهة النحل تصبح لاصقة بهذا الشعر في مجمله، وإن كانت تتميز في حديثها بالنسبة لبعض القصائد بعضها الآخر.

ليس هنا مجال الحكم على هذا الشعر وسواه مما ينسب إلى تلك المرحلة السابقة على الإسلام، إذ أن الأمر يبقى في النهاية رهناً بالتقدم العلمي المتحقق في ميدان علم الآثار

(18) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ذكر سابقاً، ص 507.

(19) راجع رد شارل جيمس ليال (Charles James Lyall) على مرغوليوث (D.S. Margoliouth) الذي كان أول من أثار قضية النحل في الشعر قبل الإسلامي وشكك فيه حديثاً (منذ 1905) في كتاب د. ناصر الدين الأسد (المرجع السابق، ص 368 وما بعدها)، إذ يذكر تصدير ليال للجزء الثاني من المفضليات سنة 1918 حيث يتناول ما نسب إلى المفضل من تجريح بحماد الراوية (إذ قال المفضل: «قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً. فليل له: وكيف ذلك؟ أخطيء في روايته أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، لا، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويحمل عنه ذلك في الأفاق، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك! المرجع ذاته ص 368) فبرده من الزاويتين المنطقية والتاريخية. وهو إن اعترف بالتنوير الذي قد يكون لحق ببعض شعر ما قبل الإسلام، فإنه يخلص إلى تأكيد كونه بقي دالاً على أصحابه، كما هو حال المعلقات...

كما يضيف د. الأسد إلى هذا الرد ما يبينه من صراع بين مدرستي الكوفة والبصرة، ومن خلاف سيامي بين حماد الأموي الميل والمفضل العباسي الهوي، ومن تنافس شخصي بينها... إلى جانب تناوله للعلاقة بين الأصمعي وحماد وتمحيصه للأخبار المتعلقة بخلف الأحمر... (المرجع ذاته: الفصل الخامس من الباب الرابع (الشك في الشعر الجاهلي): توثيق الرواة وتضعيفهم، ص 429-478).

(20) كما هو حال القصيدة الخامسة الضادية في ديوان امرئ القيس المذكور سابقاً ص 72...

(21) المرجع السابق، ص 11-12 حيث يذكر المحقق اشتغال نسخة الطوسي على ثلاثة أقسام يعتمد أولها على رواية المفضل (ما عدا مقطوعة واحدة) وثانيها على «القديم الصحيح المنحول» والثالث على «المنحول الثاني»...

والتاريخ والألسنية والحفظ والتوثيق والدراسات المقارنة. . . وليست مساهمة د. ناصر الدين الأسد (في كتابه مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية) إلا جهداً أولياً وبسيطاً نرجو أن يحظى بالمتابعة.

بيد أننا إزاء ما لدينا من قصائد تلحق بالمرحلة المذكورة، لا يسعنا التعامل معها إلا على أنها نصوص قائمة بذاتها. ورغم ما تتميز به اللامبتان المطولتان لامرء القيس (المعلقة والنص موضوع الدراسة هنا) من ترجيح بضعف التغيير الذي أصابها، لا يمكننا فيما يخص الأخيرة موضوع الدرس الحسم بصدد خلوها من النحل وما شابهه من تبديل وتعديل. وإذا لا نمضي كذلك إلى تصورات خيالية وافتراضات وهمية تضاف إلى سواها، فإننا في دراستنا لهذا النص ننطلق من كونه موجوداً وقديماً. وإذا كنا لا نمضي إلى تفحص وضعه التاريخي بدقة لنحكم على ما أصابه من تغيير منذ إنتاجه حتى وصوله إلينا، إذ ليست هذه مهمتنا هنا عدا عن أنها ليست في مقدورنا الآن، فإننا نتعامل معه كنص قائم بذاته، قد يكون لأكثر من مؤلف، ربما في مراحل زمنية متعاقبة وإن لم تكن متباعدة، وإنما هو في نسجه البيوي واحد. وقد تكون دراسته التالية فرصة مناسبة لتبيان ذلك.

أولاً: بنية القصيدة وتشكلها:

لما كانت بنية النص قائمة في هيكلية العلاقات الأساسية التي تحكمه، مؤلفة لشبكة من الصلات أو الفواصل المحورية بين عناصره المكونة، فإن بلورتها هي في الواقع بلورة لوحدة النص الكلية التي تجدها فيها تصورها الأرقى الذي ينزع عن هذه العناصر تفتتها وتشتتها، فتجد بذلك معناها ودلالاتها الحقيقيين. فبقدر ما تتيح المقاربة البيوية بلوغ المعنى المتكامل للنص والمنطق الأساسي الذي يقوم عليه تنفي عن عناصره عبثتها أو اعتباريتها.

وإذا كان في تحديد بنية النص اختزال لمميزات تأليفية وخصوصيات إبداعية فيه، وإدخال له في نصاب من التعميم ومستوى من التجريد، عبر تركيز على المتعارض والمتناقض كما على المتقارب والمتماثل بين عناصره، فإن البحث في تشكل هذه البنية فيه محاولة لاستعادة الخصوصية التي تتجسد بها في نص محدد، ولوج في ميدان التفنن الإبداعي الذي تشكل مساهمة هذا النص فيه قيمته الشعرية الخاصة.

هكذا يتضح أن معنى كهذا مفارق تماماً للمقاربات التقليدية للنص التي تنصرف إلى معالجة المضمون بما يعنيه من استعادة موجزة أو مسهبة لمعناه من إشارات سريعة أو متمهلة إلى أوجه البلاغة المختلفة التي يمكن رصدتها فيه، على انفصام ميكانيكي قلماً يلحظ علاقة خاصة بين المضمون والأسلوب في إطار جمالي أو دلالي، وغالباً ما يستعيد مقولات وحتى

عبارات جاهزة نزع عنها تاريخ إنتاجها لتلصق بأي موضوع أو مادة درس دون تمحيص يذكر، وبصرف النظر عن الأذى الذي يمكن أن تلحقه بهذه المادة أو ذلك الموضوع. كما أنه مفارق للأحكام والمفاهيم المرتبطة بها التي إلى جانب اهترائها تظهر عجزاً دامغاً في التعامل مع النصوص بحيث لا تقدم إزاءها أي مساهمة جدية أو مجدية. لعلها في ما يتعلق بموضوع نص الدراسة الوارد هنا تظهر بوضوح هذا العجز حين تحاول أن تطلق عليه صفة القصيدة الطللية انطلاقاً من توجه الشاعر إلى الطلل، وبثه معاناته الوجدانية الخاصة؛ أو أن تعتبره من شعر الغزل - وربما مضت إلى حد وصف هذا الغزل بالإباحي - نظراً لما يتناوله من علاقات الشاعر الغرامية؛ أو تجعله من قصائد الفخر بناء لما يعمه من اعتداد ومباهاة بما تتميز به ممارسات الشاعر وخصاله من رفعة وتفوق؛ أو أنها - وهذا نادر - قد تعده خليطاً أو مزيجاً من هذه الأنماط التعبيرية أو الأنواع الأدبية، جميعاً وقد تضيف عليها أنواعاً أو أنماطاً أخرى. وفي ذلك كله من الاضطراب وانعدام الدقة، وإنما خاصة من تجاوز لخصوصية النص وخصوصية عملته الابداعية، ما يدفع إلى عدم التوقف عنده وإلى التركيز على معطيات هذا النص الفعلية قبل أي شيء آخر.

إذا كانت بنية النص هي موضع الاهتمام الأول فيه نظراً لدورها المركزي في استكناه وحدة جملة عناصره المكونة وعلى مختلف مستويات التعبير فيه، وبالتالي في التوصل إلى تحديد مدى جماليته الشعرية، فإن الطريقة المعتمدة لذلك تقوم على التعرف إلى التناقض - أو التعارض - الأساسي أو الجوهرية الذي يرتكز عليه النص بأكمله، بحيث يشكل محوره المركزي الذي تتعلق به أو تدور في فلكه جملة التناقضات - أو التعارضات - الأخرى. إن العلاقات التي تنشأ عن هذا التناقض الأساسي في تفرعها وانبثاقها في النسيج الكلي للنص، كما في الواجهة العامة التي تحكم تطورها، هي التي ترسم الخطوط العامة لبنية النص وتعين قسماها الدلالية الأولية.

ضمن هذا المنظور نمضي في مقارنة نص امرئ القيس محاولين أولاً التعرف إلى التناقض الأساسي الذي يحكمه، ليكون هذا التناقض ركيزتنا في تعيين بنيته العامة.

يمكن لهذه المقاربة أن تتم من زاوية مكانية يفترضها هذا التوجه المباشر بدءاً إلى الطلل كمكان يحظى بأبعاد دلالية خاصة بحيث ينتظم القول بناء لذلك على أساس التناقض الأساسي الذي يقوم بينه كمعطي مكاني يتضمن معاني التلف والبلى والوحشة والغياب والحرمات والحزن... وبين فراش سلمى الممتلئ حضوراً وإثارة ومتعة وتألقاً ولذة وتحدياً وفروسية... وعلى قاعدة هذا التناقض ينتظم القول، وبه تتعلق جلته وتفصيله، وحوله ترسم المواقع الدلالية لأمكنته المختلفة الأخرى التي تحييء محملة بأبعاد الإثارة والموت

معاً كما هو حال بيت العذارى المتلىء حضوراً أنثوياً مثيراً، وإنما أيضاً الحافل بالخطر والمهدد بالموت المخيفين، وكما هو حال أماكن الغارات ومناطق الصيد يأتيها الشاعر ليحمل هو الخطر والموت للآخرين على صهوة فرس لا تقل إثارة وسحراً عن المرأة . .

ويمكن لمقاربة النص أن تجري انطلاقاً من زاوية زمنية فتعين في النص تناقضاً أساسياً بين الحاضر والماضي كما يشير التوجه إلى الظل بالتحية في مطلعته . فالحاضر الراهن يتسم بالغياب والمهم والاندثار والشوق . . . وكذلك بالانتماء بالتقصير والعجز والمهم . . . يقابله ماضٍ يضحج بالحضور والحيوية والجمال واللهو والشباب والقوة والثقة بالنفس والتفوق . . . وإذا كان في هذا الماضي من خطر أو احتمال لموت فإن هذا وذاك لا يصيبان الشاعر وإنما يصيبان أعداءه أو طرائده . فتكون السلامة إلى جانب الانتصارات أو الانجازات المتحققة من نصيبه . على هذه وتلك يستند الشاعر في توقعه لمستقبل من المجد والعظمة يتجاوز الحاضر بقدر ما يكمل الماضي .

من الممكن أن نلحق بهذه العلاقة بين الحاضر ذي السمات السلبية والماضي ذي السمات الإيجابية، تلك التي تستشف في النص بين النهار والليل . فبالنهار يلتحق صبح الظل ويوم اتهامه بالتقصير السلي . . مقابل التحاق ليالي سلمى الغرامية وليلة العشق المغامر معها الإيجابية بالليل . . . ويبدو يوم الدجن وسطاً بين الليل والنهار يحمل سمات الماضي من الجمال والإثارة وإنما أيضاً سمات الحاضر من الحرمان والخطر . وإذا كان ضحى الغارات وفجر الطرد قائمين في الماضي فإنها يجملان إليه بدورهما سمات الموت والدمار وإنما إيجابياً . . .

في كلتا المقاربتين يعتمد مدار - مكاني أو زمني - تجري من خلال تحديد معطياته البنيوية العامة محاولة بلوغ لبنة النص الدلالية . لكن هذه البنية بالذات ليست في هذا المدار أو ذاك - أو أي مدار آخر - رغم قوة الإيحاء بها أو الإيحاء إليها في الانتظام البنيوي الذي يمكن لأي منها أن يعرفه على امتداد النص، وإن كان العكس صحيحاً، أي وإن كانت لبنة أي مدار نصي أن يقرم حكماً في بنية النص العامة ويعرف فيها انتظامه البنيوي الذي يعطيه وحده في إطار هذه البنية بالذات دلالاته الفعلية .

في عملية البحث عن هذه البنية الدلالية نسعى إلى تحديد المعطى الأولي للتناقض - أو التعارض - الأساسي للمعنى كما يطرحه النص . وفي هذا المسعى يبرز ناتئاً لدى أي قراءة متيقظة للنص ذلك الطرح المقدم في البيت الثامن . ففي هذا البيت ذكر لانتهاج مزدوج للشاعر من قبل إحدى النساء (بسباسة) بالكبر وبالعجز عن الإمتاع . على هذا الانتهاج يأتي الرد مباشراً مجملاً في البيت اللاحق، واضحاً بتكذيب هذه المرأة ويستكمل مفصلاً في الأبيات

التالية في ما يشبه الاثبات الداحض لذاك الاتهام من خلال ذكر علاقة الغرامية بسلمى، ومن خلال تناوله لفروسيته اللاهية في الصيد والطرود، مروراً بتعرضه للنساء العذراوات ولفروسيته القتالية في الغارات والمعارك.

على ضوء هذا التناقض بين الاتهام والتكذيب بما يتضمنه كل منهما من أبعاد دلالية خاصة، يتنظّم النص بأكمله في عملية رد واحتجاج من بدايته حتى نهايته. وضمن هذه العملية بالذات يتبدى التوجه إلى الطلل لجوءاً إلى مكان يبحث فيه عن عزاء أو تعويض عما شكله الاتهام من تجريح في نفسه وإيذاء لكرامته. هكذا يتقدم البيت الثامن في القصيدة كبيت متميز يشغل موقعاً محورياً بين مجمل الأبيات الأخرى. كأنه قاعدة ارتكازها أو لولبها الذي يطلق فيها القول ويلملم متفرقه ويجمع مبعوثه ويعطي لما تقدمه مغزاه ويوضح الدور الذي يؤديه ما يلحقه. فعلى ضوءه تتقدم الأبيات السابقة عليه كأبيات مناجاة وشكوى وتحسر، إذ تذكر المرأة الغائبة (سلمى) وتفقدتها وتستدعي ليلالي الأُنس معها، فكأنها تبحث عبر ذلك كله عن جواب على ذلك الاتهام الذي يعلنه البيت الثامن. فإذا ما أعلن هذا الاتهام صريحاً يكر الجواب حساساً قاطعاً بالتكذيب ويتدرج الرد في أوجهه المختلفة في عناية واضحة بدحض الاتهام المذكور بحيث لا يترك أي مجال لتصديقه أو للأخذ به.

من الواضح أن هذا الاعتناء الشديد بالرد، حيث أنه يكاد يشغل مجمل القصيدة، في حين لا يحظى الاتهام منها بأكثر من بيت واحد، يدل على أهمية الإدانة التي يمثلها زعم بسباسة بالنسبة للشاعر. ورغم أهميتها فإنها لا تأتي في مطلع القصيدة أو بدئها، مما يعطي لهذه القصيدة تشكلاً بنوياً خاصاً ومتميزاً تجد فيه بنيتها الاحتجاجية أو الدفاعية العامة صياغتها النظمية المحددة.

هكذا بإمكاننا الخلوص إلى القول إن بنية النص العامة هي دحض مزدوج من قبل الشاعر لتهمة مزدوجة وجهت إليه. فرداً على ما اتهم به من كبر وعجز عن الإمتاع، يقدم الدليل على عكس ذلك مبيناً براعته الاستثنائية في إرضاء المرأة الجميلة المتزوجة وموضحاً مدى قدرته على القيام بأعباء الفروسية كما بالغ حيويته وإتقانه للصيد. وهو في ذلك كله يقدم نموذجاً للرجولة أو الفحولة الكاملة التي تجعل من تهمة بسباسة قولاً كاذباً وتزري بها.

تشكل هذه البنية في النص عبر تتابع في الوحدات الدلالية تنتظم في قسمين كبيرين يتخذان من البيت الثامن مدارهما المشترك على النحو التالي:

- قسم أول يضم الأبيات التي تنطلق من التوجه إلى الطلل الخاص بسلمى إلى تذكر ماضيها

فيه، في الأبيات السبعة الأولى حيث يبدو البيت الرابع وسطاً بين التساؤل عن النعيم (من البيت الأول إلى الثالث) وتذكر سلمى (من البيت الخامس إلى السابع) وتبدو جميعها مبهمة وموطئة لما يرد في البيت الثامن من اتهام مزدوج للشاعر من قبل بسباسة حين طعنت في شبابه وفي إتقانه للهو والمتعة، بقدر ما هي نوع من ردة الفعل الأولية عليه.

- قسم ثان خاص بالرد المفصل على التهمة الموجهة إلى الشاعر، يأتي هو أيضاً مزدوجاً خاصاً بالجانب النسائي - الغرامي من ناحية، وخصوصاً بالجانب الفروسي - البطولي من ناحية ثانية، ويمتد من البيت التاسع إلى نهاية النص (البيت الرابع والخمسين).

في هذا القسم يتميز المجال الخاص بسلمى عن العذراوات في الجانب الأول (الغرامي)، والمجال الخاص بالحرب والقتال عن ذاك الخاص بالصيد والطرْد في الجانب الثاني (الفروسي). إلا أن السياق الذي يأتي فيه ذكر العلاقة بالعذراوات ملتحمًا بذكر البطولة العسكرية يجعل هذين الموضوعين على ترابط وتداخل فيما بينهما، ومكونين بالتالي لوحدة دلالية خاصة و متميزة تشكل استمراراً وانتهاءً للجانب الأول بقدر ما تشكل انفتاحاً واندرجاً في الجانب الثاني، لتؤدي بذلك دور الوحدة الوسيطة بامتياز بين ما قبلها وما بعدها. مما يجعل القسم يعرف بناءً لذلك توزيعاً داخلياً تشغل سلمى الجانب الأول فيه، والطرْد الجزء الأخير، بينما يقوم جزء وسيط من مقطعين متميزين نسائي يتعلق بالعذارى، وفروسي يتصل بالعارك.

لا يحول هذا التحديد الأولي للتشكل البيوي للنص دون النفاذ إلى تفاصيل أخرى فيه تنطرق إليها في متابعتنا لكل قسم من هذين القسمين لاحقاً. إلا أننا نلفت الانتباه هنا إلى ما يتميز به هذا التشكل من تناسق رفيع يتمثل في تردد وتجاوب التشكل الثلاثي للبنية الثنائية العامة (من قسمين يتوسطهما ثالث) في كل من القسمين المذكورين.

هذا التشكل البيوي العام للنص على المستوى الدلالي يجد مرادفه أو مماثله على المستوى النحوي واللغوي، كما على المستوى الإيقاعي - العروضي والمستوى الأسلوبي. إذ يتميز البيت الثامن - المحوري في النص - بورود ضمير المتكلم المفرد للمرة الأولى فيه، كما يتميز بأنه لا يأتي تعبيراً مباشراً عن الذات. فليس الشاعر هو الذي يتولى التعبير بواسطته بقدر ما يأتي في أسلوب غير مباشر لينقل خطاب الآخر (المرأة صاحبة الاتهام). ويأتي اسم هذه المرأة بالذات في هذا البيت كذلك وحده دون سائر الأبيات ليضيف علامة لغوية فارقة متميزة عن سواه. بالطبع لا يعود اسم بسباسة للظهور في القسم الثاني وإن كان الخطاب موجهاً إليها، معبراً في هذا التوجه إلى المخاطب المؤث عن انعطاف يتولاه خطاب يتميز

بصيغته المباشرة واعتماد الشاعر فيه ضمير المتكلم المفرد منذ البيت التاسع ليحكم من ثم جميع الأبيات اللاحقة حتى آخر النص (القسم الثاني) خلافاً لما هو حاصل في الأبيات السبعة الأولى (القسم الأول).

هكذا يلتحم البعدان اللغوي والنحوي لبيئنا على مستوى النص بأكمله أن القسم الأول في تميزه عن الثاني لا يقوم بغير إطلاقه، عبر البيت الثامن الذي يتوسطها، كما هو الحال على المستوى الدلالي بالنسبة للتهمة التي تطلت رد الشاعر عليها. على المستوى العروضي لا يحدد هذا البيت (الثامن) في إيقاعه فاصلاً بين القسمين الأول والثاني بقدر ما يتشكل إيقاع النص بمجمله انطلاقاً منه، بحيث يبدي عن توازن خاص له دلالة. إذ يتردد إيقاع البيت المذكور مرتين في القسم الثاني (في البيتين العشرين والسابع والثلاثين) نلاحظ أن التكرار الأول يأتي في البيت الثاني عشر اللاحق عليه (البيت 20) ليشير عبر ذلك إلى وحدة إيقاعية أو مدى إيقاعي يعرف في البيت الثاني عشر اللاحق على هذا البيت الأخير نهايته. لكن البيت الذي ينتهي عنده هذا المدى الإيقاعي (البيت الثاني والثلاثين) هو البيت الذي ينتهي عنده الجزء الأول من القسم الثاني كما لاحظنا ذلك على المستوى الدلالي. لكننا نلاحظ أيضاً أن هناك توازناً آخر ينهض بين الإيقاعين المتكررين في هذا القسم الأخير. حيث يقوم بين الأول منها (البيت 20) والثاني (البيت 37) وبين هذا الأخير ونهاية النص توازن خاص تتوزعه وحدتان متماثلتان عددياً إذ يأتي الثاني على مدى إيقاعي أو بعد في عدد الأبيات من الأول مساوٍ لذلك الذي يفصله عن نهاية النص (سبعة عشر بيتاً). هذا الموقع الذي يحدده الإيقاع المذكور هو نفسه الذي يحدد التوزيع الدلالي الأولي للنص، إذ إن البيت السابع والثلاثين يقوم في وسط الوحدة الوسطى في القسم الثاني حيث يؤول الكلام عن النساء والغرام إلى نهايته، وحيث ينطلق الكلام عن الفروسية والفرس.

لكن هذه الوحدة الوسطى أو الجزء الثاني من القسم الثاني كما عيناه دلاليّاً أعلاه ينطلق من إيقاع عروضي (في البيت الثالث والثلاثين) مطابق لذلك الذي يبدأ به القسم الثاني - أو الجزء الأول منه - (في البيت التاسع) وينتهي عند إيقاع عروضي (في البيت الواحد والأربعين) هو نفسه الذي ينتهي إليه القسم المذكور - أو الجزء الثالث فيه - (في البيت الرابع والخمسين) ليحظى بذلك بعلاقتين إيقاعيتين لا يحددان تحومه، وفي الوقت نفسه حدود ما قبله وما بعده وحسب، وإنما أيضاً العلاقة الخاصة التي تربطه بهذا، وذلك، أي المقطع الأول منه المرتبط بما قبله (كما ترتبط العذارى بسلمي غرامياً... .) والمقطع الثاني بما بعده (كما ترتبط الغارات بالصيد فروسية... .) بما يتضمنه هذا التوازن العروضي العام من تماثل وتجانس مع التوزيع الدلالي المستعرض آنفاً.

بالإمكان أن يضاف هنا كون التطابق العروضي بين البيتين الثامن والعشرين لا يتيح تلمس توازن إيقاعي إلا في اتجاه واحد هو ذلك الذي تعينه الواجهة النظامية للنص كما تطرقنا إليه أعلاه. وفي الحين الذي لا يتيح فيه تطابق البيتين الثامن والسابع والثلاثين إمكان تشكيل توازن عام في حدود النص يشكل تطابق الأخير منها مع البيت العشرين، إضافة إلى التوازن الذي سبقت الإشارة إليه إمكان امتداد هذا التوازن إلى ما قبل هذا البيت (العشرين) بحيث يأتي البيت السابع عشر انطلاقاً منه وذهاباً إلى ما قبله في البيت الرابع، وهو البيت الذي تذكر فيه سلمى لأول مرة في النص. يعين هذا التوازن الجديد ما بين السابق على البيت العشرين وما يليه وحدة إيقاعية جديدة لا تتجانس مع البعد الدلالي المتمثل في كون سلمى هي محور التعبير فيها وحسب، وإنما تتجانس أيضاً مع ذلك البعد الدلالي الذي يجعل من علاقة الشاعر بسلمى بشكل أساسي رداً على اتهام بسباسة له. كأن هذا التوازن الذي يشكله البيتان الأخيران (العشرون والسابع والثلاثون) تأليف إيقاعي لبعد جديد يستوعب ذلك الذي يحاول البيت الأول (الثامن) تكرسه، ويتخطاه تماماً كما تتيح ردة فعل الشاعر على التهمة الموجهة إليه ودحضه لها دلاليّاً الاستنتاج.

قد نجد أخيراً على المستوى الأسلوبي للنص ما يتلاءم وهذا التوزيع العروضي والنحوي والدلالي. إذ يظهر التكرار اللفظي بارزاً إلى جانب اعتياد التورية في التعبير مع اللجوء إلى الكناية خاصة في القسم الأول، في حين يسود التشبيه بقوة في القسم الثاني ليستقر خاصة في جزئه الأول والثالث بينما يلحظ غياب شبه كامل له في الجزء الأوسط، حيث تظهر بعض صيغ التورية والكناية والتكرار دون أن تبلغ درجة الكثافة التي تميزت بها في القسم الأول.

هكذا تتضافر معطيات النص على مستوياته المختلفة في توزيع بنيوي متجانس يمنحه في تألفه وتكامله جماليته الشعرية المتميزة. لكن جمالية النص لا تقتصر على هذا التكوين العام الذي تنهض فيه بنيته الشاملة عبر تشكل ينم عن درجة عالية من التكافؤ بين مستوياتها المختلفة، وإنما يكمن كذلك في تفاصيل هذا التشكل البنيوي وفي العناصر المتنوعة المؤلفة له على مستوياتها المتعددة. وهذا ما سنحاول متابعته فيما يلي في تناولنا لهذه التفاصيل في اندراجها النظمي كما حددناه أعلاه.

ثانياً: المقدمة الطللية والتهمة الشنيعة:

تكشف بنية النص عن الدور المحوري الذي يؤديه البيت الثامن. فهو الذي يعطي للأبيات اللاحقة عليه مغزاهما باعتبارها رداً على الاتهام القائم فيه، وهو الذي يعطي للأبيات

السابقة عليه أيضاً مغزاها باعتبار أنها ليست موطئة له وحسب، وإنما هي أيضاً أثر من آثاره وبعض من ردة الفعل عليه. إنه البيت الذي يشع وينير القصيدة بأكملها في وحدتها وأبياتها المختلفة. وعلى ضوء الموقف القائم فيه تتخذ الأبيات السبعة الأولى في القصيدة دلالتها الفعلية. (22)

ليست مخاطبة الظلال أمراً يأتي في المطلق أو في الصدفة. إنها مرتبطة بذلك الاهتمام الموجه للشاعر، بحيث تبدو نوعاً من البحث عن جواب عليه، نوعاً من اللجوء إلى ذلك المكان الذي يمكن أن يجد فيه ما يرد التهمة ويثبت عكسها. وإذا كان لمطلع النص أن يشير إلى بنيته العامة فإن البيت الأول في القصيدة يوميء إلى هذه البنية من خلال هذا التوجه إلى الظلال تحديداً. فافتتاح النص بالدعاء للظلال البالي بالنعيم يدل على واقع قائم يسوده التهافت والخراب، ويتهدده الموت والزوال، لا يجد المتكلم إزاءه غير التمني طريقة في التعامل معه. مقابل الواقع السلبي المتحقق والحاضر يتطلع الشاعر إلى وضع إيجابي يتناقض معه، وذلك بقدر ما يتناقض خراب المكان وبلاؤه مع النعيم والرفاهة المطلوبين له. وكان هذا التناقض لا يغيب عن الشاعر حين يستأنف القول في الشطر الثاني المقابل في التساؤل عن إمكان حصول هذا النعيم. إن البعد الوجداني الذي يتبدى في الشطر الأول يظهر في الثاني وكأنه يحلّي الصدارة للبعد العقلاني، وذلك على قاعدة مشتركة من الواقعية في النظر والتعامل. فهناك تشكيك في بلوغ تلك الأمنية لمن عرف زمناً ولى وانقضى، والإيحاء بأن الزمن المقصود هو زمن الماضي الرغيد قبل البلاء الحاضر يرجح على ما عداه.

بيد أن في هذا التساؤل تعميماً أو إطلاقاً في القول، فهو لا يختص بالمخاطب تحديداً

(22) تبين هذه الرؤية للنص وللأبيات عن أهمية معالجة النصوص ككل، وليس كـ«مختارات» أو«مقتطفات»، أو مجموعات من الأبيات منتزعة من سياقها. فهذه الأبيات أجزاء من كل هي القصائد التي تأتي فيها، ودلالاتها الفعلية ليست قائمة فيها بقدر ما هي قائمة في البنية العامة للنص الذي تأتي فيه. إن اعتياد بضعة أبيات من قصيدة كنص للدراسة خارج سياقها البيوي لا يأمن من التباسات ومغالطات مريضة، خاصة حين يعتبرها «قصيدة» أو نصاً قائماً بذاته. ومن المحزن أن يكون ذلك عاملاً وشائعاً في كتب تدريس الأدب للصفوف الثانوية، ليس كتاب المفيد في الأدب العربي بينها (جزءان، لجوزيف الهاشم وآخرين؛ بيروت، المكتبة والمطبعة الأفريقية، الطبعة الأولى، 1971) إلا عينة بارزة من مجموعة كبيرة من كتب التدريس الشائمة والمتداولة في بلادنا (راجع خاصة الصفحات، 82-87... في الكتاب المذكور). ومن المؤسف أن يقع في هذه المهرة أساتذة جامعيون يتولون تدريس مادة النصوص الأدبية كما يمكن لكتاب د. أسعد ذبيان المخصوص في المتنقي من النصوص/ امرؤ القيس بيروت؛ دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، د. ت. أن يقدم نموذجاً فاضحاً على ذلك (راجع خاصة الصفحات: 48-47، و73 و77... و88 و91...).

ولمّا يتصل بغائب مبهم. لكن سياق التعبير لا يترك مجال الإبهام مفتوحاً بشكل مطلق. فذاك الذي ارتبط بالزمن الماضي الرغيد السابق على بلاء الطلل واحد من ثلاثة: الطلل نفسه أو ساكنه أو الشاعر المتكلم. إلا أن صيغة الأفراد قد تستبعد أهل الديار، وإذا بقي التعبير مترجماً بين الطلل والشاعر، فإن مغادرة صيغة المخاطب إلى الغائب ترجّح تقصّد الأخير. ويسأى البيت الثاني ليؤكد هذا القصد ويحسم حقيقة التعبير. بذلك يكون احتمال استبعاد النعيم والهناء خاصاً بالشاعر أكثر منه بأي طرف آخر، ويكون التعبير مقيماً لتوازن رهيف بين الشاعر والطلل من خلال تقابل شطري البيت الأول، وهو توازٍ يمضي إلى أبعد من التشابه أو التماثل ليصل إلى حد التماهي⁽²³⁾.

إن التوجه إلى الطلل هو في النهاية توجه إلى الذات، كأن الشاعر يجد في هذه الدار الخرية الدائرة صورة عن نفسه المهتمة الرثة، كأن المجال المكاني مرآة تعكس له أوضاعه الداخلية المضغضة. على هذا النحو يصبح التمني والاستدراك القائلان في البيت الأول تعبيراً عن حزن عميق وأزمة سريرة مدارهما هذا البلى الذي يميّز بالذات وبالتالي الموت الذي يتهددها في تقدم الزمن ومرور الوقت من ناحية، والتوق اليائس إلى سعادة بعيدة التحقيق إن لم تكن مستحيلته من ناحية ثانية.

ليس صعباً أن نتعرف في هذا التعبير الوجداني على المعاناة التي يدافعها الشاعر، وفي مدارها على ذلك الاتهام الذي وجه إليه بالشيخوخة والتقصير في المتعة وجهده الخبيث لرده وإسقاطه؛ وأن نتعرف بالتالي على بنية النص العامة في مطلع. ولما كان التعبير يأتي على هذه الدرجة العالية من التمويه والتورية، فإنه يشير بذلك إلى عمق المعاناة وقوة الأزمة، بقدر ما تتعلق هذه بعناصر أو ظواهر حيوية خاصة بالذات، أكان ذلك على صعيد السن أم على صعيد السعادة، تطرح مسألة وجودها نفسه على ميدان البحث وتجعل كيانها نفسه موضع إعادة نظر.

ضمن هذا المنظور يرشح التعبير بأبعاد مأساوية تتخطى حدود المطلع البيوي لتغلف النص بأكمله بمسحة من ظلال التمزق والكآبة والقلق، كما تتخطى حدود الوضع المباشر الذي يصدر عنه والتجربة المحدودة التي يتناولها لتبلغ آفاق التأمل الانساني في الزمن

(23) إلى ذلك يشير شارح ديوانه أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي المعروف بالأعلم الششمري (ت 476 هـ) حين يقول: «يقول: قد تفرق أهلك وذهبوا فتغيرت بعدهم عما كنت عليه، فكيف تنعم بعدهم! وكأنه يعني بذلك نفسه، فضرِب المثل بوصف الطلل» (ديوان امرئ القيس ذكر سابقاً، ص 27).

والوجود، الموت والمتعة، الحتمية والارادة... ربما بسبب ذلك حظي الخطاب الطللي بهذا الاهتمام المتميز في النص الشعري القديم، نظراً لما أتاح للأوائل من نفاذ إلى أعماق تجربتهم الوجودية، في أزماتها النفسية وقلقها الفكري واضطرابها المعيشي، ولما حدس فيه اللاحقون من كشافات مترامية في المدلول ومدى رحب في الأيحاء يستوعبان متفرق التجارب ومتعدد الأقوال، فيقيان مجال التجاوز في التواصل نفسه.

إن المعطى البنيوي العام للنص في مطلع القائم في بيته الأول يتجه في الأبيات السبعة اللاحقة نحو مزيد من الكشف والتوضيح، كأن كلاً منها يضيف إلى سابقه ما يفسره ويحده. كان النص يمضي نحو التبلور كلما أمعن في التقدم حتى بلوغ البيت الثامن، ذلك البيت الذي يصل التبلور فيه إلى نهايته ويشع المعنى منه على كل ما سبقه وما سيليه.

سبق وألطنا إلى أن البيت الثاني يزيل بعض الإبهام الخاص بالتساؤل الوارد في البيت الأول. فهو إذ يستعيده يضيف إليه من العناصر المحددة التي تزيد، دون أن تخرجه عن التعميم والتوازي الذي يتضمنه بين الطلل والشاعر، من ترجيح تناول الذات على سابقه، وذلك في ذكره للمخاوف والمهموم التي تتاب الذات موضع السؤال. كما تزيد من استبعاد النعيم الذي يتمناه حين يحصره في من تدوم سعادته. لكنه يجمع بين دوام السعادة من ناحية، وقلة المتاعب وانعدام المخاوف الليلية من ناحية ثانية وكأنه يساوي بينهما؛ حتى لتبدو السعادة قائمة لديه في طرح سلبي أكثر من كونها قائمة في طرح إيجابي. يتكشف بذلك أيضاً بعض من معاناته الشديدة، حتى ليكاد التخلّص منها يكون كافياً لإيراده موقع النعيم. لكن التساؤل يستعاد للمرة الثالثة في البيت الثالث في تعيين أدق يكاد يسمي المتكلم فيه حين يربطه بالانقطاع الزمني الطويل (حوالي ثلاث سنوات أو أكثر) عما يمكن اعتباره نعيماً أو سعادة، دون أن يبلغ مع ذلك حد الكشف الصريح، مستمراً في مراعاة الالتباس في الدلالة بين الطلل والذات، مقيماً نوعاً من التوازي بين وضعه ووضع الطلل يضيف إلى التعبير شحنة مأساوية لا تسفر عن وجهها بشكل مباشر. وفي هذا التوازي يشير إلى أن الانقطاع المذكور خاص بالتحديد بمن كان في هذا الطلل بالذات.

عند هذا الحد الذي تبلغه الأسئلة الأولى تكتمل تقاطيع الوجه الأول من وجوه التعبير المتعددة. يتبدى اللجوء إلى الطلل عن كونه تأملاً في ذات متهدمة كثيرة المتاعب والمخاوف منقطعة عن السعادة منذ زمن طويل. ولا يجري اللجوء إلى هذا المكان إلا لكونه مكاناً نسياناً قبل أي شيء آخر كما يدل على ذلك البيت الرابع، مع ما يوحي به هذا الوضع من علاقة غرامية خاصة تقوم الأبيات الثلاثة اللاحقة برسم قسماها. إن البيت الرابع هو بيت تحديد في أوجه عدة. فهو يحدد أولاً المرأة المقصودة في هذا الخطاب الطللي، حتى أن الطلل يلحق بها

وينسب إليها، فيبدو اسمها (سلمى) هو الذي يعرفه. وهو ثانياً يجدد موقع هذا الطلل معنياً مكانه الواقعي (بذي خال) فيزيده تعريفاً. وهو، في وجه ثالث، في سياق هذا التعريف المزدوج يذكر الطلل كتحويل صارت إليه الديار العامرة حتى أضحت آثاراً خربة مشيراً إلى دور الطبيعة بمطرها المركز والكثيف في ذلك. إلا أن هذا البيت يقيم أيضاً حداً بين ما قبله وما بعده. فإذا كانت الأبيات الثلاثة الأولى متعلقة بالفترة الزمنية الفاصلة بين بدء الغياب ولحظة الخطاب، فإن الأبيات الثلاثة اللاحقة تتناول الفترة الزمنية السابقة على هذا الغياب، بينما يبدو البيت الرابع وسطاً يصل بين الفترتين كما هو وسط يصل بين كلا المقطعين. وهو على هذا النحو لا يصل بين متجانسين. ففي حين يعم الغياب والخراب والحرمان والمهم. . . المقطع الأول، يسود المقطع الثاني الحضور والحياة والخصب والتوالد والمتعة. . . ففي هذا الأخير يمضي التصور إلى استحضار الماضي الرغد الذي يشكل وجود المرأة محوره الأساسي. حتى أن ما يذكر في هذا الماضي من أولاد البقر الوحشي وبيض الطيور وزهور الوادي المقصود وماء الهضاب المعروفة. . . بكل ما يضح به ذلك كله من حياة ورفاه وجمال وتآلف يأتي مرتبطاً بوجود هذه المرأة وحضورها فيه. بل إن هذه المرأة تتقدم وكأنها تجمع في جسدها هذه الأبعاد جميعها. فإذا بشعرها يفتر عن جمال استواء وحسن انتظام لأسنان يذكر بياضها ببيض النعام، متألفاً مع عنقها اللطيف الذي يضيف إلى رائع طبيعة تكوينه، الذي يستدعي تشبيهه بعنق الغزال وطلل الوحش، بديع صنعة زنته، التي تحمّل بدورها إلى ديار القوم وآبارهم. وإذا كانت المرأة تختزل في ذاتها ذلك الوجود الكثيف الغني والجمال، فلإنها إنما تؤدي ذلك بالتحديد في علاقتها بالشاعر. كأن كل ما ارتبط بها في ذلك الماضي السعيد يناله الشاعر عبرها وفي علاقة الحب التي تجمعها والتي لا يصرح بها ما دامت التهمة التي استدعتها لم تذكر بعد.

عند هذه الدرجة من التعبير يصل المقطع الثاني إلى ذروة التناقض مع المقطع الأول، في الوقت الذي تصل فيه مجمل الأبيات السبعة إلى مرحلة متقدمة من التوضيح. ففي هذا التناقض المشار إليه استكمال ما أعلنه المقطع الأول من حزن ويأس. إذ إن ذكر العلاقة بالمرأة على النحو الذي رأيناه يشير إلى الأبعاد الحقيقية للمراة التي تغلف التعبير، وإلى المرتكزات الفعلية للمساوية التي تلقي بظلالها عليه. فهو يفضح ما يمثل غيباب هذه المرأة بالنسبة إليه من فقدان لما يختصر أجل ما في الوجود، إن لم يكن الوجود نفسه؛ ويعطي للخطاب الطللي طابع التحسر العميق والقلق المأساوي. لكن مدى هذا وذاك لا تعرف حدوده إلا من خلال البيت التالي (الثامن). ففي هذا البيت خروج ظاهر عن موضوع الطلل وأمراته (سلمى) وما يتصل بها إلى موضوع جديد وامرأة جديدة (بسباسة).

تدعي هذه المرأة الأخيرة أنه تقدم في السن ولم يعد يتقن اللعب. وفي هذا الادعاء

إشارة بيّنة إلى هرم الشاعر، وبالتالي إلى ضعفه وعجزه؛ وفي صدره عن امرأة فإنه لا يقيم رابطاً بينه وبين تقصير الشاعر في اللهو وحسب، وإنما يعطي لهذا اللهو أبعاداً جنسية قوية كذلك. في هذا الحكم المزدوج عليه إجماع بانصرام عهد الشباب وامتعه لديه، كما يمكن لتلك الجنسية بينها أن تختصرها، ودخوله في مرحلة الشيخوخة، واقترابه من ثم من باب الموت والفناء.

على ضوء هذا الحكم يتضح الخطاب الطللي باعتباره خطاباً ذاتياً، نوعاً من المناجاة قبل أي شيء آخر. ويصبح التحسر على النعيم المستحيل (في الأبيات الثلاثة الأولى)، كما تذكر الماضي المفقود (في الأبيات الممتدة من الخامس حتى السابع) إزاء الطلل العافي (في البيت الرابع) موقفاً يعلن فيه الشاعر خيبة مزدوجة، في فترة غياب المرأة، كما في حاضر افتقادها، في فشل علاقته ببسباسة وفي فشله في العثور على سلمى. إنه يتوقع، هو القادم متقللاً بهمّ الاهتمام، أن يجد في هذا المكان ما يفيقه ويدحضه فیرتاح، كما عهد ذلك في الماضي. لكنه لا يعثر على غير البلاء والخراب.

ليست خيبته الناتجة عن فشل توقعه إلا وجهاً للخيبة الأخرى الناتجة عن فشله الواقعي (مع بسباسة). وإذا يتحدّد زمن هذا الفشل في اليوم الحاضر، فإن التوجه الصباحي إلى الطلل لا يبين مدى عمق أثره في نفس الشاعر وحسب، وإنما يكشف أيضاً عن موقعه في اليوم المذكور. فهو واقع حكماً في الليل السابق على هذا الصباح، مؤكداً بذلك الأبعاد الجنسية التي يوحى بها، موضحاً في الوقت نفسه المعنى المقصود من متاعب ليليه وخاوفها (البيت الثاني).

ربما من هذا الوضع الأزقي المحاصر بالفشل والخيبة من ورائه وأمامه تصدر تلك المساوية الطاغية على التعبير، ويتبلور ذلك الموقف إزاء الطلل باعتباره قبل أي شيء آخر موقفاً إزاء الذات المتهدمة الخربة والمهددة بالموت والزوال بقدر ما تتقطع صلتها بالمرأة.

بيد أن العلاقة بين الحاضر والماضي، بما هي علاقة تناقض، تبين عن تناقض آخر مداره العلاقة بين الحضارة والطبيعة، على أساس من التماثل بين الليل والنهار. ففي الماضي كما في الحاضر يتقدم النهار متجانساً مع الليل. قليل الاهتمام والخيبة والفرع يتلاءم مع نهار البلاء والاندثار والخراب في الحاضر، كما يتلاءم ليل الغرام والحسن والمتعة مع نهار الخصب والامتلاء والجمال في الماضي. إن الليل في الحالين هو زمن المرأة والعشق. . بينما النهار هو زمن النشاط المعيشي. مما يجعل من التناقض بين الماضي والحاضر تناقضاً وجودياً كاملاً يدل على عمق الأزمة والمعاناة التي يشير إليها الخطاب الطللي.

وإذا كان نهار الحاضر الطللي القفر يتناقض مع نهار الماضي الممتلئ بالناس والحيوان،

فإنه أيضاً يتناقض مع ليل الماضي . ففي حين لا يتيح هذا النهار رؤية غير العدم ، فإن هذا الليل يتبدى عن حضور وجمال مماثلين لحضور وجمال النهار إن لم يتفوقا عليه . في هذا وذاك رد ضمني على التهمة المضمرة قبل التصريح بها في البيت الثامن الذي يرجح ورودها آخر الليل الحاضر، فيها إشارة إلى حسن المرأة، وإلى غناها أيضاً، بما يوحي بأن علاقات الشاعر النسائية تتم على مستوى اجتماعي رفيع بقدر ما تتم على مقياس جمالي عال، بحيث تبدو علاقته بسلمي ظفراً راقياً يؤكد رجولته وفحولته، إذ تتم مع امرأة يتنافس فيها الرجال، مع امرأة مكثفة مادياً وشخصياً ليأتي شغفها بالرجل شغفاً خالصاً بفحولته دون أي مؤثرات خارجية أخرى أو هامشية . فإذا أضيف إلى ذلك كون هذا الغرام متكرراً مستديماً عبر الكثرة التي تشير إليها «ليالي سلمى» فإن ذكره على هذا النحو يتجاوز الغزل بالمرأة إلى الفخر والاعتداد بالذات التي تجد عبره ما تجبه به موقف بسياسة منه .

لكن هذا الحضور الجميل يبدو متصلاً بالبعد الحضاري أكثر منه بالبعد الطبيعي . ففي الإيحاء بكونه مقيماً في العلاقة الغرامية بين المرأة والرجل، ومتصلاً بالتالي بما يعتبر إغواء من قبل المرأة للرجل، يلتحم مع الزينة النسائية ويتكامل معها، بما هي عمل صناعي، في الانتفاء إلى هذا البعد الحضاري تحديداً . وهذا ما يؤكد تناقض رؤية هذا الحضور الجميل ووقوعه بالتالي في دائرة النور، مع حلول الليل ووقوعه في دائرة الظلام . وهو تناقض يمتد للإيحاء بآخر بين هذا النور - وناره؟ - وما يرتبط به من بياض وجمال (البيت السابع) يتجانس مع بيض الطير وطلا الوحش (البيت الخامس) من ناحية، وذاك المطر - ومائه - المستديم وما يرتبط به من سواد سحاب يتفق مع البلاء والعناء من ناحية ثانية، مع ارتباط الأول بالماضي الغرامي السعيد والحضارة، والثاني بحاضر الحرمان الحزين والطبيعة . وإذ يبقى هذا البعد النوراني - الناري - مضمراً وضامراً هنا إلى جانب قرينه ومتعلقه الأبيض البارز في تناقض مع الأسود المائي، فإنه سيعرف لاحقاً في تناقضه مع الظلمة والبرد تصریحاً وتوسيعاً كما سنشير إليه في حينه .

عل هذا النحو تتضح أبعاد التشكل البيوي للنص ومغزاها الفعلي . إن مجيء المقدمة الطللية قبل ذكر التهمة التي استدعتها تعبير وجداني عن أزمة الشاعر العميقة، وهي أيضاً رد مباشر عليها وتكذيب مسبق لها . إذ يأتي زعم بسياسة (عن عجز الشاعر) مباشرة إثر ليالي سلمى (الغرامية) فإنه يتقدم مستغرياً مستهجنناً ويصبح موضع شك وصاحيته موضع تشكيك، وليس الشاعر . هكذا يسهم الخطاب الطللي في رد التهمة، وفي مساهمته هذه بالتحديد، في مدافعتة لها وتأخيرها وتكذيبها، يشير إلى ما يحاول إخفاءه، ويعلن ما يحاول

ستره من قلق واضطراب مأساويين، بحيث يأتي البيت الثامن كشفاً فاضحاً لما جرى تأجيله ليجري بالتحديد تكذيبه .

لكن الحاضر يقيم تناقضاً بين ما هو حضاري وما هو طبيعي، حيث يغلب هذا الأخير على الأول كما تدل على ذلك العلاقة بين المطر المركز الشديد والديار المتهالكة المنشرة من ناحية، وبين التقدم في السن والعجز عن اللعب والمتعة من ناحية ثانية؛ في حين يتجانس الحضاري مع الطبيعي في الماضي حيث يتألف الاثنان في تكامل مثير كما يشير إلى ذلك تجاور أولاد البقر-اللوحي وببيض النعام مع تكاثر حلول الناس، ونبت الخزامى مع بثر القوم، وجمال عنق سلمى مع حليها . . .

ضمن هذا المنظور تصبح العودة إلى الماضي نوعاً من التمسك بهذا التجانس المفقود، ومحاولة لمواجهة الخلل الذي يأتي به الحاضر، والذي يحمل معه علامات الموت والدمار، ويكون الخطاب الطللي أبعد من التهاهي بين الذات والطفل، تعبيراً عن التهاهي بين الحضارة والحياة، وانتصاراً لها على تحكم الطبيعة والموت؛ وتكون المساوية المترتبة فيه أيضاً، بناء لذلك، تعبيراً عن المازق التاريخي الذي يحكم الوضع بأكمله الذي يمنع هذا الانتصار من أن يكون انتصاراً واقعاً وحاضراً. هكذا يرسم الخطاب الطللي، في ظلال كلام وجداني مداره المرأة والحب، شبكة من العلاقات المتداخلة بين متناقضات تتواجه بين الحضور والغيب، بين الحرمان والمتعة، بين العجز والقدرة، بين الطبيعة والحضارة، بين الموت والحياة.

في اختراجه لهذه الكثافة الدلالية المركبة يحظى هذا الخطاب بقيمة تعبيرية راقية كانت على الأرجح وراء ذلك الاهتمام الذي حظي به لدى شعراء المرحلة، ولدى أولئك الذين نحوا نحوهم فيما بعد. (24) إلا أنه ما كان ليصبح نموذجاً فنياً في القول لو لم يعرف إبداعية شعرية تجلت قبل أي شيء آخر في هذا التكافؤ الذي يقوم بين مستوياته التعبيرية المختلفة .

(24) من الواضح أن الخطاب الطللي هنا جزء عضوي من النص الكلي ذو علاقة بنيوية أساسية بأجزائه الأخرى. وهو بذلك أبعد من الاستشارة الوجدانية التي يطلقها مشهد الطفل لدى الشاعر. إنه مكون أساسي من مكونات التجربة الشخصية والشعرية، ومعطى أساسي من معطيات المرحلة التاريخية التي تشكل إطارها. وهذا ما فات معظم أولئك الذين تعرّضوا لدراسته كما يمكن لمساهمة د. محمد نويبي أن تقدم عينة عن ذلك (راجع كتابه الشعر الجاهلي / منبج في دراسته وتقويمه (جزءان) القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر د. ت. خاصة الصفحات، 448-435) أما أولئك الذين قالوا بتقليديته في المرحلة السابقة على الإسلام فلم يلتفتوا إلى غيابه عن معظم قصائد هذه المرحلة، وعن الشعر النسائي فيها عامة . . .

- فعلى المستوى الإيقاعي تتميز الأبيات السبعة الأولى بالبده بإيقاع عروضي منفرد والانتهاه إلى إيقاع عروضي يتطابق مع سابق عليه (البيت السابع مع البيت الثالث) بالإضافة إلى بيتين مختلفي الإيقاع (الثاني والرابع) وآخرين متطابقين (الخامس والسادس)، بحيث تتيج الأبيات المتطابقة بينها تكوين وحدة إيقاعية كاملة خاصة بهذا الخطاب الطليلي قوامها أبيات ثلاثة أولى مقابلة للأبيات الثلاثة الأخيرة يعين تطابق البيت الأخير في كل مجموعة منها حدها النهائي، ويؤكد تطابق البيتين الخامس والسادس في المجموعة الأخيرة تشكلها الثلاثي وحدها الافتتاحي، بينما يقوم بين المجموعتين بيت وسيط (الرابع) ذو صيغة عروضية تتميز بأنها الأقل عدد زحافات بين هذه الأبيات، بالإضافة إلى تفردا في النص. كأن الإيقاع يستعيد بذلك التوزيع الدلالي للخطاب الطليلي ويعبر، في الوقت نفسه، عبر اختلاف وحداته المكونة عن اختلاف الدلالة بين أجزاءه، فيسود التطابق في ذلك الجزء الخاص بالماضي الرغيد (في الأبيات الممتدة من الخامس إلى السابع) بينما يسود الاختلاف في الجزء الخاص بماضي الانقطاع التعيس (في الأبيات الثلاثة الأولى) في حين يعبر تمايز البيت الرابع عن الحاضر القائم بشكل خاص كما انتهى إليه هذا الماضي بالذات. وفي ذلك كله انتظام إيقاعي على درجة عالية من التجانس مع الانتظام الدلالي. إلا أن هذا التجانس لا يقتصر على هذا الجانب. فتفرد البيت الأول يتلاءم أيضاً مع الدلالة الاستثنائية التي يتضمنها والتي تفتتح الالتباس الخاص بالمخاطب فيه. ويأتي التصريح القائم فيه ليقيم، أبعد من لعبة إيقاعية فنية، نوعاً من التوازي بين «الطلل البالي» و«العصر الخالي»، بين البناء المهتم والزمن المنقضي، بين الحقيقة المكانية والحقيقة الزمانية، بين الموت الزاحف والقطيعة المتنامية، بين الذات المتمزقة والمرحلة العابرة، كما بين الحضارة القائمة والطبيعة الطارئة. . . فيتلاءم المطلع الإيقاعي مع المطلع الدلالي على أقوى ما يكون. يأتي البيت المنفرد الثاني (الرابع) متماثلاً مع البيت الأول في التفرد، وفي اعتياد تفعيلة عروض واحد تقتصر عليها دون بقية أبيات القصيدة من ناحية، كما يأتي متماثلاً معه في التقفية القائمة بين شطريه والتي لا يعرفها أي من بقية أبيات القصيدة جميعها من ناحية ثانية. لكن هذه التقفية إذ تأتي بقافية للعروض مطابقة لتلك التي استخدمها ضرب البيت الأول، فلإنها تشير إلى تميز الأولى عن هذه الأخيرة وخصوصيتها الاستثنائية. كأن اسم المكان الوارد في نهاية الشطر الأول من البيت الرابع، وليس تلك الصفة القائمة في نهاية البيت الأول هو الذي يؤسس قافية القصيدة وإيقاعها، وهو الذي يعطيها حروف رويها ووصلها وردفها. ولما كان هذا الاسم قائماً في وسط البيت الأوسط من القسم الأول، فإنه يعبر في موقعه كذلك عن هذا الدور المركزي الذي يؤديه فيه وفي مجمل النص. إنه في النهاية يفضح سر القافية ومعه سر القصيدة بأكملها، إذ يجمل تلك كما هذه إلى ذلك المكان الذي يختصر التجربة الشخصية (الغرامية) والتجربة الاجتماعية

(الحضارية)، والذي يلجأ الشاعر إليه وينطلق منه التعبير.

• على المستوى النحوي يتيح اختلاف الصيغ التعبيرية بين الانشاء والخبر تمييز الأبيات الثلاثة الأولى الإنشائية الجمل عن الأبيات اللاحقة الخبرية الجمل. إلا أن النظر في وضع هذه الجمل من زاوية تركيبها يبين عن اختلاف هذه الأخيرة فيما بينها، بحيث يتميز البيت الرابع بجملته الاسمية عن الأبيات الثلاثة التي تليه في كونها جميعها ذات جمل فعلية. بذلك يتبدى التوزيع الدلالي والايقاعي الملاحظ أعلاه على المستوى النحوي الذي يؤكد أيضاً من خلال تداول الضمائر في هذه الأبيات السبعة.

فالأبيات الثلاثة الأولى تشترك في ورود ضمير الغائب المفرد المذكور فيها جميعاً، في حين يحمل البيت الرابع ضمير المؤنث المفرد (الخاص بجمع غير العاقل) وتأتي الأبيات الثلاثة الأخيرة لتتشارك جميعها في اجتناع ضمير المخاطب المفرد المذكور مع ضمير الغائب المفرد المؤنث (للعاقل). ولما كان الشطر الأول في البيت الأول يتميز بحضور ضمير المخاطب المفرد المذكور (لغير العاقل) فإنه يوميء إلى علاقته بالبيت الرابع المتميز بدوره في هذا البعد غير العاقل لضميره. فكأن تفردهما الدلالي والايقاعي، وخاصة الدور الخاص للبيت الرابع في هذا التفرد، يستعاد هنا على المستوى النحوي. كذلك تستعاد خصوصية الأبيات الثلاثة الأخيرة التي تؤدي التطابق الايقاعي في هذا القسم، عبر تكثيف الاشارات النحوية الخاصة بها، دون أن تعدم هذه الأخيرة ما يميز البيتين المتطابقين المتعاقبين مباشرة (الخامس والسادس) عن الأخير بينها (السابع) المتطابق مع الثالث عبر إثبات ضمير الغائب المفرد المذكور في هذين البيتين الأخيرين دون بقية الأبيات الخمسة الأخرى. فيعرف التناسب والتجانس بين هذا المستوى (النحوي) والمستويين اللذين سبق التعرض لهما (الدلالي والايقاعي) حداً راقياً جداً من التعادل والتكافؤ، تقوم المفردات اللغوية المعتمدة بتكريسه ومضاعفة آثاره.

إن الأبيات الثلاثة الأولى تتميز بتكرار «يعمن» فيها، بينما يتكرر اسم «سلمى» في الأبيات الأربعة التالية حيث يتميز في البيت الرابع عنه في الأبيات الثلاثة اللاحقة باجتماعه مع اسم علم آخر مذكر (ذي خال). كأن هذا الاجتاع على المستوى اللغوي - المعجمي تأكيد لدور البيت الوسيط بين ما سبقه الخاص بالطفل وما يليه الخاص بالمرأة. بل إن هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة تتميز عن سواها في تكثيف التكرار فيها بما يتفق مع وضعها الايقاعي، حيث أن تكرار «تحسب سلمى لا تزال» . . . خاص بالبيتين المتطابقين المتتابعين (الخامس والسادس) بينما يأتي تكرار «جيد» في البيت السابع ليتجاوب مع «التكرار» الوارد في البيت الثالث (بين «ثلاثين» و«ثلاثة») المتطابق معه . . .

- على المستوى الأسلوبي يلحظ للوهلة الأولى، رغم افتتاح النص بالتعبير المجازي ضعف أو هزال المحسنات البلاغية المعتمدة في الأبيات السبعة الأولى إجمالاً. كأن واقعية التعبير هي التي تحكمه وتجعله تعينياً مباشراً. إلا أن التمعن أليها يكشف عن أن هذه الواقعية التعيينية المجردة من الصور البلاغية لا تصدق إلا على البيت الأوسط فيها، ليتأكد من خلال ذلك مرة أخرى، على هذا المستوى، ما سبق ولاحظ على المستويات الأخرى من تشكل تعبيرى لهذا القسم (الأول) من النص.

إذا كان البيت الأول يفتح بالتشخيص فإنه يشكل إجماعاً بالبعد الإنساني القائم فيه، كما أن في تكرار النعيم المتمنى له مع المخاطب - المتكلم إجماعاً ببعده الذاتي بما يتفق مع التهاهي بين الشاعر والطفل الذي أشرنا إليه دلاليًا، وبالتالي مع الدور المطلعي النبوي الذي يؤديه في النص. لكن الأبيات الثلاثة الأولى تشترك، إلى جانب التكرار اللفظي الذي يجمعها في استعادة افتتاحية الصيغة الاستفهامية في كل منها، مع المحافظة على تمييز الأول بينها في موقع الاستفهام بما يحفظ تميزه عن البيتين الآخرين، في أسلوب التورية العام الذي يغلفها جميعاً ويجعل من هذه الصيغ الاستفهامية كناية تعبر عن خلال تساؤلها الموضوعية عن الهموم الذاتية متدرجة في تتابعها نحو مزيد من التلميح إلى مقصودها.

لذلك يأتي البيت الرابع وكأنه المآل الذي كان اتجاه التعبير يقصده، ولكنه أيضاً المنطلق الذي يتحول عنه في اتجاه جديد في الأبيات الثلاثة اللاحقة. وهو في تعيينته يكشف ما كان مستوراً ومتوارى حتى الآن، فيجيء باسمي العلم المتعلقين بالسابق واللاحق، والرابطين لها، مؤكداً دوره التوسطي كما لوحظ آنفاً.

ويكاد البيتان الخامس والسادس أن يتأثلا مع البيت الرابع في اقتراب التعبير فيهما من التقرير والتعين، إلا أن الطباق التأويلي الذي يمكن ملاحظته فيهما (بين طلا الوحش والبيض، وبين وادي الخزامي ورس أوعال) يأتي، إلى جانب ما يفضلان به من تكرار مشترك لمقطع تعبيرى طويل نسبياً («وتحسب سلمى لا تزال...») ليميزهما عنه، ويقربهما، عبر المحسنات البلاغية والتكرار، من البيت الأخير فيما يؤكد تمايزهما وتطابقهما الرفيع بما يتلاءم مع تطابقهما النحوي والايقاعي والدلالي. لكن البيت الأخير يبدو في اشتاله على التشبيه في شطره الثاني كأنه يتجاوز مع تشخيص الشطر الأول للبيت الأول، ليشاركها معاً في التصوير البياني، وليعرف القسم بأكمله على هذا النحو توازنه الكلي الراقي متلائماً في ذلك مع وجه من أوجهه الدلالية، مؤكداً الرابط القائم بين النعيم المطلوب والنعيم المفقود، فاضحاً حقيقته بشكل قاطع، معبراً في وصله مطلع القسم بخاتمته عن اكتمال التعبير فيه، وبالتالي إمكان الانتقال إلى ما يغايره.

في ذلك كله تناسب مع ما سبقته ملاحظته على المستويات الأخرى، وهذا التناسب إن لم يعرف في بعض جوانبه تطابقاً أو تساوياً تاماً، فإنه مع ذلك يحظى بدرجة عالية من التعادل والتكافؤ تفسر هذه الجمالية الابداعية التي يحظى بها.

بيد أن هذا القسم، كما سبق وقلنا، ليس مستقلاً، قائماً بحد ذاته، فهو مرتبط عضوياً بالبيت الثامن الذي يشكل المآل الفعلي لعملية الكشف التي تتابع فيه، بقدر ما يشكل التعليل الحقيقي لمغزاها وسيرورتها.

إن البيت الثامن يستعيد حرف افتتاح الكلام (ألا) ليكون تنبيهاً على أهمية ما يأتي إثره، وعلى أولوية هذا القول والموقع الجدير به أن يحتله كذلك. إنه يشير عبر التعاقب الحدوثي إلى سببته، بحيث يوضح اتهام سياسة حقيقة التوجه إلى طلل سلمى، ويكشف بالتالي سبب الحزن والخيبة والمأساوية التي تعم التعبير فيه. كأن ذكر ما حصل قبل هذا الخطاب الطللي وما يفسره إذ يأتي بعده، لا يكون حرف الافتتاح والتنبيه فيه، المطابق لذلك الذي افتتح القصيدة، إلا إشارة يستعيد من خلالها القول ما اختل من توازن الترتيب فيه، أو هو يقرب بالتكرير والتلميح ما استبعدته التورية وأخرته المدافعة. فأولوية الانتباه يجدر بها أن تكون من نصيب ليس الخطاب الطللي، وإنما الخبر الاتهامي، وإن ما يطلق نص القصيدة بالتالي ليس ذلك الخطاب وإنما هذا الخبر بالذات. على هذا النحو ينهض هذا البيت (الثامن) مقابلاً للآيات السبعة السابقة بقدر ما يشكله من أولوية دلالية عليها، وما تمثله من تقديم يمهد ويحضر لمجيئه.

هذا ما يؤكد اعتماد ضمير المتكلم المفرد في هذا البيت إزاء المخاطب - والغائب - المفرد قبله. فهذا الأخير ليس إلا صيغة من صيغ الدلالة على المتكلم، بينما يأتي البيت الثامن ليحل صيغة المتكلم محل المخاطب في الأسلوب غير المباشر الذي يلجأ إليه. كأن هذا الأسلوب بدوره تعديل الانحراف الذي دفع إليه التمويه ومعادلة له في آن. فكما يتضح أن المتكلم مخاطب هنا يتضح أن المخاطب متكلم هناك، وفي ذلك فضح للمخاطب الأول الذي يفتتح به الخطاب الطللي والنص (الطلل المتهدم) ولعلاقة التهامي التي يرسبها النص بينه وبين الشاعر. كما في ذلك توضيح لوضع المخاطب في الآيات الثلاثة الأخيرة خاصة فيما انتهت إليه (في البيت السابع) حيث يبدو اعتماد المتكلم لصيغة المخاطب تبعيداً يتفق مع ذلك الماضي البعيد الذي يستعيده، بقدر ما يشكل اعتماد صيغة المتكلم في البيت الثامن نوعاً من التقريب يتفق مع القرب الزمني لوقوع الحدث - الحديث، كما يتفق مع الأثر الداخلي القوي الذي تركه في نفس المتكلم - الشاعر. وهو أثر قد لا يكون منقطعاً عن محاولة تلافي النقل الحرفي لذلك الخطاب - الحديث، ليس عن عفة مستبعدة بفضل ما يجيء من أبيات «إباحية» لاحقاً،

وإنما - على الأرجح - عن محاولة للتخفيف من وقع هذا الخطاب في غلظة وفجاجة تعبيره، غلظة قد يكون اسم المرأة المذكور هنا (بسباسة) في النبر النافر القائم في تلفظ حروفه كما في ارتباطه المعجمي بالبعد الطبيعي⁽²⁵⁾ موحياً بها، بقدر ما يتقدم هذا الاسم متعارضاً مع اسم المرأة الأخرى هناك (سلمى) في تألف نغم تلفظ حروفه كما في ارتباطه المعجمي بالبعد الحضاري. ⁽²⁶⁾ ربما لذلك أيضاً جعل خطاب المرأة (بسباسة) يتميز في جانب اتهامه الأول (الكبر) عنه في الثاني (اللهو). فهو إذ يستبعد نسبة هذا الأخير إليه مباشرة، وقد جعله خاصاً بأمثاله خلافاً لما قام به بالنسبة للأول، فكأنه يسعى لإبعاد ذاته عن هذه الدائرة الخطرة والخرجة.

ضمن هذا المنظور لا يأتي ضمير المتكلم هذا لأول مرة في آخر الشطر الأول من البيت الثامن بدون مغزى. ففي هذا الموقع بالتحديد يأتي في عروض البيت بحرف الرفع المعتمد في القافية، وهو ما يشكل قاسماً مشتركاً بينه وبين البيت الرابع الذي سبقته الإشارة إلى دوره المركزي على هذا المستوى الإيقاعي. مما يجعل من هذه المشاركة الموقعية - الإيقاعية بين اسم علم المكان الذي يوجد فيه الطلل، وبين ضمير المتكلم إشارة إضافية إلى التماهي بين موقع الطلل وموقع الذات. ويتبدى كشف اسم المكان (ذي خال) لسر القافية (الخال) باعتباره كشفاً لفضاء التجربة الذاتية الذي يعينه ويؤكده ورود ضمير المتكلم المفرد لأول مرة كذلك في قافية هذا البيت (أمثالي) بشكل لا يترك مجالاً لكثير من التأويل.

لكن هذا البيت (الثامن) رغم كشفه لمغزى ما سبقه، لا يؤدي في الكناية التي يأتي فيها كشفاً كاملاً. وهو بذلك لا يتصل فقط بتساؤلات القسم الأول المأساوية، وإنما يشير أيضاً إلى أن ما انتهى إليه هذا القسم وهذا البيت بحاجة إلى مزيد من الكشف والتصريح، وهو ما سيتولاه القسم الثاني تحديداً.

ثالثاً: الفحولة المفحمة في الغرام والفروسية:

إن البيت الثامن، كبيت لولبي يرتبط به ما جاء قبله وما يأتي بعده، هو الذي يعين المغزى الدلالي للقبيل (القسم الأول)، وهو أيضاً الذي يوضح الدلالة الحقيقية للبعد (القسم

(25) السباس بقله من الثبات الطيب الريح يشبه طعمه طعم الجزر، واحدته بسباسة... أما السباسة فالسماوية بين الناس...

(26) ذلك أن السُّم لدغ الحية، والسليم اللدنيغ والجمع سلمى. قيل هو من السلامة، وإنما ذلك على التناؤل له بها خلافاً لما يحذر عليه منه... كما أن السليم وجمعه سلمى الجريح المشرف على الهلاك سموه به تناؤلاً بالسلامة.

الثاني). وإذا كان الخطاب الطللي في القسم الأول قد جاء مموهاً في تعبيره عن أسس وقلق عميقين عبر الحزن والحسرة العابرين، فربما اتفق ذلك مع موقعه المذكور ودوره الذي يؤديه فيه، حيث أنه تقدم إعلان التهمة التي يجيء بها البيت الثامن، فكأنه يدفعها ويستبعد فيها هو يؤخرها. لكن ما أن تعلن هذه التهمة، مع ما تتضمنه من تلميح، حتى يتحول التعبير إلى المباشرة والتصريح، وينطلق حاداً وعنيفاً مما يؤكد الأهمية التي يعطيها لها. هذه الأهمية ماثلة على كل حال في نهوض القسم الثاني بأكمله (منذ البيت التاسع وحتى آخر النص) كمرافعة احتجاج ضد التهمة المذكورة، تقوم على تكذيبها وتأكيد نقيضها. وهي مرافعة تتشكل كما سبق وبيننا أعلاه في ثلاث وحدات أو ثلاثة أجزاء مترابطة تتلاحم في تأديتها لهذا التكذيب القائم في مطلعها: الجزء الأول تفصيل لغراميات الشاعر التي تشكل دحضاً لما تدعيه صاحبة الاتهام - بسباسة - (من البيت التاسع حتى الثاني والثلاثين)، والجزء الثاني تعليل لما يصدر عنه من عفة تبدو في ظاهرها متناقضة مع ما فصله الجزء الأول (من البيت الثالث والثلاثين حتى الواحد والأربعين)، والجزء الثالث استكمال للتعليل وللدرد على الاتهام في ميدان آخر (الطرد) ينجز المرافعة بأكملها على أتم ما يكون (من البيت الثاني والأربعين حتى الرابع والخمسين). هذا التلاحم الدلالي يجد على المستويات الأخرى معادلاته الإيقاعية والنحوية والأسلوبية كما ألمعنا إلى ذلك أعلاه وكما سنمضي في تفصيله أدناه.

1 - الإصباة الفريد:

إذ ينطلق التعبير في البيت التاسع من التكذيب، لن يكون ما يتلوه إلا تفصيلاً لهذا التكذيب على مدى القسم بأكمله. لكنه هنا يرتبط بموضوع محدد يأتي التصريح به ليكشف حقيقة التلميح الواردة في اتهام البيت السابق عليه (الثامن)، فيتبدى مدلول اللهو عن أبعاد جنسية مباشرة. ذلك أن ما يستند إليه التكذيب هو قدرة الشاعر على الاغواء والارضاء الجنسيين، قدرة تجعله يستهوي المرأة المتزوجة ويحصن زوجته من أي إغراء مهما كان مثيراً. وهو بذلك لا يهتم بغير لب الاتهام وأساسه، فلا يلتفت إلى ما قدم فيه من تقدم في السن ربطه بالعجز عن اللهو أو اتقان الغرام، محولاً إياه من ازدواجيته الظاهرة إلى حقيقته الواحدة. لكن التكذيب يأتي مع ذلك مزدوجاً. كأنه يحاول أن يؤدي في ذلك بالغ المقدر على الغرام وإتقانه بحيث يبدو استثنائياً لا مثيل له، فترغب فيه نساء الآخرين لافتقادهم نظيراً له، ولا نجد امرأة في سواه ما يغريها به.

في تأكيده لهذه الفريدة في الاستهواء والإصباة يبرز هذا البيت الرد المباشر والحاسم على سابقه. وفي دلالاته الجوابية الإجمالية وإنما العميقة على الزعم الوارد في البيت الثامن يتقدم في

كامل المرافعة التي يبدأها كمطلع بنيوي لها، ويمضي بالتالي بأولوية فيها تجعله الند الفعلي للبيت اللولي، لولياً مثله. وهو يماثله أيضاً في هذا الاختزال الذي تعرفه الازدواجية القائمة فيه إلى حقيقة واحدة. فالأبيات التي تليه وتفصله على امتداد الجزء الأول لن تتعدى تناول مسألة واحدة أو جانب واحد من الجانبين اللذين يستند إليهما التكذيب، وهو ذلك المتعلق بإغواء نساء الآخرين. كأنها في ذلك، مثلها مثل وضعه هو إزاء البيت الثامن، لا تتعرض لغير لب الموضوع وأساسه. فحقيقة الاتهام لا تتناول علاقته بزوجه أو علاقة الآخرين بها، وإنما تتناول علاقته هو بامرأة أخرى غير زوجته. لذلك يتركز التفصيل عند هذا الجانب الأخير تحديداً.

في هذا التركيز نتبين محورين دلاليين: الأول خاص بتقديم هذه المرأة الأخيرة، والثاني يتناول إحدى لياحه الغرامية، ليتكون بذلك هذا الجزء الأول في مقطعين: يمتد الأول من البيت العاشر حتى السابع عشر، والثاني من الثامن عشر حتى الثاني والثلاثين، يجمع بينهما البيت الأول (التاسع) كبيت مجمل وعام مشترك. كأن الشاعر يتابع في ذلك نهجه العام في التعبير، ماضياً باستمرار نحو مزيد من التوضيح والتفصيل، معتمداً هذا التوزيع الثنائي في تشكله الثلاثي.

- في المقطع الأول تقدم المرأة أولاً في علاقتها بالشاعر، وبالتحديد في تلك العلاقة الغرامية التي تجمعها، والتي تتضمن في مدلولها كما في صيغتها التعيرية (اللهو) ما يشكل رداً مناسباً على زعم بسباسة. من هذه الزاوية بالذات يمضي في استعراض ميزاتهما بما يشبه التنويه بنوعية المرأة التي يتمتع بها، إذ نجده يشيد بها في أمرين يلفتان النظر: جمالها الخاص المشير، وبراعتها في ممارسة اللهو والغرام. كأنه يقيم عبر ذلك تمييزاً بين امرأة حسنة ومتقنة للهو، وبين امرأة أخرى ليست كذلك.

من خلال هذا التمييز يجري رد للاتهام على صاحبه، وذلك بإعادة طرح المسألة بصورة مختلفة: في اللهو الحاصل بين المرأة والرجل، لا يسأل في نجاحه أو فشله عن دور الرجل بل عن دور المرأة. فإذا كانت هذه بارعة الحسنة والفعل الغرامي، فإن اللهو يجيء على أفضل ما يكون. كأن هناك تعريضاً بسباسة غير معلن. كأن تكذيبها كفيلاً بالإشارة إلى وجهة قراءة الرد ومضمونه.

- ليس أدل على ذلك من هذا اللهو المتناول يصل النهار بالليل والذي يشكل في امتداده وفي تكراره المتكاثرات تأكيداً على إتقان الغرام وابتداع أنواع من المتعة واللذة فيه لا تنتهي. إلا أن هذا اللهو المديد مرتبط بالمرأة الحسنة بل الحارقة الجمال حتى أنها تتعدى فيه

حدود الطبيعة لتتأهل مع الجمال الفني . بذلك تقدم المرأة إلى جانب حسنها على أنها مثال لما يتمناه الرجل ويرغب فيه، وليس كما كونتها الطبيعة، أو كأن هذه الطبيعة إذ أبدعتها لا تقوم إلا بتقليد الإبداع الإنساني نفسه . في هذا التقديم نقل للحسن من مداه الطبيعي إلى مداه الحضاري مع ما يتضمنه هذا النقل من إيحاء بدور هذا الأخير في إغناء الأول بمعطيات تخرج به عن المألوف والنسبي إلى الاستثنائي والمطلق .

هذا ما تؤكدته الأبيات اللاحقة، والتي تأتي لتفصيل هذا الحسن الاستثنائي . فوجه المرأة المشرق يتعدى الدل على حسنه الطبيعي إلى الإيحاء بإغرائه الحضاري . إنه يضيء حيزاً محدوداً، هو الفراش، ويضئته لشخص محدد، هو الضجيع . وهو بذلك يحدد المجال الحيوي للعملية الجنسية بقدر ما يدعو إليها، حيث لا يعود الفراش مكاناً للرقود والنوم، وإنما للسهر والحركة، كما لا يعود خاصاً بها وحدها بل يصبح لذلك الثنائي الغرامي المؤلف منها وبمن يمارس الجنس معها . ولا يكون ذلك إلا بينها وبين رجل يستهويها، فيكون تنويرها تعبيراً عن هذا الهوى . ولما كان هذا التنوير على أفضل ما يكون من التهاب، فإنه يشير إلى بالغ الإثارة في هذه الدعوة، بقدر ما يشير إلى بالغ السعادة والحفاوة بهذا المدعو . ولا يجد الشاعر في غير الميدان الحضاري عناصر يمكنها أن تؤدي عملية الإغواء المثيرة هذه (مصباح زيت ذبال) .

ليست العودة إلى الميدان الحضاري بدون مغزى . فجبال المرأة المثيرة يغير المعطيات الطبيعية، والشاعر إذ يذكره في الليل لا يكتفي بتأكيد جعله هذا الزمن زمناً للغرام وحسب، بل يشير أيضاً إلى الانقلاب الذي يجعله هذا الغرام وذاك الجمال فيه، محولين إياه عن طبيعته إلى ما يكاد يصبح نقيضها، من الظلمة إلى النور . فتؤدي العلاقة الغرامية ببعدها الحضاري التميز الذي يحكم المعطيات الطبيعية، ويرتقي بها إلى آفاق جديدة ومثيرة . إلا أن هذا الميدان الحضاري قائم على أبداع ما يكون في ما تضعه المرأة من حلي على صدرها . وخلافاً للجمال الاستثنائي الذي يميل إلى البعد الحضاري، فإن الإبداع الحضاري هنا يميل إلى البعد الطبيعي . فتلاؤلّ الجواهر في الحلي وتوهجها هو أقرب ما يكون إلى توقد جمر الغنى تحيط به أصول الشجر على أتم وأفضل ما يكون . لكن تمامه لا يتحقق إلا بإضافة عنصري الصورة اللاحقين، وأولهما طبيعي يتمثل في هبوب الريح الباردة اللطيفة عليه من مختلف الأكام، وثانيها حضاري تتمثل في الدور المفترض بنار هذا الجمر أن تؤديه : تدفئة العائدين من سفر إلى منازلهم . فيتألف في هذه الصورة العنصر الطبيعي مع العنصر الاجتماعي - الحضاري ليؤديا ذلك الفرع القبلي الأشبه بالعيد والمهرجان يستدعيه الشاعر للتعبير عن ذلك اللقاء الحميم بينه وبين المرأة .

من خلال هذا المزج بين البعدين الحضاري والطبيعي يعرف النص فيما يتعدى دقة

الوصف وحسن التصوير وروعة المبالغة في التعبير غنى وعمقاً نادرين، دون أن يكف عن متابعة تقديم المرأة في جمالها الاستثنائي والفريد. ذلك أن ما يبدو مقصوداً بالجمهر وناره يتعدى الجواهر والحلي إلى لبث المرأة وصدرها. فليس هذا التوقد الملتهب إلا ظاهر تلك النار الشابة في الجسد والتي لا تستقيم الصورة إلا بتصورها. إن هذا الجسد الناري المضطرم هو الذي يمد ما يُرَى به بهذا التألق الجمري المشتعل على أبهى ما يكون.

إن الإشارة المتضمنة إلى امتداد اشتعال الجمر الطويل تتفق بالطبع مع امتداد اللهب واستطالته من ناحية، وإنما أيضاً مع دور الشاعر في هذه العملية بالذات من ناحية ثانية كما يدل على ذلك نسبة الجمر للمصطلي، بحيث يبدو هو الذي يستثير ناره ويتعهد اشتعاله. هذه النسبة هي التي تجعل المغالاة في ذكر اضطرام الجمر وناره تقدماً للشروط المواتية التي يتحكم بها هذا المصطلي، وتبقى بالتالي رهن مشيئته وحاجته، ودالة على قدرته المطلقة في استشارة المرأة ووري نار جسدها. ولما كان ذكر الحلي معبراً عن مكانة اجتماعية عالية لهذه المرأة، ليس الغنى إلا وجهاً من وجوهها البارزة، فلن التعبير عنها إذ يكرسها لمشيئة الرجل - الشاعر ويرهنها لرغباته على النحو المشار إليه، يدل على سطوته الغرامية العالية التي لا تقتصر على نيل المرأة الجميلة وحسب، ولا المرأة الغنية فقط، بل إنها تساهم في إذكاء هذا الجمال وبلورة هذا الغنى، بقدر ما يتقدمان كمنصري إغراء له واستشارة لعلته.

مع أخذ ترابط الأبيات بعين الاعتبار، لا يستقيم الحديث عن توقد الجواهر والحلي إلا من خلال ذلك الضوء الذي يشع وجه المرأة به، فكان نار الجسد التي تضيء هنا هي نفسها التي تشتعل هناك، وبالتالي فإن ضرام الشهوة والإثارة هو مصدر هذا التفاعل النوراني والناري البديع الذي يتقدم لتلبية رغبة الرجل المصطلي، بقدر ما يتقدم نتيجة لما يشيره لدى المرأة من رغبة وشبق لاهبين. ولا يخفى على الناظر اختلاف درجة الالتهاج في الوجه عنها في اللبثات، ومعه اختلاف دور كل منهما، فمع نور الوجه الداعي للغرام والمعين لمجاله الحيوي تأتي نار الصدر الملتهاج لتشير إلى مواقع الدفء التي يجدر اللجوء إليها، ولتشير أيضاً إلى وجهة، في الجسد، متنامية الحرارة كلما أمعن في ارتياد مملكته؛ أو أن اللبثات تشير إلى ذلك اللب المكنون، إلى قلب الجسد، مصدر العشق والغرام، موئل اللاجئين إليه والنازلين فيه، واهب اللذة والحياة. ولما كان الإيجاء بأن المقصود بهذا المصطلي هو العاشق أو الضجيع، ويأن المقصود بها معاً هو الشاعر، واضحاً فإن تلك العلاقة التي ألعنا إليها بين إتيانها للهب وتوفر شروطه بالمرأة المناسبة لذلك تظهر بيئة مؤكدة. وإذا كانت الصلة بين وضع هذه المرأة وسلمى غير خافية، خاصة في ما انتهى إليه القسم الأول حولها (راجع البيت السابع) فلن التعريض من خلال هذا الإيجاء ببسباسة لا يحتاج إلى استدلال.

إلا أن البيت الرابع عشر يستعيد مخاطبة بسباسة ليتخذ التعبير منحى جديداً وملتبساً في آن. ذلك أنه يقيم مماثلة بينها وبين المرأة التي يقدمها مشيداً بحسنها الكثير. مما يدخل التباساً يغذيه التحاق الوصف الوارد الخاص بهذه المرأة بالمخاطبة (بسباسة) لا يخلو من مفارقة بقدر ما يشدد عليه سياق التعبير من تنافر وضعيها.

قد لا ترى النظرة السطحية في خطاب البيت الرابع عشر وما يليه ما يمكن اعتباره إشكالاً أو مفارقة وما أشبه، إذ لا نجد في هذه المائلة مالا يتلاءم والسياق، فقد تصور أن بسباسة قد تتهم الشاعر بالكبر والعجز، وقد تكون موضع اتهام من قبله بالكذب، دون أن يمنع ذلك تمتعها بالمزايا التي تقرنها الأبيات الأربعة المعنية هنا (من الرابع عشر إلى السابع عشر) بها. لكن مثل هذه النظرة تعني في الحقيقة انتصاراً لاتهام بسباسة وتصديقاً لها، ودحراً لتكذيبها من قبل الشاعر وتكذيباً له؛ والأخذ بها يؤدي إلى نقض النص بأكمله. وهذا هو مآل المقاربات السطحية أو الذرية للنص، التي لا تتجاوز المعاني المفردة إلى تركيبها البنيوي ونظم النص إلى انتظامه البنيوي، وتشكل معانيه إلى دلالاتها العميقة كما تحددها بنيته.

في إطار هذه البنية بالذات تختمل هذه المائلة واحدة من دالتين - أو أكثر؟ - الأولى منها أن يكون اعتمادها استمراراً للتعريض الذي لاح في المجموعة السابقة من الأبيات (من العاشر إلى الثالث عشر). على هذا الأساس لا يخلو التعبير عنها من لهجة تهكم تشير إلى نقض المائلة، وبالتالي يتجاوز القول في مفارقتها لما يقوله المفارقة القائمة فيه، فيتأسك على هذا الأساس من الاتساق والتجانس، وتستمر فيه وتتكامل العدوانية التي برزت منذ البيت التاسع والتي تحكم الجزء بأكمله، وقد تراءت في المجموعة الأولى من أبيات مقطعه الأول تجاه بسباسة. أما الثانية فتجعل من المائلة بين المرأتين تحولاً في التعبير يتجه في المجموعة الثانية من أبيات المقطع الأول (من الرابع عشر إلى السابع عشر)، دون أن يغير في المعطى الدلالي للمجموعة الأولى من إحياء تعريضي بسباسة، إلى نوع من الدعوة لها كي تتجاوز ما يشتمل عليه هذا التعريض من تقصير. كأنه إذ يقصر المائلة بينها على هذا الجانب الثاني من المميزات التي تدل عليها المجموعة الثانية من الأبيات يشير إلى ما يمكن لبسباسة أن تكون عليه، وخاصة إلى ما يجدر بها أن تمارسه ليحسن اللهو ويبطل الاتهام ومعه التكذيب. بذلك تكمل المائلة ما سبقها، إنما تنعطف به نحو الإغراء والتشجيع على التغيير من خلال إعطاء المثل الصالح فيها، مستجيبة في ذلك لتطلع عميق في النفس إلى إزالة الحسرة والهلم اللذين غشاها.

الأرجح أن الدالتين مائلتان معاً في التعبير، وأنها تتنازعان إحياءاته دون أن تبلغ فيه

إحداهما حد البوح والجرأة على إعلان المقصود. (27) بيد أن المصرح به هو ما تعلق بالمرأة الأخرى التي يستكمل تقديمها من خلال الإشارات الموجزة القوية الإيحاء، بما يتناسب مع تطور الاتصال الجسدي وعملية اللهو الغرامية. كان هذا التقديم في تنابعه هو متابعة ضمنية للقاء الجنسي بين الرجل والمرأة. فيتجاوز ذكر جمالها هنا مع ذكر براعتها في استئالة الرجل وإرضائه، حتى أنها تعريه من ثيابه كما تعريه من عقله، تحتلث ثيابه كما تحلب لبه. إن هذه المرأة تضيف إلى بياض ثغرها ونعومة جسدها دلالةً وغنجاً في الحركة يفتن الشاعر ويذهله، فلا يعود قادراً على تمييز وضعه لابساً أو عارياً. ويأتي التعبير عن هذا الوضع مبهماً مثله مما يجعل دلالاته ملتبسة. فلا يعرف متى ينسى سرباله (أقبل ممارسة الغرام أم بعده؟) كما لا يعرف مغزى هذا القيام (أو هو مباشرة للغرام أم انتهاء منه؟). ذلك أن هم الشاعر وفكره مركزان عند هذه اللذة المسكرة التي تأتيه من خلال اتصاله بالمرأة، والتي تمضي يدها في حكاية مفاتها الساحرة. ومع أن لطف الجسد ونعومته لا يستكتمان بالنظر، فإن التعبير عن ملامسة المرأة ومداعبتها لا يأتي مباشرة وإنما يتمثل في لعب وليدين يتنعان بلذة مس نفا الرمل الناعم والمتلىء. إن لعب الوليدين هنا لا يتفق مع وضع اليدين بالنسبة لجسد المرأة فقط، وإنما يتفق كذلك مع ذهاب عقل الرجل، فتمضي يدها تسعيان وراء المتعة كأنها مستقلتان عنه، كأن لا لهم لها غير التهنؤ بها. قد يكون التعبير هنا يحاول بذلك أن يؤدي هذه العلاقة الجنسية الساحرة بين الشاعر والمرأة، يحوله فيها استحواذاً على عقله إلى حس محض لا يجد من انصرافه إلى اللهو أي عائق كان، وإنما أيضاً يغير، بقدر ما هو براعة حضارية راقية، معطيات الطبيعة فيخرج الجسد إلى كئيب الرمل، إلا أنه خاصة يعيد الشاعر إلى أوضاع الطفولة، وبذلك يتقدم كتنقيض للكبر والعجز الذي يتضمنه اتهام بسباسة، بحيث يبدو هذا الاتهام بالتحديد مفارقاً إزاء ما يمكن أن يثيره هذا التعبير من لوم للشاعر لإغراقه في اللهو والعبث كطفل صغير.

إذ يستعيد التعبير تناوله لجسد المرأة فإنه يبدو في ذلك يتجاوز التطرق إلى مفاتن تكوينه المكتملة لمحاسن ملمسه، ليعيد إلى البعد الحضاري ما قد تكون إحالته إلى البعد الطبيعي قد

(27) يمكن للبعض أن يفترض أن تصحيحاً وقع في هذا البيت، وهو إن كان بعيد التقدير دون أن يكون مستبعد الوقوع فيما يتعلق بإلحاق الصفات الواردة بعد ضمير المخاطب به بدل إلحاقها بالخبر المضاف (مثل) فإنه يبدو أكثر احتمالاً وقرب وقوع فيما يتعلق بهذا الأخير، حيث يكون قد طرأ عليه تحويل من وضع المجرور (بـ «رب» المحذوف، أو بكونه بدل مجرورها المحذوف) إلى وضع المرفوع (خبراً لمحذوف) مما يتيح إلحاق الصفات المذكورة آنفاً به بدلاً من إلحاقها بالضمير المتصل به. يؤدي الخيار الأخير خاصة إلى احتمال تغيير في المعنى الخاص بهذه الأبيات الأربعة المتصلة به (من الرابع عشر إلى السابع عشر) يميزها عن تلك السابقة عليها، دون أن يفرض هذا التغيير حكماً.

ولذته . فتناسق جسد المرأة وامتلأ طراوته يتقدمان وكأنها نتيجة رعاية له واهتمام به مستعمرين يؤكدهما هذا العنصر الحضاري المتمثل بالطيب الذي لا يفارقه بقدر ما يؤكد الوضع الاجتماعي الذي يتيحهما . إلا أن مفارقة الحضاري للطبيعي تبدو على أفضل ما يكون في تلك الغائية التي تسم هذا كله والتي يأتي البيت الأخير في المجموعة ليختتم بها تعبير المقطع بأكمله . فليس الجلال الباهر وبراعة الإغراء والعناية بالجسد تكويناً بديعاً وعطراً فواحاً ، ليس هذا كله إلا من أجل إغواء الرجل وتمتعه على أحسن صورة ، بحيث تبدو استجابة المرأة بالرفق والاتقاد الذي يشير إليه البيت السابع عشر كأنها المال الذي كانت تنتظره ، والذي لم يكن ما أنت به قبله إلا استعداداً له وتمهيداً لمجيئه .

إن لطف استجابة المرأة لرغبة الرجل لا يشكل فقط اكتمالاً لكل عناصر البراعة الحضارية التي تعددت الاشارات إليها ، وإنما يشكل أيضاً استرداداً لما دمغت به حسية المتعة التعبير من بعد طبيعي ، ليصبح الاتصال الجنسي المباشر نتيجة هذه العملية التهادنية من الإغراء والإغواء واللعب واللهو . . . على درجة عالية من الروعة والاتقان .

على هذا النحو يبدو المقطع بأكمله حكاية لسيرورة عملية الاتصال هذه ، على تمييز بين التمهيد الذي يسم المجموعة الأولى التي تلاحق بمجاوب اتقاد شهوة المرأة للرجل ، تدعوه إليها وقد تهيأت له على أهبى ما تكون ، مع رغبته فيها وتعده لاضطرامها ، حتى تنتهي وقد بلغ الدفء الذي يثره هذا اللقاء المتجاوب بينهما تمام حده ، ويبن الاتصال الجسدي الذي تتابع المجموعة الثانية تطوراته بدءاً من تعرية الرجل وصولاً إلى تعرية المرأة ، مروراً بكل المداعبات الممتعة التي ينعم بها الرجل ، ليتيح هذا العراء المزدوج الاتصال الجنسي الرفيق .

تحكي هذه العملية في الوقت نفسه تطاول ليالي الغرام وأيامه بين الشاعر وهذه المرأة ، وتبين لبسباسة ، تعريضاً أو إغراء ، كيف يكون اللهو ، بما يتفق مع الوجهة التي يتخذها رده على اتهامها . ورغم أن هذا المقطع قد بين براعة الشاعر في اللهو ، فإنه يبقى عاماً يفتقر إلى اليقين ، ولا يبين خاصة التفوق الاستثنائي لهذه البراعة في إصباة المرأة المتزوجة . هذا الجانب بالتحديد هو مدار المقطع الثاني الخاص بتناول ليلة محددة من هذا اللهو الغرامي .

- إن امرأة بهذا الجمال الساحر وبهذا اللهو البارح امرأة مرغوبة ومطلوبة ولسوف في أقاصي الأرض ، ولو تعرضت حياة عاشقها للخطر . كل شيء من أجل بلوغها مشروع ، وكل شيء في سبيلها يهون مهما كلفت الوسائل ومهما تعددت المخاطر . بل يبدو التعرض لهذه المخاطر إعلان حب صارخ وشوق جامح لا يستكين . وإذا كان المقطع الثاني من الجزء الأول (من البيت الثامن عشر إلى الثاني والثلاثين) تعبيراً عن ذلك ، فإنه لا يلبث أن يوضح أن المرأة

المقصودة متزوجة (في البيت السادس والعشرين) فيزول ما تراءى وكأنه، في المقطع الأول، تقصير في التمثيل على رد التهمة القائل بإصباة المرأة المتزوجة، ويلتحم على هذا النحو المقطعان في إثبات هذا الرد وتأكيدهما. كما أنه يكشف في نهايته اسم هذه المرأة (سلمى، في البيت الواحد والثلاثين) ليجعل الجزء بأكمله ملتجياً بالقسم الأول الظلي في وحدة تنبؤي فيها الأبعاد المأساوية للحاضر القائم على ضوء نعيم الماضي وأفراحه.

يتخذ التعبير هنا الطابع القصصي ليحكى ليلة حب للشاعر مع سلمى متدرجاً فيها من التوجه نحوها (في الأبيات الممتدة من الثامن عشر إلى العشرين) فوصله إليها وقضائه الليل معها (في الأبيات الممتدة من الواحد والعشرين إلى السادس والعشرين) حتى الموقف من زوجها المهدد له بالقتل (من البيت السابع والعشرين إلى الثاني والثلاثين).

يستثير ذكر المرأة أهم سمة جنسية وحضارية فيها: ناريتها. إذ ليس تنورها إلا تبصراً واستقصاء لهذا البعد الناري الذي فصل فيه القول سابقاً (في المقطع الأول) بعد أن كان قد ألمع إليه (في البيت السابع). إن شوقه إليها ورغبته الشديدة فيها يجعلانه يتطلع إلى نارها، إلى جسدها الدافئ المثير. لذلك لا شأن لذكر الأمكنة هنا إلا بقدر ما يشير إلى البعد الفاصل بينهما، وبالتالي إلى ما كلفه إياه شوقه من عناء لبلوغها.⁽²⁸⁾ إلا أنه يشير في الوقت نفسه إلى مدن يؤكد عبرها هذا البعد الحضاري الذي يتصل بها في علاقة الحب التي تجمعها.

إن هذا الوله الشديد بالمرأة هو الذي يختزل المسافات في التصور والتأمل كما في الواقع والفعل. فالشوق إليها متصل مباشرة بالاقتراب منها كما يدل عليه الفارق بين التنور والنظر، كأن لا فاصل بين الشوق إلى المرأة والتوجه إليها. يأتي هذا الاقتراب ليلاً مؤكداً الخصوصية الغرامية لهذا المدى الزمني في بيت يحتمل وجهي تفسير على الأقل. فإما أن يكون مضياً إليها

(28) إن البقاء عند المعنى السطحي للتعبير أوقع المتعاملين مع النص هنا بحرج لم تنجح محاولاتهم في تجاوزه. هكذا إذ يلاحظ الأعلام الششمري شارح هذه القصيدة أن بين «أذرعاً من حدود الشام، ويثرب» في الحجاز «مسافة بعيدة»، يرى أن «تنورتها» تعني «مثلت نارها وتوهنتها» مستعملاً النار هنا بمعناها الحسي الناشئ عن اشتعال الخشب وما شابه، كما يدل عليه شرحه للبيت التالي (التاسع عشر)، حيث يعتبر أن «نظرت إليها» تعني «نظرت إلى هذه النار تشب لفقاً ليلاً، في حين يعتبر قوله «سموت إليها» في البيت العشرين يعني «سموت إلى المرأة». . . (راجع ديوان امرئ القيس ذكر سابقاً ص 31).

أما د. أسعد ذبيان فيتبني بعد توقف مطول عند أذرعاً وعند يثرب إلى القول بأن الرواية الصحيحة للبيت هي:
تنورتها من أذرعاً وأهلها بيثرب أدنى دارها نظراً عالٍ
(راجع المخصوص في المتن من النصوص / امرؤ القيس ذكر سابقاً ص 54-58).

على ضوء النجوم التي تشع مثلما تشع قناديل الرهبان للعائدين إلى ديارهم يبتدون بها إلى مواقع غاياتهم أو يستعينون بها لبلوغها، وإما أن يكون مسيره نحوها على ضوء هذه النجوم المشعة كسرج الرهبان المضيئة يرى نار جسدها المتقد بالدفء والشهوة تنتظره وتستدعيه كما عهد ذلك وعرفه وعبر عنه (في البيت الثالث عشر). في الحالين يتحول الوجود الطبيعي إلى وجود حضاري قائم على خدمة المسعى الإنساني الذي هو هنا مسعى الشاعر الغرامي. وفي الحالين تتخذ مسيرة الشاعر إلى جسد المرأة طابعاً قدسياً تشارك فيه الساء بطبيعتها وبما وراء طبيعتها لتيسر أمراً لا يمكن اعتباره إلا عمل خير وشهامة، بقدر ما يلي، لدى المسافر وأهله، رغبتين متناديتين ومتتامتين مع الوقت، ليدل النص، من خلالها على رغبتي الشاعر والمرأة، وإنما أيضاً على تلك العلاقة الأليفة بينهما والتي تجعل من غيابها انقطاعاً مؤقتاً، ومن لقائه بها عودة معهودة ومتوقعة بل مطلوبة.

على ضوء هذا النور القدسي إذن وهدية، أو هدي ضرام الشهوة والجسد، يتجه الشاعر نحو هذه المرأة التي تؤكد في سهرها مقابل نوم أهلها انتظارها له بقدر ما تؤكد أن ليل العاشقين نهار. وإذا كان تمثيل انتقاله إليها بحجاب الماء متفقاً مع الهدوء المفترض به أن يلتزمه، بما يتناسب والحذر الذي يومية إليه حدوثه بعد نوم الأهل، فإنه يشير إلى ما يتقنه من رشاقة ولطف في المسير يتناسب ومهمته كما وإنكاره لاتهم بسباسة له بالكبر والعجز، بقدر ما يشير إلى هذا التوق الرقيق لبلوغ هذه المرأة عبر النزوع الذي تدل عليه حركة الحجاب المغادر للماء. كأنه يأتيها ليبلغ دفة نارها بقدر ما يأتيها ليخفف من حدة هذه النار، معلناً في ذلك تناسب الرغبتين من خلال إيجاءات جنسية مثيرة، خاصة في مقابلة «نار» المرأة (الأنثى) مع «ماء» الرجل (الذكر). ومن الواضح أن هذا الارتفاع إلى المرأة بما هو حركة صعود متمهل يتناقض مع رسوب الماء ليتصل بالعنصر الهوائي الملائم للاتحاد بالنار، كما يتناقض مع حركة الهبوط العنيف التي ميزت غياب المرأة من خلال المطر الكثيف الذي تتابع نزوله على ديارها (الأسحم المطال، في البيت الرابع) في الوقت الذي يبدو فيه ارتفاعاً حتمياً لا يمكن رده، ويبدو توقع الأثر الذي ينتج عن اتصاله بالنار قريباً ومفهوماً.

هكذا يكون الاقتراب من المرأة اتصالاً متتابعاً سريعاً ورفيقاً في آن يختصر المسافات ويتجاوز المصاعب، فيكون الشوق إليها والتلف إلى لقيائها الحتمي هو الذي يحكم الحركة والتعبير عنها معاً.

- يأتي اللقاء حضوراً مباشراً يعلنه هذا الحوار البسيط بين المرأة والشاعر. تبدو المرأة فيه عاقلة ومبصرة، تلاحظ الخطر في الفضيحة وترى الساهرين من قومها، لذلك تدعو عليه

بالبعد والتغريب لاثمة معنفة. ويبدو الرجل مندفعاً غير متحفظ، مغامراً يخاطر بحياته من أجلها. وإذا كانت المرأة تلجأ إلى الله في دعائها فإلى الله كذلك يلجأ الرجل في القسم مؤكداً أن شراً أعظم من الذي يوحى به دعاؤها لن يثنيه عنها. وإذا كان مرجع المرأة المعايير الاجتماعية وتبعاتها، فإن مرجع الرجل الرغبة يجعلها قضية حياة أو موت. ولأنه كذلك فإنه يتخطى معايير المرأة ولا يأخذ بالتالي بها، كما يؤكد ذلك بقسم ثان يشدد، خلافاً لما تدعيه المرأة والواقع، على أن لا سامر أو مصطل هناك وإن الجميع نيام.

إن الكذب هنا عمل نبيل يتفق مع المهمة المقدسة والجليلة التي يأتيها الرجل. أما الحوار الذي يكتفي النص بنقل هذه العينة منه فينم عن صورة للمقاربة الجسدية بين الطرفين، معبراً عن تمتع المرأة ومدافعتها للرجل، ومرادة الرجل لها وإصراره على نيلها. وهو لا يترك لها غير خيار واحد تسارع الأبيات اللاحقة إلى إبراز تبنيتها له في ما تقيمه من تداخل بين القول والفعل، بين المحادثة والمضاجعة. فتعاطي الكلام بما يتضمنه من تراجع للمرأة عن موقفها الراض لوجود الرجل وتحولها إلى اللين بعد الشدة أو إلى الجود بعد التمتع، يؤدي إلى تعاطي الضم بما يتضمنه من استجابة جسد الأنثى للذكر كما تدل عليه صورة الغصن الميال بشاربخه. وحين يصبح الكلام رقيقاً ناعماً في جو من المتعة والهناء أو نيل الرغائب والظفر بالتي يكون الجسدان على أحسن ما يكون من التجارب والانسجام، كما يدل على ذلك تمثيل وضعها براكب بعير أسلست قيادتها له على أتم ما يريد، يعد معالجته لحرورتها وترويضه لجموحها. ويبرز تأكيد على إذلالها تعبيراً عن تمكنه منها وبلوغه ما يشتهي به بقدر ما هو تعبير عن استجابتها له وتلذذها به.

لا يخفي ما في صورتَي البيتين الرابع والعشرين والخامس والعشرين من تمايز ذي دلالة واضحة على تطور الوضع بين الرجل والمرأة. فإذا كانت الأولى تستند إلى البعد النباتي الذي لا تتخطى مقاومته الجمود، ولا استجابته الخضوع للرجل الذي لا يتوسل غير قوته في ذلك، فإن الثانية باستنادها إلى البعد الحيواني تبين عن مقاومة حية أشد وأعظم لا تكفي قوة الرجل وحدها للسيطرة عليها، وإنما تتطلب أيضاً الخبرة والمهارة، كما تتضمن في تغلب الرجل حيوية التجارب والتفاعل مع مبتغاه، بحيث يحول تمكنه منها قوتها وزخم نفورها إلى تلبية لرغباته بعد معارضتها. في ذلك كله تغلب للحضارة على الطبيعة بما يعنيه هذا الغلب من تهذيب لها وارتقاء بها وتحسين لوضعها. ويأتي تعقيبه على ذلك ليشير إلى بالغ سعادته وفرحه، وإنما أيضاً بالغ زهوه واعتزازه بما تمكن من تحقيقه من خلال ذكره لتعلق المرأة به وحبها الشديد له.

الملاحظ أن هذه الأبيات (من الواحد والعشرين إلى السادس والعشرين) تعطي صورة

جديدة عن مقدرة الشاعر على اللهو والغرام تختلف عن تلك التي قدمتها أبيات المقطع الأول، وتكملها في آن. فالمرأة التي تبدو مبادرة ومغرية للرجل هناك تتقدم متمنعة ومستعصية هنا، وفي هذه الحال الأخيرة تمهداً تتجلى فحولة الرجل في إتقانه لمداناتها ولنيلها وتوليها على بهاء وروعة يضاهايان بهاء وروعة إغراء وسحر المرأة للرجل في الحال الأولى. بذلك ترسم هذه الأبيات من خلال ليلة غرامية، على خير وجه، براعة الشاعر في اللهو وقدرته الفائقة على إغواء المرأة إذ يحولها من الرفض والتمنع والمدافعة (في البيت الواحد والعشرين) إلى التوله والتعلق والافتتان به (في البيت السادس والعشرين)، مقدماً المثل الحي على إصابته للمرأة التي يأتي ذكر زوجها في هذا البيت الأخير ليوضح أبعاد ما يرمي إليه. إذ يضيف إلى جماله الخلاب وغناها وترفها العظيم وضعاً اجتماعياً وجنسياً خاصاً يشكل من ناحية إضافة خطر المحصنة إلى المخاطر التي يتجشمها من أجلها، ومن ناحية ثانية استكمالاً لرده على اتهام بسباسة (إصابة المرأة المتزوجة) بقدر ما يشكل استكمالاً في الدل على فحولته الاستثنائية الطاغية.

إن ذكر الشاعر للزوج يستحضره متكسباً على تناقض مع ذكر وضعه معشوقاً من قبل الزوجة، ليقرن من خلال ذلك نفسه به موحياً من خلال اختلاف الحالين اختلاف الموقعين والدورين. إذ ليس السوء الذي أصاب الزوج في نفسه وفكره إلا نقيض الحسنى التي أصابها العشيقي في نفسه وفي جسده. هذا التناقض بين الوضعين يطلق التعبير في وجهة جديدة تتناولها الأبيات اللاحقة (من البيت السابع والعشرين إلى الثاني والثلاثين).

- إن التناقض الغرامي بين العاشق والزوج لا يقتصر على زهو الأول بسعادته وكسوف الثاني بهمه، بل هو يمتد إلى ميدان آخر فروسي يؤكد مرة أخرى العلاقة الوثيقة بين العشيقي والقتل. فالزوج الذي يغلي ويتحرق لقتل العاشق يبدو عاجزاً وأعزل في الحرب كما في الغرام، إزاء قدرة الآخر وعدته الرهيبة في القتال اللتين تضاهيان قدرته وخبرته العجيبة في الغرام بحيث لا يترك النص غموضاً في تصور نتائج المواجهة، في الوقت الذي يلوح في ثناياه تمكيم الشاعر الواضح بالزوج وسخريته المرة من ادعاءاته، وكلاهما أقرب إلى العبث واللهو به منها إلى أي شيء آخر. كأن اللهو الذي برع فيه العاشق مع المرأة يمد سطوته على الرجل تأكيداً لتلازم بعدي الغرام والفروسية.

ضمن هذا المنظور يأتي تعبيره عن نقمة الزوج المتوثب لقتله بغطيظ البكر المشدود الخناق لا يدل على عجزه، ولا على أذى غيظه له دون الآخرين - بقدر ما يؤدي خناق البعير الفتي هذا الحيوان كلما تمرد أو جمع، خاصة وأن ما يطلبه مستحيل بقدر ما يستحيل القتل على البعير الذي تبدو قوة الاحتمال صفة مناسبة لوضعه أكثر من أي صفة أخرى، وهي التي

يوحى بها التعبير أكثر من سواها - ولا على تناقضه مع رقيق الكلام بين العاشق والمرأة - مع استمرار التوازي الذي يقيمه النص عبر ذلك بين الكلام والغرام - فقط⁽²⁹⁾، وإنما يدل كذلك على تماثل بين وضع الزوج ووضع المرأة التي انتهى الشاعر إلى ترويضها. كأن في ذلك إيحاء بلا فحولته بقدر ما فيه من إيحاء بقدرة الشاعر على التمكن منه وترويضه كما جاء على تقديم مثل على ذلك مع زوجه. في هذا الإيحاء بالذات، في سياق التعبير عن هدير الرجل بقتل العاشق، يكمن تهكم الشاعر وسخريته، كما يكمنان في مقابلة هذا الهدير بنفي صفة القتل عن صاحبه. وهو نفي يتفق مع النفي المتضمن لفحولته كما سيتكرر في الأبيات اللاحقة.

يعقد البيتان الثامن والعشرون والتاسع والعشرون مقارنة يظهر فيها الشاعر، في البيت الأول، شاكى السلاح الذي يبدو خارقاً في مظهره كما في فعله بحيث يتعدى البعد المكاني في سيفه إلى البعد الغرائبي - الأسطوري في نباله، تعبيراً عن فعالية القتل البعيدة التي يتمتع بها. إلا أن هذا السلاح مقدم في الوقت نفسه كأنه جزء من جسد الشاعر، وهو إذ يذكره في وضع المضاجعة يوحى بالأبعاد الجنسية القوية التي تلوح فيه. لذلك لا يظهر الزوج في البيت الثاني إزاء أعزل من أي نوع من أنواع السلاح، وبالتالي من أي مقدرة على القتال والقتل، وإنما في الوقت نفسه أعزل من أي وسيلة من وسائل الغرام وبالتالي من القدرة على القيام بمتطلباته. إذا كانت الصيغة الاستفهامية تجمع البيتين معاً فإنها تبدي في هذه المفارقة بينها بالغ التعجب والاستنكار لمشروع قتل العاشق من قبل الزوج، وبالغ الهزء والاستخفاف بهذا الأخير.

إن الصيغة الاستفهامية الثانية التي نجىء في البيتين الثلاثين والواحد والثلاثين تؤدي الدلالات نفسها، فيما تؤكد تضافر البعدين الغرامي والفروسي بشكل لا لبس فيه، حيث أن الاستنكار والهزء فيها يتناولان المشروع نفسه على ضوء العلاقة التي لكل من الشاعر والزوج بالمرأة. ففي حين يتقدم الأول متمكناً حبه في قلبها حتى أنه يملأه ويشمله فلا يترك فيه بالتالي مجالاً لأحد سواه، ليوحى من خلال ذلك بدلالة جنسية يؤكدتها تمثيل هذا التمكن بطلاء الشاقة بالقطران⁽³⁰⁾ الذي ينم عن معالجة ومداداة لها بذلك السائل الصمغي الذي يشفيها ويسعددها،

(29) من الطريف أن مجازي الأعلام الشتمري هذا التوازي بين القول والفعل الغراميين دون أن ينتبه له أو يلتفت إلى مغزاه وأبعاده، حيث أنه يقول بصدد البيت الخامس والعشرين: «ورق كلامنا، أي صرنا إلى الصيا، وجدّ اللعب واللهو والغزل»، لكنه يكمل إثر ذلك مباشرة: «فلم نرفع أصواتنا لثلا يشعر بنا» (ديوان امرئ القيس ذكر سابقاً ص 32).

(30) يقول الشارح بصدد هذا البيت: «وقوله: «أبقتلني وقد شغفت فؤادها»، أي بلغ حبي شغاف قلبها كما بلغ =

يجري تقديم الثاني من خلال معرفة زوجته به عاجزاً عن الفعل كما عن اتساق القول ومعقول الكلام، بما في ذلك من إجماع بمعجز أو تقصير جنسي يدل عليه الرجوع إلى خيرة المرأة كما تؤكد الإشارة إلى حداثة عمر الذكر (الزوج)، كأنه يربط بين هذا العمر وذاك المعجز، ومن خلالها بين «مرض» المرأة وحرمانها الجنسي وبين «مداواتها» وإسعادها بالغرام. فالحرمان الذي ينهش جسدها يجد في هذا الطلاء علاجه وشفاءه.

لهذا كله يجدر بهذا الزوج ألا تضيره علاقة الشاعر بزوجه وبغيرها من النساء الفاتقات الحسن، كما يميل السؤال الاستنكاري - الاستهزائي الأخير إلى تأكيده ببراءة ظاهرة لا تخفي أخذها بكل ما ذكر بصده في الوقت الذي تجد فيه حلاً لوضعه المتأزم. فمن كان في عجز هذا الرجل وتقصيره عليه ألا يحتق ويحقد على الشاعر كالبعير الأهوج، وإنما أنه يرضى بما يأتيه ويخضع له كما ينقاد البعير المروض!

عند هذا الحد من القول ينتهي الجزء المتعلق بالجانب الأول من الرد على تهمة بسباسة في تأكيد المقدرة على اللهو بالمرأة المحصنة بهذا العبث واللهو بالزوج أيضاً، لتعرف فحولة الشاعر عبر ذلك كله سطوة طاغية. وإذ تنكفيء نهاية التعبير في الأبيات الأخيرة على بدايتها، فإنها تؤدي ذلك التناقض بين الشاعر والزوج باعتباره تناقضاً بين الفحولة واللافحولة أو الأنوثة، وفي الوقت نفسه تناقضاً بين الحضارة واللاحضارة أو الطبيعة. فمقابل الشاعر المسلح، الخبير بالقتال كما هو خبير بمداواة النساء وتطبيهن قولاً وفعلاً، يقدم الزوج خالياً من السلاح ومن الخبرة في القتال كما في التعاطي مع المرأة بالفعل والقول. ضمن هذا الاطار يجدر وضع تمثيل الأول بالمروض اللبق والحاذق والشاني بالبعير المحتد والمغيظ، بحيث يبدو البعد الحضاري مكوناً أساسياً ولازماً من مكونات الفحولة المتفوقة.

2 - التعفف الفروسي :

ينطلق الشاعر في البيت الثالث والثلاثين وكأنه يقرن القول بالفعل من خلال تناوله للنساء الحسنات. ربما جاء ذلك دلالة على ما ذهب إليه في ما ورد قبله من استنكار واستهزاء بالزوج أو دليلاً على ترويضه وإمعاناً في إذلاله. لكن الغزل بهؤلاء النساء يتجه اتجاهات مختلفة لذلك الذي تقدم بصدد سلمى، ذلك أن الشاعر يتعد عنهن خوف الهلاك رغم ما عرف به من انهماك في الملذات وجراة في القتال.

= القطران شغاف المهنوة وهي المطلية بالقطران، وهي تستلذه حتى يكاد يغشى عليها. . . (المرجع السابق. ص 33).

إذا كانت النساء يعرفن هنا كما كان الحال مع سلمى بالجمال والترّف، فإنهن يتميزن عنها مع ذلك في جوانب عدة. وأول ما يلفت الانتباه فيهن تعددهن إزاء تفردّها. يجعل هذا الوضع من التعرض لهن استعراضاً جماعياً يعطي الوصف طابعاً نمطياً. فلا تدخل الكثرة التمايز وإنما الإكثار. كأن الوصف عرض لامرأة واحدة تتكرر وتتعدد، مضاعفة من الحسن المتميز الذي تحظى به. فجميعهن مكتنزات ممتلئات الجسد على تراخ وتكاسل في الحركة دلالة الترف والنعمة، ولكنهن لطيفات الأعضاء والقوام على نعومة ورشاقة، بحيث يبلغن الكمال في الإثارة والجمال. وهو كمال صادفنا مقوماته المذكورة مع تقديم سلمى (راجع خاصة البيت السادس عشر). كما أن مضاعفاته ليست بعيدة عن تلك التي لاحظناها في بعض أوجه علاقة الشاعر بسلمى. فغرامهن الذي يشتمل على مخاطر السقوط والهلاك، وسحرهن الدافع للعقل والرزءاء من الرجال إلى الضياع والضللال، يذكر بخلب سلمى للب الشاعر ومغامراته المخاطرة في سبيلها. إلا أنهن على خلافها أيضاً، هي المرأة المتزوجة الشيب، عذراوات غير متزوجات، وربما كان وضعهن المشترك هذا هو الذي يسهل التعرض الجماعي لهن على النحو المذكور، كما قد يكون هو سبب انصراف الشاعر عنهن. ذلك أن ابتعاده لم يكن عن كره أو بغض من قبله أو من قبلهن، وإنما عن حذر من قبله قد يكون من أجلهن أو من أجله هو، وفي الحالين ينم عن حكمة وتعقل كبيرين. فإذا كان الولع بهن يؤدي إلى تعرضهن للمهالك يكون موقفه دليلاً على مروءته وسمو أخلاقه، أما إذا كان هذا الولع يؤدي بصاحبه إلى موارد التهلكة، مادية كانت أم معنوية، فإن موقفه يدل على رجحان عقل وحسن تدبير. إذ لا يمكن التشكيك بشجاعته أو جرأته في الغرام كما بينت ذلك مغامرته مع سلمى. إنما قد يجد أنه لا يليق به أن يتورط ويتعرض للمخاطر من أجل فتيات غير مجربات. فما يأتيه مع سلمى لا يمكن أن يفعله مع هؤلاء نظراً لما قد يجتمله عمله من لوم الآخرين، أو نظراً لما يجره عليه من تعريض واتهام. في الحالين يتقدم الشاعر على أنه ليس غراً مبتدئاً، ورغم مغامراته المتهورة فإنه يصون نفسه ويصون الآخرين عندما يتطلب الوضع منه ذلك. فيبدو على هذا الأساس أكثر حكمة وتعقلاً من أولئك الذين تضلهم هؤلاء النسوة ويذهبن بعقولهم، ومن ثم بأرواحهم أو أرواحهن. في الحالين يبقى الغرام مرتبطاً بالموت بقدر ما هو مناقض للعقل، وهو هنا يؤكد ما سبق عرضه في سياق العلاقة بسلمى وزوجها، إنما على اختلاف في السلوك ناجم عن اختلاف في المعطيات.

يؤدي هذا الموقف إلى التباس أو سوء فهم تصرفات الشاعر. إنه سوء فهم يتوقف عند الظاهر والآني والمحدود، دون الباطن والتاريخي والعام. وهو ما يسعى الشاعر لتبريره من خلال نفي ما قد يترأى للبعض في موقفه من بغض أو نفور، ومن خلال استشارته لميادين

لهوه وبطولاته التي قد لا تكون ظاهرة للآخرين ممن توقفوا عند موقفه الخاص بالعدراوات . فهو الذي ضاجع المرأة الناهدة الثدي تزين الحلي قدميها، وهو الذي يتكلف الحصول على الخمر يشربها بكثرة . وإذا كان الفرس وسيلته لبلوغ ملذاته فإنه أيضاً وسيلته في خوض المعارك الشديدة الحرج قائداً لعسكره، مقدماً حين يبدر تراجع . أما في الغارات الصباحية ففرسه بديع العظمة كما يظهر ذلك في ضمه لتناقضات متفرقة، إذ يجمع بين ضخامة الهيكل وحيوية النشاط، وبين غلظة القوائم وتشنج نساها، وبين صلابة حوافره ونعومة ردفه . كأن هذه التناقضات تأتي لتلبي الأدوار المتناقضة التي يؤديها في تحقيقه للغايات المتناقضة لصاحبه من اللذة إلى القتل . فيتقدم في ذلك أقرب ما يكون إلى صاحبه الذي يخاطر بحياته من أجل المرأة التي يعشقها، ويتصرف برزانة ووقار إزاء الصبايا العذراوات . وهو ليس كذلك إلا بقدر ما يشكل امتداداً له، بقدر ما يمكن اعتباره كره وتجواله نتيجة لقيادة الشاعر له . فيظهر اجتماع التناقضات من هذه الزاوية أثراً من آثار الترويض، وبالتالي بعداً من أبعاد الحضارة في الطبيعة التي يمثلها جسم الفرس وهيكله وربما جفوله .

في هذا الجانب يختلف الفرس عن هؤلاء العذارى ويقرب من التجانس مع الكاعب . فالملاحظ أن تقديم هؤلاء الصبايا لا يشير إلى أي زينة أو حلية أو حتى ثوب لديهن . كل الوصف المتعلق بهن لا يتجاوز أجسادهن . كأنه يقتصر فقط في ما يتعلق بهن على البعد الطبيعي . وربما كان هذا هو السبب العميق وراء الابتعاد عنهن باعتبار أن إقباله على المرأة يرتبط دوماً بذلك البعد الحضاري الذي تشير إليه زيتها كما هو الحال مع خلخال الكاعب هنا، وحلي سلمى وثيابها هناك، جامعاً باستمرار بين الغرام والحضارة والحياة من جهة، وبين الحرمان والطبيعة والموت من جهة مقابلة . وهو إذ يأتي على ذكر العذارى في النهار المظلم والمطبق الغيم فإنه يؤكد من خلال هذه المعطيات الزمنية المناخية تناقض وصفهن مع الوضع الغرامي الذي أتى على ذكره في سياق تناوله لعلاقته سلمى ، حيث شددت المعطيات الزمنية المناخية الخاصة بها على أن زمن الغرام هو فترة الليل،⁽³¹⁾ وعلى كونه مضيقاً نيراً في صحو يقود خطى الشاعر إليها (راجع البيت التاسع عشر) كما في شبق وإغواء يقوده بهما جسدها إلى فراشها (راجع البيت الحادي عشر) . بل إن هذه المعطيات الخاصة بالعدراوات تبدو أقرب منها إلى معطيات الغياب والانقطاع منها إلى تلك الخاصة بالحضور والوصل، كما يدل على ذلك

(31) إن ذكر النهار في هذا الزمن (في البيت العاشر) لا يتعدى الإشارة العابرة التي تبدو من خلال متابعة التعبير عن العلاقة بسلمى وكأنها دالة على امتداد الليل الغرامي الطويل قبل أي شيء آخر، هذا الليل الذي يستحوذ على مجمل التعبير.

تمثل هذا النهار الأسود المطير بذاك الأسحم المطال الذي ارتبط بالطلل والبلاء (راجع البيت الرابع).

إن النهار، كما مر معنا، زمن النشاط العملي. وكسل هؤلاء النسوة ويقاؤون في بيوتهم منقطعات عن الطبيعة يناقض وضع سلمى التي تمضي إلى مجال أوسع تتألف فيه الطبيعة والحضارة في تواصل وتكامل وانسجام، مما يؤكد التحام الأبعاد الزمانية - المكانية مع الأبعاد الطبيعية - الحضارية على امتداد النص ككل. وهو التحام يعطيه في مستواه الدلالي العميق وحدة بنيوية متماسكة.

ضمن هذا المنظور يفهم انصراف الشاعر عن النساء في النهار ومضيئه إلى نشاطات أهمها هذه الإغارات القتالية التي تحمل سمة التدبر المعاشي بقدر ما تحمل سمة الاعتداد الفروسي. وإذا كانت الإشارات المختلفة إلى الفرس تنم عن فخر الشاعر واعتداده بما يأتيه من أعمال تؤكد فحولته وفروسيته وغناه وإقباله على الملمات وشجاعته وإقدامه في القتال، وهي ميزات يجدر إضافتها إلى تلك الخاصة بخصاله الحميدة وحكمته الرزينة كما تبنت في علاقته مع الصبايا العذراوات، فإنها تفسر وضعه الحقيقي وتزيل بالتالي الالتباس الحاصل في موقفه من العذراوات بقدر ما تستكمل الرد على بسباسة التي يمكن وضعها في صف أولئك الذي يسيئون فهم الشاعر وتصرفاته المتناقضة. هكذا يقابل الانصراف عن العذراوات انغماس في أعمال الفروسية بشكل خاص، إشارة إلى الموقع الذي ينطلق منه الشاعر في تجنبهن، فيتشكل الجزء بأكمله على هذين المحورين المتقابلين تبعاً على تكامل بينهما حيث تستقل الأبيات الأربعة الأولى (من الثالث والثلاثين إلى السادس والثلاثين) بتناول العلاقة مع العذراوات، ويشغل ذكر معاركه على فرسه الأبيات الأربعة الأخيرة (من الثامن والثلاثين إلى الواحد والأربعين) ليكونا مقطعين فيه يجل بينهما بيت توسطي نظراً لاشتغاله على ذكر الفرس والمرأة معاً ويقع وسطهما (البيت السابع والثلاثون) ليعرف هذا الجزء، كما سابقه، تشكلاً ثلاثياً للثنائية التي يبني على أساسها لتتكرر فيه أصداء البنية العامة للنص التي سبق ولاحظنا ورودها في القسم الأول، كما في الجزء الأول من هذا القسم الثاني.

3 - نيل الممتع :

يكاد الجزء الأخير من القسم الثاني من القصيدة يقتصر على ذكر الصيد، فيتقدم إثر التعرض لأعمال الحرب والقتال وكأنه يكمل تعداد نشاطات الشاعر الفروسية، جاعلاً من الممارسات العسكرية جزءاً محدوداً من الكل الفروسي الذي تنتمي إليه؛ كأنه يسعى، بقدر ما ترتبط بالجد والذكورة وتبتعد عن المرأة والعبث، للحد من وقعها في سياق الرد على اتهامه

بالعجز عن اللهو، ولتأكيد أن في انصرافه إلى الفروسية جانباً آخر من اللهو واللذة إن غابت المرأة عنه، إلى حين، لا يعدم أوجه تماثل معها كما ستبين، ليعرف رده عبر ذلك اكتماله النهائي⁽³²⁾. إن في تناوله لهذا الجانب الأخير من جوانب سلوكه ونشاطه إيراداً لوجه جديد من أوجه براعته يتصل بما سبقه مباشرة بقدر ما يتصل بالمحور المركزي الذي يدور حوله التعبير، لتمثل فيه بذلك نهاية القسم الثاني ونهاية النص بأكمله.

ربما بسبب ذلك تعرف أبياته هذا التوزيع الثنائي بين مقطع أول خاص بعملية الطرد ذاته (من البيت الثاني والأربعين إلى الواحد والخمسين) وثان خاص بالتأمل الذي يستدعيه (من البيت الثاني والخمسين إلى الرابع والخمسين).

- يقرب التعبير عن عملية الطرد من التعبير القصصي متدرجاً من التوجه إلى مجال الصيد (من البيت الثاني والأربعين إلى الرابع والأربعين) فإلى ذكر مطاردة قطيع بقر الوحش (من البيت الخامس والأربعين إلى الثامن والأربعين) فالإشادة بما حققته فرسه من مآثر (من البيت التاسع والأربعين إلى الواحد والخمسين) مذكراً بقوة بحكاية مغامرته الليلية مع سلمى التي مرت معنا كوجه أولي من أوجه التماثل بين الطرد والغرام.

- إن النهوض الباكر للصيد يدل على علو همة ونشاط يتجاوز القانون الطبيعي، حيث أنه يتم قبل خروج الطير من أوكارها، كما يتجاوز القانون الاجتماعي، حيث أنه يتم على أرض لا يطأها أحد، إذ إن الفرسان يتجنبونها ويتقونها لخطورها إلى حد أصبحت فيه ميدان سيطرة الطبيعة المطلقة. وهو في هذا التجاوز بالذات يدخل على هذا الميدان خللاً واضحاً من

(32) على ضوء هذه القراءة البنيوية للنص يبدو كم هو خاطيء ما يذهب إليه الأعلام الشتمري في شرحه لبعض أبيات هذا الجزء (الثاني) من القسم الثاني، فهو يفي بصدد البيتين السابع والثلاثين والثمان والثلاثين إلى حد الزعم: «يقول: ذهب عني الشباب، وتغيرت بي الحال؛ وكأني لم أستلذ بالكواعب ذوات الحلي، وركوب الخيل للصيد. وكأني لم أشر الزق المملوء خراً، ولم أعطف في أثر من انهمز من أصحابي على العدو وأكرّ عليهم» (ديوان امريء القيس ذكر سابقاً ص 35) وكذلك بصدد البيت التاسع والثلاثين: «وذكر هذا كله متأسفاً على ما فاتته منه لذهاب شبابه وتغير حاله» (المرجع نفسه ص 36). من الواضح أن هذه الأحكام أقرب إلى التعليق منها إلى الشرح، وهي تمضي في تأويل التعبير في اتجاه لا يشبه أي عنصر مادي في النص، وهي خاصة تتناقض مع السياق الذي يرد فيه هنا بحيث أنها تؤدي إلى اعتبار انصرافه عن العذراوات تم بسبب كبره وعجزه، مهملة كل التبريرات التي يعطيها الشاعر لهذا الانصراف؛ وتتناقض بالأخص مع السياق البنيوي العام للنص، بحيث يؤدي الأخذ بها ليس إلى تكذيب بسباسة كما يعلن الشاعر ذلك صراحة (في البيت التاسع) وإنما إلى تصديقها وتكذيبه... . كان هذا التأويل إذ يسيء فهم الشاعر فلأنه يقع، مثله مثل بسباسة، في الالتباس الناتج عن التوقف عند ظاهر ومعدودية النص (أو الأمر) دون عمقه وكنيته.

خلال إخضاعه لسلطوته. في هذا الإطار تتعدى الإشارة إلى الزمان والمكان الفخر والعنجهية الذاتيين لتصل بين معطيات التعبير هنا وبين ما سبقها فتندرج جميعاً في هذه المواجهة بين الحضارة والطبيعة.

يؤكد هذا التواصل ذكر «الأسحم الكطال» الذي لاحظنا من قبل تمثيله للبعد الطبيعي في تعارضه مع البعد الحضاري بالنسبة للديار (في البيت الرابع) كما بالنسبة للنساء (في البيت الثالث والثلاثين) وتناقضه في الحالين مع العشق والحياة. وهو هنا يفرض قانونه الخاص في هذا الخصب القائم في نبات الطبيعة - الذي هو شرط تواجد حيوانها كما سيتبع - بينما يتقدم الشاعر بفرس تتميز بهذه الشدة والمتانة في الخلق من جراء تمرسها في العدو. لذلك يأتي تمثيلها بهراوة المتوال للتدليل على ما بذل في تهذيبها على هذا النحو، وإنما أيضاً للدور الذي تؤديه في عملية الصيد. إنها تضحي بناء لذلك دالة على مهارة وحذق صاحبها الذي يضحي بناء لذلك أقرب ما يكون إلى الحائك الذي يعتمدها لمهام النسج ومعالجة الخيوط والثياب، فتحمل الفرس على هذا النحو في جسمها وحركتها وأدائها آثار هذا البعد الحضاري الذي أخذها به صاحبها.

- لذلك يبدو قطيع البقر الوحشي لعيني هذا الأخير، في جلوده وسيقانه، ثياباً منمنمة زاهية رفيعة الصفة، وفي شدة وزخم عدوه خيلاً تطوف بأجلالها الخاصة، بما توحيه هذه النظرة من إتقان لعملية الصيد وتوقع المعالجة المناسبة لطرائده، بقدر ما توحى به من جمال للقطيع يفرجه من وضعه الطبيعي المحدد إلى وضع آخر (الخيل) لا تغيب عنه سمات الحضارة (الأجلال) ومن سرعة عدو تجعله على المستوى نفسه لتلك الفرس التي تلاحقه.

لكن القطيع يضيف إلى سرعته مواجهة للهجوم عليه بدفاع يتصدى له فحله المسن، ليكون بذلك على وضع مماثل أيضاً للشاعر الذي يطارده ويسعى لصيده. فليست صفاته الجسدية إلا أدلة على المميزات الدفاعية التي تؤهله لهذا الدور الذي يناط به، بدءاً من ذكوره وكبر سنه وصولاً إلى طول ظهره وقرنه، والتي تضاف إلى ميزاته الجمالية من خنس وسبغ ذنب.

إن في تصدي هذا الفحل من البقر الوحشي لحماية القطيع دليلاً على بلوغ الصياد له. هذا البلوغ الذي يأتي إثر ما بذله القطيع من جهد وعدو ليشير إلى بالغ سرعة فرسه، وفي الوقت نفسه إلى مقدرته الرفيعة في حسن قيادتها. لذلك يأتي البيت الثامن والأربعون ليمثل أوج المواجهة بين هذا الصياد وفرسه من جهة، وبين ذلك القرهوب وقطيعه من جهة ثانية، فهو يعبر عن هذا الوضع الدقيق والخطير الذي يدافع فيه القرهوب عن القطيع موالياً الجري بين ثور

ويقرة من الوحش، مؤكداً كفاءته في التصدي والحماية التي إذ تتعلق بذكر وأنثى تشير إلى الحياة الطبيعية عامة بقدر ما تختزل سلامة القطيع بأكمله، والذي يندفع فيه الصياد متنبهاً وواعياً ومتابعاً لهذا الدفاع الذي يلاقه. في إعماله فكره هذا بما يواجهه يؤكد الشاعر الطابع العقلاني وبالتالي الحضاري الذي يحكم سلوكه والذي يسعى للتحكم من خلاله بحركة الآخر وحياته، ليتحدد من خلال ذلك وجه بارز في عملية الصيد هذه باعتبارها صراعاً بين الحضارة من جهة والطبيعة من جهة مقابلة.⁽³³⁾

- الأبيات الثلاثة الأخيرة من هذا المقطع الأول (من التاسع والأربعين إلى الواحد والخمسين) تُمثِّل بديع على بلوغ الصياد مرامه، وانتصار هجومه على دفاع القهر، ومن خلال ذلك انتصار الحضاري على الطبيعي. ويلمح النص بقوة إلى هذا البعد في عملية الطرد ونتيجته. إنه، إذ ينسب الصيد إلى فرسه، يرهن ذلك بمدى الدربة والتحكم اللذين أحدثتهما فيها، كما يدل على ذلك تمثيلها بالعقاب اللينة الجناحين السريعة الطيران، الخفيفة القوية الحاذقة القنص، بفضل ما أخذها به من تطويع وتدريب.

تكمن أهمية التمثيل في استجابة الفرس لغاية صاحبها، وهي استجابة تدل على نجاحه في ترويضها كما في قيادتها. إنها، إزاء قطع يعدو كالخيل ويحتمي بقهره يتصب حاجزاً دونه ودون الصائد، تتحول في إبلاغها مرامه إلى ما يشبه الطير الكاسر الذي يتجاوز سرعته هرب القطيع، وبطيرانه دفاع القهر، فيحصل صاحبها على ما يريد بيسر وسهولة.

إن التوقف المطول عند انجازات الفرس يبين عن الصيد الكثير الذي تحقق بواسطتها، بقدر ما يبين عن براعة صاحبها من خلالها. فهي التي لا يفوتها شيء على وجه الأرض تنال أيضاً ما في السماء، لتعلن بذلك سيطرتها المطلقة واللامتناهية تدل عليها قلوب الطير الطازجة

(33) يرجع بناء لذلك خطأ الشارح في فهم هذا البيت (الثامن والأربعين). فهو إذ يعلق عليه ذاكراً وقوله: «فعدى عداء». أي وإلى وصرع واحداً بعد واحد...» (المرجع السابق ص 38) لا يجفل بالخلل التجوي الذي يأتيه، حيث أن فاعل عادى مذكر يعود للقهر المذكر (في البيت السابع والأربعين) وليس للفرس المؤنث (راجع البيتين الرابع والأربعين والخامس والأربعين). وإذا صح التذكير والتأنيث على الفرس فإننا لا نعلم إذا كان النحاة يستسيغون تداولهما في السياق الواحد ولو من قبل شاعر، علماً أن لا ضرورة شعرية (عروضية) تلزمه. كما لا يجفل بالخلل الدلالي الناتج عن ذلك، إذ ينزع جزءاً مهماً من التعبير يتعلق بأداء القهر وفعالته، وبالمواجهة التي تنهض بينه وبين الصياد (وفرسه). هذا علماً أن الشارح نفسه يذكر في سياق تعرضه لشطر مطابق لهذا القائم في البيت الثامن والأربعين، وهو ذاك الوارد في البيت الثاني والستين من معلقة الشاعر التي يفتح بها ديوانه المذكور هنا: «العداء: الموالاة في الجري» (المرجع نفسه ص 22).

والبائسة أو القديمة المتكاثرة لديها. لكن هذه القلوب تدل أيضاً على الغاية المتوخاة من هذا الصيد، وبالتالي على هدف صاحبه وصاحبها منه. إذ أن هذه الكثرة التي تتجاوز الحاجة بكثير، كما يؤكد ذلك تجاور القلوب الرطبة لليابسة، تشير إلى أن الجهد المبذول في سبيلها لا يسعى إلى تلبية هذه الحاجة المادية (الإشباع الجسدي) بقدر ما يسعى إلى تلبية حاجة نفسية أوروحيّة (الإشباع المعنوي) وكأن تلك لا تقوم إلا بهذه. بذلك لا يكون الصيد ممارسة تروم غايات معيشية بقدر ما يتقدم كممارسة تجسد فعالية ذاتية وتتطلع إلى قيم تتمثلها ليس الاعتداد بالبراعة والتفوق والسيطرة إلا بعضاً من أوجهها البارزة. لكنه يتقدم كذلك في هذا السياق الذي يأتي فيه كممارسة لاهية في الوقت نفسه، حيث تطغى لذة الصيد ذاته على ما عداها، وتبدو ثماره ليست مطلوبة بحد ذاتها بقدر ما هي مطلوبة للدلالة على فعالية البراعة فيه وعلى مدى اللذة المتحققة في مزاولته.

ضمن هذا المنظور يقرب الصيد في عيشه ومسرته من الغرام في لوه وملذاته، ويبدو ركوب الفرس المروضة كالعقاب المدربة مماثلاً لممارسة الشاعر الغرام مع سلمى المرأة المروضة كالناقة المذللة (راجع البيت الخامس والعشرين)، فتحل تلك في النهار محل هذه في الليل لتلبية رغبات وتطلعات الشاعر فلا يغيب اللهو عنه في أي وقت كان. وإنما لكل نمط منه إبان في ذلك رد على بسباسة، كما على أمثالها ممن يخطئون تفسير بعض مواقفه كما كان حاله مع العذارى، واضح، وإنما أيضاً افتخار بنمط من الحياة بالغة الترف، وبنمط من الفروسية فيها بالغ الخصوصية. هكذا يتبلور عبر هذا الطرد بعد جديد في شخصية الشاعر وممارساته وعلاقاته لا يقتصر عليه وإن كان حميم الصلة بنشاطه الفروسي إذ أنه يتصل بمجمل أوجه حياته المختلفة ومنها تلك الغرامية. يتمثل هذا البعد في تطلبه الحثيث للصعب والعسير يبذل المشقة من أجله ويتعرض للمخاطر بسببه، لا لفائدة تجني منه بل للذة الحصول عليه. فمن بكور الشاعر إلى الأرض الخطرة إلى انهياكه بمطاردة قطع بقر الوحش لاصطياد ما يحلوه منه دونما حاجة لذلك تتعدى اللذة فيه، يرتسم خط واحد من البحث عن الممتع والمستعصي لنيله. فتكون متعة المغامرة هي المكافأة الحقيقية التي ينالها أكثر مما تتمثل هذه في الهدف الذي يحصل عليه.

إذ يقدم الصيد الجانب الآخر لفروسية الشاعر، فإنه يوضح أيضاً أبعاد الجانب الأول (القتالي). فعلى ضوء ما تقدم بصده لا يمكن تصور الإغارات والمعارك من أجل المكاسب المادية الناتجة عنها، وإنما تصح هي الأخرى مقصودة ليس طمعاً بنتائجها بل رغبة في لذة ممارستها وفي الاعتداد بما يمكن إنجازه فيها. في هذا الإطار يجدر فهم إشارته إلى الكر بعد

الإجفال كدلالة على اندفاعه وهجومه حيث يكون الانهزام أو التردد، أي في تلك المواضع الصعبة والفترات الحرجة، ليحقق من خلاله هذه اللذة في نبيل الصعب وتحقيق العسير. وضمن هذا المنظور يجدر فهم علاقاته النسائية أيضاً. فليس ذكره للمرأة المتزوجة أمراً عارضاً أو ثانوياً. إنها تمثل في حصانتها الهدف المستعصي الذي يسعى الشاعر لبلوغه. فإذا أضيف إلى ذلك جمالها الأخاذ وثرأؤها العظيم، كانت لذة المغامرة أشد وأثرى وأعم. وربما يجدر الانطلاق من هذه الزاوية في الرؤية أيضاً لفهم مغزى تخليه عن العذارى وانصرافه عنهن، حيث أن كثرتن وإضلالهن أهل الحلم يجعلان من هواهن هوى عادياً، أو على الأقل يكثر مثيله، وبالتالي لا يحظى بسمه التفرد والتمتع والخطورة التي يطلبها الشاعر.

على هذا النحو يكمل هذا الطرد ذلك الجانب القتالي في الفروسية مبنياً وجه اللهو والعبث فيها، بالإضافة إلى وجه الجند والرصانة، ليتحد هذان الوجهان في إطار قاسم مشترك في المخاطرة والمتعة المتضافين، ليكمل الشاعر بذلك توضيح مغزى تعفنه الفروسي وإصابته الفريد معاً، مؤكداً وجهة عامة من التطلب المتشدد في السعي. لإشباع نفسي - معنوي وجسدي - مادي لا تلبث الأبيات الثلاثة الأخيرة من النص أن تبرز إلى العلن ما أوحى به والمحت إليه أبيات المقطع الأول من هذا الجزء الثالث.

- تأتي الأبيات الثلاثة الأخيرة (من الثاني والخمسين إلى الرابع والخمسين) التي يتضمنها المقطع الثاني لتحيل تشكله في عددها المذكور إلى تشكل ثلاثي يتفق في ذلك مع ما عرضه المقطع الأول في تطوره شبه القصصي، فيحظى هذا الجزء (الثالث) بتشكيل ثلاثي مزدوج يتفق مع موقعه ودوره كجزء ثالث يجتمع لديه ما خلص إليه الجزءان السابقان، اللذان عرف كل منهما بدوره تشكلاً ثلاثياً على أساس ثنائي كما مر معنا، ليكتمل على صعيد النص ككل وعلى صعيد أجزائه المكونة هذا التشكل البيوي الخاص بالإداء الثلاثي فيه.

بيد أن الثنائية التي يتركز عليها الجزء بأكمله ليست بغائبة عن هذا المقطع الذي يتميز بيناه الأولان في اختصاصهما بالتجربة الذاتية عن البيت الأخير الذي يختص بالتجربة الإنسانية العامة، وفي كون الأولين تفسيريين بينما يأتي الأخير تقريرياً.

إن التفسير الخاص بالوضع الشخصي لصيق بتجربة الصيد كما انتهى التعبير عنها في المقطع الأول إلى الإيحاء بما يتخطى البعد المعيشي فيها، بما يتضمنه ذلك من توضيح لأبعاد الفروسية والغرام كما ذكرنا. ميزة هذا التفسير أنه يخرج بهذا التضمين إلى العلن، ويخرج معه بالتعبير بأكمله إلى الإطار الذي يجدر وضعه فيه. فهو يحدد غاية لمسعاه في الحياة تتجاوز كفاف العيش الذي لم يكن ليطلب منه كبير جهد، وتتمثل في بلوغ المجد الأصيل والعظيم.

بناء لذلك يتخذ نيل الممتنع والصعب معناه الحقيقي، بقدر ما يعرف كل من الغرام والفروسية مغزاهما البعيد. وإذا كانت صورة العقاب المثلثة لفرسه ولفعله حاضرة للتدليل على ذلك، فإن الإغارات الحربية تصبح أكثر تمثيلاً لهذا المسلك العسير في سبيل المجد والعظمة. ولم يكن تجنب العذراوات في وجه من وجوهه إلا لسهولة نيلهن، وإنما خاصة لأن النيل لا يورث صاحبه مجداً، عكس ما هو وضع سلمى المحصنة والجميلة والثرية.

كأن الغاية تعين الوسيلة هنا، بحيث تبدو الأخيرة بسيطة هينة بقدر ما تكون الأولى قربية دائية، والعكس صحيح، وهو ما لم يتوقف النص منذ بدء رده على بسباسة خاصة (في البيت التاسع) عن التشديد عليه. إن هذا الإصرار على بلوغ الصعب والعسير، وتجنب الهين واليسير، يدل على همة عالية تصبو إلى العز والرفعة، ولا ترضى ببلغة العيش.

في ذلك انتصار للبعد الحضاري على البعد الطبيعي، انتصار لم يكف النص كذلك عن تأكيده منذ بدايته حتى نهايته. وهو هنا يستعيده على تفاؤل بين، يسره التزامه هذا الخط المؤدي إليه، كما تدل على ذلك مآثره العظيمة ومزياه الفريدة.

لكن البيت الأخير يأتي بموقف يبدو في ظاهره مناقضاً، أو على الأقل مفارقاً لما انتهى إليه التعبير في البيتين السابقين، إنما لا يلبث أن يتبدى عن توافق رهيف. ذلك أنه يعلن وضعاً مأزقياً، كي لا يقال مأساوياً، يتمثل في إصرار الإنسان ما عاش على بذل الجهد والسعي لبلوغ أماله وأوطاره، وهو العاجز عن الوصول إليها، أو على الأقل اكتناه أبعادها. على هذا النحو تصبح مشاريع الإنسان رهاناً عثياً على مجهول يستنزفه دون جدوى، ويلف حياته بأس وتشاؤم مطبقان. إلا أن هذا الإصرار الإنساني، رغم عثيته الظاهرة، لا يمنع من تصور إنجازات عظيمة تتحقق على يديه، ولو لم يكن يتوقعها أو يدرك أبعادها. هذا بالتحديد ما قد يصل إليه الشاعر، بحيث تخلص المفارقة بين التشاؤم واليأس من جهة والتفاؤل والأمل من جهة ثانية إلى تصور يقوم بها معاً، ولا ينفي أحدهما الآخر. أو أن عظمة الإنسان مهما كانت متفردة لا يمكنها أن تلغي هذه الحقيقة الكلية للوجود، كما أن هذه الحقيقة بالذات لا تلغي المآثر والإنجازات الاستثنائية التي قد يتمكن الإنسان من تحقيقها.

على أساس هذا الطرح الاستنتاجي الخاص بالذات والوجود يتخطى هذا الجزء أبعاد الصيد والفروسية، أو هو يتخطى الحدود المباشرة التي يرسمها رد البيت التاسع على بسباسة لينقل التعبير إلى أفق وجداني عميق مفعم بالتأمل والتفكير بحياة الإنسان وجدواها وسر الوجود ومجهوله. وإذا كانت طموحات الشاعر المتفائلة مضمخة بأبعاد اليأس الذي يلف الوضع الإنساني بمجمله، فإنها تصل بذلك خاتمة النص بمقدمته، وتنقل أسئلة الحيرة والقلق

والتوتر والكتابة في تلك المقدمة إلى صفاء التمعن والتدبر. إنها، دون أن تنزع عنها مأساويتها، تحاول أن تجد منفذاً لها في الرهان على المطلق والاستثنائي، ليقدم النص من خلال تعبيره عن وضع فردي محدود، وفيها يتعدى الاصطخاب الذي يستثيره، موقفاً من الحياة والموت يجبه تجاورهما في كينونة الوجود التاريخي عبر انهماك في ملذات تطيب كلما كان خطرها عظيماً ومآتها فريداً، لتلبي ما يصبو إليه الشاعر من مجد يجعله معياراً للعيش في هذا الوجود المتنازع بين قوانين الطبيعة ومساعي الحضارة، واسعاً بذلك انتصاره لهذه على تلك بهذا الطابع المتفرد والتميز.

رابعاً: أبعاد جمالية ودلالية:

1 - الخصوصيات الابداعية الفنية:

إن البحث في المرتكزات الجمالية الخاصة بالعملية الإبداعية كما تتجلى في القسم الثاني سيكون تقصيماً لمدى التعادل أو التناسب البنيوي بين المستويات التعبيرية المختلفة المكونة له مع مستواه الدلالي كما جرى استعراض تشكله البنيوي أعلاه.

أ- على المستوى الإيقاعي:

إذ ينطلق القسم الثاني من البيت التاسع الذي يتضمن الرد الإجمالي على سباسة، خاصة في جانبه النسائي، فإنه لا يعين فقط الحد بين الجزء الأول (من البيت التاسع إلى الثاني والثلاثين) والجزء الثاني الذين يبدأ بإيقاع عروضي مطابق له، كما أشرنا أعلاه، بل إنه يعين التشكل الداخلي للجزء الأول أيضاً. في هذا الجزء الأخير يرد مطابق آخر له في البيت الثاني عشر، كأنه بذلك يشير إلى الخطوة التي يحتلها الجانب النسائي في الرد على ما عدها. ولما كان هذا البيت الأخير (الثاني عشر) يأتي بعد الأول (التاسع) بيتين فإن النظر في البيتين اللذين يليانه يظهر أن الأخير منها (الرابع عشر) مطابق لمتطابقين سبق ورودهما في القسم الأول (الخامس والسادس). لكن الملاحظ أيضاً أن الأخير في اللاحقين على التاسع هو المطابق الوحيد للبيت الثاني والثلاثين الذي ينهي هذا الجزء بأكمله. هكذا تتمتع هذه الأبيات الستة (من التاسع إلى الرابع عشر) بتوازن إيقاعي متماسك قوامه هذا التثليث الذي يسم كلاً من مجموعتها.

إن الأبيات الستة اللاحقة والتي تنتهي عند البيت العشرين المطابق للبيت اللولبي في النص (الثامن) لا يوجد بينها أي بيت مطابق لآخر فيها أو في الأبيات السابقة عليها في هذا القسم. إلا أن أحدهما (التاسع عشر) يأتي مطابقاً لتطابق واردة في القسم الأول (بين الثالث والسابع) كما يأتي مطابقاً لبيت لاحق عليه (الثاني والعشرين). والملاحظ أنه قائم مثل مثل

هذا الأخير في وسط مجموعة من الأبيات المثلثة التي أطلقها مطلع إيقاع القسم . مما يتيح تمييز تلك الأبيات الثلاثة التي يرد فيها (من الثامن عشر إلى العشرين) عن تلك السابقة عليها (من الخامس عشر إلى السابع عشر) ، وإلحاقها بتلك التي تقيم معها عبر التطابق المذكور توازناً إيقاعياً (من الواحد والعشرين حتى الثالث والعشرين) . وهذا التمييز بالذات هو الذي يفرق دلاليًا بين المقطع الخاص بتقديم المرأة وذلك الذي هو مغامرة غرامية معها . كما أن تمييز البيت التاسع عن بقية أبيات المقطع الأول المذكور يتناسب مع التوزيع الدلالي الثلاثي الملاحظ آنفًا .

بيد أن المجموعة الأخيرة من الأبيات لا تتصل عبر التطابق بتلك السابقة عليها فقط ، بل إنها تقيم مع تلك التي تليها (من البيت الرابع والعشرين إلى السادس والعشرين) صلة إيقاعية أمتن كما يدل على ذلك التطابق بين البيت الأول في كل منها والذي يجد في تكراره في البيت الثاني من المجموعة الأخيرة تعزيزاً للتلاحم الإيقاعي بين المجموعتين يبدو متوافقاً مع الوضع الدلالي الخاص باللقاء بالمرأة . وبما أن البيت الثالث في المجموعة الأولى منهما (الثالث والعشرين) الذي يتطابق مع أبيات سابقة عليه (الرابع عشر والخامس والسادس) يتطابق أيضاً مع بيت لاحق قائم في هذا الجزء (الثامن والعشرين) فإنه يقيم لحمه بين الوحدات الإيقاعية التي تنتمي إليها هذه الأبيات جميعاً ، والتي تبدو متفقة مع وضعها الدلالي الخاص بالتعرض لسلمى ، بحيث أنها لا تتجاوز هذا المجال الدلالي فتبقى مقتصرة عليه . ويرد البيت الأخير (الثامن والعشرون) وسط بيتين متطابقين (السابع والعشرين والتاسع والعشرين) ليتجانس هذا الوضع الإيقاعي مع وضع دلالي خاص بالزوج الذي يتصل مباشرة بوضع المرأة المذكورة . تبقى الأبيات الثلاثة الأخيرة (من الثلاثين إلى الثاني والثلاثين) لا تعرف ، باستثناء ما أشرنا إليه من تطابق بين الأخير منها والحادي عشر، تطابقاً مع أي بيت في هذا القسم أو ما قبله . وإذا كان البيت الثاني منها يعرف تطابقاً مع بيت آخر بعيد (الواحد والخمسين) فإن الأول يتميز بتفرده الإيقاعي المثير . ذلك ليس بسبب توزيع وحداته العروضية فقط ، بل لأنه يتفرد في عدد الزخافات التي يضمها ولأنه يحتوي العدد الأكبر منها (ستة) أيضاً . ربما كان لوضعه هذا أن يقربه من وضع البيتين المتطابقين السابقين عليه (السابع والعشرين والتاسع والعشرين) من حيث أنها الأدنى إليه عدداً ، وأنها يجدان توزيع وحدائهما العروضية فيه . فيتمثل على المستوى الإيقاعي ذلك التوزيع الذي عرفه المقطع دلاليًا في تعبيره عن مغامرة الشاعر الليلية : يرتبط التوجه إلى المرأة باللقاء بها (كما هو حال الأبيات من الثامن عشر إلى العشرين مع تلك التي من البيت الواحد والعشرين إلى الثالث والعشرين) ولهذا اللقاء خصوصيته الحميمة (كما في العلاقة بين الأبيات من الواحد والعشرين إلى الثالث

والعشرين مع تلك التي تمتد من الرابع والعشرين إلى السادس والعشرين) المقابلة للعلاقة مع الزوج (كما علاقة الأبيات من السابع والعشرين إلى التاسع والعشرين مع تلك التي من الثلاثين إلى الثاني والثلاثين) حيث يرتج الإيقاع التعبير الخاص بالعلاقة مع سلمى .

إلا أن التعبير عن هذه العلاقة غير منقطع عن تلك العلاقة الخاصة بالعداري، باعتبار ما تشترك فيه العلاقتان من بعد نسائي . ربما كان هذا الاشتراك في أساس تكوين هذا التطابق الخاص هنا والذي لا يقتصر على استعادة إيقاع البيت التاسع في مطلع الجزء الثاني (البيت الثالث والثلاثين) وإنما يشتمل على تكوين هذا البيت الخاص بالمطلع مع سابقه (الثاني والثلاثين) وحدة مطابقة لثنائي إيقاعي آخر في المقطع الأول من الجزء الأول (في البيتين الحادي عشر والثاني عشر). وإذا كان إيقاع البيت السابع والثلاثين علامة مميزة في الجزء الثاني متوسطه، فإنها لا تعين المدى الذي ينتهي إليه التعبير عن العلاقة مع النساء وحسب، كما ذكرنا آنفاً، وإنما تقيم توازناً إيقاعياً في هذا الجزء عبر التقابل الإيقاعي الذي يتيحه بين الأبيات السابقة (من الثالث والثلاثين إلى السادس والثلاثين) وتلك اللاحقة (من البيت الثامن والثلاثين إلى الواحد والأربعين) عليه . ولما كانت الأبيات الأربعة الأولى تتميز بافتقار أي تطابق بينها، فقد يتناسب ذلك مع الوضع الدلالي للمقطع الخاص بالابتعاد عن العداري، في الحين الذي يقيم بعضها تطابقاً مع الجزء الأول دون سواه، تأكيداً على ارتباط هذا المقطع الخاص بالعداري بالعلاقة مع سلمى في عملية الرد التي يؤديها التعبير. فإلى جانب البيت الأول (الثالث والثلاثين) الذي يؤكد عبر تطابقه مع البيت التاسع والثاني عشر من ناحية والبيت الخامس والأربعين من ناحية ثانية غلبة الانتهاء إلى هذا الوضع النسائي، والبيت الثاني (الرابع والثلاثين) المتفرد في النص، يقيم البيتان الأخيران (الخامس والثلاثون والسادس والثلاثون) علاقة تطابق مع البيتين السادس عشر والثامن عشر تبعاً تقتصر عليهما،⁽³⁴⁾ في حين

(34) من الملاحظ أن إيقاع البيت الثامن عشر الذي يتكرر في البيت السادس والثلاثين يأتي في موقعين متوازنين من نظم القصيدة ليشير على الأرجح إلى نمط من الحركة التي يدل عليها التعبير تتميز في كل من المجالات الثلاثة التي يعينها الإيقاع المذكور، بحيث تبدو الأبيات السابقة عليه متعلقة بالحركة شبه المعدومة، أو الحركة الداخلية التي لا تتجاوز مدى الإقامة الداخلي أو الخارجي؛ بينما تبدأ منذ البيت الثامن عشر حركة واضحة البعد والفاعلية تتميز بالانتقال من مجال مكاني إلى آخر، ويكون الهدف الذي تقصده ثابتاً، دون أن يغيّب عن الأبيات التي تشغلها (حتى البيت السادس والثلاثين) الحركة الداخلية السابقة؛ في حين تشهد الأبيات الأخيرة والتالية على البيت السادس والثلاثين حركة متنامية الزخم والتعقيد تتميز، بالإضافة إلى الطابع الداخلي والانتقال من مجال مكاني إلى آخر، بتعدد الأهداف وعدم ثباتها، كما بالنصريح بوسائل الانتقال، وخاصة بالغايات المرجوة منه، بما يتفق مع التطور الدلالي في النص وخصوصيات أجزائه ومقاطعته.

يأتي المقطع الثاني أكثر توازناً وتماسكاً عبر التطابق القائم داخله بين البيت الثامن والثلاثين والأربعين. وإذا كان هذا التطابق يستعيد ذلك الملاحظ آنفاً في الجزء الأول (بين الأبيات الواحد والشعرين والرابع والعشرين والخامس والعشرين) فإن البيت التاسع والثلاثين يقيم علاقة تطابق مع بيت لاحق في الجزء الثالث تقتصر عليه، في حين ينتهي المقطع بإيقاع عروضي هو، في تطابقه مع بيت سابق في الجزء الأول (البيت الثالث عشر) وبيت لاحق في الجزء الثالث (الرابع والخمسين) يؤكد الطابع الانتقالي للقسم بأكمله، وخاصة لهذا المقطع الأخير الذي يرد البيت المذكور في آخره، كما يوحى بصلة متميزة بالجزء الثالث نظراً لتنازل موقع كل من البيتين مع الآخر.

بقي أن نلاحظ أن الصلة بين الجزء الثاني بأكمله والجزء الأول لا تقتصر على تلك المتطابقات المفردة بل إنها تعرف أيضاً تطابقاً مزدوجاً على غرار ذلك الذي لاحظناه بصدد الحد الإيقاعي في نهاية الجزء الأول وبداية الجزء الثاني (في الأبيات الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين مع الحادي عشر والثاني عشر) وذلك عبر البيتين السابع والثلاثين والثامن والثلاثين مع البيتين العشرين والواحد والعشرين، كأنه يشير عبر ذلك إلى التنازل القائم في العلاقة بسلمى (والغرام) مع الفرس (والقروسية) خلافاً لما يقوم بينها وبين المقطع الأول في هذا الجزء، والخاص بالعداري.

ربما كان مجيء البيتين المتطابقين في الجزء الثالث (الثاني والأربعين والرابع والخمسين) مع بيتي المقطع الثاني في الجزء الثاني (التاسع والثلاثين والواحد والأربعين) في أوله وفي آخره تبعاً، دلالة إضافية على الالتحام القوي بين الجزء والمقطع المذكورين.

الملاحظ أن التطابق الداخلي ضعيف في الجزء الثالث، يقتصر على البيتين التاسع والأربعين والثاني والخمسين اللذين يشكلان علامتين فارتقتين فيه تضافان إلى الأبيات المتطابقة مع تلك التي تقوم خارجه لترسم جميعاً تشكله الإيقاعي الخاص. بين هذه الأخيرة يبرز البيت الخامس والأربعون خاصة الذي أشرنا إلى خصوصيته، فيتكون لدينا بناء لذلك مجموعات من الأبيات تحد بدايتها الأبيات التي أتينا على ذكرها على النحو التالي:

- المجموعة الأولى (من البيت الثاني والأربعين إلى الرابع والأربعين) يبدأها أول بيت في الجزء الثالث (مطابق للتاسع والثلاثين كما ذكر) وينتهيها الرابع والأربعون المطابق للبيت الثاني؛ وقد يكون تطابقهما إيماء بالدور الذي يؤديه هذا الجزء في الإجابة الضمنية على أسئلة المطلع. بين البيتين المذكورين بيت متفرد في النص (الثالث والأربعون).
- المجموعة الثانية (من البيت الخامس والأربعين إلى الثامن والأربعين) أولها ذلك الذي

يستعيد إيقاع البيت التاسع مطلع القسم الثاني بأكمله والجزء الأول فيه، كما مطلع الجزء الثاني، كأنه هنا يشير إلى التشكل التضميني للرد الذي يأتي به هذا الجزء على الاتهام الذي يكذبه البيت التاسع. وآخرها (الثامن والأربعون) يتطابق مع البيت الخامس عشر، كأنه يقيم تماثلاً بين العملية الجنسية وعملية الصيد، ولا تحول الصورة التمثيلية في هذا الأخير، ولا التماس المعنى في الأول دون ملاحظة تقابل المعنيين، والإشارة إلى مثنى فيها. بين البيتين المذكورين بيتان متفردان (السادس والأربعون والسابع والأربعون).

- المجموعة الثالثة يعلنها هذا البيت (التاسع والأربعون) المتفرد في تطابقه مع آخر في هذا الجزء (مع الثاني والخمسين) وهما الوحيدان اللذان يعرفان هذا العدد الأدنى من الزحافات (زحاف واحد) بين الأبيات المتطابقة، لينهض على أساسهما توازن إيقاعي يلي كلاً منهما فيه بيتان لاحقان، لنعود فنلتقي هذا التركيب الثلاثي من جديد. أما البيتان اللاحقان في هذه المجموعة (الخمسون والواحد والخمسون) فإتباعهما يتطابقان مع أبيات سابقة، الأول مع السابع والعشرين والتاسع والعشرين في الجزء الأول حيث يتم التعريض بزواج سلمى، كأن الفروسية هنا كما تظهر عبر انجازات فرس الشاعر هي الضد المقابل لهذا الزوج... والثاني مع الواحد والثلاثين، كأن الشهادة الحية في كليهما لسلمى على زوجها، ولقلوب الطير على صيد العقاب، والفرس والشاعر... تتيح هذا التقابل.
- أما المجموعة الرابعة فتعرف بالإضافة إلى بيتها الأول (الثاني والخمسين) المطابق للتاسع والأربعين بيتاً أوسط متفرداً يليه بيت أخير وختامي مطابق لما انتهى إليه الجزء الثاني والمقطع الثاني من ناحية، ولما ورد في الجزء الأول (البيت الثالث عشر) من ناحية ثانية. كأنه جمع لها وخلصاً للتجربة الخاصة التي يرتبط بها كل منها.

يجد ذلك كله تأكيداً في الدور الذي تؤديه القافية عبر مطابقتها. فمن الواضح أن البيت الأول في المجموعة الأولى يعتمد اللفظ نفسه الذي يعتمد البيت الأول في المجموعة الثانية (خال)، وأن اللفظ الذي تنتهي به قافية هذه المجموعة الأخيرة هو نفسه الذي تنتهي به قافية المجموعة الثالثة (بالي)⁽³⁵⁾ وهو ما يميز كل مجموعة عن أخرى في هذا الجزء، كما يميز المتوسطة منها في هذه العلاقة المزدوجة التي تقيمها مع ما قبلها من ناحية وما بعدها من ناحية ثانية؛ فتلتحم هذه المجموعات في مقطع متميز عما يليها (مقطع المجموعة الرابعة) وثيق الصلة به في آن.

(35) كذا يجدر كتابة هذا اللفظ في البيت الثامن والأربعين، كما يجدر كتابة «أحوالي» في نهاية البيت الواحد والعشرين، وعلى هذا النحو يرد اللفظان في كتاب حسن السندوي شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراساة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام ويليه أخبار النوايع وأخبارهم في الجاهلية وصدر الإسلام... ذكر سابقاً، ص 161 و 166.

إذا كان هذا التوزيع يتيح التعرف بسهولة على مقطعي هذا الجزء من انطلاق الشاعر للصيد (المجموعة الأولى) إلى ملاحقة البقر الوحشي (المجموعة الثانية) إلى براعة فرسه (وبراعته) في القنص (المجموعة الثالثة) في الأول، ثم الخلوص من ذلك إلى التأمل (المجموعة الرابعة) في الثاني، فإن الإيقاع يشير إلى علاقة خاصة و متميزة بين هذا التأمل وتلك البراعة، وأسماً إياها بعلامات إضافية من التشديد والاهتمام. كما أن الصلات الضمنية بين العناصر المكونة للمجموعات بغيرها من مجموعات في مقاطع وأجزاء أخرى تؤكد الدور الاستنتاجي والتعميمي الخاص بهذا الجزء الأخير من النص.

ربما كان في تطابق القوافي الذي جئنا على ذكره هنا ما يدعم هذا الدور، إذ أن اللفظين المشار إليهما بهذا الصدد (خال وبالي) هما اللفظان المعتمدان في البيت الأول للقصيدة قافية وتصريعاً، وقد سبق ولاحظنا العلاقة بينهما من جهة وبين القافية واسم المكان الوارد في البيت الرابع من جهة ثانية. ونضيف هنا أن هذا اللفظ (الخالي) هو أيضاً ذاك الذي يرد قافية في البيت الأول من القسم الثاني (التاسع) الذي يتطابق إيقاعه تحديداً مع البيت الخامس والأربعين حيث يرد في الجزء الثالث. كما أن لفظ القافية في البيت اللولبي (الثامن) يتكرر بدوره في البيت الثالث والخمسين الأوسط من المقطع الأخير. كأن في هذه الشبكة من العلاقات الإيقاعية - اللفظية إيماء بالتحول الذي يعرفه النص بين مطلعته ونهايته، والتبدل الذي يطرأ على تطوره الدلالي حتى يستبدل الماضي المنقضي بالحاضر المستمر والمادي بالمعنوي والبيت اللولبي الاتهامي الماضي القريب ببيت لولبي فخري حاضر ومستقبل بعيد.

في ذلك كله، مضافاً إلى ما سبقت الإشارة إليه بصدد القسم الأول، والتشكل البنوي العام للنص، دليل على التلازم الكبير بين المستوى الإيقاعي والدلالي على المستوى التفصيلي لبنية النص أيضاً. ورغم ما بدا في بعض الأحيان، كما هو الحال بصدد الجزء الأول في تقديم المرأة كما في نهاية التعرض لزوجها، أو بصدد تناول الموقف من العذارى، من افتقار للتوازن الداخلي وتبعثر إيقاعي، فإن ذلك لا يشكل خللاً كبيراً في المنحى العام للإيقاع وتناسبه مع الوضع الدلالي. وهو قد لا يكون بعيداً عن الاختلال الذي تحدثه المرأة لدى الرجل، أو الاستنكار الشديد لعدم اتزان موقف الزوج منه، أو الإيماء بالمفارقة القائمة في الموقف من العذارى الجميلات؛ بحيث يتيح للنص من خلال هذا التناسب الإيقاعي - الدلالي حداً عالياً من الجمالية الشعرية.

ب - على المستوى النحوي (واللفظي):

قد يكون في توزيع الضمائر في هذا القسم ما يدل أكثر من سواه على تلازم بنوي بين

المستوى النحوي والمستويين الدلالي والإيقاعي، لذلك نفصل القول فيه دون إهمال الإشارة إلى بعض الظواهر الأخرى المتعلقة بالمستوى المذكور.

من الواضح أن البيت التاسع يفتح بضمير جديد لم يكن قد ظهر قبله (ضمير المخاطب المؤنث) كما يتضمن ضمير المتكلم الذي يتولاه الشاعر مباشرة - ليس في الأسلوب غير المباشر الذي ينقل فيه قول بسباسة كما هو الحال في البيت الثامن - لأول مرة كذلك، ليتفق هذا التحول مع التحول الدلالي إلى الرد الذي يسم القسم الثاني بأكمله، ومع الوضع الدلالي الخاص بالبيت المذكور في هذا القسم كما مر معنا.

إن أول ضمير يأتي في البيت العاشر يستعيد ما تضمنه البيت التاسع (ضمير المتكلم) ليعين بدءاً منه هو الوجهة التي يمضي فيها التحول المذكور. فإذا تبعنا الضمائر الأولى التي ترد في الأبيات اللاحقة فإننا نلاحظ أن ضمير المتكلم يغيب فيها ولا يعود إلى الظهور إلا في البيت الثامن عشر، مطابقاً لذلك الذي عرفه البيت العاشر (تاء الضمير المتصل). في هذه المواقع تحديداً تتم الانعطافات الدلالية والإيقاعية التي لاحظناها أعلاه الخاصة بالجزء الأول من القسم الثاني. وإذا كانت الضمائر الأولى حتى نهاية هذا القسم لا تخرج عما سبق وروده في القسم الأول، وما أعلنه البيت التاسع، فإن ذلك يدل على إحكام في التأليف يناسب بين مستويات التعبير المختلفة. إلا أن خصوصية ضمير المخاطب المؤنث المفرد الذي يفتح الجزء الأول من القسم الثاني تجعلنا نتوقف عند وروده في موقعين لاحقين غير البيت التاسع. الأول في البيت الرابع عشر والثاني في البيت الثاني والعشرين. وهما يتميزان أولاً في اجتماعهما مع ضمير المتكلم الخاص بالشاعر الذي يتولاه نفسه والذي يرد في قافية كل من هذين البيتين المذكورين دون سائر أبيات هذا الجزء. ميزة الأول في السياق الذي يرد فيه أن دلالاته لا تقتصر على المخاطب وحسب، بل إنه يتسع للغائب الذي يماثل به أيضاً، وهذا ما يجعل الصفات الواردة إثره تتعلق دلاليًا بهما معاً. وهو بذلك يتميز عن الأول (في البيت التاسع) ليتلاءم مع الانتقال الدلالي من التكذيب في البيت الأول (التاسع) إلى مقطع التقديم الإغرائي أو التشجيعي في المقطع اللاحق (من البيت العاشر إلى السابع عشر) ذي الطابع الدلالي المتوسطي. كما أن هذه الثنائية التي يشف عنها تتفق مع وضعه الأوسطي في المجموعات الثلاث التي يتألف منها هذا المقطع، كما مع وضعه الأوسطي في التوزع الإيقاعي العام (بين البيت الثامن والبيت العشرين) في الوقت الذي تتفق فيه مع وضعه الأوسطي بين ضميري المتكلم في بداية كل بيت (العاشر والثامن عشر) ومع حضور هذا الضمير في قافية بيته.

أما الثاني فيتميز بدلالاته على مدلول (سلمي) مختلف عن المخاطب الأول (بسباسة)، كأنه يعبر عن التطور الذي يعرفه التعبير في هذا الجزء من التكذيب إلى الإغراء فالغراميات

الخاصة بسلمى دون سواها. يتأكد ذلك في مجيئه وسط تلك المجموعة الأولى الخاصة بالعلاقة بسلمى (في الأبيات الممتدة من الثامن عشر إلى السادس والعشرين) في مقطع المغامرة الليلية (في البيت الثاني والعشرين). وإذ يقتصر ورود هذا الضمير على هذه الحالات الثلاث في النص بأكمله فإنه لا يؤكد في المدى النظمي الذي يشتمله (من البيت التاسع إلى السادس والعشرين) الرد الغرامي البحت (الخاص بالمرأة فقط) عبر تطوره وتناميه وحسب، ولا التناقض الثنائي بين امرأتين وعلاقتين فقط، وإنما يؤكد كذلك في التوزع الثلاثي الذي تعرفه هذه الثنائية ما يتميز به هذا القسم (والجزء) الذي يرد فيه ونية النص العامة أيضاً.

يفترض التعرض لهذا الضمير التوقف عند ضمير آخر محاذ له هو ضمير المخاطب المذكور المفرد الذي سبق وروده في القسم الأول، إلا أنه تميز هناك، كما أشرنا، بالتثاقل الذي يقيمه بين الطلل والذات، يتولاه الشاعر نفسه، ويمجيه محذوفاً دائماً؛ بينما نجده هنا (البيت 21) متولى من قبل المرأة ويقصد بالمخاطب به الشاعر نفسه، ويجيء مثبتاً ومحذوفاً معاً إلى جانب ضمير المتكلم الذي يرد في نهاية القافية، والذي يدلّ هنا، مثله مثل ذلك الذي تنتهي به عروض البيت نفسه، خلافاً لجميع ضمائر المتكلم الأخرى، على المرأة المتكلمة (سلمى).

يتماثل هذا الوضع مع وضع البيت الثاني والعشرين الذي يتولى الشاعر فيه الكلام لمخاطب سلمى بقدر ما يختلف عن وضع البيت الثامن الذي يتولى الشاعر فيه نقل كلام بسباسة في أسلوب غير مباشر، ليتفق استبعاد هذه الأخيرة مع تكذيبها (في البيت التاسع) واستحضار تلك الأولى مع تذكرها واستدعائها (في البيت السابع)، وإنما أيضاً مع العلاقة الوجدانية التي تربط الشاعر بها وإيحاء بالانسجام المتحقق بينهما.⁽³⁶⁾

إن النظر في بقية ضمائر هذا الجزء الأول يبدي عن بروز ضميرين جديدين فيه يقتصران عليه دون سائر أجزاء النص الأخرى قبله (في القسم الأول) وبعده (في القسم الثاني). الأول خاص بالثنائي المذكور في البيت الخامس عشر، والثاني بجمع المذكر الغائب في البيتين الثاني والعشرين والثالث والعشرين. وهما مجاوران لضمير المخاطب في الحالين. يبدو الأول منها متفقاً مع الثنائية التي تدل عليها المائلة في تعبير هذا البيت، وخاصة مع الدلالة المميزة لها في صيغة اللعب التي تلحق بها في البيت نفسه، ليتجاوب اللعب الذي يأخذ به

(36) من الجدير بالتسجيل أن النص يقتصر في الإشارة إلى بسباسة على صيغة ضمير واحدة (المخاطب المفرد المؤنث) تزد مرتين (في البيتين الثامن والرابع عشر) في حين تعرف سلمى، بالإضافة إلى هذه الصيغة المذكورة (في البيت الثاني والعشرين) صيغة الغائب المفرد المؤنث التي نعم النص بصورة طاغية، وصيغة المتكلم المفرد الواردة هنا، والتي يعتمدها الشاعر دالة عليه بالكثافة نفسها لتلك التي تعرفها صيغة الغائب الأنفة الذكر، تأكيداً لتمايز واختلاف المرأتين وتجانس وانسجام سلمى والشاعر. هذا الانسجام الذي يعبر عنه ضمير جمع المتكلم الدال على الثنائي (سلمى والشاعر) لاحقاً.

هذا المثنى مع لعب «المرأتين». بينما يبدو الثاني يتفق في تكراره في سياق التعبير مع تكرار ضمير المتكلم لسلمى في البيت الواحد والعشرين ومع ثنائية المدلول (السهار والناس) التي تفصل بين ضمير المخاطب (الشاعر) والمتكلم (سلمى) في هذا البيت. كأنه في ذلك يختصرها ويعيها في البيتين التاليين ليتيح للتقارب أن يتم بين ضمير المتكلم (الشاعر) والمخاطب (سلمى)، وليمهد لذلك اللقاء الذي يعبر عنه ضمير المتكلم الجمع (في البيتين الرابع والعشرين والخامس والعشرين). هذا الضمير الذي سبق وروده في القسم الأول (في البيت السادس) يأتي هنا صريح الدلالة على المثنى (الشاعر والمرأة) متعارضاً متوازياً في سياق التعبير الذي يأتي فيه مع ضمير جمع الغائب المذكور.

إذا كان البيت التاسع يتضمن إلى جانب ضميري المخاطب المفرد والمؤنث والمتكلم المفرد ضمير الغائب المذكور المفرد، فإن هذا الأخير لا يأتي مع ضمير المتكلم دون سواء إلا في البيت السابع والعشرين ليتفق في ذلك مع التحول الدلالي الذي يتم في هذا البيت للتعبير عن العلاقة بين الشاعر وزوج المرأة، وهو لا يغيب عن الأبيات الخمسة التي تليه ليسهما جميعاً (من البيت السابع والعشرين إلى الثاني والثلاثين) بوضع خاص يتطابق مع وضعها الدلالي المبين أعلاه.

من الجدير بالملاحظة أن الأسلوب المباشر المعتمد هنا في نقل بعض من الحوار بين الشاعر والمرأة يأتي أيضاً في البيتين الخاصين به (في الواحد والعشرين والثاني والعشرين) بجمل إنشائية إلى جانب الخبرية، حيث أن حديث المرأة يأتي في جملتين إنشائيتين (في التمني ثم في الاستفهام) بينهما جملة خبرية، بينما يفتتح حديث الشاعر بجملة إنشائية (في القسم) تليها جملة خبرية. في ذلك تدليل ضمني على تعارض وتجانس في آن يؤكدهما تمايز تدل عليه الانشائية الطلبية في الأولى والانشائية غير الطلبية في الأخيرة. يتفق هذا الوضع النحوي الخاص بالبيتين المذكورين مع وضعهما الدلالي والإيقاعي حيث أنها يتضمنان الإيقاع العروضي المكون لتوازن مجموعة الأبيات التي يردان فيها (من البيت الثامن عشر إلى السادس والعشرين).

يشكل تكرار بعض الألفاظ في هذه المجموعة تأكيداً إضافياً على التوزع الدلالي والإيقاعي المشار إليه آنفاً، كما يدل على ذلك تكرار ضمير المؤنث المفرد الغائب في مطلع الأبيات الثلاثة الأولى (من الثامن عشر إلى العشرين) مع إضافة حرف جر في الاثنین الأخيرين منها من ناحية، وتكرار لفظ الله في الأبيات الثلاثة اللاحقة (من الواحد والعشرين إلى الثالث والعشرين) ثم تكرار ضمير جمع المتكلم في مطلع البيتين اللاحقين (الرابع والعشرين والخامس والعشرين) من ناحية ثانية.

إلا أن الأبيات اللاحقة المكونة للمجموعة الأخيرة في هذا الجزء (من البيت السابع والعشرين إلى الثاني والثلاثين) تحظى على هذا الصعيد بدرجة أرقى من التوازن والانسجام، حيث أن هذه الأبيات الستة تعاقب بين الخبر والإنشاء تبعاً، فتأتي الجمل الإنشائية الخاصة بالأبيات الثلاثة بينها (الثامن والعشرين والثلاثين والثلاثين) جميعها إنشائية طلبية (استفهامية) ويأتي تكرار «أيقلتني» في مطلع الاثني الأولين منها ليؤكد الوقع الخاص بها من ناحية وليتجاوب مع الوضع الإيقاعي القائم هنا الذي يعرف تطابقاً عريضاً بين بيتين (27 و 29) يشكلان مرتكز توازنه من ناحية ثانية. كما يأتي تكرار لفظة «ليس» ليؤكد هذا الدور، في توافق مع الوضع الدلالي الخاص بالزوج الذي يقدم بأنه عديم الفحولة، وليحلها في البيت الواحد والثلاثين مخففاً من أثر غياب التطابق المذكور متولياً عملية التعاقب المشار إليها، لتعرف المجموعة وضعاً نحوياً - معجمياً رفيع الانتظام.

أما البيت الثالث والثلاثون فيأتي بضمير جديد في النص هو جمع المؤنث للعاقل (هن)، ليعلن بذلك التحول إلى الجزء الثاني في القسم الثاني، وكأن وروده أيضاً في البيت الواحد والأربعين - إنما لغير العاقل - إشارة إلى المدى الدلالي الذي يرتبط به الجزء الثاني بأكمله (من البيت الثالث والثلاثين إلى الواحد والأربعين) وإلى التحول الذي يتم داخله في آن.

إن هذا الضمير للعاقل يقتصر على الأبيات الثالث والثلاثين والخامس والثلاثين والسادس والثلاثين (البيت الرابع والثلاثون خلو من أي ضمير) ليعين بذلك المقطع الأول الخاص بالعلاقة بالعداري في هذا الجزء (من البيت الثالث والثلاثين إلى السادس والثلاثين)، وهو يأتي في البيت الأول وفي البيت الأخير منه مصحوباً بضمير المتكلم المفرد ليتفق هذا المعطى مع الوضع الدلالي الخاص بالعلاقة المذكورة. لكن ضمير المتكلم يأتي وحده في البيت السابع والثلاثين ثم مصحوباً بضمير جمع المؤنث لغير العاقل (هي) في البيت الثامن والثلاثين، ليميز بذلك البيت السابع والثلاثين عن بقية أبيات هذا الجزء، وليقيم فيه عنصراً مشتركاً مع ما قبله وما بعده في توافق مع التوزيع الدلالي لهذا الجزء.

يأتي تكرار بعض الألفاظ في الجزء المذكور ليدعم هذا التوزيع ويؤكد وجهته. فـ «الهُوى» و «الردى» يتكرران في البيتين الخامس والثلاثين والسادس والثلاثين بما يتفق مع توازن المقطع الأول فيه. وإذا كان حرف الجزم «لم» يتكرر في الأبيات الثلاثة اللاحقة، فإنه لا يفتح إلا البيتين الأخيرين بينها (الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين) ليؤكد توازن المقطع الأخير من الجزء ذاته، في الوقت الذي يشير فيه إلى كون البيت السابع والثلاثين، عدداً عن دوره المتوسطي، يدل على تحول لاحق في التعبير يرتبط به أكثر مما يرتبط بما سبقه.

إن الترابط النحوي للعبارة في الأبيات الثلاثة الأولى من الجزء الثالث (من البيت الثاني والأربعين إلى الرابع والأربعين) تتيح التوقف ليس عند ضمير المتكلم الذي يفتحه وحسب، وإنما أيضاً عند ذلك الضمير الذي يرد لأول مرة في النص وهو ضمير المؤنث المفرد الغائب لغير العاقل والخاص هنا بالفرس (في البيت الرابع والأربعين) والذي يأتي ليميز هذا الجزء عن سواه، بقدر ما يؤمن عبر التماثل الشكلي تواصلًا لا يعدم صلة بالإيجاء الدلالي بالتماثل بين وضع المرأة والفرس، في الوقت الذي يعين فيه المجموعة الأولى من أبيات هذا الجزء كما لاحظنا ذلك على المستويين الدلالي والإيقاعي. بيد أن بروز ضمير المتكلم المفرد المثبت في مطلع البيت الثاني والأربعين يجعله يلعب دوراً رئيساً في تحديد مواقع التوزيع الدلالي الملاحظ آنفاً، إذ أنه يرد أيضاً في مطلع كل من البيتين اللاحقين (الخامس والأربعين والتاسع والأربعين) وليس وروده خارج مطالع الأبيات بدون دلالة هو الآخر. فهو يرد داخل البيت الثاني والخمسين وآخر البيت الثالث والخمسين كأنه يشدد على أهمية موقع المجموعة الأخيرة من الأبيات (من التاسع والأربعين إلى الرابع والخمسين) ودورها الخاص والمتميز في علاقتها بما قبلها ضمن هذا الجزء، والصلة القوية التي توحى بها بين المقطع الأول والمقطع الثاني فيه.

وإذا كان الضمير المذكور قائماً أيضاً في نهاية البيت الثامن والأربعين، فإن ذلك يتجانس مع الوضع الدلالي التوسطي للمجموعة الثانية من الأبيات (من الخامس والأربعين إلى الثامن والأربعين) في المقطع الأول من هذا الجزء. كما أن ورود ضمير المؤنث المفرد الغائب لغير العاقل في البيتين الخمسين والواحد والخمسين يعلن المدى الحيوي للطرد في هذا الجزء، ويؤكد تميز المقطع الأول فيه عن المقطع الثاني (الذي يبدأ من البيت الثاني والخمسين).

على هذا النحو ينهض تجانس قوي بين التوزيع الذي يؤديه هذا الضمير على المستوى النحوي وما سبق ولاحظنا، على المستوى الدلالي والإيقاعي. وإذا كان ضمير جمع المؤنث لغير العاقل الذي يرد في المجموعة الوسطى من المقطع الأول (في البيت السابع والأربعين) متماثلاً إلى حد كبير مع ذلك الذي ينتهي إليه الجزء الثاني، فإنه يؤكد بدوره هذا التواصل الدلالي بين المقطع الثاني من هذا الجزء (الخاص بفرس الغارات) مع المقطع المذكور (الخاص بفرس الصيد).

من الملاحظ في الجزء الثالث أنه يفتتح بالاغتهاء لينطلق في الجري والعدو والملاحقة والاختطاف... لترسم هذه الألفاظ ومثيلاتها مسعى الصيد الذي يشغله، ولتقيم من ثم مماثلة بينه وبين ذلك المسعى من أجل المجد، قبل أن تنتهي إلى طرح ذلك الوضع المازقي

التمثل في عدم بلوغ غايات الأمور وعدم التخلي عن السعي لئليها . كأن الألفاظ تلائم وتكامل بين التجريبتين المحدودة واللاهية من ناحية، والعامه والجدية من ناحية ثانية، مدعمة بذلك التشكل الدلالي والإيقاعي والنحوي للجزء بأكمله، بل إنها أيضاً تتيح التمييز بين المقطع الأول فيه الخاص بالصيد (في الأبيات الممتدة من الثاني والأربعين إلى الواحد والخمسين) والمقطع الثاني الخاص بالجد (في الأبيات من الثاني والخمسين إلى الرابع والخمسين)، حيث يتكرر ذكر «الطير» في البيت الثاني والأربعين والبيت الواحد والخمسين من هذا الجزء ليعين حدود المجال الطردي فيه (المقطع الأول)، بينما يأتي التكرار الوارد في الأبيات الثلاثة الأخيرة معبراً عن تمايزها وعن خصوصية طرحها، إذ يلاحظ أن الألفاظ المتعلقة به تقيم علاقات خاصة فيما بينها لتؤدي أو لتوحي بالوضع الدلالي لها: ترتبط «أسعى» الثانية بالجد، و «الجد» الثاني يرتبط بـ «الإدراك» الذي يعرف في وروده ثانية حال النفي .

لم نحاول، بالطبع، هنا استقصاء جميع الجوانب والعناصر النحوية (والمغوية) المكونة للنص (في قسمه الثاني). لكن اكتفاءنا بأهم وأبرز ما فيها كان كفيلاً بإبراز التشكل العام والتفصيلي الذي يقيمه النص على المستوى النحوي (والمغوي) والذي يتلاءم إلى حد كبير مع المستويين الدلالي والإيقاعي اللذين عالجناهما قبله، ليعين عن هذه الدرجة العالية من الإبداعية التي يتسم بها خاصة وأن الاتساق العالي الإتقان الذي يعرفه في بعض المواضع يأتي ليعوض ما قد تكون عرفته من اضطراب أو تضعف في مستوى آخر، كما هو حال المجموعة الأخيرة من الأبيات الخاصة بالجزء الأول من هذا القسم (الثاني) والمتعلقة بالزوج مثلاً . . .

ج - على المستوى الأسلوبي:

لم يعد تناول المستوى النحوي (والمغوي) إشارات متفرقة إلى أسلوب التعبير، خاصة في ما يخص الأسلوب المباشر وغير المباشر، والتكرار اللفظي . . . وحفلت دراسة بنية النص في تشكلها النظمي بإشارات متعددة إلى صيغ التمثيل والتصوير المختلفة في سياق التعبير . . . كما سبق التطرق إلى الوضع الأسلوبي العام للقسم الثاني في سياق التعرض لبنية النص العامة حيث تم تمييز الأجزاء الثلاثة بتلك الغلبة الواضحة للتشبيه في كل من الجزئين الأول والثالث وشبه غيابه في الجزء الثاني .

في محاولة لاستكمال درس وضع هذا القسم على المستوى الأسلوبي، لا يمكن تلافى كونه يأتي رداً على تهمة البيت الثامن . وربما كان مجيء هذه التهمة بصيغة الكناية هو الذي يجعل هذا القسم موسوماً في تشكله بها ليشير عبر هذا التماثل الشكلي إلى الدحض الذي يسعى القسم المذكور لتأكيدده . ففي كل بيت من الأبيات التي تفتتح الأجزاء الثلاثة الخاصة بهذا

القسم (التاسع والثالث والثلاثين والثاني والأربعين) تأتي الكناية لتسمه بطابعها الأسلوبي المميز. لكنها ليست وحدها فيه غالباً، وبالتالي فإن وجود عناصر أسلوبية أخرى يؤلف مع هذه الكناية السمة الخاص بكل من الأبيات المذكورة التي ليست منقطعة الصلة بالجزء الذي تنتمي إليه.

إن البيت التاسع إذ يشتمل على الكناية يضم إلى جانبها الطباق، معبراً في ذلك ليس عن رد الشاعر على بسباسة وحسب، بل عن تناقضه مع سواءه من الرجال الآخرين أيضاً، موحياً من خلال اجتماعهما بتفرده الاستثنائي كما سيفصل ذلك في الجزء الأول. وإذا كان الطباق هو الميزة الافتتاحية لهذا الجزء فإن تتبعه يبين عن وروده في ثلاثة مواضع: الموضعان الأولان منها خاصان بالبيتين العاشر (يوم وليلة) والثامن عشر (الداني والعالي) وهما البيتان اللذان يعلن كل منهما مقطعاً داخلياً خاصاً بهذا الجزء. كأن في اجتماع الليل والنهار دليلاً على الوضع الأعجوبي المدهش الجمال (الناري) لهذه المرأة كما يقدمها المقطع الأول، وكأن في اجتماع القريب والبعيد إجماع ببلوغ الصعب ونيل الممتنع المتمثل في المغامرة الليلية التي يتناولها المقطع الثاني. الطباقتان هنا معنويان، وهما يتميزان في ذلك عن الطباق الثالث اللفظي الذي يأتي في البيت السابع والعشرين (يقتل ولا يقتل). يتلاءم هذا التمييز مع الموقع الداخلي الخاص بهذا الطباق الأخير ضمن المقطع الثاني، حيث يأتي في أول بيت من المجموعة الأخيرة فيه. ورغم اجتماع الكناية والتشبيه في هذا الجزء على توازن عددي بينها⁽³⁷⁾ فإن ما يميز المقطع الثاني فيه عن الأول، بالإضافة إلى ما ذكر، هو بروز المجاز والاستعارة في المقطع الثاني خلافاً لحال المقطع الأول الذي يغيبان عنه تماماً⁽³⁸⁾. ومن الملاحظ أن التشبيه الذي ينضم إلى الكناية في افتتاح المقطع الأول (في البيت العاشر) هو الذي ينتهي به أيضاً الجزء الأول بأكمله (في البيت الثاني والثلاثين).

أما الجزء الثاني فيغيب عنه الطباق، هذا العنصر الأسلوبي المميز للجزء الأول، غياباً تاماً. وفي حين تغلب عليه الكناية فإنه لا يعدم بعض حالات المجاز والتشبيه. مؤكداً عبر النسبة العددية بين هذه الصيغ الأسلوبية عن تنامي التعبير ودوره التوسطي فيه، بقدر ما يتناسب ورود المجاز فيه⁽³⁹⁾ مع الابتعاد عن الجزء الأول للالتحاق بالثالث؛ وليس تعلق الهوى والموت به إلا إجماع بهذا الوضع بالذات، نظراً لاتصاله بما انتهى إليه الجزء الأول من

(37) هناك تقريباً سبعة تشبيهات مقابل سبع كنايات.

(38) يكاد لا يكون هناك أي مجاز أو استعارة قبل البيت الثامن عشر.

(39) يرد المجاز مرتين في البيتين الخامس والثلاثين والسادس والثلاثين.

ناحية، وبما سيكون مدار الجزء الثالث من ناحية ثانية. أما التشبيه⁽⁴⁰⁾ فيبدو وكأنه إبحاء بما يمثله ركوب الفرس من تماثل بين الغرام من ناحية والصيد من ناحية أخرى. ويشكل ورود المجازي في البيتين الخامس والثلاثين والسادس والثلاثين، والتشبيه في البيت الواحد والأربعين إشارة أسلوبية إلى تميز كل من المقطعين المؤلفين لهذا الجزء (الثاني) حيث يتطابق هذا الظهور مع نهاية كل منهما كما سبق وأوضحنا أعلاه.

في الجزء الثالث تكاد صيغ الكناية والتشبيه والمجاز أن تتساوى فيما بينها عددياً،⁽⁴¹⁾ كأنها تعبر بذلك عن الاكتمال الذي يبلغه التعبير في تناميه وتطوره. والملاحظ هنا خلافاً لما هو الحال في الجزء الأول، وإنما بما يتماثل مع وضعه، أن المجاز هو الذي يرد إلى جانب الكناية في المطلع (في البيت الثاني والأربعين) وهو الذي تحتتم به النهاية (في البيت الرابع والخمسين). كأنه في ذلك يشير إلى وجهة القراءة والدلالة فيه، تمييزاً لها عن الأولى. فإذا كانت هذه الأولى الخاصة بالجزء الأول يمكن لها أن تكون قراءة عبر التماثل بين امرأة وأخرى (سلمى وسباسة)، فإن الثانية الخاصة بالجزء الثالث ترجح قراءة مجازية لعملية إتقان الفرس للصيد تتضمن إبحاء بإبداع المرأة في الغرام، بقدر ما تتضمن من إبحاء بإبداع القيادة من قبل الرجل في الحالين، إبداعاً يجعله يطمح في بلوغ غاياته البعيدة. كما يتميز هذا الجزء بتشبيحاته عن تلك التي عرفت قبله. إنه يتجاوز التركيب المعقد الذي عرفه الجزء الأول (في البيتين الثاني عشر والثالث عشر) إلى مستوى أكثر تعقيداً حيث يتم التضمين في الصورة نفسها (في الأبيات من التاسع والأربعين إلى الواحد والخمسين)، فيدخل التشبيه عنصراً مكوناً من تشبيه آخر يتضمنه في صورة تمثيلية. ويأتي هذا كله في أبيات ثلاثة هي تلك التي تؤلف مجموعة تقييم توازناً دلاليًا وإيقاعياً مع ما قبلها (في المقطع الأول) وخاصة مع ما بعدها (المقطع الثاني).

في ذلك كله تناسب كبير مع ما لوحظ أعلاه بصدد المستويات الأخرى، وعلامة إبداعية فارقة تميز هذا النص في جماليته كما في دلاليته.

2- الخصوصيات الذاتية والاجتماعية:

أتيح لنا خلال ما سبق أن نتعرض لبعض المظاهر الشخصية والموضوعية التي يجيل هذا النص إليها. وقد ألمعنا مراراً إلى خصوصية المعاناة الذاتية التي يعبر عنها في أصداؤها النفسية المختلفة، وإلى خصوصية المرحلة التاريخية التي يتصل بها خاصة في إشارات المتعددة إلى

(40) يرد التشبيه مرة واحدة في البيت الحادي والأربعين.

(41) يرد كل منها خمس مرات تقريباً في هذا الجزء.

التناقض الحاد بين الطبيعة والثقافة أو الحضارة. إنما بقيت هذه الإلماعات محدودة وجزئية لم تعرف معها الأبعاد الذاتية - النفسية، كما الأبعاد الاجتماعية - التاريخية التي يختزنها النص انتظامها الكلي المتكامل والدقيق، حيث أنها لم تعالج بحد ذاتها ولم توضع بالتالي في إطارها البنيوي وتشكله المميز.

لذلك سيكون تطرقنا إلى هذه الأبعاد وتلك موجزاً وعماماً يكمل من ناحية ما سبق التعرض إليه من جزئيات يجعلها في سياقها البنيوي الذي يوضح دلالاتها الحقيقية، ولا يستغرق من ناحية ثانية في تفاصيل التعبير مكتفياً بتحديد الوجهة العامة لهذه الدلالات التي تجعل من السهل إثر تحديدها التعرف على السمات التفصيلية الخاصة بتشكيلها في سياق النص.

بناء لذلك نطلق من بنية النص ذاتها لنحاول أن نتعرف من خلالها على البنية النفسية والاجتماعية الكامنة فيها وأن نتابع عبر تشكيلها خصوصية الأبعاد الذاتية والموضوعية التي أنتجتها.

- إن بنية النص القائمة على دفع اتهام الشاعر بالكبر والعجز الجنسي بتأكيد فحولته وفروسيته تبين على المستوى النفسي عن دفع لمخاوف تتصل بوضع نفسي أكثر عمقاً وأخطر أثراً. فهذا الاتهام الذي يخلخل الذات ويقرب هواجسها من الموت كما تدل على ذلك المقدمة الطللية، والذي يجعل توازنها الخاص لا يستقيم إلا من خلال إلقاء هواجس الموت وأفعاله على الآخر كما تدل على ذلك الإنجازات الغرامية والبطولية للشاعر، ينم عن خوف عميق من أمر شديد الخطورة على الذات لا تفصح عنه مباشرة، إنما توميء إليه، وخاصة تمضي في دحضه على مدار النص بأكمله منذ البيت الأول حتى البيت الأخير، حاصرة التعبير عنه في بيت واحد فقط (الثامن) تأكيداً لأهميته وخطره. هذا الأمر يرجح أن يكون نوعاً من رهاب الخصي الكامن في اللاوعي والمهدد لوجود صاحبه نفسه. فالرهبة القادمة من الخصي في اللاوعي تماثل بينه وبين الموت. إن قطع القضيب مماثل لقطع العنق. والنشاط الجنسي معادل للنشاط المعيشي والوجودي، أي للحياة نفسها، بقدر ما يرتعن كل طرف منهما بالآخر. ربما لذلك يجمع الاتهام بين الكبر، الموحى بالشيخوخة والمهرم والموت القريب من ناحية، وبين عدم إتيان اللهو، الموحى بالعجز الغرامي والجنسي ومتضمناته الخصوية من ناحية ثانية.

لذلك يصبح التهامي مع الطلل مفهوماً باعتبار هذا الأخير، في كونه خلواً من حضور أصحابه، يعتبر انهياراً نحو الثلاثي والموت، مماثل في ذلك ما يصبح عليه الشاعر في تصوره اللاواعي للذات وقد خصيت. كذلك يبدو رده على الاتهام بتأكيد إغوائه نساء الآخرين دليلاً

قاطعاً على كمون ذلك الرعب عبر مواجهته بهذا الشكل الفحولي الاقتحامي البارز السطوة .
بدليل التهديد بحرمانه من المرأة الكامن في الاتهام يأتي الرد لإثبات ليس احتفاظه بها (منع
عرسه أن يزن بها الحالي) فقط، وإنما لإثبات انتزاعه لنساء الآخرين (إصابته المرأة المتزوجة)
أيضاً.

يتوازى هذا الاستحواذ على النساء مع استحواذ آخر على تلك العدة الجنسية التي
يستلزمها والتي هي موضوع الحرص والفعالية، الدفاع والهجوم ، والتي يأتي التعبير عنها في
ذكره لعدته الحربية، بصورة لا تدع شكاً في الإيحاء بالمقصود منها. إن «المشرفي المضاجع»
واضح الصلة بالعضو الجنسي للذكر، أما «المسنونة الزرق» فليست بعيدة عما تختزنه الحصيتان
من مادة يرميها أو يقذف بها ذلك العضو في نشاطه المعهود.

يقابل هذا الاستحواذ على المرأة وعلى العدة الجنسية انتزاع من الآخر لامرأته ونزع
لعدته في الوقت نفسه، كأن الشاعر يلقي بعبئه النفسي على الآخر ليتخلص على هذا النحو
من قلقه، إذ يتاح له التعبير عنه. فالآخر الذي يسلبه الشاعر زوجته ليس له رمح ليطعن به، في
إيحاء واضح بعجزه الجنسي متمثلاً في فعالية عضوه الجنسي عن ذب الآخرين عن زوجته. بل
إن الشاعر يمضي إلى حد اعتباره أعزل «ليس بذئ سيف وليس بنبال» في إيحاء قوي بوضع
الخصي الذي يجعله فيه، إذ أنه يجعله معدوماً من العضو الجنسي وبالتالي من الرمي الصادر
عنه. هذا الآخر الذي تأتي علامة النفي «ليس» علامة فارقة في وضعه تدل بقوة وتأكيد على
خصيه.

لكن هذا الاستحواذ القائم على الامتلاك - الانتزاع قد يكون دالاً أيضاً على ذلك
الحرمان الأصيل من حنان أم لا يمكن بلوغه، ولا يكف البحث عن تعويض له دون بلوغ
ذلك الاكتفاء المستحيل. إذ لا يكفي امتلاك الزوجة لإرواء ذلك العطش اللاواعي والدفن إلى
دفع الأم المفقود؛ ويصبح كل شيء ثمين وغال موضوع أهمية وتقدير بقدر ما يتماثل مع ذلك
الكنز الضائع. وتكون المرأة المتزوجة الغنية من أكثر العناصر التي يمكنها أن تؤدي هذا الدور
التعويضي، بقدر ما تمثل ذلك الشيء النادر والصعب. ضمن هذا المنظور تصبح تلك
الإشارات المتعددة إلى نورها ونسارها تعبيراً عن ذلك الدفء العاطفي الذي لا يكف الشاعر
عن طلبه، والذي يعرض حياته من أجله للخطر. إذ ليس هو في النهاية إلا ذلك المسافر
الدائم سعياً وراء تلك النار (نار القفال) التي ترده إلى موضع العطف الذي انفصل عنه، والتي
يتحرق للاصطلاء بلهيبها المتأجج.

لذلك يبدو ابتعاده عن العذارى مفهوماً، باعتبار أنهن لا يمثلن ذلك الصعب والنادر

الذي يغويه من ناحية، ولا يمتلك ذلك الثمين والغالي الذي يبحث عنه من ناحية ثانية، ولا تضيئهن تلك النار التي تناديه من ناحية ثالثة.

وإذا كانت الفرس التي يمتطيها ماثلة للمرأة التي يجها، فإن عملية الصيد تبدو أقرب ما تكون إلى العملية الغرامية، إذ أنها لا تحقق له هذه الفرس - المرأة أهدافه - ملذاته وحسب، بل إنها تفضح بصورة قوية البعد اللاواعي الكامن فيها. فهي لا تبدي عن مقدرة وتفوق استثنائيين يؤكدان فروسية - فحولة استثنائية تتغلب على سواها (القرهب) وإنما أيضاً تشير إلى علاقة بينها وبين فارسها ماثلة لتلك التي بين الأم وأولادها، لتطرح عبر ذلك بشكل لا لبس فيه، كما يدل عليه هذا التشبيه المركب - لمزيد من الترمويه كدليل على مزيد من أهمية ما يقال وعلاقته القوية باللاوعي - الذي يجعل الفرس عقاباً تحمل صيدها إلى أطفالها دافقاً يزيد عن حاجتهم. كأنه بذلك يشير إلى ألهم اللاوعي إلى ذلك الحنان الأمومي الذي يجت وراءه دون توقف. وكان هذا السعي المستديم نحو هذا الهدف المستحيل هو ما تعبر عنه الأبيات الأخيرة المتجاذبة بين هذا الإصرار اللازب على البلوغ، وتلك القناعة الثابتة باستحالته.

- لكن تأكيد الفحولة الطاغية يتخذ على المستوى الاجتماعي أبعاداً مختلفة، دون أن يعني ذلك تنافرها مع تلك التي لوحظت على المستوى النفسي، بل يبدو أنها متناسبة معها إلى حد كبير. فالانتماء الذي يشكل لولب النص، إذ يتناول الشاعر في عمره ولوه، ينال بالتحديد من شبابه ومن ذكورته. ويأتي رد الشاعر لبيّن زهو شبابه وذكورته عبر انتزاع نساء الآخرين والبراعة في الصيد. هذه البراعة التي بينا نماثلها مع الممارسة الغرامية، وذلك الانتزاع الذي لاحظنا طريقته الاقتحامية وجو السطوة الملائم له، يشير إلى قيم وعلاقات مسيطرة، وإلى نظام اقتصادي - اجتماعي سائد، تجد جميعها في الفروسية محوراً جامعاً لها.

إن القوة التي ينتزع بها الشاعر المرأة المتزوجة ليست قوة جسدية، وإن لم تكن مستبعدة، وإنما هي خاصة قوة مسلحة، تتمثل بسيفه الملائم له وبنباله، التي تجعل الزوج الأعزل عاجزاً عن مواجهته. هكذا تظهر علاقات القوة والمقدرة القتالية غالباً على علاقات الزواج والسمة أو المرتبة الاجتماعية، إلى حد أن هذه تصبح مرتبة لتلك.

وفي ذلك دلالة على النمط السائد في العلاقات الاجتماعية والذي يشكل أساس نظامها المهيم، وهو نمط الغزو الذي كانت تعرفه القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية آنذاك. لذلك يمثل رد الشاعر بصونه امرأته من الآخرين وانتزاعه لسنائهم تأكيداً على هذه المقدرة الخاصة بالغزو والإغارة والتي كانت تحكم شروط العيش البدوي.

إن معايير القوة والعنف الفروسية التي تحكم العلاقات بين الرجال لتجعل من المجتمع

البدوي مجتمعاً رجولياً أبوياً بامتياز تترأى أيضاً في علاقة الرجل بالمرأة، حيث أن مقدرته الغرامية والجنسية تتلازم مع مقدرته الجسدية ودرسته الفنية، كما يشير إلى ذلك تشبيهه العملية الغرامية بعملية ترويض البعير (الناقة) وتطويعها لمشيته (راكبها). وكان في ذكره العذارى وحدهن في غياب أي رجل يجمهين - بل إن المكان الذي يلتقيهن فيه ينسب إليهن بالذات - ما يبرر انصرافه عنهن، بقدر ما يشكل غياب الرجال غياباً لعملية الصراع والغزو ذاتها ولموضوع الانتخار القائم على الإرغام والإذلال فيها. لكنه انصراف قد يبرره أيضاً اختلاف نمط العلاقات التي كانت تجري بينهن وبين الرجل عن ذلك السائد . . .

لكن علاقات القوة والعنف لا تتمثل فقط في الغزو الذي كان سائداً والذي يذكر صراحة في النص (في البيت الثامن والثلاثين وما يليه . . .) وإنما تتمثل كذلك في الصيد الذي يشكل الوجه الآخر والمكمل لذلك النمط الاقتصادي - الاجتماعي المهيمن. ليس التماثل بين وضع فرس الصيد وامرأة الغرام إلا تأكيداً على هذا الطابع المشترك بينهما والمتمثل في علاقات القوة والفروسية التي تحكمهما معاً. إن المقدرة العالية على الصيد دليل على المقدرة على العيش الرغيد، وليست منفصلة عن المقدرة القتالية، كما أن هذا العيش غير منفصل عن الغزو. ولا يعدم النص الإشارة إلى ارتباطها معاً عبر تحديده لمكان الصيد الذي تتنازع الرماح أو يجذره الفرسان (في البيت الثاني والأربعين) بحيث يأتي ذكره للصيد الكثير فيه دليلاً على هذه المقدرة المزدوجة لديه، وعلى المستوى الراقى من العيش الذي يؤمنه . . .

إن الأبعاد الاجتماعية التي تتبدى في النص إذن أبعاد بدوية بامتياز، وبالتالي فإن الرؤية الحضارية التي يتضمنها والتي تبدو مناقضة للطبيعة وساعية للتحكم بها، تتعامل مع الطرف الإنساني كامتداد لهذه الطبيعة بالذات وعلى الأسس ذاتها من السعي للتحكم والسيطرة.

إنه الوضع الاجتماعي القائم على الصيد والغزو والمفعم بالقيم الرجولية الأبوية، وهو لذلك وضع قلق مضطرب غير مستقر؛ ليس لأن المرأة المحبوبة تغادر وتغيب، بل لأن الفارس أيضاً لا يهدأ ولا يستقر. إنه لا يتصور المرأة إلا منزلاً يجل فيه أو يلجأ إليه في الليل، إنها «نار القفال» التي تدعوه للراحة والمتعة. أما نهاره فلا مجال. فيه هذه المرأة كما يشير إلى ذلك ابتعاده عن العذارى، ذلك أنه يعرفه في الغزو والصيد كما يدل على ذلك بكوره إلى الطرد وغاراته في الضحى .

كان الشاعر يقدم لنا خلال النص وفي ظاهره صورة مفصلة لأوضاع الإتمام والتنقل، الغرام والمغامرات، الغزو. . . والصيد. فهذا الأخير يستغرق ذلك المدى الممتد من الفجر (البيت الثاني والأربعين) إلى الضحى (البيت الخمسين). لكن الضحى أيضاً هو وقت الغزو

والإغارة (البيت التاسع والثلاثون). وفي حين يجعل الليل للغرام (في الأبيات السابع والعاشر والثامن عشر . . .) فإن هذا الأخير قد يمتد إلى النهار (البيت العاشر) الذي يعرف أيضاً سباً الخمرة (البيت الثامن والثلاثون) أو لقاء الحسنات في السدج دون التورط في غرامهن (الثالث والثلاثون . . .).

ومن خلال رد الشاعر وافتخاره بمآثره يبين عن وسائل الفروسية التي يمتلكها: عدته الحربية (سيفه ونباله) وفرسه المدربة القوية . . . أما في مقدّمته على إخضاع الآخرين من إنسان وحيوان لفروسيته ولسطوته، فإنه يبين عن ذلك الجانب الإيجابي الذي يأتيه عبر ذلك: إصلاح جسد المرأة وروحها (البيت الثلاثون) والخير الذي يحمله صيده للمحتاجين (البيت الواحد والخمسون) . . . كأنه يعبر عن كون هذا الامتلاك الفروسي يتيح امتلاكاً آخر، كما يعتبر التوقف عنده تقصيراً في عمل الخير والصلاح. ويكون البحث الحثيث عن امتلاك آخر أمراً منطقيّاً وحتمياً، بقدر ما يشكل النكوص عن ذلك شراً، ليس فقط على الآخرين وإنما على الذات أيضاً.

هكذا يكون هذا البحث المستمر شرط الوجود نفسه. لا يمكن بلوغ الغاية فيه مهما تضاءل المرء في ذلك. ويكون المجد العظيم ذلك المثال المستحيل التحقق والذي لا ينفك الشاعر يجاوله. كأنه من خلال ذلك يثي بمسألة السلطة ومشكلة الملك التي تذكر الأخبار معاناته فيها. وإذا كانت هذه الأخبار قد داخلتها الأساطير كما كان الأمر سائداً في تلك الفترة السابقة على الإسلام، كما في تلك الفترة اللاحقة عليه (حتى انتشار التدوين مثلاً) فيلزم المرء الكثير من الجهل والتعصب وقصر النظر كي لا نقول كفافه، والقليل من الخوف من سلطة مستبدة بطاشة أو من معايير اجتماعية مهيمنة ومتبناة ذاتياً كي لا يلحظ الدور الذي تشغله الأساطير ليس في مرحلة ما قبل الإسلام وحسب، بل وفي تاريخ الدين الإسلامي نفسه، وفي مجمل التاريخ العام حتى عصرنا الراهن أيضاً، مع تنوع في الصيغ واختلاف في أنواع الفعل والتأثير، بحيث يبدو تأريخ هذه الأنواع والصيغ المدخل الأنسب لتأريخ الأحداث والمجتمعات والسير. بانتظار ذلك، كما بانتظار أن يجسم التقدم العلمي إشكالية شعر ما قبل الإسلام ومشكلاته، ليس هناك ما يمنع من تملي جماليات النصوص الإبداعية المنسوبة إلى هذه المرحلة وتقصي أبعادها، بل لعل هذا العمل يساهم في التعجيل بذلك.

قد توميء علاقة النص البحثي بالنص الشعري إلى تماثل، لا تطابق، بينها وبين علاقة هذا الأخير بالنصوص الثقافية الأخرى. فكما أن النص الشعري يقوم على تمثيل ذلك الكلام المترددة أصواته في أطر ثقافية ومعرفية غير محدودة ليصوغ من أصداؤها لديه إبداعيته الخاصة، يتقدم النص البحثي من النصوص الشعرية لينجز من هيولا هذه الإبداعية المهمة واللاواعية المادة الحية والفاعلة والخلقة التي ترهص بها (...).

إن هذا الدرس المنهجي المتعدد للنص الشعري لا يعنيه وحده وإن اختصّ به كما استعرضت ألياته الأساسية. فهو، بقدر ما ينجز من مقاربات معرفية ذات قيمة أو جدوى، يوميء إلى إمكانات درس أخرى، لنصوص أخرى، مختصة بها، أكانت هذه النصوص شعرية أو فنية أو ثقافية أو فكرية. . .

من درس إلى آخر تفتح المنهجية، من نص إلى آخر، أبواب العالم المغلقة، والدنيا نص متعدّد لمن يجيئ القراءة. من الإعلانات وشعارات الحائظ وصور الشهداء والفنانين والسياسيين إلى تخطيط المدن وتنظيم عيشها اليومي وهندسة البناء والطرق والجسور واتجاهات السير. . . ومن مراسيم الزواج والدفن والاستقبال والوداع، إلى استعراضات الجسد والنزي والزينة والحرب والسلام والغرام والولادة والموت. . . سلاسل لا تنتهي من نصوص يجبل بعضها إلى بعض بتعدد في اللغة وبخصوصية في القول.

دار الآداب
مطبعة ٨٠٣٧٨-٨٠٣٧٩
ص ب ١١٢٣ - ١١ بيوت

تصميم الغلاف: فصيح كيسو

